

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

المُقْبِسُ

مِنْ أَنْبَاءِ أَهْلِ الْأَنْدَلُسِ
لِلْإِبْنِ حَيَّانِ الْقُرْطُبِيِّ

حَقَّقَهُ وَقَدَّمَ لَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ
الدكتور محمود على مكي

القاهرة
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ : محمد أبو الفضل إبراهيم

رئيس لجنة احياء التراث الاسلامي

تعدّ تلك الحقبة التي عاشها العرب في الأندلس ، وأظل الإسلام ربوع هذه البلاد ، ونشر فيها أعلامه وبسط سلطانه ، من أعظم الحقب في تاريخ الإسلام وأكملها حضارة ، وأحفلها بصنوف العلوم والفنون والآداب ؛ ازدهر فيها الشعر والنثر ، وتألّق الفن ، وغصّت قرطبة وطليطلة وإشبيلية بالمدارس والمعاهد وخزائن الكتب ، وزخرت هذه البلاد برجالات العلم والفلسفة والغناء ؛ وهرع إليها العلماء من كل حذب وصوب ، يحملون كتبهم وأسفارهم ويحاضرون بمعارفهم وآدابهم ، وألّفت الكتب في التفسير والحديث والتصوف والفلسفة والطب والفلك والرياضة والنبات ، بما أثرت به المكتبة العربية ثراء لا يدانيه ثراء .

إلا أنه بجانب ذلك - وعلى مضيّ الزمن - تعاور على هذه البلاد كثير من الفتن والأحداث والخطوب ؛ وما زال يستفحل أمرها ، ويعظم شرّها وشررها ؛ ويفت في عضدها ؛ حتى انتهى الأمر بانحسار الإسلام عن هذه البلاد وخرست الألسن العربية فيها ؛ وانطفأت مشاعل حضارة دامت عدة قرون ، في مأساة حزينة مؤلمة . وتبع هذه المحنة ضياع كثير من الكتب والأسفار والدواوين ، وفيها أكرم ما نضحت به القرائح ، وأسمى ما أثمرته العقول .

وفي عصرنا الحديث أخذ العرب يتلفتون نحو تراثهم في هذه البلاد ، ويبحثون عما بقى من الكتب في أمكنة وجودها شرقا وغربا ، وكلما عثروا على كتاب أقبلوا على دراسته ، أو تنافسوا في نشره وتحقيقه ؛ اعتزازا بذلك التراث المجيد ، وإحياء لذكرى هذا الفردوس الإسلامي المفقود ، كما كان يسميه بعض الباحثين .

ومن الكتب الأندلسية العتيقة التي امتدت إليها يد الحدثان ؛ كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس
لشيخ مؤرخي الأندلس أبي مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، المعروف بابن حيان
القرطبي ، إلا أن الأقدار شاءت أن تفلت أجزاء منه من الضياع ؛ قطعة منه عشر عليها المستشرق
الفرنسي بروفنسال وقام بنشرها ، وأخرى عشر عليها الراهب الأسباني الأب ملنشور أنطونيا
ونشرها في باريس ، وقطعة ثالثة قام بنشرها الأستاذ عبد الرحمن حجى في بيروت .

وقرأ كثير من العلماء والباحثين هذه الأجزاء المتفرقة ، فوجدوا فيها من صدق الحس
وحسن التعبير وسمو الأسلوب وأمانة المؤرخ ، ماتمناوا معه المزيد من الكشف عن هذا
الكنز الثمين .

وكان من نصيب العالم الفاضل الدكتور محمود على مكى الحصول على قطعة مخطوطة أخرى
ما لم ينشر من قبل ، تنتظم أحداث السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الأوسط
ابن الحكم ومعظم إمارة محمد بن عبد الرحمن ، فقام بتصويرها ثم تحقيقها وتقويم
نصوصها ؛ حتى أمكن أن تبدو في هذه الصورة المشرقة الجميلة ؛ وقدم لها مقدمة مسهبة ،
في التعريف بابن حيان وأسرته وثقافته وآثاره ، ومنزلته بين مؤرخي الإسلام عامة ومؤرخي
الأندلس خاصة ؛ ووشأها بالمعارف الأندلسية النادرة ذات الطابع العلمي الأصيل ؛ ثم قام
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بنشر هذا المخطوط ، مشاركة منه في إحياء تراث الأندلس الخالد .

والدكتور محمود على مكى من أفاضل العلماء الذين عنوا بتاريخ الأندلس وآدابه في العصر
الحديث . وقد تهيأ له بفضل تلك المدة الطويلة التي قضاها في هذه البلاد ، باحثاً ودارساً ،
وواقفاً على آثارها ، متجولاً في شتى جهاتها ، مطلعاً على مكتباتها - ما لم يتهياً لغيره من
العلماء والباحثين . ثم ألف ودرّس وحاضر ؛ وكتب البحوث الجليلة ، ونشر النصوص
النادرة حتى إنه ليعدّ الآن مرجعاً في كل ما يتعلق بالأندلس وتاريخها وآدابه ورجالها .

وهذا القدر الذي بنى عليه التحقيق يقع في ثلاثة أجزاء ؛ نسأل الله أن يوفق لإتمامه
ويعين .

ابن حَيَّان القُرطُبِيّ

٣٧٧-٤٦٩ هـ : ٩٩٧-١٠٧٦ م

بسم الرحمن الرحيم

تمهيد

يتفق الكثيرون من الباحثين على أن أبا مروان حيان بن خلف بن حيان يعد من أعظم مؤرخي الإسلام ، وهو بغير شك أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس ، بل والغرب كله — الإسلامى والمسيحى منه على السواء — طوال العصور الوسطى ، ولانستثنى من هذا الحكم إلا فيلسوف التاريخ أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون الذى يعتبر فى تاريخ الفكر الإنسانى كله ظاهرة فذة غريبة .

ومع ذلك فإن الذى يتأمل ما وصل إلينا من أخباره يجد قليلا لا يتناسب مع هذه المكانة العالية التى اعترف بها لابن حيان أهل عصره ومطالعو كتبه من القدماء والمحدثين . فأصحاب معاجم التراجم من أمثال ابن بشكوال ومن نقل عنه ، كالمعهد بهم لا يكادون يفردون لمن يترجمون له إلا سطوراً تنص على سنة مولده وسنة وفاته وعلى من قرأ عليه من الشيوخ ، ثم من تلمذ عليه وعناوين بعض كتبه ، ولا أكثر من ذلك . صحيح أن هذه الكتب قد حفظت لنا خلال تلك المسادة الجامدة السماء بعض ما هو مفيد ، ولكنها لا تكاد تضيف شيئاً نعرف به المترجم له بوصفه إنساناً اضطرب فى الحياة ، وعرك تصاريدها ، وذاق حلوها ومرها ، وشارك فى نوع من النشاط الفكرى أهله له شخصيته وطبيعته وتكوينه . ومن أسف أن ابن حيان بمفهومه العميق النابض بالإحساس لما تعنيه كتابة التاريخ ، لم يترجم لنفسه كما فعل بعض المؤرخين قبله وبعده ، ولو أنه فعل لقدم لنا صورة حية صادقة لنفسه كما قدمها لمن عرفه واتصل به من شخصيات عصره ، ولكانت تلك وثيقة بالغة القيمة . ومن يدرى ؟ فلعله كتب عن نفسه مثل التفصيل الذى كتب به عن أهل عصره ، ولكن تلك الصفحات ضاعت كما ضاع معظم ما كتبه هذا المؤرخ الفذ .

ولايبقى علينا بعد ذلك إلا أن تجمع من تلك السطور المتناثرة هنا وهناك فى كتب مؤلفين لم يفهموا معنى الكتابة التاريخية كما فهمها ابن حيان لكى نقيم منها بناء ترجمة تقريبية لحياته الحسنة الطويلة التى كادت تقارب قرناً من الزمان :

١ - خلف بن حسين كاتب المنصور والد بن حيان :

من حسن الحظ أن ابن بشكوال أقدم مترجم لابن حيان قد احتفظ لنا بنسبه كاملا ، فقال إنه :
« أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد بن حيان بن وهب بن حيان مولى الأمير
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ؛ من أهل قرطبة ، وأضاف ابن بشكوال
إلى ذلك : « كذا قرأت نسبه وولاءه بخطه » (١) .

وكثيراً ما تفيدنا هذه الأنساب الكاملة بشئ ، إذا تتبعنا ما يرد هنا وهناك في كتب التراجم
من سطر أو سطرين عن أحد أجداد المترجم له ، مما قد يلقي ضوءاً على حياته أو ما يحتمل أن يكون
قد ورثه عن بعض أجداده من صفات . ولكن المؤسف هنا هو أننا لم نجد شيئاً على الإطلاق عن
أحد من جدود ابن حيان المتقدمين . وكل ما يفيدنا به هذا النسب الذي قرأه ابن بشكوال مكتوباً
بخط ابن حيان نفسه هو أن جده الأعلى وهب بن حيان أو حياناً أباه كان مولى للأمير عبد الرحمن بن
معاوية مجدد الدولة المروانية في الأندلس ومؤسس ذلك الملك العتيد الذي أدرك مؤرخنا أوج
عظمته السياسية والعسكرية على عهد العامرين ، ثم رآه وهو يتمزق في أعقاب الفتنة البربرية ويموت
موتاً بطيئاً تحت وطأة الحرب الأهلية العاتية .

ولا يغفل هذا النسب من بعض فائدة ، فنحن نعرف منه أن أسرة ابن حيان قد ارتبطت منذ
قديم بالأسرة المالكة المروانية عن طريق هذا الولاء الذي كان يجمع بين وهب بن حيان والأمير
عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

على أن الأندلس عرفت أنواعاً كثيرة مختلفة من الولاء ، ولانعرف إلى أيها تنتمي هذه العلاقة
بين أجداد ابن حيان والبيت الأموي المالك ، وأغلب الظن أنه كان ولأى اصطناع ، وأن ابن
حيان كان من أسرة إسبانية قديمة من تلك الأسر التي قامت بتأييد الأمير الأموي « صقر قريش »
فاصطنعها هو وأبناؤه من بعد . فابن حيان إذ يؤكد هذا الولاء إنما يفخر به ويعتبره من دلائل
الشرف وكرم الأبوة ، لا كما يمكن أن يسبق إلى الوهم لأول وهلة من مظنة الغضاضة .

(١) ابن بشكوال : كتاب الصلة ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ترجمة رقم ٣٤٥ .

غير أن أسرة ابن حيان لم تكن مع ذلك من نوع تلك البيوتات الكبيرة من بيوت الموالى التى ترددت فيها الخطط والمناصب ، فنحن لانعرف أن أحداً من أجداده قد ولى منصباً كبيراً فى الدولة ، ولهذا فيغلب على ظننا أنهم — على الرغم من ولائهم الأموى — كانوا من طبقة صغار الموظفين ، لاهم إلى غنى ولا هم إلى فقر ، وإنما كانوا أقرب إلى أن يعيشوا ميسورى الحال فى نطاق الطبقة الوسطى من طبقات الشعب الأندلسى .

وأول من نعرف أنه ولى منصباً ذا شأن فى أسرة ابن حيان هو والده أبو القاسم خلف بن حسين بن حيان القرطبي ، فهو أول من نجد له ترجمة خاصة فى بعض كتب الطبقات (١) .

ونعرف مما ذكره ابن الأبار فى المسادين اللتين اختص بهما خلف بن حسين أنه ولد سنة ٣٤٠هـ (٩٥١ — ٩٥٢م) فى قرطبة ودرس بها ، على أن الشيخ الوحيد الذى ينص ابن الأبار على أنه قرأ عليه هو عالم القراءات المشهور أبو الحسن الأنطاكي .

ويستحق هذا العالم منا وقفة متريثة ، إذ تبين لنا أنه قد ترك فى نفس تلميذه والد ابن حيان أثراً عميقاً ، وباشر نفوذاً كبيراً فى تشكيل شخصيته وصقلها حتى أبلغه مرتبة من أعلى مراتب الدولة كما سنرى .

كان أبو الحسن على بن محمد الأنطاكي — كما يقول عنه مترجمه وتلميذه ابن الفرضي (٢) — عالماً بالقراءات القرآنية رأساً فيها وفى علم الحديث ، فضلاً عن بصره بالعربية والحساب والفقه على مذهب الشافعي ، وكان مولده فى سنة ٢٩٩هـ (٩١١ — ٩١٢م) بأنطاكية ، ودخل الأندلس فى سنة ٣٥٢هـ (٩٦٢م) فنزل من الحكم المستنصر بالله ومن الناس منزلة رفيعة ، وكانت وفاته فى سنة ٣٧٧هـ (٩٨٧م) .

وقد اتجه خلف بن حسين منذ شبابه إلى هذه العلوم القرآنية ، فدرسها على الشيخ أبي الحسن

(١) ابن الأبار : كتاب التكلة لكتاب الصلة ، نشر فرانيسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٨٩ ، ترجمة رقم ١٤٩ ، وإعتاب الكتاب ، بتحقيق الدكتور صالح الأشر ، دمشق سنة ١٩٩١ ، ص ١٩٨ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، نشر فرانيسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٠ ، ترجمة رقم ٩٣٢ ، وانظر كذلك المقرئ : نفع العليب ، بتحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة سنة ١٩٤٩ ، ٤ — ١٤٠ .

الأنطاكي ، ويذكر ابن الأبار أنه كان حسن الصوت إلى حد أنه كان من بين من عينهم الشيخ للقراءة يوم زاره الخليفة نفسه الحكم المستنصر بالله . وهذه الإشارة مقتضبة إلى حد يجعلها غامضة بعض الشيء ، فلنأخذ ظروف تلك الزيارة التي قام بها الخليفة نفسه لهذا الشيخ ، غير أنه يبدو لنا أن أبا الحسن الأنطاكي كان يقوم بتدريس العلوم القرآنية في مدرسة خاصة ، وأنه كان قد انتخب عدداً من شباب الطلبة ممن امتازوا بجمال الصوت وحسن الأداء أعدهم نماذج لإتقان القراءة . ولابد أن هذه الزيارة المنوه بها تمت بين سنتي ٣٥٢هـ (٩٦٣م) وهي سنة قدوم الشيخ أبي الحسن إلى الأندلس و٣٦٦هـ (٩٧٦م) سنة وفاة الحكم المستنصر ، أي وهو في سن تراوح بين اثني عشر عاماً وستة وعشرين .

كذلك يستوقف نظرنا ما جاء في ترجمة الأنطاكي من أنه كان بصيراً بالعربية والحساب والفقه على مذهب الشافعي ، فهو يدل على أن هذا العالم المجود لم تقتصر ثقافته على العلوم القرآنية بل كان متعدد جوانب المعرفة ، وكان لذلك أطيّب الأثر في تكوين شخصية تلميذه خلف ابن حسين وتفتيق روحه وحثه على أن تكون له ثقافة إنسانية عامة ، وسرى كيف يرث مؤرخنا حيان عن أبيه ذلك التفتح والطموح إلى الأخذ من كل مورد من موارد الثقافة .

وللاشارة إلى بصر الأنطاكي بالحساب قيمة خاصة ، إذ يبدو لنا أنه أورث تلميذه هذا الاهتمام بالعلوم الرياضية ، فابن الأبار في ترجمته لخلف بن حسين ينص على أنه كان « ماهراً في الحساب بصيراً بالمساحة » (١) ، وقد كان هذا بالذات هو الذي أزلناه إلى المنصور بن أبي عامر حتى جعله من كتابه المقربين .

ولابد أن أسرة خلف بن حسين كانت على قدر من الثروة حين عهدت بتأديبه إلى الشيخ أبي الحسن الأنطاكي القادم من المشرق والذي كان ذا حظوة من الخليفة نفسه ، ويؤكد لنا ذلك ما نعرفه عن زميل من زملاء الدراسة لخلف بن حسين ، هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الذي كان من أحد بيوت الشرف في الأندلس ، والذي قدر له أن يصبح رفيقاً لخلف بن حسين في الكتابة للمنصور بن أبي عامر وإن كان قد اتجه إلى كتابة الرسائل والأدب ، بينما اقتصرت خلف بكتابة « الحسابات » أي أعمال الإدارة والمال .

(١) النكلة ، ترجمة رقم ١٤٩ .

ولسنا نستبعد أن يكون الحكم المستنصر في زيارته تلك للشيخ أبي الحسن قد توسم في خلف بن حسين من المواهب ومخايل الذكاء ماحله بعد على تقريره ، ولعله عهد إليه بمنصب يتلاءم مع فئاته وصغر سنه . وليست لدينا أخبار مؤكدة عن حياة والد ابن حيان خلال هذه السنوات ، ولكن مانعرفه من حظوته لدى المنصور يحملنا على أن نعتقد أن يكون قد سبق ذلك تدرج منه في بعض وظائف الدولة على أيام الحكم المستنصر :

وقد مر المنصور بن أبي عامر نفسه بهذا الدور ، إذ أنه صعد السلم من أوله حتى أصبح بعد ذلك هو الحاكم بأمره في الأندلس كلها باسم الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحكم ، ولعل المنصور قد عرف خلف بن حسين أثناء عملهما في بعض مناصب الدولة خلال أيام الحكم ، وتوثقت صلة الرجلين ، فلما وصل المنصور إلى الحكم عمد إلى تقريره وإحفظاته .

ولم يكن محمد بن أبي عامر من بيت الملك ، وإنما كان رجلا عصاميا تدرج في الوظائف بفضل ذكائه ومواهبه حتى استبد بكل شيء في الدولة ، ودعاه ذلك إلى أن يستميل إلى حزبه من استطاع من رجال بيوتات الموالي صنائع بني مروان القدامى من أمثال : بني حزم ، وبني حدير ، وبني شهيد ، وكان شأن خلف بن حسين كشأن هؤلاء ، فإنه على الرغم من ولائه القديم لبني أمية لم يجد بأسا في الانضمام في خدمة المنصور العامري الذي لم يلبث أن استبد بالأمر وجمع في يده كل مقاليد الحكم .

وتوثقت علاقة خلف بن حسين بالمنصور بن أبي عامر توثقا تشهد به الحكايات الكثيرة التي رواها ابنه أبو مروان وضمها تأريخه للدولة العامرية ، ويبدو أن اختصاصه بالمنصور قد زاد في أواخر أيام الحاجب العامري ، فقد كان يلزمه في روحاته وغدواته ولا يتخلف عن حملاته العسكرية الكثيرة التي وجهها إلى الممالك النصرانية في الشمال . وقد نقل لنا ابن الخطيب في كتابه « أعمال الأعلام » (١) وصفا رائعا لموقعة جربيرة (Cervera) كان مما رواه ابن حيان على لسان أبيه . وكانت هذه المعركة التي دارت في ٢٥ شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يولية سنة ١٠٠٠ م) من أقسى ماخاضه المنصور من معارك ، فقد واجه فيها اثنا لفا نصرانيا كبيرا جمع بين كل ممالك الشمال المسيحي وإماراته ، وكادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا خطة عسكرية اهتدى إليها المنصور في آخر الأمر فكان فيها الفتح والظفر :

(١) بتحقيق لينى برونسال ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٥٦ ، ص ٧٠ - ٧٣ .

وتدلنا هذه الرواية المفصلة التي ينقلها ابن حيان عن أبيه على الكثير ، فنحن نستشف منها أن خلف بن حسين كان كاتم سر المنصور الأول الذي يوصيه بما يعرض له من مهام في مثل هذا الموقف الضئيل الذي تعرض فيه مجد المنصور بل وحياته لأعظم الأخطار . كذلك نرى منه كيف كانت دقة ملاحظة خلف بن حسين وتسجيله لكل كبيرة وصغيرة من تفاصيل المعركة في موقف تزيج فيه الأبصار ، وتذهل الحلو ، وشئ آخر هو أنه مع ما نراه في رواية خلف من إعجاب عمخدومه المنصور وصفاته النادرة فإن ذلك لم يمنعه من أن يسجل عليه جزعه واضطرابه بعد اشتداد الأمر عليه في ذلك المعترك الصعب ، وهذه نزاهة تقدر له ، ولو أن كثيرين غيره في مثل هذا المقام تعرضوا لوصفه لأقبلوا يكيلون المديح لمولاهم المنصور ويتحدثون عن بطولته وعبقريته المعجزة . فنحن نرى ابن أبي عامر هنا إنسانا قبل كل شئ يدب في نفسه الخوف والجزع كما يمكن أن يدب في نفس أى بشر .

وهاتان الصفتان اللتان تميزان خلف بن حسين هما أهم الصفات التي أورثها ابنه أبا مروان ، وهما مما سيرفع إنتاجه التاريخي كله إلى مقام لم يرق إليه أى كتاب من كتب التاريخ لمؤلف قبله .

وقد حفظ لنا ابن حيان في مواضع عن هذا الكتاب وغيره حكايات أخرى نقلها عن أبيه ، منها وصفه للمنصور وهو على فراش الموت ووصيته لابنه عبد الملك ، وهذه الوصية وثيقة تاريخية سياسية من الطراز الأول ، إذ نجد فيها تسجيلاً لسياسة المنصور وخلاصة لأعماله ، وهى تكاد أن تكون حساباً ختامياً يقدمه الرجل للتاريخ ونصيحة لابنه ورسم للسياسة التي ينبغي أن يتبعها في الداخل والخارج (١) .

وكل هذا يدلنا على مدى الصلة الوثيقة التي جمعت بين خلف بن حسين والمنصور ، وهى التي مكنت والد أبي مروان من الاطلاع على دقائق أسرار الدولة حتى إنه لم تكن تغيب عنه كبيرة ولا صغيرة .

وكان خلف بن حسين رجلاً خصيناً كتوماً جديراً بأن يحمل أمانة السر ، ويبدولنا في تعامله مع سيده حريصاً على مرضاته دون إسراف في الملق ، متواضعاً لا يتيه بنفسه ولا يزهر بمنزلته .

(١) احتفظ لنا بهذه الوثيقة المهمة ابن بسام في الذخيرة ، ط . القاهرة سنة ١٩٤٥ ، القسم الرابع ١ / ٥٦ - ٥٨ : فيها ينقله عن ابن حيان عن أبيه .

ولهذا فنحن لانسمع بأنه أقصى عن المنصور أو تعرض لنكبة من نكباته كما تعرض غيره من رجال الخدمة مثل أحمد بن سعيد بن حزم والد المفكر الكبير وصديق ابن حيان : أبي محمد ابن حزم (١) ، أو عبد الملك بن إدريس الجزيري صاحب خلف بن حسين وزميله في الدراسة (٢)

على أن خلف بن حسين نفسه يروى فيما نقله عنه ابنه أبو مروان في كتابه عن الدولة العامية ، أن المنصور غضب عليه مرة ، ولكنه كان رفيقا به مواديا له . ولز كيف يقص هو نفسه هذا الخبر :

« بكتني المنصور يوما على بعض ما أنكره مني تبكيئا بعث من فزعى ما اضطربت منه ، فأشفق على ، وخفف عني ، وأنفلذني للوجه الذي استنكر فيه بطئي ، فعدت بتمامه بعد أيام . فاستوقفتني وأخلى مجلسه ، ثم أدنانى فقال : رأيت من ذهرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برى من الحول والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته : أسطو بقدرته ، وأعفو عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك من نفسي لسواي ، فطامن جأشك ، فلما أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت من غزلها ، أغدو به إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ماتراه . ومن أنا عند الله لولا عطفى على المستضعف المظلوم ، وقهرى للجبار الطاغى ؟ » (٣) .

وهي حكاية غريبة تصوّر جانبا آخر لإنسانيا من شخصية المنصور بن أبي عامر وتدل في الوقت نفسه على مدى المكانة التي بلغها منه كاتبه خلف بن حسين حتى أصبح المنصور يفضي إليه بمثل هذه الاعترافات ! .

وقد ظل خلف بن حسين على مكانته وخطوته في ظل حجابة عبد الملك المظفر الذي خلف أباه المنصور بعد وفاته في سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) . ولا بد أن عبد الملك حفظ له ماتته بأبيه ، فنحن

(١) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩١ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٣ - ١٩٦ . ويستوقف نظرنا في ذكر أبي مروان الجزيري ما ذكره ابن الأبار فقلا من ابن حيان من أن غضب المنصور عليه كان بسبب إدلاله عليه « وكان أكثر من يشركه أعطالا من الآداب العربية لتوفرهم على علم العدد وانهماكهم في التعاليم الديوانية التي استدروا بها الحجابة وحصلوا بها المراتب العالية ، فكان الجزيري يزرى بهم ويحب الاشتغال على ابن أبي عامر ويتصور فرط حاجته إليه في الإنشاء » . ونحن نعتقد أن ابن حيان إنما أشار - وأما أو بغير - إلى أبيه وأمثاله بحديثه عن كتاب المنصور « المتوفرين على علم العدد المتهكمين في التعاليم الديوانية المدرة للجباية » .

(٣) ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٩٨ .

نرى خلفاً لا يزال وثيق الصلة برجال الحكم مطلعاً على أسرار الدولة . ونقل ابنه المؤرخ أبو مروان عنه بعض أخبار الأحداث الواقعة في هذه الفترة ، نشير من بينها بالذات إلى مصرع عبد الملك بن إدريس الجزيري زميل دراسته القديم لدى الشيخ الأنطاكي ، وكان قصر نظر ابن الجزيري وطيشه وتورطه في الدسائس والمؤامرات السياسية قد أدى به إلى الوقوع في نكبة عبد الملك المظفر ، وكان أشد الناس في التحريض عليه وزير المظفر : عيسى بن سعيد القطاع ، فأودع سجن المطبق بالزاهرة في خبر طويل ، ثم أدخل عليه عيسى في مطبقه قوماً من السودان فخنقوه وأشيع موته ، وأخرج جسده بعد أيام ، فأسلم إلى أهله ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٩٤ هـ (أغسطس سنة ١٠٠٤ م) :
ويقص علينا ابن حيان بكل تفصيل خبر المؤامرة التي انتهت بمصرع ابن الجزيري الفاجع نقلاً عن أبيه خلف بن حسين ، ويختتم الخبر بقوله :

« أخبرني أبي خلف بن حسين قال : سألت الذي تولى قتل ابن الجزيري في محبسه ، فجعل يصف لي سهولة ما عاناه منه لقضافته وضعف أسره ويقول : ما كان الشقي إلا كالفرج في يدي ، دقت رقبته بركبتي ، فما زاد أن نفخ في وجهي . فعجبت من جهل هذا الأسود » (١) .

وإطلاع خلف بن حسين على حقيقة مصرع ابن الجزيري ووصفه على هذا النحو الدقيق الحافل بالتفاصيل يدل على أنه كان لا يزال قريباً من مراكز القوة والنفوذ في الدولة العامرية .

ولابد أن نهاية ابن الجزيري — رفيق صبا خلف بن حسين وزميله في الدراسة ثم في التدرج في مناصب الدولة حتى أصبح كلاهما من كتاب المنصور العامري ووزرائه — قد أثارت في نفس خلف كثيراً من الأسى ، نرى ذلك في رنة الحزن التي تغلب على روايته لتلك الواقعة ، وإن كان وفاءه للذكرى صديقه ابن الجزيري لم يمنعه من الحكم عليه بما يستحقه ، فقد كان من « عقرية الطبع » والتهور بحيث تسرع في الانتشاب في تلك الدسائس البلاطية التي جرّت عليه أخيراً نهايته الفاجعة . ونرى هنا شاهداً آخر على نزاهة خلف بن حسين في الحكم وتجرده من الهوى .

ولعل مصرع أبي مروان بن الجزيري كان درساً جديداً استفاد منه خلف بن حسين ، فعلمه أن يلتزم جانب الحذر في هذا الجو السياسي الموبوء الذي كانت أدنى هفوة فيه من قبل أي وزير

(١) ابن بسام : اللخيرة ، القسم الرابع / ١ / ٣٦ .

أو كاتب أو متلبس بخدمة السلطان كفيلة بأن تهوى به من حالي ، وقد سبقت له في أيام المنصور بن أبي عامر تجربة كاد يفقد فيها حظوة مولاه ، ولكنها أتت سليمة العاقبة ، وهاهو ذا يرى كيف كان التورط في المنازعات والمنافسات السياسية التي كانت على أشدها في أواخر أيام العامرين أمراً قد يؤدي إلى التهلكة . وإذا كان خلف بن حسين قد سلم من مغبة هذا الجلو المشحون فلاشك في أن ذلك يرجع إلى حصافته وحنكته وحذره . لقد كان خلف من رجال هذه الدولة العامرية ، ولكنه كان فيما يبدو لنا يحاول البعد عن كتلتها وأحزابها بقدر ما استطاع ، وكان موقفه منها أشبه بموقف المراقب عن كذب منه بموقف المتدخل في معمراتها ، فلما نعرف أن شراً ما أصابه خلال هذه السنوات التي كانت الأندلس تقترب فيها بسرعة من الفتنة الكبرى المبيرة التي لم تلبث أن انفجرت في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩م) وسرى كيف أوث خلف ابنه أبا مروان هذا الحذر والتحرز من خوض عالم السياسة القلب ، فسلم من حباله وأشراكه كما سلم أبوه .

كان خلف بن حسين قد أشرف على السنين من عمره حينما اندلعت نيران الفتنة البربرية ، ولكنه لم يغادر قرطبة كما غادرها الكثيرون من رجالات الدولة العامرية والمروانية هرباً من الحروب الأهلية ولما نعرف كيف كان خلف بن حسين وابنه أبو مروان يعيشان خلال هذه السنوات الثلاثين التي كتب عليهما خلالها أن يتجرعا غصصها في قرطبة بعد بدء الفتنة . على أنه على الرغم من المدايح التي خضبت أرض المدينة المنكوبة - عروس الغرب الإسلامي كله قبل ذلك بسنوات - ومن كل ما وقع فيها من أهوال وخراب وسفك دماء وانهاك للحرم والأموال ، فليس هناك ما يدل على أنه قد أصاب خلف بن حسين هو ولا أسرته من كل ذلك شيء . ولعل خلفاً كان خلال عمله كاتباً ووزيراً قد ادخر ما يستعين به على هذه السنوات ، أو اكتسب من العقار أو المال ما يقيم أوده ، فلم يشعر هو ولا ابنه من بعد بالحاجة إلى هجر بلده ، فبقيا في قرطبة طوال تلك السنوات .

ولما نعلم من أخبار خلف بن حسين بعد ذلك إلا أنه كف بصره في سنة ٤١١ هـ (١٠٢١م) ، فلزم بيته ولم يغادره إلى أن توفي سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦م) ، وكانت الخلافة المروانية قد أعلن إلغائها بصفة رسمية منذ خمس سنوات ، وقام بأمر قرطبة الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور فأعاد إليها بعض الصلاح والأمن . ونحن نأمن من ذلك أن خلف بن حسين قضى هذه السنوات الخمس الأخيرة من عمره في سلام وهدوء ، معتكفاً في داره بعد أن حكم عليه عماء وشيوخه بالإخلاد إلى السكينة ، وأغلب الظن أنه قضى تلك الفترة الوداعة على ابنه أبي مروان ما يشبه أن يكون

« مذكراته » عن حياته الماضية الغنية بالتجارب ، وعما مر به خلال عمره الطويل (نحو خمس وثمانين سنة) شهد فيها من تقلب الدول وتصاريف الأحوال ما يعتبر ذخراً ثميناً لمؤرخ عميق الإحساس بتبعية الكتابة التاريخية مثل ولده أبي مروان . وقد أودع ابن حيان في كتبه كل هذه المسادة الدسمة الخصب التي أثرى بها محصوله من الأخبار سواء أشار إلى أبيه أم لم يشر .

ويظهر أن خلف بن حسين كان لا يزال يتمتع باحترام الناس وتبجيلهم له ، وأنه كان على الرغم من التزامه داره وانطوائه عن ضجيج الحياة قد خلف في عالم قرطبة ذكريات طيبة منذ كان كاتباً ووزيراً للعامريين ، فنحن نعرف مما أورده ابن الأبار في ترجمته أن الذي قام بالصلاة عليه هو قاضي الجماعة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار ، وشهد الجنازة جمع عظيم من أهل قرطبة ، وإن لم يخل الأمر من أن يكون فيه بعض المجاملة لولده أبي مروان .

٢ — أبو مروان ابن حيان :

حياته (٣٧٧ — ٤٢٢ هـ / ٩٨٧ — ١٠٣١ م)

ولأنما أطلنا في الحديث عن خلف بن حسين والد ابن حيان لأنه قد تبين لنا من استقراء أخباره أنه كان أستاذاً حقيقياً لمؤرخنا العظيم ، بل لعله أعمق أساتذته أثراً فيه ، هذا فضلاً عن كونه مصدراً من أهم مصادر تاريخه .

لقد رزق خلف بابنه حيان وسنه في نحو السادسة والثلاثين ، وكان قد بدأ يتدرج في مناصب الحكم ، وكان له نصيب من ثروة قد تكون موروثة وقد يكون اكتسبها بفضل تبوئه بعض المناصب منذ شبابه المبكر ، وكان حيان على ما يبدو هو ولده الوحيد ، فنحن لانسمع فيما كتبه بأى إشارة إلى إخوة له ، فأفرغ فيه كل اهتمامه ، ووفر له منذ صباه أحسن المؤدبين ، وكان حيان بطبيعته غلاماً لماسحاً متوقداً للذكاء : تربة صالحة يثمر فيها التعليم الجيد والتعهد المستنير .

ولسنا نعرف من أساتذة ابن حيان ممن نص عليهم ابن بشكوال أقدم مترجميه إلا ثلاثة سنعرض لهم بالتفصيل بعد ، والحقيقة هي أن هذا العدد من الشيوخ قليل بالنسبة إلى فتي مثل ابن حيان كان في وسعه أن يتردد على مجالس كثير من العلماء الذين كانت تعج بهم قرطبة في أواخر القرن الرابع الهجري . على أن اقتصار ابن بشكوال على ذكر أولئك الشيوخ الثلاثة لا ينفي بطبيعة الحال أن يكون ابن حيان قد أخذ عن غيرهم ، ولكن ربما كان لذلك دلالة : وهي أن الاستكثار من

الشيوخ - وهو ما كان يحتفل له معاصروه من الفقهاء والمحدثين والأدباء - لم يكن ليغني ابن حيان كثيراً ، وإنما كان أكثر اعتماده على نفسه وعلى الكتب ، ولا بد أن أباه الكاتب خلفاً كان قد جمع مكتبة متنوعة غنية تتفق وما أشرنا إليه من سعة اطلاعه وأخذ من مختلف ألوان العلوم بطرف . أما الشيوخ فإنه اجتزأ منهم بعدد قليل توثقت صلته بهم فتركوا في نفسه أثراً لم يمح طيلة حياته .

فقد كان خلف بن حسين من الجاه والثروة بحيث عرف كيف يختار لابنه حيان عدداً من الأساتذة يتلقى عنهم العلم لا كما يتلقاه غيره ، فيحضر حلقاتهم ومجالسهم العامة ، وإنما كان ينفرد بالشيخ منهم لكي يختصه بدروسه إما في داره أو دار الشيخ ، كما نرى في هذا النص الذي يتحدث فيه ابن حيان عن قراءته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادى :

« وجمع أبو العلاء للمنصور محمد بن أبي عامر كتاباً سماه الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار . . وأمره [أى المنصور] بأن يسمعه الناس بالمسجد الجامع بالزاهرة في عقب سنة ٨٣٨٥ (أوائل ٩٩٦ م) ، واحتشد له من جماعة أهل الأدب ووجوه الناس أمة . قال ابن حيان : وقرأته عليه منفرداً في داره سنة ٨٣٩٩ (١٠٠٨ - ١٠٠٩ م) » (١) .

وفي اعتقادنا أن صاعداً وهو ما هو من علو المكانة والخطوة من المنصور بن أبي عامر ما كان ليستقبل في داره تلميذاً من تلاميذه لكي يقرأ عليه كتاباً سبق أن أسمعته عامة الناس في المسجد الجامع إلا إذا كان ذلك لقاء مال كثير لا يتوسع في إنفاقه إلا المقتدرون الوجهاء .

وشاهد ثان يتعلق بشيخ آخر من شيوخ ابن حيان هو ابن أبي الحباب ، الذي كان مؤدب عبد الملك (المظفر) بن المنصور بن أبي عامر (٢) . فإذا كان خلف بن حسين قد اختار لتأديب ابنه مثل هذا الشيخ الجليل الذي اختاره المنصور لإقراء ابنه ووارث دولته فهذا دليل كاف على مدى اقتدار والد ابن حيان واحتفاله بأن يوفر لابنه أرق مستوى من التعلم .

اساتذة ابن حيان :

ولتر بعد ذلك هؤلاء الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على قراءة ابن حيان عليهم .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادى ، رقم ٥٤٠ ، ١ / ٢٣٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ١ / ٢٥ .

أما الأول فهو الفقيه المحدث عمر بن حسين بن محمد بن نابل الأموي القرطبي (١) ، وكان من بيت علم وفضل ، فقد كان أبوه من جلة الفقهاء والمحدثين في عصره ، أما عمرُ شيخ ابن حيان فقد تفقه على أبيه وأخذ عنه كل رواياته ، وكان قد صحبه في رحلته إلى المشرق واشترك معه في أسانذته المشاركة فضلاً عن الأندلسيين ، وكان فيما يذكر القاضي عياض « مسنداً صدوقاً ثقة عفيفاً » ، وشهر بال حفظ الجيد ، وكان من الفقهاء المشاورين ، وكف بصره في آخر عمره ، ولكنه ظل يسمع الناس حتى وفاته في سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) ، وكان له ابن عالم كذلك روى عنه الناس ، ولحقته محنة الفتنة البربرية لصداقة كانت بينه وبين بني ذكوان ، فلما وقع الاضطهاد على الذكوانة بسبب اتهامهم بملابسة البربر اشتد تأثيره بذلك فاختلط عقله ، ومات قبل وفاة أبيه بشهور في نفس السنة .

وثاني شيوخ ابن حيان هو ؛ اللغوي النحوي أبو عمر أحمد بن عبدالعزيز بن فرج المعروف بابن أبي الحباب القرطبي (٢) ، وأصله من البربر من مصمودة ، ولكنه كان ممن استقروا في الأندلس منذ زمن فأصبح في عداد الأندلسيين ، وولد سنة ٣١٠ هـ (٩٢٢ - ٩٢٣ م) وتلمذ على شيخ محدثي الثغر ابن القاسم الثغري قاضي قلعة أيوب ، وعلى العالم الأشهر أبي على القالي نزيل قرطبة ، وكان ابن أبي الحباب أخص أصحاب القالي به وأكثرهم أخذاً عنه ، وكان من جلة شيوخ الأدب ، عالماً باللغة والأخبار ، حافظاً صحيح الرواية جيد الضبط لكتبه . وعهد إليه المنصور ابن أبي عامر بتأديب ابنه عبد الملك المظفر . وكانت وفاته في أول سنة ٤٠٠ هـ (أواخر ١٠٠٩ م) . ويعتبر ابن أبي الحباب حامل علم أبي على القالي وأكثر تلاميذه نشاطاً في نشر مادة الثقافة المشرقية المسائلة التي قدم بها العالم البغدادي العظيم . ويكفي أن نلقى نظرة على الفصل الطويل الذي أفرده ابن خير في « فهرسته » لرواياته لكتب النحو واللغة والشروحات وأشعار العرب القدماء والمحدثين ، فسرى أن كثيراً من هذه المادة كانت مما نقله القالي إلى الأندلس ، وأن ابن

(١) انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٨٤٩ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، بتحقيق محمد بن تاووت الطنجي ، القاهرة سنة ١٩٥٢ ، رقم ٦٨٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت سنة ١٩٦٧ ، المجلد الثاني ص ٧٣١ / ٧٣٢ .

(٢) انظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٣٥ ؛ مغاخر البربر ، بتحقيق ليلى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ص ٦٣ .

أبى الحباب يكاد يذكر في كل هذه المواضع بصفته صاحب الفضل الأكبر في إقراء تلك الكتب وإذاعتها في الأندلس (١) .

أما ثالث هؤلاء الشيوخ ؛ فهو العالم اللغوي الشاعر المشهور صاعد بن الحسن بن عيسى الرعي البغدادي (٢) . وكان صاعد قد وفد على المنصور بن أبي عامر في سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) وانتظم في خدمته وأصبح من ندمائه ومدّاحه ، ثم بقي في خدمة ابنه عبد الملك المظفر حتى وقعت الفتنة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) فخرج مستخفيا من قرطبة بعد أن التوى عليه رجال هشام المؤيد في الإذن بتسريحه خوفا من خبث لسانه ، فتوجه إلى جزيرة شلطيّش في سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ - ١٠١٣ م) واتصل من هناك بصاحب جزيرة صقلية وفاوضه في الوفود إليه ، فرحب به ، وعزم صاعد على الرحلة إليه ولكنه عاد إلى قرطبة ليستخرج أهله وولده ، ومن هناك خرج إلى سرقسطة فعاش في كنف أميرها منذر بن يحيى التجيبي فترة ما ، ومنها اتجه إلى دانية ، فقضى وقتا آخر في كنف مجاهد العامري ، ثم خرج إلى صقلية حيث قضى السنوات الأخيرة من حياته حتى وفاته سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) .

هؤلاء هم الشيوخ الثلاثة الذين نص ابن بشكوال على أخذ ابن حيان عنهم . ويمكن أن نضيف إليهم أسماء أخرى قليلة مثل المؤرخ المحدث المشهور القاضي أبي الوليد عبد الله بن يوسف المعروف بـ ابن الفرضي صاحب «تاريخ علماء الأندلس» ، وكان ممن استشهدوا في الفتنة البربرية سنة ٤٠٣ هـ

(١) أبو بكر ابن خير الإشبيلي : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، بتحقيق فرانسكو كوديرا وغولييان ريبيرا ، ط . سرقسطة ١٧٩٤ ، ص ٣٠٥ - ٤٢٥ .

(٢) في ترجمة صاعد البغدادي انظر ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٤٤٠ ؛ الحسيدي : جلوة ، رقم ٥٠٩ ؛ الضبي : بغية الملتبس ، بتحقيق كوديرا ، مدريد سنة ١٨٩٥ ، رقم ٨٥٢ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ، ط . بيروت سنة ١٩٥٠ ، ٤١٣ / ٢ ، ١٨ / ٣ - ٢٠ ، ٣٥ (بتحقيق ليلى بروفنسال ، ط . باريس سنة ١٩٣٠) ؛ ابن بّسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، ١ / ٦ - ١٣ ، ٣٧ - ٣٩ ؛ ابن الأبار : الحلة السراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ المقرئ : نفح الطيب ٤ / ٧٦ - ٨٤ ؛ ومن الدراسات الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ص ١١١ - ١١٣ ؛ جوثالث بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٦٦ - ٦٨ ؛ بلاشير : الشاعر الكاتب الصاعد البغدادي مجلة اسبيريس الرباط ، المجلد العاشر سنة ١٩٣٠ :

R. Blachère : Un pionnier de la culture arabe orientale en Espagne au Xe siècle : Sàid de Bagdad, Hespèris, vol. X, 1930, pp. 15-36.

(١٠١٣م) ، وإنما أضفنا اسما بعد أن رأينا أبا علي الغساني تلميذ ابن حيان ينقل عن شيخه نصا يؤكد روايته عنه (١) .

كذلك نعرف أن ابن حيان قرأ على المحدث النسابة أبي القاسم عبدالرحمن بن محمد بن أبي يزيد المصري (٢) ، وكان قد قدم إلى الأندلس من مصر في سنة ٣٩٤هـ (١٠٠٤م) بعد أن أخذ عن جلة محدثيها وعلمائها ، وكان أدبيا حافظا للحديث وللأسماء والأنساب والأشعار ، وسكن قرطبة حتى وقعت الفتنة ، فخرج إلى إفريقية ثم إلى مصر ، فتوفي بها سنة ٤١٠هـ (١٠١٩ - ١٠٢٠م) .

ونلاحظ أن أخذ ابن حيان عن جميع هؤلاء الشيوخ ينبغي أن يكون قد تم في فترة مبكرة من حياته وهو في نحو العشرين من عمره أو دون ذلك ، فجميعهم ممن توفوا ما بين سنتي ٤٠٠ و ٤٠٣هـ ، أو أخرجوا من قرطبة ولم يعودوا إليها عودة استقرار .

وتأمل معارف هؤلاء الشيوخ يعطينا فكرة عن ثقافة ابن حيان في دور التكوين المبكر ، ويلقى ضوءاً على منهجه في كتابة التاريخ حينما نضجت شخصيته وتحددت معالمها ، فجميعهم كانوا من أصحاب الثقافة الإنسانية العامة كما كانت مفهومة في تلك العصور ، وإن كنا نلمس فيهم اتجاهات واضحة إلى علوم اللغة والأدب والأخبار ، ثم إلى علوم الحديث . وقد استفاد ابن حيان من ذلك فوائد جمة ، فأخذه منذ صباه عن أساتذة من طبقة ابن أبي الحباب صاحب أبي على القالي وصاعد البغدادي هو الذي أعانه - فضلا عن الملكة الطيعية - على امتلاك زمام اللغة على نحو لا نعرفه أتيج لمؤرخ عربي قبله ، وسرى كيف كانت كتابة ابن حيان - إلى جانب قيمتها التاريخية - من أرق نماذج النثر الفني ، ولا بد أن جانباً كبيراً من الفضل في ذلك يرجع إلى هذه المرحلة التي درس فيها على شيوخ الأدب واللغة من أمثال هذين الأستاذين الجليلين : ابن أبي الحباب وصاعد . ومتأمل صفحات تاريخ ابن حيان يمكنه أن يفتن لأول وهلة أنه تمثل الأدب العربي قديمه وحديثه ، شعره ونثره ، تمثلاً لا تنهياً إلا لمن اقتصر عليه واتخذ حرفته وبضاعته .

أما الحديث وما يتصل به من علم الجرح والتعديل ومعرفة طبقات الرجال ونقد الأسانيد وغير

(١) ابن خير : فهرسة ص ١٢٥ .

(٢) نفس الموضع السابق ، وقد جاءت نسبه في هذا الكتاب « القصرى » بدلا من « المصرى » ، وهو تحريف . وانظر في ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٧٥٦ ؛ والقاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٦١٥ - ٦١٦ .

ذلك من أدوات هذا العلم فإنه أفاد ابن حيان في منهجه النقدي للتاريخ ، وإن لم يكن علم الحديث بالذات من بضاعة أبي مروان ولا مما شارك فيه مشاركة مباشرة .

وعلى كل حال فإنه يبدو لنا من تأمل مابقى من مؤلفات ابن حيان أنه كان رجلا واسع الإطلاع جماعا للكتب ، وهذا في نظرنا هو الذى صرف أبا مروان عن الاستكثار من الراوية عن الشيوخ فقد أغنته الكتب عن التردد على مجالس العلماء ، وهذا هو مايفسر لنا أن كتبه التى تعرض فيها لتاريخ الأندلس السابق على عصره تكاد تخلو من الأسانيد والروايات ، فهو لاينقل إلا عن أصول مكتوبة ، فلسنا نجد فيها لفظ « سمعت » أو « رويت » بقدر ما نجد « قرأت في كتاب فلان » . ولو جاز لنا أن نستعير أحد مصطلحات الحديث لقلنا إن ابن حيان كان « صحفيا » أى ممن ينقلون عن الصحف . حتى ابن الفرضى الذى نعلم علم اليقين أن ابن حيان سمع منه لا يكاد مؤرخنا يذكره إلا بقوله : « قرأت في كتاب أبي الوليد ابن الفرضى . . . » : أما في كتابته عن تاريخ الفترة المعاصرة له فقد كان يعتمد على مشاهداته أو مايكتب به إليه بعض أصحابه حول أحداث المناطق التى يعيشون فيها .

والغريب عند تأمل هذا العدد القليل من شيوخ ابن حيان هو أننا لانعرف منهم أحداً يحتمل أنه وجهه إلى دراسة التاريخ بوجه خاص ، فليس منهم أحد قد تميز بشيء في هذا الميدان ، فيما عدا ابن الفرضى — وكان مفهومه للتاريخ على كل حال بعيداً عن مفهوم ابن حيان ، وإن كنا لاننكر فضلهم على أبي مروان في تكويده الثقافي العام . فقد كان من الممكن أن يقرأ ابن حيان عليهم وعلى غيرهم دون أن يزيد بعد ذلك على كونه أحد علماء الأندلس المتوسطين الذين تحفل بهم معاجم التراجم والطبقات .

ولهذا فنحن نعتقد أن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولد من شخصيته هو : من دقة إحساسه ونفاذ نظره ، وقدرته الطبيعية على الاستيعاب ، وملكته النقدية المتأمله . وقد يكون في هذا الاتجاه عرق من الوراثة يصل بين أبي مروان ووالده خلف بن حسين الذى يبدو لنا هو موجهه الأول إلى علم التاريخ ، فإن تتبع الأخبار التى نقلها ابن حيان عن أبيه والتى أسلفنا الإشارة إليها يسمح لنا بأن نتوهم في خلف بن حيان من وراء كاتب الديوان وكاتم أسرار المنصور العامرى معدن مؤرخ حقيقى نافذ النظرة على الأمور ، منقر عن الأخبار تنقير من يشغل بها حق الاشتغال . إن هذه الموهبة التاريخية التى تجلت بعد ذلك في أوضح صورها ونعالمها في أبي مروان ابن حيان إنما تعود في المقام

الأول — فى نظرنآ — إلى مآورثه مؤرخنآ العظمى عن أبيه وإلى مآغرسه هذآ فى نفسه من آهآم بتقصى الحقيقة والبآء عنها فى تجرد ونزآهة أينآ كآنت ، ومهمآ أرضت أو آمنطت .

وقد زآد من إرهآف روح ابن حىآن العصر الذى عآشه والآآدآآ المآئلة التى روهآ وآكئوى بهآ ، فقد آنتقلت الآندلس تحت بصره نقلة مفآآئة من تلك العظمة التى وآفتت آوآخر أيام الدولة العآمريه إلى هذه الفتنة الجآآئة المدمرة التى انفجرت فى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨م) على يد عبد الرحمن « شنجول » بن المنصور العآمرى ، ذك الشآب الآحق المشئوم الذى فتح على الآندلس بآبآ لم ينسد إلآ بآنهيآر بنيآن الدولة كلها وتمزقها ، وآكن هذآ الفتى المآئل هو المؤذن ببديآه نهيآه الإسلام فى الآندلس .

كآنت أزمة الآندلس جديرة بآن تشآد الأروآح المفتحة الذكية ، وتنتج مفكرين مآلصين يصطبغ تفكيرهم بآلمرآة ، ويآآولون البآء عن علة ذك الدآء الذى أئى منه بلدهم بعد أن كآن بآلمس القريب نموذجآ فذآ فى النظام والقوة والاستقرار . ومن هنآ ظهر هذآ الجيل من أبناء قرطبة من أمآل ابن حىآن وابن حزم وابن شهيد وابن عبد البر ممن آآول كل منهم فى ميدآن علمه تقصى الحقيقة والبآء عن علاج لآنة بلدهم . وآكن جميعهم ممن شهدوآ فى مقتبل شآبهم عظمة الدولة ، ثم رآوآ آنتكآستها المفآآئة المذهلة .

ومآ أكثر مآ ترهف أمآل هذه الأزمآت من عبقرىآت المفكرين ، ويكنفى أن نشير هنآ إلى لآنة كبرى وقعت فى تآريخ أسبآنيآ نفسها بعد الفتنة البربريه بتسعة قرون ، ونعنى بهآ كآرثة سنة ١٨٩٨ التى أعقبت حرب أسبآنيآ مع الولآيآت المتحدة الأمريكية ، وآنتهت بآلكشف عن الإفلاس الكآمل للسيآسة الإسبآنية ولقآدة البلاد حينئذ . فقد تولد عن تلك لآنة طآآفة من المفكرين عرفوآ فى تآريخ الأدب الإسبآنى بآسم جيل ٩٨ ، ولآلهم يرجع الفضل فى وضع أسس النهضة الفكرية المعآصرة فى أسبآنيآ .

على أنه ينبغى أن نكون على آآذر فى نظرتنآ إلى جيل ابن حىآن ورفآقه ، فهم — وإن كآنوآ قد نبغوآ فى ظل مآ يعرف بآسم « عصر ملوك الطوائف » — ليسوآ فى الحقيقة من رآجآ هذآ العصر ، بل هم من نتآج تلك النهضة الفكرية الرآمة التى نصجت وآكتملت فى ظل آلآقة بنى مروآن وإن لم تؤت آكلها وثمرآتها إلآ بعد أن تصدعت هذه الآلآقة وعصفت بهآ الفتنة البربريه الشنعآء .

ابن حيان والفتنة :

أبو مروان ابن حيان رجل اهتمى منذ شبابه المبكر إلى موهبته واتجاهه الحقيقى الذى رسم له دوره فى الحياة ، وهو التوفر على كتابة التاريخ عملا فرغ له ، وكرس عمره من أجله ، ولم ير عنه معدلا ، ولا صرفه عنه غير ذلك من الشواغل .

يبدو لنا ذلك فيما سجله هو عن نفسه ، نقله بلفظه من مقدمة « تاريخه الكبير » :
« وبعد ، فأتى امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر ، واقتفاء هذا الأثر أحرس شاردته ، وأقيد نافرته ، وأبيت بأبوابه ، وأنصب لطلابه ، فشغلت به دهرأ ، وفجرت منه نهرأ ، صيرنى ترابا لعدنان ، وزماما على الحدثان ، أقص أنباءه ، وأضرب أمثاله ، وأحصى وقائعه ، وأحترز مواعظه ، وأنسأتنى المدة إلى أن لحقت ببدى منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة الموثلة ، المغربية الشأو على جميع ماضى من الفتن الإسلامية ، ففاضت أهوالها تعاظما أدلبنى عن تقييدها ، ووهمنى ألا مخلص منها ، فغطلت التاريخ إلى أن خلا صدر منها نفس الخناق ، وبلل الرماق ، فاستأنفت من يومئذ تقييد ما استقبلته من أحداثها ، وأنعمت البحث عن ذلك عند من بقى يومئذ من أهل العلم والأدب لدينا ، فلم أظفر منه إلا بما لا قدر له ، لزهده من قبلنا قديما وحديثا فى هذا الفن ، ونفهم له عن أنواع العلم . واثبتت خائبا خجلا ألوم نفسى على التقصير ، وأحدوها بالأمل ، وأعذر من قال « هممت ولم أفعل » ، وشرعت فى التقييد (١) غب ذلك التقييد ، غير مخل به ، ووصلت القول فيما فاتنى من قبل من ذكر انبعاث تلك الفتنة وأخبار ملوكها ومشهور حروبها مما أصبت به عندى تذكرة ، أو أخذته عن ثقة ، أو وصلتني به مشاهدة ، أو حاشته إلى مذاكرة ، حتى نظمت أخبارها إلى وقتى مكملة (٢) » .

فنحن نفهم من هذا النص أن ابن حيان قد بدأ فى كتابة تاريخه قبل وقوع الفتنة ، أى وسنه فى نحو العشرين أو دونها ، فهو يسجل أسفه على أن أحداث قرطبة الهائلة قطعتة عن مواصلة عمله فى تقييد أخبارها حتى عاد بعد أن نفس خناقه ، فاستكمل عمله واستدرك ما فاتته ، ونشر بصفة

(١) فى الأصل التقييد وهو تحريف

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ - ٨٧ .

خاصة إلى قوله « مما أصبت به عندى تذكرة » فهذه العبارة تدل على أنه وإن كان قد « عطل التاريخ » أى انقطع عن الكتابة المنظمة فإنه لم يدع أبداً — حتى خلال تلك الأحداث — تسجيل ملاحظات أو « مذكرات » أعانته بعد ذلك على استدراك مافاتة .

ونحن نرى فى لوم ابن حيان نفسه على ما فرط فيه من تسجيل وقائع الفتنة تواضعاً كبيراً واشتطاطاً على نفسه ، فالحق أن الصفحات التى تركها لنا — أو التى بقيت من تاريخه حولها — من الدقة والتفصيل بحيث لا مزيد ، وليت شعري أى استقصاء كان ابن حيان يريد أن يكتب به عن تلك الأحداث أكثر مما فعل ، وهو الذى لم يدع كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها ؟

ولعل أول ما سجله لنا ابن حيان من مشاهداته لأحداث قرطبة وهو بعد فى غضاضة الشباب ذلك النص الذى عقب به على مصرع الوزير عيسى بن سعيد إليحصي القطاع على يد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر فى العاشر من ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٠٠٦ م) ، وما أعقب ذلك من رفع رأسه على باب الزاهرة :

« وأعظم الناس قتل عيسى لجلالة قدره ، وسار منهم إلى الزاهرة خلق عظيم ينظرون إلى رأسه قال ابن حيان : وكنت فى جملة من نظر إليه ، واستبنت الضربة نخذه الأيمن » (١) .

فى هذه الإشارة ما يصور لنا ملكة ابن حيان الاخبارية منذ هذه الفترة من حياته ، وكان فى العشرين من عمره ، إذ هو يبدو لنا كما لو كان من رجال الصحافة فى عصرنا الحاضر ، ممن يشعرون بأن واجبهم إذا وقع حدث أن يهرعوا إلى مكانه ويسجلوا ملاحظاتهم و« تحقيقاتهم » عنه فى مكان وقوعه .

وموقف آخر يسجله لنا هذا النص الفريد الذى احتفظ لنا به ابن بسام أيضا فى معرض الكلام عن موكب الحاجب عبد الملك المظفر وهو خارج إلى آخر غزواته إلى قشتالة ما بين صفر وربيع سنة ٣٩٨ هـ (خريف سنة ١٠٠٧ م) .

« عهدى به يوم فصوله لغزوته سنة ثمان وتسعين التى احتفل فيها لشانجه بن غرسية قومس قشتالة (Sancho Garcia) واستكثر فيها من العدة والعدد ، فرز على جواد من مقرباته المنسوبة ،

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ١٠٧ .

بأفخم تلك المراكب المسلسلة ، ولبوس درع فضية مطرزة بالذهب ، وعلى رأسه خوذة مثمرة الشكل ، محددة الرأس ، مرصعة الطرق بدر فاخر ، واسطته حجر ياقوت أحمر مرتفع القيمة ، قد لزم وسط الجيش ، وطرح الشعاع على سنة وجهه ، فما رأى الناس بعده ملكا بعدله في البهاء والبهجة «(١)» .

فهذا الوصف — بما نرى فيه من دقة باللغة وحيوية نابضة حتى كأننا نرى المشهد بأعيننا — لا يصدر على هذا النحو من التفصيل الذي يكاد يكون تسجيلًا « فوتوغرافيا » إلا ممن كان يقيد مذكرات يومية بما يشاهده ويجري بين يديه ، أو بفضل ذاكرة قوية تحرق المشاهد والأحداث بحيث لا يند عنها شيء . وإذا كنا نعتقد فعلا أن ابن حيان كان يتمتع بهذه الذاكرة فإننا مع ذلك نكاد نقطع بأنه كان يسجل مذكرات يومية بما يقع في بلده منذ هذا التاريخ المبكر ، وهو في الواحدة والعشرين من عمره ، ولنا في حاجة إلى الكثير من الأدلة على ذلك ، فقد سبق أن أشرنا إلى مانص عليه ابن حيان نفسه في مقدمة تاريخه إلى كتابته لمثل هذه « اليوميات » .

وقد كانت هذه المشاهدات هي آخر مارآه ابن حيان وسجله من أحداث الدولة العامية التي لم يكن أحد يقدر حينئذ أن نهايتها موشكة على الحلول في أقرب وقت ، وأن العاصفة الهائلة التي كانت تتجمع في الأفق حينئذ سوف تقتلع الخلافة المروانية من جذورها وتحطم وحدة الأندلس إلى الأبد ، وستخط أول فصل في كتاب نهاية الإسلام وانقراضه من أرض تلك البلاد .

وتتعاقب أحداث الفتنة البربرية في سرعة مذهلة منذ ثورة محمد بن هشام المهدي على عبدالرحمن شنجول في ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، ولا تلبث الحروب الأهلية أن تأتي في غضون سنوات قليلة على عمران قرطبة ، ويكفيها في تصوير اضطراب الأمور في عاصمة الخلافة القديمة أن نذكر أن السنوات الثلاثة والعشرين التي انقضت بين ثورة محمد المهدي وإلغاء الخلافة المروانية بصفة نهائية في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) قد شهدت ولاية تسعة من الخلفاء : ستة منهم من البيت المرواني ، وثلاثة من البيت العلوي من بني حمود ، وأن أكثر هؤلاء تنصبوا على عرش الخلافة مرتين ، وانتهوا كلهم إلى ميتة فاجعة مقتولين على أبشع صورة .

ولنا نرى ضرورة للكلام عن هذه الأحداث ، إذ تكفيها في تتبعها تلك الصفحات المريرة

(١) ابن بسام : اللخيرة ، القسم الرابع ٦٠/١-٦٩ .

الحزينة التي ساق فيها ابن حيان نفسه أخبارها في تفصيل لا يكاد يعزب معه شيء منها . ولكن ما همنا
هو أن نعرف كيف مضت حياة مؤرخنا خلال هذه الفترة .

ومن أسف أن ابن حيان وهو الذي كتب بهذا التفصيل عن أحداث قرطبة لم يترك لنا شيئا
عن حياته في هذه السنوات العصيبة السوداء ، ولكن الذي نعرفه على وجه اليقين هو أنه لم يغادر
قرطبة أبداً حتى وفاته ، فلسنا نعلم له رحلة عن بلده ولا مقاما في أى مدينة أخرى من قواعد ملوك
الطوائف . وهذا شيء غريب حقا ، إذ أن المقام في قرطبة ولاسيما في أولى سنوات الفتنة كان
مغامرة لا تؤمن عواقبها ، وما أكثر ما نقرأ في كتب التراجم مما سجله قلم ابن حيان نفسه من أخبار علماء
ما أحبوا ولا أوضاعوا في هذه الفتنة ولكنهم لقوا مصرعهم فيها ، ونذكر من بينهم أحد شيوخ
ابن حيان ، وهو القاضي أبو الوليد بن الفرضي . وأما أكثر العلماء والأدباء من طبقة شيوخ ابن حيان
أو أقرانه فقد نجوا بأنفسهم خارجين من قرطبة إلى غيرها من مدن الأطراف والشغور حيث كانت
الحياة أكثر أمنا وأقل مغبة .

ومع ذلك فلا نسمع أن ابن حيان ولا أباه كاتب المنصور السابق تعرضا لسوء ، ولا أنهما رزتا
في مال أو حرمة (١) . ولا شك في أن ابن حيان كان أسعد حظا في ذلك من الكثيرين من أمثاله .

وقد سبق أن رجحنا أنه لا بد أن يكون ابن حيان وأبوه قد ركنا خلال هذه السنوات العجاف
إلى مال مدخر استعانا به على معيشتهم ، لاسيما وأنا لانعلم أن أحداً منهما تولى أى منصب من مناصب
الدولة على عهد سنوات الفتنة كما فعل بعض أصحاب أبي مروان مثل صاحبه أبي محمد ابن حزم
وأبيه الوزير أحمد بن سعيد بن حزم . وكان ابن حيان بغير شك أبعد نظراً وأسد رأيا حين لم يتلبس
طوال هذه الفترة بأى علاقة تربطه بأمراء الفتنة وحكوماتها ، ولكن ينبغي أن يكون لدى مؤرخنا
من أسباب الحياة ما كان يغنيه عن التطلع إلى مثل تلك العلاقة أو الطمع في منصب من مناصب

(١) كانت السلامة من الفتنة البربرية أمراً من الندرة والغربة بحيث يستحق التسجيل ، فالفقيه أبو محمد ابن حزم
صديق ابن حيان والذي عانى من هذه الفتنة الكثير على ما نرى من صفحات كثيرة في كتابه « طوق الحمامة » - يذكر فيها
نقله عنه ابن بشكوال في ترجمة أستاذه حمام بن أحمد القرطبي أنه « كان شديد الانقباض ، لا أدري أسدأ سلم من الفتنة سلامته
مع طول مدته فيها ، فشارك قط فيها بمحضر ولا بيد ولا بلسان ، مع ذكائه وحزمه وقياه بكل ما يتول » (الصلة ،
رقم ٣٥٠ ص ١٥٢) .

الحكومة ، لاسيما بعد أن هانت تلك المناصب بانحطاط الدولة وأمرائها ، حتى لم يعد فيها ما يغري عاقلا بالسعى إليها أو الانتساب فيها .

ويصور لنا هذه الحقيقة ابن حيان نفسه إذ يقول في عقب الكلام عن دولة عبد الرحمن المستظهر الذي ولي الخلافة نحواً من شهر ونصف في سنة ٤١٤هـ (١٠٢٣م) .

« وكان قدم على جميع أشغاله وأعماله جماعة من بقايا بني مروان وجماعة من الأغمار كانوا يذهب بهم العجب ، قدمهم على سائر رجاله ، فأحقد بهم أهل السياسة ، فانتقضت دولته سريعاً » .

ويسوق ابن حيان بعد ذلك هذه الخطط والوظائف التي قدم إليها خاصته هؤلاء — وكان من بينهم بعض أصدقاء المؤرخ نفسه مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم وابن عمه أبي المغيرة ابن حزم ، وأبي حفص ابن برد — ، ثم يعلق على ذلك فيقول :

« وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يحلوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقا ، ولا نالوا مرتقفا . وغرم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل مقصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رمقة ، ويفرق جهلته على من تكنفه من جنده ودائره ، ويتطرق إلى ما يقيح من ظلم رعيته ، فلم يلبث الأمر أن تفرى به ، فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » .

ولعل خير ما يمثل لنا هوان المناصب في ظل هذه الفتنة بيتان رواهما ابن حيان لأحد أدباء قرطبة يقولهما في حكم بن سعيد القزاز الذي ولي الوزارة لهشام المعتد آخر خلفاء الفتنة (ولي بين سنتي ٤٢٠ و ٤٢٢هـ = ١٠٣٠ - ١٠٣١م) (١) .

هبك كما تدعى وزيراً وزير من أنت يا وزير ؟
والله ما للأمير معنى فكيف من وزير الأمير ؟ (٢)

(١) انظر النص في ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٣٦/١ - ٣٧ ؛ وابن عذاري : البيان المغرب ٢ / ١٢٧

- ١٢٨ مع بعض فروق في الرواية .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ١٤٧ .

ولسنا نشك في أن ابن حيان لو كان خلال هذه السنوات يطمع في أحد مناصب الدولة الكبرى لوصل إليه ، ولكنه كان أحصاف من ذلك وأبعد نظراً ، وكان له أسوة بوالده الذي اعتزل السياسة منذ انهيار الدولة العامرية فلم يتورط في أشراكها من بعد قط .

وقد يكون في إصرار أبي مروان على ملازمة قرطبة مع كل ما كان يزهد في المقام بها وما كان يكتنف هذا المقام من مخاطر سبب آخر عاطفي ، فان الذين عرفوا هذه المدينة أيام عزها الذي بلغت أوجه في أواخر أيام العامريين وقضوا زهرة شبابهم في ربوعها — كان يعسر عليهم أن يفارقوها مهما حدث . . كان سحر قرطبة طاغيا على من نعموا بالعيش فيها أيام كانت عروس مدن الغرب ومهد العمران وكرسى الجماعة . . هو هذا السحر الذي عرف الشاعر الفذ أبو عامر بن شهيد كيف يصوره في قوله :

« . . . هو العشق : باطل يلعب بالحق ، ليبين ضعف البشر ، وتلوح قدرة مصرّف القدر ،
والذي أشكو منه أغرب الغرائب ، وأعجب العجائب : بث شاغل ، وبرج قاتل ، وصبر يفيض ،
ودمع يفيض ، لعجوز بفخراء سهكة درداء ، تدعى قرطبة :

عجوز لعمر الصبا فانية لها في الحشا صورة الغايه
فقد عنيت بهواها الخلو م فهي براحتها عانيه
ترديت من حزن عيشي بها غراماً ، فيا طول أحزانيه (١)

وهكذا شأن ابن حيان : ضرب من العشق والغرام يبلده ، فقد ظلت قرطبة وطنه الذي لم يكف أبداً عن الاعتزاز به حتى النهاية ، وإذا كان صاحباه ابن شهيد وابن حزم قد ألتأتهما الفتنة أخيراً إلى الاضطراب في أنحاء الأندلس ، فان ابن حيان ظل وفيًا لقرطبته لم ييغ بها بديلاً حتى وفاته .

* * *

ولكن ابن حيان لم يلزم كسر بيته ، وما كان له أن يفعل وهو المؤرخ الطلعة الباحث عن الحقيقة أينما وجدت ، ومهما حف الوصول إليها من المخاطر . وهو يسجل لنا خلال هذه الفتنة

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول / ١ / ١٧٥ .

مشاهداته بما هو معهود فيه من دقة ملاحظة وتوسع في التفاصيل وحيوية دافقة تجعلنا نشاطره حياته في خضم هذه الحياة المضطربة النكداء .

فقد كانت تربط ابن حيان صلة الصداقة ببعض من خاضوا في الفتنة واشتركوا في أحداثها ، ونعرف من هؤلاء أبا حفص ابن برد كاتب عبد الملك المظفر بن المنصور العامري ووزير سليمان بن الحكم المستعين وغيره من خلفاء الفتنة ، وكانت وفاته سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) ، وقد نقل عنه ابن حيان كثيراً من الأخبار المتعلقة بأواخر أيام العامريين وبالفتنة ، نذكر منها خبر مقتل عيسى بن سعيد القطاع ، وفي رواية ابن حيان له من التفصيل والإيعاب ما لا يتوفر إلا لشاهد عيان (١) .

وقد أشرنا من قبل إلى الصداقة التي جمعت بين ابن حيان وبين أبي محمد ابن حزم وأبي عامر ابن شهيد ، وكان كلاهما ممن استوزرهم عبد الرحمن المستظهر في خلافته القصيرة التي لم تتجاوز شهراً ونصف شهر ، ويبدو أن مؤرخنا كان يعرف المستظهر معرفة شخصية ، وأنه كان يقدره ويعجب به ويتمنى عودة الخلافة المروانية على يديه ، وإن كان شاهد أحواله يدل على أن ذلك كان ضرباً من المحال ، ففي كلام ابن حيان عنه كثير مما يوحي بالميل إليه والأسف على فقدته حينما انتقض أمره .

ويسجل ابن حيان أنه كان ممن حضروا المقصورة في وجوه الناس يوم بويع لعبد الرحمن المستظهر ، وقد وصف لنا هذه البيعة بما عهدناه فيه من الدقة والإحاطة بكل التفاصيل (٢) .

أما ابن شهيد فقد كان أوثق صلة بمؤرخنا ، وقد روى لنا ابن حيان خبر أحد المجالس التي كانت تضمهما مع صديق ثالث من أمراء البيت العامري ، هو أبو عامر محمد بن الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور ، وكان بمن يأنس بالأدب ، وقد اقترح أبو عامر بن المظفر على ابن شهيد أن يرتجل شعراً في وصف ذلك المجلس ، فأسعده ابن شهيد بذلك وقال آياتاً بجلها ابن حيان بخطه (٣) .

(١) نفس المرجع ١ / ١٠٢ - ١٠٧ .

(٢) نفس المرجع ١ / ٣٥ .

(٣) انظر الخبر في ابن بسلام : الذخيرة ، القسم الأول ١ / ٢٥٩ - ٢٦٠ . وقد كان أبو عامر ابن المظفر بدوره صديقاً حميماً لأبي محمد ابن حزم ، تحولاً إلى هذه الصداقة بعد كراهية وعداوة شديدة قص ابن حزم خبرها في كتاب طوق الحصاة ، ص ٢١ - ٢٢ .

ونعنى مع قلم ابن حيان وهو يسجل لنا أحداث تلك السنوات التى شهدت احتضار الخلافة المروانية ، فراه مرة أخرى ينقل لنا طرفا مما شهده بعينه ، من ذلك قوله عن محمد بن عبد الرحمن المستكنى الذى خلف المستظهر فى سياق الكلام عن ضعته وفسولته وهوان شأنه قبل أن يلى الخلافة :

« عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة . رأيت أيام الخسف بأهل بيته فى الدولة الحمودية — ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره — يقصد أهل الفلاحة أو ان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليما ومخاطبة » (١) . ولا بد أن ابن حيان رأى المستكنى على هذه الصورة المزرية قبل ولايته الخلافة فى غضون السنوات السبع المنقضية بين ٤٠٧ و ٤١٤ ، وهى التى كان خلفاء بنى حمود يتداولون فيها الملك بقرطبة .

ثم يدلى لنا ابن حيان من بين مشاهداته بوصف ذلك الموكب الرث المتواضع الذى دخل به هشام المعتد آخر خلفاء بنى أمية قرطبة فى ذى الحجة سنة ٤٢٠ هـ (يناير سنة ١٠٣٠ م) :

« وركب جيش قرطبة لاستقباله ، فدخل فى زى تقتحمه العين وهنا وقلة ، وعدم رواء وبهجة وعدد وعدة ، فوق فرس دون مراكب الملوك بحلية مختصرة ، سادلا سمل غفارة إلى ماتحتها من كسوة رثة ، قدامه سبع جنائب من خيل الموالى العامرين صبروها معه للزينة ، دون علم ولا مطرد ، يسير هونا والناس يهنتونه ويصيحون بالدعاء فى وجهه » (٢) .

ولنا أن نتصور المرارة الحزينة التى كان ابن حيان يتأمل بها هذا « الموكب » ، وما زالت فى ذاكرته العجيبة التى كاثت تحترق المشاهد وتستعيد لها فى اقتدار مذهل صور ذلك الموكب الآخر الذى رآه وسجله من قبل منذ اثنتين وعشرين سنة ، ونعنى به موكب عبد الملك المظفر بن المنصور فى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ، وهو متوجه إلى غزواته الأخيرة ، بما اشتمل عليه من فخامة وهيبة وجيوش كثيفة محكمة النظام ، وسلاح وعدد وعدة وبنود وأعلام وطبول ، وغير ذلك من مظاهر عزة الإسلام الأندلسى ، تلك العزة التى بدد تراثها أمراء الفتنة التعسون ومزقوا شمل البلاد ، وانحدروا بها إلى درك من الخزى والخذلان لم تعرفه الأندلس من قبل قط . .

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول / ١ / ٣٠٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ٣ / ١٤٧ .

ويختم ابن حيان هذه المشاهدات بوصف يكاد يكون المشهد الأخير في مسرحية فاجعة : هشام المعتد نفسه بعد أقل من سنتين من ولايته ، وهو نازل إلى ساباط الجامع المقضى إلى المقصورة طارحا نفسه على جماعة الوزراء وبقية رجال الدولة ينشد لهم الله في مهجته .

وينقل ابن حيان عن بعض سدة الجامع أن « أول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه إحضار كسيرة من خبز يسد بها جوع طفيلة له كان قد احتضنها سائرا لما بكه من قر ليلته تلك ، كانت تشكو الجوع ذاهلة عما أحاط بها ، فتزید فی همه ، وسأل سراجا يأنس بضوئه مع نسائه ، فأبكى من كلمه اعتباراً بعادية الدهر » (١) .

وتتقضى دولة بنى مروان من الأندلس إلى الأبد ، وينادى في الأسواق والأرباض بالآبقي أحد من بنى أمية ولا يكتفهم أحد ، ويصدر قرار شيوخ قرطبة وعلى رأسهم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بإخراج هشام المعتد ، ونفيه من قرطبة ، وإعلان نهاية ذلك الملك الذى تداوله على طول ثلاثة قرون نفر من أعظم من رأى العالم الإسلامى من الحكام جلالة ومقدرة ، حتى أصبحت أسمائهم مرتبطة بعزة الإسلام في تلك البلاد .

ويكتب على مؤرخنا أن يعيش في بلده قرطبة هذه السنوات البائسة التى يختم آخر فصولها في الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ (٣٠ نوفمبر ١٠٣١ م) . . وإذا كان ابن حيان قد هلم خلال هذه الفترة العصبية في نفسه وماله ، فان الفاجعة التى رأى بعينيه أحداثها الدامية ، والتى كان وطنه معها يحتضر احتضارا بطيئا استمر قرابة ربع قرن كان لابد أن تخلف في نفسه قرحا لا يندمل أبدا ، لاسيما أنه هو الذى رأت عيناه النور ودرجته سنو صباه في ظل تلك السنوات المشرقة التى وافقت آخر أيام المنصور بن أبى عامر وأيام ابنه المظفر .

ما أشد عنة ذوى الضمائر الحية المرهقة — وليس هناك شك في أن ابن حيان كان من هؤلاء — وهم يشهدون كيف ينحدر وطنهم إلى هذه الهوة الرهيبة ، دون أن يستطيعوا القيام بأى شئ لتجنب وقوع الكارثة ! . . .

ولم يكن لدى أبى مروان — وهو الذى ناط به القدر أن يكون مؤرخ الأندلس — إلا أن ينتضى قلمه ليسجل لنا هذه الأحداث على قسوتها وضراوتها وإيلامها للنفس ، عسى أن يكون

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢ / ١٥١ .

في تسجيلها عبرة لو نفعت العبر . ولو أنه كان يعرف أن دروس هذه المحنة ستبقى كما نسي غيرها من قبل :

« لا الآخر بما انتهى إليه من الأول معتبر ، ولا الغابر بما مر على الماضي مزدجر ، حكمة بالغة فما تغني النذر ، إذ كل مقدر كائن ، وكل مرئوب مسخر » (١) ! . . .

ابن حيان في ظل بنى جهور :

(٤٢٢ — ٤٦٢ هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٠ م)

حينما أعلنت نهاية خلافة بنى مروان في سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١) على أثر رأس القرطبيين من إعادة الروح إلى رفات الدولة النخرة كان ابن حيان ينتقل من الشباب إلى الكهولة ، فقد كانت سنه خمسا وأربعين سنة . ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ما ذكرنا من قلة جدوى البحث في مظان ترجمته عما يمكن أن يلقي ضوءاً على حياته خلال هذا النصف الثاني من عمره الطويل الذي زاد على تسعين سنة ، ويكون علينا من جديد أن نستقري كتابات ابن حيان لتتصيد إشارة هنا وإشارة هناك في ثنايا هذه الكتابات مما يمكن أن يكشف لنا شيئاً عن نفسه وعن حياته .

وكان أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بعد إلغاء الخلافة الأموية قد ابتكر لأهل قرطبة نظاماً جديداً للحكم أشبه ما يكون بالنظم الجمهورية ، فانه لم يستبد بالسلطة استبداد غيره من ملوك الطوائف ، وإنما كون مجلساً للحكم من شيوخ أهل قرطبة وانتخب أميناً لهذا المجلس ، وكان لا يصرف أمراً إلا بعد الرجوع إلى جماعة الشيوخ هؤلاء . وسرعان ما عاد هذا النظام « الديمقراطي » المبتكر بخير النتائج على قرطبة المنكوبة ، فعاد إليها بعض الصلاح ، واستتب بها الأمن ، ورخت الأسعار .. « فعجب ذوو التحصيل للذي أراه الله في صلاح الناس من القوة ، ولما تعطل حال ، أو يهلك عدو ، أو تقو جباية ، وأمر الله تعالى بن الكاف والنون » (٢) .

واستمر هذا الحكم المستنير طوال أيام أبي الحزم جهور حتى وفاته سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) ، فلما مات خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فاقتنى خطى أبيه في السياسة من درم الحدود

(١) من مقدمة ابن حيان لتاريخه الكبير — ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ١١٧ .

والرفق بالرعية وبسط الأمن ، وحاول أبو الوليد بذل مساعيه للإصلاح بين ملوك الطوائف الذين كانوا قد أحالوا أرض الأندلس إلى مسرح للتناحر العقيم الذى لم يكن وراءه إلا سفك دماء الرعية وانتهاك الحرم والأموال . وحسن استقباله للملوك المخلوعين عن عروشهم ، حتى أصبحت قرطبة ملاذا لكل من أخرج من بلده .

وظلت قرطبة على هذا النحو من الاستقامة والصلاح حتى بلغ الكبر مبلغه من أبى الوليد ابن جهور ، واشتد التنافس بين ولديه عبد الرحمن وعبد الملك ، فعمد فى أواخر أيامه إلى توزيع السلطة بينهما . ومن هنا بدأ الفساد يدب إلى الدولة الجهورية من داخل ، بينما كانت مطامع جيرانها من ملوك الطوائف تهدد سلامها من خارج ، فقد كان المعتضد بن عباد ملك لإشبيلية من ناحية والمأمون بن ذى النون ملك طليطلة من ناحية أخرى يشحذان أسلحتهما ويوجهان الحملة بعد الحملة للتغلب على عاصمة الخلافة القديمة ، وألح المأمون على قرطبة حتى ضرب عليها حصاراً شديداً فى سنة ٤٦٢هـ (١٠٧٠م) ، فاضطر عبد الملك بن محمد بن جهور - وكان قد أصبح الحاكم الفعلى للمدينة وأبوه أبو الوليد حى بعد - إلى الاستنجاد بغريم الملك الطليطلى العتيد : المعتمد بن عباد ، وكان هذا قد خلف أباه المعتضد الذى توفى فى السنة السابقة ، وأغتنتما المعتمد فرصة سانحة ، فوجه إلى قرطبة جيشاً نجح فى إرغام المأمون بن ذى النون على فك الحصار عن قرطبة والانسحاب إلى بلده ، ولكن المعتمد بن عباد لم يلبث أن غدر ببني جهور المستصرخين به - وما أكثر قصص الغدر فى العلاقات بين ملوك الطوائف - فاذا به يحتل قرطبة ويقبض قائد جيشه على بني جهور ويزيل رسم دولتهم ، ويأمر المعتمد بن عباد بنى آل جهور جميعاً بما فيهم الشيخ أبو الوليد إلى جزيرة شلطيـش حيث يقضون آخر أيامهم ، وبهذا توول قرطبة إلى ملك المعتمد صاحب لإشبيلية بعد أن استعصى أمرها على أبيه المعتضد طيلة حياته .

وبقيت قرطبة منذ هذا التاريخ حتى سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) حينما فتحها المرابطون تحت حكم المعتمد بن عباد ، ولم تخرج من ملكه إلا عدة أشهر من سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٥م) آلت خلالها إلى حوزة المأمون بن ذى النون .

فى السطور السابقة حاولنا أن نرسم صورة تقريبية للأوضاع السياسية التى عاشتها قرطبة خلال هذه الحقبة الطويلة الممتدة على طول نحو نصف قرن مابين سنتي ٤٢٢هـ (١٠٣١م) و٤٦٩هـ (١٠٧٧م) وهى التى تضم مابقي من حياة مؤرخنا ابن حيان .

في هذا العصر كتب على أبي مروان أن يعيش مجترًا آلامه وأحزانه وهو يرى بناء أمته الأندلسية ينتفض ركنًا ركنًا . وفي ظل هؤلاء الأمراء « الحمل » — على حد تعبيره — كان عليه أن يسجل تاريخ بلده الذي كان يحبه ويعتز به ، وإن كان يشهده وهو ينزل قليلا إلى مصير كان ابن حيان بحسه المرهف وضميره الواعي مدى نهايته ومنتهى مآله .

وقد اختار ابن حيان المقام في قرطبة في ظل الجهاورة ، ولعل هؤلاء كانوا أقل أمراء الطوائف سوءاً ، فقد نالت عاصمة الخلافة القديمة على أيديهم من الاستقرار والأمن وصلاح الأحوال مالم تنله أى إمارة أخرى من إمارات الطوائف . ولهذا فعلها كانت خير بيئة يستطيع فيها أن يسجل أحداث عصره . ثم إن قرطبة كانت في مركز متوسط من الأندلس يسمح بأن يتابع منها أخبار جميع أطراف شبه الجزيرة ، فضلا عن أنها كانت لم تفقد بعد مكانتها الروحية القديمة بين مدن الأندلس ، فظلت هى العاصمة العلمية والثقافية نحو خمسين سنة قضاها ابن حيان في بلده ومسقط رأسه ، وهى في النهاية جاع هذا العصر المشثوم المعروف باسم عصر الطوائف ، وإذا كنا قد عرفنا الآن طرفا من حياة قرطبة خلال هذه السنوات فلنر ما الذى حفظته لنا صحائف التاريخ من حياة ابن حيان نفسه ، ومدى صلاته بالبيئة الصغيرة التى عاش منذ سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) وهو في سن الكهولة حتى أتاه أجله وقد جاوز التسعين سنة .

الذى نستنتجه من الأخبار النيرة التى جاءتنا عن ابن حيان هو أنه واصل سلوكه الذى تحدثنا عنه فيما سبق في تجنبه الانتساب في الحياة السياسية في بلده ، وأن الله وقاه ذل الحاجة فلم يترام على أعتاب ملوك الطوائف ، كما فعل معظم كتاب عصره وشعرائه ممن لم يجدوا مفرًا — في سبيل لقمة العيش — من التشبث بخدمة السلطان . ومع ذلك فقد بلغ أبو مروان مكانة كبيرة بين هؤلاء الملوك ، وبث الله هيئته في نفوسهم ، ولكن ذلك أتيج له بالصفة الوحيدة التى لم يشأ أبدا أن يتلبس بغيرها ، وهى كونه مؤرخا .

يقول ابن بسام : « ولما تحدث بتاريخه في ملوك الطوائف بأفقتنا استشرفت طائفة منهم إلى مطالعة غرره ، وعدوها من فرص العمر وغرره ، واهتزوا لقطف زهره ، واستهلوه لياه ، وأجزلوا على ذلك قراه » (١) .

(١) الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٤ .

والحقيقة هي أن هذا الذي يدكره ابن بسام في معرض الثناء على ابن حيان والإشادة بذكوره كان من الممكن أن يجر مؤرخنا إلى خيانة ضميره ، والجناية على ما ألزم به نفسه في الكتابة من الحياد والنزاهة ، فان ملوك الطوائف ما كانوا ليجزوا القري لكاتب لا يعرف المجاملة ولا الملق مثل ابن حيان ، ومع ذلك فقد سلم أبو مروان من معرفتهم : سلم من يبيع قلمه لهم من ناحية ، ومن ناحية أخرى - وهذا أغرب وأعجب - سلم من غضبتهم على ماسطر في تاريخه من هجوم عنيف عليهم كلهم بلا استثناء . « قرب شامخ بأنفه ، ثان من عطفه ، قد مر في كتابه بفصل جرده لوضع حسبه ، وخلده أحدى باقية في عقبه ، فبرده ورد الظمان الرنق ، ويلبسه لبس العريان الخلق » (١) : ويذكر ابن بسام أنه لم يسلم من لسان ابن حيان إلا أمير بلده أبو الحزم ابن جهور وابنه أبو الوليد ، فلم يعرض لذكرهما إلا بخير (٢) . وهذا صحيح إلى حد ما ، فقد أحسن الثناء عليهما وإن لم يبعد عن الصدق فيما قال ، والمقارنة بين ابني جهور وغيرهما من ملوك الطوائف تدل على أنهما جديران فعلا بتلك العبارات التي أضفاها عليهما المؤرخ ، ولكن ابن حيان كان كالعهد به مقتصداً في ثنائه ، بل إنه لم يخل أميرى بنى جهور من بعض نقده في عدة مواضع من تاريخه (٣) .

ابن حيان ووظائف الدولة :

جاء في إشارتين عارضتين لأبي بكر ابن خير الإشبيلي وللمقرئ وصف لابن حيان بأنه « صاحب الشرطة » (٤) ، وهو شئ لم نجد عليه أى دليل فيما كتبه من ترجم لابن حيان من المؤرخين المتقدمين الجديرين بقدر أكبر من الثقة مما يستحق ابن خير والمقرئ . ثم إن هذه الخطة بطبيعتها بعيدة كل البعد عن مجال عمل ابن حيان ونشاطه الفكرى . ولو صحت نسبتها إليه - وهو ما نستبعد -

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ٢ / ٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، ٢ / ١١٤ .

(٣) نجد أمثلة على هذا النقد في الذخيرة لابن بسام : القسم الأول ٢ / ١١٦ ، والخلة السيرة لابن الأبار ٣١/٢ والبيان المغرب لابن عذارى ٣ / ١٩٨ - ١٩٩ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٤) ابن خير فهرسة : ص ٣٢٦ ، المقرئ : نفع ٢ / ١٠٢ . وانظر مناقشة الراهب ملتشور أنطونياك والاساذ فرسيه غومس لهذه المسألة في بحث هذا الأخير : « حول ابن حيان » ، مجلة الأندلس ، المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٤٦ : E. Garcia Gomez : A proposit de Ibn Hayyan, Al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 401-402 (= 7-8)

وقد أحسن كلا الباحثين صنعا حينما شكيا في صحة هذا الخبر .

فإننا لا نجد لها إلا تفسيراً واحداً ، وهو أن يكون قد أضفى عليه هذا اللقب على نحو تشريفي أو « فخرى » كما نقول الآن ، لا على أنه خطوة بمعنى الكلمة . وكان منح هذه الألقاب النظرية قد أصبح تقليداً جارياً منذ أيام الحكم المستنصر ، واستمر طوال الدولة العامة ، ولا نستبعد أن يكون قد بقي في ظل حكومة الجهاورة . وقد كان من بين من حملوا لقب « صاحب الشرطة » على سبيل المثال دون تمرس بالخطوة نفسها وتحمل أعبائها عالم لغوى كبير هو أحمد بن أبان بن سيد صاحب أبي على القالى والمتوفى أيام العامين سنة ٣٨٢هـ (٩٩٢م) (١) .

على أننا نعرف من تلك الصفحات القيمة التي أمدنا بها ابن بسام أن ابن حيان لم يبق بمعزل تماماً عن وظائف الدولة في ظل بني جهور ، فهو يقول نقلاً عن أبي مروان نفسه في معرض الحديث عن أبي الوليد محمد بن جهور :

« وكنت ممن جادته سماء هذا الرئيس أبي الوليد الثرة ، وكرم في فعله ابتداء من غير مسألة ، فأقحمني في زمرة العصاة المبرزة الحصل ، مع كلال الحد ، وضعف الآلة ، واهتدى لمكان خلتي ، وقد أرتشف الدهر بلالتي ، بأن قلدي إملاء الذكر في ديوان السلطان ، المطابق لصناعتي ، اللائق بتعرفي ، براتب واسع » (٢) .

ولعل هذا هو العمل الوحيد الذي أسند إلى ابن حيان في سنة لا نستطيع تحديدها ، ولكنها واقعة على كل حال خلال حكم أبي الوليد ابن جهور (٤٣٥ - ٤٦٢) وإن كنا نرجح أن ذلك كان في أوائل عهد أبي الوليد . أما « إملاء الذكر في ديوان السلطان » وهو العمل الذي يصرح ابن حيان بأنه المطابق لصناعته اللائق بتعرفه فلا يمكن أن يكون إلا إملاء التاريخ . ويبدو أن هذه الخطوة الجديدة الغربية إنما اخترعت اختراعاً لكي يتولاها ابن حيان ، فهذه هي أول مرة نسمع فيها عن مؤرخ يملأ ما يكتبه في ديوان السلطان وراتب واسع توظفه له الدولة ، وهذا شيء أشبه بما نراه في إسبانيا حتى اليوم في مختلف مدنها من وظيفة من يعرف باسم « المؤرخ الرسمي للمدينة » (Cronista Oficial)

ولسنا نعرف إلى متى ظل أبو مروان في هذا العمل بذلك « الراتب الواسع » ، فهو لا يعود للحديث عنه بعد ذلك ، ولا يشير أحد من ترجم له إليه .

(١) انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦ ؛ الحميدى : جلوة ، رقم ١٩٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١١٨/٢ .

على أنه لا هذه الوظيفة ولا « الراتب الواسع » منّا ابن حيان من أن يمضى فى كتابة تاريخه بما كان يمليه عليه ضميره ونزاهته ، فابن حيان لم يتحول أبداً إلى مؤرخ « بلاطى » من طراز من سبقوه مثل ابن القوطية أو عيسى بن أحمد الرازى ، ولا من تلوّه مثل ابن الصيرفى بالنسبة للمرابطين أو ابن صاحب الصلاة وابن القطان بالنسبة للموحدين .

محنة ابن حيان :

والدليل على ما نقول هو أن حياة أبى مروان فى ظل الجهاورة لم تمض وادعة مطمئنة كما كانت توحى بذلك علاقته الطيبة بهم ، وأغلب الظن أن صراحته واحترامه لقلمه وكبريائه على ذوى السلطان — كل ذلك أدى إلى تكدير صفو العلاقات بينه وبين بنى جهور ، بل إن أباه مروان تعرض من جراء ذلك لمحنة كادت تؤدى به إلى التهلكة . ولسنا نعرف الكثير من تفاصيل هذه المحنة ، فالنص الوحيد الذى يقص علينا خبرها — وهو بقلم ابن سعيد — مبتور الأول لسوء الحظ . ونورد فيما يلى ما بقى منه :

« . . . أبا الحرم ، فقال : والله لقد صدق ، وإنى والله ما أصلح لهذا الأمر ، ولكن مكرها لزمته . وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبو الوليد وقال : والله لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن فيه سواك ! أتريد أن يضرب بنا المثل فى سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ١٩ » (١) »

ويدل هذا النص على أن ابن حيان تعرض لأبى الوليد ابن جهور بنقذ لاذع شديد ذكر فيه أنه ما كان يصلح لولاية الأمر فى قرطبة ، وأن الحمية ثارت بابنه عبد الملك ، وكان على ما نعرفه من صفة المؤرخين ولاسيما ابن حيان لشخصيته شديد العجب بنفسه متهورا سريعا إلى الشر — ولندكر مثلاً على جسراته المنكرة سطوه بوزير أبيه ابن السقاء وإقدامه على قتله دون أن يعبا بتحذير والده وإنذاره — . وأقسم عبد الملك على الفتك بابن حيان . غير أن أباه الوليد — وهو السياسى الحصيف المحنك — بادر بحماية ابن حيان والوقوف دونه . وإن كنا نحس فى العبارات التى وصفه بها أن شعوره نحو مؤرخنا كان أقرب إلى الاحترام المشوب بالخوف منه إلى الحب أو المودة .

(١) ابن سعيد : المغرب ١ / ١١٧ .

والحديث عن مداراة ملوك الطوائف لابن حيان ومهاداتهم إياه يدل على أن هذا الشعور كان لديهم أعمق وأوضح ، فالحق أن ابن حيان لم يكن يتردد كثيراً في صك مسامعهم بما يكرهون وبما يعرب عن إحتقاره لإياهم واشتمزازه منهم ، ومع ذلك فلم نسمع عن أحد منهم أنه تعرض بسوء لأبي مروان ، مع كون القسوة المفرطة والفظاظة العمياء هي الصفة الغالبة على كثرتهم . ولا يفسر هذا إلا أن ابن حيان إنما كان لسانا ينطق بما كان يجيش في نفوس رعاياهم : يعلن إذ يسرون ، وبصرح إذ ينافقون . وهكذا لانظتنا بعيدين عن الصواب إذا قلنا إن ابن حيان الذي دمج سياسة ملوك الطوائف جميعا بأحكامه الصريحة الخشنة قد تحول في نظر الأمة الأندلسية إلى « بطل » شعبي تحف به هالة من الإجلال والإكبار ، فلم يقدم أحد من أمراء الفتنة — فيما عدا هذا الخبير المنسوب إلى عبد الملك بن جهور — على التعرض له بسوء ، ووقاه الله غائلهم لحسن حظه وحظ التاريخ الأندلسي ، ولو أننا لا نشك في أنهم كانوا يضيّقون به ، ويستثقلون طلّعه ، ويودون لو نجوا من عارضة قلمه .

هزرات في سلوك ابن حيان :

لعل خير ما يصور محنة رجال القلم في عصر ملوك الطوائف بيتان رواهما أحد أدباء قرطبة :

الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَىٰ أَنَّنِي كَضِيفٌ فِي لُجَّةِ الْيَمِّ
إِنَّ هِيَ قَالَتْ مَلَأَتْ حَلَقَهَا أَوْ سَكَنْتْ مَا تَنْ مِنَ الْغَمِّ^(١)

ولم يكن ابن حيان ممن يخلدون إلى السكوت ، بل قال وأكثر ، ووصف ملوك عصره بما هم أهل له ، وخاض لجة هذا اليم راكباً مخاطره ، فوقاه الله مغبة هذه الصراحة التي لم تكن دائماً مأمونة العواقب .

ولكن لكل قاعدة استثناء . وإذا كان ابن حيان قد حاول السلامة من كل صلة تربطه بملوك الطوائف ، فأننا نقدر ظروف هذا العصر الذي كان يجعل من المستحيل على مفكر أو كاتب أو شاعر أن ينجو من ذلك . حتى أجلة الفقهاء والمحدثين لم يستطيعوا تنكب الأمراء أو تجنب الانتشاب في خدمتهم . ويكفي أن نشير في هذا المقام إلى اثنين من أئمة الفقه والحديث من جيل ابن حيان

(١) ابن بشكوال : الصلة ص ٥٩٣ .

ومعاصريه : هما أبو عمر بن عبد البر المقرئ (ت ٤٦٣-١٠٧١) الذى طرحت به الفتنة ، فضى
بحجوب الأندلس من شرقها إلى غربها متصلا بسلاطينها متوليا القضاء على كورهم ، مداريا لهم على
جلالته وفضله ، وأبو الوليد الباجي (ت ٤٧٤-١٠٨٢) الذى « كثرت القالة فيه لمداخلته الرؤساء ،
وولى قضاء أماكن تصغر عن قدره » ، وعوتب على صحبة السلطان فقال : « لولا السلطان لنقلتني
الذر من الظل إلى الشمس (١) » .

وقد اجتهد ابن حيان فى التمسك بمبدئه فى تجنب السلاطين وتحرير قلمه من كل ربقة ، ولكنه
اضطر راغما فيما يبدو لنا إلى الإغضاء عن هذا المبدأ فى مناسبات قليلة على كل حال . فنحن نرى
فيما حفظه لنا ابن بسام من أخباره مظاهر لهذا التناقض فى سلوك ابن حيان .

وأول هذه المظاهر اهداؤه تاريخه الكبير إلى المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، وهو يصور
فى مفتتح هذا التاريخ ما يشبه أن يكون شعوراً بالإثم والمهانة من أجل ذلك ، فيقول :

« وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسى ، وخبأه لولدى ، والضن بفوائده الجملة على من تنكب
لإحدى به إلى ذى ومنقصتى ، طويت على ذلك كشحا وأمضيته عزما ، إلى أن رأيت زفافه إلى ذى
خطبة سنية أتتني على بعد الدار : أكرم مخاطب ، وأسنى ذى همة ، الأمير المؤثر الإمارة المأمون
ذى المجددين ، الكريم الطرفين ، يحيى بن ذى النون » (٢) .

والحق أننا لا نعرف كيف فعل ابن حيان لكي يقدم إلى المأمون هذه « الهدية » من تاريخه ،
وهو الذى وصف من مساوئ أسلاف ابن ذى النون ومفاسد حكمهم مالا نعتقد أنه يعجب هذا
الأمير أو ينال منه أدنى قبول .

والأعجب من ذلك فى هذا التناقض هو ما نراه فى فقرات أخرى ينقلها ابن بسام من رقعة
كتبها أبو مروان إلى المعتمد بن عباد يهنته بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذى النون الذى
كان قد بعث بجنوده لحصار قرطبة فى الأحداث التى سبق لنا أن أشرنا إليها فى سنة ٤٦٢ (١٠٧٠)
والغريب هنا هو أن ابن حيان يرمى المأمون بن ذى النون بأسوأ التهم ، مع أنه هو الذى أهدى إليه من
قبل تاريخه وطرزه باسمه .

(١) المقرئ : نفح الطيب ٢ / ٢٧٣ ، ٢٧٨

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٨٨ / ٢

والحق أن هذه سقطة من ابن حيان لا يتأتى له فيها عذر ، ولا تتوجه حجة . وقد كنا نتمنى أن يسمو ابن حيان بقلمه عن التنزل إليها . ولكن ألم يكن في ذلك تكليف له ولأمثاله بما لا يطيقون ؟ وهل كان في وسع مؤرخنا أن يتجرد مجرداً خالصاً من كل ما يربطه بملوك هذا العصر الذين هانت عليهم دماء الناس وحرمانهم إلى أبعد حد يمكن تصوره ؟

وقد وقع أبو مروان أيضاً في مثل ذلك التناقض في حديثه عن أبي الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء وزير أبي الوليد محمد بن جهور ، وتصيد ابن بسام هذه العثرة من مؤرخنا الكبير ، فعقب على فصل له في ذم ابن السقاء بقوله :

« وقد رأيت ابن حيان مدح ابن السقاء في غير ما موضع من كتابه » (١) ، ثم أورد نصوص هذا المدح وقارن بينها وبين ما كتبه ابن حيان بعد مقتله على يد عبد الملك بن جهور (٢) .

وفطن ابن حيان إلى ما قد يلاحظه القارئ من تناقض ، فأقبل يعتذر عن ذلك بقوله :

« وقد كنت كتبت من وصف ظاهر محاسنه أو ان اعتلاقه بقهرمة أميرنا محمد بن جهور ، وعددت من محاسن خصاله ما لم يبعد عن الصدق عنه ، لأخذنا بظاهر ما نموه في العيون وقت بنائه لنفسه ، وتنفيقه لكساده ، من طأة الخلق ، وحسن الاحتمال ، ولين الجانب ، وخفة المواطأة ، وجودة الوساطة ، معرضين فيه عن ذكر ما لم يكن لنا التفات (في الأصل : النفث !) عنه مما في باطنه من ندالة الخيم ، ونطف الصحبة ، وتهمة الخلوة . . . وأغرى بذوى الهيئات ، وحملة المروات ، فأزال صوته . . . وحط أقدارهم . . . فارتفع الأمر بالمعروف جملة ، ووسع أهل السلامة الدخول تحت التقية ، فصرنا ممن أخذ بذلك في ذكره فيما كتبناه من ظاهر أخباره مدة ستر الله عليه ، إلى أن ارتفعت بزوال سلطانه ، وأمان عدوانه ، ففارقنا الحزم في ذكره ، ولزمنا العذر عنه بالنقض لما أسلفناه من تقريظه » (٣) .

(١) نفس المرجع ، القسم الرابع ١ / ١٨٦ .

(٢) فصل ابن حيان واقعة مقتل ابن السقاء القرطبي فيما ينقله عنه ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٨٦/١ - ١٩١ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ٣ / ٢٥٥ - ٢٥٧ ؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٤٩ ؛ وانظر كذلك ابن الأبار : الحلة السيرة ٢ / ١٨٦ حيث ينقل عن ابن حيان أبياتاً قالها أبو عبيد البكري في مدح ابن السقاء .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ / ١٨٧ - ١٨٨ .

ولا يسعنا نحن أن نلتمس هذا العذر لابن حيان ، ولكننا نجد في عصره وسلوك رجاله على عهد ملوك الطوائف ما يفسر مسلكه هذا إن لم يبرره أو يقيم بعذره . . .

ورحم الله أبا مروان ، فقد كان قاتل الحق في أيامه كالسائر على جمر الغضى ! . . .

أخبار عن صداقات ابن حيان وحياته الخاصة :

وإذا كان ما نعرفه عن حياة ابن حيان العامة قليلا فإن ما نعرفه عن دائرة صداقاته وحياته الخاصة أقل .

أما أصدقاؤه فقد أشرنا من قبل إلى نفر من أهل الفكر عرفهم واتصل بهم في عالم الفتنة البربرية المضطرب ، أو ممن كانت صلته بهم ترجع إلى شبابه المبكر حينما كان أبوه واحداً من رجالات الدولة العامرية . وذكرنا من هؤلاء أبا محمد بن حزم ، وأبا عامر بن شهيد الذي كان مؤرخنا أوثق صلة به وإخلاصاً لمودته .

ولسنا نعرف من صداقات ابن حيان على عهد دولة بني جهور التي استغرقت الشطر الأعظم من عمره إلا غداة آخر بالغ القلة . ويبدو لنا أن ابن حيان كان بطبيعته رجلاً كثير المعجبون به ولكن قل أصدقاؤه . ومن هؤلاء القلة الشاعر الكبير أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون (٣٩٤ - ٤٦٣ / ١٠٠٣ - ١٠٧١) ، وكان ابن زيدون يقيم في كنف بني جهور حتى سنة ٤٤١ (١٠٤٩ - ١٠٥٠) حينما اجتذبه بلاط المعتضد ابن عباد في إشبيلية « فخلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (١) . والفقرات التي أفرد بها ابن حيان للحديث عن أبي الوليد بن زيدون تدل على إعجاب متبادل بين الرجلين ، وعلى تقدير كبير من ابن حيان لهليده الذي لم يلبث أن أصبح وزير لإشبيلية المشار إليه بالبنان المقرب إلى ملكها المعتضد ثم إلى ابنه المعتمد من بعده . وقد أمد أبو الوليد مؤرخنا ببعض الأخبار التي تضمنها كتابه كما سنرى عند الحديث عن مصادره (٢) .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٢٩١ .

(٢) نذكر هذه المناسبة أن أبا الوليد بن زيدون كان إلى جانب شهرته في ميدان الشعر ذا مساهمة في علم التاريخ ، فقد ألف كتاب « التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس » على غرار كتاب « التبيين » في خلفاء المشرق للمسمودي « انظر رسالة ابن سميذ في التذييل على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، في المقرئ : نفح الطيب ٤ / ١٧٣ ، وكتاب بولس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٤٧) .

وقد استمرت هذه الصلة بعد ذلك بين ابن حيان وابن صديقه أبي بكر محمد بن أبي الوليد ابن زيدون على الرغم من فارق السن بين الرجلين ، وكان أبو بكر قد خلف أباه على وزارة المعتمد ابن عباد ، ثم رافق أميره العبادي إلى قرطبة حينما فتحها في سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) ، واستقر في موطن أبيه وزيراً للفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون (١) . وكان أبو بكر وفيما لصديق أبيه مواصلاً له ، وينص ابن حيان على ذلك إذ ينص في الحديث عنه أنه كان على « . . . اشتداد في رعاية متقدم الدمة ، لم يفقد لإخوان أبيه معها إلا عينه » (٢) .

وتشهد بذلك رسالة من أبي بكر بن زيدون إلى أبي مروان مع هدية وجه بها إليه ، مع اعتذار عن نزارة الهدية وضآلتها ، ومراجعة ابن حيان له عن رسالته . ومنها نعرف أن الهدية كانت تشتمل على أحمال من القمح والزيت والدهن . ويبدى ابن حيان فرحه بهذه الصلة التي آتته في وقت وافق عدما من القوت والازاد . ويستخلص غرسية غومس من هذه الرسالة أن ابن حيان كان فقيراً (٣) ، ولسنا نزع أنه كان ذا مال وثروة ، فالذين من طراز ابن حيان لم يكن من الممكن أن يتمولوا ويغتنوا ، ولكن التعبير عن الشكر على الهدية والفرح بوصولها لا يقتضى بالضرورة أن يكون الفقر هو ملى تلك العبارات .

(١) عهد إليه المعتمد بن عباد بعد ذلك بمهمة سياسية بالغة الخطر ، هي السفارة التي وجهها إلى يوسف بن تاشفين لاستصراخه ودعوته إلى نجدة ملوك الطوائف الذين كان الأذفوش (ألفونسو السادس) قد ألح عليهم بالفزوات والمغارم منذ أن استولى على طليطلة سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) . ولكن أبا بكر بن زيدون كان من رجال المعتمد أولاً وأخيراً ، فلما قرر يوسف ابن تاشفين خلع ملوك الطوائف جميعاً كان أبو بكر من حرضوا المعتمد على المقاومة ، وأرسل ابن تاشفين جيشاً إلى قرطبة بقيادة جرور الحشمي فعاربه على أبوابها الفتح بن المعتمد الملقب بالمأمون وكان يقوم بأمره الوزير أبو بكر ، فلما اقتحم المرباطون قرطبة قتل الفتح ووزيره ابن زيدون هذا في سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . انظر في ترجمته ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ - ١ / ٣٥٦ - ٣٥٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢ / ٥٣ ، ٩٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١ / ٦٩ ؛ عبد الله بن بلقين الزيري : التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري ، بتحقيق الأستاذ ليلى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٥٥ ، ص ١٧٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٧٢٣ - ٧٢٤ ؛ ابن عبد المنعم الحيمري : الروض المعمار في خبر الأقطار ، ط . القاهرة سنة ١٩٣٧ ، بتحقيق ليلى بروفنسال ص ٨٦ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١ / ٣٥٦ .

(٣) غرسية غومس : حول ابن حيان ، ص ٤٠٣ (٩ من الفصل) . ونلاحظ بهذه المناسبة أن صاحب المقال ظن أن موجه الهدية هو الشاعر أبو الوليد بينما هو في الحقيقة ابنه أبو بكر .

ويعرف من إحدى هذه القطع من رسائل ابن حيان التي احتفظ بها ابن بسام صداقته لدى الوزارتين أبي القاسم بن عبد الغفور (١) ، وقد نقل صاحب « الذخيرة » فقرات من رسالتيه إليه يذكره في إحداها بحاجة لدى سلطانه — ولابد أنه يعنى المعتمد بن عباد — (٢) ، ويرجوه في الأخرى أن يرد له سفرأ من تاريخه كان قد أعاره إياه (٣) ، ونرى ابن حيان ينص في هذه الرسالة الأخيرة على أن هذا السفر هو ختام « تاريخه » ، ونعتقد أن تاريخ هذه الرسالة — مثل سابقتها — ينبغي أن يكون بعد سنة ٤٦٢ (١٠٧٠) وهي التي استولى فيها المعتمد على قرطبة ، وأبو مروان قد بلغ نحو خمس وثمانين سنة . وكان في هذا الوقت يشعر بأنه أدى رسالته وختم حياته العلمية بعد أن فرغ من كتابة تاريخه حتى وقته .. ففي ذلك تفسير لهذا « السفر الأخير » الذي أنهى به مؤرخنا مدونته الكبرى ، وأعاره إلى أحد أصدقائه لكي يؤنس برأيه فيه .

كذلك نعرف من أصدقاء ابن حيان فقيها نبيها مؤرخا أورد ابن بسام فصلا لأبي مروان في نعيه وتأبينه (٤) ، وهو أبو القاسم سوار بن أحمد بن سوار القرطبي . ونعرف مما احتفظ لنا ابن بشكوال والقاضي عياض — وكلاهما يعتمد على ابن حيان — أنه كان فقيها حافظا للمسائل فصيح اللسان محببا إلى الناس معظما لديهم ، وأنه كان « حافظا لأخبار قرطبة وسيرملوكها المروانيين » ، ويذكر عنه أن كان « لا يلتق السلطان ولا يتصرف له ولا يأتي الحكم ولا يشهد عندهم لعله أوجبت ذلك » . وكان مولده سنة ٣٦٩ (٩٧٩ — ٩٨٠) وتوفي سنة ٤٤٤ (١٠٥٢ — ١٠٥٣) (٥) . ونرى من

(١) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي ، كان صاحباً للمعتمد بن عباد قبل أن يخلف أباه على ملك إشبيلية ، ثم تولى له الوزارة بعد ملكة . وتوفي في أيامه . وهو في عنوان شبابه في سنة لم يحددها من ترجعوا له . وكان من أسرة توارثت الوزارة والكتابة في إشبيلية ، فقد ولت الكتابة كذلك ابنه أبو محمد وحفيده أبو القاسم . وهذا الأخير هو صاحب كتاب « أحكام صناعة الكلام » الذي وقف على تحقيقه ونشره الأستاذ محمد رضوان الداية ، ، بيروت سنة ١٩٦٦ . وانظر حول أبي القاسم بن عبد الغفور المذكور هنا ابن سمي : المغرب ١ / ٢٤١ ، ومقدمة كتاب « الأحكام » المشار إليه ص ٧ والمصادر المثبتة في هذين الموضعين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩٣/٢ .

(٣) نفس المرجع ٩٧/٢ .

(٤) الذخيرة ق ١ - ١٠٩ / ٢ .

(٥) انظر ترجمة سوار بن أحمد في الصلة لابن بشكوال ، رقم ٥٢٣ ، وترتيب المدارك للقاضي عياض ، المجلد

الثاني ص ٧٨٦ .

هذه الأخبار أن هذا التعفف عن ملابسة السلطان فضلا عن الإشتراك في الإهتمام بالأخبار التاريخية كان مما وثق أو اصر الصداقة بين الرجلين .

إلى ابن بسام يرجع الفضل في الاحتفاظ بهذه القطع القليلة من مكاتبات ابن حيان أوردها المؤلف نماذج لثوره ورسائله ، ولكنها لا تهتمنا من هذه الناحية ، فان أروع نماذج نثر ابن حيان إنما هي صفحات تاريخه كله ، أما هذه الرسائل التي وجهها إلى هذا أو ذاك من السلاطين أو الوزراء والكتاب حتى إلى أصدقائه الأثيرين لديه فإنها نازلة عن طبقة نثره الجزل القوي الرائع الذي أودعه كل مادته التاريخية ، وإنما قيمتها في أنها تتضمن أخباراً تلقى أضواء على حياة مؤرخنا وصلاته بأهل عصره .

ونلحق في النهاية بهذه الطائفة من الأخبار رسالة نقلها صاحب « الذخيرة » أيضا كان مؤرخنا قد بعث بها إلى صاحب الصلاة ابن زياد (١) . والرسالة طريفة حقا ، فنحن نعرف منها أن ابن حيان كان قد ضاق أشد الضيق بجارية له « فلت غربه ، وفرت كبده ، ونظمت أشتات المصائب في سلكه » ، فقد دأبت على سرقة ما اشتملت عليه دار أبي مروان متواطئة مع جارتين لها خبيثتين هما ابنتا قباط الحنات ، وكانتا تسكنان في الدار الواقعة في ظهر دار ابن حيان ، فازالت خادام مؤرخنا « تناولها ما تسله في الفلتات والخرجات حتى استأصلت متاع البيت » .

وكان أبو مروان قد شكّا جاريته إلى صاحب المدينة ، فعزم هذا على اعتقال هاتين الجارتين وثقافهما ، لولا أن ابن زياد — ربما لفضل طبيته فيه وسلامة نية — بادر فتشع فيهما واستنقذهما ، ويبدو أنه كان يحسب السلطان (ولا بد أن المقصود هنا أبو الوليد ابن جهور أو ابنه عبد الملك) منحرفا عن ابن حيان ، فتدخل في الأمر على هذا النحو ، على أن أبا مروان يننى عن خاطر ابن زياد هذا الوهم ، ويعاتبه أشد العتاب على ما كايده به في شأن الجارتين الخبيثتين ، ثم يدعوه إلى أن يترك لصاحب المدينة تنفيذ ما تقضى به العدالة .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩١/٢ - ٩٣ . ولا بد أن ابن زياد المقصود هنا هو الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الله بن محمد بن زياد الأنصاري الذي ترجم له ابن بشكوال في الصلة ، فقال إنه كان الخطيب بالمسجد الجامع بقرطبة وصاحب صلاة الفريضة به ، ولد سنة ٣٩٢ (١٠٠٢) وروى في الأندلس عن القاضي يونس بن عبد الله بن مغيث ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وكان فاضلا ناسكا تهبوا إلى الناس زفيع المنزلة عندهم معظما لدى السلطان وتوفى سنة ٤٧٨ (١٠٨٥) . انظر الصلة ٤٣١ .

ولسنا نعرف لإلام انتهت هذه القضية ، ولكن ما نقله ابن بسام من رسالة أبي مروان يسمح لنا على الأقل بأن نطلع من هذه الكوة الصغيرة على دار ابن حيان ، ونتعرف على بعض أسرار بيته وحياته اليومية .

السنوات الاخيرة :

(٤٦٢ — ٤٦٩ / ١٠٧٠ — ١٠٧٦)

إلى هنا ينتهى ما جمعناه من أخبار ابن حيان ، ويبدو لنا أن هذه الأخبار تنقطع — كما ينقطع عنا تاريخه — فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، وهو قد شارف الخامسة والثمانين . على أن الذى نعرفه هو أن أبا مروان ظل قويا متمعا بحواسه كلها حتى هذه السن . أما السنوات الست أو السبع الباقية من عمره فيلوح لنا أنه قضاها آمن السرب فى كسر داره القرطبية راضيا عن العمل الكبير الهائل الذى حققه على طول السنوات الماضية فى نشاط وحيوية لم يعرفا النصب أبداً .

لقد أدى أبو مروان الرسالة كخير ما يكون الأداء ، وحقق الغاية من حياة أملت عليه منذ البداية أن يصبح « حامل لواء التاريخ فى الأندلس » كما قال عنه أحد تلاميذه . ولم يبق عليه بعد هذه الحياة الحصبة الطويلة إلا أن ينتظر النهاية فى سكونية وطمأنينة ، شأن كل من أدى الواجب وبلغ الأمانة .

وأخيراً تأتى هذه النهاية يوم الأحد لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٤٦٩ (٣٠ أكتوبر ١٠٧٦) . . . فى يوم من أيام الحريف القرطبي الدافئ . وتنطفى شعلة هذا القلم الفذ الذى حملة أعظم مؤرخ عرفته أرض الأندلس . . .

ثقافة ابن حيان العامة :

أبو مروان بن حيان من النماذج الفذة على سعة الثقافة وحسن الإدراك ، والاستفادة الحقة من محصوله فن القراءات . والذى يتأمل ما بقى لنا من إنتاجه الهائل يزداد اقتناعاً بأنه كان من أجمع علماء العصور الوسطى لعلوم الإسلام ، ولكن الذى يلاحظ لأول وهلة هو أنه كان عميق الإدراك لرسالة حياته الحقيقية ، وهى كتابة التاريخ ، فهو لم يفتح على نفسه باب التنويع والتفرع ، أو

الإستطالة بسعة العلم ليكتب « في غير ما فن » كما نسمع عن كثير من علماء عصره ، جانين بذلك على النوع الذي كان يمكن أن يجيدوه من التأليف لو فرغوا له وانقطعوا إليه كان ابن حيان ممن فطنوا إلى قيمة « التخصص » الدقيق بالمفهوم الحديث لهذا اللفظ . فقد كان يحسبه أن يفرغ لكتابة التاريخ ، وحتى في هذا الفن لم يوسع على نفسه الخرق ، فلم يخطر بباله أن يكتب تاريخ الشرق والغرب أو الأمم القديمة والحديثة ، وإنما اقتصر على تاريخ بلده منذ الفتح الإسلامي حتى عصره ، دون أن يتجاوز ذلك إلى غيره .

ومن هنا نرى أن مشاركة ابن حيان في غير التاريخ من العلوم كانت جانبية ثانوية ، وحتى فروع الثقافة الأخرى لم تكن إلا جداول أو روافد تمد تيار علمه الحقيقي الذي كرس له حياته ، وهو علم التاريخ . وهكذا نرى أن مفهوم ابن حيان لمادة كتابته كان أشبه ما يكون بمفهومنا الحديث للتخصص العلمي الحق .

ومع ذلك فإن معاصري ابن حيان ومن أتى بعده حتى من تلاميذه والمعجبين به لم يدركوا هذه الحقيقة ، ويبدو لنا ذلك مثلاً في فهرسة أبي بكر بن خير الإشبيلي التي يخرج قارئ الفقرات الخاصة بابن حيان فيها بنتيجة غريبة : وهي أن أبا مروان كان مجرد راوية لبعض كتب اللغة أو لبعض مسانيد الحديث ، أما ابن حيان المؤرخ فلا نرى له وجوداً هناك .

وقد شارك ابن حيان حقاً في هذين الميدانين ، فروى بعض الكتب في اللغة والأدب والحديث ، وأدلى بآراء قيمة في تلك الميادين وفي النقد الأدبي وفي المسائل الفقهية ، نراها ماثلة في ثنايا ما كتب ولكننا نحسب ابن حيان نفسه لم يعر كل ذلك إلا قيمة ضئيلة ، ولعله فعل لمجرد « الإحماض » أو ترويح النفس من عناء عمله المتواصل الدؤوب في الميدان الذي لم يكده يخرج عنه إلى غيره ، وهو ميدان التاريخ .

ولنر الآن هذه المشاركة الضئيلة المتواضعة لابن حيان في غير مجال الكتابة التاريخية :

نجد أولاً من مظاهر اهتمامه بالأدب روايته لكتاب « الفصوص » لصاعد البغدادي . وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن حيان نص على قراءة هذا الكتاب على مؤلفه صاعد منفرداً في داره سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، (١) ، وكان ابن حيان آنذاك يناهز العشرين ، ومع ذلك فإن هذه الرواية

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة صاعد البغدادي ، رقم ٥٤٠ ، ص ٢٣٣ .

كفلت لابن حيان مكانا بارزا بين رواة اللغة والأخبار . ولعل ذلك يرجع إلى ندرة كتاب الفصوص بعد أن ألح في نقده والهجوم عليه كثير من أدباء قرطبة ، وأمر المنصور بن أبي عامر بتغريقه في النهر حينما أخذ الناس يتندرون بأكاذيب صاعد ومخرقاته .

وقد روى ابن خير هذا الكتاب عن أبي محمد بن عتاب عن ابن حيان عن صاعد ، وهي الرواية الوحيدة التي يسجلها المؤلف للكتاب (١) ، مما يدل على أن ابن حيان قد أصبح المستودع الوحيد له في عصره . وقد استفاد أبو مروان من « الفصوص » في تاريخه « المقتبس » ، إذ اقتطف منه بعض الحكايات يذكرها استطرادا في التعليق على نادرة وقعت في الأندلس (٢) . وقد كان من المعتقد أن هذا الكتاب ضاع واندثر إلى الأبد ، ولكن البحث قد أثبت أن هناك الآن منه نسختين مخطوطتين في المغرب الأقصى ، وأغلب الظن أن كليهما من رواية ابن حيان الذي لم يعد في الأندلس من يقرئ هذا الكتاب سواه (١) .

ولم تكن هذه هي مشاركة ابن حيان الوحيدة في رواية كتب اللغة ، فنحن نجد في فهرسة ابن خير أيضا أن روايته لكتابين من كتب يعقوب بن السكيت (٢) كانت عن طريق ابن حيان :

(١) فهرسة ابن خير ص ٣٢٦ .

(٢) القسم الثالث من المقتبس ، بتحقيق الراهب ملتشور أنطونيا ، ط . باريس سنة ١٩٣٧ ص ١٤ .

(٣) إحدى هاتين النسختين محفوظة في مجموعة من الكتب النادرة كانت ملكا للعالم المحدث المغربي الشيخ عبد الحى الكتاني - غفر الله له - وقد ضمت هذه المجموعة إلى الخزنة العامة في الرباط . وقد كان من حظي أن اطلعت على هذه المخطوطة في رحلة لي إلى المغرب ما بين ١٤ و ٣٠ يولية سنة ١٩٦١ من أجل البحث عن بعض المخطوطات الأندلسية الجديدة ، وكانت تلك النسخة تحمل رقما مؤقتا هو ١٦٦٨ ك . أما الأخرى فهي محفوظة في مكتبة جامع القرويين بمدينة فاس تحت رقم ٥٨٧/٤٠ . والحقيقة أن الكتاب على الرغم من كل ما اتهم به صاعد ذخيرة باللغة القيمة ، ويستحق أن تتضافر الجهود على نشره . (انظر حول هذا الكتاب تقريراً كتبته عن الرحلة المذكورة ونشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٤٥٠ ، ٤٥٨ من القسم العربي) .

(٤) أبو إسحاق يعقوب بن إسحاق بن السكيت من كبار علماء اللغة ، أخذ عن الأصمعي وأبي عبيدة من البصريين وعن الكسائي والفراء من الكوفيين ، ونادم الخليفة العباس المتوكل غير أن هذا الخليفة أمر بقتله لتشيع كان يظهره في سنة ٢٤٤ (٨٥٨) . انظر في ترجمته بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ط . دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ٢/٢٠٥ - ٢٠٩ ؛ والزبيدي طبقات اللغويين والنحويين ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

— أولها كتاب « الألفاظ » الذى رواه أبو مروان بن حيان عن أبي عمر أحمد بن عبد العزيز ابن أبي الحباب عن أبي على القالى (١) ؛

— والثانى كتاب « إصلاح المنطق » ، وقد رواه أيضا بنفس السند (٢) .

كذلك نقل ابن خير تعليقا لابن حيان على أحد كتب العالم اللغوى الأندلسى الكبير أبي غالب تمام بن غالب المعروف بابن التبانى (المتوفى سنة ٤٣٦-١٠٤٤) يدل على تضلع ابن حيان فى علوم اللغة وممارسته لها . ونجد مثل هذه التعليقات فى مواضع مختلفة من « المقتبس » .

أما علم الحديث فلم يؤثر عن ابن حيان فيه إلا تعليق ينقله تلميذه أبو على الغسانى شيخ محدث الأندلس عنه عن أبي الوليد بن الفرضى حول مصنف أبي على بن السكن ، ثم خبراً عن ابن السكن يرويه ابن حيان عن شيخه المحدث النسابة أبي القاسم بن أبي يزيد المصرى (٤) . وربما دلنا اهتمام ابن حيان بإيراد ثناء شيخه ابن الفرضى على مصنف ابن السكن ونقله بعض أخباره على أن هذا الكتاب كان من بين مرويات مؤرخنا وإن لم نجد نصاً صريحاً على ذلك .

وناحية أخرى من ثقافة ابن حيان تستحق منا الإشارة هى كتاباته فى ميدان الجغرافية الأندلسية ، وقد أفرد الدكتور حسين مؤنس هذا الجانب بالدراسة فى بحثه القيم عن « تاريخ الجغرافية

(١) تمام السند : أبو بكر بن خير — عبد الرحمن بن أحمد بن رضا المقرئ — أبو الوليد مالك بن عبد الله العنقى — ابن حيان — ابن أبي الحباب — أبو على القالى — محمد بن القاسم بن بشار الأنبارى — أبوه القاسم بن بشار — عبد الله بن محمد بن رستم مستمل يعقوب بن السكيت — ابن السكيت . انظر الفهرسة ص ٣٢٩ .

(٢) تمام السند : ابن خير — الشريف بن الأحمر القرشى — أبو عبيد البكرى — ابن حيان — ابن أبي الحباب — أبو على القالى ، ثم بقية السند كما هو فى الحاشية السابقة حتى ينتهى إلى ابن السكيت . انظر الفهرسة ص ٣٣٢ . هذا وقد نشرت دار المعارف كتاب « إصلاح المنطق » فى سنة ١٩٤٩ بتحقيق الأستاذين عبد السلام هارون والشيخ أحمد شاكر .

(٣) ابن خير : فهرسة ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٤) ابن خير : فهرسة ص ١٢٥ . وقد وردت نسبة ابن أبي يزيد فى هذا النص « القصرى » بدلا من « المصرى » ، وهى تحريف . وقد اعتمادا على هذا النص فى إثبات تلمذة ابن حيان على هذا المحدث الذى كان قد قدم من مصر إلى الأندلس فى سنة ٣٩٤ (١٠٠٤) وبقى فى قرطبة حتى الفتنة القرطبية ثم عاد إلى مصر فتوفى بها . أنظر ما سبق أن كتبناه فى الحديث عن شيخ ابن حيان .

والجغرافيين في الإندلس» (١) ، وقد كان التاريخ بطبيعته متصلا بالجغرافية ، وكان التقليد الجارى بين مؤرخى الإسلام في العصور الوسطى أن يبدأوا مؤلفاتهم التاريخية بمقدمات جغرافية طويلة . ويظن الدكتور مؤنس أن ابن حيان نقل بالفعل في مقدمة كتاب «المقتبس» الجزء الجغرافى الذى صدر به أحمد بن موسى الرازى تاريخه ، بدليل أن هناك قطعا كثيرة من هذا القسم قد وصلت إلينا منسوبة إلى ابن حيان ، أو مما نص ابن حيان على نقلها عن الرازى . هذا فضلا عن الفوائد الجغرافية الكثيرة التى يضيفها ابن حيان فى ثنايا تاريخه شرحا أو تعليقا أو تحديدا للمواضع وخطط المدن والحصون والقرى والكور ، حتى إن هذه الفوائد الجغرافية التى يمكن استخراجها من تاريخ ابن حيان تكاد تؤلف كتابا صغيرا . وهذا صحيح ، على أنه لا يكتفى لعد ابن حيان من المشتغلين بالجغرافية ، وإن كان يكفيه فضلا أنه قد تخرج على يده واحد من أعظم الجغرافيين المسلمين فى العصور الوسطى ، وهو أبو عبيد البكرى .

ولا يبقى علينا بعد ذلك فى معالجة إسهام ابن حيان فى غير ميدان الكتابة التاريخية إلا ما نسب إليه من الضرب بسهم فى قول الشعر ، والإشارة الوحيدة إلى ذلك هى التى وجدناها فى كتاب «المغرب» لابن سعيد (٢) حيث يقول فى ترجمته المبتورة الأولى ؛

« وأنشد له نظما وقال : سبحان من جعله إذا نثر فى السماء ، وإذا نظم تحت تخوم الماء . »

ولم تحدثنا الترجمة عن صاحب هذا الحكم النقدى الذى يعنى أن شعر ابن حيان كان نازلا كثيرا عن طبقة نثره ، ولا يسهل علينا التحقق من صحة هذا النقد إذ لم يبق لنا من نظم ابن حيان بيت واحد ، ولو أننا أرجع صواب الحكم . وعلى كل حال فإن ابن حيان لم يفقد شيئا بفقد ما قد يكون نظم من شعر ، فإن ذلك لم يكن من أدواته ، وما كان ليضيف إلى فضله قليلا ولا كثيرا .

• • •

على كل حال كانت هذه هى « الحملات » الوحيدة لأبى مروان بن حيان خارج ميدان تخصصه الحقيقى ، وهو كتابة التاريخ . ولكنها على تواضعها وقلتها نالت من اهتمام كتاب التراجم والطبقات والبرامج أكثر مما استحقه جهده التاريخى الهائل ، فقد كان هؤلاء بطبيعة عملهم وتكوينهم الثقافى أكثر تهما برواية الحديث منهم بتتبع كتب التاريخ .

(١) نشر معهد الدراسات الإسلامية بمديرية سنة ١٩٦٧ ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) ١١٧/١ .

تلاميذ ابن حيان :

أما تلاميذ ابن حيان فلننا نعرف منهم عددا غير قليل ، ولكنه لا يقارن بعدد من كان يتردد على مجالس شيوخ الفقه والحديث ، ويظهر لنا أن هذا العدد من خاصة تلاميذه كان يتردد عليه في داره ، إذ لا نعلم أن أبا مروان تحلق في أحد المساجد حيث تكتظ المجالس بطلبة العلم .

وأهم ثبت بأسماء تلاميذ ابن حيان وتراجهم هو الذي استطعنا استخراجهم من « صلة » ابن بشكوال . ونورد فيما يلي أسماء هؤلاء التلاميذ :

١ - طاهر بن مفوز المعافري الشاطبي (٤٢٧ - ١٠٣٦/٤٨٤ - ١٠٩١) وكان تلميذاً لأبي عمر بن عبد البر النري مختصا به ، كما روى كذلك عن العذري وأبي الوليد الباجي فضلا عن أخذه عن ابن حيان(١) .

٢ - أحمد بن سليمان بن خلف الباجي (ت ١١٠٠/٤٩٣) ، وهو ابن الفقيه المالكي المشهور أبي الوليد الباجي وخليفته في حلقة بعد وفاته(٢) .

٣ - مالك بن عبدالله العتيبي السلمي (نسبة إلى سهلة المدور) ٤٣٧ - ١٠٤٥/٥٠٧ - ١١١٣(٣) ، وقد أشرنا إليه من قبل بصفته من رواة كتاب « الألفاظ » لابن السكيت عن ابن حيان .

٤ - عبدالله بن محمد بن دري التجيبي الركلي (ت ١١١٩/٥١٣ - ١١٢٠) . وكان من أصحاب الفقيه أبي الوليد الباجي وابن حيان(٤) .

٥ - عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (٤٣٣ - ١٠٤١/٥٣١ - ١١٣٧) ، وهو من أجل الشيوخ المحدثين . وكان ممن أجاز لهم ابن حيان رواية « الفصوص » لصاعد البغدادي(٥) .

(١) ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥٤٥ .

(٢) صلة ، رقم ١٥٣ .

(٣) صلة ، رقم ١٣٩٤ .

(٤) صلة ، رقم ٦٤٠ .

(٥) صلة ، رقم ٧٤٧ .

٦ — أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن طريف بن سعد (ت ١١٢٦/٥٢٠) ، ولعله من أهم هؤلاء التلاميذ ، إذ ينص ابن بشكوال على أنه من رواة تاريخ ابن حيان الكبير ، كتبه بخطه . وعن هذه النسخة أثبت ابن بشكوال معظم نقوله عن ابن حيان . وهى بحكم طبيعة اهتمام مؤلف الصلة لاتكاد تتجاوز تلك الأخبار الموجزة العارية ، إذ هى متصلة بأسماء الرجال ومواليدهم ووفياتهم وشيوخهم وتلاميذهم . ومن أسف أن ابن بشكوال لم يستخرج لنا من تاريخ ابن حيان — وكان بين يديه — مادة أوفر كان من شأنها أن تثرى كتابه وتضفى عليه قيمة كبيرة — كما أضفت النقول عن ابن حيان على الذخيرة ، بل إنه فى تدينه البسيط رأى لزاما على نفسه أن يحذف كل ما من شأنه أن يتعرض فيه ابن حيان بالنقد لسلوك المترجم له . ونحتم هذا الثبوت بثلاثة نعتبرهم أهم تلاميذ ابن حيان (١) :

٧ — أما الأول فهو ابنه عمر بن حيان بن خلف ، وقد قدمنا ذكره لالتميز خاص فى هذا الباب من الناحية العلمية ، وإنما لكونه ابن مؤرخنا العظيم من ناحية ، ثم بسبب الظروف الفاجعة التى وقع فيها مصرعه . ولسنا نعرف الكثير عن عمر هذا ، إذ تقتصر السطور القليلة التى كتبها عنه ابن بشكوال والضبى (٢) أنه تلمذ على أبيه وعلى الفقيه أبى محمد بن حزم والمحدثين ابن عتاب وحاتم ابن محمد المعروف بابن الطرابلسى . ويذكر الضبى أنه رأى بخط يد هذا الشيخ الأخير إجازة له مؤرخة فى سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ، ووصفه أبو الحسن بن مغيث شيخ ابن بشكوال بأنه كان من أهل النبيل والذكاء والفصاحة الكاملة ، ثم يضيف إلى ذلك قوله : « وقتله المأمون الفتح بن محمد بن عباد بالمدور سنة ٤٧٤ (١٠٨١) ومثل به » . وكان الفتح بن محمد (المعتمد) بن عباد عاملا لأبيه على قرطبة ، ولسنا نعرف الأسباب التى حملته على الفتك بعمر بن حيان ، فابن بشكوال لا يضيف شيئا إلى ما ذكره فى ذلك النص المقتضب ، ولكنها على كل حال جريمة أخرى شنعاء توضع فى حساب هؤلاء الأمراء الجائرين المرخصين لدماء الناس وحرمايتهم من أمراء الطوائف . وقد كان تاريخ بنى عباد فى ذلك أحفل تواريخهم بالجرائم السود : شرعها المعتضد بن عباد وواصلها ابنه المعتمد — الذى نال من عطف الناس والمؤرخين ومن رثائهم بعد ذلك ما لا يستحق — ، ثم

(١) انظر مقدمة الصلة ، ص ٨ ، وترجمة ابن طريف رقم ١٧٠

(٢) الصلة ، رقم ٨٦٦ ؛ البنية ، رقم ١١٦٣ .

أبنائه من بعده ، على أن الفتح « المأمون » هذا دفع ثمن جريمته وغيرها مما أرتكبه بعد ذلك بعشر سنوات ، إذ قتله المرابطون عند محاصرتهم وفتحهم قرطبة سنة ٤٨٤ (١٠٩١) . بعد أن خان هو وأبوه قضية الإسلام في الأندلس . ورحم الله عمر بن حيان ، فلعله دفع بدمه ثمن تلك العبارات القاسية — مع أنها لم تخرج قط عن الصدق والعدل — التي دفع بها أبوه حكم أولئك الأمراء الجبناء من خضعوا وذلوا أمام أعداء دينهم وأمتهم ، وصبوا بأسهم كله على رعاياهم ، حتى أدال الله دولهم ، وطهر المرابطون من رجسهم أرض الأندلس .

٨ — والثاني هو المحدث الكبير أبو علي الغساني حسين بن محمد المعروف بالجنياني (٤٢٧ — ١٠٣٦/٤٩٨ — ١١٠٥) ، وكان رأس المحدثين بقرطبة ، فضلا عن علمه الواسع بكتب اللغة وزواية الأشعار وكتب التواريخ . وإلى أبي علي الغساني المذكور ترجع الأخبار القليلة التي أوردها ابن بشكوال حول ابن حيان ، وبعض عبارات الثناء التي تدل على وفائه لذكرى أستاذه وتقديره العميق له (١) .

٩ — وآخر من نذكره من هؤلاء هو الجغرافي اللغوي العظيم أبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ / ١٠٩٤) (٢) . وقد كان لعبد الله بن عبد العزيز البكري — وهذا هو اسمه — مكانة خاصة في نفس ابن حيان . يوسم فيه الذكاء والنجابة منذ شبابه الغض حينما قدم إلى قرطبة مع أبيه الذي كان المعتضد بن عباد قد خلعه عن إماراته في ولبة وشلطيش سنة ٤٤٣ (١٠٥١ — ١٠٥٢) ، فقد أثنى عليه ابن حيان حينئذ قائلا إنه « بذئ الأقران جمالا وبهاء وسروا وأدبا ومعرفة » (٣) . ويبدو أن أبا عبيد البكري لازم ابن حيان خلال إقامته في قرطبة ، بل لعل شيخه أبا مروان هو الذي وجهه إلى الاشتغال بعلم الجغرافية الذي كان وثيق الارتباط بكتابة التاريخ (٤) . ونحن نعرف أن لأبي عبيد

(١) الصلة ، رقم ٣٢٩ .

(٢) الصلة ، رقم ٦٣٢ .

(٣) ابن الأبار : الحلة المبراة ١٨٢/٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٢٤٢/٣ . وقد قدر الدكتور حسين مؤنس سن أبي عبيد في ذلك الوقت بما يتراوح بين عشرين وخمس وعشرين سنة . انظر تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ١١٥ .

(٤) أشار الدكتور حسين مؤنس في بحثه الذي أشرنا إليه (ص ١١٦) إلى ما ذكره ابن بشكوال من تلمذة البكري على ابن حيان ، ولكنه شك في صحة هذا الخبر محتجا بأن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قليلة لا تغني كثيرا في التعريف به . ولنا نجد في ذلك أي غرابة ، فقد كان أبو عبيد آنذاك شابا في سن الطلب ، ولم يكن قد بلغ من السن ولا العلم ولا المكانة =

كتابين في الجغرافية أحدهما « معجم ما استعجم » ، والآخر هو « المسالك والممالك » الذي يعتبر — على حد تعبير الدكتور مؤنس صاحب خير دراسة صدرت عن الجغرافيين الأندلسيين حتى اليوم — « قمة من قمم التأليف الجغرافي في هذا النوع عند المسلمين » (١) . ولا شك عندنا في أن إحاطة البكرى الواسعة باللغة والأدب ، واهتمامه في سياق جغرافيته بالأخبار التاريخية ، وما اتسم به من شمول النظرة ودقة التحقيق — كل ذلك مما نرى فيه أثر ابن حيان العميق في تلميذه ماثلا لاختفاء به (٢)

كتب ابن حيان :

كان المستشرق الإسباني الأستاذ غرسية غومس على حق حينما نبه في سنة ١٩٤٦ إلى خطر الاهتمام المبالغ فيه من جانب الباحثين المحدثين بالكتب الضائعة أو المفقودة للمؤلفين القدامى على حساب كتبهم التي سلمت لنا من غائلة الزمان (٣) . وليس هناك شك في قيمة البحث حول ما ضاع أو اندثر من كتب ، فهو لازم لبحث شخصية المؤلف في مجموعها ، وهو ألزم لتتبع ما يمكن أن يكشف عنه أو يعثر عليه من هذه الكتب كلها أو أجزاء منها ، ولكن الخوف هو من أن يجهل مثل هذا البحث على دراسة ما هو موجود فعلا ويمسر بين الأيدي من الكتب ، ثم إن من الأجدي على البحث العلمي بغير شك توجيه العناية إلى هذه الطائفة الأخيرة من الكتب ، وتعمق تحليلها واستصفاء فوائدها .

وقد عني كثير من الباحثين السابقين بتعداد مؤلفات ابن حيان ، وحملتهم رغبة ساذجة في إعلاء شأن مؤرخنا وتضخيم شخصيته على أن ينسبوا إليه عددا هائلا من الكتب دون تحقيق ولا تمحيص ،

ما يستحق منه أن يفرد له ابن حيان أكثر مما أفرد ، بل إن ثناء أبي مروان عليه في العبارة التي ذكرناها ، وهو بعد في صغرا إنما يدل على نفوذ نظر ابن حيان وصواب حكمه على تلاميذه وتمييزه للناهين منهم . وعلى كل حال فإن تلمذة أبي حيان على شيخ مؤرخي الأندلس ثابتة تؤكد ما — فضلا عن نص ابن بشكوال في ترجمته — تلك الإشارة الواردة في فهرسة ابن خير الإشبيل عن سندروايتة لكتاب « إصلاح المنطق » ليمقوب بن السكيت (ص ٣٣٢) ، إذ جاء فيها : « . . . وقرأته أيضا على الشيخ الوزير أبي حبيب عبد الله بن عبد العزيز البكري ، قال : حدثني به الشيخ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان . . . » (ويبدو أن الدكتور حسين مؤنس لم يطلع على هذا النص) .

(١) ص ١٤٨ .

(٢) عن البكري ومراجع ترجمته وقيمة مؤلفاته الجغرافية أنظر هذا البحث القيم الذي أشرنا إليه للدكتور مؤنس

ص ١٠٨ - ١٤٨ .

(٣) انظر مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٦ (= ص ١٢ من الفصلة) .

فنحن نرى بونس بويجس مثلاً يقول إنه « نظم شعراً كثيراً (١٤) وألف كتباً كثيرة في علوم الدين ومباحث الكلام (علم اللاهوت) وفي غير ذلك من المعارف ، حتى إن ما ينسب إليه من كتب لا يقل عن خمسين » (١) . فهذا حكم خاطئ من أوله إلى آخره . إذ لم يعرف لابن حيان شعر كثير ولا قليل ، ولا حفظ عنه أنه كتب في أى مبحث ديني أو كلامي . وأما عدد كتبه فإنه لا يكاد يجاوز أصابع اليد الواحدة كما سنرى .

ولنر الآن كتب ابن حيان كما وصلت إلينا أخبارها في المراجع المتأخرة :

١ - المقتبس :

وهو الكتاب الذى نقدم بهذه الصفحات لإحدى القطع التى وصلت إلينا من أصله المخطوط . وليس هناك لإجماع على صورة لعنوان هذا الكتاب ، فعنوان القطعة المخطوطة التى نشرها الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا في باريس سنة ١٩٣٧ عن أصل محفوظ في المكتبة البودلية بأوكسفورد هو « المقتبس في تاريخ رجال الأندلس » ، بينما عنوان القطعة التى كانت محفوظة في مكتبة ورثة سيدى حمودة بقسنطينة (الجزائر) والتى استنسخ منها المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا المخطوطة المحفوظة في مكتبة المجمع التاريخي الملكي بمدريد هو « المقتبس في أخبار بلد الأندلس » . أما ابن الأبار فإنه يذكر الاسم في هذه الصورة : « المقتبس من أنباء أهل الأندلس » ، وهكذا جاء في موضعين من كتابين له (٢) . أما القطعة التى نقدم لها بهذه الصفحات فلا تحمل عنواناً ، إذ هي مبتورة الأول .

والحقيقة أن المئونة هينة في هذا الخلاف ، فالكتاب قد اشتهر باسم « المقتبس » فحسب ، بل إن الشائع في كتابات المؤرخين عنه هو الحديث عنه باعتباره قسماً من « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وأما الصيغ المختلفة لعنوان الكتاب فهي لا تغير من جوهر الأمر شيئاً .

وأما لفظ « المقتبس » فقد أطبق المستشرقون الذين سبقوا إلى الاهتمام بالكتاب مثل دوزى وبونس بويجس وملتشور أنطونيا ولينى بروفنسال وغرسية غومس على نطقه بكسر الباء ، أى بصيغة اسم الفاعل ، وليس لنا اعتراض على تسمية الكتاب بهذه الصورة ، فهي محتمل وجهاً من

(١) المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٥٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ٢٩٠/١ ؛ إعطاء الكتاب ص ١٧٢ .

التأويل لا يبعد عن الصواب ، ولكننا نوثر أن ندعوه « المقتبس » بفتح الباء بصيغة اسم المفعول ، فهذا هو الأشيع في عناوين الكتب (١) . والخطب هين على كل حال .

وموضوع « المقتبس » هو تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى فى سنة ٩١ (٧١١) حتى قريب من عصر المؤلف ، وقد انتهينا من بحث هذه المسألة — كما سئرى — إلى أنه فى الواقع ينتهى بنهاية خلافة الحكم المستنصر على وجه التقريب . وقد كان كتاب المقتبس من بين الكتب التى افتخر بها الفقيه أبو محمد بن حزم فى رسالته فى فضل الأندلس ، إذ يقول :

« ومنها كتاب التاريخ الكبير فى أخبار أهل الأندلس تأليف أبى مروان بن حيان ، نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف فى هذا المعنى ، وهو فى الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتحال » (٢) .
ويعلق ابن سعيد على هذا النص فيقول :

« وأما التواريخ فكتاب ابن حيان الكبير المعروف بالمتين فى نحو ستين مجلدة . وإنما ذكر ابن حزم كتاب « المقتبس » وهو فى عشر مجلدات ، والمتين يذكر فيه أخبار عصره ، ويعمن فيها بما شاهده ، ومنه ينقل صاحب الذخيرة » (٣) .

هذا وسوف نتحدث بمزيد من التفصيل عن كتاب « المقتبس » ، وعن المشكلات التى يثيرها النصان السابقان حول تحديد موضوعات كل من كتابى ابن حيان الرئيسيين فى موضع ملائم من هذا التقديم .

(١) يذكرنا هذا بالخلاف حول تطلق عنوان كتاب آخر فى تاريخ الأندلس ، هو « المسهب فى أخبار المغرب » للحجارى ، فقد أشكل المقطع الأول من الاسم على القراء إلى حد جعل المعتمد بن عباد ملك لإشبيلية يرسل إلى اللغوى الكبير أبى الحجاج الأعلم الشنتمرى يستفسره عن صحة قراءة الاسم ، وهل هو بفتح الهاء أم بكسرها . وأجاب الأعلم برد طويل يحتج لقراءته بالكسر (انظر المقرئ : نفح الطيب ٢١٦/٥ - ٢١٩) ، ولو أن الكثيرين قبلوا فى الاسم القراءتين معا واعتبروها صوابا . ورجح المقرئ أن يكون بكسر الهاء لما يقتضيه المقطع الثانى من السجعة ، إذ ينتهى بلفظ « المغرب » بكسر الراء . على أن هذا لا ينطبق على عنوان « المقتبس » ، فأخر المقطع الثانى ، وهو الأندلس ينطق بضم اللام ، وهكذا لا يوائم اللفظة الأولى سواء أكانت بفتح الباء أم بكسرها .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ١٦٧/٤ .

(٣) نفس المرجع ١٧٢/٤ .

٢ - المتين :

وهو الذى وصفه ابن سعيد فى النص الذى أوردناه بأنه الكتاب الذى يذكر ابن حيان فيه أخيار عصره ويعمن فيه مما شاهده ، وأنه كان يتألف من ستين مجلدة . وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن فى كتب المؤلفين التالين لعصر ابن حيان نقولا كثيرة منه أهمها وأوفرها ما نجده فى كتاب « الذخيرة » لابن بسام الشنبري ، حتى إنه لو استخرجت تلك النقول من مختلف أقسام الذخيرة المطبوعة والمخطوطة ومن بعض المراجع الأخرى مثل الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى وكتب ابن الأبار ومغرب بن سعيد وصلة بن بشكوال وترتيب المدارك للقاضى عياض — لأمكن « إعادة بناء » جزء كبير من « المتين » .

ويبدأ التأريخ فى « المتين » على ما نرجح بأحداث الفتنة البربرية التى انفجرت فى الأندلس — على بصر ابن حيان وبين يديه — فى سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) ، وينتهى قبل موت مؤرخنا بسنوات قليلة — فى نحو سنة ٤٦٣ (١٠٧١) ، فهذا على الأقل هو التاريخ الذى تنقطع فيه نقول ابن بسام من كتاب « المتين » ، أى أنه يتناول تأريخ نحو أربع وستين سنة من حياة الأندلس المعاصرة لابن حيان ، وهى معظم هذا العصر الذى يعرف باسم « عصر ملوك الطوائف » .

وهناك مسألتان تعرض لهما الباحثون قبلنا عند الحديث عن التمييز بين كتابي المقتبس والمتين — ولنصرف النظر الآن عن كتاب « أخبار الدولة العامرية » الذى سنفرده بالبحث بعد ذلك — :

أما الأولى فقد كان المستشرق الهولندى العظيم راينهاردت دوزى هو أول من تعرض لها ، فقطع فيها برأى تلقفه جميع الباحثين من بعده وتبعوه عليه ، وهو أن « المقتبس » كان أول كتب ابن حيان فى الظهور ، وهو شئ يبدو منطقيا بعد أن رأينا نص ابن حزم السابق حول « تاريخ » ابن حيان ، وتفسير ابن سعيد لهذا النص بأنه لا يقصد إلا « المقتبس » دون غيره ، لاسيما وأن ابن حزم يصف فيه ابن حيان بأنه لم يجاوز الاكتمال . واستنتج دوزى من ذلك أن « المقتبس » هو كتاب ابن حيان وهو فى طور الشباب ، بينما كان « المتين » هو ثمرة إنتاجه إبان شيخوخته ونضجه (١)

(١) انظر مقدمة دوزى لنشرته لكتاب البيان المغرب .

Reinhardt Dozy : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne intitulée Albayano l-mogrib, ed. Leyde, 1848, intrd., p. 73.

وردد هذا الحكم كل من مورينو نيتو Moreno Nieto في بحثه : « دراسة نقدية للمؤرخين الأندلسيين » ، (وهو الخطاب الذى ألقاه عند استقباله عضوا فى المجمع الملكى التاريخى الإشباني فى ٢٩ مايو ١٨٦٤) (١) ، ثم بونس بويجس (٢) ، وملتشور أنطونيا (٣) .

وقد يكون صحيحا إلى حد ما أن ابن حيان أخرج « المقتبس » إلى الناس قبل أن يخرج المتن ، فالكتاب الأول بحكم موضوعه الذى يتناول تاريخ الأندلس حتى آخر خلافة الحكم المستنصر كان من الممكن استيفائه واستكماله دون أن تكون هناك مثونة على المؤلف فى إخراجه ، ولا ضرورة لإعادة النظر وتكراره فيه ، بينما كان « المتن » بحكم معالجته للتاريخ المعاصر محتاجا إلى تنقيح مستمر وإضافات يقتضيها تتابع الأحداث الواقعة تحت بصر ابن حيان وبين يديه .

ولكن الذى لا نراه مقبولا هو أن يفرق بين الكتابين على أساس أن « المقتبس » نتاج شباب و « المتن » نتاج شيخوخة . فالذى نتصوره هو أن ابن حيان لم يسر حسب خطة موضوعة تقضى بتأليف « المقتبس » أولا ، حتى إذا فرغ منه بدأ بكتابة المتن ، بل كان شروعه فى العملين فى وقت واحد . أما المقتبس فهو فى جملة يعتمد على المدونات التاريخية السابقة ، أى أنه كان يتطلب جهداً من البحث فى مختلف المراجع والمقارنة بين رواياتها وتسجيل نتائج هذه الأبحاث ، فهو جهد أشبه بما يبذله الباحث منا اليوم حينما يجمع مادة موضوعه من مختلف المراجع القديمة ، واضعاً إياها أمامه ، ومرتباً مادتها ، وراجعا إلى هذا الكتاب مرة ، وإلى ذاك مرة أخرى . وهو عمل لا يكاد يعوز ابن حيان فيه إلا مكتبة غنية بالمصادر ، ولحظات هدوء ، وعكوف على القراءة والتقييد . وأما « المتن » فهو كتاب يختلف منهج كتابته عن ذلك كل الاختلاف ، فهو تسجيل للتاريخ المعاصر الذى يعيشه المؤلف وتتلاحق أحداثه بين يديه ، وكان لذلك لا يقتضى من أبى مروان

(١) Moreno Nieto : Estudio critico sobre los distoriadores aràbigo-españoles, ed. (١) Madrid, 1882.

(٢) الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٨٤ .

(٣) فى الرسالة التى تقدم بها لنيل الدكتوراه من جامعة مدريد فى سنة ١٩٣٣ بعنوان « ابن حيان القرطبي وتاريخه للأندلس » ص ٣٢ . وقد نشرت هذه الرسالة بعد مقتل مؤلفها الراهب الإشباني فى سنة ١٩٣٧ (فى الحرب الأهلية الإسبانية) وذلك فى مجلة « دفاتر تاريخ اسبانيا » التى يصدرها « معهد تاريخ الثقافة الإسبانية فى العصور الوسطى والحديثة » التابع لكلية الفلسفة والآداب بجامعة بوينوس أيرس (الأرجنتين) ، المجلد الرابع ، سنة ١٩٤٦ ، ص ٥ - ٧٢ .

Melchor Antuña : Ibn Hayyan de Cordoba y su Historia de la España musulmana, en Cusdernos de Historia de España, vol. IV, 1946, Buenos Aires, pp. 5-72.

الرجوع إلى كتاب ، وإنما يحتاج إلى استقايها الآخر من مصادر أخرى : منها النزول إلى الشوارع والأسواق ، والتجول في أنحاء المدينة لكي يرى ويشاهد ما يقع ، ثم يسجل ما رآه ، ويجتمع بالناس في المجالس العامة والخاصة ، فيسمع منهم ما يروى من أخبار ، وما يتناقل من إشاعات ، وما يأتى به القادمون من هذه المدينة أو تلك إلى قرطبة — فهو لم يغادر بلده أبداً طيلة حياته — ، ثم يعود المؤرخ إلى داره ، فيقيد كل ما شاهده وما سمعه ، فاذا أعوزه خبر من مكان بعيد من بلاد الأندلس كتب إلى نفر من أصدقائه أو « مكاتبيه » كما يسميهم — ضرب من « المراسلين الخاصين » كما يقال اليوم بلغة الصحافة — ، لكي ينبثوه بما جدد لديهم من أخبار ، ويتلقى رسائلهم فينعم النظر فيها ، وينتقى منها في كتابه ما يراه متفقاً مع منهجه في الكتابة بعد أن يصوغها بأسلوبه ويسمها بميسمه الخاص الذي لا يجارى .

« المقتبس » إذن جهد باحث مخلص إلى العمل في هدوء مكتبته بعيداً عن ضجج المدينة وضجيجها ، وأما « المتين » فهو ثمرة تسجيل هذا الصخب والضجيج نفسه لا في قرطبة فحسب بل وفي كل أنحاء الأندلس . . . هو أشبه بجهد رجل من رجال صحافة اليوم يتشمم الأخبار و « يبحث عن المتاعب » جرياً وراء الحقيقة أينما كانت ! . . .

والذى نكاد نقطع به — وهو الذى يقتضيه منطق الأمور — هو أن ابن حيان — في جهده « لتغطية » تاريخ الأندلس كله حتى وقته — إنما كان يقوم بالعملين معا وفي وقت واحد ، بل إننا نعرف مما سبق أن ذكرناه أنه كان يسجل مشاهداته وذكريات أبيه خلف كاتب المنصور منذ أواخر أيام الدولة العامية وهو دون العشرين ، ورجح أنه كان يكتب « يوميات » يقيد فيها كل ما يرى ويسمع أو يبلغه عن ثقة . وظل على ذلك طوال سنوات الفتنة وما بعدها . ولابد أنه كان كلما تجمعت له مادة عن تاريخ الأندلس الذى كان يعيشه يوماً بيوم رتبها وهدبها وأعدّها لتألف منها بعد فصول « المتين » ، فاذا أصبح له وقت فراغ عاد إلى كتاب « المقتبس » الذى كان أخف مثونة عليه ، إذ هو التاريخ الذى لا خشية من ضياعه ولا نسيانه ، بحكم أن مراجعته من الكتب السابقة متوفرة بين يديه . وهكذا مضى أبو مروان في كتابيه معا ، ولعله يكون قد فرغ من « المقتبس » قبل أن تكتمل له من « المتين » مادة يرتضيها لإخراج أول « طبعة » منه إلى الجمهور ، وإن كنا نعتقد أن الفارق الزمني بين الكتابين ليس طويلاً على كل حال .

ونقول أول « طبعة » كما نقول اليوم لأن « المتين » باعتباره التاريخ الحى المتحرك كان فى حاجة دائماً إلى تكرار النظر والإضافة أو الحذف والاستدراك . وقد تبيننا من الأخبار التى جمعناها عن هذا الكتاب أن ابن حيان أخرج نسخاً منه مختلفة بمضى الزمن .

ويبدو أن إحدى هذه « الطبعات » — وليست أولها بغير شك — كانت متداولة فى الأندلس قبل سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) ، وذلك لأننا نرى ابن بسام — فيما ينقل عنه ابن عذارى (١) — يقول عن واقعة بطرنة (Paterna) التى هزم المسلمون فيها فى تلك السنة :

« لم يقع إلى خبر وقعة بطرنة فى كتاب ابن حيان ، فكنت أوليه حكمه ، وأعتمد فيه وصفه الرائق ونظمه » .

وما كانت هذه الواقعة الشنيعة لتفوت قلم ابن حيان ، ولهذا فإن التفسير الوحيد الممكن لذلك هو أن ابن بسام إنما رجع إلى إحدى نسخ المتين التى كتبت قبل سنة ٤٥٥ .

وفى « المغرب » لابن سعيد (٢) نص آخر له دلالة . ففى ترجمة أبى القاسم سراج بن عبد الله ابن سراج قاضى الجماعة بقرطبة بعد أبى بكر يحيى بن محمد بن يبنى بن زرب ينقل ابن سعيد عن ابن حيان قوله بعد ذكر ولايته القضاء سنة ٤٤٨ (١٠٥٦) ، « وهو مقيم على حاله إلى وقت إملاء هذا الكتاب وقد نيف على الثمانين » . فإذا عرفنا أن سراج بن عبد الله المذكور توفى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) عن ٨٦ سنة (٣) كان معنى ذلك أن ابن حيان قد أخرج هذه النسخة التى اطلع عليها ابن سعيد من « المتين » بعد سنة ٤٥٠ وقبل ٤٥٦ .

ويبدو أن ابن بسام بعد ما كتب ما ذكرناه وقعت له نسخة أخرى من « المتين » تناول فيها أخبار سنة ٤٥٦ ، ومنها نقل خبر خوض أهل قرطبة فى الذى رأوه من تنافس ولدى أبى الوليد محمد بن جمهور : عبد الرحمن وعبد الملك إلى آخر الخبر (٤) . ويعقب ابن بسام على ذلك بقوله :

« إلى هذا الموضع انتهى ما وجدته من أخبار الدولة الجهورية من كتاب ابن حيان وقت

(١) البيان المغرب ٢٥٣/٣ .

(٢) المغرب ١٦٢/١ .

(٣) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٥١٧ ، والضبط : البنية ، رقم ٧٨٠ .

(٤) الدخيرة ق ١ - ١٢٠/٢ - ١٢١ .

تجرى للفراغ من تميم هذا الديوان ، واستعجلت لإخراج هذه النسخة المقررة منه ، وأعاني تتبعه لآثارهم ، وشردت على وجود لفظه ونظمه لبقية أخبارهم ، ولم أجد بدا من نظامها ، لتجئ أخبارهم بتمامها ، فرقعت الضحى بالغالس ، وجمعت بين حافر العبر وجبهة الفرس «(١)» .

ومع ذلك فنحن نرى في الذخيرة أخباراً تلى ما يذكره هنا ، منها كائنة بربشتر التي استولى عليها المجوس (النورمانديون) في سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) (٢) ، وقضية اغتيال الأديب أبي مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبى سنة ٤٥٧ (١٠٦٥) (٣) ، ويظهر أنها مستمدة من نسخة أخرى تلى التي تقدمتها .

ثم وقعت لابن بسام مخطوطة تبدو هي الأخيرة ، إذ نجد فيها تسجيل أحداث سنتي ٤٦٢ و٤٦٣ (١٠٧٠ - ١٠٧١) نذكر منها حدثاً وقع في سوق إشبيلية بسبب نزاع بين يهودى ومسلم في ١٣ من ذى الحجة سنة ٤٦٢ (٥ نوفمبر ١٠٧٠) ، وتنتهى هذه الأخبار بذكر وفاة الشاعر أبي الوليد ابن زيدون في رجب سنة ٤٦٣ (أبريل ١٠٧١) (٤) . وهذا هو آخر ما نعلم أن ابن حيان قد سجله في تاريخه ، إذ أن وفاته لم تتأخر بعد ذلك إلا ست سنوات . ولعل ابن حيان كان آنذاك يضع اللمسات الأخيرة لآخر « طبعات » المتين ، وإلى هذا التاريخ ترجع إعارته « السفر الأخير » من الكتاب لصديقه الأديب أبي القاسم بن عبد الغفور كما سبق أن أشرنا إلى ذلك (٥) . وكان ابن حيان آنذاك في نحو الخامسة والثمانين . وإنما نرجح ذلك لأننا لم نر في الذخيرة ولا غيرها من الكتب نقولا حول أحداث تلى تاريخ سنة ٤٦٣ (١٠٧١) .

أما المسألة الثانية المتعلقة بالتمييز بين كتابي « المقتبس » و « المتين » فإننا نقصد بها ما افترضه دوزى ومن تابعه على رأيه من الباحثين من وجود « فروق جوهرية » بين أسلوب ابن حيان في هذا الكتاب وفي ذلك ، وقد أرجع دوزى هذه الفروق إلى ما سبق أن ذكره من أن « المقتبس » هو

(١) الذخيرة ق ١ - ١٢٢/٢ - ١٢٣ .

(٢) الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ، ورقة ٢٢ ب - ١٢٤ ؛ والبيان المغرب

٢٥٤/٣ - ٢٥٥ ؛ والمقرى : نفع الطيب ١٩١/٦ - ١٩٨ (وكلاهما ينقل عن ابن بسام) .

(٣) الذخيرة ، ق ١ - ٥٢/٢ - ٥٧ .

(٤) الذخيرة ق ١ - ٣٥٤/١ - ٣٥٦ .

(٥) الذخيرة ق ١ - ٩٧/٢ ؛ وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك في ص ٣٦ .

كتاب ابن حيان الناشئ الحديث العهد بالكتابة التاريخية ، بينما المتين هو كتاب مؤرخنا حينما تقدمت به السن وحككته التجارب فبلغ مرحلة النضوج . فهذه المسألة إذن كما يرى مترتبة على الأولى متفرعة عنها .

وإذا كنا قد أثبتنا أنه لا أساس لذلك التفريق الزمني بين الكتابين فلننا نرى أن هذه « الفروق » لا وجود لها في الحقيقة ، وإنما هناك طريقتان استخدمهما ابن حيان في كتابة شطرى تاريخه نتيجة لاختلاف طبيعة الموضوع هنا عنه هناك واختلاف المصادر التى اعتمد عليها المؤرخ في كتابة كل منهما تبعاً لذلك .

ويصل دوزى في توهم تلك « الفروق » إلى حد القول بأنه « مها كانت مميزات « المقتبس » فإن هذا الكتاب لا يزيد على كونه واحداً من « التقايد التاريخية » (chronique) ، صحيح أنه خير من كل ما ألفه المؤرخون السابقون عليه ، ولكنه ينتمى إلى هذه الطائفة من الكتابات ، أما « المتين » الذى سجل ابن حيان فيه تاريخ بلده المعاصر فهو الذى يعتبر « تاريخاً » (histoire) حقيقياً بمعنى الكلمة (١) .

وكرر من أتى بعد دوزى من المستشرقين هذا رأى بغير مناقشة فيما عدا الأستاذ غرسية غومس الذى تنبه بحسه المرفه وذوقه الأدبى خطأ ذلك الحكم المتواتر ، ففطن إلى أنه ليست هناك فروق أسلوبية بين « المقتبس » و « المتين » ، وإنما نجمت هذه الفروق المزعومة من « أن ابن حيان كان يعتمد فى « المقتبس » على مؤرخين سابقين له فىأتى فى معظم صفحاته بنصوصهم وكلامهم ، بينما المتين كله من إنشائه هو . أما المواضع التى ينص فيها ابن حيان على كلامه — وهى فى الغالب تعليقات أو تلخيص للآراء السابقة وإعطاء خلاصة لها مع الإدلاء برأيه — فأسلوب ابن حيان فيها هو نفس أسلوبه فى المتين دون أدنى فارق (٢) .

(١) دوزى : مقدمة البيان المغرب ص ٧٣ . والباحث يفرق بين « التقيد التاريخى » أى الكتاب الذى يكتب بمجرد التسجيل البارد للأحداث وبين « التاريخ » الذى تبرز فيه شخصية الكاتب وآراؤه وفلسفته .

(٢) انظر مناقشة غرسية لآراء أولئك الباحثين السابقين ورأيه الذى أوردنا هنا خلاصة فى مقاله « حول ابن حيان » ص ٤١٢ — ٤١٨ (= ١٨ — ٢٤ من الفصل) .

ونحن نوافق غرسية غومس على هذا الرأي في خطوطه العامة ، ولكننا لا نسلم له بأن «المقتبس» ليس إلا نسيجاً من الكتب التاريخية السابقة وأن ابن حيان اقتصر فيه على مجرد النقل عن سبقه من المؤرخين . على أننا سنعود إلى بحث هذه النقطة فيما بعد .

٣ — أخبار الدولة العامرية :

يشهد بوجود هذا الكتاب بين مؤلفات ابن حيان معظم من كتب عنه كابن الأبار (١) وعبد الواحد المراكشي (٢) وابن سعيد (٣) وابن الخطيب (٤) والمقرئ (٥) . ويزيدنا ابن الخطيب بياناً بهذا الكتاب في موضع آخر ، فيقدم لنا فائدة طيبة عن حجم الكتاب وأجزائه ، إذ يقول : « ذكر أبو مروان حيان بن خلف في كتابه الذي أناقت على المائة أسفاره المسمى بأخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية ، وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » (٦) . أما هذه الأسفار المائة فهو شيء يتوقف على ما يفهمه ابن الخطيب من لفظ سفر ، فهو شيء نسبي يرجع إلى التقدير ، وقد يكون السفر كراسة أو ملزمة (٧) ، هذا مع التسليم بأن الكتاب لابد أن يكون بالفعل بالغ الضخامة .

أما عنوان الكتاب فلم يحدده بدقة إلا ابن الخطيب في نفس النص السالف ، ونظن فعلاً أن العنوان الطويل الذي ساقه هو عنوان الكتاب كما وضعه ابن حيان ، فقد كان مؤرخنا يميل إلى هذه العناوين الطويلة المفصلة ، أما العنوان الذي يفينا به عبد الواحد المراكشي وهو « المآثر العامرية » فيبدو أن عبد الواحد إنما خلط فيه بين هذا الكتاب وكتاب آخر بهذا العنوان لحسين

(١) الحلة السراء ٢٢٧/١ ، ٢٦٩ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، بتحقيق الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩

ص ٣٨ .

(٣) المغرب ١٩٩/١ حيث يقول في ترجمة المنصور بن أبي عامر إن لابن حيان فيه « كتاباً مفرداً » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٥) نفع الطيب ٣٧٦/١ حيث يذكر لابن حيان « كتاباً مخصوصاً بالدولة العامرية » .

(٦) أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٧) كتاب « جذوة المقتبس » للحميدى ، الذي نشر في مجلد واحد في ٣٩٠ صفحة مقسم في الأصل إلى عشرة أجزاء .

وهذا مثل واحد يمكن أن نصيف إليه الكثير ، وهو يحملنا على أن نلزم جانب الحذر في تقدير ما يذكره المؤلفون القدامى حول أجزاء الكتب التي يشيرون إليها وأسفارها .

ابن عاصم (١) ، ومثل هذه الأخطاء كثيرة في كتاب « المعجب » الذي وضعه مؤلفه وهو في المشرق معتمداً فيه على ذاكرته بعيداً عن كتبه وأدوات عمله .

وتواجهنا مشكلة بشأن هذا الكتاب : لقد اصطاح من كتبوا عن ابن حيان على أن تاريخه الكبير يتألف من « المقتبس » و « المتين » ، فما مكان هذا الكتاب بينهما ؟ وهل يعتبر عصر الدولة العامرية من الفترة السابقة على ابن حيان فيكون أقرب إلى اللحاق بالمقتبس ؟ أو من الفترة التي عاشها المؤلف وعاصرها فيكون أشبه بأن يدرج في المتين ؟ فابن حيان قد ولد في ظل الدولة العامرية وقضى صباه وأولى سني شبابه في ظلها (بين ٣٧٧ و ٣٩٩) .

ولهذا فقد تبعنا القول المحتملة عن هذا الكتاب في المصادر المتأخرة ، فوجدنا ابن الخطيب مثلاً - وهو الذي نقل عنوان الكتاب كاملاً وقدم لنا وصفاً له - ينقل عنه كما يقلب على ظننا في موضعين : أحدهما قطعة كبيرة حول أيام عبد الملك المظفر بن المنصور العامري (٢) ، والآخر هو الذي يعلق فيه ابن حيان على القران الفلكي الواقع في سنة ٣٩٧ (١٠٠٦ - ١٠٠٧) وإرجاف الناس به وتطيرهم منه وتأويلاتهم له بقرب وقوع فتنة مدمرة (٣) . غير أن الغريب في الأمر هو أن ابن الخطيب في كلا الموضعين ينص على أنه ينقل عن « المتين » بينما الأولى أن تكون هذه النصوص مستخرجة من كتاب « أخبار الدولة العامرية » . كذلك نلاحظ أن ابن بسام أورد كثيراً من الأخبار الخاصة بالعامريين دون أن يشير إلى عنوان كتاب ابن حيان الذي ينقل منه ، ولكن لابن سعيد نصاً صريحاً في أن كل ما أورده ابن بسام في كتابه من تاريخ ابن حيان فإنه من كتاب « المتين » . وابن سعيد نفسه يورد ترجمة لابن دراج القسطلي (ت ٤٢١ - ١٠٣٠) ناصاً على أنه ينقلها عن « المتين » (٤) مع أن المفروض هو أن تكون هذه الترجمة مأخوذة من « أخبار الدولة العامرية » إذ أن ابن دراج وإن كان قد لحق الفتنة وعاش بعدها نحواً من عشرين سنة فهو شاعر العامريين الأكبر وريب دولتهم ومكانه أقرب إلى أن يوضع في الكتاب الخاص

(١) عن كتاب المسائر العامرية لحسين بن عاصم انظر رسالة ابن حزم في فضل أهل الأندلس ، في نفع الطيب للمقرئ ١٦٧/٤ ؛ ابن بشكوال : صلة ، رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى جذوة ، رقم ٣٧٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٦٥٠ ؛ ابن الأبار : تكملة ، رقم ٧٣ ؛ وانظر كذلك كتاب بونس بويجس عن المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ص ١٢٢ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٨٤ - ٨٩ .

(٣) نفس المرجع ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٤) المغرب ٦٠/٢ .

بهذه الدولة من أن يجعل في كتاب « المتين » . وكل هذا يوحى بأن « أخبار الدولة العامرية » كان أقرب صلة إلى « المتين » وأشبه بأن يكون قسما منه . ولكننا مع ذلك نجد المقرئ ينقل عن ابن حيان ترجمة للشيخ أبي الوليد القرظي وفيها قصة استشهاد علي أيدى البربر سنة ٤٠٣ (١٠١٣) (١) والغريب في الأمر هو نص المقرئ على أنه ينقل هذا الخبر عن « المقتبس » ، مع أن ابن القرظي قضى الشطر الأعظم من حياته في ظل الدولة العامرية وكان مصرعه في الفتنة التي أعقبت سقوط دولتهم .

على أن ابن الأبار يوفر علينا مئونة البحث والتخمين ، فهو يدلي لنا بإيضاح عظيم القيمة فيه تفسير لهذا الإضطراب الواقع بين المؤرخين ، وذلك إذ يقول في معرض الكلام عن غزوات المنصور بن أبي عامر :

« وغزواته في كل صائفة متصلة أزيد من خمسين ، عدما ابن حيان في كتابه الموضوع في أخبار الدولة العامرية ، وجعله لمن شاء خزله عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه » (٢) .

وقد يكون ابن حيان نفسه اضطرب في تحديد مكان تاريخه للدولة العامرية ، وذلك محكم كون هذا التاريخ في مركز وسط بين تاريخ دولة بني أمية والفتنة التي أسفرت عن قيام ملوك الطوائف ، وباعتباره يعالج فترة تاريخية مستقلة قائمة بذاتها ، فاعتبره مرة نهاية للمقتبس ، ومرة أخرى بداية أو مقدمة للمتین ، ثم أفرد به بذاته وجعل لقارئه الخيار في أن يضمه إلى حيث شاء من « تاريخه الكبير » .

أما الفترة التي يعالجها كتاب « أخبار الدولة العامرية » فن رأينا أنها تنحصر بين ولاية هشام المؤيد للخلافة سنة ٣٦٦ (٩٧٦) ثورة محمد بن هشام المهدي على العامريين في سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وإطاحته بهذه الأسرة التي ظلت خلال ثلث القرن الماضي مستبدة بالسلطة حاجبة عنها الخليفة الشرعي . وربما دل على صواب هذا التحديد أن ابن الخطيب يدرج فيما نقله عن كتاب « الدولة العامرية » ذكر بيعة هشام المؤيد وجلوسه على عرش الخلافة بعد وفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ (٣) .

(١) نفح الطيب ٣٣١/٢ .

(٢) الحلة السيرة ٢٦٩/١ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤٨ .

فإذا صح استنتاجنا هذا فإنه يكشف لنا بالضبط عن مادة الكتب الثلاثة التي تحدثنا عنها حتى الآن :

١ - « المقتبس » : ويتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى حتى آخر خلافه الحكم المستنصر (٩١ - ٣٦٦ - ٧١١ - ٩٧٦) .

٢ - « أخبار الدولة العامرية » : منذ تولى هشام المؤيد الخلافة حتى ثورة المهدي ومصرع عبد الرحمن شنجول بن المنصور (٣٦٦ - ٣٩٩ - ٩٧٦ - ١٠٠٨) .

٣ - « المتين » : منذ الفتنة حتى قرب وفاة ابن حيان (٣٩٩ - ٤٦٣ - ١٠٠٨ - ١٠٧١) .

٤ - البطشة الكبرى :

فى يوم الأحد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ (أول يونية ١٠٧٠) وقع فى قرطبة حدث ارتجت له الأندلس كلها . فإن المعتمد بن عباد - ولم يمض على تولية ملك إشبيلية إلا عدة شهور بعد وفاة أبيه المعتضد - استطاع أخيراً أن يستولى على قرطبة ، وأن تخطب منارها باسمه ، بعد أن استعصت على أبيه مع ضراوته وصرامته وتكرر محاولاته لافتتاحها . وكان ذلك بعد خدعة غادرة اعتدناها من أولئك الأمراء الصغار الذين لم يكن لهم هم فى ضالة مطامعهم وضعة نفوسهم إلا أن يشب كل منهم بجيرانه محاولاً أن يقطع من مملكته ما يستطيع ، مع أن خطر الممالك المسيحية فى الشمال كان يزداد ويستفحل مهدداً جميعهم بمحو سلطانهم وبحسر ظلال الإسلام عن الأندلس كلها ، وهم فى معاركهم الصغيرة سادرون ، يظن كل منهم إذا انتزع من أحد جيرانه قرية أو حصناً أنه البطل المغوار الذى لا كفاء له . وكان هذا أمر قرطبة ، فقد كانت تعرضت لغزو المأمون ابن ذى النون الذى ضرب عليها حصاراً كثيفاً ، فبادر عبد الملك بن جهور إلى الاستنجاد بالمعتمد ابن عباد ، كما سبق أن ذكرنا عند الكلام عن أخبار الدولة الجهورية ، ولكن جيش المعتمد لم يلبث أن غدر بابن جهور وخلعه عن رياسة قرطبة ، وأعلنت فى المدينة الدعوة للمعتمد ، وتقرر نفي من بقى من بنى جهور إلى شلطيـش حيث مات عميدهم أبو الوليد بعد نكبتهم بأربعين يوماً .

وما كان هذا الحادث الجلل الواقع فى قرطبة ليفوت قلم ابن حيان الذى سجل حتى الآن فى كتاب « المتين » كل أحداث ملوك الطوائف . وهكذا قرر أن يختصه بكتاب مفرد اتخذ له هذا العنوان الروائى المعبر : « البطشة الكبرى » . ولابد أن هذا الكتاب الذى ألفه ابن حيان وسنه تناهز الخامسة والثمانين هو آخر ما خطه قلم مؤرخنا الدؤوب الذى لم يعرف الراحة ولا الكلال .

ويقول ابن الخطيب في وصف هذا الكتاب : « وقد أفرد أبو مروان ابن حيان لهذه النكبة الجمهورية كتابا سماه « البطشة الكبرى » ، وكلامه فيه من لباب بلاغته » (١) ؛ أما ابن بسام فإنه يقول : « فصيح عندي أنه وصف كيفية خلعهم وإخراجهم من قرطبة في جزء كبير سماه « البطشة الكبرى » في مجلد كبير لم يقع إلى وقت هذا التحرير » (٢) .

* * *

من هذه الكتب الأربعة التي تحدثنا عنها يتألف ما يعرف باسم « التاريخ الكبير » لابن حيان ، وهذا هو ما فهمه ابن حيان وفهمه معاصروه حين وضع هذه المجموعة من الكتب التي تضم بين أربعتها تاريخ الأندلس كله منذ الفتح العربي حتى قرب وفاة ابن حيان ، أى على طول أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن . وهذا هو الذى يفسر لنا أن معظم المؤرخين حينما ينقلون عن ابن حيان لا يهتمون كثيراً بأن يثبتوا أن النص المنقول ينتمى إلى هذا الكتاب أو ذاك ، وإنما حسبهم أن يقولوا إنه من « تاريخ » ابن حيان أو « تاريخه الكبير » .

ونحن نعتقد أن لإنتاج ابن حيان يقف عند حد هذه الكتب التي يمكن أن يجمعها مؤلف واحد حافل كبير . ولا يضير ابن حيان فى شئ ألا يكون قد كتب غيره .

أما الكتب الأخرى التي مازال كثير من الباحثين يصرون على نسبتها إلى ابن حيان فهي لا تخرج عن كونها أجزاء أو مقتطفات من « تاريخه الكبير » ، سواء أكانت من هذا أم من ذاك من الكتب الأربعة التي يتألف منها هذا التاريخ :

(١) أعمال الأعلام ص ١٥١ .

(٢) الذخيرة ق ١ - ١٢٩/٢ . وقد أضاف بروكلمان هذا الكتاب إلى ذيل تاريخه للأدب العربي في الحديث عن ابن حيان . انظر الجزء الأول ص ٥٧٨ . وبهذه المناسبة نذكر أن الدكتور حسين مؤنس - في حاشية له تعليقا على النص الوارد في الحلة السيرة (٢٦٩/١) عن كتاب الدولة العامية لابن حيان - قال إن هذا الكتاب هو الذى يحمل عنوان « البطشة الكبرى » وأنه هو الكتاب الذى ينقل عنه ابن بسام في الذخيرة . وهذا غير صحيح من وجهين : أن كتاب « البطشة الكبرى » لا يمت بصلة إلى الدولة العامية ، إذ موضوعه هو نكبة بنى جهور كما رأينا ، ثم إن ابن بسام يمتدح صراحة بأنه لم يطلع على هذا الكتاب ، وقد كرر الأستاذ عبد الرحمن الحجي في تقديمه للقطعة التي نشرها من المقتبس هذا الخطأ (ص ١٤) ثم نسبته إلى مغرب ابن سعيد وإلى كتاب تاريخ الفكر الأندلسي ليوثالث بالثيا - ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، ولم يرد في هذين المرجعين أى شئ عن كتاب « البطشة الكبرى » ، ويقول الأستاذ الحجي في موضع آخر (ص ٥ - حاشية ٢) إن « البطشة الكبرى » يمكن أن يكون أحد أجزاء المقتبس أو ملخصا له (كذا ١١) .

(أ) فدوزى مثلاً ينسب إلى ابن حيان كتاباً بعنوان « تاريخ فقهاء قرطبة » (١) ، ونحن نجد فعلاً لدى المؤرخين التاليين لابن حيان ذكراً لهذا العنوان منسوباً إلى ابن حيان (٢) . وقد سلم لدوزى بهذا الرأي كل من جونثال بالثيا (٣) . وغرسية غومس (٤) .

(ب) وينسب بونس بويجس (٥) إليه كتاب « انتخاب من أخبار القضاة » مستنداً إلى إشارات لابن الأبار في التكملة (٦) .

(ج) وينسب بونس إليه أيضاً كتاب « الجمع بين كتابي القبشى وابن عفيف » معتمداً على إشارة لابن الأبار (٧) . وقد وافق غرسية غومس على إدراج هذين الكتابين الأخيرين في قائمة مؤلفات ابن حيان .

(د) وينسب إليه بونس تهذيباً لتاريخ أبي عمر بن عفيف من الواضح أنه هو نفسه الذى يدعى عند ابن الأبار (٨) « الجمع بين كتابي القبشى وابن عفيف » .

(هـ) وسنضرب صفحاً عن كتب أخرى ثبت بطلان نسبتها إلى ابن حيان مثل كتاب « معرفة التابعين » الذى وضعه بونس بين مؤلفاته ونبه ملتشور أنطونيا من قبل إلى أن هذا خطأ مصدره ميخائيل الغزيرى مفهرس مخطوطات الإسكوريال العربية ، إذ اختلط عليه اسم المؤلف الحقيقى وهو ابن حبان البستى ، فصحف الاسم إلى ابن حيان (٩)

(١) انظر كتابه الجامع « الجامع لأخبار بني عباد » :

R. Dozy : Scriptorum Arabum Loci di Abbadidis, Leyden, 1846, I, p. 218.

(٢) انظر ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ط . القاهرة سنة ١٣١٩ هـ . ، ١-٧ ، والطبعة المحققة بعناية الأستاذ محمد عبد الله عنان ٩١/١ ؛ السخاوى : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، ضمن مجموعة الدراسات التى قام بها فرانز روزنتال Franz Rosenthal حول « علم التاريخ عند المسلمين » ، ترجمة الدكتور صالح أحمد الملى ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ٦٣٧ من نص « الإعلان » الملحق بالدراسة .

(٣) تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٨ .

(٤) فى مقاله « حول ابن حيان » ص ٤٠٧ (= ١٣ من الفصل) .

(٥) فى كتابه عن المؤرخين والجغرافيين ص ١٥٣ .

(٦) التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٩١ ، و ط . ألكون وبالثيا ، مدريد ١٩١٥ ، ص ١٦٨ و ١٩١ .

(٧) التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٥٤٦ .

(٨) الحلة السيرة ٢٠٦/١ .

(٩) غرسية غومس : حول ابن حيان ص ٤٠٨ (= ١٤ من الفصل) .

ومن الواضح أن جميع الكتب السابقة التي تبدو حقاً لابن حيان مثل « تاريخ فقهاء قرطبة » أو « أخبار القضاة » أو « تهذيب تاريخ ابن عفيف » أو « الجمع بين كتابي القبشي وابن عفيف » كتب يمكن أن تكون شيئاً واحداً ، ونحن نقطع بأنها ليست كتباً مستقلة ، وإنما هي ما كان المؤلفون المتأخرون يستخرجونه من « تاريخ ابن حيان الكبير » الذي يتألف من الكتب الأربعة الرئيسية التي أشرنا إليها . وفات كثيراً من الباحثين أنه حينما يورد مؤلف مثل ابن الأبار عبارة مثل هذه في سياق الترجمة لأحد الفقهاء أو القضاة : « . . . ذكره ابن حيان في أخبار القضاة » أو « . . . في تاريخ فقهاء قرطبة » فإنه لا يعني كتاباً مفرداً لابن حيان يحمل هذا الاسم أو ذاك ، وإنما يقصد أنه تحدث عنه في الفصول الخاصة بالقضاة أو الفقهاء في ثنايا كتابه . كذلك الحديث عن تهذيب ابن حيان لكتاب ابن عفيف أو جمعه بين كتابي القبشي وابن عفيف ، فهذان ليسا كتابين مستقلين بذاتهما ، وإنما المقصود هو استضافة ابن حيان في تاريخه الكبير لمادتهما وتهذيبه أو تنقيحه لهما في الفصول التي أفردها مؤرخنا للفقهاء والقضاة من كتاب التاريخ سواء كان ذلك في المقتبس أو المتين أو غيره .

ويكفي أن نضرب على ذلك مثلاً واحداً : يورد ابن الأبار ترجمة لأحد قضاة الجماعة بقرطبة هو علي بن أبي بكر الكلبي المعروف ببوانش والمتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ويختم هذه الترجمة بقوله « من كتاب ابن حيان في أخبار القضاة » (١) ، وقد فهم بعض الباحثين من ظاهر النص – ولعل لهم عذراً في ذلك – أن هذا عنوان كتاب ابن حيان ، غير أنه في الحقيقة لا يعني به إلا ما كتبه أبو مروان في سياقه لأخبار القضاة من تاريخه . وكلام ابن الأبار هنا منقول برمته من الفصل الخاص بقضاة قرطبة أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم من القطعة التي تقدم لها بهذه الصفحات من كتاب « المقتبس » . ومثل ذلك يمكن أن يقال عن بقية المواضع التي جاء فيها ذكر لما يوحى لأول وهلة بأنه « كتب » مستقلة لابن حيان .

والكتاب الوحيد الذي يمكن أن نقبل نسبته – مع بعض التحفظ – إلى ابن حيان فضلاً عن

(١) التكلة ، ط . ألكون وبالنشيا ، رقم ٢٢٦٤ ص ١٩١ . وجدير بالذكر أن هذا النص بالذات كان من بين النصوص التي اعتمد عليها بونس بويجس وغرسية غومس في الظن بأن لابن حيان كتاباً بعنوان « أخبار القضاة » أو « انتخاب من أخبار القضاة » .

« تاريخه الكبير » هو « الانتخاب الجامع لماثر بنى خطاب » (١) . وحتى هذا لا تقطع به ، إذ أن تعبير « الانتخاب الجامع » الوارد في العنوان يلقي ظلالة من الشك على كونه كتابا مستقلا منفردا بذاته ، وهو يوحى بأن الأمر لا يخرج عن كونه مستخرجا من تاريخ ابن حيان الكبير قد يكون نفس المؤلف قام به ليهديه إلى أحد أعلام هذه الأسرة الشريفة التي توارثت الرياسة في مرسية . وقد يكون مؤلف آخر استصفى من تاريخ ابن حيان المواضيع الخاصة بأسرة بنى خطاب ، فجمع بعضها إلى بعض ولفق منها كتابا صغيرا في مآثرهم وقدمه إلى بعضهم تقريبا وزلى .

منهج ابن حيان في كتابة التاريخ :

حينما شرع ابن حيان في كتابة « تاريخه الكبير » بشطريه القديم والمعاصر تأمل مناهج الكتابة التاريخية التي اتبعها المؤلفون من قبله في المشرق والأندلس . فرأى بينها خلافا أدى إليه لاختلافهم في الثقافات أو ضروب الاهتمام : كان من بينهم من اتبعوا طريقة الحوليات أى الكتابة على ترتيب السنين ، وهو المنهج الذى سار عليه محمد بن جرير الطبرى في المشرق ، وفي الأندلس عريب ابن سعد والرازيان أحمد بن محمد بن موسى وابنه عيسى وغيرهم ، وهى طريقة لها مزاياها بغير شك ، إذ هى تضمن تسلسل الترتيب الزمنى ، ولكنها كثيرا ما تقطع وحدة الأخبار والأحداث ، وكان هناك من عالجوا تاريخ الملوك والخلفاء على أساس أن يكتب عن دولة كل منهم على حدة ، وهو ما نلاحظه في تاريخ ابن القوطية ، وإلى حد ما في كتاب « أخبار مجموعة » ؛ وكان من بينهم من اهتموا بالتاريخ الثقافى مكتفين بمقدمات موجزة عن التاريخ السياسى ، وإلى هذا النوع تنتمى كتب الطبقات والتراجم مثل كتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ومن وصله أو ذيل عليه ، أو الذين قصرُوا اهتمامهم على الفقهاء أو القضاة ، مثل الحسن بن مفرج القبشى وابن عفيف وابن عبد البر والحشى ، أو على الشعراء والكتاب مثل عبادة الشاعر ابن ماء السماء أو سكن بن إبراهيم الكاتب .

وأى ابن حيان فكرر نظره في كل هذه المناهج المختلفة ، فرأى أن بعضها يكمل بعضها ، وهكذا قرر - في طموحه النبيل إلى أن يكون أعظم مؤرخى الأندلس وأجمعهم - أن يستفيد من كل هذه المناهج ، حتى يصبح « تاريخه الكبير » أو عب ما كتب عن بلده حتى عصره .

(١) نص على هذا الكتاب ابن الأبار في التكملة ، ط . كوديرا ص ٢٨٠ ، وأشار إليه مرة أخرى إشارة هابرة في الحلة السيرة ١١٨ / ٢ .

ونظرة فاحصة إلى القطعة التي بين أيدينا اليوم تؤكد ما نقول ، وهي تتضمن آخر سنوات حكم الأمير عبد الرحمن الأوسط والجزء الأكبر من إمارة ابنه محمد ، وسنورد فيما يلي على ضوء استعراض هذه القطعة الخطوط العامة لمنهج ابن حيان في الكتابة :

يبدأ بعرض للأحداث المحيطة بتولى الأمير الحكم عرضاً مفصلاً ، ثم يعقبه بأحكام عامة على شخصيته وسيرته وأخلاقه وقيمة عمله ، مع ملاحظات دقيقة ثابتة تكشف عن قدرة عجيبة على التحليل النفسى العميق وعلى النظرة الشاملة . وبعد ذلك تأتى فصول طويلة يترجم فيها لرجال الدولة فى عصر هذا الأمير من حجاب ووزراء ، ويورد فى سياق ذلك حكايات وأخباراً طريفة تلتطف من جفاف السرد التاريخى ، فضلاً عما تتضمنه من أخبار بالغة القيمة حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية للبلاد . ثم يتكلم عن أفراد أسرة الأمير وعلاقاتهم به ويترجم لأعلامهم تراجم مفصلة يورد فى أثنائها طائفة كبيرة من الرسائل والأشعار . وتلى ذلك أخبار عن العمران فى عصر هذا الأمير وأهم منشآته المدنية والعسكرية ، وفى غضون ذلك ترد أخبار كثيرة تلقى أضواء كاشفة على الطرز المعمارية والحياة الفنية . ثم يفرد فصولاً لأخبار العلم والعلماء فى عصر الأمير المذكور موضحاً فى لمسات قوية عامة حياة البلاد الثقافية خلال ذلك العصر ، ويترجم لأهم العلماء فى مختلف ألوان الفكر ، ويختتم هذه المقدمات بقصص ونوادير مختلفة حول الأحداث الكبرى فى عصر الأمير أو الدقائق الصغرى من حياة الناس اليومية .

وبعد هذه المقدمات التى كثيراً ما تحتل جزءاً كبيراً من الكتاب — وهى فى القطعة التى بين أيدينا تصل إلى نصف الكتاب كله — يفصل الكلام عن الأحداث على نسق السنين ، فيسوقها حسب منهج الحوليات المعروف سنة بعد سنة ، فإذا رأى أن هذا التقسيم سوف يقطع وحدة الأحداث فلا بأس فى أن يعدل عنه ، ويستطرد حتى يستكمل الموضوع الذى شرع فى معالجته بصرف النظر عن التقسيم الزمنى .

فلماذا فرغ من ذلك أتى بنبل عامة يترجم فيها لأعيان أهل الدولة من حجاب ووزراء وكتاب وقواد وقضاة ، وهو يفصل هذه التراجم إلى حد يمكن معه أن يستخرج من كتابه التاريخى الكبير أجزاء كاملة خاصة بهذه الموضوعات القرعية التى تدخل فى باب تاريخ الطبقات .

وينهى ابن حيان عمله بذكر الوفيات على ترتيب السنين سنة فسنة ، والتراجم هنا تتفاوت

طولا وقصرا ، فإذا عرض لشخصية سبق أن تحدث عنها بالتفصيل فإنه يكتب فيها بإشارة عابرة مقتضبة اعتماداً على ما سبق أن ذكره في الفصول السابقة ، وإذا لم يكن قد فعل فإن التراجع تكون في نهاية من الإسهاب والاستقصاء .

وهكذا نرى ابن حيان يستعين في تاريخه بكل المناهج التي استخدمها المؤرخون من قبله : ففيه النظرة الشاملة إلى كل أمير ، وفيه التاريخ « الداخلي » الذي لا يقتصر على كبريات الأحداث السياسية والعسكرية المرتبطة بالحاكم ، وإنما يلقي ضوءاً على حياة الشعب العامة والخاصة وعلى أحواله الاجتماعية والاقتصادية ، وفيه التأريخ الثقافي والفكري ، وفيه سرد الأحداث بترتيب السنين ، وفيه التراجم المفصلة لرجال الدولة وطبقاتهم من حجاب ووزراء وكتاب وقضاة ، فضلاً عن أن فيه فصولاً تعتبر معاجم لتراجم العلماء من كل صنف .

على أن ابن حيان لم يخضع كتابته التاريخية لمنهج واحد يطبقه على كل ما يكتب ، بل كان من المرونة وسعة الأفق بحيث يستخدم لكل حقبة ما يلائمها . فنحن نجد مثلاً أنه في الجزء الذي أفرده للأمير عبدالله بن محمد يختص الثوار والمتمردون في النواحي والأطراف بأخبار مفصلة عن أولياتهم وسير حياتهم وأحداث ثورتهم . وقد اقتضت ذلك طبيعة الموضوع نفسه ، ونجد في الجزء الخاص ببعض سنوات خلافة الحكم المستنصر يفيض إفاضة واسعة في أخبار السفارات القادمة إلى سدة هذا الخليفة والحفلات والعروض المقامة لاستقبال أولئك على نحو أولاه عناية عظيمة ، وهذا يرجع إلى الاهتمام الخاص الذي كانت الخلافة الأموية في هذا العصر تنظر به إلى هذه السفارات ، ثم إلى المادة الوافرة الحصبة التي تهبأت لابن حيان حول هذا الموضوع وحول تلك السنوات بصفة خاصة ، حتى إن التأريخ هنا يصبح مرتباً لا على السنين ، وإنما على الشهور ، بل كثيراً ما نراه يتابع السرد للأحداث يوماً بيوم .

وهذا الكلام الذي تحدثنا به عن منهج ابن حيان في الكتابة ينسحب أكثر ما ينسحب على كتابي المقتبس وتاريخ الدولة العامرية ، حينما كانت هناك سلطة مركزية واحدة تخضع لها البلاد ، ويمكن أن تتخذ محوراً ثابتاً يجرى الحديث حوله ، حتى مع وجود بعض الثورات ومظاهر التمرد الداخلية . أما في تأريخ ابن حيان لعصر ملوك الطوائف حينما زالت تلك السلطة المركزية وخلفتها حكومات دويلات صغيرة متناثرة هنا وهناك فقد رأى ابن حيان نفسه مضطراً إلى استخدام

منهج مغاير . ولسنا نعرف هذا المنهج على وجه التحديد ، إذ لا تسمح بذلك القطع التي وصلتنا من هذا الكتاب بفضل المؤرخين المتأخرين ، ولا سيما ابن بسام في « الذخيرة » . ولكن الخطوط العامة توحى بأن ابن حيان قد جرى فيه على أن يطبق على الأندلس تقسيماً إقلييمياً سياسياً ، فيفرد لكل دولة من دول الطوائف فصلاً يتتبع فيه تاريخ الدولة منذ نشأتها حتى عصره مرتباً الأحداث ترتيباً زمنياً ، مع الاهتمام — كشأنه في سائر كتابته التاريخية — ببيان الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والعلاقات المتشابكة بين تلك الدويلات بعضها ببعض ، والترجمة لرجالات كل دولة وطبقات علمائها وفقهائها وقضاتها وكتابها وشعرائها .

مصادر ابن حيان :

كان ابن حيان عميق الشعور برسائلته ، مدركاً لقيمة عمله تمام الإدراك ، واعياً للمنهج السليم الذي ينبغي لمؤرخ من مستواه أن يتبعه . ولهذا فقد اجتهد في أن يجمع أكبر عدد من المصادر ، تنوعت بتنوع الموضوعات التي عالجها في تاريخه منذ الفتح الإسلامي للأندلس حتى عصره .

(١) مصادر « المقتبس » :

ونلاحظ بوجه عام أن مصادر ابن حيان خلال العصور التي لم يدركها أي منذ الفتح العربي للأندلس حتى الدولة العامرية — وهي موضوع كتاب « المقتبس » — كانت تقوم قبل كل شيء على كتب من سبقه من المؤرخين .

ولن نعني أنفسنا هنا باستعراض الكتب التي رجع إليها ابن حيان في « المقتبس » ، فقد سبق لغيرنا من الباحثين أن اجتهدوا في دراسة مصادر القطعتين اللتين كانتا معروفتين من هذا الكتاب قبل أن نوفق إلى العثور على القطعة الثالثة التي تقدمها بهذه الصفحات . ونعني بهما مخطوطة أوكسفورد الخاصة بعصر الأمير عبدالله بن محمد ، ومخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد التي تتناول بضعة سنوات من خلافة الحكم المستنصر . فقد عني الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا في رسالته التي أسلفنا الإشارة إليها بتقديم عرض مفصل لمصادر ابن حيان في القطعتين المذكورتين (١) صحيح أن هذا البحث قد قدم به المعهد ، ثم إن الدراسات الأندلسية أحرزت تقدماً كبيراً منذ أن

(١) ابن حيان القرطبي وتاريخه ص ٣٤ - ٦٣ ، وقد أورد أنطونيا موجزاً للفصل الخاص بمصادره وضمت المقدمة الفرنسية التي صدر بها طبعها لمخطوطة أوكسفورد المتعلقة بالأمير عبد الله ، باريس سنة ١٩٣٧ ، ص ١٤ - ١٨ .

أعد أنطونيا رسالته في سنة ١٩٣٣ وإن كان نشرها قد تأخر حتى سنة ١٩٤٦ ، فأصبحنا نعرف عن أولئك المؤلفين أضعاف ما كان يعرف الراهب الإسباني ، مما يجعل بحثه كله مستحقا لإعادة النظر (١) . غير أننا نرى قلة الجدوى من مثل هذا البحث ، فهو لن يزيدنا شيئا على النتيجة التي نجمل خلاصتها هنا ، وهي أن ابن حيان بحسه التاريخي الدقيق قد عرف كيف يستفيد من جميع الكتب السابقة مستصفا أقيم ما فيها من مادة تاريخية .

ويكفي هنا أن نعرض - مجرد عرض - أسماء المؤلفين أو الرواة الذين رجع إليهم ابن حيان في القطع الثلاث التي نشرت حتى الآن من المقتبس - بما فيها قطعنا - :
من الأندلسيين : محمد بن وضاح ، فرج بن سلام البزاز ، ابن الأشعث القرشي الإشبيلي ، يحيى بن إسحاق الطيب ، ابن عبد ربه ، إسحاق بن سلمة القيني ، ابن النظام ، سكن بن إبراهيم الكاتب ، محمد بن موسى الأقيشيين الكاتب ، ابن عبد البر ، منذر بن سعيد البلوطي ، معاوية ابن هشام الشيبينسي ، عريب بن سعد ، أحمد بن موسى الرازي وابنه عيسى ، الحكم المستنصر ، ابن القوطية ، الزبيدي ، محمد بن حارث الخشني ، ابن الفرضي ، صاعد البغدادي ، عبادة بن ماء السماء الشاعر ، الحسن بن محمد بن مفرج القبيشي ، الفقيه أبو محمد ابن حزم .

ومن الغرباء : محمد بن يوسف الوراق القيرواني (وإن كان ابن حزم يعده أندلسيا لمولده بالأندلس ووفاته بها) ، وأبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الجزار القيرواني .

ومعظم كتب هؤلاء الذين ذكرنا في عداد المفقودة اليوم ، فلا ابن حيان إذن فضل الاحتفاظ لنا بكثير من مادتها التاريخية المنثرة .

على أن ابن حيان في استقصائه لكل المصادر الممكنة كان يجتهد في الإطلاع على بعض وثائق الدولة . نرى ذلك مثلا في تسجيله للبيان الذي أصدره الحكم بن هشام بعد ثورة الربض المشهورة

(١) هذا فيما يتعلق بمصادر القطعتين المذكورتين ، أما مصادر ابن حيان في القطعة التي نقدمها هنا فقد استوفينا في تعليقاتنا المسلحة بالنص دراسة مفصلة للمؤلفين الذين رجع إليهم صاحب « المقتبس » ولكتبهم ومطابرتهم بما يقضى من تكراره هنا .

سنة ٢٠٢ (٨١٨) (١) ، ولتفاصيل الهدية التي رفعها ابن شهيد للخليفة عبد الرحمن الناصر (٢) ، والهدية التي أهديت للحكم المستنصر يوم ولايته (٣) ، والمعلومات الإحصائية الدقيقة التي أوردتها عن بناء الناصر لمدينة الزهراء سنة ٣٢٥ (٩٣٧) (٤) . غير أنه من المحتمل جدا أن يكون ابن حيان قد نقل هذه الوثائق عن كتب المؤرخين الذين سبقوه ، وإن كان من الجائز أيضا أن يكون أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور قد احتفظ لنفسه بنسخ من بعض الوثائق القديمة من سجلات الدولة تهيأت له بصورة أو بأخرى أثناء عمله في ديوان السلطان (٥) . ففى الكلام عن بناء مدينة الزهراء نجد ابن حيان — فيما ينقله عنه المقرئ — يقول : « ألفيت بحظ ابن دحون الفقيه : قال مسلمة ابن عبد الله العريف المهندس : بدأ عبد الرحمن الناصر بعمارة الزهراء سنة ٣٢٥ . . . » ، ثم يمتضى في ذكر معلومات إحصائية دقيقة عما كان ينفق في هذه العمارة من مواد البناء ، وما كان يستخدم من الدواب ، وغير ذلك . فنحن لا نعلم إن كانت هذه الوثيقة التي نقلها ابن دحون عن أحد مهندسي الزهراء مما ضمن في بعض الكتب التي رجع إليها ابن حيان أو كانت مفردة قائمة بذاتها ثم اطلع عليها ابن حيان بشكل أو بآخر .

(ب) مصادر « أخبار الدولة العامية » و « الحين » :

أما في هذين الكتابين — ويمكن أن نلحق بهما كتاب « البطشة الكبرى » الذي فقد ولم يبق له أثر — فإن مصادر ابن حيان قد اختلفت تماما عن مصادره في « المقتبس » ، فنحن هنا لا نكاد

(١) أشار ليوى بروفنسال في تاريخه للأندلس (١٦٥/١ - ١٦٦) ، والهامية رقم ١ (إلى هذا البيان قائلا إنه ورد في القطعة التي كانت لديه من « المقتبس » والتي لا تعرف لها اليوم مستقرا .

E. Lévi-Provençal : Histoire de l'Espagne Musulmane, ed. Paris-Leiden, 1950, I, pp. 165-166.

(٢) المقرئ : نفع الطيب ٣٣٣/١ وما بعدها .

(٣) نفس المرجع ٢٥٨/١ - ٣٥٩ .

(٤) نفس المرجع ٦٧/٢ - ٦٨ .

(٥) نظن أن هذا هو السبيل الممكن لكي يطلع ابن حيان على بعض وثائق الدولة ، لا كما ذكر ملتشور أنطونيا في دراسته عن ابن حيان (ص ٢٧) من أنه كان « يحكف على وثائق دار المحفوظات في القصر الملكي خلفاء بني أمية » . وقد سبق لغوسس أن أنكر هذا الرأي (حول ابن حيان ص ٤١٤ - ٢٠ من الفصل) . والحق أن رأى أنطونيا يبدو لنا ضريبا من الإغراق في الخيال ، وإلا فيعلم الله أين ذهبت « دار المحفوظات » هذه وما فيها من وثائق أثناء موجات التدمير العارمة التي عصفت بقرطبة وقصورها الملكية منذ سنة ٣٩٩ (١٠٠٨) وسن ابن حيان حينئذ فوق العشرين بقليل .

نجدته يرجع إلى كتاب . وما كان في حاجة إلى ذلك ، فذكريات الدولة العامرية كانت لا تزال طرية في الأذهان ، بل إنه هو نفسه قد أدرك طرفا من الدولة التي كان أبوه أحد رجالها ، ولهذا فلعل أهم مراجع ابن حيان في تسجيل أخبار العامريين إنما كان أبوه خلف بن حسين كاتب المنصور المقرب إليه الخطي لديه . وقد أمدّه أبوه فعلا - كما سبق أن رأينا عند الحديث عنه في أول هذا التقديم - بطائفة كبيرة من الذكريات التي كان يملئها عليه . ولكن ابن حيان لم يكتف بما نقله عن أبيه ، بل استعان أيضا بغيره من كتاب المنصور . فنحن نجد فيما ينقله ابن الخطيب في « أعمال الأعلام » مجموعة من أقيم الوثائق كتب بها إليه بعض زملاء أبيه في العمل . فنحن نقرأ في بعض هذه المواضع : « كتب إلى أبو القاسم محمد بن مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن معروفا بأشياء سألته عنها من هذا الباب سنة ٤٣٦ هـ أثبتنا نقلا من كتابه ، وهى : . . . الخ (١) » ، ثم يثبت معلومات دقيقة عن مبلغ الجباية في أيام المنصور ابن أبي عامر ووجوه النفقات . وينقل ابن حيان وثائق أخرى مما كتب به إليه أبو محمد عبدالله ابن مروان « آخر حذاق كتاب المحاسبة اليوم ومن لحق طرفا من تلك الدولة (٢) » حول حاصل الأطعمة في الأهراء عند شروع المنصور في غزوة برشلونة سنة ٣٧٤ (٩٨٤ - ٩٨٥) ؛ وكذلك أبو عبد الله بن سعيد التجاني (٣) حول عدد صنوف الجنود العامريين من مختلف طبقاتهم وأنواع عددهم وأسلحتهم . . . الخ ؛ والميزاني الكاتب (٤) حول أحوال الخطب التي كانت تدخل قرطبة وقيمة ما كان يباع بها من السمك المملوح المسمى بالسردن خاصة . . . الخ .

وأما كتاب المتين فقد تعددت فيه مصادر ابن حيان وتنوعت تنوعا كبيرا ، فكان من أولها مشاهداته هو التي سبق أن عرضنا لها في الكلام عن سيرة حياته ، فإذا غاب عليه شيء عمد إلى استكمالها ممن رأوا الأحداث وشهدوها ، بل واشتركوا فيها في كثير من الأحيان . وقد تبين لنا أن من أهم من أمدوا ابن حيان بكثير من أخبار الفتنة البربرية ورأوها رأى العين الفقيه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عون الله بن حدير القرطبي الذي تكرر نقل ابن حيان عنه على طول سرده الغنى بالتفاصيل خلال السنوات القليلة الحافلة بالأحداث والمنحصرة بين سنة ٣٩٤ (١٠٠٤)

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٩٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٩٩ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٩٩ - ١٠٤ .

(٤) نفس المرجع ص ١٠٤ .

٣٩٩ (١٠٠٩) ، وهى التى انتهت بمصرع عبد الرحمن (شنجول) بن المنصور العامرى (١) . وقد كان هذا الفقيه على ما نرى مسجلاً دقيقاً للأخبار قوى الملاحظة ، وكان قد لحق هذه الفتنة وسلم منها وطال عمره بعدها (٢) . كذلك نقل ابن حيان كثيراً من أخبار الفتنة عن صديقه وصديق أبيه الكاتب أحمد بن برد الذى عمل لكثير من خلفاء الفتنة المتعاقبين (٣) ، وعن صديقه الشاعر الوزير أبى الوليد بن زيدون الذى أمده بخبر قصة وقعت بين حبوس بن ماكسن الصنهاجى ملك غرناطة ومحمد بن عبد الله البرزالي (٤) ، وبخبر آخر يرويه ابن زيدون عن ابن الباجى كاتب الرسائل فى تصوير شخصية أبى جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الصقلبي صاحب المرية (٥) .

وكانت لابن حيان صداقات متينة تربطه ببعض العلماء والوجهاء الذين كانوا يعيشون فى مختلف مدن الأندلس، ويبدو أنه كان يكلفهم بتتبع الأخبار الواقعة فى بلدانهم، فإذا قدموا إلى قرطبة لبعض شئونهم اجتمع بهم وأخذ من أحاديثهم ما يستكمل به تاريخه حول أمصار الأندلس وأخبارها . وقد احتفظ لنا ابن حيان بأسماء الكثيرين من هؤلاء ، نذكر منهم أباً بكر الرشتشانى الفقيه الذى عنه أخباراً مهمة حول باديس بن حبوس الصنهاجى ملك غرناطة (المتوفى سنة ١٠٧٣/٤٦٥) (٦) ، وذلك بمناسبة فتك المعتضد بن عباد بأبى نصر بن أبى نور القرطبي أمير رندة ، واحتياج عصبية

(١) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ١٠/٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ . وقد ورد الاسم فى بعض المواضع محمد بن عون الله ، ويبدو أنه خطأ من ابن عذارى .
(٢) أنظر ترجمة ابن عون الله فى ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٧٠٧ (وهو يعتمد فيها على ابن حيان) ، وقد جاء فيها أنه ولد سنة ٣٥٧ ورحل إلى المشرق فى سنة ٣٧٨ ، فلق عدداً كبيراً من الشيوخ فى القيروان ومصر ومكة ، ثم عاد إلى قرطبة فأصبح أحد العدول المشاورين . وكان فاضلاً ناسكاً ، وولى إمامة الصلاة فى مسجد عبد الله البلنسى ، وتوفى سنة ٤٤١ عن أربعة وثمانين عاماً .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٠٥/١ .

(٤) نفس المرجع ق ١ - ٤٠٤/١ - ٤٠٥ .

(٥) نفس المرجع ق ١ - ١٧٦/٢ - ١٧٧ .

(٦) ابن الخطيب : الإحاطة بتحقيق الأستاذ عنان ، ص ٤٤ وما بعدها . أما أبو بكر الرشتشانى - وقد ورد فى نص الإحاطة المذكور « الرشتشانى » وهو تحريف - فقد ترجم له ابن بشكوال فى الصلة (رقم ١٤٧٧) فقال إنه يحى ابن عبد الله بن أحمد الغافق القرطبي ، رحل إلى المشرق ، وأخذ عن شيوخ مصر ، ثم عاد فكتب لبعض قضاة قرطبة ، وتوفى سنة ٤٧٤ (١٠٩١) .

باديس لعشيرته من البربر وعزمه على الإيقاع برعيته من أهل الأندلس . وينقل الرشتشاني هذا الخبر عن « ثقة له من أصادقة التجار » كان حضر مدينة غرناطة عند وقوع تلك الحادثة .

ومن هؤلاء الذين اعتمد عليهم ابن حيان شخصيات لم نتمكن من التعرف عليها . ولكنهم كانوا على كل حال في غاية من دقة التصوير لما يشاهدونه . نذكر منهم القرشي المعروف بالقط (ويبدو أنه كان من سلالة الأسرة المروانية التي انقرض ملكها (١)) ، وينقل عنه ابن حيان خبراً يرويه بدوره عن بلقين بن حبوس الصنهاجي أخى باديس ملك غرناطة حول مصرع الوزير أبي جعفر أحمد بن عباس ومخدومه زهير الفتي صاحب المرية على يد باديس وبرابرة الصنهاجين سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) (٢) . ومنهم أبو الفتح البرزالي الذي يروي عنه ابن حيان خبر مقتل يحيى المعتلى بن علي بن حمود . وجدير بالذكر أن أبا الفتح هذا هو ابن عم محمد بن عبدالله البرزالي صاحب قرمونة وحليف إسماعيل بن عباد ، وكان كلاهما قد اشترك في إلحاق الهزيمة ببخي المعتلى على باب قرمونة سنة ٤٢٧ (١٠٣٦) . ولنا أن نتصور مدى دقة هذه الرواية التي يثبته ابن حيان إذا ذكرنا أن أبا الفتح البرزالي صاحبها كان شاهد عيان لكل ما وقع ، بل إنه اشترك بنفسه في أحداث المعركة التي انتهت بمقتل يحيى الحمودي (٣) . ومنهم أبو أمية بن هاشم القرطبي الذي يصفه ابن حيان بأنه « كان من وجوه من خرج عنا أيام الفتنة واستوطن ثغر تطيلة ، وما رأيت مثله في أولى البيوتات فضلاً » . وقد أمد أبو أمية هذا مؤرخنا بخبر بالغ القيمة حول اجتياز شانجه ابن غرسيعة قومس قشتالة (Sancho García, Conde de Castilla) بباب تطيلة في أول أيام منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة للاجتماع بالقومس ريمند صاحب برشلونة (Ramón Berenguer, Conde de Barcelona) لعقد المصاهرة بينهما (٤) . وكان شانجه

(١) إنما نقول ذلك لأن لقب « القط » كاهل شائعاً على بعض المروانيين لقب به أكثر من واحد (انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ص ٩٧ ، ٩٩) . أما نسبه « القرشي » فإننا نلاحظ أن المروانيين بعد انهيار خلافتهم وإعلان الناس بالكراهية لم قد عملوا على تسمية نسبهم المرواني أو الأموي ، وأصبحوا لذلك يدعون أنفسهم بالقرشيين .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٧١/٢ وما بعدها .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٢٧١/١ وما بعدها ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١٨٨/٣ .

(٤) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥٤/١ - ١٥٦ .

عند اجتيازه بتطيلة قد أرسل يستدعى قوما من أعيانها لكي يشرح لهم سبب مروره ويسألهم تأمين مسيرته عبر بلاد المسلمين ، فكان أبو أمية نفسه من بين أعضاء الوفد الذي توجه للاجتماع به ومخاطبته . وفي الخبر تصوير شاهد عيان حريص على تسجيل كل شيء ، فهو يصف مضرب شانجه وعدة عساكره ومجلسه « وهو جالس على مرتبته عليه ثياب من ثياب المسلمين ورأسه مكشوف أصلع كهل لم يغلب عليه الشعب . . . الخ » ، بل إن فيه معلومات في نهاية الدقة عن صفات القومس المسيحي وخلالها بحيث تعين على رسم جوانب شخصيته بما يتفق مع ما انتهت إليه الأبحاث الطويلة التي قام بها المؤرخون الإسبان المدققون لهذا الأمير وعصره .

وفي بعض الأحيان لا يذكر ابن حيان اسم راوى الخبر ، غير أن لنا أن نثق في صدقه وتحريره الحقيقة . فمن ذلك قوله في الكلام عن موكب مبارك ومظفر الصقليين المنتزين على بلنسية بعد الفتن : « حدث من رأى مركب هذين العبدین الزلمتين في بعض أيام الجمع للمسجد الجامع ببلنسية بما أنسى مركب المظفر عبد الملك بن أبي عامر مولاهما » ، ثم يفصل وصف هذا الموكب ، ويختم الخبر بقوله : « قال لي المحدث : وكنت أعرفها عبدى مهنة لمولاهما مفرج العامرى . . . » إلى آخر الخبر (١) .

ويأتى بعد ذلك نوع آخر من مصادر ابن حيان ، وهو المكاتبات التي كانت ترد إليه من أصدقائه و « مكاتبيه » في هذه المدينة أو تلك من مدن الأندلس . ومن أمثلة هذه المكاتبات ذلك الخطاب الطويل الذى وجه به إلى ابن حيان صديقه ابن جابر الأديب في وصف الإعذار الذنوفى المشهور في طليطلة سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) . ويبدو أن ابن حيان كان يطلب إلى من يكتبه أن يستبلغ في الوصف ويورد كل التفاصيل الممكنة ، وذلك حتى يتفق ما يورده من مخاطباتهم مع متهمه في الاستقصاء إلى أبعد درجة . وفي خطاب الأديب ابن جابر الذى اعتمد عليه أبو مروان مثل طيب على ذلك ، إذ فيه وصف للحفل من التفصيل بحيث نكاد نراه (٢) .

على أننا نلاحظ أن ابن حيان فى كل ما ينقله إما شفاها أو كتابة من أصدقائه ومكاتبيه

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ (مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) ورقة ١١٤ ؛ ابن عذارى : البيان المغرب ١٦١/٣ - ١٦٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١ - ٩٩ / ١٠٦ .

حول هذه الأخبار لم يكن يثبت ما يقولون بحرفه — كما لم يثبت نصوص من سبقه من المؤرخين بلفظها في «المقتبس» — ، بل كان يعيد كتابته بأسلوبه ، ولهذا فإننا نجد الأسلوب على طول تلك الروايات وتعدد مصادرها مستويا متسقا يتفق مع خصائص كتابة ابن حيان ونثره الذي لم يقلد فيه أحداً ولا استطاع أحد أن يقلده . وكان أبو مروان لا يشترط على محدثيه أو مكاتبيه إلا صدق الرواية وتحري الحقيقة ، أما الباقي فن شأنه هو . ولا يمكن أن نتصور أن النصوص المنسوبة إلى أولئك الرواة — وكان بينهم فقهاء متوسطو العلم وتجار وقواد من البرابرة وأصحاب شرطة وغيرهم ممن لا يفترض فيهم سمو ثقافة ولا جودة أسلوب — نقول إن هذه النصوص لا يمكن أن تكون من صنع أولئك الرواة ، وإنما أخذ ابن حيان رواياتهم فأعاد صياغتها وفقاً لأسلوبه هو ومنهجه ، تماماً كما تفعل اليوم دور الصحف الكبرى حينما يقوم فيها كتاب مجيدون بإعادة تحرير ما يكلف باعداده المحققون الصحفيون والمراسلون ممن لا يشترط في عملهم إلا تحري الحقيقة والتدقيق في التفاصيل . ولدينا على ما نقول عن ابن حيان نص صريح يعلق به هو نفسه على خطاب الأديب ابن جابر المذكور ، فيقول :

« هذا آخر خطاب ابن جابر إلى بوصف ذلك الإعذار ، وجمله التي بسطتها من إدماجه وسبكها من نقده » (١) .

فهو إذن لا ينقل رسائل مكاتبيه كما ترد إليه ، بل يتخير منها و « يبسط من مدحها ويسبك من نقدها » أى أنه يجرى قلمه فيها بتصرف كثير ، فيحتفظ منها بكل ما هو مفيد من التفاصيل التي يعرف بحسه التاريخي المرهف أنها مفيدة ويحذف منها ما يراه ، كما سينص بعد ذكر رسالة ابن جابر على أنه حذف مما اشتملت عليه من الأشعار ما رأى ألا قيمة له . وهكذا يقدم ابن حيان لنا بعد ذلك من كل هذه الروايات . . . نصوصاً « حيانية » خالصة .

* * *

ونأتى أخيراً إلى مناقشة مسألة كان المستشرق الكبير راينهاردت دوزى أيضا أول من أثارها . ومجملها أن متأمل الأخبار التي يوردها ابن حيان سواء في «المقتبس» أو في «المتين» يهوله ما يرى فيها من معرفة مؤرخنا الدقيقة بكل ما يتعلق بإسبانيا المسيحية وممالكها وأمراثا وأنسابهم وسنوات

(١) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .

حكمهم ووفياتهم وأحوال بلادهم الداخلية . بل هو يقدم لنا أحيانا بعض الأخبار عن تاريخ إسبانيا على عهد الرومان ، مثل كلامه عن أكتيانيان Octavianus ثاني قياصرة الروم ومبانيه في الأندلس (١) ؛ وتاريخ قنطرة قرطبة التي بنيت قبل الفتح العربي بنحو مائتي سنة (٢) ؛ وعن المائدة المنسوبة إلى سليمان النبي بن داود ، ونذكر بهذه المناسبة أنه يبدو هذه الخرافة الشائعة ويورد التفسير المنطقي التاريخي الوحيد الذي يمكن قبوله حول هذه المائدة ؛ وعن لذريق آخر ملوك القوط ونسبه ، وأنه لم يكن من أبناء الملوك ولا صحيح النسب في القوط (٣) ، وعن قصة بنت يليان ، وغدر أصحاب لذريق به في موقعة وادي بكة التي هزم فيها أمام المسلمين (٤) ، وعن فتوح المسلمين في شمال الأندلس وامتدادهم إلى الأرض الكبيرة (فرنسا) ، كل ذلك مسجلا في دقة بالغة (٥) ؛ وفي ذكر ما استرده الملك النصراني فرويله (Frueia) من المسلمين في الفتنة التي سبقت ووافقت مقدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل وحروبه مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري (٦) .

وفي القطعتين المنشورتين من كتاب «المقتبس» من التفاصيل الدقيقة حول أخبار إسبانيا المسيحية ما يجعل مؤرخي إسبانيا في العصور الوسطى يعكفون عليهما عكوف من عثر على كنز ثمين ، فيستخرجون منهما ما صحح كثيراً من الأخطاء الشائعة المتناقلة في التواريخ القديمة ويزيد صورة التاريخ الإسباني بشطريه الإسلامى والمسيحي جلاء وبيانا .

أما القطعة التي نقدمها الآن من المقتبس فسيرى القارئ فيها من التأريخ الدقيق لإسبانيا المسيحية بمختلف ممالكها ، بل وكذلك لجوانب من التاريخ الفرنسى القديم ، ما يعتبر كشفاً جديداً لاكتفاء لقيمته . بل إننا نقدم من الآن حكماً علينا تبعته ولا نظننا نبعد فيه عن الصواب ، وهو أن ابن حيان ينبغي أن يجعل في طليعة من يرجع إليهم عند الحديث عن تاريخ إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن العاشر الميلادى ، ولا مناص أبداً من جمع أخباره وتقصيصها ودراستها قبل إصدار أحكام قاطعة حول ذلك التاريخ . وأذكر بهذه المناسبة أن صديق العالم الإسباني الكبير الأستاذ كلاوديو سانتش ألبرنوز (Claudio Sánchez Albornoz) عميد الاستشراق في الأرجنتين ومدير «معهد تاريخ الثقافة الإسبانية في العصور الوسطى» كان قد علم بأننى أزمع نشر هذه القطعة

(١) المقتبس كما ينقل عنه المقرئ في النسخ ٢٦/٢ ، (٢) نفس المرجع والصفحة .

(٣) نسخ الطيب ٢٣٢/١ - ٢٣٣ . (٤) نفس المرجع ٢١٦/١ - ٢١٧ .

(٥) نفس المرجع ٢٥٥/١ - ٢٥٦ . (٦) نفس المرجع ٣٠٩/١ .

من المقتبس وطلب إلى أن أبعث إليه ببعض ما تضمنته من أخبار حول إسبانيا المسيحية ، فبعثت إليه ما طلب ، وكان يقوم بإعداد دراسة جديدة شاملة حول إسبانيا في القرن التاسع الميلادي ، فلما تلقى ما بعثت به إليه من مادة كتب إلى يقول : إنه رأى من التسرع أن يصدر دراسته الموعودة قبل أن تصدر هذه القطعة من المقتبس ، وهكذا قرر أن يؤجلها حتى تتاح له الفرصة لقراءتها والاستبلاغ في تقصى فوائدها واعتصار مادتها .

أما المتين فان القطع التي عرفت منه عن طريق « الذخيرة » لابن بسام قد أعانت كذلك على تصحيح كثير من أخطاء كتاب المدونات المسيحية واستنتاجات الباحثين المحدثين حول بعض الأحداث الواقعة خلال القرن الحادي عشر الميلادي . ويكفي أن نشير إلى مثلين نجتزئ بهما للدلالة على ما نقول : الأول هو خبر المصاهرة التي تمت بين ابن ريمند قومنس برشلونة (Ramón Borrell III) وابن شانجه قومنس قشتالة (Sancho García I) ، وذلك بزواج ابن الأول وولي عهده برنجار بن ريمند (Berenguer Ramón) من شانجه Sancha ابنة الثاني . وقد أعدت هذه المصاهرة — كما تبين من نص ابن حيان المنقول في « الذخيرة » (١) — في سرقسطة وبتدبير من منذر بن يحيى التجيبي ملك الثغر الأعلى . وكان الذي استقر في أذهان الباحثين منذ قديم أن هذا الزواج تم بين ابن قومنس برشلونة وابنة قومنس غشقونية Gascogne (في جنوب غربي فرنسا) ، حتى اكتشف دوزي نص ابن بسام في مخطوطة الذخيرة (ولم تكن قد نشرت بعد) ، فصحح ذلك الخطأ الشائع (٢) ، وأتت بعد ذلك شواهد جديدة تؤكد رأى دوزي بعد اكتشاف مزيد من النصوص الأندلسية (٣) .

(١) الذخيرة ق ١ - ١٥٤/١ - ١٥٥ .

(٢) دوزي : أبحاث حول تاريخ إسبانيا وأدبها في العصور الوسطى :

R. Dozy : Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen Age, ed. Leiden, 3^e ed., 1889, I, pp. 203-210.

(٣) من الطريف أن هذا الشاهد أتى في ديوان شعر ، ونعني به ديوان ابن دراج القسطل الذي قُت بتحقيقه ونشره في دمشق سنة ١٩٦١ (انظر القصيدتين رقى ٤٣ و ٤٤ ص ١٥١ - ١٦٦ في مدح منذر بن يحيى التجيبي وتهنئته ، وتعلقنا على أبيات القصيدة الأولى في ص ١٥١ - ١٥٢ من الديوان وكذلك في مقالنا عن « إسبانيا المسيحية في ديوان ابن دراج القسطل » :

Mahmud A. Makki : La Espana cristiana en el diwan de Ibn Darray, Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona, n°. XXX, 1963-1964, pp. 88-93 = (20-31).

والمثل الثانى هو تفصيل ابن حيان لكائنة بربرشتر التى احتل فيها المجوس (النورمند) هذه المدينة الأندلسية الواقعة فى أقصى الشمال على سفوح جبال البرتات (البيرينية) فى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ثم استردها المسلمون فى السنة التالية(١) . فأخبار هذه الواقعة مفصلة لدى ابن حيان على نحو يدل على معرفة دقيقة بأوضاع الممالك المسيحية لا فى شبه الجزيرة فحسب ، بل كذلك فيما وراء جبال البرتات إلى الشمال .

هذا الإطلاع الواسع من ابن حيان على كل ما يتصل بالممالك المسيحية فى أوروبا كان مثار دهشة الباحثين الأوربيين المحدثين ، وعلى رأسهم دوزى أول من أكتشف تلك النصوص ونبه إلى قيمتها . وهكذا مضوا يبحثون عن تفسير لهذه الظاهرة الغريبة التى يتضح منها أن ابن حيان كان أكثر معرفة بأحوال إسبانيا وأوروبا المسيحية من كثير من المؤرخين المسيحيين المعاصرين له ، بل وحتى التالين لعصره . وكان مما قاله دوزى فى تفسير ذلك أنه لابد أن ابن حيان كان يعرف « عجمية الأندلس » (أى اللغة اللاتينية الدارجة التى تولدت عنها اللغة الإسبانية الحديثة) وأن ذلك مكنته من الاطلاع على أحوال إسبانيا المسيحية عن طريق الاتصال ببعض المستعربين (المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى ظل الحكومة الإسلامية) ، ورأى دوزى أن هذا نفسه لا يكفى لإمداد ابن حيان بمعلومات على تلك الدرجة من الدقة والتفصيل ، فقال : إن مؤرخنا لم يكتف بذلك بل إنه اطلع على مدونات مسيحية قديمة فقدت اليوم ولم يبق لها أثر .(٢) وأخذ ملتشور أنطونيا بهذا الرأى فى رسالته عن ابن حيان(٣) .

(١) ابن بسلام : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بميدريد ، ورقة ٢٢ ب - ٢٤ ا ، وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى : البيان المغرب ٢٢٥ - ٢٢٨ ، ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ المقرئ : نفح ١٩١/٦ - ١٩٨ وانظر كذلك ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المطار ، بتحقيق ليلى بروفنسال ، ط . القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٤٠ - ٤١ . أبو عبيد البكرى : المسالك والممالك ، قطعة خاصة بجغرافية الأندلس وأوروبا ؛ بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن حل الحى ، ط . بيروت سنة ١٩٦٨ ، ص ٩٢ - ٩٥ ؛ وانظر دراسة دوزى لهذه الواقعة فى الجزء الثانى من « أبحاثه » ص ٣٣٢ وما بعدها .

(٢) دوزى : أبحاث ، الطبعة الثالثة ، ٨٧/١ .

(٣) ملتشور أنطونيا : ابن حيان القرطبى ص ٣٥ - ٣٧ ، وقد قرر أنطونيا هذا الرأى فى مقدمة نشره لمخطوطة أو كسفورد من المقتبس ص ١٥ - ١٦ .

وأقرب بعد ذلك غرسية غومس ، فأعاد نظر هذه القضية ، فقال: إن الحجج التي اعتمد عليها عليها دوزى وأنطونيا في إثبات معرفة ابن حيان اللاتينية الدارجة. وفي افتراض نقله عن مدونات مسيحية ضاعت اليوم - كلها مبنية على الأخبار الواردة في « المقتبس » . وهذا نفسه يضعف تلك الحجج ، بل وينقضها من أساسها ، إذ أن مادة المقتبس مأخوذة في جملتها عن المؤرخين السابقين على ابن حيان . فإذا كانت هناك معرفة بلغة عجم الأندلس أو نقل عن مدونات مسيحية فإن ذلك ينبغي أن ينسب لا إلى ابن حيان ، وإنما إلى المؤرخين الذين نقل عنهم . وكان غرسية غومس حذراً في تعليقه على رأى دوزى وأنطونيا ، فقال: إن اعتراضه ليس على الرأى نفسه ، فهو لا يملك أن ينكر على ابن حيان معرفته لعجمية الأندلس أو استطاعته بشكل أو بآخر استخدام مدونات مسيحية مكتوبة ، وإنما الاعتراض على الأدلة التي ساقها الباحثان في البرهنة على ذلك الرأى(١) .

والحقيقة أن المسألة من العسر بحيث لا نستطيع القطع فيها برأى ، على أننا نوافق غرسية غومس على قوله إن ما ذكره دوزى وأنطونيا لا ينهض حجة على إثبات ما زعماء من معرفة ابن حيان بلغة عجم الأندلس أو نقله عن مدونات مسيحية مكتوبة ، فنصوص المقتبس وحدها لا تكفى لذلك .

غير أن بين أيدينا ما ذكره ابن حيان في « المتن » حول الممالك المسيحية في شمال إسبانيا ، وهو حافل بما يدل على معرفته الدقيقة بأخبارها إلى حد لا يقل عما يصوره كتاب المقتبس ،

والذى نتصوره نحن أن ابن حيان كان يعرف عجمية الأندلس فعلاً ، فقد كانت هذه اللغة شائعة بين جميع معاصريه كما ثبت الآن بالأدلة القاطعة ، حتى أصبح من القضايا المسلمة . وأى غرابة في أن تعرف روح طلعة كابن حيان ما لم تكن هناك مثونة في معرفته ، ولا استعصت عليه وسائله وأدواته ؟ ولكن رجوعه إلى مصادر مسيحية مكتوبة هو الذى نستبعده حتى يقوم عليه دليل ملموس(٢) . وإذا كانت المدونات المسيحية التي وصلت إلينا لا تكاد تقارن في الضبط

(١) غرسية غومس : حول ابن حيان ص ٤١٧ - ٤١٨ = (٢٣ - ٢٤ من الفصل) .

(٢) لا يشير ابن حيان إشارة صريحة واضحة إلى « رواة العجم » إلا في النص الذى ينقله المقرئ عن المقتبس حول المسألة المنسوبة إلى سليمان (نفع الطيب ٢٥٤/١ - ٢٥٥ ، ٢٧٠ - ٢٧١) ولكن لا يظهر من هذه الإشارة ما إذا كان المقصود بها مصدراً مكتوباً أو شفوياً .

وصحة الأخبار وتفصيلها بما جاء في تاريخ ابن حيان، فكيف يسوغ أن ننسب تميز مؤرخنا بهذه الصفات إلى اعتماده على مثلها مما لم يحفظه لنا الزمن ؟ وربما كان المعقول هو أن يكون ابن حيان في شرفه إلى الأخبار وتحريره مع ذلك ضبطها وصحتها كما هي عادته قد رجع إلى ثقات له من مستعربي أهل قرطبة العارفين بأخبار الممالك المسيحية في الشمال ، كما كان يفعل بالنسبة لتاريخ الأندلس الإسلامية بالنسبة للثغور ومدن الأطراف القصية التي لم يغب عنه من أخبارها شيء . على أنه كان لا يقيد من هذه الأخبار إلا ما يتحقق من صحته ويعرضه على حسه التاريخي كشأنه في كل ما أثبت في تاريخه .

مكانة ابن حيان مؤرخا ، وخصائص كتابته التاريخية :

يعتبر ابن حيان بحق « صاحب لواء التاريخ بالأندلس » كما وصفه بذلك تلميذه أبو علي الجبائي ، وهو في الحقيقة بالفعل قمة الكتابة التاريخية في هذا القطر ، ويتمثل فيه نضوج هذا اللون من ألوان الثقافة الأندلسية .

والذي يتنبع تطور الكتابة التاريخية في الأندلس يمكنه أن يقدر الوثبة العظيمة التي أتتحت لهذا العلم من عبد الملك بن حبيب الإلبيري أول مؤرخي الأندلس (ت ٨٥٢/٢٣٨) حتى ابن حيان أي على طول نحو قرنين ونصف من الزمان . وكانت بداية علم التاريخ على يد ابن حبيب طموحة متواضعة في الوقت نفسه : طموحة في نبل الغاية الذي دفع بهذا المؤلف الأندلسي في مثل ذلك الوقت المبكر من مولد الثقافة العربية في الأندلس إلى أن يقوم بكتابة تاريخ عام للعالم قبل أن يكتب الطبري تاريخه بأكثر من نصف قرن ، أما تواضعها فهو في النتيجة الذي انتهت إليها هذه المحاولة إذ أتى تاريخ ابن حبيب من الفجاجة والنقص بحيث كان ينتظر ، على أن جرأة الفقيه الإلبيري في إقدامه على هذا التأليف تدعو في ذاتها إلى الإعجاب بهذا العالم المتوسط الثقافة الذي أراد أن يؤكد قوميته الأندلسية منذ ذلك الوقت المبكر في ميدان العمل الثقافي والفكري (١) .

(١) سبق أن قمنا بدراسة مفصلة لتاريخ ابن حبيب ونشر الفصول الخاصة منه بالأندلس حسب النسخة المخطوطة الوحيدة المحفوظة في المكتبة البودلية بأوكسفورد رقم ١٢٧ مع بحث المصادر الأولى للتاريخ الأندلسي وارتباطها بنفوذ الثقافة المصرية وذلك في مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي » في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد :

(Mahmud A. Makki : Egipto y los orígenes de la historiografía arabigo-española, 'en Revista del Instituto de Estudios Islámicos en Madrid, vol. V, 1957, pp. 157-248).

وكنا ننتظر من أول مؤرخ تنجبه أرض الأندلس أن يفيض في الحديث عن أخبار الفتح العربي لبلده وفي تاريخها بعد الفتح ، ولكن ابن حبيب مضى يفتح على نفسه باب الحديث الواسع عن قصة العالم وتاريخ الأنبياء والرسل وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وغير ذلك مما لم يكن بوسعه أن يجيده أو يقدم فيه شيئاً له قيمته ، فلما وصل إلى الفصول التي اختص بها الأندلس إذا به يخيب الأمل فيه فيملأ كتابه بمجموعة من الأحاديث الخرافية مما نقله عن شيوخه المدنيين والمصريين . وهكذا بدأت كتابة التاريخ الأندلسي في ظل ما يشبه أن يكون « وصاية » للفقهاء والمحدثين والقصاص المصريين .

ولكن الكتابة في هذا الميدان لا تلبث أن تسير في طريق النضوج بسرعة ملحوظة ، ولا يأتي القرن الرابع حتى ترتفع تلك « الوصاية » المصرية ، ويظهر بين الأندلسيين من يوصلون هذا اللون من الكتابة إلى مستوى رفيع من الإجادة والتنوع في الوقت نفسه . أما التنوع فقد ظهرت مؤلفات تعنى بتسجيل جوانب معينة من حياة الأندلس ، فبعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وفقهائها وعلمائها مثل كتاب ابن الفرضي ، وبعضها أكثر تحديداً ، إذ لم يتجاوز تأريخ قضاة قرطبة مثلاً كما نرى في كتاب الخشني ، أو طبقات اللغويين والنحويين كما هو شأن كتاب الزبيدي ، هذا فضلاً عن جمع الأخبار التاريخية بمعنى الكلمة على نحو ما نرى في عديد من كتب هذا العصر ، مثل تاريخ عريب بن سعد وكتاب « أخبار مجموعة » المجهول المؤلف و « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القوطية . وأما الإجادة فإنها تتمثل في بني الرازي الذين توارثوا الاهتمام بتسجيل الأندلس منذ جدهم محمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣/٨٨٦) وتقدمت الكتابة التاريخية بعد ذلك على يد ابنه المؤرخ الجغرافي أحمد بن محمد (ت ٣٤٤/٩٥٥) ، ثم على يد عيسى بن أحمد الرازي (ت ٣٧٩/٩٨٩ - ٩٩٠) (١) .

(١) اقتصرنا في هذا العرض الموجز السريع على الإشارة إلى الكتب التي سلمت من غائلة الزمن فبهتت حتى الآن كلها أو أجزاء كبيرة منها تصلح لتكون فكرة سليمة عنها ، وإلا فإن إنتاج الأندلسيين في ميدان الكتابة التاريخية ما ضاع معظمه أكثر من هذا بكثير . ولمن يريد الإلمام بتاريخ « التأريخ » الأندلسي حتى عصر ابن حيان أن يرجع إلى المقدمة الشاملة حول هذا الموضوع والتي صدر بها راينهارت دوزي نشرته لكتاب « البيان المغرب » (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٥١) ثم الفصل الطويل الذي يؤلف القسم الأول من كتاب بونس بويجس عن « المؤرخين والجغرافيين الأندلسيين » (ص ٢٧ - ١٢٥) ، وقد أحصى المؤلف فيه أكثر من مائة اسم من أسماء هؤلاء المؤرخين .

ويعصور ابن سعيد هذا الاهتمام بالتاريخ لدى الأندلسيين فيقول وإن كان كلامه غير مرتبط بعصر معين : « وعلم الأدب المنتور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم » (١) .

وقد أتى ابن حيان أخيراً في القرن الخامس الهجرى ، فكان تنويجاً لهذه الحركة التاريخية الأندلسية التى تقدمت بسرعة مطردة خلال القرن السابق ، فاعتبر بحق « أمير مؤرخى الأندلس » ، إذ فاق كل من مضوا قبله ، ولم يتح لهذا القطر أن يخرج قريباً له بعده .

* * *

وأول ما نلاحظه من خصائص الكتابة التاريخية عند ابن حيان الاستبلاغ فى الدقة والضبط ، فقد فاق فى هاتين الصفتين كل مؤرخ قبله ، ونحن نرى فى ابن حيان دائماً كاتباً يخضع كل ما يقرأه أو يشاهده أو يبلغه لميزان نقدى علمى يبدو سابقاً لعصره فى تلك الأيام حتى كأنه من نتاج عصرنا الحديث .

ولم يكن لابن حيان بد فى تأريخه للعصور السابقة عليه من الرجوع إلى الكتب التى ألقت قبله ، ولكنه — على عكس ما تصور الكثيرون — لم يكن مجرد ناقل ، بل إن شخصيته القوية تهيمن على كل ما يورده ونحس بها تطل علينا من جميع صفحات تأريخه التى يسندها إلى هذا المؤرخ أو ذاك ، سواء فى أسلوب الكتابة أو فى الميزان النقدى الصارم الذى حقق به الروايات المختلفة ومحصها وقارن فيما بينها على نحو جدير بالإعجاب . أما فى تأريخ ما عاصره — وهو موضوع كتاب « المتين » — فإن هذه الروح أكثر بروزاً ، إذ كان ابن حيان مطلق اليد فيما يكتب غير مازم بأن يرجع إلى أى كتاب يقيد انطلاقه .

وتبدو دقة ابن حيان فى مظاهر شتى منها احتفاله فى تحديد التواريخ بالأيام فى كثير من الأحيان ، بل إنه يوفر على الباحث المعاصر الجهد ، فيثبت ما يقابل التقويم الهجرى من « التاريخ العجمى » (أى التقويم الميلادى) ، وهو فى ذلك دائماً مصيب لا يخطئ ؛ ومنها مقابلته بين الروايات وتحكيم المنطق التاريخى والعقل فى المفاضلة بينها إذا تعددت ، ومنها نبذه للأساطير والأحاديث الخرافية ولا سيما ما نسج منها حول فتح العرب للأندلس مما ملا كتب المؤرخين قبله ومما نرى له مثلاً صارخاً

(١) ابن سعيد ، حسبما ينقل عنه المقرئ فى نفع الطيب ٢٠٦/١ .

في كتاب ابن حبيب . وقد سبق أن ضربنا مثلاً لهذا التدقيق في نبذه للتفسير الأسطوري لأصل « مائدة سليمان » وإثباته تفسير آخر له يتفق مع المنطق العقلي والتاريخي .

ومن الخصائص التي تستوقف النظر وتستأثر بالإعجاب في تاريخ ابن حيان التفصيل الواسع الذي لا يكاد يعزب عنه شيء منها دق أو صغر ، مع الإدراك الواعي لقيمة هذه الأشياء الصغيرة أو الدقيقة ، فهناك فرق كبير في الكتابة التاريخية بين ماهو صغير وماهو تافه . فالتفاصيل الصغيرة كثيراً ما تكمل الصورة الكبرى للأحداث أو الشخصيات ، ولهذا فإن لها من القيمة مالا يقل عن تسجيل عظام الأمور ، والخط الواهي الدقيق الذي يفصل بين الأمرين شيء لا يفتن إليه إلا ذو الحاسة التاريخية الدقيقة التي تشبه الإلهام في الشعر : لا تتأق بكثرة العناء ولا تكتسب بالانكباب على القراءة ولا بكثرة التسطير في الورق ، بل هي شيء أشبه ما يكون بما قاله مهيار الديلمي في ميدان الشعر :

رحمت قوما وما مالت رقابهم تحت القريض فظنوا أنهم حملوا
وقعقعوا دونه الأبواب فاعتقدوا لطول ما قرعوها أنهم وصلوا
وحظهم منه حظ الناقيات رجت أن يجتنى من هيبد الحنظل العسل

و ما أكثر ما وقع كثير من المتلبسين بمهنة التاريخ قبل ابن حيان وبعده الأبواب ، فسطروا الكثير ، ولكنهم لم يصلوا إلى شيء ، إذا استعصت عليهم هذه « الحاسة التاريخية » التي فطن إليها ابن خلدون في قلة من المؤرخين . وهذه الحاسة هي التي كانت تهدي ابن حيان حينما كان يسجل لنا وصف موكب عبد الملك المظفر في آخر غزواته إلى بلاد الشمال بما في هذا الوصف من تفاصيل تكون تكون « فوتوغرافية » ، وحينما كان يصف لنا في تلك الأفاصيص والنوادر الصغيرة حياة الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى في نزاهه ومجالسه مع حجابه ووزرائه ، وحينما رسم لنا تلك الصورة الرائعة للحصار الذي ضربه الأمير محمد على « قلعة الخنش » التي اعتصم بها ابن مروان الجليقي . . . إلى غير ذلك مما سنراه على طول هذه القطعة التي نقدمها اليوم من كتاب « المقتبس » ، وهو يكتب بهدي هذه الحاسة حينما يسجل لنا في دقة « صحفية » خبر تلك الجزية الغامضة الغريبة التي راح ضحيتها الأديب الأندلسي أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطنبلي في جوف داره (١) ،

(١) نقل ابن بسام هذا الوصف بطوله في اللخيرة ق ١ - ٥٣/٢ - ٥٧ . وقد وقعت هذه الجريمة في سنة ٤٥٧ (١٠٦٥)

أو خبر ذلك الاكتشاف الأثرى الكبير الذى وقع فى مجريط (مدريد) وعثر فيه - أثناء احتفار أحد الخنادق - على عظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ (١) .

وفضلا عن هذا التفصيل والتوسع فإن ابن حيان فى إحاطته الشاملة بالتاريخ الإسلامى فى المشرق والمغرب كان سريع الإدراك والتنبيه للمشابهات والمفارقات بين المشرق والأندلس . نرى ذلك فى مقارناته الدقيقة بين أحداث الأندلس وما مائلها أو خالفها مما كان يدور فى مختلف أقطار المشرق أو بين الشخصيات الموجهة للتاريخ هنا وهناك : نذكر من أمثلة ذلك مقارنته بين الفتنة البربرية الواقعة فى الأندلس والمفرقة لشمل الجماعة والفتنة الحادثة بالمشرق ، وهو ينص فى سياق ذلك على أنه تنسب فى كتابة تاريخ هذه الفتنة بمسأخرى أصحاب التاريخ بالمشرق مثل أبى محمد الحصنى وأبى بكر بن القواس القاضى والفرغانى (٢) ، ومن هذه المقارنات ما عقده بين تلقيب الحكم المستنصر مولاه غالباً بلقب « ذى السيفين » امثالاً لما فعله الأمير أبو أحمد الموفق بإسحاق بن كنداج الخزرى حامله على الجزيرة (٣) .

وفى معرض المقارنة بين شخصيات الأندلس والمشرق نذكر هذه الفقرات الرائعة التى تحدث فيها عن عبد الرحمن بن معاوية الداخل « صقر قريش » وأبى جعفر المنصور العباسى (٤) ، والتى

(١) ابن حيان حسبما ينقل عنه ابن عبد المتعم الحميرى فى الروض المعمار ص ١٨٠ ، وقد بحث صديق المشرق الكبير الاستاذ خايمى أوليفر أسين مدير مدرسة الأبحاث العربية فى مدريد هذا الاكتشاف فى كتابه عن « تاريخ اسم مجريط » (Historia del nombre de Madrid, Madrid, 1958) ص ١٣٥ ، حاشية ٢ وص ٢٧٦ ، حاشية ١ ، ويبدو أن النظام المذكورة كانت لحيوان من عائلة « الماموث » جذ الفيل الحالى (Elephas antiquus) كما يدعى باللاتينية) . ومن غريب المواقفات أنه تم فى سنة ١٩٥٦ اكتشاف آخر مماثل للذى سجله ابن حيان هنا فى إحدى ضواحي مدريد لعظام حيوان هائل من حيوانات ما قبل التاريخ كانت شغل المتخصصين فى هذا النوع من الدراسات .

(٢) ابن هشام : الذخيرة ق ١ - ٨٧/٢ - ٨٨ ؛ ولم نهد إلى ما يزيدنا بياناً عن المؤرخين الأولين . أما الثالث فلا بد أنه عبد الله بن أحمد بن جعفر الفرغانى (ولد سنة ٨٩٥/٢٨٢ وتوفى سنة ٩٧٢/٣٦٢) وهو صاحب « صلة تاريخ الطبرى » الذى نقل عنه ياقوت الرومى كثيراً فى كتاب « إرشاد الأريب » (معجم الأدباء) ، وقد أثنى عليه ابن القفلى وامتدح ما فيه من تفصيل وبسط . (انظر فرائز روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة الدكتور صالح أحد العل ، ط . بغداد سنة ١٩٦٣ ، ص ١١٧ - ١١٨) .

(٣) المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحصى ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) ابن حيان حسبما نقل عنه المقرئ : نفح الطيب ٣١٠/١ - ٣١١ .

قارن فيها بين شخصيتي محمد بن عبد الرحمن المستكني المرواني وسميه العباسي (١) وبين المعتضد ابن عباد ملك لإشبيلية وأحمد المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل العباسي (٢) .

ولإذا كان ابن حيان منذ البدء قد عرف حدود عمله فلم يتجاوز الأندلس إلى غيرها فإن هذه الملاحظات تصور طرفاً من إطلاعه الكامل على أخبار المشرق وكثرة استقراؤه لها . أما المغرب فإن علمه بتاريخ الشمال الإفريقي كله كان لا يقل عن علمه بالأندلس ، ولكنه لم يقصده لذاته ، بل اقتصر منه على ما لا غنى عنه في تأريخ العلاقات المتصلة المتشابكة بين الأندلس ودول المغرب العربي على امتداد السواحل الإفريقية . وقد نص ابن حيان في إحدى قطع المقتبس - وهي الخاصة بسنوات من خلافة الحكم المستنصر - على أخذه عن اثنين من المؤرخين الإفريقيين هما ابن الوراق وابن الجزار القيروانيين ، وصفحات هذه القطعة من المقتبس حافلة بالأخبار القيمة عن المغرب ، وفي القطعة التي تقدمها اليوم من نفس هذا الكتاب أخبار أخرى جديدة تماماً عن العلاقات بين أمراء فرطية المروانيين وإمارتي الأغالبة في القيروان والمدرايين في سجلماسة خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . كذلك نشير إلى قطعة كبيرة من تاريخ ابن حيان احتفظ لنا بها صاحب كتاب « مفاخر البربر » حول سياسة المنصور بن أبي عامر في المغرب ، وهذه القطعة وحدها تبلغ نصف الكتاب كله (٣) .

وأهم ما يميز كتابة ابن حيان التاريخية - فضلاً عن الدقة والتفصيل - نزاهته وصدقه وتجرده من الهوى ، وهي صفة كثيراً ما ألح على بيانها من كتبوا عن ابن حيان أو نقلوا من تاريخه سواء من القدماء أو المحدثين ، ولعلها بالفعل أعظم صفاته وأكثرها استحواذاً على اهتمام القارئ وإعجابه . فهو يعرف تبعة الكتابة التاريخية ، ويدرك ما تعنيه ، ويحترم قلمه فلا يضعه في خدمة أحد . ولسنا في حاجة إلى ضرب أمثلة على هذه الصفة ، فهي تطل من جميع صفحات تاريخه ، حيث نرى كيف يرتفع المؤرخ على المداهنة والمجاملة ، بل يخضع الأحداث والشخصيات لميزانه النقدي

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٧٩/١ - ٣٨٠ ؛ ابن عذاري ؛ البيان المغرب ٣/١٤١ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ٤١/٢ .

(٣) نبد تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى ، منتخبة من المجموع المسمى « مفاخر البربر » لمؤرخ مجهول

الامم ألفه سنة ٧١٠٢ ، بتحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤ ، ص ٣ - ٣٧ .

والخلقى الصارم ، فيعطى لكل حقه دون إسراف فى الثناء ، ولا خروج إلى ضد ذلك من التجنى أو الظلم . وقد كادت هذه الصراحة تؤدى بآبن حيان إلى ما لا تحمد عقباه فى ظل بنى جمهور كما سبق أن ذكرنا فى الحديث عن سيرة حياته ، ولكنه مع ذلك بقى وفيا لمبادئه ، حريصا على الصدق ، لم يحد عن ذلك الخط إلا فى مناسبات قليلة قد تكون الظروف أو التسرع فى الحكم قد ألبأته إليها . ولولاها « لكل لو أن بشرأ يكمل » — على حد تعبيره هو . وقد سبق أن نبهنا على هذه الاستثناءات القليلة فى سياق كلامنا عن حياته .

عقيدة ابن حيان وآراؤه السياسية :

غير أن نزاهة ابن حيان وصدقه لا يعنيان أنه كان مجرد مسجل للأخبار يلزم فيها أقصى ما يستطيع من الدقة والضبط . لا . . . فإن حيان كان قبل كل شئ رجلا له مثله الخلقية وعقيدته السياسية ، ووجهة نظره التى كانت تتفق مع تلك العقيدة والمثل . وقارئ تاريخه يحس بهذه العقيدة دائما فى خلفية ما يكتبه سواء عن تاريخ الأندلس القديم أو المعاصر .

وأول العناصر التى كانت تتألفها من جماعها عقيدة ابن حيان — أو تفكيره الإيديولوجى كما يقال بلغة اليوم — هو عصبية لقوميته الأندلسية ، واعتداده بها أشد الاعتداد ، واعتقاده بأن الأندلس ينبغى أن تحتل مكانا من أمكنة الصدارة فى العالم الإسلامى ، وتشيع هذه الروح فى كل كتابات ابن حيان ، إذ يستشف القارئ من وراء كل سطر يكتبه فى تاريخه ذلك الحب الذى أشربه لوطنه (١) . وهو يتفق فى تلك العصبية مع هذا الجيل من الكتاب والمفكرين الذين أدركوا أواخر أيام خلافة بنى مروان وعاشوا فى ظل ملوك الطوائف ، وأبرزهم صديقه أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم صاحب الرسالة المشهورة فى فضل الأندلس ، وهى تعتبر من أروع نماذج العصبية الفكرية للقومية الأندلسية (٢) .

(١) كان على ابن حيان جل اعتماد ابن سعيد فى كتابه « الشهب الثاقبة فى الإنصاف بين المشارقة والمغاربة » الذى رد فيه على الفصول الخاصة بالأندلس من كتاب بن حوقل النصيبى الحفراقى الرحالة « صورة الأرض » حيث نرى فقرات كثيرة فى تنقص الأندلسيين والهجوم عليهم . وقد نقل المقرئ فى نفح الطيب صفحات عديدة من كتاب ابن سعيد المذكور (انظر النفح ١٩٦/١ وما بعدها) .

(٢) لابن حزم بيت ركز فيه عصارة هذه العصبية القومية وأورده فى كتابه طوق الحمامة (بتحقيق الاستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٦١) . :

ويا جوهـر الصين صحفا فقد غنيت بيساقوفة الأندلس

· والمفارقة الصارخة التي تبدو عجيبة لأول وهلة هو أن هذا الجيل الذي أشرنا إلى مدى اعتداده بقوميته وبوطنه (١) ، والذي يمكن أن نطلق عليه اسم « جيل الفتنة البربرية » - كان أكثر كتاب الأندلس ومفكرها إلحاحا على نقد شعبهم ، وحدة في إظهار عيوبه ، وصراحة في الحديث عن وجوه النقص في طبائعه ومقومات شخصيته . ومرة أخرى نعود إلى تذكر هذا الجيل من مفكرى إسبانيا - « جيل ٩٨ » - الذي ظهر في أعقاب كارثة سنة ١٨٩٨ بعد الحرب الإسبانية الأمريكية واستمر أثره خلال النصف الأول من القرن العشرين . وكانت هذه الحرب قد عصفت بالبقية الباقية من أجداد إسبانيا وجردتها من ثياب امبراطوريتها القديمة ، وكشفت عن عوامل الفساد التي أدت بإسبانيا إلى هزيمتها الفاجعة . ومن هنا ظهرت هذه الطائفة من المفكرين الذين كانوا يحبون بلدهم ويعتزون ، ولكن ذلك لم يمنعهم من نقد شعبهم أمر النقد وأوجعه ، بل لعل ذلك الحب هو الذي حملهم على الإبلاغ في النقد إلى أبعد حد ممكن .

وهذا هو ما نجده لدى هؤلاء المفكرين الأندلسيين الذين ظهروا في أندلس القرن الخامس ، وعلى رأسهم ابن حزم وابن حيان ممن حاولوا أن يضعوا أصابعهم على موطن الداء ، والتعرف على الأسباب الباطنة الخفية التي أدت إلى الانهيار المفاجئ المذهل لذلك البناء العتيق الذي كان يبدو منذ سنوات قليلة نموذجاً للحكم الصالح والدولة المستنيرة - أو إذا استعرنا أحد مضطلحات الفلسفة « للمدينة الفاضلة » .

وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نقد بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في نظام الدولة الأندلسية ، هذه العيوب التي أدت شيئا فشيئا إلى تحللها وتصدعها ، وكأنه السرطان الخفي يستشري في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة . وهي عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر ، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية . غير أن الأجداد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلقى عليها حجابا كثيفا سترها عن الأنظار . لقد كانت الفتنة تجثم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة ، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور

(١) للمستشرق الإسباني غوسيه غومس صفحات بديمة في تحديد مبادئ هذه الطائفة من الأدباء والكتاب القرطبيين وقد وفق هذا الباحث في بيان الخصائص العامة التي كانت تجمع بينهم . انظر مقدمته للترجمة الإسبانية لكتاب طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٦ - ٢٧ :

E. Garcia Gomez : El collar de la paloma, Madrid, 1952.

ابن أبي عامر إذا بهذا البنيان الشامخ ينهار في لحظات ، وإذا بنيران الفتنة المبيرة تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام في الأندلس .

ونضرب مثلاً على ملاحظات ابن حيان بعبارة يوردها ابن حيان على لسان ابن مامه دونة (وهو يعنى شانجه بن غرسية قومس قشتالة (Sancho García, Conde de Castilla) الذى كان حليفاً لسلیمان بن الحكم المستعين وبرابرة أثناء الحرب الأهلية ، وهى عبارة تركزت فيها محنة الشعب الأندلسي : « كنا نظن أن الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة ، فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وإنما اتفق لهم ما اتفق من الظهور والنصر بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم » (١) .

وروح القومية الأندلسية عند ابن حيان هى التى جعلته يكن للبربر كراهية شديدة تشيع على ظاهر صفحات تاريخه ، فهو يندد بقسوتهم وحقدهم الدفين على الدولة الأندلسية ورغبتهم المسعورة في نقض بناء الحضارة الأندلسية منذ أول لحظة يتهاها لهم فيها ذلك (٢) .

ولكن ابن حيان كان دائماً حريصاً على التزام النزاهة ، فهو لا يدين القسوة من جانب البربر لا يتردد في إدانتها كذلك من جانب الأندلسيين ، نرى ذلك في حملته العنيفة على جبن عشيرته أهل قرطبة وفي تعبيره عن النفور الشديد مما ارتكبه من التمثيل بجثة حباسة بن ماكسن الصنهاجى الذى قتل في معركة أرملاط في أثناء الحروب الأهلية بين الأندلسيين والبربر سنة ٤٠٢ (١٠١٢) :

« فركبوه بكل عظيمة ، واجتمعوا إليه اجتماع البغاث على كبير الصقورة ، فجروه في الطرق وطافوا به الأسواق . . . جرياً على ذمهم عادتهم في قبح المثلة ولوهم القدرة » (٣) .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٩٠/٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال تعليقه على ماكان باديس بن حبوس الصنهاجى ملك غرناطة قد اعتزمه من استئصال رعيته الأندلسية بعد أن بلغه إيقاع المعتضد بن عباد أبي نصر القرى (ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ عنان ص ٤٤٤ - ٤٤٦) وحديثه عن جسارة البربر على الاغتصاب حتى اغتصاب الموق في قبورهم في مرض الكلام عن مصرع الأديب أبي الفتح ثابت بن محمد الجرجاني على يد باديس (الإحاطة ص ٤٦٦) وكذلك كلامه عن زاوى بن زيرى الصنهاجى بمناسبة نية (ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٩٩/٢) .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة (ط . الأستاذ عنان) ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

وعلى الرغم من هذه الكراهية للبربر - وهي كراهية لا ترجع إلى أى سبب عنصري وإنما بسبب ما أحدثوه من الفتنة - فإننا نلمح دائماً في كتابات ابن حيان عن حروبهم إعجاباً عميقاً ببسالتهم وقدرتهم على الجلاء ، كما رأينا في نفس هذا النص السابق حول مصرع حباسة بن ماكسن وفي أحاديث كثيرة عن وقائع أمراء البرابر المتغلبين على عديد من مدن الأندلس . ونلمس من وراء كل ذلك أسف ابن حيان على أن تبديد هذه الطاقة العظيمة التي اختص بها البربر على خوض المعارك ، وأن تنصب على إخوانهم في الدين والوطن من أهل الأندلس . فهو لا يكف أبداً عن التنديد بأهل قرطبة لرفضهم كل صلح مع البربر وللجأته في ذلك مع العجز والضعف . ويلوح لنا أن ابن حيان كان يتمنى أن تعود الأمة إلى الائتلاف بربرها وأندلسيوها وأن توجه تلك الطاقة البربرية إلى الأعداء الخارجيين الذين كانوا يتربصون بالإسلام الدوائر بدلا من أن يكون بأسهم فيما بينهم .

فالحقيقة هي أن أبرز معالم تفكير ابن حيان السياسي هو الاعتداد « بالجماعة » أو وحدة الأندلس التي اكتملت في ظل خلافة بني أمية ثم أطاحت بها الفتنة البربرية إلى الأبد . فقارئ تاريخ ابن حيان سواء منه المقتبس أو المتين يحس دائماً بإيمان ابن حيان بقضية الوحدة الأندلسية ، وبالمرارة العميقة التي ولدها في نفسه انفصام عرى هذه الوحدة على عهد ملوك الطوائف . وقد كانت هذه العقيدة هي التي أملت على ابن حيان ما كتبه عن أمراء بني أمية وخلفائهم من صفحات مشبعة بالتقدير والإعجاب والثناء الخالص .

وقد يبدو إلى الظن أن الولاء الذي ربط بين أجداد ابن حيان وبين عبد الرحمن الداخل مجدد دولة بني أمية في الأندلس كان له أثر في تأكيد النزعة الأموية لدى أبي مروان ، وهي صلة عاطفية روحية ربما لم ينبج منها ابن حيان ، غير أنه من الخطأ أن ننسب إليها حبه للمروانية وإشادته بأمرائهم وخلفائهم ، فهي لا تزيد عن كونها عاملاً ثانوياً صغيراً ، ثم علينا أن نقدر أن أول من ولى منصبا كبيرا في ظل الدولة الأموية كان أباه خلف بن حسين ، ولكن صلة خلف وارتباطه إنما كانا بالمنصور بن أبي عامر ، وهو أول من حجر على الخليفة الأموي ونزع عنه كل سلطة فعلية . وأهم من ذلك أن مؤرخنا إنما عاش معظم عمره في عصر ملوك الطوائف بعد انقضاء دولة المروانيين وحينما أصبح موالى بني أمية وصنائعهم القدماء يجتهدون في التبرؤ منهم ، والانتفاء من ولائهم ، والتشكر

لنلك الأسرة التي قلب الدهر لها ظهر المحن فذلت بعد عز (١) . فأى فائدة لابن حيان إذن في الإشادة بماثر هذه الدولة المروانية المنقرضة إن لم يكن الإيمان العميق بقضية لم يعد من يجروء على الدفاع عنها إلا القليل ؟ الحقيقة أن هذا الموقف من ابن حيان دليل جديد على نزاهته وجراته في الحق .

والشواهد كثيرة على هذه النزعة الأموية عند ابن حيان ، نرى منها بعض النماذج في نفس القطعة التي نقدمها اليوم من « المقتبس » ، لعل أوضحها فيما نحن بصدده تعليقه على فقرات ساقها أبو بكر عبادة بن ماء السماء الشاعر يشتم منها الطعن على الأمير محمد بن عبد الرحمن :

« ومن دواهي أصحاب الخبر القاذفين بالغيب ، المتقحمين على الريب ، ما أصبته لأبي بكر عبادة بن عبدالله الخزرجي الشاعر وبخطه في غرض هذا الأمير الجزل محمد بن عبد الرحمن يعزوه إلى كثير من ثقات دولته ، على أنه هو (أى عبادة) وسلفه لم يزالوا أظناء في بني مروان ناكبين عنهم قد جاهرُوا لهم بالخلاف عليهم ، فما إن يؤمن مع ذلك على الاختلاق لمعايهم والتنبث (أى التنبس) « عن مساويهم » (٢) .

فأبن حيان كما نرى هنا يشك في كل ما يورده عبادة ، ويضع أيدينا على السر في تهجمه على بني أمية ، فقد كان هو وسلفه يتهمون بالتشيع والتعصب على بني مروان .

والأسلوب الذي كتب به ابن حيان عن الثوار والمنتزين على أمراء بني مروان وخلفائهم في جميع قطع المقتبس المعروفة حتى الآن بما فيها قطعتنا الحالية يكشف عن إنكار ابن حيان على هؤلاء المتمردين الذين نزعوا إلى الفرقة وصدعوا وحدة الدولة .

ولابن حيان في « المتين » صفحات مليئة بالحزن المرير كتبها عن خراب قصور الزهراء التي مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم تشهد بعبقرية منشأها عبد الرحمن الناصر وبعظمة الخلافة المروانية . يقول ابن حيان :

(١) انظر مثلاً ذلك في أسرة بني سراج القرطبيين ، وكانوا من بيت شهير في موالى بني أمية ، ذكر ابن حيان من جدهم سراج بن عبد الله أنه كان يصرح بولائهم لبني أمية ويفخر بكتاب عثق جدهم الأكبر سراج من عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، أما الوزير سراج بن عبد الملك بن سراج العالم اللغوي المشهور فقد « كان ينتق مواليه بني أمية » ويدعى أن جدهم هو سراج بن قرعة الكلابي الوافد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر مناقشة القاضي عياض لهذه القضية في « ترتيب المدارك » ، المجلد الثاني ص ٨١٥ - ٨١٦ .

(٢) المقتبس ، مخطوطة جامع القرويين ، ورقة ٢٥٨ ب .

«... وطمست أعلام قصر الزهراء... فطوى بخرابها بساط الدنيا وتغير حسنها ، إذ كانت جنة الأرض ، فعدا عليها قبل تمام المائة من كان أضعف قوة من قارة المسك ، وأوهن بنية من بعوضة النمرود ، والله يسلط جنوده على من يشاء ، له العزة والجبروت» (١) .

ونشعر بمثل هذا الأسف في حديث ابن حيان عن المحاولتين الفاشلتين اللتين حاول فيهما أنصار المروانية تنصيب عبد الرحمن المرتضى خليفة على الأندلس في سنة ٤٠٩ (١٠١٨) (٢) ، ثم عبد الرحمن المستظهر في سنة ٤١٤ (١٠٢٣) (٣) . فابن حيان في تعليقه على هذين الحديثين لم يخف حزنه لفشل هذه المحاولات الأخيرة المستيثة لإعادة ملك بني أمية .

ولكن تعصب أبي مروان للأمويين لم يمنعه أبداً من نقد أمراءهم وخلفائهم حيثما رأهم يستحقون النقد ، فهو لم يتردد في التنديد ببعض معايب الأمير عبد الله بن محمد ، وأهمها البخل والإسراع إلى سفك الدماء (٤) . وهو على الرغم من إعجابه الكبير بشخصية الخليفة العالم الحكم المستنصر لم يخله من نقد عنيف ، وذلك في أمرين فطن مؤرخنا - في قدرته الفائقة على الربط بين الأسباب والنتائج - إلى أنهما كانا من أكبر العوامل التي قدر لها أن تؤدي إلى انهيار الدولة المروانية كلها :

الأول هو توليته العهد ابنه هشاماً المؤيد وهو لا يزال غلاماً لم يبلغ الحلم بعد :

« إلا أنه - تغمد الله خطاياها - مع ما وصف من رجачته كان ممن استهواه حب الولد وأفرط فيه وخالف الحزم في توريثه الملك بعده في سن الصبا ، دون مشيخة الإخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محابة ، فرط هوى ووهلة ، انتقدها الناس على الحكم وعدوها الجانية على دولته ، وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ، ولا مرد لأمر الله» (٥) .

والثاني هو استكثاره من استجلاب فرسان البرابرة العدويين :

« فكان ذلك سبباً لتقدمهم طوائف الجند الأندلسي وهدمهم للملك العادي (أى القديم الموثل)

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٨٢/١ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٩٧/١ - ٤٠٠ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١٢٥/٣ - ١٢٨ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٣٦/١ ؛ ابن الأبار : الحلة السيرة ١٣/٢ .

(٤) المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٣٩ - ٤١ .

(٥) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ٤٠/١ ؛ المقرئ : نفع ٨٥/٤ .

ولقاحهم للفتنة البربرية الخالقة ، قضاء من المهمين لم تكن لديه من دونه كاشفة «(١) . ويشير ابن حيان بعد ذلك إلى أن المنصور بن أبي عامر لما استولى على مقاليد الأمر وحجر على الخليفة هشام استظهر بهؤلاء البرابرة وعلاهم على طبقات أجناده ، وانتهى الأمر بهم « إلى ما هم الآن بصدده : من إبطال الخلافة ، وتفريق الجماعة ، والتمهيد للفتنة ، والإشراف بالجزيرة على الهلكة »(٢) .

وقد كان خلف بن حسين والد ابن حيان كما نعرف أحد كتاب المنصور بن أبي عامر ، ولعله كان أخف هؤلاء الكتاب على قلبه وأكثرهم حظوة لديه ، وكان المنتظر لذلك هو أن يستبلغ أبو مروان في الثناء على العامرين الذين أفرد لدولتهم كتابا خاصا . وقد احتفظ لنا المؤرخون الناقلون عن ابن حيان بقطع كثيرة من هذا الكتاب يبدو منها بالفعل إعجاب مؤرخنا بشخصية المنصور ولاسيما بآثاره في الجهاد وفي إعزاز كلمة الأندلس في شبه الجزيرة . ولكن ذلك لم يحل بين ابن حيان وبين توجيه النقد للمنصور واعتبار حجره على الخليفة أول عوامل انتفاض الدولة وانشقاق كلمة الجماعة . على أنه مع ذلك رأى في العامرين أهون الشرين ، فقد ظلت الدولة على الأقل خلال أيام المنصور وابنه المظفر متمسكة موحدة ، وكانت وحدة الأمة كما ذكرنا أعظم ما دافع عنه ابن حيان من مثل . ولهذا فقد أغضى عن بعض خطايا العامرين مقدراً ما كان لهم من فضل الجهاد والحفاظ على قوة الدولة ما لا يسع أحداً إنكاره وما يشفع لهم ما ارتكبوا من أخطاء . وهذا هو ما يجمله ابن حيان في حكمه على عشيرته أهل قرطبة الذين وثبوا بالدولة العامرية فهدموا بناءها وأزالوا معها رسوم الخلافة الأموية :

« وكان أهل قرطبة من قلة الرضا عن أملاكهم العامرين بحال من الجور عظيمة ، إلى أن وثبوا عليهم ، فأهلكوا الدولة ، وبها حان حينهم . والله يحكم لا معقب لحكمه »(٣) .

وقد كان هذا الاعتداد بالجماعة وبوحدة الأندلس التي حافظ عليها الأمويون دائماً هو الذي جعل ابن حيان ينفر كل النفور من ملوك الطوائف الذين مزقوا تراث الخلافة ثم لم يحسن أحد منهم الحفاظ على ما وقع في سهمه ، بل أدى تفريطهم وأنانيتهم وتناحرهم الأخرق إلى تضييع ما في أيديهم وتضييع الأمة الأندلسية كلها معهم .

(١) المقتبس ، نشر الحجي ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ١٣/٣ .

ولهذا فقد كان ابن حيان سيئ الرأي في جميع هؤلاء الملوك بغير استثناء ، وأحكامه عليهم جميعا جملة وأفراداً تتسم بهذه القسوة التي لا نظن أحداً ينكرها عليه أو يستكثرها من مؤرخ نزيه جعل شعاره قول الحق مهما ألم وأغضب .

ويكفي أن نشير هنا إلى الفصل الذي كتبه ابن حيان عن محنة مدينة بربشتر التي اقتحمها الأردمانيون (النورمند) في سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) ، ففيه لإجمال لرأى ابن حيان في ملوك الطوائف جميعهم :

« إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا فجأة من صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماح وأطار الأفتدة ، وزلزل أرض الأندلس قاطبة ، وصير للكل شغلا تسكع الناس في التحدث به والتسأل عنه والتصور لحلول مثله ، إذا لم يفارقوا فيها عاداتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفتنة الحمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكل : يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم هم كالملح ، فيهم الأمراء والفقهاء ، قل ما تتنافر أشكالهم : بصلاحهم يصلحون ، وبفسادهم يردوون ، فقد خص الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من إعوجاج صنفهم لدينا هذين بما لا كفاية له ، ولا تخلص منه . فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ذيادة عن الجماعة ، وجريا إلى الفرقة ، والفقهاء أثمتهم صموت عنهم ، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم خابط في أهوائهم ، وبين مستشعر مخافتهم ، أخذ بالتقية في صرفهم ، وأولئك هم الأقلون فيهم . فإقول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ؟ هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ولقد طمى العجب من أفعال هؤلاء الأمراء أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة النكراء في بربشتر إلا الفرع إلى حفر الخنادق ، وتعلية الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوأة السوأة من إلقاءهم بأيديهم إليهم : أمور قبيحات الصور ، مؤذونات الصدور بأعجاز تحمل الغير :

أمور لو تدبرها حكيم إذن لنهى وهب ما استطاعا

... وقد أفشيننا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القلعة ، طالما حذر عليها أسلافنا لحاقها بما احتملوه عن قبلهم من آثاره . ولأشد ما أفشيننا عند أولى الأبواب ما أخفيناه مما دهانا

من داء التقاطع ، وقد أمرنا بالتواصل والألفة ، وأصبحنا من استشعار ذلك والتأدى عليه على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة « (١) .

ونحن نرى في هذه العبارات نبوءة صادقة بمصير الإسلام في الأندلس . صحيح أن هذه النهاية تأخرت بعد صدور هذه الكلمات أكثر من أربعة قرون ، ولكنها كانت نتيجة منطقية لما يقوله ابن حيان في هذه الصفحة الرائعة النابضة بالإحساس بهول المأساة التي كانت تشرف البلاد عليها وأمرائها في غيهم سادرون .

ويكاد رأى ابن حيان في ملوك الطوائف وفي المتلبسين بخدمتهم من الفقهاء والعلماء يكون هو رأى صديقه ابن حزم الذى يقول في إحدى رسائله :

« وأما ما سألتكم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به ، نسأل الله السلامة ، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى . . . وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شئ من أندلسنا هذه — أولها عن آخرها — محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد . . . فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم ، فالخلص لنا فيها الإمساك للألسنة جملة واحدة ، إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم . فن عجز منا عن ذلك رجوت أن تكون التقية تسعه « (٢) .

وجانب أخير من جوانب عقيدة ابن حيان وتفكيره السياسى هو نزعه « الأرستقراطية » . وينبغى أن نكون على حرص وحذر فى فهم هذا اللفظ ، فهو لا يعنى التعالى على الشعب أو احتقاره وإنما هو يعنى البعد عن الابتذال ودعوات التهريج السياسى التى شاعت فى الأندلس بعد ثورة محمد ابن هشام المهدى على دولة العامريين . وما أكثر ما نجد فى كتابة ابن حيان عن أحداث الفتنة من سخرية مريرة من توثب الغوغاء على رسوم الدولة وخططها منذ أن فتح المهدى باب الفتنة ، كما

(١) ابن بسام : الذخيرة ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمديرد ، ورقة ٢٢ ب - ١٢٤ . وقد نقل مقتطفات من هذا النص ابن عذارى فى البيان المغرب ٢٥٤/٣ - ٢٥٥ ، والمقرى : نفع ١٩١/٦ - ١٩٨ .

(٢) ابن حزم : رسالة التلخيص لوجوه التلخيص ، ضمن مجموعة رسائل ابن حزم بعنوان « الرد على ابن النفيلة اليهودى ورسائل أخرى ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

نقرأ في وصفه لاقتحامه قصور الزاهرة بمن كان معه « من العنازين والجزارين والسفلة وسائر غوغاء الأسواق » (١) . وفي موضع آخر يتحدث عن تقديم يحيى بن علي بن حمود الملقب بالمعتل إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب : « فكان أعدى من الجرب على دولته ، وارتقب أهل اللب حلول المحنة ، فقدموا استعاذوا بالله من وزارة السفلة » (٢) . ويتحدث عن ابن السقاء مدبر ملك بني جهور فيقول : « ثم خلط لأول ترقية في الرياسة بأن اتخذ لنفسه جند سوء مال به طبعه الرذل إلى الاستظهار بهم على أقدم الجند بقرطبة ممن مرن على الاستقامة ، فتخير هو من أراذل الطبقات ومصاص شرار الناس ، وانتقامهم من أصناف الذعرة والدائرة والأساود والرقاصة ، نخل من كل طبقة مرفوضة ما بعث على الناس منهم ذئابا عادية ، وأعدهم ليوم الكريهة فلم يغنوا عنه شيئا لما حاق به قضاؤه » (٣) . وقد كانت هذه الظاهرة الناجمة عن الفتنة موضعا لسخرية بعض كتاب ذلك الجيل الذي ينتمي إليه ابن حيان مثل ابن شهيد في رسالة « التوايع والزوايع » (٤) .

وفي وسعنا أن نتفهم وجهة نظر ابن حيان في هذه الحملة على ما يبدو في ظاهره من علائم ما يمكن أن يسمى في اصطلاحنا الحديث بالروح الديمقراطية . فالواقع هو أن الدولة المروانية ظلت خلال القرون الثلاثة الماضية تضع ثقتها في عدد من البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة سواء منها العربية أو البربرية أو من الموالي . فترددت المناصب والخطط في تلك البيوتات يتوارثونها كابراً عن كابر ، وكان منهم حقا عدد من أكفأ رجال الدولة وقوادها ووزرائها وحجابه ، وارتبطت دولة بني أمية بهذه الأسر حتى أصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها ، بل تحولوا إلى أوتاد الدولة الراضخة . ولكن المنصور بن أبي عامر حينما استبد بالسلطة وحجر على الخليفة رأى في هذه الأسر ذات الولاء القديم لبني أمية خطراً يهدد مطامعه ، فبدأ تحطيم كتلتها إما باستمالة رجالها إلى الدخول في حزبه أو بإذلالهم وكسر شوكتهم والقضاء على كرامتهم . ومن هنا بدأ اختلال نظام الدولة الذي انتهى بانهارها كلها . ولم يعن استخدام محمد المهدي ولا غيره من خلفاء الفتنة لأمثال

(١) ابن عذاري : البيان المغرب ٥٦/٣ ؛ وانظر كذلك ص ٧٥ .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥/٢ ؛ وابن عذاري : بيان ١٣٣/٣ .

(٣) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٨٨/١ - ١٨٩ .

(٤) انظر محاوراة ابن شهيد في رحلته الخيالية إلى الجنة لبغلة صاحبه أبي عيسى وقوله لها حينما سألته عن عهده بأصحابها في قرطبة : « . . ومن إخوانك من بلغ الإمارة وانتهى إلى الوزارة » - ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ٢٥٤/١ .

أولئك العنازين والجزارين وغيرهم من سواد أهل السوق أى لإصلاح « ديمقراطى » حقيقى ، وإنما كان مظهراً من مظاهر انحطاط الدولة وابتذال نخططها واستثراء الفساد فيها .

وهذا هو ما جعل ابن حيان وأمثاله من الغيورين على صلاح بلدهم يحملون بشدة على هذا المظهر . بل إن ابن حيان يبالغ فى التنديد به إلى درجة السخرية من أبى الحزم بن جهور من أجل احتفاله فى حضور جنازة لامرأة من العامة (١) .

ابن حيسان وتقسية الثلب :

كانت صراحة ابن حيان الخشنة والمرارة التى تطل من كتابته عن تاريخ بلده على عهد الفتنة البربرية وعن ملوك الطوائف مما ألحق بمؤرخنا تهمة ظل كل من تعرض له يرددها واحداً عن واحد ، وهى تهمة الثلب والوقوع فى الأعراض .

فابن بشكوال الذى اعتمد فى كثير من تراجم صلته على تاريخ ابن حيان ينقل فى ضرب من التدوين الساذج خلال ترجمته للمؤرخ قول أبى عبد الله محمد بن أحمد بن عون أنه رأى أبا مروان فى النوم بعد وفاته فسأله : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر الله لى . « فقلت له : فالتاريخ الذى صنعت ، ندمت عليه ؟ فقال : أما والله لقد ندمت عليه ، إلا أن الله بلطفه عفا عني وغفر لى » (٢) .

وغفر الله لابن بشكوال تصوره لندم ابن حيان على تاريخه ! وإلا فعلام يندم ؟ أعلى أنه كتب عن معاصريه ما لعله أصدق ما عرفه التاريخ الإسلامى على الإطلاق ؟ أم على أنه دمج أمراء عصره بما هم أهل له ؟ أم على أنه خلص كتابته من ربة « البلاطية » التى طالما زيفت حقائق التاريخ إذ أخضعتها لمقتضيات الملق الرخيص والنفاق المهين ؟

إن أكثر ما يشكو منه مطالع كتب المؤرخين فى العصور الوسطى — وسواء فى ذلك المسلمون وغيرهم — هو أن كثيراً منها كتب فى ظل الرغبة أو الرهبة ، فلم تخل من شر آفة يمكن أن تلحق

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٠٦/٢ - ١٠٧ .

(٢) ابن بشكوال فى ترجمة ابن حيان ، رقم ٣٤٥ . أما أبو عبد الله بن عون المعافى فهو فقيه روى عن ابن عثاب وغيره من كبار المحدثين وأجاز له أبو عمر ابن عبد البر والذرى . وكان فقيهاً فاضلاً ورعاً منقبضاً عن الناس مواظباً على الصلاة بالمسجد الجامع كثير الكتب جامعاً لها . ولد سنة ٤٤٠ ، وتوفى فى آخر سنة ٥١٢ . (انظر ابن بشكوال : الصلة رقم ١٢٦٠ .

بمدون التاريخ ، وهى الكذب والتزوير . ولو أننا استعرضنا التاريخ الأندلسى قبل ابن حيان وبعده لرأينا أن أكثر كتبه لم تنج من هذه الآفة . فابن عبد ربه وآل الرازى وابن القوطية وعريب بن سعد وغيرهم فى ظل دولة بنى أمية ، فجاءت كتبهم محشوة بالتمدح بأمراء هذه الدولة وخلفائها . والذين تلوا ابن حيان ممن كتبوا عن عصور المرابطين والموحدين وبنى الأحمر كانوا واقعين تحت تأثير صلتهم بتلك الدول . فابن الصيرفى هو مؤرخ دولة المرابطين ، وأما الموحدون فقد كتب عنهم — ولهم — مؤرخون مثل البيذق وابن صاحب الصلاة وابن القطان ، لم يروا فى الدنيا فضيلة إلا نسبوها إليهم ، ولا نقيضة إلا وألصقوها بأعدائهم . وبلغ بعضهم فى ذلك إلى ما هو ضرب من الكذب الصريح والتزلف الصفيق والقحة فى مجافاة الحقيقة (١) .

أما ابن حيان فلعله واحد من عدد بالغ القلة من المؤرخين حرروا أقلامهم من ربة الخوف والطمع ، وهكذا خلف لنا ذخيرة من المادة التاريخية لا نكاد نعرف لها مثيلا فى الصدق والنزاهة .

وقد بدا ابن حيان بدعا فى ذلك ، فلم يفهمه الكثيرون حتى من معاصريه والمعجبين به ، فابن بسام الذى تورك عليه فى « ذخيرته » والذى اعتبره « خاتمة المحسنين » يقول : « وأكثر ما وجدت من كلام هذا الشيخ الباقعة فى هذا الباب أعنى الذم » (٢) ، ولهذا فإنه حينما نقل فصولا لابن حيان فى الحديث عن بعض معاصريه رأى من « التعفف » أن يحذف أسماء الأشخاص المعنيين « رغبة بكتابه عن الشين ، وبنفسى عن أن أكون أحد الهاجيين » (٣) على حد قوله : وأضاع علينا بذلك الفائدة التاريخية التى كان يمكننا استخلاصها من التعرف على من قصدهم ابن حيان بقوله فى تلك الفصول الرائعة التى تعد من أجمل ما عرفناه فى باب تصوير طائفة من النماذج البشرية المختلفة ، والتحليل النفسى الدقيق لها (٤) .

(١) من أمثلة ذلك القطعة التى سبق لى تحقيقها ونشرها من كتاب « نظم الجمان » لترتيب ما سلف من أخبار الزمان « لابن القطان المراكشى ، ط . تطوان (المغرب) ١٩٦٤ . انظر تقديمنا لهذا الكتاب .

(٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ - ١١٤/٢ .

(٣) نفس المرجع ٩٧/٢ .

(٤) توصلنا مع ذلك بفضل المقارنات التاريخية إلى التعرف على بعض هؤلاء « فالقطعة التى نقلها ابن بسام فى الذخيرة (ق ١ - ٩٧/٢ - ٩٨) فى الكلام عن أحد الفقهاء الموثقين إنما يقصد بها بغير شك الفقيه المعروف بابن الهندي ، وهو أبو عمر أحمد بن سعيد الهمداني المتوفى سنة ٣٩٩ (١٠٠٩) . انظر فى ترجمته ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٢١ ؛ ابن سعيد المغرب ٢١٧/١ ؛ القاضى حياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٦٤٩ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٨ .

ومثل هذا نجد عند الحجارى صاحب كتاب المسهب فيما ينقل عنه ابن سعيد ، وذلك فى معرض ترجمة الشاعر عبدالله بن خليفة المعروف بالمصرى ، وكان أحد شعراء المأمون ابن ذى النون ملك طليطلة ، وكان ابن حيان قد ذكر هذا الشاعر وأساء الثناء عليه وعلى شعره ، وكان ابن جابر له من التجار فى قرطبة رحل إلى العدو فظل سنوات هناك ، ثم عاد مدعيا أنه مصرى . فقد نقل الحجارى حكم ابن حيان على ابن خليفة هذا ، وعقب عليه بقوله : « ما كان عنده ذنب إلا جواره فبئس اللدنام » (١) . والغريب بعد ذلك أن ابن سعيد ينقل بعد ذلك عن الحجارى نفسه وعن أبى بكر ابن اللبابة الدافى فى كتابه « سقيط الدرر » عن الشاعر المذكور من الذم والثلب ما هو أشنع بكثير مما قال ابن حيان .

ويبدو أن كل ذلك أكد فى أذهان الأدباء الأندلسيين صورة ابن حيان بصفته الطعانة الثلاثة الذى لم يكن لكتابة التاريخ عنده معنى إلا النيل من الحرم والوقوع فى الأعراض ، حتى إن ابن سعيد فى ترجمته للأديب أبى عبد الله محمد بن الصفار الزمن الأعمى (المتوفى سنة ٦٣٩-١٢٤٢) يقول : « وكان هذا الشيخ باقعة قد أخذ نفسه بالوقوع فى الأعراض مأخذ ابن حيان » (٢) . ثم ينقل ابن سعيد فصولا من نثر هذا الشيخ تدليلا على قوله ، فاذا بها كلها هجاء قبيح سقيم الذوق تتردد فيه الكلمات النائية وعبارات الأدب المكشوف ، فى أسلوب بمجه السمع ، ويأباه كل ذى حس سليم ، وقد يكون ابن حيان شديد العارضة حديد اللسان ، ولكن فى مقارنته بهذا المتأدب صاحب الهجاء البذى والذوق الغليظ ظلما ما بعده ظلم لشخصية أبى مروان .

وواقع الأمر هو أن الأدباء والمؤرخين الأندلسيين كانوا قد جروا على أن يكتبوا تراجم من طراز ما نراه فى كتابى الفتح بن خاقان من فصول تبدأ بمثل هذه العبارات المسجعة : « غرة الأوان ، وإنسان عين الزمان ، وصاحب البيان الذى يسمع الصم ، ويستنزل العصم » إلى ما أشبه هذا الهراء الذى أصبح معه كل متلبس بحرفة أدب هو علمه المفرد ، وعبقريه الأوحى . وما أكثر ما جنى هؤلاء المتحذلقون المتنطعون من أمثال ابن خاقان على التاريخ والأدب بمثل هذه الأماديع التى لا تفيدنا بشئ فى التعرف على شخصية المترجم له ، فضلا عن أننا نعرف قلة ما فيها من صدق

(١) ابن سعيد : المغرب ١/١٣١ .

(٢) نفس المراجع ١/١١٨ .

وإخلاص ، إذ هي لا تخرج عن كونها قوالب محفوظة تردد بشكل أو بآخر في كل ترجمة . أما عن أثر أمثال هذه الكتب في الأدب فإن أسوأ ما في الأمر هو أنها أصبحت تعد المثل الأعلى للتعبير الأدبي ، بما يعنيه ذلك من إفساد للأذواق ، وإحالة للأدب إلى نوع من التمارين اللفظية المبنية على القعاقع الجوفاء الخالية من كل روح وإحساس . وهذه هي محنة الأدب في عصور تخلفه منذ تربع على عرشه أمثال الفتح بن خاقان هذا ، ومنذ عكف المتأدبون على تدارس كتبه والعناية بها حتى إن أحد أديباء المغرب المتأخرين رأى كتاب « قلائد العقيان » جديراً بأن يصنع له شرحاً طويلاً مع أن هذا الكتاب من أسوأ نماذج الأدب العربي وأنفها .

وقد درج كتاب التراجم على تسطير مثل ذلك النفاق حتى أصبح الصدق لديهم شيئاً مستغرباً ، فإذا جاءهم مثل ابن حيان بكلام يبدو منه أن المترجم له ليس « بغرة الأوان » ولا « لإنسان عين الزمان » ، بل هو بشر له ماله وعليه ما عليه فإن هذا في نظرهم هو عين الثلب وغاية الوقوع في الأعراض .

بل إننا حينما نتأمل ما بقي لنا مما كتبه ابن حيان عن معاصريه ونقارنه بما كتبه غيره من معاصريه لنكبر أكثر ما نكبر هذا الكاتب الذي كان يعرف معنى الكرامة ، فلم يمتن قلمه في تسطير زخرف من القول يعرف أنه زور وكذب ، ولتأسف أشد الأسف على ما ضاع من تاريخ ابن حيان ، وعلى أن ابن بشكوال في تورعه الساذج الذي يقارب الغفلة قد اقتضب تراجم ابن حيان ، فلم يثبت منها إلا المدح وجردها من كل ما اشم منه رائحة النقد أو الطعن (١) ، مع أننا حينما تفحصنا أخبار هؤلاء المترجم لهم في المصادر التاريخية الأخرى تبين لنا أن ابن حيان لم يبعد أبداً عن الصدق في كل ما أخذه عليهم وذكره من معايهم .

(١) تبين لنا تصرف ابن بشكوال فيما نقله عن ابن حيان عند مقارنة تراجم بعض قضاة قرطبة التي اعتمد فيها على مؤرخنا بمبيلاتنا في المغرب لابن سميذ عن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ، وقد كان ابن سميذ أكثر أمانة من ابن بشكوال ، إذ نقل نصوص ابن حيان بما فيها من مدح وقدح . قارن مثلاً ترجمة القاضي عبد الرحمن بن بشر المعروف بابن الحصار في الصلة رقم ٦٩٨ وفي المغرب ١/١٥٨ ؛ و ترجمة يونس بن عبد الله بن مغيث المعروف بابن الصفار في الصلة رقم ١٥١٢ وفي المغرب ١/١٥٩ ، و ترجمة أبي محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوي في الصلة رقم ٦٠٦ وفي المغرب ١/١٦٠ ؛ و ترجمة أبي علي الحسن بن محمد بن ذكوان في الصلة رقم ٣١٢ وفي المغرب ١/١٦٠ - ١٦١ ؛ و ترجمة أبي بكر يحيى بن محمد ابن يتي بن زرب في الصلة رقم ١٤٧٢ وفي المغرب ١/١٦١ .

والذى لا نخفى ابن حيان منه على كل حال هو تلك السخرية المريرة اللاذعة التى تشيع فى كتاباته ، وهى التى أضفت عليها توهجا وحيوية بعدا بها عن مجرد التسجيل التاريخى البارد . والأمثلة على هذه السخرية كثيرة يحفل بها تاريخه ، غير أننا سننتخب منها مثالا واحدا فى تصوير الخليفة المسكين هشام المؤيد بن الحكم المستنصر الذى جرت بلاهته وتحلفه العقل على الأندلس أوخم العواقب . يقول ابن حيان بعد أن ذكر إخلاده إلى الدعة وانهماكه فى نزهه وانقطاعه إلى مظاهر تدينه التى هى أقرب إلى العته :

« ونال فى مدة هذا الانهماك والدعة أهل الاحتيال من الناس عندهم [أى عند حاشية المؤيد] الرغائب النفيسة ، بما ازدلفوا به من أثر كريم ، أو زخرفوه من كذب صريح ، حتى لقد اجتمع عند نساء القصر ثمانية حوافر عزى جميعها إلى حمار عزيز المستحى بالآية الباهرة ، واجتمع عندهن من خشب سفينة نوح عليه السلام وألواحها قطعة جليلة ، وظفرن من نسل غنم شعيب عليه السلام بثلاث ، وكلفن من هذا ومثله لعفتن وزهد صاحبه بأشياء توجهت على أموالهن من قبلها أعظم حيلة ، ولهجه مع ذلك بطلب ذوى الأسماء الغريبة من الناس الموافقة أسماؤهم لمن اجتباه الله من خلقه مثل عبد النور وعبد السميع وعبد اللطيف وعبد المؤمن وحزب الله ونصر الله وفضل الله ، ومثل ياسين واليسع ومن جانشه ، يصير الرجل من هؤلاء فى الحاشية ، ويستعمل على وكالة جهة ، ولا يبعد أن يتمول فى أقرب مدة ، وإن اتفق مع ذلك أن يكون ذا الحية عثلوية ، وصاحب سبال وهامة ، فقد تمت له السعادة ، ولا سيما إن كانت لحيته حمراء قانية ، فلإنها أجدى عليه من دار البطيخ غلة ، ثم لا يسأل عما وراء روائه من أصل ولا فضيلة ، ولو كان مردداً فى بنى اللخناء . . . » (١) .

ابن حيان أدبيا :

لعل أعظم ما ميز ابن حيان المؤرخ وجعله نموذجاً فريداً فى التاريخ الإسلامى هو كونه أدبيا فى الوقت نفسه ، والأدب والتاريخ يمتزجان فى كل ما سطره قلمه مزاجا غريبا لا نعرف فيه أين يبدأ هذا ولا أين ينتهى ذاك . وكل صفحات تاريخه الكبير ، ولا سيما كتابه « المتين » ، تعتبر من أروع نماذج النثر الأندلسى على الإطلاق . وهذا شئ لم يتبع ولا يتاح للكثير من المؤرخين ، لا سيما إذا التزموا مع ذلك التسجيل الدقيق المفصل ، فالتاريخ معدود من العلوم ، غير أنه تحول على يد ابن حيان إلى أدب خالص محض .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ٦٣/١ .

وقد أعان ابن حيان على ذلك امتلاكه لخاصية اللغة على نحو لا نراه توفر لمؤرخ قبله ولا بعده ،
وثرورة عظيمة من مفردات اللغة يستخدمها في سهولة وانسياب ، وقدرة عجيبة على الربط بين
المعاني ، وملكة قصصية كانت تؤهل أبا مروان لكي يصبح كاتباً روائياً من الطراز الأول .

وتبدو قوة شخصية ابن حيان في تفرد به بأسلوب لم يتبع فيه نأثرى عصره الذين كان تكلف
السجع والمحسنات البديعية اللفظية قد طغى عليهم ، فبرئ من التصنع ، وأصبح نثره محكما لكل
لفظ فيه قيمته ، بحيث لا يكاد المرء يملك إزاءه تصرفاً من حذف أو إضافة ، فكل شيء فيه مقدر
نحساب ، وإن كان القارئ يمحض فيه فيظنه لقوة الطبع أسلوباً جرى به قلم الكاتب دون
عناء ولا احتفال ، هذا مع الإيجاز الذي يبدو معه أنه هو نفسه المعنى بعبارة قالها في الكلام عن بلاغة
صديقه أبي عامر ابن شهيد : « يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام » (١) .

ويحفل نثر ابن حيان بالصور التي تبهز النظر ترد بسيطة بلا افتعال ، ولا تصنع بلاغى ،
ولا قعقة رنانة . وكثيراً ما يستخدم التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها من أدوات البيانين في غير
حذلق ولا تعالم . ولننظر مثلاً إلى هذه القطعة التي يتحدث فيها عن أولية ابن السقاء القرطبي مدبر
ملك بنى جهور ووزيرهم :

« كان أبو الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاء قد كابد من شظف العيش
في فناء سنه ما لا شيء فوقه ، إذ كان يعالج السقط بسويقة ابن أبي سفيان في قرطبة ببضاعة نزره ،
وأعلى ما انتقل إليه عند إكداء تلك الحرفة الاستخراج في جهة الأحباس ، وإرثه عن والده محمد
السقاء ، وبأسبابها خدّم القضاة وتمرن مع الفقهاء ، وهو يقتات معيشته مياومة ، وبأوى ليله إلى بيت
في دويرة والده محمد بجوفى المسجد الجامع يحاضر فيه جماعة إخوة لا يجد بينهم إلى مد ساقه سيلاً ،
وما هو إلا أن حمل الأمانة على كاهله ، فوضعها أسفل رجله ، وتذكر عض الكلاب لعصاه ،
فتحول جرداً للسرقة والخيانة ، وابتنى القصور المنيعه ، واقتنى الضياع المغلة ، إلى أملاك لا تحصى
كثيرة » (٢) .

فلنتأمل هنا ما أودعه ابن حيان من معان في قوله وهو يصور شظف عيش ابن السقاء وضيق

(١) نفس المراجع ، ق ١ - ١٦١/١ .

(٢) ابن بسام : اللخيرة ق ٤ - ١٨٦/١ .

تلك « الدورية » التي كان يأوى إليها مع جماعة إخوته : « لا يجد بينهم إلى مد ساقه سبيلا » ، وكذلك إشارته إلى « عض الكلاب لعصاه » ، ثم قوله في الكلام عن خيائته الأمانة واحتجانه الأموال بعد اعتلائه إلى الوزارة : « فتحول جرذاً للسرقة والخيانة » . فهو يركز في تلك الكلمات القليلة ما لا يسع غيره التعبير عنه إلا بمطوالة الكلام .

ولنتظر إلى قوله في الحديث عن وثوب عبد الله بن حكيم بآبن عمه مندر بن يحيى التجيبي ملك سرقسطة واغتياله إياه في صميم قصره :

« فجاء بفتكة أسقطت كل من فتك في الإسلام قبله ، ولم يفكر في آبن ذى النون خال مندر لما دنا إليه ، وفعل ذلك بسليمان بن هود وقد جاء ناشراً أذنيه ، فحاربه ودافعه » (١) .

فنحن نرى في هذه الكناية « ناشراً أذنيه » صورة حسية مركزة تغنى عن كثير من الكلام . وانظر كذلك إلى قوله عن سليمان بن الحكم المستعين والثفاف شعراء قرطبة حوله يرجون منه ما لم تكن تسعف به المقادير :

« واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية ، وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة ، واشتدت فاقتهم ، وحمت طباعهم . وكانوا كالبزاة الفضة الجياح ، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة ، فلم يبل (في الأصل : يبال) صداهم ، ولا سد (في الأصل : شد) خلتهم ، لاشتغاله بشأنه ، واشتداد حاجة سلطانه » (٢) .

ففي هذه السطور من التصوير الحى ما يغنى عن الإسهاب في الوصف ، فالكناية عن دخول الشعراء بنسج العناكب على أفواههم ومحاريبهم ، وتشبيههم بالبزاة الفضة الجياح انقضت على الجرادة مما لا يتأتى إلا لقلم مفتن يمد خيال خصب ، في غير إبعاد ولا إحاطة في توليد الصور .

فالحقيقة هي أن أجمل ما يتميز به أسلوب ابن حيان هو مزجه بين الوصف الدقيق الواقعى الذى يصور لك الحدث فكأنك في صميمه ، أو يحلل لك الشخصية ، فيكشف عن باطن سرها تراها كما ترى راحتك ، وخطرات الخيال التي تعين على إبراز الألوان والظلال ، فتزيد التصوير

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٥٧/١ ؛ وابن عذارى : البيان المغرب ١٧٩/٣ - ١٨٠ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٢٢ .

واقعية وصدقا ، تماما كما عرف كيف يمزج بين الكتابة التاريخية والنثر الفني مزجا لم يتبها ولا نظنه يتبها لكثير من المشتغلين بصناعة التاريخ .

والمملكة القصصية لدى ابن حيان جديرة بأن نمنع في تأملها ، والواقع أن ابن حيان لو لم يكن مؤرخا لكان من أعلام فن كتابة الرواية والقصة ، هذا دون أن يخل بالسرد التاريخي الصحيح الصادق . وما أكثر ما نجد في كتابته التاريخية من أخبار تتألف منها قصص متكاملة بعضها يمكن أن يتحول إلى رواية طويلة ، وأخرى فيها من تصوير النماذج البشرية وتحليل نفسياتها في لمحات ولمسات خاطفة ما يبدو تخطيطاً لمجموعة من أروع نماذج القصة القصيرة .

وهو كثيراً ما يلجأ إلى الحوار ، فزيد روايته التاريخية حيوية وتوهجا ، ونكاد نرى أنفسنا أمام مشهد تكتمل فيه عناصر العمل المسرحي لولا أنه مأخوذ من صميم الحياة الواقعة . وفي القطعة التي نقدم بين يديها بهذه الصفحات من كتاب المقتبس أمثلة كثيرة لذلك ، منها قصة مهلك نصر الحصى المؤتمر بمولاه عبد الرحمن الأوسط ، وبعض الحكايات عن هذا الأمير نفسه في علته التي مات فيها نراه فيها لا سلطانا جباراً وحاكماً من أعظم من شهدتهم أرض الأندلس ، وإنما إنسانا رقيقا ضعيفا يسأل خدومه أن يطلعوه على مراقبة يتمل بها جمال الدنيا ويسرح بصره في الحقول المحيطة بقصره ، فإذا رأى راعي غنم مخلداً إلى نومه المظن دمعت عيناه وتمنى ألا يكون قد انتشب في أمور الحكم والسلطة لقاء أن ينعم بتلك اللحظات الغافية الوداعة التي كان يتمتع بها أقل رعاياه شأنا .

ونرى مثل ذلك في القصة المفصلة التي يرويها عن تولى محمد بن عبد الرحمن الخلافة ، وكثيرا من النوادر التي ترد في عرض تراجمه لحجاب الأمير محمد ووزرائه ورجال دولته ، مما يبدو لإعداداً لقصص جديرة بأن تأخذ سبيلها إلى دفة كتاب مستقل أو روايات قصص بها أن تمثل على خشبة مسرح .

وابن حيان في ذلك كله نسيج وحده ، لم يقلد أحداً من قبله ، وقيلده بعض من أتى بعده فلم يلحقوا غباره ، واضطر أحدهم مثل ابن بسام الشنتريني إلى الاعتراف في تواضع حينما ألجأه شروذ لفظ ابن حيان عنه فاستكمل بعض رواياته التاريخية بفقرات من نتاج قلمه بأنه « رقع الفصحى بالغلس وجمع بين حافر العبر وجبهة الفرس » (١) .

(١) دوزى في مقدمته لنشرته لكتاب البيان المغرب لابن عذارى ص ٧٢ وانظر كذلك كتابه اللاتيني « الجامع لأخبار بني عباد » ٢١٨/١ - ٢١٩ .

وقد كان المستشرق الهولندي الكبير راينهاردت دوزى ، بحسه الأدبى المرفه وذوقه السليم ، أول باحث محدث تنبه إلى هذا الكنز التاريخى الأدبى الذى يتمثل فيما بقى من تاريخ كاتبنا القرطبى ، فأشاد بأسلوب ابن حيان وأفاض فى الثناء عليه ومدح فيه الفحولة والجزالة مع الدقة والإحكام والإيجاز ، على أنه أتبع هذا الحكم بقوله إنه أسلوب « مشبع بالروح الأوربية » (١) .

وإذا كنا قد امتدحنا فى دوزى دائما هذه الحساسية الدقيقة حين فطن إلى تميز ابن حيان على غيره من المؤرخين وإلى اختصاصه دونهم بهذا الأسلوب الأدبى الذى جعله فى مصاف أكر التاثرين العرب فإننا لا نملك إلا العجب من هذه العبارة الأخيرة التى أراد أن ينسب تميز ابن حيان فيها إلى « تشبعه بالروح الأوربية »

فنحن نرى هنا كيف تلحق بهذا الباحث العظيم ذبول العصبية الأوربية التى لا تكاد ترى مفكراً أو أدبياً منقطع القرن فى عالم الإسلام أو العروبة حتى تحاول أن تستأثر به وتحرم منه أمته بجمرة قلم . وإلا فلم لا يعد ابن حيان — كما كان فعلاً — مؤرخاً خالص العروبة مسلماً شديد الاعتزاز بقوميته وعروبه ودينه ولغته ؟ وأين مظاهر هذه « الروح الأوربية » فى كتابته ؟ ولقد كان كتاب المدونات المسيحية فى العصور الوسطى سواء فى إسبانيا أو فى غيرها من بلاد القارة أكثر تشبعا بالروح الأوربية من ابن حيان بغير شك . فلم لم يظهر من بينهم من يستحق أن يقرن بابن حيان من قريب ولا من بعيد ؟

الحقيقة أن هذه إحدى شطحات دوزى ، نفس فيها على الفكر التاريخى العربى أن ينجب مثل ابن حيان ، فاستكثره على أمته . وكنا نتمنى أن يكون هذا الباحث صاحب الفضل الكبير على التراث العربى أكثر تجرداً ونزاهة .

ابن حيان ناقدًا :

ولعل مما يكمل لنا صورة ابن حيان الكاتب الأديب تتبع أحكام ابن حيان الناقد الأدبى . فالنقد عند أبى مروان جانب جدير بأن نوليه بعض العناية . بل إننا نزم أن تلك الأحكام التى أصدرها على أدباء الأندلس فى ثنايا تاريخه ترفعه إلى مكان بارز فى الصف الأول من النقاد . وابن حيان ينبع فيها عن نفس الروح التى كانت تمد دائما كتاباته التاريخية ، فكما لم يكن أبو مروان

(١) ابن بسام : اللخيرة ق ١ - ١٢٢/٢ .

مجرد سارد للأحداث ، بل هو دائماً يتخلل هذا السرد هنا وهناك بأحكام تدل على نفاذ النظرة واستشفاف أعماق الأحداث والشخصيات — فكذلك كان عند حديثه عن الأدب والأدباء : لم يقتصر على الترجمة لهم أو الاختيار من قولهم ، وإنما شفع ذلك بالحكم لهم أو عليهم معطياً لكل حقه .

ولسنا نستطيع هنا تقصى هذه الأحكام الأدبية ، فهي منتشرة في كل كتاباته سواء في القطع التي بقيت لنا من « المقتبس » أو فيما حفظه لنا ابن بسام وابن الخطيب وغيره من كتاب « المتين » .

ولو أن هذه الأحكام كلها جمعت — على كونها جزءاً صغيراً مما بقي لنا من إنتاج ابن حيان الغزير —

لأمكن أن تصبح مادة لدراسة طيبة عن النقد الأدبي في الأندلس كما يمثلها هذا الكاتب الفذ الذي ملك عناني الأدب والتاريخ .

على أننا سوف نختار من أحكام ابن حيان الأدبية مجموعة قليلة نرى منها كيف نفذ عن طريق قليل الكلام إلى ما يعتبر خلاصة لدراسة تحليلية عميقة :

يقول عن أبي محمد ابن حزم :

« كان أبو محمد حامل فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيال الأدب ، مع المشاركة في كثير من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة ، وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة . . . وكان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه على استرسال في طباعه ، ومذل بأسراره ، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء من عباده ليبيّن للناس ولا يكتُمونه ، فلم يك يلفظ صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرفه بتدريج ، بل يصك به معارضه صك الجندل ، وينشقه متلقيه لإنشاق الخردل ، فينفر عنه القلوب . . . وأكثر معاييه — زعموا — عند المنصف له جهله بسياسة العلم التي هي أعرض من إيعابه ، وتخلّفه عن ذلك على قوة سبحه في غماره ، وعلى ذلك فلم يكن بالسليم من اضطراب رأيه ، ومعيب شاهد علمه عند لقائه ، إلى أن يحرك بالسؤال ، فيفجر منه بحر علم لا تكدره الدلاء . . . وعلى ذلك فليس ببدع فيما أضبع منه ، فأزهد الناس في عالم أهله وقبله أردى العلماء تبريزهم على من يقصر عنهم . والحسد داء لا دواء له » (١) .

ولسنا نعلم أحداً عرف كيف يغوص على حقيقة ابن حزم وقيمة جهده العلمي وماله وما عليه كما فعل ابن حيان في تلك الصفحات الدسمة التي ترجم فيها لابن حزم التي اقتطفنا منها العبارات السالفة .

(١) ابن بسام : الذخيرة ق ١ - ١٤٠/١ - ١٤٤

ويقول عن أبي عامر ابن شهيد :

« كان أبو عامر يبلغ المعنى ولا يطيل سفر الكلام . . . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديته ورويته ، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخ في الأدب ، فإنه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدر له ، فزاد ذلك من عجائبه وإعجاز بدائعه . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . وشعره حسن عند أهل النقد ، وتصرف فيه تصرف المطبوعين ، فلم يقصر عن غايتهم » (١) .

وفي موضع آخر يشير ابن حيان إلى الكاتب أبي جعفر أحمد بن عباس وزير زهير الفتي صاحب المرية ، فيقول :

« ومن عجبه أنه . . . تنقص أديبهم (أديب قرطبة) أبا عامر ابن شهيد ، ولم يك يصلح مستملياً له » (٢) .

ولعل ما نقلناه عن ابن حيان حول انقياد الكلام لابن شهيد شعره ونثره دون عناية بالطلب من أوضح الأدلة على إرهاف حسن ابن حيان الأدبي وجودة تذوقه وفطنته إلى عنصر الإلهام في فن الأديب المبدع . وإشارة ابن حيان إلى قلة ما وجد لدى أبي عامر من الكتب ملاحظة نافذة تدل على إدراكه ثاقب لذلك العنصر الذي كان قوام إنتاج ابن شهيد الأدبي .

ولنقرن هذا الحكم بكلام ابن حيان عن أحد علماء اللغة المبرزين ذوى الصيت الطائر والمكانة المشهود بها ، وهو أبو القاسم ابن الإفليلي :

« وكان أبو القاسم . . . قد بذأ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية ، والمشاركة في بعض بيانها . وكان غيوراً على ما يحمل من ذلك الفن . . . راكباً رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه . . . واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكني بعد ابن برد ، فوقع كلامه جانباً من البلاغة ، لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلفين ، فلم يجر في أساليب الكتاب المطبوعين ، فزهده فيه » (٣) .

(١) ابن بسلام : الذخيرة ق ١ - ١٦١/١ - ١٦٢ .

(٢) نفس المرجع : ق ١ - ١٧٦/٢ .

(٣) نفس المرجع : ق ١ - ٢٤٠/١ - ٢٤١ .

فإن حيان ينتبه بحسه الأدبي إلى أن العلم باللغة وغريبها وحفظ الأشعار قديمها ومحدثها لا يخلق الأديب ولا الشاعر ، كما لم يضر أبا عامر ابن شهيد في شيء قلة عنايته بالطلب ولا بعده عن استظهار الكتب .

وهذا هو ما جعل ابن حيان حريصا فيما يختاره في ثنايا تاريخه من المنظوم والمنثور ، مدققا فيه ، متقرا عن قيمته الفنية ، فهو لا يورد النصوص الأدبية جزافا ، بل يمعن النظر فيما يأتي به على نحو قد يبدو غريباً من مؤرخ لم يكن عليه في ذلك من مثونة ، مع أن مؤلفي المنتخبات الأدبية الذين وقفوا تأليفهم على هذا الجانب كثيراً ما يعنون الباحث في الأدب بما يسوقونه من غث النظم ومرذول النثر . وحتى إذا اضطر ابن حيان إلى إيراد ما لا يرضاه من النصوص الأدبية وإنما أثبتته لمكانة قائله أو لدلالة خاصة فإنه لا بد أن يتبعه برأيه فيه .

وذكر من أمثلة ذلك أبياتا أثبتتها ابن حيان في القطعة التي نشرها اليوم من « المقتبس » نقلا عن معاوية بن هشام الشيبينسي لأبي قصي يعقوب بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم . فهو يعقب عليها بقوله : « وصفه بالشعر ثم لم ينشد له منه ما يصدق وصفه » ويدلل ابن حيان على رأيه بالتنبيه على إحالة بعيدة ألجأت القافية إليها ذلك الأمير المنسوب إلى الشعر في أحد أبيات قطعته (١) .

ومثل آخر يقدمه لنا في معرض اختياره لأبيات أحد ملوك الطوائف ، هو جبر الدولة ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن هذيل بن خلف بن لب بن رزين ملك سبلة بني رزين . فقد رأى ابن حيان بعد إيراد تلك الأبيات أنها من الضعف والتفاهة بحيث لا تستحق منه كبير نقد ، وإنما أجمل وصفها بقوله بعد أن صغر بفرور هذا الأمير المتعالم الذي أراد أن يقحم نفسه في زمرة الشعراء : « وشعره . . . جسم بلا روح ، وليل بلا صبح » ، ثم يقول بعد إرادته تلك القطع : « . . . إلى غير هذا من مخفه » (٢) .

(١) انظر هذه القطعة من « المقتبس » ، ورقة ١٩٥ من الأصل المخطوط . وقد نقل ابن الأثير هذه الأبيات وتعليق ابن حيان عليها في الحلة السيرة ١٢٥/١ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ٣/٣٠٩ - ٣١٠ . ويستوقف النظر أن الأمير المشار إليه ولي حكم سبلة بني رزين (التي مازالت تعرف إلى اليوم باسمها العربي Albarracin) فيما بين سنتي ٤٣٦ و ٤٩٦ (١٠٤٤/١٠٤٥ - ١١٠٣) ، أي أن الحياة امتدت به بعد ابن حيان أكثر من ربع قرن . وكان ابن حيان يعرف بغير شك أن حكمه عليه لا بد أن يبلغه ، فلم يمنعه ذلك من أن يعبر عن رأيه فيه بما هو مهود من صراحة خشنة لا تعرف المجاملة ولا المواربة .

ونذكر بهذه المناسبة أن مؤلفين أفردا كتابيهما للمختارات الأدبية هما ابن بسام الشنتريني والفتح بن خاقان عرضا لهذا الأمير المتشاعر فكان مذهبهما إزاءه أبعد ما يكون عن مذهب ابن حيان.

أما ابن بسام فقد ساق لنا من غث شعره ما سود به صفحات كثيرة من كتابه بعد أن قدم له بقوله : « وأما ذو الرياستين فكان له طبع يدعو فيجيب ، ويرى ثغره الصواب عن قوسه فيصيب » ، على أنه مع ذلك كان مقتصدآ في مدحه ، ولم يخله من نقد للمذهب في شعره (١) .

وأما ابن خاقان فقد أفرد له أحد فصوله المعهودة . . . من نوع تلك التراجم التي لا يظهر المرء فيها إلا بسجمات يصلك السمع رنين ألفاظها الأجوف ، اللهم إلا ما حشاها به من الملق والكذب ، فقد بدأ بأن جعل ابن رزين هذا « غيثا للندى ، وليثا على العدى » كذا ! ، مع أنه لم تعلم عن هذا « الليث » غزوة على عدو ، ولا أثر عنه انتصار في معترك ! () ، وبدراً في الحفل ، وصدراً في الجحفل . . . ثم مضى يورد قطعاً له من نوع ذلك المذر الذي لم يتردد ابن حيان في وصفه بالسخف ، مقدماً لها بقوله : « وله نظم ونثر ما قصرنا عن الغاية ، ولا أقصرا عن تلقى الراية ، وقد أثبت منها نبذا تروق شهوسا ، وتكاد تشرب كووسا » (٢) .

وهذه المقارنة بين ابن حيان وهو رجل صناعته التاريخ وابن بسام وابن خاقان وهما أديبان كان يفترض فيهما أن يكونا أدق اختياراً وأشد احترازاً بحكم طابع كتابيهما — إنما تدلنا على أن أبا مروان كان أجود منهما ذوقاً وأعمق إحساساً بتبعة الاختيار الأدنى . أما الصدق في المقال والقصد في الوصف فلا مجال لأي مقارنة بين ابن حيان وأمثال ابن خاقان من ذوى التحذلق والرقاعة . . .

وإن إحساسنا بمدى تحرى ابن حيان في اختياراته الأدبية ليزداد عمقا وتأكداً ونحن نتأمل الفصل الطويل الذى ساقه للحديث عن شعراء الإعذار الذنوبى الذى ضرب به المثل فى الأندلس فى الفخامة والإسراف . وكان المأمون يحيى بن ذى النون ملك طليطلة قد أقام هذا الإعذار فى سنة ٤٥٥ (١٠٦٣) واستدعى له مبرزى شعراء حضرته . وبدأ ابن حيان فساق وصف الإعذار نقلا عن خطاب كتب به إليه الأديب ابن جابر ، يقول بعد الفراغ منه :

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، مخطوطة معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة ، ورقة ١٣ ب - ١٦ ، وقد نقل ابن عذارى عنه بعض عباراته حول ابن رزين فى البيان المغرب ١٨٤/٣ .

(٢) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ، ط . يولاق سنة ١٢٨٣ هـ . ص ٥١ وما بعدها .

« هذا آخر خطاب ابن جابر إلى بوصف الإعدار . . . خلا أنه سامنى ذكر مقطوعات حشا بها كتابه إلى من صنعة صديقه عبد الله بن خليفة المصرى تعاور المغنون فى تلك الليلة الغناء بها وجميعها عندى فى نهاية من الضعف والتخلف ، والتبرؤ من صنعة الشعر ، يبغي بها توشيع هذا المشهد الجليل الذى قيلت فيه بنظمها فى عقده ، فلم أسعده على ذلك ترفيعا به عن هجنتها ، وتبرئة لنقدى على استجادة سبكها ، ومذمة لزمن غفل أقحم قائلها فى زمرة الشعراء » .

ثم يتبع ابن حيان كلامه بأحكام مفصلة على شعراء ذلك المشهد : فيتحدث عن ابن خليفة « المصرى » الذى حقق ابن حيان أصله ، فإذا به لا يمت إلى مصر بصلة ، وإنما كان ابن جابر له من تجار الخفافين رمت به النوى إلى بلاد العدو ، فتردد بها ، ثم « عاد على زعمه مصرنا صليبة ، وأديبا باقرة ، وشاعراً باقعة » ، وقد أوردنا ما ذكر ابن حيان فى نقده لشعره . ثم يتحدث عن ابن شرف القيروانى الذى أنشد قصيدة « أطال فيها التشبيب فخلص إلى التهنة وقد استفرغ القرية وطول فما أنى بطائل » ، وقام بعده محمد بن زكى الأشبوني فأنشده شعراً ركب فيه سنن من قبله . ويحتم ابن حيان هذا الفصل بأسفه على أن لم يكن فى هذا المشهد لإدريس بن اليمان اليايسى الذى يعتبره ابن حيان فحل شعراء الأندلس فى ذلك العصر .

ومع ذلك فقد أورد ابن حيان على عادته فى الإيعاب بعض ما اختاره من قصائد هؤلاء الشعراء « لئلا يخلو جيد التأليف من مخشلبها » (١) .

وأغرب ما نقرأ لابن بسام بعد أن نقل هذا الفصل عن ابن حيان هو قوله : « وأثبت ابن حيان فى كتابه لتلك الطائفة المنشدة يومئذ عدة قصائد ، ولم يسلك فيها سبيل ناقد » (!) وليت شعرى أى نقد كان يريد ابن بسام أحكم ولا أصدق مما قدم به ابن حيان بين يدي ما اختاره ؟ مع أنه لو كان ابن بسام فى هذا المشهد لأقبل يكيل لنا من ذلك « المخشلب » ما لا يطيق قراءته ولا سماعه إلا أولو الحول والقوة بعد أن يصوغ فى مدحه ما رأينا مثله من قبل فى كلامه عن « سفوف » ذى الرياستين ابن رزين . . .

(١) انظر هذا الفصل بطوله فى ابن بسام : الذخيرة ق ٤ - ١٠٦/١ - ١٠٩ .

ابن حيان في نظر المتأخرين :

ربما كان من عيوب الاستكثار في التأليف أن تداول الكتب المطولة في العصور الوسطى - مع عدم الطباعة وثقل موثونة الاستنساخ - كان أمراً بالغ العسر ، وأخطر ما فيه هو تعرض تلك الكتب للضياع . وقد كان ذلك بالفعل هو ما وقع لكتب المؤلفين ذوي النفس الطويل من أمثال ابن حزم وابن حيان في الأندلس . إذ لم يصل إلينا من إنتاجهما الهائل الغزير إلا ما لا يكاد يذكر قلة . ونحن من أجل ذلك نشعر بعميق الامتنان لمؤلف مثل ابن بسام ، فقد حفظ لنا في « ذخيرته » من تاريخ ابن حيان ما يعد وحده ذخيرة لا تقدر بثمن .

وقد كان ابن حيان في عصره وبعد ذلك بوقت طويل موضع إعجاب الأدباء والمؤرخين ، ولكننا لا نجروا مع ذلك على أن نقول إنه كان صاحب « مدرسة » في كتابة التاريخ ، فهو شخصية متفردة بذاتها ، ولم يكن لعمله من يواصله على نفس مستواه . وإذا كان هناك عدد معروف لا بأس به من تلاميذه فإن الحذر يقتضينا ألا نتسرع في اعتبارهم من رجال مذهبه أو مدرسته . حتى أولئك الذين نعرف عنهم أنهم كتبوا صلوات أو ذيولاً على تاريخه لا يسهل اعتبارهم من هذا الضرب . وأما الذين استكثروا في النقل عنه فإن تأملنا لما كتبوه يدل على أن تأثرهم بابن حيان قد وقف عند حد النقل الجرفي ، وليس هذا في الحقيقة من التأثر في شيء .

ولهذا فإن الإطالة في بحث ما دعاه بعض من تعرضوا لدراسة مؤرخنا « بنفوذ ابن حيان في المؤرخين المتأخرين » أمر يبدو لنا فيه كثير من المبالغة ، فضلاً عن أنه قليل الجدوى .

ولسنا نعلم ممن كتبوا صلوات لتاريخ ابن حيان إلا اثنين :

أولهما القاضي ابن حبيش ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف ، وكان من أهل المرية ، ولد فيها سنة ٥٠٤ (١١١٠) ودرس فيها وفي قرطبة ، ثم عاد إلى المرية وأدرك محنتها حينما احتلها ملك قشتالة السليطين (ألفونسو السابع الملقب بالامبراطور Alfonso VII, el Emperador) سنة ٥٤٢ (١١٤٧) ، ويذكر عنه أن علمه بالتاريخ نجاه من المكروه ، إذ حمل إلى الملك المسيحي ، فقال له ابن حبيش إنه يعرف نسبه إلى هرقل (كذا ١) ، ثم ساق له ذلك النسب كاملاً ، فأعجب به الملك وخطى سبيله ، فانتقل من المرية مع أهله وعياله إلى جزيرة شقر حيث ولى الصلاة ، ثم إلى مرسية فولى هناك القضاء والصلاة . وكانت وفاته سنة ٥٨٤ (١١٨٨) .

وتلمذ عليه الكثيرون من علماء الأندلس ، منهم الضبي صاحب « بغية الملتبس » وابن دحية صاحب « المطرب » وابن حوط الله المحدث وغيرهم (١) . ويذكر ابن الأبار أن له تعليقات على تاريخ ابن حيان رآها بخطه ونقل منها في عدة مواضع من كتابه (٢) .

والآخر هو أبو الحجاج يوسف بن محمد البياسي ، ولد في بياسة سنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، وجاب أنحاء الأندلس ، ثم انتقل إلى تونس حضرة الحفصيين ، فحفظ لديهم وقربه سلاطينهم حتى وفاته سنة ٦٥٣ (١٢٥٥) ، وقد عرفه ابن سعيد وتلمذ عليه ووصفه بأنه من أشياخ المؤرخين حافظا لنكت تواريخ الأندلس حديثا وقديما (٣) .

وقد ذكر ابن سعيد أن لأبي الحجاج البياسي تاريخا ذيل به على « المتين » ووصله إلى عصره (٤) . ولم يصلنا شيء من تعليقات ابن حبيش ولا من تذييل البياسي حتى نستطيع أن نحكم على هذين الكتابين أو نتبين مدى جدارتهما بأن يعدا تكملة حقيقية لتاريخ ابن حيان ، ولكن ما عرفناه من كتابات هذين العالمين في غير هذا الميدان يجعلنا في شك من ذلك ، فهو لا يرقى إلى أسلوب ابن حيان ، بل لا يكاد يقاربه في شيء .

وقد أشار غرسية غومس (٥) إلى ناحية من نواحي تأثر المؤرخين الأندلسيين المتأخرين بابن حيان ، وهي أكثر تعلقا بالشكل منها بالمضمون ، واستشهد على ذلك بما يقدمه لنا تاريخ ابن صاحب الصلاة (ت ١١٩٨/٥٩٤) (٦) من وصف مفصل لحياة البلاط الموحدى وفخامة استقبالاته

(١) انظر في ترجمة ابن حبيش الضبي : بغية رقم ٩٨٨ ؛ ابن الأبار : التكملة رقم ١٦١٧ ؛ وبونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٥٣ - ٢٥٤ والمراجع المذكورة .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ١١٦/٢ - ١١٧ ، ٣١١ .

(٣) انظر في ترجمته ابن سعيد : المغرب ٧٣/٢ ؛ واختصار القدر الممل لابن خليل ، بتحقيق الأستاذ إبراهيم الإبياري ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٩٤ ؛ السيوطي : بغية الوعاة ، ط . القاهرة ١٣٢٦ هـ . ، ص ٣٢٤ ؛ المقرئ : نفح الطيب ١٧٢/٤ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٩٠ والمراجع الواردة هناك .

(٤) ابن سعيد : المغرب ٧٣/٣ ؛ المقرئ : نفح ١٧٢/٤ .

(٥) في مقاله : -بول ابن حيان ص ٤٢٢ (= ٢٨ من الفصلة) .

(٦) يقصد السفر الثاني من كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أممة وجعلهم الوارثين » . . وقد كان الكتاب حينما تحدث عنه غرسية غومس في سنة ١٩٤٦ لا يزال مخطوطا بعد ، والأصل الخطى الوحيد منه هو المحفوظ في المكتبة البودلية بأوكسفورد . عل أنه قد نشر أخيرا بناية الباحث المغربي الأستاذ عبد الهادي التازي ، وطبع في بيروت سنة ١٩٦٤ .

واحتفالاته وأخبار الوفود والسفارات وغير ذلك مما ساقه مؤرخ الموحدين في دقة متناهية ، فقد رأى غرسية غومس في ذلك احتذاء لما فعله ابن حيان — أو بتعبير أصبح : عيسى بن أحمد الرازي — حين استبلغ في وصف هذه المظاهر « البلاطية » في قرطبة على عهد الخليفة الأموي الحكم المستنصر ، مما حفظه لنا مخطوط المجمع التاريخي الملكي بمadrid .

وعلينا كذلك أن نشير في النهاية إلى لسان الدين ابن الخطيب اللوشي الغرناطي (ت ٧٧٦ / ١٣٧٤) الذي كان بالنسبة لأندلس عصره — بعد أن تضاعلت وانحصرت في مملكة غرناطة الصغيرة — كابن حيان في محيط بيئته وزمانه . وقد ترسم ابن الخطيب في كثير من جوانب كتاباته التاريخية خطوات ابن حيان ، وهو يعتبر بحق أعظم مؤرخي عصره وواحدًا من أعظم كتاب الأندلس على أن بين الرجلين من الفرق ما بين أندلس القرنين الرابع والخامس مما كانت تحفل به من التفتح والنضج الفكري والثقافي الموروث عن عصر الخلافة الروانية وأندلس القرن الثامن التي كانت قدما في طريق الاضمحلال والانهار . وإن كان الحق يقضي علينا بأن نقول إن ابن الخطيب كان بارقة من العبقرية في ذلك العصر تشبه ومضة الذبالة المتوهجة قبل أن ينطفئ المصباح ويلف الظلام كل شيء . . .

* * *

أما الذين نقلوا من تاريخ ابن حيان والذين يمكن أن يعينونا بنقولهم هذه على « إعادة بناء » جزء كبير من هذا التاريخ فإن تتبعهم أمر ليس له كبير جدوى إلا إذ قصدنا إلى هذا الهدف على وجه الخصوص . وقد سبق للباحث الإسباني ملتشور أنطونيا أن أفرد هذه المسألة بالدراسة في بحثه عن ابن حيان (١) . فأورد قائمة طويلة بأسماء المؤرخين الذين نقلوا عنه ذكر منهم : ابن بسام وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقرئ والناصرى السلاوى . غير أن ملتشور أنطونيا كان قد أنجز دراسته المذكورة قبل أن تظهر إلى النور كتب ونصوص أندلسية كثيرة وتكتشف مخطوطات عديدة ، ولهذا فإن قائمته تبدو اليوم ناقصة محتاجة إلى إعادة النظر . وعلى كل حال فلسنا في حاجة إلى التدليل على أن كل المؤرخين التاليين لابن حيان كانوا عالة على تاريخه : ينهلون من مورده كلما تهيأ لهم ذلك . ونحن نحمد الله على ما فعلوا ، فقد حفظوا لنا من كتبه المفقودة ما يعتبر ذخيرة ثمينة لا كفء لها .

* * *

(١) ابن حيان القرطبي وتاريخه ، ص ٤٠ وما بعدها .

وأما أحكام المؤرخين المتأخرين عليه ففيما عدا اتهامه بالثلب والوقوع في الأعراض - وهي القضية التي ناقشناها من قبل - فإننا نجد إجماعاً على التسليم لابن حيان بإمارة علم التاريخ في الأندلس ويكفيها هنا أن تأتي بشاهدين نجتزئ بهما في الحديث عن مكانة ابن حيان :

أولهما لفيلسوف التاريخ العربي ابن خلدون الذي يقول في مقدمته :

« وجاء من بعدهم (بعد الجيل الأول من كبار المؤرخين المسلمين مثل الطبري والمسعودي وغيرهما) من عدل عن الإطلاق إلى التقييد . . . فقيده شوارد عصره ، واستوعب أخبار أفقه وقطره ، واقتصر على تاريخ دولته ومصره ، كما فعل ابن حيان (في الأصل : أبو حيان وهو خطأ) مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها وابن الرقيق مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقبروان ، ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ، وبليد الطبع والعقل أو متبلد ، ينسج على ذلك المنوال ، ويحتذى منه بالمثل ، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال ، واستبدلت به من عوائد الأمم والأجيال فيجلبون الأخبار عن الدول ، وحكايات الوقائع في العصور الأول : صوراً قد تجردت من موادها ، وصفاً انتضيت من أغمارها » (١) .

والشاهد الآخر مما كتبه المستشرق الهولندي العظيم دوزي أول من وجه النظر إلى ابن حيان ونشر قطعاً من تاريخه :

« إن كتاب العرب يمتدحون في كتب ابن حيان صدق الرواية بقدر ما يعجبون بجزالة لغته ورنين عباراته . وأنا أؤيدهم في ذلك كل التأيد ، ولا أتردد في القول بأن كتبه لوبيقت لألفت على تاريخ الأندلس الغامض ضياء باهرة ولصورته لنا أحسن تصوير ، ولوجدنا أنها تبلغ من الامتياز مبلغاً يجعلنا نستغني بها عن غيرها من الكتب التي تتناول تاريخ هذه العصور . إن ابن حيان سيال الأسلوب ، ولكنه مع ذلك لا يتعثر في الإطناب والقعقة اللفظية ، كما فعل غيره من أصحاب الروايات المسهبة التي لا تنتهي . إنه ليسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء . ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصح ، لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ، ولا يقع كذلك في التفصح والإسراف في قعاقع الألفاظ .

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ، ط . المكتبة التجارية ، القاهرة بدون تاريخ ص ٥ .

رغم التزامه هذه السهولة لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائما حماسا وغنى وطابعا غالبا من الجلد . نعم ، إنه يلجأ في بعض الأحيان إلى التشبيهات وضرب الأمثلة . ولكنه — رغم امتيازه بفصاحة القدماء — لا يولع بما أولع به معاصروه . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد بينهم من تقدمه عليه « (١) »

المقتبس — مخطوطاته وما نشر منه :

كان كتاب « المقتبس » لابن حيان يتألف — كما سبق أن ذكرنا — من عشرة أسفار ، وقد كرر المؤرخون المتأخرون هذه العبارة في كل ما كتبوه عن ابن حيان من ابن سعيد إلى حاجي خليفة . وقد كان من حسن الحظ أن قطعا من هذا الكتاب الجليل قد وصلت إلينا في مخطوطات تتفاوت جودة وضبطا ، فضلا عن النقول الكثيرة التي يوردها مؤرخو الأندلس بعد ابن حيان من هذا الكتاب . وسنورد فيما يلي بيانا بهذه القطع ما نشر منها وما لا يزال مخطوطا ، مرتبة ترتيبا زمنيا :

١ — الأولى قطعة مخطوطة كبيرة حصل عليها المستشرق الفرنسي الأستاذ لينى بروفنسال من الخزانة العامة للجامع القرويين في فاس بالمغرب الأقصى . وهي تضم كل إمارة الحكم بن هشام الربضي (١٨٠ — ٢٠٦) والشاطر الأعظم من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٢) ، وكانت تقع في ١٨٨ ورقة . وقد انتفع لينى بروفنسال كثيرا من هذه القطعة في عديد من أبحاثه ولاسيما كتابه الجامع عن « تاريخ إسبانيا الإسلامية » الذي نشره في باريس بين سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥٥ في ثلاثة أجزاء .

ولم يترك لنا المستشرق الفرنسي وصفا مفصلا لهذه القطعة ، ولكننا نأخذ من بعض إشارات إليها في تاريخه أنه كان قد حققها تحقيقا كاملا وأعدّها للنشر منذ سنة ١٩٣٨ ، وأنه أرسلها إلى إحدى الجامعات المصرية لكي تنشر هناك ولكن الجامعة المذكورة لم تعتن بإخراجها على الرغم

(١) دوزي : جامع أخبار بني حيان ١/ ١٩٠ ، ٢١٧ ، وقد اعتمدنا على الترجمة العربية التي قام بها الدكتور حسين مؤنس لكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لأرنخل جرنثالث بالنشيا . إذ كان النص من بين ما أورده المؤلف في سياق ترجمة ابن حيان . (انظر ص ٢١١) .

من مضى اثني عشر عاما على الفراغ منها وإرسالها (١) . ولا شك في أن ليني بروفنسال يعنى بذلك جامعة الإسكندرية ، فالمعروف أنه كان قد فاوض الأستاذ عبد الحميد العبادى رحمه الله في أن تقوم تلك الجامعة بنشر المقتبس ، وأنه بعث إليه بمصورة للمخطوط ، ولكن الذى نعرفه هو أن ليني بروفنسال لم يكن قد أتم تحقيق المخطوط ، وإلا فإنه لم يكن ليعدم الوسائل لنشر مثل هذا الكتاب الجليل في أى مكان آخر بدلا من هذا الانتظار الطويل . ويبدو أن ليني بروفنسال كان يريد أن يشرك معه الأستاذ العبادى أو غيره من المشتغلين بالأندلسيات في تحقيق الكتاب ، ولكن ذلك لم يتيسر واسترد المستشرق الفرنسى مصورة المخطوطة ، وظلت في حوزته حتى وفاته سنة ١٩٥٧ .

ومنذ هذا الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقراً ، وقد اجتهدنا في البحث عنها لدى من يمكن أن تكون لديه ، فسألنا عنه أرملة الأستاذ بروفنسال وأصدقائه من المستشرقين فلم يهتد أحد إلى ما لها . ولو انتهى أمرها إلى الضياع لكان ذلك خسارة كبيرة لتراث الأندلس وتاريخها . على أننا لم نفقد الأمل بعد في إمكان العثور على هذه القطعة الجلييلة أو الاطمئنان إلى أنها ستقع في أيدي أمينة تحرص على أن تنشر بما هي جديرة به من عناية أو تعرف على الأقل مدى قيمتها ونفاسها .

٢ — القطعة الثانية هي التي تلى السابقة مباشرة ، وكانت تؤلف معها مخطوطا واحدا . وقد عرفنا بنبأ وجودها في مكتبة جامع القرويين بفاس من الأستاذ ليني بروفنسال نفسه ، فقد اطلع عليها واستفاد من بعض نصوصها في كتابه عن تاريخ الأندلس . وكنا في خوف من أن تكون قد اندثرت أو ضاعت حتى أكد لنا وجودها هناك الأستاذ الجليل محمد عبد الله عنان صاحب الفضل الكبير . على الدراسات الأندلسية بما نشر من كتب قيمة في هذا الميدان ، ثم سنحت لي الفرصة للاطلاع على هذه المخطوطة في فاس في إحدى رحلاتي إلى هذه المدينة الجميلة عاصمة المغرب الثقافية والروحية . وتفضل القائمون على أمر المكتبة بالسماح لنا بتصوير هذه القطعة . وأنا أقدم خالص الشكر بهذه المناسبة إلى الأستاذ الجليل الفاضل محمد العابد الفاسي أمين خزانة جامع القرويين على ما أبداه من كرم ومروءة واهتمام بإعانة الباحثين على أداء رسالتهم . والحقيقة أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يبذل الأستاذ العابد الفاسي مثل هذا العون الكريم النبيل لكاتب هذه السطور . فقد سبق أن تفضل بمثله حينما كنت أشرع في تحقيق ديوان ابن دراج القسطلي ، إذ تكرم بإهدائي

(١) انظر ليني بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١٥١/١ ، حاشية رقم ١ .

مصورة لقطعة من هذا الديوان كانت محفوظة في تلك الخزانة في حواظ الأوراق المتفرقة (الدشت) ، وأعانتني هذه القطعة على استكمال بعض الفجوات والخروم في الديوان . وأنا أسجل شكرى من جديد للعالمين الفاضلين الأستاذين عبدالله عنان والعايد الفاسى على ما أولياى به من كريم العناية .

وقد كانت هذه القطعة في إحدى حواظ الأوراق المتفرقة في خزانة القرويين ، وهى تبدأ من حيث تنتهى القطعة السابقة أى من سنة ٢٣٢ حتى ٢٦٧ ، فهى تاريخ الأندلس خلال السنوات الأخيرة من إمارة عبدالرحمن الأوسط بن الحكم (٢٣٢ - ٢٣٨) ثم معظم إمارة محمد بن عبد الرحمن (ولى بين سنتي ٢٣٨ و ٢٧٣) . وترقيم الأوراق متصل بترقيمها في القطعة السابقة ، فهو يبدأ برقم ١٨٩ وينتهى بـ ٢٨٤ ، أى أنها تشتمل على خمس وتسعين ورقة .

٣ - القطعة الثالثة هى التى نشرها الراهب الإسباني الأب ملتشور أنطونيا في باريس سنة ١٩٣٧ عن الأصل المخطوط المحفوظ في المكتبة البودلية تحت رقم ٥٠٩ ، وتتناول إمارة عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠) ، وتضم مائة وسبع ورقات .

٤ - القطعة الرابعة هى التى عثر عليها مؤرخاً في خزانة القصر الملكى في الرباط عاصمة المغرب . والحقيقة أن نبأ وجودها في تلك الخزانة ليس جديداً تماماً . فقد عرف ملتشور أنطونيا نفسه بذلك ، إذ أشار إلى أنه اطلع في قائمة لكتب الخزانة السلطانية في مكناس (حينما كان ملوك المغرب يتخذون هذه المدينة عاصمة للبلاد) على مخطوط كان يحمل رقم ١٢٨٣ أثبت أمامه أنه القسم الخامس من كتاب « المقتبس » وأنه متعلق بسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر . ولم يسعدنا الحظ برؤية هذه النسخة مما لا يسمح لنا بالحكم عليها .

٥ - القطعة الخامسة هى مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمديرى ، وهى مخطوطة حديثه كان المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا قد قام باستنساخها عن أصل قديم كان محفوظاً في مكتبة ورثة سيدى حمودة في قسنطينة (الجزائر) تحمل رقم ٣٣٩ . وفي سنة ١٩٤٢ تبين أن المخطوط الأصيل قد فقد وذهب أثره ، وهكذا أصبحت نسخة كوديرا هى الأصل الوحيد لهذه القطعة من الكتاب . وقد اضطلع بنشر هذه القطعة في بيروت مؤخراً (في سنة ١٩٦٥) - الأستاذ عبد الرحمن الحجى . وهى تعالج أحداث خمس سنوات غير كاملة من خلافة الحكم المستنصر بالله (٣٦٠ - ٣٦٤) .

* * *

ولم الآن مدى اتساق ما نعرفه من قطع المقتبس التي وصلت إلينا مع ما يردده من ترجموا لابن حيان أو محدثوا عن كتبه من أمر تلك الأسفار العشرة التي كان يتألف منها « المقتبس » .

فنجد أولا أن القطعتين الأولى والثانية وتتألف من كليهما مخطوطة جامع القرويين بفاس كانتا مؤلفان — على ما يبدو — السفر الثاني كاملا من الكتاب . وإذا كنا لم نستطع الاطلاع على القطعة الأولى التي كانت في حوزة ليبي بروفنسال فإن القطعة الثانية التي نقدمها اليوم تنص صراحة على ذلك ، فهي تنتهي — بعد الفراغ من ذكر أحداث سنة ٢٦٧ بهذه العبارة : « كل السفر الثاني بحمد الله تعالى ، يتلوه في الثالث مبتدأ نجوم عمر بن حفصون كبير الثوار في الأندلس » فإذا كان هذا السفر الثاني هو المتضمن أحداث الأندلس من مبتدأ خلافة الحكم بن هشام حتى قرب نهاية محمد بن عبد الرحمن (من سنة ١٨٠ حتى ٢٦٧) (١) فإن السفر الأول من المقتبس لابد أنه كان يتناول المقدمة الجغرافية التي يرجع أن ابن حيان صدر بها تاريخه (٢) ، ثم فتح العرب للأندلس ، وعهد الأمراء التابعين لخلافة بني أمية في دمشق إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري (من سنة ٩١ حتى سنة ١٣٨) ثم إمارتي عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام (١٣٨ — ١٨٠) . أي أن

(١) وفيما يلي أقسام هذا السفر الثاني الذي يضم قطعة ليبي بروفنسال وقطعتنا الحالية ، وقد رجعنا في معلوماتنا عن القطعة الأولى إلى ما أورده المستشرق الفرنسي في تاريخه عنها :

١ - القسم الأول من خلافة الحكم بن هشام الرضى (ول بين سنتي ١٨٠ و ٢٠٦) وهو يشغل في المخطوطة من الورقة الأولى حتى رقم ١٠٣ . (انظر ليبي بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١٥٠/١ ، حاشية ٢) .

٢ - القسم الثاني من إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (ول بين سنتي ٢٠٦ و ٢٣٨) ، ويشغل في المخطوطة من الورقة ١٠٣ حتى ٢١٥ . (انظر ليبي بروفنسال : تاريخ ١٩٣/١ ، حاشية ٢) . وقد توزع هذا القسم بين قطعة بروفنسال وقطعتنا . فبقى لديه الجزء الأكبر منه (من ١٠٣ حتى ١٨٨) ، ووقع إلينا باقية (من ١٨٩ إلى ٢٠٣) . الغريب أن المستشرق الفرنسي يقول في الموضع الذي أشرنا إليه قبل في وصف هذا القسم إن المخطوط يبدأ بمقدمات عامة حول حكم عبد الرحمن الأوسط ثم يأخذ في سرد الأحداث مرتبة على السنين حتى يصل إلى سنة ٢٣٢ فينقطع السرد عند الورقة ٢٠٣ . وليس هذا صحيحا فإن السرد إنما ينقطع عند الورقة ١٨٨ التي ينتهي بها الجزء الذي كان في حوزته فقط ، وإلا فإنه يستمر بعد ذلك في قطعتنا حتى الورقة ٢٠٣ . وبدلنا هذا على أن بروفنسال — وإن كان قد اطلع على قطعتنا — لم يفحصها بعناية ولم يستفد منها في تاريخه على ما كان ينتظر .

٣ - القسم الثالث من إمارة محمد بن عبد الرحمن ، وهو يبدأ بالورقة ٢١٥ حتى نهاية المخطوطة في الورقة ٢٨٤ بأحداث سنة ٢٦٧ كما ذكرنا .

(٢) انظر الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص ١٠١ ، وما سبق أن ذكرنا .

هذا السفر الأول كان يضم تاريخاً لنحو تسعين سنة من حياة الأندلس . وليس هذا السفر مجهولاً لنا تماماً ، فقد أورد المقرئ في « نفح الطيب » نقولاً كثيرة منه ، ولاسيما في الجزأين الأول والرابع (من طبعة الشيخ محيي الدين عبد الحميد) .

أما القطعة الثالثة وهي التي نشرها ملتشور أنطونيا عن مخطوطة أوكسفورد فإن ظاهر ما ذكره الناشر أنها تضم القسم (أو السفر) الثالث من الكتاب كاملاً . ولكن الحقيقة هي أن ما نشر ليس إلا جزءاً من هذا السفر . فنهاية القطعة التي نشرها اليوم تنص على أن السفر المذكور يبدأ بنجوم عمر بن حفصون وأحداث ثورته . كما أنه لابد أن يكون قد تضمن سرد الأحداث بين سنتي ٢٦٧ التي ينتهي بها مخطوطنا و ٢٧٥ التي يبدأ بها السرد في مخطوطة أوكسفورد . وإذا كان المتوقع من ابن حيان التفصيل الواسع في أحداث ثورة ابن حفصون وغيره ممن قد يكون ابن حيان أشار إليهم من الثوار في أواخر أيام الأمير محمد فإن هذه الفجوة بين قطعتنا وقطعة أنطونيا — وتدخل فيها كذلك إمارة المنذر بن محمد (بين سنتي ٢٧٣ و ٢٧٥) — لابد أن تكون كبيرة وأن السفر الثالث كان يبلغ ضعف ما نشر أو نحو ذلك .

ونأتي بعد ذلك إلى القطعة الرابعة ، وهي مخطوطة القصر الملكي في الرباط آخر ما اكتشف من قطع « المقتبس » ، ولم تتح لنا معرفة شيء عنها إلا أنها تؤرخ لسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر الطويلة التي امتدت على طول خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠) . وقد ذكر أنطونيا فيما نقله عن الفهرس القديم لمكتبة القصر السلطاني في مكناس أن هذه المخطوطة تؤلف القسم (أو السفر) الخامس من الكتاب . وربما كان لنا أن نفهم من ذلك أن خلافة عبد الرحمن الناصر قد تكون استغرقت القسمين الرابع والخامس ، بل وربما السادس أيضاً من الكتاب ، فهي من أجل عهود التاريخ الأندلسي وأحفظه بالأحداث . ولابد أن ابن حيان قد أسهب في الحديث عنها كل الإسهاب .

وأخيراً نصل إلى القطعة الأخيرة ، وهي مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد المستنسخة عن مخطوطة قسنطينة بالجزائر ، والمنشورة مؤخراً بعناية الأستاذ الحجى . ولم يسجل عليها إلى أي أسفار المقتبس تنتمي . وإذا كان كتاب « أخبار الدولة العامية » يبدأ بولاية هشام بن الحكم المؤيد في سنة ٣٦٦ كما سبق أن رجحنا فإن هذا يحدد لنا مشكلة توزيع « المقتبس » على الأسفار العشرة التي يذكرها من تحدثوا عن تاريخ ابن حيان . فقد استنتجنا أن خلافة عبد الرحمن الناصر ربما استغرقت سفرين أو ثلاثة على أكثر تقدير أي حتى السفر السادس . فلا يبقى إذن من سياق التاريخ

إلا خلافة الحكم المستنصر . فهل تستحق هذه الخلافة التي لم تتجاوز أكثر من ستة عشر عاما أن يخصص لها ما بقي من أسفار « المقتبس » ، وهي أربعة على الأقل ، حتى ولو افترضنا أن ابن حيان يكتب عنها بأقصى تفصيل ؟

لا . . . لستنا نظن الأمر كذلك ، فنحن نعتقد أن قصارى ما يكون المؤرخ قد أفرد له الخلافة الحكم لا يتجاوز سفرأ واحداً . وبذلك لا نجد تفسيراً للمسألة إلا بأن ابن حيان كان قد جعل كتابه في « أخبار الدولة العامية » في أول الأمر جزءاً من « المقتبس » ، ونحن نعرف مما يذكره المؤرخون حول هذا الكتاب ومدى ما فصل ابن حيان فيه الحديث عن العامرين أنه ربما استحق أن يشغل ثلاثة أسفار أو أربعة من « المقتبس » . ثم بدا لابن حيان بعد ذلك أن يجعل له عنواناً خاصاً تاركاً الأمر بالخيار لقارئه « فن شاء خزله عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه » كما قال ابن الأبار في عبارة سبق لنا أن علقنا عليها في موضعها (١) . ولا عبرة هنا بما يقوله ابن الخطيب من أن كتاب « أخبار الدولة العامية » قد « أنافت على المائة أسفاره » (٢) ، فإن مثل هذه التجزئة لو صحت لكانت شيئاً لم يقصده ابن حيان ، وإنما من عمل النساخ أو الوراقين ، وربما كان السفر لديهم لا يتجاوز عشرين أو ثلاثين ورقة .

المخطوط :

القطعة التي نقدمها اليوم من « المقتبس » هي ثالثة القطع التي تنشر منه ، بعد مخطوطة أوكسفورد ومخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد . وكانت تؤلف مع تلك التي كانت في حوزة ليني بروفسال سفرأ واحداً محفوظاً في خزانة جامع القرويين بفاس . على أن قطعنا لم تكن تبلغ إلا نحو ثلث هذا السفر ، إذ تبدأ من الورقة ١٨٩ وتنتهي بنهاية السفر المذكور في الورقة ٢٨٤ ، فهي تشمل على أربع وتسعين ورقة (إذ ضاعت منه ورقة واحدة) . وليس على المخطوط عنوان ولا تاريخ ولا اسم ناسخ . وربما ورد شيء من ذلك على أول أوراق الأصل في القطعة التي لم نعثر على أثر لها بعد وفاة ليني بروفسال .

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ٢٦٩/١ . وانظر ما سبق أن كتبناه عن ذلك في كلامنا عن كتب ابن حيان في الفقرات الخاصة بكتاب « أخبار الدولة العامية » ص ٦٢ .

(٢) أعمال الأعلام : ص ٩٨ ، وقد سبق أن علقنا كذلك على هذه العبارة .

والطريف في شأن قطعتنا هذه أنها ليست بقلم ناسخ واحد ، بل تنقسم أوراقها إلى مجموعتين متميزتين :

— المجموعة الأولى بخط أندلسي دقيق يميل إلى اللين والتدوير ، وهي الأوراق ما بين رقمي ١٨٩ و ٢٣٥ . ثم تنقطع هذه المجموعة بعد ذهاب ورقة واحدة هي رقم ٢٣٦ . وتلى ذلك أوراق المجموعة الأخرى المكتوبة بخط مختلف حتى نهاية الورقة ٢٧٥ . ونعود ابتداء من الورقة ٢٧٦ حتى نهاية المخطوط في الورقة ٢٨٤ إلى رؤية خط الناسخ الأول .

— والمجموعة الثانية هي الواقعة في الفاصل الذي أشرنا إليه ، وتنظم الأوراق بين رقمي ٢٣٧ و ٢٧٥ ، والخط بقلم ناسخ آخر مختلف عن الأول ، وهو يحرف أغلظ قليلا من حرف المجموعة الأولى ، كما أنه أكثر ميلا إلى تحديد الزوايا ، وهو على العموم أجمل من خط المجموعة الأولى وأوضح .

فالقطة التي بين أيدينا ليست مخطوطا واحداً ، وإنما هي نسخة ملفقة من مخطوطتين مختلفتين للكتاب . ولكن بعض الاضطراب لحق عمل من قام بهذا التلفيق أو لم يسعفه تتابع الأوراق وهو يملأ فجوة المخطوط الأول بأوراق من الثاني . فقد وضع رقم ٢٦٧ مثلا على ورقة كان حقها أن تتأخر ، فنحن نجد فيها جزءاً كبيراً من نفس النص الوارد في أولى ورقات الحلقة الثانية من المجموعة الأولى بعد الفجوة التي أشرنا إليها .

وقد حملنا هذا الاضطراب على إعادة ترتيب الأوراق في بعض المواضع . أما النص الوارد في الورقة رقم ٢٧٦ والمكرر في رقم ٢٦٧ فقد توفر لنا بذلك منه أصلان قابلنا أحدهما على الآخر . وسبرى القارئ تفاصيل ذلك كله في الحواشي الخاصة بتحرير النص والملحقة في ذيول الصفحات . كذلك قمنا في أحد المواضع ببعض التقديم والتأخير حرصاً على اتساق السياق .

ويبلغ عدد السطور في الصفحة من أوراق المجموعة الأولى ما بين ٢٧ و ٢٨ سطراً . أما أوراق المجموعة الثانية ففي الصفحة نحو اثنين وعشرين سطراً على ما نقدر . وإنما نقول ذلك لأنه لم تسلم لنا من هذه المجموعة ورقة واحدة كاملة ، فتقديرنا افتراض مبني على أساس حجم الصفحة ومساحات الهوامش .

منهجنا في العمل :

والحقيقة هي أن العمل في نشر مثل هذه المخطوطة على أصل وحيد كان من أشق ما يمكن أن يقاسيه محقق . فقد لحق هذا الأصل من التشويه والقطوع ما جعل الإقدام على نشره أشبه بمخاطرة غير مأمونة العواقب . وذلك لأن عدد الأوراق التي سلمت - إلى حد ما - من أوراقه الأربع والتسعين لا يعدو ثمانى ورفات (١٨٩ - ١٩٦) . أما الباقية فقد أتت الرطوبة والأرضة على الجزء الأسفل من كل ورقة حتى نهاية المخطوط . فذهبت سطور برمتها ، ولم تسلم من سطور أخرى لإبقايا كلمات وحروف متناثرة لا تتركب منها جمل ولا حتى ألفاظ مفيدة . وهذا هو ما جعل ليني بروفنسال ، وهو أول من أهتم بهذه القطعة وحاول أن يستفيد منها ، يقلع تماما عن مجرد التفكير في نشرها ، حتى إنه يقول في التعليق عليها :

« وقد فحصت أوراق هذه المخطوطة بعناية ، وانتهيت من دراسي لها إلى هذه النتيجة : وهي أنها - لسوء الحظ - من التلف بفعل الرطوبة والأرضة بحيث يعد من المستحيل من الناحية العملية الخروج منها بأدنى فائدة » (١) .

وقد كانت النية في أول الأمر معقودة على أن يشترك في إخراج هذه القطعة الدكتور حسين مؤنس مع كاتب هذه السطور ، وأعلننا عن ذلك فعلا ، وذلك حينما كنا نعمل معا في معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . على أن شواغل الدكتور مؤنس الكثيرة حالت بينه وبين العمل فيه ، فاضطلعت به وحدي . وكثيراً ما هممت بالعدول عنه جملة بسبب ما كان يحف به من مشقات مضنية ، غير أن قيمة النص وفائدته الكبيرة كانت تدفع بي إلى المواصلة والمثابرة ، فضلاً عن أنني أعترف بأن هذه المشقات نفسها كانت من المغريات بالمضى في العمل حتى أتممته على خير ما استطعت وبقدر ما سمحت معرفتي .

وقد كان العمل في مثل هذا المخطوط الذي أفسدته القطوع وناله التشويه البالغ ولم تكد تبق منه ورقة سليمة كان أشبه بترميم أثر معاري تحطمت أحجاره وتناثرت وذهب بعضها إلى غير رجعة . واقتضى ذلك منى الاستعانة بكل المصادر الممكنة وباعتصار السطور المشوهة واستخلاص

(١) ليني بروفنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ٢٨١/١ ، حاشية ١ .

أقصى ما يمكن أن تدل عليه بقايا الكلمات . واستطعت بالفعل أن أصل إلى استكمال النص في كثير من المواضع . وإن كنت قد التزمت الحذر ، فلم أثبت إلا ما اطمأنتت إلى أنه من كلام ابن حيان إذا كان الاعتماد على مصدر ينص على النقل منه ، أو إذا كان ابن حيان نفسه ينقل عن مصدر سابق تيسر لنا وجوده مطبوعاً أو مخطوطاً .

وهذا مع ملاحظة شيء كشف لنا عنه هذا النص وغيره مما نشر لابن حيان : وهو أن مؤرخنا حينما كان يعتمد على مؤرخ سابق له لم يكن ينقل عنه نقلاً حرفياً ، فهو — وإن احتفظ بجوهر النص — يؤثر التعبير عنه بأسلوبه هو . ولهذا فقد كان يدهشنا في أول الأمر أن نجد نصوصاً منسوبة إلى ابن القوطية أو ابن الفرضي أو غيرهما ، فإذا قابلناها على الأصول المطبوعة لأمثال هذه الكتب وجدنا أن النصين لا يتفقان تماماً . صحيح أنه يمكن تحليل ذلك بأن الأصول التي رجع إليها ابن حيان كانت أكمل وأكثر تفصيلاً مما وصل إلينا . ولكن هذا لا يكفي في التفسير ، إذ أننا نلاحظ أن ما ينقله ابن حيان عن أولئك المؤرخين أشبه بأسلوبه هو وأقرب إلى روح كتابته ، مما يجعلنا على ثقة من أن أبا مروان تصرف في النصوص التي يوردها لغيره تصرفاً واسعاً .

وهذا هو ما جعل مهمتنا زداد عسراً ومشقة . ولم يكن هناك بد في المواضع التي لم يكن من الممكن فيها استيفاء نص ابن حيان بلفظه أن نثبت في الحواشي ما تراءى لنا في إكماله بما بدا أن السياق يقتضيه ، وذلك معونة للقارئ على فهم النص ، واستعنا في ذلك بالمصادر الأخرى التي وجدنا فيها ما يلقي ضوءاً على تلك النصوص . وبقيت بعد ذلك مواضع أعجزتنا تماماً إذ لم نر في بقايا السطور والكلمات ولا في المراجع الأخرى ما يمكن أن يستدل به على شيء في إيضاح النص ، فتركنا تلك المواضع بياضاً . ومع ذلك فيمكنني أن أقول إن نص ابن حيان قد استقام في الجزء الأكبر من الكتاب وإن ما ذهب منه لا يتجاوز نسبة ضئيلة منه .

على أن عيوب الأصل المخطوط لم تكن تنتهي عند ما ذكرنا ، فقد تعرض لكثير من ألوان التحريف والتصحيف والخطأ ، وهي عيوب ترجع إلى الناسخ — أو إلى الناسخين بتعبير أصح — ، وأكثر ما وقع هذا في أسماء الأعلام والمواضع الإسبانية والأوربية . فقد حرف الكثير منها أو ترك بلا إعجام . وقد اجتهدت في رد كل تلك الكلمات إلى ما أعتقد أنني لم أحد به عن الصواب بعد بحث طويل ومقابلات كثيرة على المظان المختلفة ولاسيما الإسبانية واللاتينية القديمة .

هذا عن إخراج النص محرراً محققاً ، وبقيت بعد ذلك على خدمته على أساس من الاستقصاء العلمى الواسع . وكان ذلك - فيما أعتقد - أمراً ضرورياً بالنسبة لنص مثل هذا يعد أكمل وأوثق ما كتبه مؤرخ أندلسى . فلم أترك فيه اسم علم أو موضع جغرافى أو مناسبة تاريخية إلا علقته عليه شارحاً أو موضحاً أو مستدركاً أو مقابلاً بين نص ابن حيان وغيره من المراجع . وكان ذلك - فضلاً عن قيمته لذاته - جزءاً من توثيق النص وتحريره . واجتهدت فى هذا العمل على قدر الطاقة واستقصيت إلى أبعد حد ممكن ، ولا سيما فى تحقيق أسماء الأعلام والمواضع الجغرافية التى ترد فى النص لأول مرة ، وهى كثيرة جداً . وكان قدر كبير منها قد ورد فى الأصل محرراً أو بغير إعجام ، وقد يكون النسخ معذورين فى ذلك فهى أسماء لم يتعودوا عليها فرسموها كما اتفق لهم . وكانت تلك الأسماء عناء جديداً ، فقد اقتضت منى الرجوع إلى المدونات القديمة المسيحية الإسبانية والبرتغالية واللاتينية وإلى المعاجم الجغرافية والخرائط حتى أتمكن من تحديد أعلام المواضع . وأعتقد أننى وفقت إلى حل كثير من المشكلات فى هذا الباب .

ولما كانت هذه التعليقات من الطول بحيث لا تحتملها هوامش الصفحات فقد قسمت عملى فى كل ما أضفته حول النص إلى قسمين : حواشى تحقيق النص وتقويمه فقط ، وهى التى أثبتت فى ذيل كل صفحة مرقمة بطراز أوربى من الأرقام ؛ وتعليقات توضيحية جعلت لها أرقاماً متسلسلة لكل مجلد من مجلدات الكتاب ، ووضعت هذه التعليقات بعد النص ملحقة به .

ولم يكن هناك مفر من إخراج الكتاب على مجلدات ثلاثة :

١ - المجلد الأول : يضم المقدمة وهى هذه الدراسة عن ابن حيان وعن مخطوطة المقتبس ، ثم بقية النص الخاص بامارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم مع تعليقاته .

٢ - المجلد الثانى : يضم المقدمات العامة التى استهل بها ابن حيان كلامه عن إمارة محمد ، وهى تشمل أحكاماً عامة حول عصره وسيرته فى مملكته وتراجم مفصلة لرجال دولته من حجاب ووزراء وكتاب وشعراء وعلماء وغير ذلك ، على منهج ابن حيان المعهود فى الكتابة .

٣ - والمجلد الثالث يشتمل على الجزء الثانى من إمارة محمد ، وفيه سرد الأحداث على نسق السنين من ٢٣٨ حتى ٢٦٧ التى تنتهى بها هذه القطعة المخطوطة ، وتلى ذلك التعليقات ، وتنتهى بالفهارس المفصلة للكتاب والخرائط التى رأيت أنها لازمة لفهم النص وتتبعه .

* * *

وقد بذلت فى العمل أقصى ما استطعت من جهد . وأنا أشكر فى النهاية كل من أعانونى بعلمهم وتشجيعهم الكريم على إنجاز هذا العمل الذى أرجو أن ينفع الله به المشتغلين فى ميدان الدراسات الأندلسية ، وأنخص بالذكر أستاذى الكريم الدكتور شوقى ضيف الذى تعلمت منه وعلى يديه ما أرجو أن أكون قد احسنت الإنتفاع به فى إخراج هذا الكتاب ، والأستاذ أبو الفضل إبراهيم أستاذ تحقيق النصوص وصاحب الفضل العظيم على التراث الفكرى العربى ، وأستاذى الدكتور حسين مؤنس الذى قوى عزمى وأكد بصيرتى فيه فى أول العهد به ، والأخ الكريم الدكتور إحسان عباس الذى أفادنى ببعض الملاحظات الصائبة ، والأخ العزيز الأستاذ رشاد عبد المطلب الذى أولانى من التفانى فى العون وإمحاض النصيحة والود ما لا أظن اللسان ينى بشكره .

وبلى هذا نماذج من مخطوطات هذا الكتاب . .



وافر ذلك فقال له من قال الله تعالى جود وفؤله الحق فلتعوا الله حق بقلوبهم
 ثم فتح ذلك بعونه عز وجل فحتم ما تعوا الله ما استطاعوا فهو كان يستطع أن
 تنفسه تعالى حق بقلوبه لو لا بفضل الله بالتحبيب عن خلقه ملا جلته بعث إليه
 وأمر بحسنه ٥ **وذلك** ————— **ملك** من محمد بن ملك المرواني الأديب
 أنه قال رأيت في منامي أنه آخذ العشي رحمه الله فيقطب في عينه قطرة
 من دمه في داره يرقعها التي فلما أصفى عروق دمه إليه لأخبره بذلك
 فز شغلت بغيري في فقال لي يا ملك فقال له أن من سواه العيون أم من أسرار
 إلى النور رأيت في البيت في كرمه أسبيلاً جملوا فان ملوا التي يسئلون عنها
 ما نسا منها بها هندي فيما ومنى مكة وبقية والنج والعشرة والكعبة ما
 فلتنا فلتنا الحيتهم به رحمه الله قال فلتنا لمتنا أم لا مكة من فؤله مكنت العظم
 له المستخرجت مكة ومكة اضطلعيت من الأرض في أخرجت وبكة من الشدة
 ومفوا لا زج جاء لا زج جاء الحاج هنديما ٥ **والنج** فضرط الشيء في وقت
 مضى إلى ما يؤيد في الستم والعشرة فضرط لما مني أختيت ومنه يقول
 اضطررت الزحلول كما اضطررت إليه من بيت وسميت الكعبة لتدوير مقام
 كالدجيم ٥ **فقال** ملك فقلت له من العيب أنه كتب أرى القبلة في المطم أي
 بيتاً أم بيتاً فيقطب في عينه في قطب من البيت به يسجد ومن سواه أن سجد
 في البيت ٥ **قال** العبد مني في البيت ٥ **فقال** العبد مني في البيت ٥ **فقال** العبد مني في البيت ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من حال الشروع فيه ما قد نال من حضم الله المشرب آخرها ما تشكيد
النظر عرف بقا الجماعة وبقوة التماسك بينهم **وذكر جماعة**
وعز عن قتادة وبنو منصور في الحركات أياهم وأسماء أكابر من خلفه
سريع اليد وكتابه رفيع، وما جرحه من الثمن فربما لا يدا، وفقيهه من
تجربته **الغفار** وعبد بن محمد الأندلسي من بنيان الأندلس ولدته تغلب
حاضره ولدت ببيت أبيه والامانة تغلب حاضره

خبر البيعة للامير فخر قووز
مزيج اخوته بالخلابة

فَالْحَذَرُ مِنْ خَلْفِ قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَارِزِيُّ

[illegible]

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين

لها ثقل قلب موسى بن موسى القَسَوِيُّ^(١) عن الطاعة ، وأعد بتحاميل عبد الله بن كَلَيْب^(٢) عامل الثغر عليه ، ومدَّ يده إلى بعض أمواله ، فأحفظه ذلك ، وهاج^(١) / حَمِيَّتُهُ ، وتحرك إلى تُطَيْلَةَ^(٣) ، وابن كليب داخلها ، فطمع أن ينتهز منه فرصة ، فاحتجز عنه عبد الله بِحَصَانَتِهَا ، ولم يُؤْتِهِ حرباً ، واستغاث بالأمير عبد الرحمن ، فأخرج إليه ابنه محمداً بالصَّانِفَة ، وقاد معه محمد بن يحيى بن خالد^(٤) ، فاحتلَّ عليه محمد بالجيش ، فأذعن موسى ، واعترف بالذنب ، وسأل العفو ، فسارع الولدُ محمد إلى إجابته وتَطْمِينِهِ وإقراره على حاله ، وتقدم بالصَّانِفَة إلى بَنِيْلُونَه^(٥) فجال بأرضها وأدّاخَهَا^(٣) ، وَنَكَأَ الْقَدُوَّ أَبْرَحَ نِكَايَةً .

وفيها عزله الأمير عبد الرحمن حارث بن بَزِيْع^(٦) عن طَلَيْطَلَة في شوال منها ، وولاها محمد بن السَّليم^(٤) (٧) .

وفيها كان القحط الذي عم الأندلس ، فهلكت المواشي ، واحترقت الكروم ، وكثر الجراد ، فزاد^(٥) في المجاعة وضيق المعيشة .

(١) استكلنا هذه العبارة من النص الذي نشره ليبي وروغلسال وهرسيه غومس من مجلة مقتطفات انتخبها من « المقتبس » وترجمها إلى الإسبانية تحت عنوان « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان حول أصول ملكة بنبلونة » في مجلة « الأندلس » ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الثاني ، سنة ١٩٥٤ :

E.LEVIPROVENCAL, E. GARCIA GOMEZ; Textos del «Muqtabis» de Ibn Hayyan sobre los origenes del reino de Pamplona, AL-ANDALUS, Madrid Granada, vol. XIX, fasc. 3, p. 304

(٢) ص : بلبلونة .

(٣) ص : وأدّاخَهَا ، وقد تحتمل أيضا « ودّاخَهَا » ، حل أن ما أثبتناه أصح وأشبه بأسلوب ابن حيان ، فهو كثير ما يستخدم هذا اللفظ (انظر على سبيل المثال القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجي من « المقتبس » ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، ص ٢٣٦ حيث يقول : « أدّاخَ بسيطة ») .

(٤) ص : السلم ، وقد أصلحناها بما سيرد بعد ذلك في النص .

(٥) ص : فرادا .

وفيها استأمن غُليَّالمُ بن بَرْنَاط^(١) بن غُليَّالمِ (٨) ، أحد عظماء قَوَامِس إِفَرَنْجَة على الأمير عبد الرحمن بَقْرُطْبَة ، فأكرمه وأحسن إليه وإلى أصحابه ، وصرفه معهم إلى الثغر لمغاورة الملك لُذَوِيْق بن قَارْلُه بن بِيِين^(٢) (٩) صاحب الفِرَنْجَة ، وكانت بينه وبين قواد لُذَوِيْق وقائع ظهر عليهم فيها ، وأعانه عُمَالُ الثغر ، فَأَثَخَن^(٣) العدو ، وأقام بمكانه ظاهراً على من انتقض عليهم من أمته مدة ، وَكُتِبَ إلى الأمير متصلة .

سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

فيها في شعبان منها عزل الأمير عبد الرحمن محمد بن السليم عن طُلَيْطَلَة^(٤) ، وولاهها بعده أيوب بن السليم (١٠) .

سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها غزا^(٥) بالصائفة المنذر بن الأمير عبد الرحمن (١١) ، وقاد عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (١٢) ، ودَبَّرَا الوزير يحيى بن خالد .

وفيها أغزى الأمير عبد الرحمن أسطولا من ثلاثمائة مركب إلى أهل جزيرتي^(٦) مَيُورَقَة ومِنُورَقَة (١٣) ، لنقضهم العهد ، وإضرارهم بمن يمر إليهم من مراكب المسلمين ، ففتح الله للمسلمين عليهم ، وأظفرهم بهم ، فأصابوا سباياهم ، وفتحوا أكثر جزائرهم ، وأنفذ الأمير فتاة^(٧) شَنْظِيرَ الحَصِي إلى ابن ميمون عامل بَلَنْسِيَة ، لِيَحْضَرَ تحصيل الغنائم ويقبض الخُمُس ، وكان قد صالح بعض أهل تلك الحصون على ثلث أموالهم وأنفسهم ، وأحصيت رِبْعُهُمْ وأموالهم^(٨) ، وَقُبِضَ ما عليه صُولِحُوا (١٤) .

(١) ص : يرباط .

(٢) ص : لدريق بن قارلة بن س ، والاسم الأخير ورد بغير إعجام . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

(٣) ص : فاثخي ، بغير إعجام .

(٤) ص : طليلة .

(٥) هذه الكلمة ساقطة من الأصل مثبتة في الحاشية .

(٦) ص : جزيتي .

(٧) ص : ساء .

(٨) ص : وأموالهم

وفيهما ظهر غُلَيْلِمُ بن بَرْنَاط^(١) بن غُلَيْلِم^(٢) النَّازِعُ إلى الأمير عبد الرحمن ، القادم إلى باب سُدَّتِهِ / في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين على من حَادَهُ من أُمته أهل إفرنجة ، [١٨٩ ب] الذي نصبه الأمير عبد الرحمن لغاورتهم وأَمَدَهُ بقوته ، فاقتحم عليهم بلده في جمعه ، ففَقَلَ وَسَبَى ، وحرَقَ وخرَّبَ ، وحاصر بَرُشْلُونَةَ (١٥) حتى أَصْرَبَهَا ، وتقدم إلى جِرْنَدَةَ (١٦) ، فشارفها ، وورد كتابه على الأمير عبد الرحمن يعترف بما كان منه ، ويذكر تَادِيَتُهُ عليه ، فَأَجِيبَ بالإحْمَادِ لفعله ، والإِصْصَادِ لمكافأته ، وكتب إلى عُبَيْدِ اللَّهِ بن يحيى (١٧) عامل طَرُوشَةَ (١٨) وإلى عبد الله بن كُلَيْبِ عامل سَرَقُسْطَةَ في إمداده ومعونته وتحريضه على شقاق قومه وتأييد عزمته .

وفي شهر رمضان منها عَزَلَ أَيُّوبُ بن السَّليْم عن طليطلة وولَّيَهَا يوسُفُ بن بَسِيل (١٩) .
وفيهما عَزَلَ الأمير عبد الرحمن مُعَاذَ بن عُثْمَانَ عن القضاء بقرطبة ، وولَّى مكانه محمد ابن زياد (٢٠) .

وفيهما خرج فَرَجُ بن خَيْرِ الطُّوْطَالِقِيِّ (٢١) بدنهكة (٢٢) وأَرْوَشَ (٢٣) ، فأظهر المعصية ، وجمع أهل الفساد ، فعالجه (٣) الأمير عبد الرحمن بالخيْل ، فحوصر حتى أذعن بالطاعة ، وعاد إلى الجماعة ، فاصطنعه الأمير ورفع مرتبته ، وولاه كُورَةَ بَاجَةَ (٢٤) ، فلم يلبث أن انتقض عليه إلى مُدَيِّنَةِ ، وجرت منه خطوب أفسدت الصنيعة ؛ وَمِنْ وَلَدِهِ بَكْرُ بن سَلَمَةَ (٢٥) المُسْتَنْزَلُ من ناحية الغُرب (٤) أيامَ الخليفة النَّاصِرِ لدين الله .

سنة خمس وثلاثين ومائتين

ففيهما ورد كتاب أهل مَيُورَقَةَ على الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، مستغيثين مِمَّا دهمهم من سُخْطِهِ ، مستقيلين لِعَثْرَاتِهِمْ لديه ، راغبين في صفحه وإِقَالَتِهِ ، فعطف عليهم وأَقَامَهُمْ زَلَّتُهُمْ ، وأجابهم إلى مسألتهم ، وأعطاهم ذِمَّتَهُ ، وجَدَّدَ لهم عَهْدَهُ .

(١) ص : برباط .

(٢) ص : فلنارم .

(٣) ربما كانت : فعاجله .

(٤) ص : المغرب .

وفي آخرها عاد موسى بن موسى القَسَوِيُّ إلى الخلاف ، وكشف وجهه بالمعصية ، فافسد ما حوالى مدينة تُطِيلَه ، وعاث حَوَزَ طَرَسُونَةَ (٢٦) و بُرْجَةَ (٢٧) ، وظاهره أخوه لِأُمِّهِ العِلْجُ ابن وَنْقَه (٢٨) بِبَنِيْلُونَةَ (١) ، فخرج إليه بالصائفة (٢) عَبَّاسُ بن الوليد المعروف بالطَّبْلِي (٢٩) ، فعاد إلى الطاعة ، واستقال الزَّلَّة ، وبذل اسماعيل (٣٠) ابْنَهُ رَهِيْنَةً ، فعاد الأمير إلى القَبُول منه ، والاستظهار عليه ، وأخرج / بَيْعَتَهُ وَالتَّوْتُقَ منه وَقَبَضَ رَهِيْنَتَهُ خالدين يحيى (٣١) ومحمد بن الوليد (٣٢) ومُطَرَفُ بن نُصَيْر (٣٣) ، فَتَمَمُوا سَلَمَهُ ، وتوثقوا من عهده ، وجدَّد له الأمير الولاية على تُطِيلَةَ ، ودخل أخوه العِلْجُ ابن وَنْقَه صاحب بنبلونة معه في الأمان ، وَقَبَضَ الأَمْنَاءُ المُخْرَجُونَ (٣) إلى موسى رهينته التي كانت ولده اسماعيل الذي هو لابْنَةُ عَمِّهِ مَيْمُونَةَ (٣٤) ، فأقبل عَبَّاسُ الطَّبْلِي (٤) بالعسكر إلى الحَضْرَةِ لتأخر الوقت عن دخول أرض الحرب ، وماتَوَّى اسماعيلُ بن موسى رهينة أبيه موسى في يد الأمير عبد الرحمن أن هرب من يده عن قرطبة حَانًا (٥) إلى ما فارقه من الشقاق ، ذاهلاً عما كان فيه من غضارة المعيشة ، لتوسعه في القطائع المُنِيْفَةِ والصَّلَاتِ الجَزَلَةِ ، فرفض ذلك كُلَّهُ ، وَسَمَا للمعصية ، وأمر الأمير بِقَصِّ أَثَرِهِ ، فلم يَبْعُدْ أَنْ جِيءَ به إليه من طريق الثَّغَر ، وقد انتهى إلى وادى آتَةَ (٣٥) فَقَبَضَ عليه هناك بَعْضُ من عرف خَبَرَهُ ، وردَّه للأمير عبد الرحمن بقرطبة ، فغفا عنه ، وأغضى عن زَلَّتِهِ ، وخلَّاه على ما كان عليه من سَعَةِ قَطَائِعِهِ .

وفيهَا سَيَّلَانَ عَظِيمَانِ بنهر قرطبة في شهر رجب القَمَرِيِّ الموافق لشهر يَنْبَرِ الشَّمْسِيِّ (٣٦) رأس سنة العَجَمِ بالآندلس ، عُدَا في أُمّهَاتِ السِيُول ، وحمل وادى شَنِيلَ أيضًا ، وَطَفَى مَدَّةً ، وأخرب حَنِيَّتَيْنِ من قنطرة مدينة لِسْتِجَةِ (٣٧) ، وَأَبْطَلَ عددًا من أَرْجَائِهَا ، وطمى السيل أيضًا بكورة لِشِبِيلِيَّةِ التي بها قراره ، فذهب مَدَّةً في مُجْتَمَعِهِ هناك بست عشرة قرية ما بين البحر وحاضرة لِشِبِيلِيَّةِ (٦) .

(١) ص : بنبلونة .

(٢) ص : الصائفة .

(٣) ص : الأبناء المخرجون .

(٤) كذا ، وستجى بعد في النص على هذه الصورة أيضا ، وقد سبق أن وردت هذه النسبة هكذا : الطبل .

(٥) ص : حانا ، بلا إعجام ، وربما احتملت أن تكون أيضا : « خافا » أى مسرعا .

(٦) كلمتان مطموستان في الأصل ، لعلهما « هلك كل ما » أو شيء في هذا المعنى .

فيها من ناس وبهائم وأمتعة ، فكان ذلك حَدَثًا عظيمًا تحدث النَّاسُ عنه زمانا (٣٨) .
وفيها هلك الطاغية رُذْمِير بن أردميس (١) مَلِكُ الْجَلَالِيَّةِ (٣٩) ، قَوْلِي ابْنُهُ أَرْدُون ، وكانت ولاية رُذْمِير (٢) ثمانية أعوام .

سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها ورد كتاب للأمير [من] (٣) عُبَيْدِ اللَّهِ بن يحيى من الثغر الأعلى ، يذكر استغناؤه عن العِدَّةِ التي قد أَمَرَ باحتباسها قَبْلَهُ من الحَرَسِ (٤) (٤٠) ، واكتفائه (٥) بمائة وثلاثين غلاما ذكر أنهم معه من مواليه وغلماؤه ، يرضى بسالتهم ، ويحمد مذاهبهم ، ويسكن إليهم ، وَيَجْتَرِي بِخُدْمَتِهِمْ ، لما أصبح الثغر بحمد الله من السكون والهدوء ، ووَقَمَ العدو بحروب (٦) ، بارتضاء رأيهِ ، وإحماذ نظره ، وقدم مِقْنَبًا (٧) من قَبْلِهِ من فرسان الخُرْسِ إلى مرابطهم بالماء ، وأجرى القطائع / على عِدَّتِهِ تلك التي اقتصر عليها من الرواتب [١٩٠ ب]
والنفقات والعُلُوفَاتِ عليهم مما في يده من مال السلطان ، وَأَن يَصْرِفَ جميع ما يَقْبِضُهُ بالثغر من الجزاء والعُشُور وجميع الوظائف بعد إقامة سائر النفقات الرأبَّةِ إلى فكاك أسراهم ، وَحَمَلِ مُرْجَلِيهِمْ ، ومَرَمَةِ حصونهم ، ومصالح ثغورهم ، وكل ما فيه تقويتهم على عدوهم ، وَسَوَّغَهُ أَن يرتزق في كل شهر لِعِمَّالِهِ مما يجتبيهِ مائتي دينار دراهم ، وينهض معروفه للعام إلى ألف دينار مما يتقاضاه من جباية عمله ، فكان عمل الأمير عبد الرحمن ذلك بالثغر وأهله من جلائل مناقبه .

وفيها أَدَالَ (٨) الأمير عبد الرحمن ابْنُهُ الْحَكَمُ بن عبد الرحمن (٤١) عن ولاية كُورَةِ

(١) كذا في الأصل ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع وتحقيقنا لاسم هذا الملك المسيحي .

(٢) ص : ولايتاه أدير .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

(٤) كذا في الأصل ، ويرجح أن تكون « الحرس » ، ونرى أنها سترد هكذا بعد ذلك بسطور .

(٥) ص : واكتفاؤه .

(٦) يبدو أن كلمات سقطت في هذا الموضع مؤداها : فكتب إليه الأمير بارتضاء رأيهِ . . الخ .

(٧) ص : مقلب ، ولعلها كما أثبتنا ، والمقنب جماعة الفرسان .

(٨) ص : أَدَالَ ، وقد تكون أيضا « أزال » .

إِلْبِيرَة (٤٢) بأخيه عبد الله بن عبد الرحمن ، ووَلَّى الحكمَ كُورَة تَدْمِير (٤٣) ومعه سَعْدُ أَخُو خَزَر (١) لايفارقه (٤٤) . ثم عَزَلَ عبد الله بن عبد الرحمن عن كورة إلبيرة فيها ، فأعاد أخاه الحكم إليها .

ولم يُخْرِجْ إلى كورة تدمير في هذه السنة وَلَدًا له على عادته لإمحالٍ نالها في هذا العام . وفيها صَرَفَ الأمير عبد الرحمن (٢) عن كورة رِيَّة (٤٥) ، وصرف خَزَرَ (٤٦) المَوَلَى الملازم له معه .

وفيها ثار حبيب البرنُسيُّ بجبالِ الجزيرة الخضراء (٤٧) ، واجتمع له خلقٌ من أهل الفساد في الأرض ، فشنَّ بهم الغارةَ على قرى رِيَّة وغيرها ، فأشاع الأذى ، ونهب وقتل وسبى ، فأخرج الأمير عبد الرحمن عند ذلك الخيل مع عَبَّاس بن مَضَا ، فألفى أضداده قد قصدوا حبيبا وأصحابه ، فأوقعوا بهم وقصُوهم ، وقتلوا خلقا منهم ، وتفرقت بقيتهم ، فأنخنس حبيب رئيسهم في غمار الناس ، وطُفِئَتْ نَائِرَتُهُ ، وَطُلِبَ دَهْرًا فلم يُظْفَرْ به (٤٨) .

(١) ص : أخزر ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، وسيأتي الاسم على هذه الصورة بعد سطور .

(٢) يبدو أن اسم عامل عبد الرحمن على كورة رية الذي عزل عنها في هذه السنة قد سقط من هذا الموضع .

ذِكْرُ مَهْلِكِ نَصْرِ الْخَصِيِّ الْكَبِيرِ

خَلِيفَةُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ رَحِمَهُ اللَّهُ

وفي هذه السنة هلك أبو الفتح نصرُ الخصي (٤٩) ، خليفة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، المُقَدَّم على جميع خاصته ، المُدَبِّرُ لأمر داره ، المُشَارِكُ لأكابر وُزَرَائِهِ في تصرِيف مُلْكِهِ ، وكان مُلْكُهُ شبيه الفَجَاءَةِ في عَقَبِ شِعْبَانٍ من هذه السنة ، أَرْقَى ما كان في غلوائِهِ ، وَأَطْمَعَ ما هو بالاحتواء على أمر سلطانه ، أَرْهَبَ ما كان الناس له ، وَأَخَوْفَهُمْ لَعْدَوَانِهِ ، إِذْ نال من أَثَرَةِ مَوَلَاهُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ واصطفائه وإشراكه له في الرأى مع جلة وزرائِهِ ، وَطَوَّعَهُ كَثِيرًا إِلَى ما يخالِفُهُمْ فِيهِ ، فَوْقَ ما نالَهُ / خَادِمٌ خَاصٌّ مع أميرٍ رشيدٍ سَمِعَ عَنْهُ ، [١٩١] وله بذلك أَخْبَارٌ في الناس تُصَدِّقُ دَلَائِلَ تَحَقُّقِهِ ، سَمَّا بِهَا - زَعَمُوا - في باطنِهِ إِلَى غايةِ كَرِهَائِهِ اللَّهُ ، لِمُخْتَرَمَتِهِ دُونَهَا حِمَائِهِ ، فَقَضَى ذِمِّمًا مُسْتَرَاخًا مِنْهُ .

وَكَثُرَ الْقَوْلُ في السبب الذي أَرَادَهُ ، وَالْخَوْضُ فيما أَتَاهُ ، فَكَانَ مِنْ أَوْضَحِ ذَلِكَ ما ذَكَرَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْقَوَاطِيَّةِ (٥٠) ، قَالَ :

كَانَ نَصْرُ الْخَصِيِّ الْجَرِيءِ الْمُقَدَّمِ الْوَسَّاعُ الْفَهْمُ قَدْ غَلَبَ عَلَى قَلْبِ مَوَلَاهُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ وَاسْتَظْهَرَ عَلَى (١) حَرَّاصَةِ مَكَانِهِ لَدَيْهِ بِانْقِطَاعِهِ إِلَى حَظِيَّتِهِ ٢ طَرُوبِ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ ، الْغَالِبَةِ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ نَسَائِهِ (٥١) ، وَحَظَّهُ فِي شِعْبِهَا ، وَمِمَّا لَاتِهِ إِيَّاهَا عَلَى ما تَسَعَى لَهُ مِنْ تَقْدِيمِ وَلَدِهَا عَبْدِ اللَّهِ لِلأَمْرِ بَعْدَ الْأَمِيرِ أَبِيهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَرَاجِحِ الْأَكْبَرِينَ مِنْ وَلَدِهِ مَتَّى حَانَ حَبْنُهُ ، فَخَالَصَ السَّيِّدَةَ تَشْدِيدًا (٣) ، وَأَخْلَصَتْ لَهُ ، وَاسْتَوَى لَهُ بِذَلِكَ أَمْرُهُ ، وَأَصْبَحَ مُلْكُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِي يَدِهِ ، يَدْبِرُهُ كَيْفَ يَشَاءُ ، فَلَا يَرُدُّ أَمْرَهُ ، قَدْ أَجْهَدَ سَعْيَهُ آخِرَ أَمَدِهِ فِي جَهْرِهِ وَسِرِّهِ ، بِالتَّنْوِيهِ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِتَّةِ طَرُوبِ ، وَالْإِشَادَةِ بِذِكْرِهِ ،

(١) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(٢) ص : خطيئته .

(٣) كذا ، ولعلها شديدا .

واستألة طبقات الناس بالرغبة والرغبة إليه ، والعمل على اختزان الخلافة عن أخيه محمد ،
يُكْرِ والده الأمير عبد الرحمن ومُفَضِّلِهِمُ الْمُشَارِ إليه إلى خَالِفَتِهِمُ ابن طروب هذا ، وسوقها
إليه ، يتأتى لذلك وياتيه من جميع أبوابه ، والقضاء يُبْعِدهُ عنه ، ويسدُّ دونه طُرُقَهُ ،
وهو يَرُصِدُ لِوَجَبَةِ الأمير عبد الرحمن مَوْلَاهُ ، ليقضى في عبد الله قضاءه ، فيُمَلِّى لعبد الرحمن
ويستأخِرُ يومه ، فيشُقُّ ذلك على الخصى وَيَرْهَبُ قُوَّتَهُ ، حتى سَوَّلَتْ له نفسه اغتيالَ
مولاه عبد الرحمن ، ولطافَ التدبير عليه ، كما يتمكن من تقديم عبد الله مكانه ، ولا يهرب
الخُلَفَاءُ عليه ، لكثرة أنصاره من أهل الدار وغيرهم ، وفُشُوْ صناعته فيهم ، فيتم له بابن
طروب الاحتواء على الملك ويُوَخِّرُ عنه محمد المرشح له وَغَيْرُهُ مِمَّنْ (1) يَطْمَعُ فيه .

فَوَثَّقَ في ذلك بِالْحَرَائِي (٥٢) الطبيب ، وكان في عِدَادِ صناعته وَقَدَّرَ منه - مع الوفاء -
الشُّرَّةَ إلى ما يبدله له ، فخلاه به ، وذكره أياديه لديه ، وتدارسا (2) فما ينويه له ،
وقال له :

- هل لك في إحراز حُسْنِ رَأْيِي للأبد ، وَحَوَازِ جَزِيلِ صِلَتِي (3) لِلآخِرِ ؟
فقال له الْحَرَائِي :

- هذه هي المُنِيَّةُ التي لا ورائها طَلَبَةٌ ! فَمَنْ لِي بَنِيْلَهَا ؟
فقال له :

- هذه ألف دينار مُعَجَّلَةٌ بين يَدَيِ الْجَرِيِّ بالحاجة ، واعْمَلْ لِي سُورَ (٥٣) الملوك الذي
يُذَنِّبِي الْأَجَلَ (4) ، ويقلب الدُّوْلَ ، ودَعْنِي لِمَكَافَأَتِكَ إِن انْقَضَتْ حاجتي . فوالله لَأَتَجَاوَزَنَّ
بِهَا ظَنَّنَكَ !

فأراه القبول لما بَدَّلَهُ ، والقيام بما كَلَّفَهُ .

وخرج عنه وقد عَدَلَتْ الْبِدْرَتَانِ جَنَاحَيْهِ ، فَعَمَلَ ذَلِكَ الْخُلَطَاءُ بِاسْمِ الدُّوَاءِ الْمُسَهِّلِ

[١٩١ ب] كما رسمه له ، وأجهد رأيه في تقويته ، واحتال في أَنْ دَسَّ في خفية إلى « فَجَر » (٥٤) خَطِيئَةً

(1) ص : ما .

(2) ص : وتدارسا .

(3) ص : صِلَتِي .

(4) ص : مدني الأصل .

الأمير عبد الرحمن ضربة طروب مع بعض من كان يستطِب لها عنده من ثقات قهارميتها⁽¹⁾ يشير لها على ماذبر على الأمير من طريق العلاج ، ويأمرها أن تحذره من شرب ما يأتيه نصر به أو يرسله ، فوفاه جده بذلك ، وسقى الخصى معيناً له⁽²⁾ .

وقد كان الأمير شكا إلى نصر خلال ذلك خلطاً تحرك به عدل له عن أخذ الدواء الذى من عادته وإعداده ليوم فارقه على التوحش أمامه ، فكان من توطئة نصر لذلك ما قدرو أنه واقع به لا محالة⁽³⁾ . وبكر بذلك الخلط المسموم إلى الأمير فى اليوم الذى ربط فيه موعده ، فأصابه حلاًراً للذى سبق إليه ، فتعلل على نصر ، ووصف وعكاً طاف به ليلته ، فنكت⁽⁵⁾ ، فلا فضل فيها للدواء ، وأشار عليه بشربه ، إذ لم يزل كثيراً يسعده فى مثله ، فذ يعتذر بعدم التوحش له ، فزجره وقال :

— سبحان الله ! شئ اجتهدت لى فيه وألطفت تركيبه تخاف غائلته ؟ عزمتم لتشربته !
فعلم نصر أن خلافة لا يمكنه ، فشربه بين يديه ، واستأذنه فى الخروج إلى منزله ، فأمره ، فانطلق يركض وركضه يزيد شرا ، واستغاث بالحراني ، فعرفه بما جرى عليه ، والسم يجد به ، فقال له :

— عليك بلبن المعز ، فإن شربه يفتتر عنك !

ففرق غلماناه فى طلبه ، فعوجل قبل أن يؤتى به ، ومضى لسبيله .
فسر الناس بحتفه ، وأطبقوا على ذمه ، وقال يحيى الغزالى^(٥٥) عدوة الموتور من لدنه عند موته : [من البسيط] .

(1) ص : قهارميتها .

(2) كذا ، والجملة مضطربة بمض الشئ ، ولو أن المعنى المراد مفهوم ، فالمتصور أن الحراني أوحى إلى الأمير من طريق هذه القهرمانه ألا يتناول أى دواء يأتيه به نصر أو يرسله إليه وأن يعمل على أن يبدأ بسق نصر من هذا الدواء مشاركاً له ومعيناً قبل أن يدوقه الأمير ، فكان فى هذه النصيحة وقاية كبد الرحمن واستبقاء لحياته .

(3) ص : لا محالة به .

(4) ص : فكت .

(5) ص : مرة والتصويب فى الحاشية .

أَغْنَى أَبَا الْفَتْحِ مَا قَدْ كَانَ يَأْمُلُهُ
 مِنَ التَّصَانُعِ وَالتَّشْرِيفِ (1) لِلدُّورِ
 وَكُلِّ عَرَضٍ وَقَرَضٍ كَانَ يَجْمَعُهُ
 حُفَيْرَةٌ (2) حُفِرَتْ بَيْنَ الْمَقَابِيرِ
 لَمْ يَأْلَهَا الْقَوْمُ تَضْيِيقاً وَلَا وَقَعَتْ
 فِيهَا الْكَرَازِينُ إِلَّا بَعْدَ تَقْدِيرِ
 قَصَارٍ فِيهَا كَأَشَقَى الْعَالَمِينَ وَإِنْ
 لَفُوه (3) بِالنَّفْحِ فِي مِسْكِ وَكَافُورِ
 مَا الْعَرَفُ لَوْ أَخْبِرُونَا بَعْدَ ثَالِثَةِ
 إِلَّا كَعَرَفٍ سِوَاهُ الْمَنَاحِيرِ
 وَكَانَ أَزْمَعَ (4) شَيْئاً لَمْ تَكُنْ سَبَقَتْ
 بِهِ مِنَ اللَّهِ أَحْكَامُ الْمَقَادِيرِ
 إِذَا أَرَادَ الْإِلَهُ الشَّيْءَ كَوْنَهُ
 فَلَنْ يَضُرَّكَ فِيهِ سُوءُ تَدْبِيرِ
 وَذُكِرَ أَنَّ الْغَزَالَ أَنْذَرَ بِهَلِكِ نَصْرٍ هَذَا مِنْ طَرِيقِ النُّجْمِ قَبْلَ وَقُوعِهِ بِمَدَّةٍ ، فَقَالَ :
 [مِنَ الْكَامِلِ ، الضَّرْبُ الْأَحَدُ الْمَضْمَرُ] .

قُلْ لِلْفَتَى نَصْرُ أَبِي الْفَتْحِ إِنْ الْمُقَاتِلَ حَلَّ بِالنَّطْحِ
 وَأَرَاهُ قَهْقَرًا فِيهِ ثُمَّ مَضَى قُدُّمًا وَمُدْبِرًا (5) إِلَى الرُّمَحِ
 وَأَرَى النُّحُوسَ لَهُ مُسَاعِدَةً فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ وَأَقْبَلْنَ نُضْحِي
 وَوَجَدْتُ ذَلِكَ إِذْ (6) حَسَبْتُ لَهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى غَلَا الْقَمَحِ

(1) ص : التَّشْرِيفُ .

(2) ص : حُفْرَةٌ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ بِهَا الْوِزْنُ .

(3) ص : لَفُوه .

(4) ص : رَمَعَ

(5) إِذَا .

(6) كَذَا ، وَقَدْ تَكُونُ : وَمُدْبِرَةٌ .

وَنُزُولَ أَمْرِ لَا أُنْفُوهُ بِهِ لَوْ كَانَ يَبْلُغُ بِي إِلَى الرُّبْحِ
وَلِذَا رَأَيْتَ الْبَذَرَ فِي بُلْعٍ نَزَلَ الْقَضَاءُ بِأَنْبَرَحِ الْبَرْحِ
/ يَارُبُّ [طَالِعَةٍ] (1) الْمَشَاءُ أَتَتْ بِخِلَافِ ذَلِكَ (2) طَوَالِعِ فِي الصُّبْحِ
وَلَرُبُّ رَافِلَةٍ عَشِيَّتُهَا فِي الْوُثَى أَضَحَتْ وَهِيَ الْمِسْحِ
تَبْكِي عَلَى مَنْ كَانَ يُكْرِمُهَا نَحَاءَ بَيْنَ نَوَادِبِ نُحْ

[١٩٢]

وليجي الغزال في نصر - وذكر مسكنه بمُنْيَتِهِ (٥٦) إلى جانب مقابر الرِّبَضِ (٥٧)
والنهر - : [من الطويل] .

أَيَا لَاهِيًا فِي الْقَضْرِ قُرْبَ الْمَقَابِرِ
يَرَى كُلَّ يَوْمٍ وَارِدًا غَيْرَ صَادِرٍ
كَأَنَّكَ قَدْ أَيْقَنْتَ أَنَّ لَسْتَ صَائِرًا
غَدًا بَيْنَهُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحَفَائِرِ
تَرَاهُمْ فَتَلْهُو بِالشَّرَابِ وَبَعْضُ مَا
تَلَذُّ بِهِ مِنْ نَقْرِ تِلْكَ الْمَزَاهِرِ
وَمَا أَنْتَ بِالْمَغْبُونِ عَقْلًا وَلَا حِجَى
وَلَا بِقَلِيلِ الْعِلْمِ عِنْدَ التَّخَابُرِ
وَفِي ذَلِكَ مَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ وَاعِظٍ
شَفِيقٍ وَمَا أَغْنَاكَ عَنْ كُلِّ زَاجِرٍ
وَكَمْ نِعْمَةٍ يَعْصِي بِهَا الْعَبْدُ رَبَّهُ
وَبَلَوَى عَذَّتُهُ عَنْ رُكُوبِ الْكَبَائِرِ
سَتَرَحَلُّ عَنْ هَذَا وَلَئِنْكَ قَادِمٌ
وَمَا أَنْتَ فِي شَكٍّ عَلَى غَيْرِ عَادِرٍ (3)

(1) زيادة يقتضيها الوزن والمعنى .

(2) ص : ذلك ، ولا يستقيم بها الوزن .

(3) ص : غادر . وقد تكون أيضا « غافر » .

وقال يحيى الغزال عند ذِكْرِ الناس لانزال السلطان زُرِّيَاباً (٥٨) مُعْنِيَهُ فِي مُنِيَةِ نَصْرِ
الخصي أثيره بعد موته ، يذكر تَقْلُبَ الدنيا بأهلها : [من الخفيف] .

ذَكَرَ النَّاسُ ... (١) نَصْرٍ لَزْرِيَا ب وَأَهْلٌ لِنَيْلِهَا زُرِّيَابُ
هَكَذَا قَدَّرَ الْإِلَهُ وَقَدْ تَجَسَّرَ بِمَا لَا تَنْظُنُّهُ الْأَسْبَابُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا إِلَى مَسْكَنِ لَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا التُّرَابُ حِجَابُ
لَا يُجِيبُ الدَّاعِيَةَ فِيهِ وَلَا يَزُجُّ مِنْ عِنْدِهِ إِلَيْهِ جَوَابُ
وَتَغَانَتْ تِلْكَ الْمَرَائِبُ عَنْهُ وَأَمِيلَتْ إِلَى سِوَاهُ الرُّكَابُ
لَيْسَ مَعَهُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ قَدْ جُمِعَ إِلَّا ثَلَاثَةٌ أَثْوَابُ
وَتَلَاشَى جَمِيعُ ذَلِكَ فَلَمَّا يَبْقَى إِلَّا ثَوَابُهُ أَوْ عِقَابُ
عَسْكَرٍ جُنُّدُوا فَلَيْسَ بِمَا دُوْنَ لَهُمْ عَنْهُ أَنْ يَكُونَ الْحِسَابُ
فَرَأَيْتُ الرُّقَابَ مِنْ أَهْلِهِ ذَلَّلتْ وَعَزَّتْ مِنْ آخَرِينَ رِقَابُ
وَكَذَلِكَ الزَّمَانُ يَخْذُلُ فِي تَضَدٍّ رِيفِهِ الذُّلُّ وَالْبَلَاءُ وَالْخَرَابُ
لَتَعَجَّبْتُ وَالَّذِي مِنْهُ أُعْجِبْتُ إِذَا مَا نَظَرْتُ شَيْءٌ عَجَابُ
لَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُخَلَّدٌ لَا يُرَابُ
فَعَلُهُ بَعْدَهُ كَفَعَلِ امْرَأَةٍ لَيْسَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْمَمَاتِ حِسَابُ
وَلَعَقْلُ الْفَتَى صَحِيحٌ وَلَكِنْ حَيْرَتُهُ الْأَوْرَاقُ وَالْأَذْهَابُ

وحكى الحسن بن محمد بن مُفَرَّح (٥٩) في كتابه قصة مهلك نصر هذا ، فقال :

كان السبب في مهلك نصر الفتى الكبير الغالب على الأمير عبد الرحمن بن الحكم
[١٩٢ب] المظاهر لسيدته طروب حظية الأمير / عبد الرحمن على سوق الملك إلى ولدها منه عبد الله
المعزوه إليها أن عبد الرحمن التوى - بهما معاً في تقديم عبد الله على محمد أخيه أكبر ولده ،

(١) لم يترك الناسخ هنا بياضاً ، ولكن هناك يلغى أن تكون قد سقطت من هذا الموضع وإلا اختل الوزن والمعنى ،
ونرجح أنها « دار » ويدل على ذلك ضمير المؤنث الغائب في الشطر الثاني من البيت وفي البيت الثالث .

المُرَّشَح من بينهم للأمر ، لصدق نفسه على كون ما بينهما في الرَّجَاحَة والفضل ، وتغليبهِ لرأيه فيه على هواه ، لِمَعَصِيَّتِهِ لحظيته طروب . فلما أَعْيَا عليها وعلى نصر ظهيرها لَفْتُهُ⁽¹⁾ عن ذلك شَقَّ ذلك على نصر ، وفكر في سوء عاقبته مع محمد إن خَلَصَ له الأمر ، وقد كشف وجهه في صَدِّهِ عنه ، فذهب إلى احتيال الأمير مولاه كيما يتمكن من نَضْبِ عبد الله وَدَحْرِ⁽²⁾ محمد ، فَأَتَى الأمر من باب طبيب الأمير المعروف بالحراني ، وكان يثق به ، فخلا معه ، وقال له :

- ماترى رأيك في شئٍ تحوز به حُسْنَ رأيي ، وتعجيلَ العطاء الرغيبِ مني ، وتعتقد المِنَّةَ عَلَيَّ ؟ .

فقال :

- ياسيدي . بَعْضُ هذا غاية أُملي ! فكيف لي ببلوغه ؟ !

فقال له :

- فقد أَمَكَّنكَ ! فَخُذْ هذه الألف دينار ابتداءً ، فَأَصْلَحْ بها من شأنك ، وَاغْمَلْ لِي سَنُونَ الملوكة ، من أَجَلٍ ما تَقْدِرُ عَلَيْهِ وَأَوْحَاهُ فِعْلاً ، فَيَدُكَ فيما عندي منطلقة ! فَأَعِدَّهُ لِمِيقَاتِكَ الذي أَعَرَّفَكَ بِهِ .

فلم يخطر على عصيانهِ . وأراه الرغبة في صِلَتِهِ ، والحرص على قضاء حاجته ، وَقَبَضَ الألف منه ، وعمل له السَّنُونَ كما أَرَادَهُ .

واتفق أن شكَا الأمير إلى نصر فُتُوراً يَجِدُهُ ، فَأَشَارَ عليه بالدواء المُسَهِّل ، وكان من عادته ، فَذَكَرَهُ بِإِدْخَالِهِ ، وأوصل إليه طبيبه الحراني ، فوافقه على إدخال الدواء ، وَحَدَّ له تَقْدِيمَهُ ، ورسم له التَّوَحُّشَ لإِدْخَالِهِ ليوم سَمَاءُ ، فتقدم الأمير إلى نصر بِإِدْخَالِ الحراني إلى خزانة الطب ، وتمكينه مما يريد من أَخْلَاطِ دوائهِ لِيَقْبِيَهُ على حَدِّهِ ، فشرع الحراني في ذلك ، وَفَجَرُ ثِقَةِ الأمير تَطَالَعَهُ بوصاياه ، فَأَمَكَّنَتِ الحراني منها فرصةً أَوْحَى إليها

(1) من : لفته من عن . وكلمة عن هنا مقصدة لا موضع لما ولا منى .

(2) من : ودحو .

بشأن الدواء ، وسألها أن تُحَلِّزَ الأمير من شرب الدواء ، ففعلت ذلك خفية ، فحذر الأمير ، وطار بجناح الإشفاق عليه .

فلما غَدَا به نصر في اليوم الذي فارقه عليه أظهر الأمير الانكسار عنه ، ووصف عائفاً يمنعه منه ، وأمر لِجِينِهِ⁽¹⁾ نصراً بشربه ، فكأنه تَوَانَى إذ لم يَسْتَعِدْ له ، فأكرهه عليه ، وأسرع الخروج إلى داره ، وبادر الإرسالَ في الطبيب الحراني ، فَعَرَفَهُ ماجرى عليه ، واستغاثه ، فأمره أن يشرب لَبَنَ المَعِز ، قَالَ⁽²⁾ إلى أن طُلِبَ له وِجِيء به ، فأعجل عليه السَّم ، فمات ، ولم يشربه .

وذكر الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم (٦٠) أن نصراً هذا الذي إليه تُنَسَّبُ مُنِيَّةُ نصر - الأمير كان - عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكان من الفتيان المُنتَقَيْنَ الذين خَصَّاهُم⁽³⁾ أبوه الأمير الحكم من أبناء الناس الأحرار الذين تُعَبَّدُوا ليستخدمهم داخل قصره وأبوه المعروف بابي الشمول من أَسَالِمَةِ أَهْلِ الدِّمَةِ (٦١) من أهل قَرْمُونَةَ (٦٢) ، نال⁽⁴⁾ بابنه نصر دُنْيَا عريضة ، وكان موته قُبِيلَ مهلك نصر ابنه بأيام . وأخبار نصر كثيرة .

سنة سبع وثلاثين ومائتين

[١٩٣] / فيها كانت وقعة البَيْضَاء (٦٣) ، والبيضاء مجاورة لمدينة بَقِيرَةَ (٦٤) من بَلَدِ بَنِي لُونَةَ بين المسلمين والكفرة الجاشقيين (٦٥) ، فكان اليومُ الأوَّلُ منها على المسلمين ، فاستشهد منهم جماعةٌ ، ونالت فيه موسى بن موسى خمس وثلاثون وخزعةً تخلَّلتَ حَلَقَ دِرْعِهِ ، واليوم الثاني كافحهم المسلمون ، وقد أخذ المقدمة موسى بن موسى مُتَحَامِلًا لَأَلَمِ جراحه ، فحامى⁽⁵⁾ على المسلمين ، وحَسُنَ غَنَاؤُهُ ، فَهُزِمَ الجاشقيون أعداء الله أفحشَ هزيمة ، وَفُرِشَتِ الأَرْضُ بِصَرَغَاهِم (٦٦) .

(1) ص : الحنية .

(2) ص : قال .

(3) ص : حظاهم .

(4) ص : زال .

(5) ص : محابة ، وقد قرأها ليلى بروفنسال : محاميا (وذلك في نشره لهذه الفقرة فيما قام بانتخابه من نصوص « المقتبس » هو والمستشرق الإسباني فرسيه غومس في مقالهما الذي سبق أن أشرنا إليه في مجلة الأندلس ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٣٠٦)

وفيه هلك يَنْقُة بن يَنْقُة أخو موسى بن موسى لأمه وظهره على أمره ، وكان قد أصابه فالج عطله إلى أن مضى لسبيله (٦٧) ، فَوَلَّى مكانه ابنه غَرْسِيَّة ، واستمَلَكَتْ (١) له إمارة بنبلونة (٦٨) .

وفيه في أيام ولاية عبيد الله بن يحيى للشعر قام بناحيته رجلٌ من المعلمين ، فادَّعى النبوة ، وألحد في القرآن ، فأحاله عن وجوهه ، وأوله على غير تأويله ، وقام معه خلقٌ كثير . وكان ينهى عن قصّ الشارب والأظفار ، ويقول « لا تغيير لخلق الله » ، فأرسل عبيد الله مَنْ جاء به ، فلما دخل عليه وكشفه كان أول ما ابتدأه به أن دعاه إلى اتِّباعه ، فاستشار فيه عبيدُ الله أهل العلم عنده ، فأشاروا باستتابته ثلاثة أيام ، فإن تاب وإلا قتل ، ففعل به ذلك ، فلم يَتَّبْ ، فأُسلِمَ للقتل صلباً ، فجعل يقول : « أَتَقْتُلُون رجلاً أن يقول ربِّي الله » ؟ فأمضى عبيد الله قتله بالفتوى ، وكتب إلى الأمير بأمره ، فأُخمدَ فعله (٦٩) .

وفيه أبتدئ بعذاب عَبَّاس الطَّلَبِي وأخيه ، ووليد بن أبي لُحمة في استخراج الأموال التي غلُّوها بدفاع نصر الخصى عنهم ، إذا كانوا صنائعه وبطانتَه ، فلجَّوا (٢) بالمال ، وشدَّ عليهم العقاب .

وفيه أيضاً قُبِضَ على مَسْرَةِ الخصى الفتي الكبير وعباس أخيه ، فسجنا ، وذلك في صفر منها ، وصيِّرَ مكان مسرة قاسم الخصى الصَّقْلِي (٣) ، وذكرَ أنه وُجِدَ لمسرة ثمانية آلاف دينار دراهم (٤) .

وفيه عَزَلَ الأميرُ عبدُ الرحمن محمدَ بنَ زياد عن القضاء بقرطبة ووَلَّى مكانه سعيد (٥) ابن سليمان بن حبيب الغافقي مجموعاً له إلى الصلاة ، وذلك في ربيع الآخر منها ، فكان آخر قضاء الأمير عبد الرحمن .

(١) ص : واستمَلَكَتْ ، وهكذا قرأها ليني بروفنسال ، ونظن أن الصواب ما أثبتناه .

(٢) (٣) يحتمل أيضاً أن تكون « الصقل » .

(٢) ص : فلموا .

(٥) ص : محمد ، وهو خطأ من الناسخ صوابه ما أثبتنا .

(٤) ص : درهم .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين

وفيها تُوفِّي الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك / بن مروان ليلة الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من هذه السنة ، فدفن يوم الخميس في تربة الخلفاء (٧١) بقصر قرطبة . وأدلاه في قبره أخواه المغيرة وأمية (٧٢) ، وصلى عليه ابنه الخليفة محمد بن عبد الرحمن .

مولده بطليلة في شعبان سنة ست وسبعين ومائة ، وأبوه الحكم يومئذ واليها لوالده (١) الأمير هشام ، فكانت سنة اثنتين وستين سنة . وكانت خلافته إحدى (٢) وثلاثين سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

وقال الحسن بن محمد بن مفرج :

قال ابن عبد البر (٧٣) : توفي الأمير عبد الرحمن ليلة الخميس لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين .

وقيل : بل هي لثلاث خلون منه ، فكانت خلافته إحدى وثلاثين سنة وثمانية وعشرين يوما . وقيل : بل خمسة أشهر وقيل : ثلاثة أشهر وأربعة أيام . وقيل : سنة أيام .

فدفن يوم الخميس من غد ليلة موته في روضة الخلفاء سلفه بقصر قرطبة ، وصلى عليه ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن الوالي مكانه . وكانت سنة اثنتين وستين سنة . ومولده بطليطلة من الثغر الأدنى أيام كان والده الحكم بن هشام والياً عليها لجده هشام ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين ومائة .

قال الفقيه محمد بن وضاح (٧٤) :

احتجب الأمير عبد الرحمن بن الحكم عن الناس قبل موته مدة من ثلاثة أعوام أو نحوها من أجل علة أصابته طالت به واشتدت عليه ، فحمت الحركة ، وهدت قوته ،

(١) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(٢) ص : أحد .

وأحدثت عليه رقعة في (1) نفسه ، ووخشة في خاطره ، وشدة أسفٍ على ما نُغص عليه من عصارة ملكه .

فذكر أنه قال يوماً لأكابر خدَمَتِهِ الخاصة ، وقد حَفَّوه في مرضه ، وفيهم سَعْدُون زعيمهم الذي اختصه بعد مهلك حَظِيَّةٍ نَصْرٍ ومن يليه :

- يابني ١ - وبذلك كان يخاطبهم مُستَلْطِفاً لهم ومُرفِقا بهم - لقد اشتقتُ أن أعاينَ ضَوْءَ الدنيا وفُسْحَةَ الأرض ، إذ قد حُبِيتُ عن الخروج إليها ، فَلَعَلَّنِي أَعْلُو مَرْقَبَةٍ يسافر بصري فيها ، فَأَتَسَلَّى بالنظر إلى بسيطها ، وجِسمي مُنَزَّع ، فَهَلْ سَبِيلٌ إلى ذلك ؟

فقالوا له : نعم يا مولانا .

وابتدر أكابرهم لإنفاذ أمره ، فأخذوا سرير خَيْرَ زَانٍ لطيفاً ، وثيق الصَّنعة من أسرة الخلافة ، ووضعوا فوقه فراشاً خفيفاً وثيراً حَشَوُهُ الريش ، أجلسوه فوقه ، واحتملوه على أعناقهم ، فصعدوا به إلى العُلِّيَّة على هيئته التي كانت من بنيان الأمير على باب الجَنَان (٧٥) من أبواب القصر القبليَّة ، ثم هبطوا كذلك ، فعانوا ذلك مرات يسوقون به (2) الأمير في تعاريج دَرَجَةِ الدائرة ، حتى استوى لهم ذلك كما أرادوه ، وأمِنُوا على الأمير المشقة فيه .

فوضَّعُوا الأمير عبد الرحمن عند ذلك فوق ذلك الفراش ، وشَدُّوه من جهاته ، واستوثقوا من اضطرابه ، وصعدوا به هَوْنًا ؛ حتى صَيَّرُوهُ بأعلى تلك العُلِّيَّة ، فأجلسوه صَدْرَها ، وأذَنُوهُ إلى الباب الأوسط منها ، فأشرف على صحراء الرَبَضِ قُدَّامَ باب القصر ؛ [١٩٤] / وَسَرَّحَ (3) بَصْرَهُ فيها ، ورآها إلى كُنْدَى الْقَبَائِيَّةِ (٧٦) ، ونظر إلى النهر أمامه ، والسُّفُنُ تجري فيه صاعدةً ونازلةً .

فاشترَوَحَتْ نفسه ، وانشرح صدره ، وشَكَرَ لخدَمِهِ ما تجشَّموه من إدنائِهِ من مَسَرَّوِهِ وقال لهم :

(1) هذا اللفظ مكرر في الأصل .

(2) كلمة غير واضحة في الأصل ، وربما كانت « فراش » ، أو شيئاً بمعنى « واحداً منهم مكان » .

(3) ص : وشرح .

— يا أولادى ! اجلسوا الآن حولى ، وأنسوني بكلامكم ، ومتعوني بأحاديثكم ، ولا تنقبضوا عني بشئ مما تتحدثون به بينكم إذا انفردتم ، كما أشتغل بذلك عما أقاسيه من علتي .
ف فعلوا ، وأنس هو بذلك وانبسط ، وقطع أكثر نهاره في تلك العلية . ودنا المساء ، فدعوه إلى النزول إلى مجلسه ، فبيناه يتهيا لذلك ، إذ وقعت عينه في الصحراء قدأمه على قطيع شاء وهى ترعى في منحدرها ، ولم ير معها راع يسوقها ، فقال لهم :
— يا أولادى ! ما بال هذه الغنم مهملة ولا راعي لها ؟ فتأملوا فقالوا :
— يا مولانا هاك راعيها قاعد إلى جانبها مستريح في قىء جنان طروب تجاهه ، يتملى (1) في انحدارها .

فقال :

— لعا (2) ! .

ثم أثبت بصره في تلك الغنم ، فتنفّس الصعداء ، وأرسل عبرته يبكي (3) حتى أخضل لحيته ، وقال :

— وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعى ولا أنشب فيما نشبت من الدنيا ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدت !

ثم استغفر الله كثيراً ودعاه . ونزلوا به إلى مهاده ، فلم تطل فيما بعد نهاره هنا حياته .

وذكر أحمد بن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٧٧) قال :

اعتل جدى الأمير عبد الرحمن علته التى توفى فيها ، فطاوَلته ونهكته ، وماطلته مدة :
تارة تخف عنه ، وتارة تُثقله (4) ، فيركس ويضعف ، وينيبوا العلاج عنه على اجتهد أطبائه في التماس شفائه ، فنعى (5) عليهم وقت سقامه . فلما كان قبل وفاته بأربعة أيام أو نحوها انحط مرضه ، وتحركت له قوة (6) خال بها أنه ميل من ضناه ، فأمر بأن

(1) كلمة مطبوسة في الأصل تختمل أن تكون « يتأمل » أو ما أثبتناه ومعناها يتمتع بالنظر إليها .

(2) ص : له ، والنصوب في الحاشية ، ولما دعاه له بأن يستقل من عثرته .

(3) ص : تبكى .

(4) ص : لقة .

(5) كذا ، وقد تكون « فعى » أى غنى عليهم وغنى .

(6) ص : قوته .

يصلح له الحَمَام ، ويُعَدِّل مِزَاجَهُ ، فَاحْتَمَّ فِيهِ ، وَأَجَدَّ خِضَابَهُ ، وَكَانَ يُوَالِيهِ وَيُجَمِّلُ بِهِ ، وَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِالرَّكُوبِ مَعَ عِيَالِهِ طَلِبَ النَّزْهَةِ ، وَهُوَ يَأْمُلُ الْإِنْظَارَ ، وَالْمَوْتَ أَدْنَى إِلَيْهِ مِنْ وَرِيدِهِ .

فلما عزم على إتيان مَاسَوَلَتْ له نَفْسُهُ مِنْ ذَلِكَ دَعَا حَاجِبَهُ عِيسَى بْنَ شُهَيْدٍ (٧٨) ، وَكَانَ خَفِيفًا عَلَى قَلْبِهِ ، فَأَوْصَلَهُ إِلَى نَفْسِهِ صَبِيحَةَ الْيَوْمِ الَّذِي قَضَى نَحْبَهُ فِي آخِرِهِ ، فَبَشَّرَهُ بِتَخْفِيفِ مَرَضِهِ وَانْبِعَاطِ نَشَاطِهِ ، وَقَالَ لَهُ :

— كَيْفَ تَرَى خِضَابَنَا يَا عِيسَى ؟

[فَقَالَ لَهُ] (١) :

— أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ سَيِّدِي ! أَحْسَنُ خِضَابٍ رَأَيْتُ قَطُّ ، وَأَدْلُهُ عَلَى انْتِعَاشِ سَيِّدِي وَاقْتِيَامِهِ (٢) الْبَقَاءَ بِخُلُوصِ الْقَمَرِ مِنْ انْكَسَافِهِ بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى رَعِيَّتِهِ .
فَسَرَّهُ قَوْلُهُ وَقَالَ لَهُ :

— إِنَّ بَعْضَ كَرَائِمِنَا سَأَلَنَنَا تَجْدِيدَ الْعَهْدِ لِلدِّهْنِ بِالرَّكُوبِ مَعَهُنَّ لِلنَّزْهَةِ عَلَى مَقْتَضَى (٣) الْعَادَةِ ، فَاخْرُجْ مِنْ فُورِكَ ، فَانْظُرْ فِي إِقَامَةِ مَا يُخْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَزْهَتِنَا عَلَى أَتَمِّ رَسُومِهَا (٤) ، وَاعْجَلْ بِذَلِكَ ، فَإِنَّا مَتَحَرِّكُونَ صَبِيحَةَ غَدٍ (٥) بِحَوْلِ اللَّهِ .

فَمَضَى عِيسَى لَشَأْنِهِ ، وَقَالَ الْأَمِيرُ لِلرَّاشِدَةِ (٧٩) الْقَائِمَةِ عَلَى رَأْسِهِ :

— أَذْخُلِي إِلَى خَزَانَةِ الْكِسْوَةِ ، فَمَرِّبِيهَا أَنْ تَتَخَيَّرَ لَنَا مِمَّا عِنْدَنَا مِنَ الْوَشْيِ رَدَاءَ يُوسُفِيًّا مِنْ أَفْخَرِ نَوْعِهِ ، فَجِئِينَا بِهِ .

فَمَضَتْ الرَّاشِدَةُ وَجَاءَتْهُ بِرَدَاءِ يُوسُفَى مُعَمَّرٍ ، لَمْ تَرَ الْعَيُونَ آتَقَ مِنْهُ / ، فَأَمَرَ بَعْضَ [١٩٤ب].

(١) زيادة يقتضيا السياق .

(٢) كَذَا ، وَقَدْ تَكُونُ « وَاعْتِيَامِهِ » أَيْ اخْتِيَارِهِ وَإِيْثَارِهِ .

(٣) ص : مَعَى .

(٤) ص : رَسُومِهَا .

(٥) ص : غَدًا .

أكابر الخدم أن تُخرجهُ إلى عَرِيف الخياطين (٨٠) بالقصر ، فليَقْطَعُهُ ثَوْباً لِلْبُوسَةِ ، وَيَتَّخِذَ مِنْهُ قَلَنْسُوءَ لِحَاجِبِهِ عِيسَى كَمَا يَلْبَسَاهُ جَمِيعاً لِرُكُوبِهِمَا صَبِيحَةَ غَدِهِمَا ، وَيَجْمَعُ الصَّنَاعَ عَلَى إِمْتَامِهِمَا لِلْبُوسِيهِمَا ، فَعَادَ إِلَيْهِ الْخَادِمُ بِجَوَابِ عَرِيفِ الْخِيَّاطِينَ ، فَذَكَرَ أَنَّ خِيَّاطَةَ الْجِلْدِ لَا تُمْكِنُهُمْ فِي مِثْلِ الْوَقْتِ الَّذِي حَدَّهُ ، لِدِقَّةِ صَنْعَةِ الثَّوبِ وَالْإِنَاءِ لِنَقْشِهِ ، وَتَعَذُّرِ جَمْعِ (١) الْأَيْدَى عَلَيْهِ ، فَضْلاً عَنْ عَمَلِ الْقَلَنْسُوءِ الَّتِي يَسْتَأْنِفُ تَجْسِيدَهَا لِحَاجِبِهِ مِنْ قُضْلِ الثَّوبِ ، وَلَا بُدَّ مِنَ الِاسْتِئْذَانِ بِهَا .

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْأَمِيرِ وَكَسَرَ مِنْهُ حَتَّى ثَنَاهُ حَاجِبُهُ عِيسَى عَنْ ذَلِكَ بِلُطْفِهِ ، وَهَوَّنَ عَلَيْهِ الْخَطْبَ ، وَقَالَ لَهُ .

— فِي الَّذِي تَحْوِيهِ خِزَانَةُ الْأَمِيرِ مِنَ الثِّيَابِ وَرَفِيعِ الْقَلَانِسِ مَا فِيهِ مَنَدُوحَةٌ عَنْ اسْتِكْدَادِ هَذَا الثَّوبِ الَّذِي لَا يَوْمَنْهُ الْخَطَّاءُ فِي حَتِّهِ ، وَلَنْ يَفُوتَهُ نَيْلُ مَا قَامَ فِي خَاطِرِهِ مِنْهُ ، لِأَقْرَبِ مَدَاهِ (٢) بِحَوْلِ اللَّهِ ، وَتَجَاوُزِهِ بِالْإِبْلَاءِ إِلَى مَا سَوَاهُ ، كَمَا أَنَّ عِنْدِي مِنْ جَلِيلِ (٣) خِلْعَةٍ وَرَفِيعِ قَلَانِسَةٍ مَا أَسْرَهُ بِالتَّجَمُّلِ بِهِ فِي خِدْمَتِهِ . فَلْيَضَعْ عَنْ نَفْسِهِ الْعَزِيزَةَ كُلْفَةَ هَذَا فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ الضَّيِّقِ ، وَلْيَنْفِذْ عَزْمَهُ فِي تَفْرِيجِ نَفْسِهِ بِنُزْهَتِهِ .

فَوَضَعَ ذَلِكَ الرُّدَاءَ عَلَى كُرْسِيِّ فِي الْمَجْلِسِ (٤) ... الْإِضْرَابَ عَنْهُ ، وَالْعَمَلَ عَلَى الْحَرَكَةِ صَبِيحَةَ غَدٍ . فَنَظَرَ عِيسَى فِيهَا أَمْرَهُ بِهِ ، وَهَيَّأَهُ عَلَى رُؤُوسِهِ ، وَانْقَضَى نَهَارُهُمْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا (٥) أَنْ صَلَّى الْأَمِيرُ الْمَغْرِبَ ، فَانْتَكَلَتْ مَرِيرَتُهُ ، وَثَارَتْ عِلَّتُهُ ، وَخَضِرَتْ حِمَامَتُهُ ، فَتَهَوَّعَ ، وَدَعَا بِالطُّسْتِ ، فَقَاءَ دُمّاً غَبِيظاً ، وَعَاوَدَ ذَلِكَ مِرَاراً ، فَلَمْ يُقْلِعْ عَنْهُ وَجَعُهُ حَتَّى لَفِظَ نَفْسَهُ ، وَقَضَى نَحْبَهُ . وَقَعَدَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ مِنْ لَيْلَتِهِ مَكَانَهُ ، فَتَنَظَّرَ إِلَى ذَلِكَ الثَّوبِ الْمَوْشَى الْمُرْجَى قَطْعُهُ مَوْضِعاً عَلَى الْكُرْسِيِّ ، فَعَرَّفَ شَأْنَهُ مَعَ وَالِدِهِ مَسَاءَ لَيْلَتِهِ ، فَعَجِبَ وَقَالَ :

(١) ص : جَمِيع .

(٢) يَمَعُهَا فِي الْأَصْلِ كَلِمَةُ « اللَّهُ » ، وَلَفْظُ الْجَلَالَةِ هُنَا زَائِدٌ لَا مَوْضِعَ لَهُ .

(٣) « مِنْ جَلِيلٍ » مَكْرُورَةٌ فِي الْأَصْلِ .

(٤) يَبْدُو أَنَّ شَيْئاً سَقَطَ هُنَا مَوْدَاهُ : « وَعَزَمَ عَلَى الْإِضْرَابِ عَنْهُ . . . الْبُغْ » .

(٥) ص : إِلَى .

- لِيَصِرَ كَفَنَ الْأَمِيرِ نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ !

فَعْمِلَ ذَلِكَ بِهِ وَأَصْبَحَ حَدِيثُهُ مَوْعِظَةً لِمَنْ سَمِعَ بِهِ .

صفة الأمير عبد الرحمن

عن أحمد بن محمد الرازي (٨١) :

كَانَ أَشْمًا أَقْنَى أَغْيَنَ أَسْوَدَ الْعَيْنَيْنِ ، طَوَالَ فَخْمٌ ، مُسْبِلٌ ، عَظِيمُ اللَّحْيَةِ ، يَخْضِبُ بِالْحِنَاءِ .

نَقَشَ خَاتَمُهُ : « عَبْدُ الرَّحْمَنِ بِقِضَاءِ اللَّهِ رَاضٍ » . وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتَنْقَشَهُ (٨٢) ، وَقَدْ مَضَى خَبْرُهُ .

تسمية ذكور أولاده

وهم في عدد الرازي أربعون (٨٣) .

أولهم الأمير محمد الوالي بعده ، أبو العاصي الحكم الاشتياقي^(١) (٨٤) ، أبو أيوب سليمان ، أبو القاسم المطرف (٨٥) ، أبو الحكم المنذر (٨٦) ، أبو الوليد هشام (٨٧) ، أبو بكر يحيى ، أبو عبد الملك مروان ، أبو عثمان ، (٨٨) ، أبو سعيد مسلمة ، أمية ، عبد الملك ، الأصمغ ، أبو مروان عبيد الله ، [أبو] معاوية سعيد (٨٩) ، أبو العاصي بكر أبو الأصمغ عبد العزيز ، أبو أمية العاصي ، أبو محمد عبد الله (٩٠) ، أبو خفص عمر ، الأخرج طريف ، أبو العباس الوليد ، أبو العاصي عبد الجبار ، أبو عبد الله أحمد ، أبو (٩١) (٢) ، أبو القاسم العباس ، أبو محمد موسى ، القاسم ، أبو القاسم اسماعيل ، أبو خالد يزيد ، أبو الوليد / [١٩٥] إسحاق ، والغمر شقيقه ، أبو القاسم عبد الواحد ، أبو إسحاق إبراهيم ، أبو القاسم عمرو ، يعقوب ، أبو عبد الملك المغيرة ، أبو الأصمغ عثمان ، الغريض (٩٢) .

وفي كتاب معاوية بن هشام الشبينسي (٩٣) قال :

(١) كذا ، ولعل « الاشتياقي » لقب نبز به .

(٢) بقية هذه الكلمة مطبوعة ، ونرجح أنها « أبان » إذ أن هذا هو اسم واحد من أبناء عبد الرحمن بن الحكم نص عليه ابن الأبار في « الحلة السراء » ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٣ ١ / ١٢٦ ، ٢ / ٣٦٦ . ولم يذكر أبان المشار إليه هنا ، ولعله هو الذي يبق الحرفان الأولان من اسمه .

من نُبَهَاء وَلَدَ الأمير عبد الرحمن أبو قُصَيٍّ يعقوبٌ ، وكان أديبا شاعرا كَلَفًا بالعلوم
جامعا للآداب مطبوعا في الشعر ، وكان جوادا لا يُلَيِّقُ شيئا ، ويسرف حتى يُخِلُّ بنفسه .
وأخباره كثيرة .

قال حَيَّان :

وصفه بالشعر ، ثم لم يُنْشِدْ له منه ما يَصْدُقُ وَصْفَه ، بل أنشد ثلاثة أبيات من قصيدة
مدح بها ابن أخيه العاصي بن الأمير محمد بن عبد الرحمن (٩٤) ليست بظائل ، والأبيات :
[من الوافر]

يُنَادِي ماجِداً مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ كَرِيمَ الْفَرَحِ مِفْضَالَ الْبَيْتَيْنِ
سَمًا لِلْمَكْرُمَاتِ فَقَدْ حَوَاهَا بَهْدِيَّ وَخَطَّارِ رُدِّيْنِي
وغيثاً حين يَنْسُكُبُ لا الثَّرِيَّا به حاذتْ ولا نَوْءُ الْبُطَيْنِ

اضطرتته القافية إلى أن قرَنَ بين أغزر الأنواء وأنزَرَهَا ، فأحالَ جدا (٩٥).

والإناث في عدد الرازي ثلاث وأربعون ، وهن :

أَسْمَاءُ ، وعاتِكة ، وعائشة الغالبُ عليها عَيْشُونَة ، أم الأصْبَغ ، وأم هشام ، وفاطمة
الغالب عليها فُطَيْمَة ، وعَبْدَة ، وعبدَة أخرى ، وأمة العزيز ، وأم كلثوم ، وأم عمرو ،
زينب ، وأم هشام ، وعُبَيْدَة ، وناشدة ، وقسيمة ، عتيكة ، وكنزَة ، وعزيزة ، وأم حكيم
كلهن (٩٦) (١) ، ومَيْمَة ، ولّادة ، وأمُّ أبين ، ولادة ، أمة الوهاب ، ظَبْي (٢) ، وأمة الرحيم ،
رقية ، أم عثمان ، أم موسى ، وأمة الرحمن ، رَحِيمَة ، هُشَيْمَة ، أمة الرحيم (٩٧) ، أمة
الملك ، والسيدة بُرَيْهَة ، تَمَلَّل ، والمثى ، حكيمَة ، أم سلمة ، آمنة ، والسيدة عَلِيَّة (٩٨) .
وزاد في عددهن معاوية بن هشام الشبيني نسبة أهل البيت بنتين : أمية (٣) ، ومهابة ،
فَرَقَى عددهن خمسا وأربعين بنتا .

(١) كذا في الأصل ، وانظر ما كتبناه في تحقيق هذه الكلمة .

(٢) ص : لظي .

(٣) كذا وردها كانت أمية أو آمنة .

حجاب الأمير عبد الرحمن

قال الرازي :

ألقى الأمير عبد الرحمن على حِجَابِه والده الأمير الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث (٩٩) أَكْمَلَ مِنْ حَمَلَ هَذَا الْاسْمِ وَأَجْمَعَهُمْ لِكُلِّ جَمْلَةٍ (١) حَسَنَةً ، فَأَقْرَأَهُ (٢) عَلَيْهَا إِلَى أَنْ تَوَفَّى عَبْدُ الْكَرِيمِ حَمِيداً فَقِيداً ، فَوُلِّيَ بَعْدَهُ حِجَابَتَهُ سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَبَعْدَ سُفْيَانَ عَيْسَى بْنُ شُهَيْدٍ ، ثُمَّ عَزَلَهُ بَعْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ رُسْتَمٍ ، ثُمَّ عَزَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ رُسْتَمٍ ، فَأَعَادَ عَيْسَى بْنُ شُهَيْدٍ إِلَى حِجَابَتِهِ ، فَتَوَلَّاهَا لَهُ إِلَى أَنْ هَلَكَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ لِسَبِيلِهِ .

سفیان بن عبد ربہ (١٠٠)

وافق الرازي فيما ذكره من أسماء هؤلاء الحُجَابِ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُفَرَّجٍ فِي كِتَابِهِ ، وَذَكَرَ سُفْيَانَ بْنَ عَبْدِ رَبِّهِ فَقَالَ :

كَانَ مِنْ أَكْبَرِ رِجَالِ أَهْلِ الْخِدْمَةِ الْكِفَاةِ الْمُسْتَقْلِينَ بِأَعْبَائِهَا مِنْ جَمْعٍ إِلَى الْغَنَاءِ وَالْكَفَايَةِ الْعَفَّةِ (٣) وَالْأَمَانَةِ ، قَدْ تَوَلَّى خِدْمَةَ الْخِزَانَةِ الْكُبْرَى (١٠١) أَيَّامَ الْأَمِيرِ الْحَكَمِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ اسْتُخْزِنَ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَحَمَلَ (٤) هَذَا الْاسْمَ الَّذِي اعْتَوَرَ مِنْ عَمَلِ عَمَلِهِ إِلَى الْيَوْمِ ، شَرَكَهُ فِي ذَلِكَ مَرْثِيلُ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ عَفَّانَ (١٠٢) جَدُّ هَؤُلَاءِ الْبَاقِينَ الْيَوْمِ إِلَى جَانِبِ بَابِ الْقَصْرِ الْأَكْبَرِ الْمَدْعُوِّ بِبَابِ السُّدَّةِ (١٠٣) / وَلَمْ يَزَلْ يَتَنَقَّلُ فِي مَرَاتِبِ الْخِدْمَةِ إِلَى أَنْ نَالَ الْحِجَابَةَ وَمِنْ وَلَدِهِ الْأَدِيبُ أَبُو الْأَسْوَدِ . وَكَانَ ذَا وَجَاهَةٍ عِنْدَ النَّاسِ ، حَدَّثَنَا (٥) مُؤَنَسُ الْعَجْلِسِ مِمَّا تَوَقَّيَ فِي أَيَّامِ الْخَلِيفَةِ النَّاصِرِ لِلدِّينِ اللَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

[١٩٥ب]

(١) كذا في الأصل ، وهي تحتل وجهها من التأويل ، وربما كانت « خصلة » .

(٢) ص : فائره .

(٣) ص : والعفة .

(٤) ص : وجمل .

(٥) ص : حدثنا ، ومعنى الحدث الذي يجيد الكلام في المجالس .

عيسى بن شهيد (١٠٤)

مولى معاوية بن مروان بن الحكم .

قال :

كان عيسى هذا منقطعاً إلى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحكم مؤملاً له ، فلما أفضى الأمر إليه أزلفه به ، وقدمه في عليّة خاصته ، وصرفه في عليّ مراتبها ، فولاه خُطّة الخيل (١٠٥) ، ثم استوزّره ، وولاه النظر في المظالم (١٠٦) وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ، ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه ، واشتخصه دون أصحابه ، وكان أهلاً لإيثاره ، إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة ، وهم متوافرون ، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم^(١) والمعرفة والحزم والجزالة . وقد قاد بالصوائف (١٠٧) ، فأخمدت سياسته ، وكانت له في التدبير آراء صائبة ، وفي الحروب مقاوم كريمة ، وتبيّأت له على العدو وقائع مثخنة .

وكان نصر الخصي خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب عليه من بين سائر أكابر خدّمه - المظاهر لحظّيته طروب الغالبة عليه من بين نسائه - قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه ، وشرك في تدبير ساطانه وهو شاحن لحاجبه عيسى عامل في إقصائه ، فتسبّى له ذلك عندما اعتلّ الأمير علته الطويلة التي حجبها فيها نصر ، وأنفذ عليه أموراً منكراً ، منها صرّفه لعيسى . هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الأمر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة (١٠٨) وإقراره على خُطّة الوزارة ، وتقليد عبد الرحمن بن رستم (١٠٩) الحجابة مكانه .

فجرى الأمر بذلك إلى أن استقلّ الأمير عبد الرحمن من علّته ، وقعد لأهلي خطّطه^(٢) ، فدخلوا عليه يتقدّمهم الوزراء ، وعيسى في عرضهم ، فتقدّم عبد الرحمن بن رستم جماعتهم في التسليم على الأمير ، ثم قعد فوق ابن شهيد ، فاستنكر الأمير ذلك ، فلما استقرّ بهم

(١) ص : والحلم .

(٢) موضع هذا اللفظ متآكل في الأصل ، ولعله كما أثبتنا ، وهو يحتمل أيضاً أن يكون « ملكته » .

المجلس قال لعيسى بن شهيد فيما يخاطبه به : ما شأن كذا ؟ - لأمرٍ سألَه عنه - ، فقال له : يامولاي ، لست بحاجب ، وهذا هو الحاجب . وأشار إلى ابن رستم . فَعَلَّتِ الأَمِيرَ عبد الرحمن كَبْرَةً ، وعرف من حيث أُنِي (١) ، فكظم غيظَه واصطبر .

فلما خرج الوزراء دعا بنصر ، فسأله عن عزل ابن شهيد ، وولاية ابن رستم ، فلم يُمكنهُ إنكارُه ، وادّعى أن وصيةً خَرَجَتْ إليه من لَدُنْهُ صَدَرَ عِلَّتِه ، فكذَّبَهُ الأَمِير ، وعَلِمَ أنها من تحامِلِه وجَسَرَاتِه ، فَسَبَّه وأَغْلَظَ له ، وهَمَّ به ، ثم عفا عنه ، وأعاد عيسى بن شهيد⁽²⁾ إلى الحجابة ، وعَزَلَ عنها عبد الرحمن بن رستم ، وَتَرَكَهُ على الوزارة ، فلم يزل عيسى بن شهيد⁽²⁾ حاجباً للأَمِير عبد الرحمن بن الحكم إلى أن توفي الأَمِير عبد الرحمن ، فأَمْضاه عليها محمد وَلَدُهُ الرَّاقِي بعده على الحجابة خمسة أعوام⁽³⁾ إلى أن هلك عيسى صَدَرَ/ دولة الأَمِير محمد سنة ثلاث وأربعين ومائتين ، وقد استكمل في ولايته في الدولتين [٩٦] عشرين سنة .

وقال أبو بكر بن القُوطِيَّة :

لما توفي الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد مُغِيثَ صَدَرَ دولة الأَمِير عبد الرحمن تنافَسَ الوزراء كُلُّهُمْ في خُطَّةِ الحِجَابَةِ بَعْدَه ، وَكُدُّوا بالوسائل والشَّفَاعَاتِ حتى أَضْجَرُوهُ ، فَأَقْسَمَ أو اعتقد ألا يُؤَلِّيَهَا واحِداً منهم ، وَعَطَّلَهَا مدَّةً ، ثم صَيَّرَهَا إلى رجل⁽⁴⁾ من أَقَادِمِ صنائِعِه كان له اتصالٌ به قَبْلَ الخِلافةِ أَخْطَاهُ⁽⁵⁾ لَدَيْهِ اسمه سُفْيَان بن عبد رَبِّهِ ، أَصْلُهُ من بَرَابِرِ بَيَّانَةَ (١١٠) ، لم يكن له قِدَمٌ ، وكانت له يَفِضَةٌ ومعرفة ، فتولَّى حِجَابَتَهُ أَعْوَاماً إلى أن مات ، فَوَلَّى عبده عبد الرحمن بن غانم (١١١) ، [ثم مات بن غانم]⁽⁶⁾ أيضاً ، فصارت الحِجَابَةُ إلى عيسى بن شُهَيْدٍ ، ثم إلى عبد الرحمن بن رستم يداوُلُ الأمرَ بينهما ، إلى أن

(1) ص : أوق . (2) ص : شهيب . (3) ص : أيام .

(4) ص : راجل . (5) ص : أحضاه .

(6) يبدو من السياق أن كلمات سقطت من الأصل في هذا الموضع ، ولعلها ما أثبتنا بين الحاصرتين أو شيء في هذا المعنى . ويؤكد لنا ذلك نص ابن القوطية في تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦٢ .

مات ابن رستم ، فاتصلت الحجابة لعيسى بن شهيد بَقِيَّة⁽¹⁾ أيام الأمير عبد الرحمن . فلما ولى ابنه الأمير محمد أقرَّ ابنَ شهيد خمسة أعوام (١١٢) إلى أن توفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين .

وزراء الأمير عبد الرحمن

قال أحمد بن محمد (١١٣) :

كان وزراء الأمير عبد الرحمن : العبَّاس بن عبد الله القرشي (١١٤) ، الوليد بن عبد الله القرشي (١١٥) ، عبيد الله بن يحيى بن خالد ، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب القائد الكاتب ، عبد الرؤوف بن عبد السلام (١١٦) ، عيسى بن شهيد الحاجب ، عبد الرحمن ابن رستم الحاجب ، محمد بن السليم (١١٧) ، وكانت له مع الوزارة خِطَطٌ يرتزق عليها في كل شهر ثلاثمائة دينار ، محمد بن عبد السلام⁽²⁾ بن بسيل (١١٨) ، وكانت تلك سبيلَه ، عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني (١١٩) ، وكانت أرزاقه تنتهي إلى العدد المذكور ، عبد العزيز ابن هاشم بن خالد (١٢٠) ، وكانت أرزاقه أيضا عظيمة ، عبد الرحمن بن عبد الحميد بن عبد الحميد بن غانم ، محمد بن كُليب بن ثعلبة ، وكان قبل وزارته على الشرطة ، يوسف ابن بُخْت (١٢١) ، عبد الله بن أمية بن يزيد (١٢٢) ، حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة (١٢٣) .

قال ابن القوطية :

والأمير عبد الرحمن أولُّ من ألزَمَ هؤلاء الوزراء الاختلافَ إلى القصر كُلِّ يوم ، والتكلمَ معهم في الرأي ، والمشورة لهم في التَّوَاذِلِ ، وأفردهم ببيتٍ رفيعٍ داخلَ قَصْرِهِ مخصصٍ بهم يقصِدُونَ إليه ويجلسون فيه فوق أرائكٍ قد نُصِدتْ لهم ، يستدعيهم إذا شاء إلى مجلسه جماعةً وأشتاتا ، يخوضُ معهم فيما يُطالِعُ به من أمور مملكته ، ويفحص معهم الرأي فيما يُبْرِمُهُ/ من أحكامه . وإذا قعدوا في بيتهم أخرج رقاعَهُ ورسائله إليهم بأمره ونَهْيهِ فينظرون فيما يَصُدِّرُ إليهم من عَزَائِمِهِ . جرى على [ذلك]⁽³⁾ من تلامهم إلى اليوم (١٢٤) .

(١) بعداً كلمة الأمير ، وهي زائدة مقحمة بلا شك

(٢) ص: محمد بن السليم بن بسيل ، ويبدو ذلك سهوا من الناسخ، وإنما الصواب ما أثبتنا . وقد ذكر ابن الأبار محمد بن عبد السلام بن بسيل هذا في «الحلة السراء» وترجم له ونص على أنه ولي الوزارة لعبد الرحمن الأوسط (٣٧٢-٣٧١/٢)

(٣) زيادة يقتضيها السياق .

قال ابن مُفَرَّج :

وكان قد اجتمع للأمير عبد الرحمن من سَرَاة الوزراء أولي العلوم والنهى والمعرفة والدكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من الخلفاء قبلهم ولا بعدهم . وسماهم حسبما تقدّم ، فزاد فيهم ابن [مُفَرَّج] ⁽¹⁾ عبد العزيز بن هاشم الملقب سعاد (١٢٥) من غير تسمية ابن شهيد .

قال أبو بكر :

لم يختلف أحد من شيوخ الأندلس فى أنه ماخدم ملوك بنى أمية فيها أحد أكرم من عيسى بن شهيد غاية ، ولا أكرم اضطناعاً ، ولا أرعى لديمة . ولقد كان الحاجب قبله عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهذه الصفة ، على زيادة خصاله وأدواته على عيسى إلا فى باب كرم الصنعة واستتمامها ، فلم يك يفضله درجة ، بل كان عبد الكريم يقصّر عن عيسى فى باب قبول الهدية وتجويز المكافأة على قضاء الحاجة ، فإنه كان يقبل ذلك ولا يابأه ، وكان عيسى على الضد منه فى هذا الباب : لا يقبل شيئاً منه ألبتة ، وكان يهجر من عرصه إليه ، ولا يرضى فيمن يتقلده من صنائعه ويشمله ⁽²⁾ بنعمته إلا بنغاية التشريف والإنهاض ، والتخويل والإمداد .

/ فمن مشهور ذلك فعله فى عبد الواحد بن يزيد الإسكندرانى ، فإنه قدّم إلى الأندلس [١١٩٧] وهو فتى متأدّب ظريف ، كان يشدو شيئاً من الغناء على مذهب الفتيان ، فاعتلق بحبل ابن شهيد وهو صاحب الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فبلا منه فضلاً وحجى .

فقال له : أمسك عن الغناء البتة ، فإنه يرببك لدينا ، وتحقق بأدبك ، وتنبة لحظك ، فلك خصال تجذب بضبعك !

ف فعل عبد الواحد ذلك ، ولزم عيسى ، فألقى ذكره إلى الأمير عبد الرحمن ، وأوصله إليه ، فأصابه على ما وصفه له عيسى ، فقيلته نفسه ، وحركه عنده حظه ، فأذنى

(1) زيادة يقتضها السياق .

(2) ص : ينسله .

منزلته ، ومكّن خصوصيته ، حتى نادته وأنس به ، ثم استخذه ونقله في (1) منازل الخدمة حتى خوله (2) المدينة (١٢٦) ، ثم رقاؤه إلى الوزارة والقيادة (١٢٧) .

كُتَابُ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

كتب له الحاجبُ عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، مع ما كان إليه من الحجابة والقيادة ،

وعبدُ الله بن محمد بن أمية بن يزيد بن أبي حوثرَةَ مولى معاوية بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان ، بَيِّتُ الْكِتَابَةِ لبني مروان بالأندلس ، تَنَاسَقَ بعبد الله هذا ثلاثة منهم ما بَيَّنَّهُ وبين جدُّه أمية بن يزيد كاتبُ الأميرِ الداخلِ عبدِ الرحمن بن معاوية . وكان مهلكُ جدِّه أمية سنة أربع وخمسين ومائة ، ومهلكُ [أبيه محمد سنة (3)] ست وعشرين ومائتين ، ومهلك عبد الله [هذا المذكور سنة مائتين (3)] و [ث وأربعين (١٢٨) .] وكانوا أَهْلَ [(3)] بيت نجابة (4) ...

[ب] [وكتب له أيضا محمد بن سعيد الزجالي ، مؤسس بيت من (5)] / بيوت الشرف بقرطبة من غير قِدمٍ في الدولة ؛ ومحمد بن موسى بن محمد (١٢٩) ؛ وكان يخاطبُ عنه في بعض الأوقات كُلِّيبُ الكاتب (١٣٠) من غير أن يرتسم بالخط .

(1) ص : من .

(2) ص : مد له ، لإيهما كانت تحريفا لما أثبتنا ، وقد تكون « ولاء » ، وهكذا وردت في تاريخ ابن القوطية ص ٧٥ .

(3) زيادة يقتضيها السياق .

(4) يأتي بعد هذا اللفظ قطع ذهب فيه بقية ما كتب في الورقة ، وهو قطع سيتكرر بعد ذلك في جميع أوراق المخطوط حتى نهايته .

(5) زيادة يقتضيها إكمال النص ، وسنعمل على إضافة هذه الزيادات في مواضع قطوع النص بطراز مختلف من الحروف إعانة للقارئ على متابعة السياق بقدر ما أدى إليه اجتهدنا ، وذلك حرصا على ألا يبدو النص مقطعا خاليا من الترابط على أن هذا لم يكن مجرد اجتهد ، وإنما استمنا دائما باستخلاص أقصى ما استطعنا من بقايا الكلمات والحروف . ولم نملأ الفراغات إلا بما تحققناه مستعينين إما بسياق الكتاب نفسه أو بالمراجع الأخرى التي تعين على استيفاء نصوصه ، ولا سيما ما نعرف منها يقينا أن أصحابها اعتمدوا على ابن حيان أو نقلوا عنه ، أو بالمراجع التي وصلت إلينا ما نعرف أن ابن حيان نقل عنها . أما ما لم نعلمنا عليه المصادر الأخرى فقد تركناه بياضا أو أثبتنا في الحواشي ما بدا لنا في أمر استكمالها .

خَبَرُ الرَّجَالِيِّ

قال أبو بكر محمد بن عمر بن القوطية (١٣١) :
هو محمد بن سعيد بن أبي سليمان (١٣٢) ، واسمه وأرشكين ، من بني يَطْفُتَ من نَفْزَةِ (١٣٣) ؛
وهو المعروف بِحَمْدُون ، والملقب بـ «أ. لأَصْمَعِي» (١٣٤) ، لُقِّبَ بذلك لذكائه وقوة حفظه ،
وكان أول من اصطنعه فاستكتبه الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وكتب لابنه محمد
بعده (١٣٥) ، وأنجبت ولادته لابنَيْهِ عبد الله وحامد ابني^(١) محمد بن سعيد ، فكانا كاتبين
نَحْرِيرَينِ ، كلاهما كَتَبَ لِلسُّلْطَانِ ، خلا أن عَبْدَ اللَّهِ منهما لم يَطْلُ أَمْدُهُ في الكتابة ،
وكتب نحو سِتَّةِ أشهر ، فَأَعْجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ .

وأما حامد أخوه فَلَزِمَتْهُ الْكِتَابَةُ وشهر إلى أن مات سنة ثمان وستين ومائتين (١٣٦) .
وكتب منهم أيضا عبدُ اللَّهِ بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سعيد الرَّجَالِيُّ [سنة] (٢)
سبع وثمانين ومائتين ، ثم إنه نالتَهُ عِلَّةٌ عظيمةٌ مُدَّةً ، وتخفَّف ، فأعاده الأمير [عبد الله] (٢)
في دولته إلى الكتابة مراراً ، واتصلت كتابته من بعده صَدْرَ دولة حفيده عبد الرحمن النَّاصِرِ
لدين الله إلى أن هلك في العسكر سنة ثنتين وثلاثمائة (١٣٧) .

فَقَرَّضَتِ الْكِتَابَةُ عن بيت هؤلاء الرَّجَالِيِّينَ مُدَّةً إلى أن عادت عليهم بعبد الرحمن
ابن عبد الله بن محمد الرَّجَالِيُّ متقدماً للناصر لدين الله في مُهِمَّاتِ سنة تسع وعشرين وثلاثمائة
آخر دولة الناصر (١٣٨) ، ثم لم يَنْجُمْ في بيتهم كاتبٌ [بَعْدَهُ] (٣) إلى آخر الدولة (١٣٩) .
وَقَرَأْتُ (٤) :

/ بِالْأَدَبِ أَيَّامَ كَانَتْ سُوقُهُ نَافِقَةً ، فَارْتَقَى بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ الْخُلَفَاءِ ، فَبَنَى الْبَيْتَ الْمُئَيِّفَ ، [١٩٨]
وَنَالَ ذِرْوَةَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ، وَكَانُوا قَدَمًا مِنْ عَامَّةِ الْبُشْرِ مِنَ الْبَرَايِرِ ، أَصُولُهُمْ مِنْ نَاحِيَةِ

(١) في الأصل : أبناء . (٢) زيادة يقضيها السياق .

(٣) كلمة مطبوسة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا أو شيء في معناها .

(٤) يلى هذه الكلمة قطع في الورقة يستمر حتى نهايتها ، ومن الواضح أن ابن حيان ينقل عن كتاب لبعض من سبقه
من المؤرخين مثل الرازي أو ابن مفرج أو ابن القوطية ، والحديث كما يدل على ذلك أول الصفحة التالية عن مؤسس بيت
هؤلاء الرجاليين محمد بن سعيد المذكور .

تَاكُرُونَا (١٤٠) ، لم يُحَفَظْ لِأَوَّلِيهِمْ نِبَاهَةٌ ، فَسَبَقَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ إِلَى اصْطِنَاعِ جَدِّهِمْ مُحَمَّدَ بْنَ سَعِيدٍ هَذَا ، وَبَلَا مِنْهُ فَهَمًا وَمَعْرِفَةً وَصِيَانَةً وَجَزَالَةً اسْتخدمه لها ، فَرَقَاهُ فِي مَنَازِلِ خِدْمَتِهِ ، وَاسْتَكْتَبَهُ وَاسْتَخَصَّهُ ، فَسَمَّا بَيْتَهُ (١) ، وَلَحِقَ بِأَشْرَافِ الدَّوْلَةِ .

[وَقَرَأَتْ فِي كِتَابِ الْقَاضِي] (٢) أَبِي الْوَلِيدِ ابْنِ الْفَرَضِيِّ (١٤١) الْمَوْلُوفِ فِي طَبَقَاتِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَالْأَدَبِ بِالْأَنْدَلُسِ ، قَالَ :

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن موسى بن عيسى الزَّجَّالِيُّ - هو فَخِذٌ مِنْ بُثْرِ الْبَرَابِرِ بِالْأَنْدَلُسِ - ، وَكَانَ يُلقَّبُ بِـ « الْأَضْمَعِيِّ » لِعَنَانَتِهِ بِالْأَدَبِ وَحِفْظِهِ لِللُّغَةِ ، وَكَانَ مِنْ أَقْوَمِ أَهْلِ زَمَانِهِ بِهَا ، وَكَانَ لَهُ حِظٌّ وَافِرٌ مِنَ الْبَلَاغَةِ ، وَنَصِيبٌ حَسَنٌ مِنْ صَوْنِ الْقَرِيضِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِهَؤُلَاءِ الزَّجَالِيِّينَ الْمُفَحِّحِينَ فِي بَيْتِ الشَّرَفِ بِقَرْطَبَةِ (١٤٢) قَبْلَ جَدِّهِمْ مُحَمَّدٍ هَذَا قَدَمٌ رِيَاسَةٍ ، وَلَا سَالِفٌ صُحْبَةٍ لِلْسلْطَانِ ، وَلَا تَشَبُّثٌ (٣) بِخِدْمَتِهِ ، فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ نَجَّمَ (٤) فِيهِمْ وَصَارَتْ لَهُ مَنْزِلَةٌ لَدَيْهِمْ ، كَانَ سَبَبُهَا - زَعَمُوا - أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ عَثَرَتْ بِهِ دَابَّتُهُ وَهُوَ سَائِرٌ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، وَتَطَاطَأَتْ ، فَكَادَ يَكْبُو لِفِيهِ ، فَلَحِقَهُ جَزَعٌ تَمَثَّلَ إِثْرُهُ لَمَّا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مَطِيلَتُهُ بِقَسِيمِ بَيْتِ جَرَى بِفِيهِ ، وَهُوَ : [مِنْ الطَّوِيلِ] .

* وَمَا لَا يُرَى مِمَّا يَقِي اللَّهُ أَكْثَرُ *

وَطَلَبَ صَدْرَ الْبَيْتِ ، فَعَزَبَ (٥) عَنْهُ ، وَتَعَلَّقَ بِأَلْفِهِ بِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَصْحَابَهُ ، فَأَضْلَوْهُ وَأَمَرَ بِسُؤَالِ كُلِّ مَنْ تَسَمَّى بِمَعْرِفَةٍ فِي عَسْكَرِهِ (٦) ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ غَيْرَ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ هَذَا الزَّجَالِي ، لَمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ تَحْرِيكِهِ ، فَقَالَ لِسَائِلِهِ : حَاجَةُ الْأَمِيرِ عِنْدِي ، فَلْيُذْنِبْنِي أُنِمْهَا لَهُ . فَأَذْنَاهُ ، فَقَالَ لَهُ أَضْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، أَوَّلَ هَذَا الْبَيْتِ :

تَرَى الشَّيْءَ مِمَّا يُتَّقَى فَتَنَاهُ

وَمَا لَا تَرَى مِمَّا يَقِي اللَّهُ أَكْثَرُ

(١) ص : مَا يَلْتَهُ

(٢) بَيَاضٌ فِي الْأَصْلِ بِقَدْرِ نِصْفِ سَطْرٍ ، وَقَدْ وَضَعْنَا فِي مَكَانِهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ اسْتِكْلَالًا لِلْسَّاقِ .

(٣) ص : فَشَبَّتْ .

(٤) ص : نَجَّمَ .

(٥) كَلِمَةٌ غَيْرُ وَاضِعَةٍ فِي الْأَصْلِ .

(٦) ص : مَسَكَ .

تمام البيت . فَأَعْجَبَ الْأَمِيرَ مَا كَانَ مِنْهُ ، وَرَاقَهُ بَيَانُهُ ، وَأَعْجَبَهُ شَكْلُهُ ، فَقَالَ لَهُ : لِزَمِ السَّرَادِقَ . فَلَمَّا جَالَسَهُ وَحَدَّثَهُ إِزْدَادَ قَبُولًا لَهُ وَرَغْبَةً فِيهِ ، فَاسْتَعْدَمَهُ وَاسْتَخْصَصَهُ ، ثُمَّ اسْتَكْتَبَهُ بَعْدَ حِينٍ لِسِرِّهِ .

وكان قبل هذا اتَّخَذَهُ كَاتِبًا [لوزرائه إشرافًا لهم فيه] ⁽¹⁾ على رَسْمٍ مِنْ تَقْدِمَتِهِ ، فَحَدَّثَتْ مُحَمَّدًا هِمَّتُهُ عَلَى التَّرَفُّعِ عَنْ ذَلِكَ لِتَفَرُّدِ بَأَعْلَى [المنازل] ⁽²⁾ ، وَكُتِبَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِسُوءِ نِيَّتِهِ مِنْ قَضْدِ وَزَرَانِهِ كِتَابًا يَقُولُ [فِيهِ] :

[إِنْ مِنْ] ⁽³⁾ وَبِسْمِ كِتَابَتِهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - وَشَرَفَ بِاسْمِهَا لِجَدِيرٍ أَنْ [يَغْتَلِي] عَنْ كِتَابَتِهِ وَزَرَا [نِي] ، وَيَزِدُّنِي بِجَهَنَّةِ أَسْرَارِهِ ⁽⁴⁾ ،

/ تنبيهه إِيَّاهُ ، فَأَفْرَدَهُ بِكِتَابَتِهِ ، وَاتَّخَذَ لِلْوُزَرَاءِ كَاتِبًا مُفْرَدًا لِكِتَابَتِهِمْ ، فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَى [١٩٨ب] ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِلَى آخِرِ الدَّوْلَةِ .

وكان محمد بن سعيد هذا من أحد عجائب الدنيا في قوة الحفظ ، يُضْرَبُ بِحِفْظِهِ الْأُمْلَةُ ⁽⁵⁾ ، عَلَى تَصْدِيقِ مَا يُؤَثَّرُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ مَشْهُورِ الْحُفَاطِ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ .

فَذَكَرَ عَنْهُ ابْنُهُ حَامِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ :

« جَاءَهُ يَوْمًا مُسْتَجِدٌّ تَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِشَعْرِ امْتَدَّحَهُ بِهِ سَأَلَهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي إِنْشَادِهِ ، فَفَعَلَ ، وَجَعَلَ الشَّاعِرُ يَنْشُدُهُ لَهُ مُسَخَّنْفِيرًا فِي نَشِيدِهِ ، وَمُحَمَّدٌ مُطَرِّقٌ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ شَعْرِهِ ذَهَبَ إِلَى مُغَالَطَتِهِ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا ، مَا الَّذِي دَعَاكَ أَنْ تَنْتَحِلَ شِعْرًا لغيرِكَ ، فَتَقْلِبُهُ فِينَا ؟ وَكُنْتَ فِي غِنَى عَنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ كَانَ فِي قَصْدِكَ لَنَا وَمَاتَةٌ أَدَبِكَ إِلَيْنَا مَا نَقْضِي بِهِ ذِمَامَكَ ،

(1) كلمات مطموسة في الأصل لم تبق منها إلا حروف اعتمدنا عليها في إعادة تركيبها .

(2) قطع بقدر كلمتين .

(3) قطوع في الأصل ، استعنا في استكمال فجوات النص فيها بما نقله عن ابن حيان صاحب كتاب المغرب (١ / ٣٣٠ -

٣٣١) .

(4) استكملنا النص عن المغرب لابن سعيد في الموضع المذكور في الحاشية السابقة ، ولكن نص ابن حيان أكل وأكثر تفصيلا ، إذ يبدو أنه أورد الرسالة التي كتبها الرجال كلها أو أكثر فقراتها بدليل أن القطع الذي أصاب أسفل الورقة - وقد ذهب فيه عدة سطور - يشتمل على جزء لم يشته ابن سعيد فيها نقل .

(5) ص : الأدلة .

وَتُعِينُكَ عَلَى شَأْنِكَ ! فقال له : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا سَيِّدِي ! تقول ذلك في شِعْرِ كَذَذْتُ فِيهِ خَاطِرِي ، وَأَتَعَبْتُ فِيهِ ذَهْنِي ؟ فلا والله ما أخذته من أَحَدٍ ، ولا سَوَّيْتُهُ إِلَّا مِنْ نَظْمِي ! فقال له محمد : باطِل ! إنه لشعر قد رَوَيْتُهُ قَدِيمًا وَحَفِظْتُهُ ، فَإِنْ شِئْتَ فَاسْتَمِعْ إِلَيْهِ أَنْشِدْكَهُ وَبَدَأْ فَأَعَادَ الشَّعْرَ عَلَيْهِ أَوْ أَكْثَرَهُ . فَبَقِيَ حَائِرًا لِمَا فَجَّاهُ بِهِ ، وَقَدْ زَالَ طَمَعُهُ ، وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ ، وَاشْتَدَّتْ فَجَعَتُهُ . فلما رأى محمد سوءَ مقامِهِ قَالَ لَهُ : خَفِّضْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي مَزَحْتُ مَعَكَ ، وَإِنَّكَ الصَّادِقُ فِيهَا قُلْتَ ، الْحَقِيقُ بِالثَّوَابِ عَلَى مَا قَرَضْتَ ، وَإِنَّمَا أَعَانِي عَلَيْكَ قُوَّةُ حِفْظِي الَّذِي ذَهَبْتُ إِلَى اخْتِبَارِهِ مَعَكَ . ولا والله ما سَمِعْتُ بهذا الشعرِ قَبْلَ يَوْمِي . فَسَرَى عَنْ الشَّاعِرِ هَمَّهُ ، وَأَجْزَلَ صَلَاتَهُ (١٤٥) .

قال :

وتوفى محمد بن سعيد هذا « الْأَصْمَعِيُّ » سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، وأَعْقَبَ ابْنًا نَجِيبًا يُسَمَّى حَامِدَ بْنَ مُحَمَّدٍ وَرِثَ مَكَانَهُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْبَلَاغَةِ ، فَسَلَكَ سَبِيلَهُ فِي خِدْمَةِ السُّلْطَانِ ، وَارْتَقَى فَوْقَ ذُرُوءِ أَبِيهِ بِخَطِّهِ الْوِزَارَةِ ، بِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . وَقَدْ كَانَ أَدِيبًا حَلِيمًا عَفَا [جَمِيلَ] (١) الْخِصَالِ ، خَلَا أَنَّهُ كَانَ يُعَابُ بِالْبَخْلِ وَالْاِقْتِصَادِ ، فَيُضْحِي لِلذَّمِّ فِي عِرْضِهِ ذَرِيعَةً .

قيل لمؤمن بن سعيد (١٤٦) الشاعر البذيء : [مَا بَالُكَ لَا تَسَامِرُ] (١) الْوَزِيرَ حَامِدًا أَوْ تَرَائِكِيَهُ حَسْبًا نَرَاكَ [تَفَعَّلُهُ مَعَ الْوُزَرَاءِ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَ قَدِيمٍ] (١) اتِّصَالِكَ بِهِ وَسَبِّكَ إِلَيْهِ ؟ [١٩٩] [فقال مؤمن بن سعيد : هذه] / جِنَازَةٌ غَرِيبٍ لَا يَصْحَبُهَا مِنْ صَحْبِهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ! وَنُصِيتَ كَلِمَتُهُ إِلَى حَامِدٍ ، فَحَقَّقَهَا عَلَيْهِ . وَشِيعَهُ مُؤْمِنٌ بُعِيدَ أَيَّامٍ فِي خُرُوجِهِ مِنَ الْقَصْرِ إِلَى دَارِهِ لَا يَنْكُرُ مَا عَرَفَهُ مِنْ أَنْسِهِ بِهِ وَمَذَاكِرَتِهِ ، فَلَمَّا أَرَادَ مُؤْمِنٌ الْانْصِرَافَ قَالَ لَهُ حَامِدٌ : أَغْظَمَ اللَّهُ أَجْرَكَ أَبَا مِرْوَانَ ! وَكَتَبَ خُطَاكَ ! - دُعَاءُ مُشِيعِ الْمَوْتَى - ، تَعْرِيفًا لَهُ بِقَوْلِهِ (١٤٧) :
ومن نوادر حامد بن محمد الزجالي ما حكاه محمد بن نصر ، قال (١٤٨) :

غَلِطَ إِمَامُ الْوَزِيرِ حَامِدُ بْنُ مُحَمَّدٍ لَيْلَةً فِي بَعْضِ قِرَآئَتِهِ فِي صَلَاةِ التَّرَاوِيحِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ

(١) كلمات مطبوعة استعنا في استكمالها بما نقله ابن سعيد في المغرب (١ / ٣٣١) عن ابن حبان .

بمسجد حامد ، وحامد حاضر ، فقرأ مكان قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾^(١) ، فقرأ : « . . . فَاَنْكِحُوهُمَا » ، فلما انصرف حامد قال لبعض من يَخُصُّه من جيرانه : « أَمَا سَمِعْتُمْ مَا أَتَى بِهِ إِمَامُنَا مِنْ تَبْدِيلِ حَدُودِنَا ؟ » وتضاحك ، فقال له حامد : فقد سَنَحْتُ لِي فِيهِ بَدِيعَةً فَاسْمَعُهَا ، وأنشده : [من مجزوء الرمل]

أَبْدَعَ الْقَارِئُ مَعْنَى لَمْ يَكُنْ فِي الثَّقَلَيْنِ
أَمَرَ النَّاسَ جَمِيعًا بِنِكَاحِ الزَّانِيَيْنِ

وأنشد لأحمد بن محمد بن فرج الْبَلَوِيُّ المعروف بِالْبَلَسَارِيِّ (١٤٩) يهجو حامد بن محمد ويكثر بُخْلَهُ فِي اتِّخَاذِهِ لَصْنِيعٍ عِنْدَهُ قَتَرَ فِيهِ عَلَى مَنْ شَهِدَهُ ، وَنَاقَضَ مُرُوعَتَهُ ، مِنْ أَبْيَاتِ فِيهَا^(٢) : [من الكامل]

فَعَلَ اللَّثِيمُ وَلَيْتَهُ لَمْ يَفْعَلِ
وَأَتَى بِفَعْلٍ مِثْلُهُ^(٣) لَمْ يَجْمُلِ
ذَبَعَ^(٤) الضَّفَادِعَ فِي الصَّنِيعِ وَلَمْ يَدْعُ
لِلنَّمْلِ جَارِحَةً^(٥) وَلَا لِلْقُمَّلِ
وَضَعَ الطَّعَامَ فَلَوْ^(٦) عَلَتْهُ ذُبَابَةٌ
وَقَعَتْ لِتُكْمِلَ شَبْعَةً لَمْ تُكْمِلِ
وَكَاثِمًا خُرِطَتْ صِحَافُ طَعَامِهِ
- مِنْ دِقَّةٍ وَدَمَامَةٍ^(٧) - مِنْ خَرَدَلٍ

(١) سورة النور ، آية ٢ .

(٢) قابلنا هذه الأبيات على الرواية التي يوردها أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطيب في « كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط. بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤-٢٥٥ ، ولو أن المؤلف ينسبها إلى من يسميه محمد بن فرج ، وينقص منها البيت الأول .

(٣) ص : فعله ، وواضح أنها محرفة عما أثبتنا .

(٤) في « التشبيهات » نحر .

(٥) في « التشبيهات » دارجة .

(٦) في « التشبيهات » ولو .

(٧) في « التشبيهات » : وجفانه ، ولكن المحقق ذكر في هذا الموضع أنها رسمت هكذا : « وبيانه » ، بغير إعرام . ورواية ابن حيان أصوب .

وكانَ فِتْرَةَ صَحْفَةٍ عَنْ صَحْفَةٍ (1)

فِي الْبُعْدِ وَالْإِبْطَاءِ فِتْرَةُ مُرْسَلٍ

أُرْسِلَ هَذَا الشَّاعِرُ آفَةً عَلَى أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ لِأَمْرِ أُودِيَ بِهِ مِنْ بَعْضِهِمْ ، فَعَمَّ بِهِ جَانَهُ ،
وَأَفْحَشَ لَهُمْ .

وَمِنْ قَوْلِهِ فِي شَعْرِ لَهُ فِيهِمْ : [مِنْ الطَّوِيلِ]

هُمْ عَلَّمُونِي اللَّوْمَ حَتَّى كَانَنِي

لِغَيْرِ أَبِي أَوْ مُعْرِقٍ فِي الزَّجَاجِلَةِ (١٥٠)

أَصْحَابِ شَرْطَةِ

الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ

[قَالَ أَحْمَدُ] (2) بْنِ مُحَمَّدٍ الرَّازِي :

أَلْفَى الْأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَى الشَّرْطَةِ (١٥١) لِأَبِيهِ الْحَكَمِ [مُحَمَّدَ بْنَ كُتَيْبٍ] (3) بْنَ
ثَعْلَبَةَ (١٥٢) ، فَأَمَضَاهُ عَلَيْهَا ، ثُمَّ رَقَّاهُ إِلَى الْوِزَارَةِ

١٩٩ [وَقَدْ تَفَرَّغَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ شَرْطَةُ الْعَدُوِّ (4) ، ثُمَّ اسْتَعْفَى الشَّرْطَةَ إِذْ كَرِهَ النَّظَرَ ، وَوَلَّى
مَكَانَهُ الشَّرْطَةُ سَعِيدَ بْنَ عِيَّاضِ الْقَيْسِيِّ (١٥٣) . وَكَانَ عَلَى الشَّرْطَةِ وَالرَّدَّ (١٥٤) حَارِثُ
ابْنِ أَبِي سَعْدٍ (5) (١٥٥) :

(١) فِي « التَّشْبِيهَاتِ » : وَكَانَ صَحْفَتُهُ عَلَى أَصْيَافِهِ ، وَمَا رَوَاهُ ابْنُ حَيَّانٍ أَصَحُّ .

(٢) قَطَعَ فِي الْوَرَقَةِ بِقَدْرِ كَلِمَتَيْنِ لَا يَخْرُجَانِ عَمَّا أَثْبَتْنَا .

(٣) لَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فِي الْوَرَقَةِ مِنْ خِلَالِ الْقَطْعِ إِلَّا حُرُوفُ أَعَانَتِنَا بِقَائِيهَا عَلَى اسْتِكَالِهِ ، لَا سِيَّامَا أَنَّ ابْنَ حَيَّانٍ
نَفْسَهُ ذَكَرَ ابْنَ كَلَيْبٍ هَذَا مِنْ قَبْلِ فِي عِدَادِ وَزَرَاءِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ وَقَالَ أَنَّهُ كَانَ عَلَى الشَّرْطَةِ قَبْلَ وَلايَتِهِ الْوِزَارَةِ .

(٤) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتِدْ إِلَى وَجْهِ مَقْبُولٍ فِي تَأْرِيلِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، لَا سِيَّامَا أَنَّهَا أَتَتْ بَعْدَ الْقَطْعِ الْمَعْتَادِ فِي آخِرِ
الْصَّفْحَةِ السَّابِقَةِ وَالَّذِي ذَهَبَ فِيهِ آخِرُ سَطُورِهَا ، وَلَا يَدُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي الْفَاضِلِ تَحْرِيفٌ أَوْ سَقَطَ مِنْهَا شَيْءٌ .

(٥) فِي الْأَصْلِ : ابْنُ أَبِي سَعِيدٍ ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتْنَا ، وَحَارِثُ بْنُ أَبِي سَعْدٍ هَذَا هُوَ الَّذِي سَيَذْكُرُهُ ابْنُ حَيَّانٍ بَعْدَ
ذَلِكَ فِي وَفَيَاتِ سَنَةِ ٢٢١ .

قَوَادِه

عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الحاجب الكاتب ، وقاد لثلاثة من الخلفاء : هشام والحكم وعبد الرحمن ؛ عبد الرحمن بن رستم ، عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ؛ عباس بن الوليد الطلي ، وكان كثير التردد بالصوائف⁽¹⁾ .

قضاة قرطبة للأمير عبد الرحمن بن الحكم على اختلاف الرواة في عددهم وترتيب دولهم

قال أحمد بن محمد الرازي :

كان له أخذ عشر قاضيا : أولهم مَسْرُورُ بن محمد ، على اختلافهم في نَسَبِهِ أيضا ، إذ يقول محمد بن حارث في كتابه : هو مسرور بن محمد بن سعيد بن شَرَّاحِيل المَعْفَرِيُّ ، ويقول ابنُ عبد البر : بل هو من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يكنى [بـ]⁽²⁾ أبى نُجَيْحٍ ، وذا من اختلافهم قبيح ؛ ثم سعيد بن محمد بن بشير ؛ ثم يحيى بن مَعْمَر ابنِ عِمْرَانَ الأَلْهَانِيَّ الإشبيلي⁽³⁾ ؛ ثم الأسوار بن عُقْبَةَ ؛ ثم إبراهيم بن العباس بن عيسى ابن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ثم يُخَاوِر بن عثمان المَعْفَرِيُّ ؛ ثم عَلِيُّ ابن أبي بكر القيسي ؛ ثم مُعَاذُ بن عثمان الشَّعْبَانِي ؛ ثم محمد بن زياد اللَّخْمِيُّ ؛ ثم سعيد ابن سليمان بن أسودَ عَمُّ سليمان بن أسود⁽⁴⁾ ؛ ثم محمد بن سعيد .

وقال الحسن بن محمد بن مُفَرِّج :

قال ابنُ عبد البر في تاريخه :

لما وَلِيَ الأمير عبد الرحمن بن الحكم استقضى على قرطبة مَسْرُورُ بن محمد سنة سبع ومائتين ؛ ثم سعيد بن سليمان سنة ثمان ومائتين ، [ثم يحيى بن مَعْمَر الأَلْهَانِي سنة تسع

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(4) ص . الأسود .

(1) ص : بالصرائف .

(3) ص : الإسييل .

ومائتين^(١) ، ثم الأنموار^(٢) بن عُقْبَة سنة عشر ومائتين وما بعدها ، ثم إبراهيم بن العباس القرشي المرواني جد بني [أبي]^(٣) صفوان هؤلاء القرشيين الوجوه بقرطبة سنة ثلاث عشرة ومائتين ، ثم محمد بن سعيد سنة أربع عشرة وما بعدها ، ثم يُخَامِر بن عثمان سنة عشرين ومائتين أيضا ، فَقَضَى أعواما ، ثم علي بن أبي بكر سنة سبع وعشرين ومائتين وما بعدها ، ثم مُعَاذ بن عثمان [الشعباني سنة]^(٤) إحدى وثلاثين ومائتين ، ثم محمد بن زياد اللخمي سنة أربع وثلاثين [ثين ومائتين ؛ فَبَلَغَتْ عِدَّةُ قُضَايِهِ]^(٥) عشرة رجال ، [وإنما كان سبب استكثار عبد الرحمن بن الحكم من القضاة وكثرة توليته وعزله] / لهم أتباعه فيهم رضا كبير الفقهاء المشاورين الأثير عنده يحيى بن يحيى ، إذ كان لا يزال يشير عليه بقاض ، فيؤليه الأمير عبد الرحمن مقتصرًا فيه على رأيه ، فإذا أنكر عليه يحيى شيئا رَفَعَ عليه إلى الأمير ، فلا يُؤَخَّرُ عَزْلُهُ ، ولا يَحِيدُ عن مشورته ، [وكان]^(٦) يحيى الذي يُوَلَّى مكانه (١٥٦) .

وكان الشيخ يحيى شديد التمكن^(٧) من حُسن رأي الأمير عبد الرحمن ، وكان قد أثره على جميع الفقهاء أصحابه ، وجعل تورُّكه عليه ، فمن أجل ذلك كَثُرَ عَدَدُ قُضَايِهِ .
قال الحسن :

وقد خالف أبو بكر ابن القوطية ابن عبد البر في عدد هؤلاء القضاة وترتيب دُولهم ، فقال (١٥٧) :

(١) هذه زيادة أضفناها لأن الأصل يقتضيها بغير شك ، إذ بدونها لا تستقيم عدة القضاة الذين ذكر ابن عبد البر أنهم عشرة ، ثم إننا رأينا ابن عبد البر الذي ينقلُ ابن حبان عنه هنا — عن طريق الحسن بن مفرج — قد نص على تولية يحيى بن معمر هذا القضاء كما سيرد عند كلامه المفصل عن القضاة واحداً واحداً . كذلك أشار إلى ولايته القضاء ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس (ترجمة رقم ١٥٥٣) وابن سعيد في المغرب (١٤٧/١) ، وكلاهما ينقل الخبر عن أحمد بن محمد بن عبد البر ، مما يدل على أن اسم يحيى بن معمر سقط سهواً من الناسخ في هذا الموضع .

(٢) ص : الأسود ، وهو تحريف واضح .

(٣) زيادة يقتضيها صواب التسمية .

(٤) موضع هاتين الكلمتين مطبوس في الأصل ، لا يبدو فيه إلا بعض حروفهما .

(٥) قطوع في الأصل في هذا الموضع ، وقد اعتدنا في استكمال العبارة لاستقامه السياق على ما سيورده ابن حبان نفسه

بعد قليل ، فضلا عما تؤكد المصادر الأخرى .

(٦) زيادة يقتضيها السياق .

(٧) ص : التسكين ، وهي محرفة عما أثبتنا .

ألقى الأمير عبد الرحمن بن الحكم على قضاء والده الأمير الحكم سعيد بن محمد بن بشير المعافري ، [وَجَدَهُ عَلَى الْقَضَاءِ لِأَبِيهِ ، فَأَمَّضَاهُ بَعْدَهُ . وَمُحَمَّدُ بْنُ شَرَّاحِيلَ الْمَعَاوِرِيُّ] (1) جَدُّ بَنِي شَرَّاحِيلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُنْسَبُ إِلَيْهِمُ الْمَسْجِدُ وَالْدَرْبُ بِالرَّبْرِغِ الْفَرَبِيِّ : ثُمَّ الْفَرَجُ ابْنُ كِنَانَةَ الْكِنَانِيِّ الشُّنُونِيِّ ، ثُمَّ يَحْيَى بْنُ مَعْمَرِ الْأَظْهَانِيِّ الْإِشْبِيلِيِّ ، ثُمَّ عَزَلَهُ لِرَفْعِ الْفَقِيهِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ الْجَبَّانِيِّ ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمُرَوَّانِيِّ جَدُّ بَنِي أَبِي صَفْوَانَ هَؤُلَاءِ الْقُرَشِيِّينَ الْوُجُوهَ بِقَرْطَبَةِ ، ثُمَّ عَزَلَهُ - زَعَمُوا - لِكَلِمَةٍ خَاطَبَتْهُ بِهَا امْرَأَةٌ تَخَاصَمَتْ إِلَيْهِ بِمَجْلِسٍ نَظَرِهِ ، فَلَمْ يُذَكِّرْهَا ، وَذَلِكَ أَنْ قَالَتْ لَهُ : « يَا بَنَ الْخَلَائِفِ ! أَنْظُرْ إِلَيَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْكَ ! » ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهَا ، فَتَنَاهَا إِلَى الْأَمِيرِ مُوسَى بْنِ حُدَيْرٍ (2) الْخَازِنُ الْأَكْبَرُ ، وَرَفَعَ إِلَيْهِ صَفْحَةً يَقُولُ فِيهَا : « مَا يَنْبَغِي لِلْأَمِيرِ أَنْ يَشْرَكَهُ فِي سُلْطَانِهِ مَنْ يُخَاطَبُ بِمِثْلِ مَا يُخَاطَبُ بِهِ ، وَيُحَلَّى تَخْلِيَّتَهُ » ، فَذَلِكَ الَّذِي أَوْجَبَ عَزْلَهُ ، وَقِيلَ إِنَّ تِلْكَ الْمَرْأَةَ دُسَّتْ لَتَقُولَ ذَلِكَ الْقَوْلَ ، فَعَزَلَهُ الْأَمِيرُ سَرِيعًا ، ثُمَّ اسْتَقْفَضَى بَعْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ (3) جَدُّ بَنِي زِيَادٍ هَؤُلَاءِ الرُّكْنِيِّينَ ، ثُمَّ عَزَلَهُ وَأَعَادَ يَحْيَى بْنُ مَعْمَرٍ إِلَى الْقَضَاءِ ثَانِيَةً ، ثُمَّ يُخَاطَرُ ابْنُ عُثْمَانَ الْجَبَّانِي ، وَاسْتَعْفَاهُ مِنَ الْوَلَايَةِ فَأَعْفَاهُ ، وَوَلَّى أَخَاهُ مُعَاذَ (4) بَنِ عُثْمَانَ ، ثُمَّ سَعِيدُ ابْنِ سُلَيْمَانَ الْغَافِقِيُّ الْبَلُّوْطِيُّ [آخِرَ] قُضَاتِيهِ ، فَصَارَتْ [عِدَّةُ الْقَضَاةِ فِي أَيَّامِهِ عَشْرَةٌ] رِجَالٌ

[قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي تَارِيخِهِ :

وَكَانَتْ الْقُتُبِيَّةُ فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ الْحَكَمِ وَأَيَّامِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ] (5) / وَلَدِيهِ تَدَوَّرَ عَلَى عِيْسَى [٢٠٠]
ابن دينار ، وَزَوْثَانُ بْنُ الْحَسَنِ (6) ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى الْإِغْثِيُّ رَاوِيَةٌ (7) وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ ،

(1) زيادة عن تاريخ ابن القوطية ص ٥٨ .

(2) ص : حوثر ، والتصويب عن الخشني (كتاب القضاء ص ٩٢ - ٩٤) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩)

ولو أن الاسم ورد هنا « بن جدير » بالميم ، وهو خطأ كذلك .

(3) في الأصل : أحمد بن زياد ، والتصويب عن ابن القوطية (نفس الموضع السابق) والخشني (قضاء ص ١٠٠ -

١٠١) وابن سعيد (مغرب ١ / ١٥٠) ، فضلا عن أنه ورد من قبل في نص ابن حبان كما أثبتنا ، وسيرد كذلك في هذا الكتاب .

(4) ص : خالد ، وهو تحريف ، والصواب ما أثبتنا ، وهو أيضا ما جاء في ابن القوطية (نفس الموضع السابق)

وسائر المراجع التي تعرضت لقضاة قرطبة مثل كتب الخشني والنهاي وابن سعيد .

(5) أعدنا كتابة هذه العبارة - وموضعها مطبوس طمسا شديداً - اعتماداً على ما جاء في المغرب لابن سعيد (١٤٩/١)

وهو ينقله عن ابن عبد البر ، ولو أن نص ابن سعيد شديد الاختصار .

(6) ص : الحسين . (7) ص : رواية .

ويحيى بن يحيى الليثي ، وسعيد بن حسان ، وعبد الملك بن حبيب ، ومحمد بن خالد الأشج .
وغلب يحيى بن يحيى جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمن ، وألوى بإشارته ، فصار يلتزم من أعظامه وتكريه وتنفيذ أموره ما يلتزمه الولد لأبيه ، فلا يستقضي قاضياً ولا يعقد عقداً ولا ينعضي في الديانة أمراً إلا عن رأيهِ وبعد مشورته ، ويحيى بن يحيى في طي ذلك يعترف للأمير عبد الرحمن بجميل ذلك ، فلا يتأبى في ذكر إحماد سيرته ، ووصف معذلاته وتزيين آثاره لدى رعيته ، وتحضيضهم على طاعته ، واستنهاضهم لتكاليفه ، يتأبى لذلك بلطف تناوله وسلامة جانبه ، وكأنه لا يقصده ، ويرى^(١) السلطان منفعته ، فيزداد في أعظام قدر الشيخ يحيى بصيرة ، ولا ينقض لرياسته مريرة .

قرأت في كتاب معاوية بن هشام الشيبينسي قال :

حدثني أبي هشام (١٥٨) قال :

سمعت الفقيه أضرع بن خليل (١٥٩) يقول :

خرج الأمير عبد الرحمن بن الحكم غازياً إلى بعض أهل الخلاف بالغرب الأقصى ، وعقده على أن لا يدخل إلى دار الحرب سنته ، فلم يستنفر أهل المؤسسة (١٦٠) ، واقتصر على مدونته (١٦١) ، فلما تهيأ له مراده في عصاة أهل الغرب وأصلحه بدا له في القبول إلى الحضرة ، ورأى الدخول إلى بلد العدو ، وإتمام غزوته بالصمد إلى نكايته ، فتقدم في تهيئة ذلك ، ووافى كتابه على البريد إلى ولده محمد بن عبد الرحمن ، وهو مخلفه على قرطبة ، ليلتزم للكون بالسطح على باب السدة من قصر الخلافة مبيت الأمير على العادة (١٦٢) فأمره باستنفار الناس نحوه ، وأخذ بتعجيل الخروج إليه واللاحق به بمكان رسمه (٢) لهم وجه عزيته ، وأمره أن يحضر

. ويقرى

الناس [كتاب الأمير] .

(١) ص : يثرى ، ولعلها تحريف عما أثبتنا .

(٢) ذهبت في قتلوع أسفل الورقة العبارات التي تركنا مكانها بيضاء ، ولو أن المعنى في جملة واضح ، إذ يؤخذ من السياق أن محمد بن الأمير عبد الرحمن أمر بجمع وجوه الناس ليبين لهم رغبة والده في استنفار الناس للجهاد وليقرأ عليهم كتاب الأمير في ذلك .

[فَوَافَيْنَا مُحَمَّدًا ، وهو] / يومئذِ أَمَرَدُ ، مَا فِي وَجْهِهِ شَعْرَةٌ ، فَسَلَّمْنَا عَلَيْهِ ، وَقَضَيْنَا حَقَّهُ [١٢٠١] وَجَلَسْنَا عَلَى مَنَازِلِنَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَبْطَأَ الشَّيْخُ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى ، وَالْعَيُونُ تَتَطَلَّعُ نَحْوَهُ ، فَكَانَ آخِرَ الْقَوْمِ مَجِئًا ، وَصَارَ الْوَلَدُ أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْهُ عَلَى جَمِيعِهِمْ لِاقْبَالٍ ، وَإِلَيْهِ انْعِطَافًا ، وَبِهِ بَشَا ، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى فِرَاشِهِ ، وَأَخْفَى يَحْيَى سُؤَالَهُ ، وَدَعَا لَهُ (١) .

ثُمَّ [أَمَرَ] (٢) مُحَمَّدٌ عِنْدَ ذَلِكَ بِقِرَاءَةِ كِتَابِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَلَيْنَا بِالِاسْتِنْقَارِ ، فَأَضْغَيْنَا إِلَيْهِ . فَلَمَّا فَرَّغَ بَدَرَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى فَقَالَ :

نَعَمْ ، أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ . الْوَاجِبُ عَلَيْنَا الْخُفُوفُ إِلَى الْإِمَامِ أَصْلَحَهُ اللَّهُ وَأَيَّدَهُ ، وَالْبِدَارُ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ ، وَالْأَلَّا يَعْتَذِرَ فِي ذَلِكَ مِنَّا [إِلَّا] (٢) مُعْتَذِرٌ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ عُذْرَهُ . لَا سِوَاهُ .

فَقِيلَ لِلنَّاسِ : قَدْ سَمِعْتُمْ ، فَقَوْمُوا فَانظُرُوا فِي جِهَازِكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . وَعَجَّلُوا لِلخُرُوجِ ، فَآخِرَ مَوَاقِيتِكُمْ يَوْمٌ كَذَا .

فَقَامَ النَّاسُ ، وَلَمْ يَتَحَرَّكِ الشَّيْخُ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى فِي ذَلِكَ مِنْ مَكَانِهِ .
قَالَ أَضْبَغُ :

وَوَرَدَ عَلَى مِنْهُمْ النَّفِيرُ بِمَا (٣) لَا قَبِيلَ لِي بِهِ ، إِذْ كُنْتُ مُقْبِلًا لَا مَالَ لِي ، وَلَا نَهْوَصَ بِي ، فَاشْتَدَّ عَلَيَّ (٤) ، وَخَبَّتْ فَصَاحَتِي (٥) . وَلَمَّا رَأَيْتُ يَحْيَى لَا يُشِيرُ إِلَى الْقِيَامِ وَكُنْتُ عَلَى ظَنِّ أَنْ لَهُ خَبْرًا أَرَدْتُ الْوُقُوفَ عَلَيْهِ ، وَكَانَتْ لِي مَكَانَةٌ مِنْ صَاحِبِ الْمَدِينَةِ الْمُتَوَلَّى لِلْقَصَّةِ انْبَسَطَتْ مِنْ أَجْلِهَا بِالْجُلُوسِ .

فَلَمَّا لَمْ يَبْقَ غَيْرِي أَقْبَلَ يَحْيَى عَلَى الْوَلَدِ مُحَمَّدٍ ، فَقَالَ :
قَدْ يَرَى الْأَمِيرُ ضَعْفِي عَلَى النَّفْرِ لِشَيْخِي وَوَهْنِي وَأَنْ مِثْلِي لَا يَسْتَطِيعُ الْغَزْوُ ، وَلَكِنِّي أَبْعَثُ ابْنِي عَبْدَ اللَّهِ (٦) (١٦٣) فِي مِثْلِ الْعِدَّةِ الَّتِي كُنْتُ أَغْزُو بِهَا ، فَلَمَّئِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - أَغْنَى

(٢) زيادة يقتضيها السياق .

(٤) ص : ص ، بغير إصجاب .

(١) ص : وادعاه له .

(٣) ص : ما ، ولعلها كما أثبتنا .

(٥) ص : وخفت بصاحتي .

(٦) كذا في الأصل ، ولعل الصواب « عبيد الله » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

وَأَجَدَى مِنِّي . فَإِنْ رَأَى الْأَمِيرُ سَيِّدِي أَنْ يَكْتُبَ إِلَى الْإِمَامِ - أَيْدَهُ اللَّهُ - بِعُذْرِي وَمَكَانِ طَوِيَّتِي فَقُلْ . فَقَدْ كَرِهْتُ أَنْ أَعْتَذِرَ بِمَخْضَرِ الْمَلَأُ ، لِثَلَاثٍ أَوْجَدَ لِي مَنْ لَيْسَ لَهُ عُذْرِي سَبِيلًا إِلَى الْاعْتِذَارِ .

فشكر له محمد فُعلَه ، واستحسن فيه رأيه ، ووعدَه بتجديد المخاطبة في شأنه .

فقام يحيى ، وذهبتُ إلى القيام ، وقد هَبْتُ الكلام ، فقال لى صاحبُ المدينة :

قد علمتُ الذى تذهبُ إليه والذى تَسْتَحْيِي الكلامَ من أجله . وَحَقُّكَ لَازِمٌ لِي ، فَلَأَنْتَ مُخَيَّرٌ بَيْنَ أَنْ تَنْفُذَ لِرَأْيِ الْإِمَامِ فَتُلْحَقَ بِهِ مُسْتَرِيحًا لِيْلَهُمْ عَنْ قَلْبِكَ ، وَبَيْنَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْتَكَ ، وَتُعْلِقَ بِأَبْلِكَ عَلَيْكَ ، فَلَا تَخْرُجَ عَنْهُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَى أَنْ يَقْبَلَ قُلَّ الْإِمَامِ أَضَالَحَهُ (1) اللَّهُ ، وَأَنَا مِنْ وَرَاءِ الْحِفْظِ لَكَ بِحَوْلِ اللَّهِ .

قال :

فاخترت [لزوم (1)] بيتي ، فلم أخرج منه إلى أن قفل الأمير ، فلم [أَهْجُ] بإغضاء صاحب المدينة ، [وأقام على (1)] بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِي ، إِذْ [تَبَيَّنَ لَهُ عُذْرِي (1)] .

قال ابن عبد البر :

[وكانت فُتْيَا الْقُضَاةِ فِي مَدَّةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ تَدُورُ عَلَى نَفَرٍ مِنْ (2)] / الْجِلَّةِ مَاتُوا (3) فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (4) فِي مُدَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، إِلَّا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ حَبِيبٍ ، فَإِنَّهُ اسْتَأْخَرَ بَعْدَ آخِرِهِمْ مَوْتًا إِلَى أَنْ هَلَكَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، فَلَحِقَ عَبْدَ الْمَلِكِ مِنْ أَيَّامٍ وَلَدِهِ

(1) كلمات لم تبق منها إلا بقايا وأطراف حروف أعدنا على أساسها تركيبها .

(2) أكلنا هذه الجملة معتمدين - فضلا عن السياق - على ما نقله ابن سعيد المغربي عن أحمد بن محمد بن عبد البر مرجع ابن حيان في هذا الموضع ، إذ يقول : « وكانت فتيا (في الأصل : فيها ، ونظنها محرقة عما ذكرنا) القضاة في مدة عبد الرحمن تدور على عيسى بن دينار ويحيى [بن يحيى] وعبد الملك [بن حبيب] ، وكلهم مات في مدته إلا عبد الملك فإنه أدرك في مدة محمد ستة شهور » (المغرب ١ / ١٤٩) ، والخبر في جملة يتفق مع ما نقله ابن حيان ، لولا ما تلاسظه دائما من ميل ابن سعيد إلى الاختصار الشديد .

(3) ص : مانسرا .

(4) ص : الأمير [محمد بن] عبد الرحمن . والاسم بهذه الصورة لا يتفق مع بقية الخبر ، ولهذا فقد صوبناه بما يرى في المتن .

الأمير محمد بن عبد الرحمن ستة أشهر أو نحوها ، ثم تبع أصحابه - رحمة الله تعالى عليهم - ، ففُرِصَتْ زُمْرَتُهُمْ ، وانقلبت رئاسة الفتوى إلى من تلاهم .

وكان من مشاهير من رَحَلَ إلى المشرق في طلب العلم وإتقاء الرواية من أهل قرطبة فأدرك الغاية : محمد بن يوسف بن مطروح (١٦٤) ، ومحمد بن حارث (١٦٥) ، وأبو زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم^(١) (١٦٦) ، وعبد الأعلى بن وهب (١٦٧) ، وبقى بن مَخْلَد (١٦٨) رضى الله تعالى عنه ، ومحمد بن وَضَّاح (١٦٩) ، ويحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن (١٧٠) ، وأبان بن عيسى بن دينار (١٧١) ، وعُبَيْدُ الله بن يحيى بن يحيى (١٧٢) ، وكان من آخرهم رَحْلَةً في آخرَيَاتِ الأمير عبد الرحمن فتشور من أعيان هؤلاء اللاحقين في أيام الأمير عبد الرحمن : عَبْدُ الْأَعْلَى بن وهب ، وأصبغ ابن خليل .

قال :

واعملت مَنْزِلَةً عبد الملك بن حبيب (١٧٣) عند الأمير عبد الرحمن ، ولا سيما من بعد وفاة الشيخ يحيى بن يحيى ، فإنه تَفَرَّدَ بِأَثَرِيهِ ، وحلَّ مَنْزِلَتَهُ ، فلم يَكُنْ يُقَدِّمُ أَحَدًا من أصحابه عليه ، ولا يَعْدِلُ بِمَشُورَتِهِ عنه .
وذكر معاوية بن هشام الشَّيْبَانِيُّ قال :

كانت في أيام الأمير عبد الرحمن مخارجُ للناس إلى الاستسقاء (١٧٤) في زَمَنِ الْجُلُوبِ ، وكان البروزُ في أكثرها إلى مُصَلَّى الرِّبْضِ بِعُدُوَّةِ نهر قرطبة الدنيا ، أسفلها مَقْعَدًا مُصَلَّى الأعياد . فحضرهم مَخْرَجُ استسقاء آخرَ أَيَّامِ الأمير عبد الرحمن بعد مَهْلِكِ نَصْرِ الْخِصْيِ خَلِيفَتِهِ الْغَالِبِ عَلَى رَأْيِهِ ، أَنْزَلَ النَّاسَ به ليوم يَعْينُهُ إلى الرِّبْضِ على عادتهم ، فأنكر ذلك الفقيهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بن حبيب ، وَكَتَبَ إلى الأمير عبد الرحمن يذكر أن نصرًا هو الذى عاق الناس عن مُصَلَّى الْمُصَارَةِ ، وتولَّع بصرف بروزهم إلى مُصَلَّى الرِّبْضِ لقربه من قصره هناك ، وقد دفعه (2)

(1) ص : عبد الرحيم بن هارون إبراهيم . وقد وضع الناسخ على لفظ هارون خطأ يشير به إلى شطب هذه الكلمة مستبدلاً لها باسم إبراهيم المذكور بعد ذلك ، غير أن هذا التصويب غير كاف ، فصحة الاسم ما أثبتنا ، وهكذا ورد في تاريخ ابن الفرضي ، رقم ٧٧٩ ؛ وجزوة الحميدى ، رقم ٥٩١ ؛ والديباج المذهب لابن فرحون ص ١٤٧ - ١٤٨ .
(2) كلمات مطبوعة تماماً لم نستطع تبين شيء منها .

[أَرْفَقُ بِالنَّاسِ] وَأَخَوْتُ ، عَلَى اَزْدِحَامِهِمْ فِي الْقَنْطَرَةِ ، فَقَدْ صَبَحَ عِنْدَهُ أَنْ جَمَاعَةً مِنْهُمْ هَلَكُوا يَوْمَ الْاِسْتِسْقَاءِ غَرَقًا (1) فِي النِّهْرِ فَأَثْقَلُوا قَارِبًا [وَنَزَلُوا فِيهِ لِيَاذًا] مِنْ ضَيْقِ الْقَنْطَرَةِ ، [فَرَسَبَ بِهِمْ] ، وَهَلَكَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ ، وَأَنْ مِنْ آفَاتِ اَزْدِحَامِ النَّاسِ فِي الْقَنْطَرَةِ مَا بَلَغَهُ مِنْ أَنْ أَحْدَاثًا .

[٢٠٢ ا] / وَالْمُزْعِجُ لِلْخَوْفِ (2) فَمُصَلَّى الْمُصَارَةِ أَرْفَقَ بِالنَّاسِ كَافَّةً ، فَإِنَّ مَنْ حَرَكْتُهُ مِنْهُمْ (3) لِمِرَاقَةٍ أَوْ اِنْتَقَضَتْ بِهِ طَهَارَتُهُ تَقَارَبَ عَلَيْهِ شَطُّ النِّهْرِ ، فَدَبَّ النَّاسُ مِنْ قُرْبٍ ، وَنَالَ حَاجَتَهُ بِسُرْعَةٍ ، وَمَنْ طَلَبَ مِنْهُمْ التَّسْتِثْنَاءَ لِشَأْنِهِ أَمَكَنَهُ اِلِسْتِجْنَانُ بِدَاخِلِ الْجَنَاتِ الْمَلَايِكَةِ (4) لِلْمُصَارَةِ فَتَبَرَّى (5) فِيهَا مِنْ غَيْرِ بُعْدٍ عَنْ مُصَلَّاهُ . فَصُوبَ الْأَمِيرُ رَأْيَهُ ، وَانْصَرَفَ الْبُرُوزُ لِّلِاسْتِسْقَاءِ إِلَى مُصَلَّى الْمُصَارَةِ الَّذِي اخْتَارَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ .

وَذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ ابْنُ الْفَرَّحِيِّ قَالَ :

بَلَغَ مِنْ اِنْبِسَاطِ الْفَقِيهِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ حَبِيبٍ عَلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءِ (١٧٥) : [مِنَ الْبَسِيطِ]

لَا تَنْتَسِ - لَا يُنْسِيكَ الرَّحْمَنُ - عَاشُورَا

وَإِذْكُرُهُ - لَا زِلْتَ فِي الْأَحْيَاءِ مَذْكُورَا -

قَالَ الرَّسُولُ - صَلَاةُ اللَّهِ تُشْمَلُهُ -

قَوْلًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ الْحَقَّ وَالنُّسُورَا :

مَنْ بَاتَ فِي لَيْلِ عَاشُورَاءَ ذَا سَعَةٍ

يَكُنْ بِعَيْشَتِهِ فِي الْحَوْلِ مَحْبُورَا

(1) كلمات مطبوعة تملأ لم نستطع تعيين شيء منها .

(2) من : والمندمج العوف . ولعل المصواب ما أثبتنا ، أي المثير للخوف وهو بلا شك يصف بهذه الصفة مقتل الربيع الذي صرف نصر إليه الناس لقربه من قصره .

(3) من : منه

(4) في الأصل كلمة غير واضحة تحتل قراءتها ما ذكرنا ، ويمكن أن تقرأ أيضا « الملحمة » .

(5) من : فحبرى .

فَادْعَبَ - فَدَيْتُكَ - فَمَا فِيهِ رَغَبُنَا
خَيْرُ السُّورَى كُلِّهِمْ حَيًّا وَمَقْبُورًا

وَقَرَأَتْ بِحَظِّ عُبَادَةِ الشَّاعِرِ (١٧٦) قَالَ :

كَانَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَأَصْحَابُهُ الْفُقَهَاءُ يَحْسُدُونَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ حَبِيبٍ لِتَقَدُّمِهِ عَلَيْهِمْ
يَعْلَمُونَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَهَا وَلَا يَشْرَعُونَ فِيهَا ، إِذْ كَانَ مَعَ تَقَدُّمِهِ فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ عَالِمًا
بِالْإِعْرَابِ وَاللُّغَةِ ، مُفْتَنًا فِي الْعُلُومِ الْقَدِيمَةِ ، مُتَصَرِّفًا فِي الْآدَابِ النَّاصِعَةِ ، لَهُ تَوَالِيفُ جَمَّةٌ
فِي أَكْثَرِ هَذِهِ الْفُنُونِ ، مِنْهَا كِتَابُهُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ ، وَفِي شَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَفِي الْأَنْسَابِ
وَفِي النُّجُومِ ، وَغَيْرِهَا (١٧٧) .

وَلَهُ بَيْتٌ شَعَرَ فِي التَّعْرِيفِ بِبَعْضِ قَضَاةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ضَمَّنَهُ كِتَابًا خَاطَبَهُ بِهِ
فِي شَأْنِهِ : [مِنَ الْخَفِيفِ] :

كَانَ بِالْقَاسِطِينَ مِنَّا رَوُوفًا وَعَلَى الْمُقْسِطِينَ سَوَاطٍ عَذَابٍ (١٧٨)

نواذِرُ من أخبار قضاة الأمير

عبد الرحمن

مستخرجة من كتاب « الاحتفال » (١٧٩)

مسرور بن محمد (١٨٠):

قال محمد بن حارث [الخشني ^(١)] :

[هو مسرور بن محمد] بن سعيد بن بشير ^(٢) بن شراحيل المَعاقِرِيُّ ، ووالده محمد [قاضي الجماعة بقرطبة] الشهيرُ فضله (١٨١) ، ولأه الأُم [ير عبد الرحمن بن الحكم رحمهما الله قضاء الجماعة بقرطبة ، و] كان من الصالحين الفاضلين .

[حدثني من وثقت به من أهل العلم ، قال : حدثني محمد بن أحمد بن عبد الملك المعروف بابن الزَّرادِ (١٨٢) ، قال :

كان عندنا بقرطبة قاضٍ يعرف بمسرور ، وكان من الزُّهادِ ؛ استأذن من حَضْرَةِ من الخصوم يوماً في أن يقومَ لحاجةٍ [/ يقضيها فأذِنُوا له ، فقام عنهم نحو منزله ، ولم يلبث أن خرج ^(٣) وفي يده خبزة نِيَّةٌ ، فذهب بها إلى الفرن ، فقال له بعضٌ من رآه : أنا أكفيكَ أيها القاضي ! فقال له : فإذا أنا عُرِيتُ عن القضاء - قَرَبَهُ اللهُ تعالى مني - تُرَانِي أَجِدُكَ كلَّ يومٍ تكفيني حَمَلَهَا ؟ ما أراك تَنَشِطُ ^(٤) لذلك ! بل الذي حَمَلَهَا قَبْلَ القضاء يحملها ^(٥) بَعْدَ القضاء .

(١) اعتمدنا فيها استكملناه من هذا النص على ما بقى فيه من حروف خلال القطوع التي أصابت أسفل الورقة ، وعلى كتاب القضاء بقرطبة للخشني ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) ص : بكير ، وهو تحريف .

(٣) ص : ضر .

(٤) ص : نشط ، وقد تكون « نشطا » (بفتح النون وكسر الشين) .

(٥) ص : يحملنا .

وقال ابن عبد البر

مسرور⁽¹⁾ بن محمد هذا من موالى الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، يكنى أبا نُجَيْح ، استقضاه الأميرُ عبدُ الرحمن بن الحكم بعد حامد بن يحيى (١٨٣) الذى كان آخر قضاة والده الحكم وأول قضاة هو ، وذلك سنة سبع ومائتين ، فلم تَطُلْ ولايته ، وتوفي سنة ثمان ومائتين فى آخرها ..

وقال القاضى أشلمُ بن عبد العزيز (١٨٤) .

سمعتُ أبي (١٨٥) يذكر أنه تَسَمَّى جماعةً من موالى الخلفاء بأسماء العرب ، فأنكر ذلك عليهم الأميرُ بفضْلِ أنفَتِهِ ، وأكَّدَ فيه نَهْيَهُ (١٨٦) ، وكان له مولى من عِثَاقَةِ أبيه يسمى بمحمد (١٨٧) ، ووُلِدَ له وَلَدٌ سماه مسرورا ، سُمِّيَ به على (2) حَدِّ الأمير ، فَحَسُنَتْ نَشَأَتُهُ ، واستقامت طريقته ، وتفقه وتعبَّد ، وشهرَ فضلُه إلى أن ولَّاه الأمير عبد الرحمن القضاء بقرطبة ، فاستقلَّ بالعمل ، وأحسن وسَلَكَ الطريقة ، فاغْتَبَطَ به الناس ، إلا أنه عُوْجِلَ ، فتُوفِيَ من عامِهِ الذى فيه استقضاه .

سعيد بن سليمان (١٨٨) :

قال ابن عبد البر :

هو (3) سعيد بن سليمان ، يكنى أبا عثمان ، أصْلُهُ من فَحْصِ البَلُوطِ (١٨٩) ، وكان عَمُّ سليمان بن أسود (١٩٠) القاضى فيما بلغنى ..

ذكر محمد بن مسرور (4) عن أبيه قال :

سمعتُ سليمانَ بنَ أسود القاضى يقول : كان سعيد بن سليمان يخطب بخطبة واحدة لصلاة الجمعة طولَ مُدَّتِهِ لم يُبَدِّلْهَا .. ولقد برز الناس للاستسقاء فى بعض أيامِهِ ، فلما ابتداء خَفَفَتِ العَبْرَةُ ، وأَشْكَلَتْ عليه الخُطْبَةُ ، فاختصرها ، وكَثُرَ من الاستغفار ، والضَّرَاعَةِ ، ثم صَلَّى ، وانصرف ، فسَقَى الناسَ ليومِهِمْ .

(2) ص : فتى .. مل .

(4) ص : مسروق .

(1) ص : مسروق .

(3) ص : أبو .

قال :

وتولى القضاء للأمير عبد الرحمن مرتين .

وقال محمد بن حارث :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب الغافقي^١ ، يكنى أبا خالد ، أصله من مدينة [غافق]⁽¹⁾ [١٩١]
وولاد الأمير عبد الرحمن قضاء الجماعة بقرطبة ، وقد كان [ولي قضاء ماردة] [١٩٢] وغيرها
قبل ولايته لقضاء قرطبة ، وكان من خيار [من وكّلوا القضاء للأمير عبد الرحمن ، وهو
عَمُّ سليمان بن أسود] الذي ولي قضاء قرطبة .

وكان [يُروى عن الفقيه أبي عثمان سعيد بن] عثمان الأغناقي^٢ [١٩٣] عن محمد بن وضاح
أنه [كان يقول : ولي القضاء أربعة ما ولي] القضاء في مملكة [الإسلام] مثلهم ، فاتصل
بهم [العذل في آفاقها : دحيم بن الوليد (١٩٤) بالشام ، والحارث بن مسكين (١٩٥) بمصر ،
[١٢٠٣] وسخنون بن سعيد (١٩٦) بالقيروان ، وسعيد بن سليمان بقرطبة .

فأما دحيم بن الوليد بن عبد الرحمن بن ابراهيم وهو المعروف باليتيم فكان⁽²⁾ من أهل
دمشق ، ولّاه جعفر المتوكل على الله أيام رأى أن يفعل الخير أو يستصلح إلى الناس بعد
استفساد سلفه إليهم بالمحنة في خلق القرآن ، فقلّده قضاء الشام في وقت لم يصبح لي
تاريخه ، ومات غير مُمتنع بولايته سنة خمس وأربعين ومائتين بمدينة الرملة .

وأما الحارث بن مسكين فولّاه جعفر أيضا قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ،
جاءته ولايته وهو بالإسكندرية ، فحوّل إلى القسطنطينية ، فكان قاضي مصر إلى أن عُزل
في ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين .

وأما سخنون بن سعيد التُّنُوجِيّ^٣ فإنه ولّاه⁽³⁾ قضاء إفريقية مُحَمَّلًا بِالْأَغْلَبِ التَّيْمِيّ^٤ [١٩٧]

(1) اعتمدنا في استكمال النص على مرجع ابن حبان هنا وهو كتاب الخلفاء : قضاء ص ١٧٠ - ١٠٨ ، فضلا عما
بقى من الحروف خلال القطوع .

(2) ص : وكان .

(3) ص : ولي .

أَمِيرُهَا لَجَعْفَرِ الْمُتَوَكِّلِ أَيْضًا سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ ، فَلَمْ يَزَلْ قَاضِيًا إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ
فِي صَدْرِ رَجَبِ سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَمِائَتِينَ .

وَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْأَنْدَلُسِيِّ فَإِنَّهُ وَلَّاهُ قَضَاءَ قَرْطَبَةَ أَمِيرُ الْأَنْدَلُسِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ
الْحَكَمِ ، أَحْسَبُهُ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ - وَالشَّكُّ مِنِّي - فَلَمْ يَزَلْ قَاضِيًا إِلَى أَنْ
مَاتَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ ، وَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ ^(١) ابْنُهُ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ
ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَأَقْرَهُ ^(٢) عَلَى الْقَضَاءِ وَعَمِلَ لَهُ نَحْوَ سَنَتَيْنِ إِلَى أَنْ مَاتَ بِقَرْطَبَةَ ، وَهُوَ
عَلَى قَضَائِهِ . وَلَا أَعْلَمُ ^(٣) لَهُ عَقِيًّا (١٩٨).

وَذَكَرَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ [بَنِ أَبِي خَالِدٍ أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ] ^(٤) الرَّحْمَنِ اخْتَارَهُ لَجَمِيلِ
الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَأَرْسَلَ فِيهِ يَسْتَدْعِيهِ لِلْقَضَاءِ ، فَجَلَسَ لِلْحَكَمِ فِي الْمَسْجِدِ ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ صَوْفٍ
بَيْضَاءُ ، وَفَوْقَ رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ بَيْضَاءُ مِنْ قَاضِي جُبَّتِهِ ، فَلَمَّا أَنَّ نَظَرَ ^(٥) إِلَيْهِ الْوُكَلَاءُ الَّذِينَ
يُخَاصِمُونَ عَنِ النَّاسِ عِنْدَ الْقَضَاءِ ازْدَرَوْهُ وَاسْتَغْبَوْهُ ، وَطَلَبُوا الْإِثْذَارَ فِيهِ ، فَجَاءُوا فِي مَغِيْبِهِ
عَنِ الْمَسْجِدِ بِقُفَّةٍ مَمْلُوءَةٍ مِنْ قُشُورِ الْبُلُوطِ ، وَوَضَعُوهَا تَحْتَ الْحَصِيرِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فَوْقَهُ
فَلَمَّا اقْتَرَشَهُ عِنْدَ اسْتِوَاءِ جُلُوسِهِ أَقْضَى ^(٦) عَلَيْهِ وَتَوَحَّشَ مِنْ صَوْتِ احْتِكَاكِهِ ، فَتَحَوَّلَ عَنْهُ ،
وَنَظَرَ إِلَى ^(٧) الْقُشُورِ ، فَأَنْكَرَ مَكَانَهُ ، وَجَلَسَ عَلَى مَكَلٍ بِذَلِكَ ، [وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ الْوُكَلَاءَ فَعَلُوا
ذَلِكَ وَصَحَّ عَنْده مَا قِيلَ لَهُ فِيهِمْ .

فَلَمَّا أَتَوْهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ : [^(٨) يَا مَعْشَرَ الْخُصَمَاءِ ،] عَيْرٌ تُمَوْنِي بِأَنِّي بَلُوطِيٌّ ،
وَذَلِكَ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ ! أَشْهَدُ [عَلَى نَفْسِي أَنِّي بَلُوطِيٌّ : عُوْدٌ وَاللَّهُ صَلِيبٌ لَا تَفْلُونَ ^(٩) فِيهِ .
ثُمَّ حَلَفَ لَهُمْ بِأَنَّهُ كَلَامُهُ هَذَا أَنَّ لَا يَخَاصِمُوهُ عِنْدَهُ سَنَةً ، فَكَادَ أَنْ يُورِثَهُمُ الْفَقْرُ] (١٩٩).
[وَذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ لُبَابَةَ ^(١٠) (٢٠٠) عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ الْعُتْبِيِّ ^(٢٠١) قَالَ :

(١) ص : الْأَمِيرُ بَعْدَ . (٢) ص : فَأَخْبَرَهُ . (٣) ص : يَعْلَمُ .

(٤) الزِّيَادَةُ عَنِ الْحَشِيِّ : الْقَضَاءُ ص ١٠٨ ، وَقَدْ جَاءَتْ الْعِبَارَةُ فِي الْأَصْلِ : أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ .

(٥) ص : نَظَرَ .

(٦) ص : أَقْضَى . (٧) كَلِمَةٌ مَطْمُوسَةٌ هُنَا لَمْ نَسْتَطِعْ تَبْيِينَهَا ، وَلَعَلَّهَا « مَوْضِعٌ » .

(٨) قَمْنَا بِاسْتِكْمَالِ النَّصِّ مَعْتَمِدِينَ عَلَى بَقَايَا حُرُوفِ كَلِمَاتِهِ وَعَلَى كِتَابِ الْحَشِيِّ ، قَضَاءُ ص ١٠٩ .

(٩) فِي كِتَابِ الْحَشِيِّ (نَفْسُ الصَّفْحَةِ) : تَفَعَّلُوا ، وَفِي نَفْسِ النَّصِّ (طَبْعَةُ الْقَاهِرَةِ) ص ٩٤ : تَفَلُّوا .

(١٠) التَّكْلَةُ عَنِ الْحَشِيِّ ص ١١٢ .

٢٠٣ ب] / صَلَّى بنا يوماً سعيد بن سليمان القاضي صلاة الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خَرَجْنَا معه نَمْشِي نحو داره ، فلما انتهى إلى باب القُرْنِ الذي كان يطْبُخُ فيه قال لصاحب القرن : أَطْبَخْتَ^(١) خبزتي ؟ فقال له : نعم . قال : فهاتِها . فناولهُ إِيَّاهَا ، فَصَبَّرَهَا تحت عَصِيهِ ، وَقَوَّمَ طَرِيقَةَ إلى داره ، ونحن نَمْشِي معه ، ونحن قد أَخَرْنَا كَوَائِبَنَا لِجَلَالِهِ ، حَتَّى أَدِينَاهُ إلى منزله ، فَسَلَّمْ عَلَيْنَا ودخل وانصرفنا عنه (٢٠٢).

وفي كتابِ القاضي أبي الوليد ابن الفَرَضِيِّ :

هو سعيد بن سليمان بن حبيب بن المُعَلَّى بن إدريس بن محمد بن يوسف الغافقي البَلُوطِيُّ ، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم مرتين (٢٠٣).

يحيى بن مَعْمَرِ الأَلْهَانِيِّ (٢٠٤) :

قال محمد بن حارث :

يحيى بن مَعْمَرِ بن عِمْرَانَ بن مُنِيرِ بن عُبَيْدِ بن أَنَيْفِ الأَلْهَانِيِّ ، من العرب الشاميين (٢٠٥) وكان من أهل إشبيلية ، مَنَزَلُهُ منها بِمَقَرَّانِهِ (٢٠٦) ، قرية بقرب الحاضرة ، وعليها مَرَّةُ السَّابِلَةِ ، وكان في وقته فقيه إشبيلية وفارِضَها^(٢) ، وكانت له رحلة لَقِيَ فيها أَشْهَبَ بنَ هَبْدِ العزیز (٢٠٧) ، وسمع منه ومن غيره من أهل العلم ، وكان وَرِعًا زَاهِدًا فاضلاً عَفَا مَقْبَلًا على عِمَارَةِ ضيعته وترْقِيحِ^(٣) معيشته ، فانتَهَى خَبْرُهُ إلى الأمير عبد الرحمن ، وقد احتاج إلى قاضٍ ، فاعْتَمَاهُ^(٤) للقضاء ، واستقدمه إلى قرطبة ، فقلَّده قضاء الجماعة بها ، فَصَدَّقَ الظَّنُّ بِهِ ، واغتنى من خير القضاة في قَصْدِ سيرته ، وحُسْنِ هَدْيِهِ ، وصلابة قناته ، وإِنْفَاذِ الحقِّ على من توجَّهَ عليه ، لا يحفل لَوَمَةً لائمٍ فيه .

وكان إذا أَشْكَلَ عليه أمرٌ من أحكامه واختلف عليه فيه فقهاء قرطبة تَأَنَّى بهم ، وَكَتَبَ فيه إلى مصر إلى أَصْبَغِ بنِ الْفَرَجِ (٢٠٨) وغيره من نظرائه ، فيكشِفُهُمْ على وجه ما يريد

(١) ص : أصبغت .

(٢) الفارض والفرض هو القائم بقسمة الفرائض أي الموارث .

(٣) ص : تربيح ، والصواب ما أثبتنا ، والترقيح هو إصلاح المعيشة ، وهو لفظ كثير الدوران في كلام ابن حبان

(٤) في الأصل بغير إعجام .

ويطلب النجاة من تَخْلُفٍ^(١) الفقهاء عليه ، بُغْيَةً أَجْوِبَتِهِمْ فِي ذَلِكَ بِمَا يَعْمَلُ عَلَيْهِ ، فَكَانَ فقهاء قرطبة يحقِّدون ذلك عليه ، فَيُذَمُّونَهُ وَيَتَّبِعُونَ عَثَرَاتِهِ ، وَيُبَغِّضُونَهُ إِلَى [النَّاسِ] ، وَكَانَ أَشَدَّهُمْ عَلَيْهِ زَعِيمُ الْجَمَاعَةِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى ، فَهُوَ الَّذِي سَمِيَ^(٢) فِي تَجْرِيعِهِ إِلَى أَنْ عُزِّلَ عَنِ الْقَضَاءِ .

فذكر خالدُ [بن سعد] (٢٠٩) قال : سمعت غير واحد من مشايخ أهل العلم يقول : كان^(٣) بين الشيخ يحيى بن يحيى وبين يحيى بن معمر [عداوة شديدة] ، فَسَعَى يَحْيَى بْنُ يَحْيَى فِي [عَزْلِ يَحْيَى بْنِ مَعْمَرٍ الْقَاضِي عِنْدَ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَقَامَ عَلَيْهِ الْبَيِّنَاتِ] . [مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْعَدَالَةِ] .

[قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ :

وَقَدِيمَ لَيْلَةِ عِيدٍ ، وَكَانَتْ تُوضَعُ لِلْإِمَامِ عَنَزَةٌ فِي الْمُصَلَّى (٢١٠) ، فَبَاكَرَ أَهْلُ الدُّهَاءِ وَالْحَرَكَةِ وَاصْطَفَوْا إِلَى الْعَنَزَةِ ، لِيُخْتَبَرُوا خُطْبَتَهُ وَيَنْتَقِدُوا عَلَيْهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِمْ عَرَفَ بِهِيْثَاتِهِمْ أَنَّهُمْ بِالْصِفَةِ الَّتِي كَانُوا بِهَا]^(٤) ، / وَوَقَعَ فِي رُوعِهِ السَّبَبُ الَّذِي ذَهَبُوا إِلَيْهِ ، فَكَادَهُمْ بَأَنَّ قَالَ لِلْقَوْمَةِ : إِنِّي أَرَى النَّاسَ قَدْ أَزْحَمُوا حَوْلَ الْعَنَزَةِ ، فَقَدَّمُوهَا إِلَى الْقَضَاءِ لِيَسْتَوْسِعُوا لِإِبَادَةِ الْقَوْمَةِ إِلَى تَقْدِيمِ الْعَنَزَةِ حَتَّى وَسَّعَتْ ، فَتَكَنَّفُوهَا وَاصْطَفَوْا حَوْلَهَا ، وَتَشَاوَلَ ذُووُ الْهَيْثَاتِ الَّذِينَ نُقِلَتْ مِنْ سَبَبِهِمْ - كَمَا خُفَّ أَوَّلُكَ لَهُ - وَمَكثُوا بِمَكَانِهِمْ ، فَحَصَلَ الشَّيْخُ بِحِيلَتِهِ عَلَى قُرْبٍ مِنْ لَمْ تَكُنْ عَلَيْهِ مَوْؤَنَةٌ مِنْ نَقْدِهِ ، وَاسْتَحْنَفَرَ فِي خُطْبَتِهِ ، فَكَانَ ذُووُ التَّحْصِيلِ يَعْجَبُونَ مِمَّا فَعَلَهُ ، وَيَحْكُونَهُ كَثِيرًا عَنْهُ .

وذكر إبراهيمُ بن محمد بن بَاز (٢١١) قال :

لَمْ يَزَلْ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ حَبِيبٍ مُمَالِيًا لِلْقَاضِي ابْنِ مَعْمَرٍ مُخَالَفًا لِلشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى فِيهِ إِلَى أَنْ عَصَاهُ ابْنُ مَعْمَرٍ فِي الْقَضَاءِ لِرَجُلٍ يُغْنَى بِهِ ابْنُ حَبِيبٍ ، تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ فَتَوَى

(١) يعنى بالتخلف هنا الاختلاف . (٢) كلمات مطموسة لم نستطع تبيين شئ منها .

(٣) استعنا في استكمال هذا النص بكتاب الحشني ص ٨٢ ؛ والنهاي : المرقبة العليا ص ٤٥ .

(٤) استكملنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ - ١٤٧) ، وقد جاءت القصة أيضا مع بعض الخلاف والاختصار

في كتاب الحشني ص ٨٥ .

تُوجِبُ القضاء له برأى أَشْهَبَ ، وتوجَّهَتْ بِضِدِّهَا عليه برأى ابن القاسم (٢١٢) ، أَخَذَ ابنُ مَعْمَرٍ فيه برأى ابن القاسم ، فَلَفَّتَهُ ابنُ حَبِيبٍ عَنْهُ إِلَى رَأْيِ أَشْهَبَ ، وَكَلَّمَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ بِهِ ، فلم يَفْعَلْ ، وقال : ما أَغْدِلُ عن رَأْيِ ابنِ القاسمِ ، فهو الذى أَفْتَيْتُمُونِي بِهِ مُنْذُ قَعَدْتُ هَذَا الْمَقْعَدَ (٢١٣) . وَقَضَى عَلَى الرَّجُلِ برأى ابنِ القاسمِ .

فَغَضِبَ عَلَيْهِ من يومئذ ابنُ حَبِيبٍ ، وظاهرَ يحيى بن يحيى ضِدَّهُ عَلَى مُطَالَابَتِهِ ، وَدَسَّسَ من رَفَعَ عَلَيْهِ إلى الأمير أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ القضاء ، فَعَزَلَهُ فى آخر سنة تسع ومائتين ، وَسَرَّحَهُ إِلَى بَلَدِهِ .

فَبَلَّغْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَرْمَعَ الرَّحِيلَ رَكِبَ بُغْيَلَتَهُ الَّتِي جَاءَ بِهَا ، وَوَضَعَ خُرَيْجَهُ الَّذِي سَاقَهُ تَحْتَهُ وَقَالَ لِمَنْ شِيعَتُهُ من صَدِيقِهِ : يَا أَهْلَ قَرْطَبَةَ . أَقِلُّوا عَلَيْنَا اللَّوْمَ ، فَكَمَا جِئْنَاكُمْ كَذَلِكَ نَنْصَرِفُ عَنْكُمْ !

وذكر عثمان بن سعيد الزاهد (٢١٤) قال :

لَمَّا اخْتُصِرَ يحيى بن مَعْمَرٍ بِإِشْبِيلِيَّةَ وَأَيَقُنَ بِالْمَوْتِ قَالَ لِمَوْلَى لَهُ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ كَانَ يَنْصَحُهُ : أَقِيمْ عَلَيْكَ بِاللَّهِ أَجَلَ الْأَقْسَامِ إِذَا أَنَا مِتُّ إِلَّا مَا ذَهَبَتْ إِلَى قَرْطَبَةَ ، فَقَفِىَ بِيحيى ابن يحيى وقل له : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (٢١٥) . ففَعَلَ مَوْلَاهُ مَا أَمَرُهُ ، وَأَبْلَغَ يحيى مَا بِهِ تَقَرَّرَعُهُ . قَالَ : فَبَكَى يحيى حَتَّى أَخْضَلَ لَحِيَّتَهُ ، وَقَالَ : [إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ] (١) رَاجِعُونَ ! مَا أَظُنُّنَا إِلَّا خُدْعَنَا فِي الرَّجُلِ وَوُثْقَى [بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ . ثُمَّ تَرَحَّمْ عَلَيْهِ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ] (٢) .

[قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ ابْنُ الْقَرَّضِيِّ :

قَالَ خَالِدُ بْنُ سَعْدٍ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ خَالِدٍ (٢١٦) يَقُولُ : كَانَتْ لِيحيى بن مَعْمَرٍ رَحْلَةٌ لَقِيَ فِيهَا أَشْهَبًا (٣) بن عبد العزيز ، وَسَمِعَ مِنْهُ ، وَوَلَّى الْقَضَاءُ بِقَرْطَبَةَ سنة تسع ومائتين

(١) التكملة عن الخشني : قضاة ص ٨٩ ، والنهاي : مرقبة ص ٤٥ .

(٢) التكملة عن المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة .

(٣) التكملة عن كتاب ابن القرضي ، ترجمة رقم ١٥٥٣ .

بعد سعيد بن بشير^(١) (٢١٧) في أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وعَجَّلَ صَرْفَهُ بِالْأَسْوَارِ بْنِ عُقْبَةَ
الوالى بعده سنة عشر ومائتين .

ذكر ذلك ابن عبد البر ، ولم يَذْكُرْ أَنَّهُ أُعِيدَ إِلَى الْقَضَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً .

/ وَحَكَى ابْنُ حَارِثٍ أَنَّ الْأَمِيرَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَعَادَهُ إِلَى الْقَضَاءِ مَرَّةً ثَانِيَةً ، وَذَلِكَ الصَّحِيحُ [٢٠٤ب]
والدليل عليه أَنَّ يَحْيَى بْنَ مَعْمَرٍ صَلَّى بِالنَّاسِ صَلَاةَ الْخُسُوفِ بِقَرْطَبَةِ ، وَهُوَ قَاضٍ ، فِي
مَسْجِدِ أَبِي عُمَانَ مِنَ الرَّيْصِ الْغَرْبِيِّ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ . رَوَى ذَلِكَ أَحْمَدُ بْنُ خَالِدٍ عَنْ
ابْنِ وَضَّاحٍ قَالَ : صَلَّيْتُ الْخُسُوفَ مَعَ يَحْيَى بْنَ مَعْمَرٍ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ (٢١٨) .

الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ (٢١٩) :

قال محمد بن حارث :

هو أَبُو عُقْبَةَ الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ النَّضْرِيُّ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ جَيَّانَ ، فَاسْتَقْدَمَهُ الْأَمِيرُ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى قَرْطَبَةِ ، وَوَلَاهُ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِهَا ، أَشَارَ بِهِ عَلَيْهِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى عِنْدَ عَزْلِ
ابْنِ مَعْمَرٍ . وَكَانَ مِنْ أَهْلِ التَّحَرُّى وَالتَّوَّاضُعِ وَحُسْنِ السَّيْرِ وَاقْتِفَاءِ السَّلَفِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ
يَتَصَرَّفُ - زَعَمُوا - فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ ، وَيَحْمِلُ خُبْرَهُ إِلَى الْفُرْنِ بِنَفْسِهِ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَمَا سَلِمَ
مِنْ فَقْهَاءِ قَرْطَبَةِ . وَهُوَ الَّذِي ابْتَنَى الْمَسْجِدَ الَّذِي يَعْرِفُ بِمَسْجِدِ الْأَسْوَارِ فِي الزُّقَاقِ الْكَبِيرِ
بِقَرْطَبَةِ .

وقال ابن عبد البر :

الْأَسْوَارُ بْنُ عُقْبَةَ ، كَانَ رَجُلًا صَالِحًا عَاقِلًا فَاضِلًا مُسَمِّيًا حَسَنَ الْحُكْمِ مُسْتَقِيمَ الْقَضَاءِ
وَكَانَ الْفَقِيهَ مُحَمَّدَ بْنَ عَيْسَى الْأَعَشَى (٢٢٠) كَثِيرَ الدُّعَابَةِ لَا يَصْبِرُ عَنْهَا ، فَكَانَ يَقُولُ
لِلْأَسْوَارِ قَبْلَ أَنْ يَلِيَ الْقَضَاءَ : كَيْفَ حَالُكَ يَا أَبَا عُقْبَةَ ؟ - مَفْتُوحَةُ الْعَيْنِ مَثْقَلَةٌ (٢٢١) - ،
فَلَمَّا وَلِيَ الْقَضَاءَ أَنَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَيْسَى ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ مَعَ آخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْقَبُولِ ، فَأَعْلَمَ
[بِرَدِّ اسْمِ مُحَمَّدٍ] (٢) دُونَهُ ، وَقَالَ لِلْمَشْهُودِ لَهُ : زِدْنِي بَيِّنَةً ! وَذَلِكَ بِمَحْضَرِ الْأَعَشَى .

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَالَّذِي جَاءَ فِي ابْنِ الْفَرُغِيِّ الْمَوْضِعِ الْمَذْكُورِ فِي الْحَاشِيَةِ السَّابِقَةِ : سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ بَشِيرٍ .

(٢) فِي الْأَصْلِ قَطَعَ ذَهَبٌ بَعْضَ حُرُوفِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَلَوْ أَنَا نَظَرْنَا كَمَا أَثْبَتْنَا .

فقال له : أَظُنُّكَ - أَكْرَمَكَ اللهُ - لمْ تَقْبَلْ شهادتي ! فقال له : أَنْتَ - أَكْرَمَكَ اللهُ - جَادٌ في شهادتك هذه أو هازل ؟ فَإِنِّي أَعْرِفُكَ كَثِيرَ الْهَزَلِ ، فَعَرَّفَنِي إِنْ كُنْتَ صَدَعْتَ بِهَا عَنْ حَقٍّ ، فَمِثْلُكَ لَا تُرَدُّ شهادته ، وَإِنْ كَانَتْ مِنْ أَهْزَالِكَ^(١) فَقَدْ وَقَفْتُهَا . فقام عنه الْأَعشى مُنْقَطِعَ الْحُجَّةِ . فكان يقول بعد ذلك : قَاتَلَ اللهُ الْأَسْوَارَ ! فلقد قَطَعَ بِي عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كُنْتُ أُسْتَرِيحُ إِلَيْهِ مِنَ الدُّعَابَةِ بعد مجلسي معه .

وَأَنشُدُ^(٢) : [من المتقارب]

[١٢٠٥] / وَتَحَسَّبُ مِنْ خِيبِهِ أَنَّهُ تَرَاهُ عَنِ النَّاسِ فِي غُرْبَةٍ
وما ذاك مِنْهُ - فلا تَأْمَنُوا هُ - إِلَّا لِيُتَمَكِّنَهُ الْوُقْبَةُ
رَأَيْتُ لَهُ نَاطِرِي هِرَّةٍ تَرَاءَى لَهَا الْفَأْرُ فِي ثُقْبَةٍ

أبرهيمُ بن العباس القُرَشِيُّ^(٣) (٢٢٢) :

قال محمد بن حارث :

هو إبراهيم بن العباس بن عيسى بن عُمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يكنى أبا العباس ، استقضاه الأمير عبد الرحمن بن الحكم بمشورة يحيى بن يحيى ، فكان محموداً في قضائه ، عادلاً في حكومته ، متواضعاً في أحواله ، غَيْرَ مُتَصَنِّعٍ^(٣) ولا مُتَرَفِّعٍ .

حكى محمد بن عمر بن لبابه قال :

كان القاضي أبو العباس المرواني رُبَّمَا جَلَسَ في بيته يَقْضِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِنْ جَارِيَتُهُ لَتَنَسِجُ في كِسْرِ الْبَيْتِ .

(١) ص : أَهْزَالِكَ .

(٢) ذهبت في قطوع آخر الورقة بنية هذه العبارة التي تتضمن اسم الشاعر صاحب القطعة التالية والأبيات الأولى منها ، ولو أننا نظن أن قائلها ينبغي أن يكون يحيى بن الحكم الغزال فهي بأسلوبه أشبه وإلى شعره أقرب . ومن الواضح أنها في هجاء القاضي الأسوار بن عقبة .

(٣) كذا في الأصل ، وفي كتاب القضاة للخشي (ص ٩٠) ، ويحتمل أن تكون أيضا « متصنع » - أراد أن يقابل بها « مترفع » الآتية بعد .

قال :

وكانت ولايته سنة أربع عشرة أو خمس عشرة

وذكر محمد بن وضاح قال .

هو إبراهيم بن العباس إلى الشيخ يحيى بن يحيى جدًا ، وعول على رأيه ، فوجد أعداؤه السبيل إلى ذمه والسعاية عليه ، من باب انقطاعه إلى يحيى ورضا يحيى عنه من بين من لم يزل يسخطه من القضاة قبله ، فوشوا الوقائع (1) فيهما (2) إلى الأمير عبدالرحمن ، وانتصحوه في تالفهما ، وقالوا إن إبراهيم لا يقبل من الناس إلا من أشار عليه يحيى بقبوله ولا يفصل في حكومة إلا عن أمره ، فقد استمال الناس إليه ، فلهم فيه هوى شديد ، وطمعه قوى في أن يصير الأمر في يده ، فشغل بال الأمير جدًا ، ووهمه في دغل الشيخ يحيى بن يحيى على انحطاطه في شيعه وعزوه لإرادته .

فأخضر ضده عبدة الملك بن حبيب وخلا به ، وقال له :

- قد تعلم يدى عندك ، وأنا مكثرت لأمر كبير أريد أن أسألك عنه ، فاضدني فيه .

فقال : نعم ، لا يسألني الأمير - أعزه الله - عن شيء إلا صدقته عنه .

قال : فإنه رفع إلينا عن قاضينا إبراهيم وعن صديقه يحيى بن يحيى أنهما يعملان علينا في هذا الأمر (٢٢٣) .

فقال له عبد الملك (3) :

- [قد علم] (3) الأمير ما بيني وبين يحيى من التباعد ، ولكني لا أقول إلا [الحق] :

ليس يجيئ (3) من عند يحيى إلا ما [يجيئ مني] (3) ، فمكانه من الدين مكانه ، [وكل

(1) كذا ، ولها وجه من التأويل واضح ، وقد تكون « قدسوا الرقاق » .

(2) ص : فيها .

(3) استكلنا هذا النص من كتاب القضاة للخشي ص ٩٢ .

ما رُفِعَ عليه إليك فباطلٌ . وأما القاضي فلا ينبغي للأمير أن يشركه في عدله من يشركه في نسبه .

فَعَزَّكَ الأميرُ حينئذٍ عن القضاء [(٢٢٤)] .

[وقال محمد بن حارث :

أخبرني بعض العلماء قال :

[٢٠٥ب] قَدِمَ مُوسَى بْنُ حُدَيْرٍ (٢٢٥) عَنِ الْحَجَّ [وَكَانَ فِي الْغَايَةِ مِنْ] ^(١) - / النَّبَالَةِ ، وَدَعَاهُ

الأمير عبد الرحمن إلى الخلة ، فَأَبَى عَلَيْهِ ، وَلَزِمَ الانْقِبَاضَ ، فَبُلِيَ بَعْدَ مُدَّةٍ بِامْرَأَةٍ مِنْ جِيرَانِهِ اسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ الْقَاضِيَّ إِبْرَاهِيمَ ، وَذَكَرَتْ أَنَّهُ ظَلَمَهَا فِي دَارٍ لَهَا تُلَاصِقُهُ .

فَأَرْسَلَ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ وَأَخْضَرَهُ إِلَى مَجْلِسِهِ ، وَوَقَفَهُ عَلَى دَعْوَى الْمَرْأَةِ ، وَاقْتَضَى جَوَابَهُ .

فَقَالَ لَهُ : أَوْكُلْ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - عِنْدَكَ مِنْ يُخَاصِمُهَا عَنِّي .

فَقَالَ : لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تَقُولَ مَا عِنْدَكَ مِنْ إِقْرَارٍ أَوْ إِنكَارٍ ، ثُمَّ تَوَكَّلْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى خُصُومَتِكَ مِنْ نَشَاءٍ .

فَقَالَ مُوسَى : لَا ، بَلْ أَذَاكِرُ نَفْسِي ، وَأُقَدِّمُ مِنْ يُجَابِبُ عَنِّي بِمَا أَحَقُّهُ ^(٢) مِنْ أَمْرِهَا .

فَأَبَى إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ ، وَاضْطَرَّ إِلَى تَعْجِيلِ جَوَابِهِ فِي مَجْلِسِهِ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ . فَلَمَّا لَمْ يَهْجُذْ مِنَ الْجَوَابِ بُدًّا ، وَقَدْ حَمَى وَالتَّطَى ، قَالَ ^(٣) :

أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ - أَضْلَحَكَ اللَّهُ - ؟ أَقُولُ إِنَّ جَمِيعَ مَا تَدْعِيهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ حَقٌّ ، وَهِيَ

فِي دَعْوَاهَا مُصَدِّقَةٌ لَا اغْتِرَاضَ عِنْدِي عَلَيْهَا . فَلَا سَبِيلَ لَكَ إِلَيَّ !

فَقَامَ وَهُوَ قَدْ احْتَمَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ حِقْدًا عَظِيمًا حَمَلَهُ عَلَى أَنْ سَعَى عَلَيْهِ ، وَأَرْهَفَ حِيلَتَهُ

لِمَطَالَبَتِهِ .

(١) كلمات يقتضيا السياق أو شيء في معناها .

(٢) ص : أحقه . (٣) ص : فقال .

وابتداً فكَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَذْكُرُ لَهُ أَنَّهُ تَعَقَّبَ رَدَّ أَمْرِهِ فِيمَا كَانَ أَرَادَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُعَاوَدَةِ الْعَمَلِ ، وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ حُجَّ فِي صِدْقِ طَاعَتِهِ ، وَفَرِيضَةِ وِلَايَتِهِ ، وَسَأَلَهُ تَقْلِيدَ الْخِزَانَةِ الَّتِي كَانَتْ مِضْمَارَ أَمَانَتِهِ ، فَأَعْجَبَ الْأَمِيرُ ذَلِكَ مِنْ اعْتِرَافِهِ ، وَوَلَّاهُ الْخِزَانَةَ ، فَتَصَرَّفَ فِيهَا تَصَرُّفًا (1) أَذْنَاهُ مِنْهُ ، فَأَنْبَسَطَ إِلَيْهِ فِي غَيْرِ شَيْءٍ ، ثُمَّ سَأَلَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ الْخُلُوءَ لَهُ يَذْكُرُهُ ، فَأَجَابَهُ إِلَيْهَا ، فَقَالَ لَهُ :

— صَحَّ عِنْدِي أَنَّ الْقَاضِيَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ يُخَاطَبُ فِي مَجْلِسِ نَظَرِهِ بِأَنَّ (2) يُقَالُ لَهُ : « يَا بَنَ الْخَلَاِيفِ » وَأَنَّ لَهُ اسْمًا يُصْغَى أَلُوبَ الْعَامَّةِ إِلَيْهِ !

فَلَمْ يَمْتَلِكِ الْأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ حِينَ وَقَرَّتِ الْكَلِمَةُ أُذُنُهُ أَنْ عَزَلَ إِبْرَاهِيمَ .

قال محمد بن حارث :

وَسَمِعْتُ الْأَمِيرَ وَلِيَّ [عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ] (3) (٢٢٦) ابْنَ النَّاصِرِ لَدِينِ اللَّهِ يَقُولُ إِنَّهُ سَمِعَ الْحَاجِبَ مُوسَى بْنَ مُحَمَّدٍ بْنِ حُدَيْرٍ (٢٢٧) يَقُولُ لِمَنْ مَوْسَى بْنُ حُدَيْرٍ عَمَّهُ دَسَّسَ امْرَأَةً مِنْ مَوَالِيهِ [فَوَقَفْتُ لِلْقَاضِي عَلَى طَرِيقِهِ] (3) فَنَادَتْهُ : يَا بَنَ الْخَلَاِيفِ ! [فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِعَزْلِ إِبْرَاهِيمِ]
قال أحمد [بن عبد البر] (4) :

[هُوَ جَدُّ بَنِي أَبِي صَفْوَانَ ، وَكَانَ عَاقِلًا فَاضِلًا مُسَمِيًا ، وَكَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يُؤَلَّى الْقَضَاءَ بَعْدَ الْأَسْوَارِ رَأْسَ الْفُقَهَاءِ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى ، فَاِمْتَنَعَ ، وَأَشَارَ بِإِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ عَلَى] / عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَوَلَّاهُ الْقَضَاءَ ، فَاسْتَقَلَّ بِهِ ، وَأَقْسَطَ (5) فِي حُكْمِهِ (٢٢٨) ، [٢٠٦] وَأَشْرَفَ فِي طَوَاعِيَّتِهِ لِلشَّيْخِ يَحْيَى بْنِ يَحْيَى وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُوِّ ، حَتَّى لَحِقَتْهُمَا مَعًا تُهُمَةٌ

(1) ص : تصريحاً . (2) ص : أن .

(3) استكملنا هذا النص من كتاب القضاء للخشي ص ٩٤ .

(4) استكملنا هذا النص مما نقله ابن سعيد عن ابن عبد البر في المغرب ١ - ١٤٨ .

(5) كذا في الأصل ، ولا نستبعد أن تكون محرفة عن « وقسط » . انظر تعليقنا على هذا الموضع .

التَّوَّاطُّرُ عند الأمير عبد الرحمن ، فسارَعَ في صَرْفِهِ عن القضاء ، وذلك آخر سنة ثلاث عشرة ومائتين .

قال :

وكان يَكْتُبُ للقاضي إبراهيم عَبْدُ الملك بن الحسن زَوْنَانُ الفقيه (٢٢٩) ، أشار به عليه يحيى بن يحيى .

مُحَمَّدُ بن سَعِيدٍ (٢٣٠) :

قاضي للأمير عبد الرحمن بن الحكم ، لم يَذْكُرْهُ محمد بن حارث ، وذكره أحمد بن عبد البر ، فقال :

القاضي محمد بن سعيد ، يُكْنَى أبا عبد الله ، وكان أَصْلُهُ من كُورَةِ الْبَيْرَةِ ، وكان مَعْرِفَةً لِلشَّيْخِ يحيى بن يحيى ، وكان يَنْزِلُ به يحيى بِبَلَدِهِ أَيَّامَ كان يَضْرِبُ بِالتَّجَارَةِ أَوَّلَ أَمْرِهِ ، بَلَا عِلْمَهُ^(١) ومَعْرِفَتَهُ ، فَأَشَارَ به على الأمير عبد الرحمن ، فولَّاهُ قِضَاءَ الْجَمَاعَةِ أَوَّلَ سنة أربع عشرة ومائتين ، فاستقلَّ به ، وكان جميلَ المذهب في قضائه ، حَسَنَ السُّمْتِ والهيئة ، إلا أنه كان طاعةً ليحيى بن يحيى لا يَعْدِلُ به أَحَدًا ، وكان إذا اِخْتَلَفَ عليه الفقهاء لم يَعْدِلْ عن يحيى مَعْدِلًا .

فَاتَّفَقَ أَنْ وَقَعَتْ لَهُ قِصَّةٌ شَاوَرَهُمْ فِيهَا ، تَفَرَّدَ الشَّيْخُ يحيى بن يحيى بِقَوْلٍ خَالَفَتْهُ^(٢) فِيهِ جَمَاعَتُهُمْ ، فَأَرْجَأَ الْقِضَاءَ فِيهَا حَيَاةً مِنْ جَمَاعَتِهِمْ ، وَأَرْدَفَتْهُ قِصَّةٌ أُخْرَى شَاوَرَهُمْ فِيهَا [بَعْدَ]^(٣) تَوْقِيفِهِ لِلأَوَّلِ ، وقد اغْضَبَ بِذلك يحيى . فَلَمَّا أَتَاهُ كِتَابُهُ هَذِهِ الرَّدَافَةُ صَرَفَهُ عَنْ رَسُولِهِ ، وقال له :

— مَا أَفْلُكُ لَهُ خِتَامًا ، وَلَا أُشِيرُ عَلَيْهِ بِشَيْءٍ ، إِذْ قَدْ تَوَقَّفَ عَنِ الْقِضَاءِ لِفُلَانٍ بِمَا أَشْرَتْ بِهِ عَلَيْهِ وَعَافَهُ .

(١) ص : عليه .

(٢) ص : خالفهم .

(٣) كلمة مطموسة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا .

فلما انصرف إليه رسوله وعرفه بقوله قلن منه ، وركب من قوره إلى يحيى بن يحيى ،
فقال له :

— لم أظن أن الأمر يبلغ بك في توقفي عن القضاء لفلان بفتواك هذا المبلغ الذي
قد غيرك . وهذا مقام المعتلر إليك ، فسوف أفضي له غير⁽¹⁾ يؤمى إن شاء الله تعالى !

فقال له يحيى : وتفضل ذلك صيدقا ؟

قال : نعم .

فقال له يحيى بن يحيى :

— يا هذا ، هيئت الآن غصبي ! فأتى ظننت إذ خالفني أصحابي أنك توقفت مُستخيراً
لله ، مستخيراً في الأقوال . فأما إذ⁽²⁾ صيرت تتبع الهوى وتقضي برضا مخلوق ضعيف فلاخبر
فيما تجي⁽³⁾ به ، ولا في إن رضىته منك . فارتفع مُستغنياً من ذاتك ، فإنه أشتَرُ لك ،
ولاً رقت في عزلك !

فرفع يستغني ، فعزل عن القضاء .

يُخَامِرُ بْنُ عُثْمَانَ الشَّعْبَانِيَّ* (٢٣١)

قال ابن حارث :

هو⁽⁴⁾ يُخَامِرُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ حَسَّانَ بْنِ يُخَامِرِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَبِيدِ بْنِ أَفْنَانَ بْنِ وَدَاعَةَ بْنِ
عُمَرَ الشَّعْبَانِي .

وقال عبد الله بن يوسف المعروف بابن الفرضي .

(1) كذا ، ولما وجه واضح من التأويل ، عل أنه يحتمل أيضا أن تكون « غد » .

(2) ص : إذا .

(3) ص : يحيى .

(4) ص : هذا .

بل هو معافى (٢٣٢) .

قال ابن حارث : لا أعرف له كنية . وقال غيره : كنيته أبو مخارق (١) .

وهو أخو معاذ بن عثمان القاضي (٢٣٣) وعم سعد بن معاذ الفقيه (٢٣٤) ، وهم من أهل جيان (٢٣٥) من قرية الأشعوب (٢٣٦) . وكان انتسابهم في العرب إلى جذام فيما أحسبه ، وهم - فيما قيل - من جند قنسرين (٢) ، وولى الأمير عبد الرحمن بخامر هذا قضاء الجماعة بقرطبة ، ولم يك أهلاً له ، ولا راجع الوزن ، ولا حاضر اليق [ين] ، ولا واسع الب [هيرة] فيه ، [وعامل الناس بخلق صعب ، ومذهب وعري ، وصلاية جاوزت المقدار ، فتسلطت عليه الألسن ، وكثرت فيه المقالة] (٣) .

[٢٠٦ ب] / وانبرى له شاعر قرطبة في ذلك الزمان يحيى بن الحكم الغزال منتهك الأغراض ، ومخزي الرجال ، فأكثر هجوه وذمه ، ووصفه بالبله والجهل ، فندد بذكره . فمن قوله شعر له : [من الطويل]

فُسُبْحَانَ مَنْ أَعْطَاكَ بَطْشًا وَقُوَّةً وَسُبْحَانَ مَنْ وَلَّى الْقَضَاءَ يُخَاوِرَا
وقوله من أخرى : [من الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ : كَلَّفْتَنِي غَيْرَ صَنَعَتِي كَمَا قَلَّدُوا فَضْلَ الْقَضَاءِ يُخَاوِرَا
فَأَصْبَحَ قَدْ حَارَتْ بِهِ طُرُقُ الْهَوَى يُكَابِدُ لُجْيًا مِنَ الْبُخْرِ زَاخِرَا
فَقُلْتُ : لَوْ اسْتَعْفَيْتَ مِنْهَا ، فَقَالَ لِي سَأَفْصَحُ مَا قَدْ كَانَ ذَلِكَ (٤) مُغَايِرَا
فَقُلْتُ لَهُ : رَأْسُ الْفُضُوحِ إِقَامَةٌ عَلَيْنَا كَذَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مُكَابِرَا
وَحَبْطُكَ فِي دِينِ الْإِلَهِ عَلَى عَمَى خِبَاطَةٌ سَكَرَانٍ تَكَلَّمَ سَادِرَا

(١) ص : مخاق ، والأرجح أن تكون كما أثبتنا .

(٢) ص : فلسطين ، والصواب ما أثبتنا ، وهو ما جاء في كتاب الخشني ص ٩٥ ، وانظر تعليقنا على هذا الموضع

(٣) ما أثبتناه بين حواصر اعتمادنا فيه على ما بقى من خلال القطوع وعلى ما استخلصناه من نص الخشني المذكور في

الحاشية السابقة

(٤) ص : ذلك ، واللفظ على كل حال قلق .

فَلَنْ تَحْمِلَ الصُّخْرَ الذُّبَابُ وَلَنْ تَرَى السَّ
وقوله فيه : [من المجث] (م) لاجِف يُزَجِّنَ السَّفِينَ المَوَاحِرَا

لَقَدْ سَوِّغْتُ عَجِيْبًا من آيَدَاتِ يُخَامِرُ
قَرَا عَلَيْهِ غُلَامٌ طَهَ وَشُورَةَ غَافِرُ
فَقَالَ : مَنْ قَالَ هَذَا ؟ هَذَا لَعَنَرِي شَاعِرُ !
أَرَدْتُ صَفَعَ قَفَاهُ فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرُ
أَتَيْتُ يَوْمًا بَيْتِي مُسْتَعِيرًا مُتَحَاسِرُ⁽¹⁾
فَقُلْتُ : قُومُوا اذْبَحُوهُ فَقَالَ : إِنِّي يُخَامِرُ !

وكان الغزالُ بديقًا مُنتَهَكًا للأغراضِ

: قال ابن حارث :

وحدَّثني الأميرُ وليُّ العهدِ الحَكَمُ بنُ النَّاصِرِ لدينِ الله - وقد جرى ذكرُ يُخَامِرٍ وما وصفِ
من بَلَهِهِ وَغَفَلَتِهِ - قال :

أَلْقَى عَبْدُ اللَّهِ بنُ الشَّوْرِ (٢٣٨) الشَّاعِرُ يَوْمًا بينَ سِحَاءَاتِ يُخَامِرِ بنِ عُمَانَ التي كان يُنادِي
بها الخصومَ لِلتَّقَدُّمِ إِلَيْهِ سِحَاءَةً مَكْتُوبًا عَلَيْهَا « يُونُسُ بنُ مَتَّى » و« المَسِيحُ بنُ مَرْيَمَ » ،
وخرَجَتِ السِحَاءَةُ إلى يَدِهِ ، فَأَمَرَ أَنْ يُدْعَى لَهُ بها ، فَهَتَفَ الهَاتِفُ : يُونُسُ بنُ مَتَّى ، والمَسِيحُ
ابنِ مَرْيَمَ ! وَاتَّصَلَ الهَاتِفُ بخَارِجِ المَجْلِسِ ، وَلَا مُجِيبَ ، إلى أَنْ صَاحَ ابنُ الشَّوْرِ : إِنْ
نُزِلَتْهُمَا من أَشْرَاطِ السَّاعَةِ ؟ .. ثُمَّ تَنَاولَ سِحَاءَةً فَكَتَبَ فِيهَا :

يُخَامِرُ مَا تَبَنَّفَكَ تَأْتِي بِفِضْحَةٍ
دَعَوْتَ ابْنَ مَتَّى وَالْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ
فَثَوَّبَ فِينَا ثُمَّ نَادَاكَ صَائِحُ :
فَإِنَّهُمَا لَمَّا عَلَى الْأَرْضِ يُعْلَمَا

(1) ص : متجاسر ، ولعلها كما أثبتنا ، أى « متصنفا للحيرة » .

قَفَاكَ قَفَا جَحْشٍ وَوَجْهَكَ مُظْلِمٌ
وَعَقْلُكَ مَا يَسْوَى مِنَ الْبَعْرِ دِرْهَمًا
فَلَا عِشْتَ مَوْدُودًا وَلَا رُحْتَ سَالِمًا
وَلَا مِتَّ مَفْقُودًا وَلَا مِتَّ مُنْزِلِمًا

فلم يَلْبَثَ الفقهاء أن أطَبَقُوا على دَمِّ يُخَايِرٍ وَقَدَحِهِ (1) ، وَثَارَتِ الْعَامَّةُ بِهِ ، فَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ قَوْمٌ رَفَعُوا [فِيهِ إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَشْكُونَهُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا كَثُرَ ذَلِكَ] (2) عَلَى الْأَمِيرِ أَمَرَ الْوُزَرَءَ بِالشَّهَادَةِ [وَالنَّظَرَ فِي أَمْرِ يُخَايِرٍ ، فَذُكِّرَتْ عَنْهُ أَشْيَاءٌ مَدَارُهَا عَلَى قَلَّةِ الْمَدَارِقِ] وَتَرَكُوا حُسْنَ الْمَعَامَلَةِ .

[قَالَ مُحَمَّدٌ] بَنِ حَارِثَ : وَأَخْبَرَنِي [مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو (٢٣٩)] قَالَ :
فَلَمَّا أَتَى الْفَتَى إِلَى يُخَايِرَ بَعَزْلِهِ مِنْ عِنْدِ الْأَمِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ لَهُ يَخَايِرُ عَلَى رُؤُوسِ
النَّاسِ : قُلْ لِلْأَمِيرِ - أَصْلَحَهُ اللَّهُ - إِذْ وَلَّيْتَنِي أَمَرْتَنِي أَنْ أَتَحَفَّظَ مِنَ السَّلْسِلَةِ السُّوءِ ،
وَالْيَوْمَ تَعَزَّلْنِي بِبَغْيِهَا عَلَيَّ ! فَلَمَّا بَلَغَ الْفَتَى قَوْلَهُ إِلَى الْأَمِيرِ قَالَ : قَبِّحَهُ اللَّهُ ! ذَكَرَ أَسْرَارَنَا
عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ !] .

[١٢٠٧] [وَكَانَ الْأَمِيرُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَدْ ضَاقَ بِبَيْحِي بْنِ يَحْيَى وَالْفُقَهَاءِ الضَّالِّينَ] (3) / مَعَهُ
فِي كُلِّ مَا يُشِيرُ بِهِ وَلَا يَخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ، فَكَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَكْرَهُ تَأَلُّبَهُمْ وَيَقْلَقُ
مِنْهُمْ وَيُسَمِّيهِمْ « سِلْسِلَةَ السُّوءِ » . فَلَمَّا وَلَّى يَخَايِرَ بْنَ عَثْمَانَ الْقَضَاءَ حَفَّظَهُ مِنْهُمْ وَسَمَّاهُمْ لَهُ
هَذَا الْأِسْمَ ، فَتَجَنَّبَهُمْ (4) يُخَايِرَ ، وَأَخَذَ (5) حِذْرَهُ مِنْهُمْ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ تَمَالَأُوا عَلَيْهِ ، فَأَفْشَوْا
ذَمَّهُ ، وَأَبْدَوْا عَيْبَهُ (6) ، وَكَرَّهُوهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْمَلُوا أَقْلَامَهُمْ فِيهِ إِلَى الْأَمِيرِ حَتَّى أَمَرَ بِعَزْلِهِ
فَلَمَّا أَنْ جَاءَهُ الرُّسُولُ فَضَحَّ سِرَّهُ بِالْقَوْلِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، فَزَادَ فِي كُرْهِهِ لَهُ .

(1) فِي الْأَصْلِ كَلِمَةٌ غَيْرُ وَاضِحَةٍ لَهَا كَمَا أَثْبَتْنَا .
(2) اسْتَكَلْنَا هَذَا النَّصَّ مَعَ الْمَحَافِظَةِ عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ كَلِمَاتِهِ خِلَالِ الْقَطْعِ مِنْ كِتَابِ الْقَضَاءِ لِلْخَشْتِيِّ ص ٩٥ - ٩٦ .
(3) اسْتَكَلْنَا هَذِهِ الْمُبَارَةَ بِمَا يَفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ فِي أَوَّلِ الصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ .
(4) ص : فَتَحَبَّبَهُمْ .
(5) ص : وَأَخْلَوْا .
(6) ص : عَيْبُهُ .

وقال ابن عبد البر :

القاضي يُخَامِرُ بن عثمان ، لا أحفظُ له كُنْيَةً ، وأصله من جِيَان ، ولأه الأمير عبد الرحمن القضاء سنة عشرين ومائتين ، وكان رجلاً فاضلاً عَفَا خَيْرًا ، غير أنه كانت فيه عُنْجُيَّةٌ (1) وجَفَاءٌ (2) . لَمَّا بَلَأَ أَمَرَ الحكومةَ بقرطبةَ ونظر إلى قَدْرِ الشيخ ابن يحيى عند (3) أهلها وغلَبَتُهُ على نفوسهم وطَوَاعِيَّتُهُمْ لَهُ ضَاقَ صَدْرًا بِهِ ، فكتب إلى الأمير عبد الرحمن : « إِنِّي قَدِمْتُ إلى قرطبةَ ، فوجدتُ لها أميرين (4) : أميرَ الأخيارِ ، وأميرَ الأشرارِ . فأما أميرُ الأخيارِ فَيحيى بن يحيى ، وأما أميرُ الأشرارِ فَأَنْتَ » . فَاسْتَجَفَاهُ عبد الرحمن وأَمَرَ بِعَزْلِهِ .

وَأَعَادَ عَلَى القضاء سَعِيدَ بن سليمان ، فلم يَزَلْ سَعِيدٌ قَاضِيًا من آخرِ سنة عشرين ومائتين إلى آخرِ سنة سبع وعشرين ، فإنه تَوَفَّى بِهَا ، وَاسْتَقْضَى الأمير عبد الرحمن مكانه علي بن أبي بكر الكِلَابِي .

علي بن أبي بكر الكِلَابِي (٢٤٠) :

قال ابن عبد البر :

هو علي بن أبي بكر القَيْنِي ، يُكْنَى أبا الحَسَنِ ، وهو جدُّ علي بن محمد بن البَّاسَةِ (٢٤١) استقضاهُ الأميرُ عبد الرحمن سنة سبعٍ وعشرين . أَشَارَ بِهِ الشيخُ يحيى بن يحيى ، وَقَلَّمَا كَانَ الأميرُ عبد الرحمن يُوكِّلُ قَاضِيًا إِلَّا عَنْ مَشُورَةِ يحيى بن يحيى ورضاه ، وَلِذَلِكَ مَا كَثُرَتْ الْقَضَاةُ فِي أَيَّامِهِ ، إِذْ كَانَ الشَّيْخُ يحيى بن يحيى يَشِيرُ بِالْقَاضِي مِنْهُمْ بَعْدَ الْقَاضِي ، فَإِذَا أَنْكَرَ عَلَى الْقَاضِي مِنْهُمْ شَيْئًا قَالَ لَهُ : اسْتَغْفِرْ مِنَ الأميرِ وَإِلَّا رَفَعْتُ فِي عَدِّ [بِرْلِكَ] .

وكان علي [بن أبي] بكر [شريف النفس ، حَسَنَ السُّمْتِ ، على اعتدالٍ واستقامةٍ حالٍ ، ولم يَزَلْ قَاضِيًا وصاحبَ صلاةٍ إلى أن تَوَفَّى فِي سنة إحدى وثلاثين ومائتين . وقد

(2) ص : وحيا .

(4) ص : أمير ابن .

(1) ص : غنجية .

(3) ص : عبد .

قيل إنه صرّفه سنة تسع وعشرين ومائتين قبل وفاته ، وولّى مكانه محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي⁽¹⁾ .

[وقال محمد بن حارث :

[٢٠٧ب] علي بن أبي بكر [(2) / بن عبّيد الكلابي يلقب [بِبُوَانِشْ] (3) (٢٤٢) ، وهو من أهل قَبْرَة (٢٤٣) .

مُعَاذُ بن عثمان الشَّعْبَانِي (٢٤٤) .

قال محمد بن حارث :

ولّى الأمير عبد الرحمن بن الحكم قضاء الجماعة مُعَاذُ بن عثمان الشَّعْبَانِي ، وكان من أهل جَيَّان ، فكان قاضياً بقرطبة سبعة أشهر (٢٤٥) ، ثم عزّله ، وكان السبب في عزّله - زَعَمُوا تعجيله بالحكومة ، وأنه أخصى عليه في مُدَّتِهِ تلك سبعون قضية أنفدّها ، فاستُكثِرَتْ منه ، وخيفَ عليه الزَّلُلُ ، فعَجَلَ عزّله (٢٤٦) . وقد كان - فيما سمعنا به - حسن السيرة ، لَيِّنَ العريكة⁽⁴⁾ ، خالَقَ الناسَ بغيرِ خُلُقٍ يُخَامِرُ أخيه ، وطلَّبَ التخلُّصَ منهم ، فما استوى له ذلك .

وسمعتُ من يحكى عنه أنّه كانت معه صحّةٌ ضمير ، وسلامة قلب ، وكان لا يظنُّ بأحدٍ شراً . وكان قد ولى الأَخْبَاسَ (٢٤٧) بقرطبة رجلاً أحسنَ الظنِّ به ، فلما بَلَاهُ⁽⁵⁾ أَكْذَبَ ظَنَّهُ ، فقال فيه يحيى بن الحَكَمِ الغَزَالُ : [من الطويل]

يَقُولُ لِي الْقَاضِي مُعَاذُ مُشَاوِرًا

- وَوَلَّى امْرَأً فِيهَا يَرَى مِنْ ذَوِي الْعَدْلِ

(1) استكملنا هذا النص من ترجمة القاضي علي بن أبي بكر الكلابي في التكملة (ط - الأراكون وبالطيا ، رقم ٢٢٦٤ ، وينص ابن الأبار على أنه ينقل هذه الترجمة من كتاب ابن حيان ، كذلك استأنسنا فيها بنص المغرب لابن سعيد (١ / ١٥٠) وهو ينقل في هذا الموضع عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، ولو أن نصه كالمادة شديد الإيجاز .

(2) استكملنا النص هنا من كتاب الخشني ص ٩٧ .

(3) إضافة عن الخشني .

(4) ص : المركة .

(5) ص : أبلاه .

قميدك⁽¹⁾ ماذا تحسب المرء صانعا ؟

فَقُلْتُ : وماذا⁽²⁾ يَفْعَلُ الدُّبُّ فِي النَّحْلِ ؟

يَذُقُ خَلَايَاهَا وَيَأْكُلُ شَهْدَهَا

وَيَتْرُكُ لِلذُّبَّانِ⁽³⁾ مَا كَانَ مِنْ فَضْلِ (٢٤٨)

وَاللَّغْزَالِ فِي عَذْلَيْنِ مِنْ عُذُولٍ مُعَاذٍ : [من الطويل]

أَتَاكَ أَبُو حَفْصٍ وَيَحْيَى بْنُ مَالِكٍ

فَأَمَلًا وَسَهْلًا [بِالْوَعْيِ]⁽⁴⁾ وَالْمَعَامِعِ

رَجَالٌ إِذَا صَبَّوْا عَلَيْكَ شَهَادَةً

حَكَّتْ فِيكَ وَقَعَ الْمُرْهَقَاتِ الْقَوَاطِعِ

اقُولْ لِدِيكِي إِذْ رَأَيْتُ وَجُوهَهُمْ :

تَعَزَّزْتُ فَقَدْ جَاءَتْكَ إِخْدَى الْفَجَائِعِ !

رَنَا وَاسْتَهَلَّتْ عِنْدَ ذَاكَ دُمُوعُهُ

وَقَالَ : كَثِيرًا مَا أَفَاضُوا مَدَامِيعِي

وقال ابن عبد البر :

هو معاذ بن عثمان أخو يخامر بن عثمان ، يُكْنَى أبا عبد الله ، أصله من كورة جيان ، وكان عابداً ناسكاً .

أخبرني من سمع سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ (٢٤٩) يقول : كان مُعَاذُ بْنُ عُمَانَ مِنَ الْأَبْدَالِ (٢٥٠) ، وكانوا يَعُدُّونَهُ مُجَابَ الدَّعْوَةِ . يُذَكَّرُ أَنَّهُ أَتَاهُ يَوْمًا رَجُلٌ مُتَغَلِّمٌ مِنَ الْحَاجِبِ ابْنِ رُسْتَمٍ (٢٥١) ويقولُ إِنَّهُ اغْتَصَبَهُ مَالًا لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : خُذْ طَابِعًا وَامْضِ بِهِ نَحْوَهُ ، فَتَصَدَّ لَهُ وَقُلْ لَهُ : « هَذَا طَابِعٌ

(1) ص : تميدك ، ولعل الصحيح ما أثبتنا ، وقد ورد مكان هذه في كتاب الخشني (ص ٩٩) : « فديتك » .

(2) ص : وهذا . (3) ص : اللدبان .

(4) زيادة أضفناها لكي يستقيم البيت وزنا ومعنى ، ونظنها لا تخرج عما أثبتنا .

القاضي . فإذا هو رَكِبَ [فَاجْبِذْهُ بِكُلِّ قُوَّةٍ عِنْدَكَ]⁽¹⁾ ، فَاضْرِبْ بِيَدِكَ عَلَى عِزَانِهِ وَلَا تَفَارِقْهُ
حَتَّى يَصْبِرَ إِلَيْنَا ،
فَإِنَّهُ أَهْيَبُ لَكَ .

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الطَّابِعَ ، وَمَضَى [بِهِ إِلَى الْحَاجِبِ]
(3) وَقَدْ تَقَدَّمَ

[٢٠٨] / وتشهدوا عنده لا أشهدته لكم ،⁽⁴⁾ (2) الرجلُ بين يديه ماشاء ، وهذا وكيلي
نُصِيرُهُ إِلَيْهِ ، وَيُنْصِفُهُ بِمَا يَدْعِيهِ . فَاتَوَا الْقَاضِي فَاعْلَمُوهُ ، فَأَخَذَ لِلرَّجُلِ بِحَقِّهِ .

وكان تَقَلَّدُ مُعَاذَ الْقَضَاءِ سَنَةً اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ ، فَعَمِلَ عَلَيْهِ ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ ،
وَمَاتَ وَهُوَ يَلِيهِ سَنَةً أَرْبَعَ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ بَعْدَ مَهْلِكِ الشَّيْخِ يَحْيَى ، قَوْلِي مَكَانَهُ مُحَمَّدُ
ابْنُ زِيَادٍ اللَّخْمِيُّ⁽⁵⁾ .

محمد بن زياد اللَّخْمِيُّ :

قال محمد بن حارث :

ثُمَّ وَلَّى الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِقَرْطَبَةَ بَعْدَ مُعَاذِ بْنِ عُمَانَ مُحَمَّدَ بْنَ زِيَادٍ
ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زُهَيْرٍ اللَّخْمِيِّ ، وَمُحَمَّدُ هَذَا هُوَ وَالِدُ الْقَاضِي الْحَبِيبِ بْنِ زِيَادٍ (٢٥٣) .
وَكَانَ مُحَمَّدٌ حَسَنَ السَّيَرَةِ ، مَحْمُودَ الْوَلَايَةِ ، رَفِيعَ الْبَيْتِ فِي الْعُلَمَاءِ بِقَرْطَبَةِ ، وَسَمِعَ مِنْ
مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ (٢٥٤) سَمَاعًا كَثِيرًا (٢٥٥) .

(1) كلمات مطبوسة في الأصل ، اعتمدنا في إثباتها على بقايا حروفها .

(2) كلمات ذهبت في قطوع الورقة بقدر ما تركنا من بياض .

(3) ذهبت في قطوع آخر الورقة كلمات بقدر ما تركنا من بياض .

(4) أصاب السطر الأول من هذه الصفحة طمس شديد لم نستخلص خلاله إلا ما أثبتنا من كلمات . ومع ذلك فني
وسعنا أن نتصور بقية الخبر ، فني اعتقدنا أن الرجل المتظلم أخذ الطابع وفعل ما أمره به القاضي ، فاعترض الحاجب ابن رسم
وهو في موكبة وعلى ماؤ من الناس وطلب إليه أن يصير معه إلى مجلس القاضي ، ويبدو أن الحاجب لم يمتنع ولم يعترض ولكنه
اعتذر عن عدم مرافقة الرجل ، غير أنه أمر بتصيير وكيله إلى القاضي مع الرجل ووعده بإنفاذ كل ما يحكم به القاضي معاذ
والانصياع له ، وأشهد الناس على ذلك .

(5) ص : الخمي .

وقال لى محمد بن عبد الله بن أبي عيسى (٢٥٦) :

لما اختُصِرَ يحيى بن يحيى أَسْنَدَ وصيَّته^(١) في أداء دينٍ وبيع مالٍ لى محمد بن زياد ، وكان القاضي يومئذٍ ، فكانت وصيَّته في ذلك الوجه خاصَّة .
قال (٢) :

وهو الذى صَلَّى على يحيى ، فَذَكَرَ أَنَّ ابنه إسحق بن يحيى (٢٥٧) تَقَدَّمَ يَتَقَدَّمُهُ للصلاة :
يُكَبِّرُ ابنُ زياد ، وَيُكَبِّرُ إسحقُ تِلْوَهُ ، وَجَرَى على ذلك في التسليم بعد تسليم ابن زياد .
فلما وُورِيَ يحيى وَبَّخَ ابنُ زيادِ إسحقَ على ما فَعَلَهُ ، وقال له :
.. مَنْ أَقْدَمَكَ عَلَى هذا ؟

فقال له إسحق :

.. مَنْ قَدَّمَكَ أَنْتَ للصلاة على أبي ؟

فقال له ابن زياد :

.. أَمَرُ الصَّلَاةِ إِلَى دُونِكَ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ أَخَاكَ - يَعْنِي عُبَيْدَ اللَّهِ (٢٥٨) - دَعَانِي إِلَى ذَلِكَ ، وَهُوَ - مَعَ فَتَانِهِ (٣) - أَرْشَدُ مِنْكَ . أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا حِفْظِي لَصَاحِبِ الْخُفْرَةِ لَأَدْبَتُكَ !

وكان عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ يَحْيَى يومئذٍ ابنَ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَكَانَ ثَنَاءُ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ يومئذٍ عليه أَوَّلَ أسبابِ سُودِّهِ ، وما زالَ ابنُ زيادٍ له على تَكْرِيمٍ وَمُبَرَّةٍ .

وذكرَ أحمدُ بن زياد (٢٥٩) عن مُحَمَّدِ بْنِ وَضَّاحٍ قال :

شهدَ شاهدٌ عندَ القاضي محمد بن زيادٍ بِشَهَادَةٍ على المعروفِ بِغُرَابٍ - وكان جاهلاً عَاتِيًا - . ففقال غُرَابٌ لمحمد بن زياد :

(١) ص : وصية .

(٢) يبدو لأول وهلة أن ضمير « قال » هنا يعود على ابن أبي عيسى الذى نقل الخشني عنه الخبر السابق ، ولكن هذا غير صحيح ، فالخشني يسند روايته في هذا الموضع إلى « بعض رواة الأخبار » (قضاة ص ١٠٠) ، ويعقب عليه بقوله إنه حكى هذه القصة لمحمد بن عبد الله بن أبي عيسى « فلم يعرفها ، وقال : كان عبید الله من أشد الناس إعظاماً لأخيه إسحق ، وكان يأخذ بركابه إذا أراد أن يركب ، فما أدري إن كان فعل مثل هذا » (قضاة ص ١٠١) .

(٣) ص : فثاته .

– ومن شهدَ عليٌّ – أَصْلَحَكَ اللهُ – ؟ فما أَحْسَبُهُ اللَّيْثَ بْنَ سَعْدٍ (٢٦٠) !

فقالَ له ابنُ زياد :

– [وَمَا ذِكْرُ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ هَا هُنَا ؟]

فَأَمَرَ به – وذلك في المسجد ، وهوَ والى الشرطة . – فَقُنِعَ أَشْوَاطًا ،

قال : فكان ذلك من فِعْلِهِ صَوَابًا .

قال ابن وضاح :

وابنُ القاسمِ يرى أن يُعَزَّرَ السلطانُ الرجلَ في المسجد بالسُّوطِ ، وسَحْنُونُ يَأْتِي ذلك (٢٦١).

قال :

ولما وَلِيَ سَحْنُونُ بْنُ سَعِيدٍ القضاةَ حَمَلَ الضَّرْبَ على الذى لا يريد غُرْمَ مَا عَلَيْهِ وهو
مَلِيٌّ بعد أن حَبَسَهُ [(١)] ، – فقال (٢) له :

– مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَ الضَّرْبَ ، وَإِنَّمَا كُنَّا نَعْرِفُ الْحَبَسَ حَتَّى يَغْرَمَ ؟

فقال :

– من حديثِ النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « مَطْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ » ، فإذا كان ظالماً
كما سَمَّاهُ (٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم أَذْبَنَهُ (٢٦٢) .

وذكر بعضُ الرواة قال :

بينما القاضى محمد بن زياد يوماً يُسَافِرُ الفقيه محمد بن عيسى الأَعَشَى (٢٦٣) إذ لَقِيَ
رجلاً يَمَّا يَدُ سُكْرًا (٤) ، فَأَمَرَ ابنُ زيادِ الأَعْوَانَ بِأَخْذِهِ ، وَحَمْلِهِ لِيَقِيمَ عَلَيْهِ الْحَدَّ ، ففعلوا .

وانتَهَى محمدُ بن زيادٍ من طريقِهِ إلى مكانٍ ضَيِّقٍ تَقَدَّمَ فِيهِ ، واشتأخَرَ عنه صاحِبُهُ
الأَعَشَى ، فَدَنَّا إلى الغلامِ الذى كان يُمْسِكُ السُّكْرَانَ ، فقالَ له : يقولُ لَكَ القاضى أَطْلِقِ

(١) التَّكْلَةُ عن الحَشَى : قضاة ص ١٠١ .

(٢) كذا في الأصل ، وفي كتاب الحَشَى : فقليل . ويبدو أن ابن حيان ذكر اسم موجه السؤال إلى سَحْنُونِ فيما ذهب
من النص في قتلوع آخر الصفحة السابقة ، فبنى الفعل للمعلوم من أجل ذلك .

(٣) في الأصل بعد هذه الكلمة لفظ الجلالة « الله » وهو زائد لا موضع له .

(٤) ص : سكران .

الرَّجُلَ . فَفَعَلَ . وانتهى الأعشى مع ابن زياد إلى موضعيه ، ثم سَلَّمَ عليه . وفارقه ابن زياد ، فدعا بالسَّكران ، فقال له غلامُهُ : أَمَرَنِي عَنْكَ الْفَقِيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بِإِطْلَاقِهِ ، ففعلتُ ، ولم أَنهيه . فقال : أَوَ فَعَلَهَا ؟ فِيهِ مِنْ فَعَلَاتِهِ ! وابتسم ، وقال (1) : لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْسَنَ !

قال ابن حارث :

وما أَغْرِفُ لِمَا أَتَى (2) عَنْ الْقَضَاةِ وَالْحُكَّامِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنَ الْإِغْضَاءِ عَنِ السَّكَارَى (3) وَالتَّغَافُلِ لَهُمْ وَجْهًا يَتَسَعُّ لَهُمُ الْقَوْلُ فِيهِ ، وَيَنْسَغُ (4) لَهُمُ الْعُذْرُ فِيهِ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا : وَهُوَ أَنَّ حَدَّ السَّكَارَانِ مِنْ بَيْنِ الْحُدُودِ كُلِّهَا لَمْ يَنْصَحْهُ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ ، وَلَا وَرَدَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وإِنَّمَا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (5) أَتَى بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ ، فَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَضْرِبُوهُ عَلَى مَعْصِيَتِهِ ، فَضْرِبَ بِالنَّعَالِ وَبِأَطْرَافِ الْأَرْدِيَةِ (6) .

وتوفى صلى الله عليه وسلم ولم يَحُدَّ فِي ضَرْبِ السَّكَارَانِ حَدًّا يُلْحَقُ بِسَائِرِ الْحُدُودِ . فَلَمَّا نَظَرَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ قَالَ لَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ إِنَّهُ مَنْ شَرِبَ سَكِرَ ، وَمَنْ سَكِرَ هَدَى ، وَمَنْ هَدَى افْتَرَى . وَمَنْ افْتَرَى وَجَبَ عَلَيْهِ حَدُّ الْإِفْتِرَاءِ ، فَأَرَى أَنَّ تَضْرِبَ الشَّارِبَ ثَمَانِينَ : حَدُّ الْمُفْتَرِي . فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ هُوَ وَالصَّحَابَةُ (7) رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

وَذَكَرَ الْحَدِيثُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ : مَا شَيْءٌ فِي نَفْسِي مِنْهُ شَيْءٌ غَيْرَ حَدِّ الْخَمْرِ ، فَإِنَّهُ شَيْءٌ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ رَأَيْنَاهُ بَعْدَهُ (٢٦٤) .

(1) ص : قال .

(2) ص : (2) ص : أوتى .

(3) ص : السَّكران ، ولا بأس بها لو كان الضمير الوارد بعد ذلك للغائب المفرد ، أما وهو للجمع (لم) فقد اقتضى ذلك التصحيح .

(4) في كتاب الحشنى : يتسع .

(5) بعد هذا اللفظ كلمة « أنه » في الأصل ، وهي زائدة لا حاجة للسياق إليها .

(6) ص : الأرية . (7) ص : وهو الصحابة .

وقال ابن عبد البر :

مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ [يَكْنَى] (1) أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، [وهو والدُ] الحبيب
ابن زياد القاضي . كان رجلاً عاقلاً [راويةً عن يحيى] ، ولكنه لم يَكُنْ حَافِظًا ، وأَبَقَاهُ
الأمير محمدُ على القضاء حتى تُوُفِّيَ ابنُ زياد [(٢٦٥)] .

[قال محمد بن وضاح :

[٢٠٩] / وكان محمد بن زياد أَحَدَ الْعُقَلَاءِ الْحُلَمَاءِ الْأَدَبَاءِ . لقد أَتَيْتُ يَوْمًا مَعَهُ وَمَعَ رَجُلٍ
مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى عِيَادَةِ (2) مريضٍ مِنْ إِخْوَانِهِ ، فاستأذَنَ عَلَيْهِ ، وسألتُ بِنَا خَادِمَهُ ، فقال (3)
لَهَا قَوْلِي لِمَوْلَاكِ : هَذَا فُلَانُ الْقُرَيْشِيِّ وَالْفَقِيهُ ابْنُ وَضَّاحٍ . ومحمدُ بن زيادٍ بالبَابِ . أَخَرَّ
نَفْسَهُ وَقَدَّمَنَا ، وَكُنِيَ عَنَّا وَتَسَمَّى هُوَ ، فاستحسننا أَدَبَهُ واستبرغناه .

وقال محمد بن حارث :

لم يُنْقَمْ (4) من محمد بن زياد في ولايته شيءٌ فيما ذكره رواةُ الأخبارِ غيرُ دَالَةٍ كَانَتْ
تُظْهِرُ مِنْ زَوْجَتِهِ تَكْفُفَاتٍ (٢٦٦) تَبَيَّنَ أَثَرُهَا عَلَيْهِ عَلَى مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الزَّوْجَاتِ الْحَظِيَّاتِ
بِبُعُولِهِنَّ ، فَمِنْ قِبَلِهَا وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى غَيْبِهِ .

وقال ابن عبد البر :

لم يزل محمد بن زياد على القضاء والصلاة معاً بقرطبة إلى أن هَلَكَ الأميرُ عبدُ الرحمن
ابن الحكم ، وقد استكملَ بِعَدَدِ قَضَائِهِ عَلَيْهَا عَشْرَةَ قَضَاةٍ ، وهم :
مَسْرُورُ (5) بن محمد مَوْلَاهُ ؛ سَعِيدُ بن سليمان ؛ يحيى بن مَعْمَرٍ (6) الْأَلْهَانِي ؛ الْأَسْوَارُ بن
عُقْبَةَ ، إِبْرَاهِيمُ بن العباس المرواني ؛ محمد بن سعيد ؛ يُخَاْمَرُ بن عثمان ؛ عَلِيُّ بن أَبِي بَكْرٍ ؛
مُعَاذُ بن عثمان ؛ مُحَمَّدُ بن زياد - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

(1) استكلنا هذا النص عن ابن سعيد (المغرب ١ / ١٥٠) ، وهو ينقل بدوره عن ابن عبد البر مرجع ابن حيان
هنا ، ولوأنا لظن ابن سعيد قد تصرف فيه ببعض الاختصار كما هي عادته .

(2) ص : عيادة . (3) ص : وقال .

(4) ص : ينعم .

(5) ص : مسروق . (6) ص : معز .

الْوَقَاةُ لِأَوَّلِي النَّبَاهَةِ فِي دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ

سنة سَبْعٍ وَمِائَتَيْنِ :

تُوفِّيَ فِيهَا - عَلَى خِلَافٍ (1) مِنَ الرُّوَاةِ - فُطَيْسُ بْنُ سُلَيْمَانَ . وَقَبِيلُ بِلَ فِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ فِي حَيَاةِ الْأَمِيرِ الْحَكَمِ .

وَفُطَيْسُ لَقَبُهُ ، وَاسْمُهُ عُمَانُ ، ثُمَّ صَارَ هَذَا اللَّقَبُ فِيهِمْ اسْمًا عَلَمًا تَنَازَعُوهُ لِنَبَاهَةِ (2) حَامِلِهِ جَدَّهُمْ بَانِي بَيْتِهِمْ ذَلِكَ (٢٦٧) . ذَكَرَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ عَيْسَى بْنُ فُطَيْسٍ (٢٦٨) .
وَعَرِيبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيُّ بِطُلَيْطَلَةَ (٢٦٩) .

سنة ثَمَانٍ وَمِائَتَيْنِ :

فِيهَا هَلَكَ عَبْدُ اللَّهِ [الْمَعْرُوفُ] بِالْبَلَنْسِيِّ [بْنُ الْأَمِيرِ] عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ [الدَّائِلِ (٢٧٠) ، بَعْدَمَا] (3)
/ تُوفِّيَ قَبْلَهُمَا فِي هَذِهِ السَّنَةِ أَيْضًا (4) .

[٢٠٩ب]

(1) م : أَلْخَلَفَ . (2) م : لِنَبَاهِهِ .

(3) هذا هو كل ما استطعنا استخلاصه من كلمات خلال قتلهم آخر الورقة ، ولا بد أن الكلام في بقية هذه العبارة عن الأحداث التي سبقت موت عبد الله البلنسي مباشرة ، وقد فصلها ابن الأبار بإسهاب في الترجمة التي أفرد لها له معتمدا على ابن حيان (انظر الحلة السراء ٣٦٣/٢ - ٣٦٤) ، ولو أننا نعتقد أن الذي ورد هنا في باب الوفيات - طبقا لمنهج ابن حيان في الكتابة ومع مراعاة أن الذي ذهب في القتل لا يتجاوز سطرا أو سطرين - ليس إلا إشارة موجزة سريعة ، إذ لا بد أن ابن حيان يحيل على ما فصله من أخبار عبد الله البلنسي في الجزء الخاص بالتأريخ على نسق السنين (تحت سنة ٢٠٨) فيما مر من الكتاب ولهذا فلنا أن نعتقد أن تمام العبارة يمكن أن يكون شيئا في هذا المعنى : « . . بعد ما كشف وجهه بالمصيبة واحتل بلنسية مستنفرا إليه كثيرا من أهلها ، وكان قد عزم على الفصول إلى قرطبة في يوم سبت وأعدهم عليه ، فغضبه الريح الباردة ، وسقط مفلوجا بعد أن خطب الجمعة بأصحابه ، واحتملوه إلى مكان مضطربة بلنسية فأتاه هناك في هذه السنة » .
(4) واضح أنه سقط كذلك في قتلهم آخر الصفحة السابقة اسما اثنين من وفيات سنة ٢٠٨ ، ولا بد أن أحدهما هو مسرور بن محمد بن سعيد بن بشير قاضي الجماعة بقرطبة الذي توفي في آخر سنة ٢٠٨ « كما سبق أن أشار إلى ذلك ابن حيان في أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم » .

وفيهما تُوُفِّيَ حُسَيْنُ بْنُ عَاصِمٍ الثَّقَفِيُّ⁽¹⁾ (٢٧١) .

وفي كتاب القاضي ابن الفريضي :

حُسَيْنُ بْنُ عَاصِمٍ بْنُ كَعْبٍ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ عَلْقَمَةَ بْنِ خَبَّابٍ بْنُ مُسْلِمٍ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ [مُرَّة] (٢)، عُرِفَ بِالثَّقَفِيِّ ، يَكْنَى أَبَا الْوَلِيدِ ، قَرَطَبِيُّ حَسِيبٌ ، ابْنُ عَاصِمٍ الْمَعْرُوفِ بِالْعُرَيَّانِ صَاحِبِ الْأَمِيرِ الدَّاخلِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَبَّرَ نَهْرَ قَرْطَبَةَ إِلَى أَصْحَابِ يُونُسَ الْفَهْرِيِّ بَيْنَ يَدَيْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، وَهُوَ عُرَيَّانُ ، فَلَزِمَهُ اللَّقَبُ . وَكَانَتْ لِحُسَيْنٍ رِحْلَةٌ سَمِعَ فِيهَا مِنْ ابْنِ الْقَاسِمِ وَابْنِ وَهْبٍ (٢٧٢) وَأَشْهَبَ وَمُطَرَفٍ (٢٧٣) وَابْنِ نَافِعٍ (٢٧٤) وَنَظَرَائِهِمْ . وَوَلِيَ الشُّوْقَ لِلْأَمِيرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَكَانَ شَدِيدًا عَلَى أَهْلِيهَا فِي الْقِيمِ ، يَضْرِبُ الْبَاعَةَ ضَرْبًا شَدِيدًا مُبْرَحًا ، فَكَانَتْهُ سَقَطَ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَرَوْى النَّاسُ عَنْهُ ، وَتُوُفِّيَ صَدْرَ أَيَّامِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ (٢٧٥) مَنَّةً ثَلَاثَ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ (٢٧٦) .

سنة تسع ومائتين :

فِيهَا تُوُفِّيَ الْحَاجِبُ الْقَائِدُ الْكَاتِبُ عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ مُغِيثٍ .
وَعَبْدُ اللَّهِ الْأَحْدَبُ النَّخْوِيُّ الْمُعَلَّمُ (٢٧٧) ، وَكَانَ لَهُ وَضْعٌ فِي النَّحْوِ .

سنة عشر ومائتين :

فِيهَا تُوُفِيَ الْحَاجِبُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَانِمٍ فِي الْحَبَشِ .
وَمَالِكُ بْنُ الْقَتِيلِ (٢٧٨) فِي الْمُطَبِّقِ (٢٧٩) (٣) .
وَفَتَحُ بْنُ الْفَرَجِ الْأَزْدِيُّ الرَّشَاشُ (٢٨٠) بِالْمَشْرِقِ .
وَحَجَّاجُ الْمَغِيلِيِّ الْكَاتِبُ (٢٨١) كَاتِبُ التَّرْغِيمِ ، وَهُوَ مِنْ مَوَالِي يَزِيدَ بْنِ طَلْحَةَ الْعَبْسِيِّ (٢٨٢)

(١) من الغريب أن ابن حيان يذكر وفاة الفقيه حسين بن عاصم في سنة ٢٠٨ ، ثم ينقل بعد ذلك ترجمة له عن ابن الفريضي يقول فيها إن وفاته كانت سنة ٢٦٣ ، دون أن يستحق ذلك تعقيا من ابن حيان ، على بعد ما بين الرأيين من خلاف ، على أن ما ذكره ابن حيان أولا هو ما رأى صوابه وإن لم يجد بأسا في أن يثبت رأى ابن الفريضي . وقد عرضنا في تعليقاتنا على هذا الموضوع للآراء المتعارضة في وفاة حسين بن عاصم فليُنظر في مكانه .

(٢) إضافة عن تاريخ ابن الفريضي ، ترجمة رقم ٣٤٩ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .

(٣) ص : المطبق .

سنة إحدى عشرة ومائتين :

وليد بن أمية بن يزيد (٢٨٣) .

وسفيان بن عبدربه الحاجب .

وسعيد بن القاضي محمد بن بشير المعافري .

وفي كتاب القاضي [أبي الوليد ابن الفرضي] (١) :

هو سعيد بن قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن بشير بن شراحيل - ويقال سرافيل -
أصولهم من مدينة باجة . وكان سعيد هذا رجلاً صالحاً عاقلاً ، سمع من يحيى بن يحيى
وغيره ، واستقضاها الأمير عبد الرحمن بعد والده ، وتوفي [حَسْبَمَا] (٢) قاله الرازي
سنة عشر ومائتين (٢٨٤) .

سنة اثنتى عشرة ومائتين :

[فيها توفي عيسى بن دينار بن وا] قِد الغافقي (٣) ، يكنى أبا محمد ، أصله من
طليطلة ، وسكن [قرطبة ، وكانت له فيها رئاسة بعد انصرافه من] المشرق ، [وكان
ابن القايم يُعَظَّمُ ويُجَلُّه ويصفه بالفقه والورع ، وكان لا يعدُّ في الأندلس أفقَّةً منه في
نظرائه] (٢٨٥) .

/ أبو زياد إبراهيم بن زُرعة الأندلسي مولى قريش ، روى عنه سحنون ، وتوفي بإفريقية [٢٨٠]
في هذه السنة (٢٨٦) .

سنة ثلاث عشرة ومائتين :

محمد بن موسى الغافقي ، مولى لهم ، وقد ولي الوزارة والكتابة (٢٨٧) .

(١) إضافة يقتضها السياق ، وقد وردت هذه الترجمة فعلا في كتاب ابن الفرضي ، ترجمة رقم ٤٧١ .

(٢) مطبوعة في الأصل ، لا يكاد يبين إلا بعض حروفها .

(٣) استكلنا هذه الترجمة من ترجمة عيسى بن دينار في كتاب ابن الفرضي ، رقم ٩٧٣ ؛ والدياج المذهب لابن

فرحون ص ١٧٨ - ١٧٩ .

إبراهيم بن محمد بن مُزَيْن (٢٨٨) .

عبد الخالق بن عبد الجبار الباهلي قاضي طَلَيْطَلَة (٢٨٩) .

سنة ست عشرة ومائتين :

فيها مات عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم في الحبس^(١) ، على اختلاف .

سنة سبع عشرة ومائتين :

قَرَجُ بن مَسْرَة بن سالم (٢٩٠) .

سنة تسع عشرة ومائتين :

العبّاس بن عبد الله القرشي المرواني .

وَجْهَوْرُ بن يوسف بن بُخْت الفارسي الوزير .

وقال الرازي : هلكا معاً في سنة عشرين بعدها .

سنة عشرين ومائتين :

الفقيه قَرَعُوسُ بن العبّاس بن قَرَعُوس الفقيه راوية مالك بن أنس رحمه الله .

وفي كتاب القاضي [ابن الفرضي]^(٢) :

قَرَعُوسُ بن العبّاس بن قَرَعُوس بن عُبَيْدُ بن مَنْصُور بن محمد بن يوسف الثَّقَفِي ،
يكنى أبا الفضل ، وقيل أبا محمد ، قديم نبيه فقيه ، رحل فسمع من مالك بن أنس
وسفيان الثوري وابن جريج^(٣) وابن أبي حازم واللّيث وغيرهم ، فلم يتحقّق بالحديث ،
وتحقّق بالمسائل على مذهب مالك وأصحابه ، وكان متديّناً ورعاً فاضلاً . وكان مِنّ أَتِهِمْ
في أمر الهَيْجِ (٢٩١) ، فَوَقَّاهُ الله ، وتوفى في أيام الأمير عبد الرحمن سنة عشرين ومائتين (٢٩٢) .

(١) ص : الحسن ، والصواب ما أثبتنا .

(٢) زيادة يقتضيها السياق ، وقد ترجم ابن الفرضي لقرعوس هذا حتى رقم ١٠٨٢ .

(٣) ص : جريج ، والصواب ما أثبتنا .

ومحمد بن كُليب بن ثعلبة يسرقنطة (٢٩٣) .

وحَمْدُون بن فطيس^(١) (٢٩٤) .

على اختلاف في ابن كُليب وابن فطيس ، ورواته في أنهما هلكا سنة ست وعشرين بعدها .

وهلك إبراهيم بن عتبة ، وحزب بن بلدس ، وعبد الرحمن بن صبيح وأصحابهم الطليطيون في المطيطي بقرطبة (٢٩٥) .

سنة إحدى وعشرين ومائتين :

فيها مات حبيب بن سليمان والد الفقيه ع [بد الملك بن حبيب ، وكان في عداد فقهاء قرطبة] (٢) (٢٩٦) .

حارث بن أبي [سعد ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يُكنى أبا عمر (٢٩٧) ، رحل فسمع من ابن القاسم وابن كنانة (٢٩٨) وغيرهما من المدنيين والمصريين ، وهو جد بني حارث الذين كانت فيهم الخطط . وولى الشرطة الصغرى ولم يزل عليها إلى أن توفى] (٣) .

[ومحمد بن عيسى بن عبد الواحد بن بُخَيْح الماعري المعروف بالأعشى (٢٩٩) ، من أهل قرطبة ، يكنى أبا عبدالله ، رحل سنة تسع وسبعين] (٤) / ومائة ، فسمع من سُفْيَان (٣٠٠) ، [٢١٠ب] ووَكَيْع (٣٠١) ، وَيَحْيَى الْقَطَّان (٣٠٢) ، وغيرهم من المدنيين والعراقيين ، وكان الغالب عليه الحديث والأثر ، وكان عاقلاً سرياً جواداً ، وكانت فيه دُعَابَةٌ فَاثِيَةٌ ، وله فيها أخبارٌ محفوظةٌ ، وكان من الأجواد المتصدقين ، وَمِمَّنْ جَمَعَ الفقه إلى رواية الحديث . وفي موته اختلاف : قيل سنة إحدى وعشرين ، وقيل بل سنة اثنتين بعدها .

(١) ورد اسم حمدون بن فطيس في الأصل بعد العبارة التالية ، وكان حقه أنه يتقدم فأعدنا ترتيب العبارتين إلى ما يلزم به المنطق .

(٢) استكملنا هذا النص من ترجمة حبيب بن سليمان في التكملة لابن الأبار ، رقم ٨٧ (ط . كوديرا) .

(٣) البقية من ترجمة حارث بن أبي سعد في كتاب ابن الفرضي ، رقم ٣٢٤ .

(٤) استكملنا النص من ترجمة محمد بن عيسى الأعشى في كتاب ابن الفرضي ، رقم ١١٠٠ .

(٥) ص : القطا .

سنة ثلاث وعشرين بعدها :

فيها توفي أبو محمد بن خالد جد بني عَمَّار المُرَادِيِّين بقرطبة (٣٠٣) .

سنة أربع وعشرين ومائتين :

محمد بن خالد بن مَرْتَنِيْل⁽¹⁾ المعروف بالأشجُّ ، صاحبُ الصلاة بقرطبة ، وكان على الصلاة والشرطة معا ، وتوفي وهو ابن اثنتين وسبعين سنة (٣٠٤) .

وفي كتاب ابن القرضى :

أبو عبد الله محمد بن خالد الأشجُّ ، مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، يعرف بابن مَرْتَنِيْل⁽²⁾ ، قرطبي نبيه ، رحل فسمع من ابن القاسم وأشهبَ وابن نافعٍ ونظرائهم من المدنيين والمصريين ، وكان الغالبُ عليه الفقه ، ولم يكن له علمٌ بالحديث ، وولى الشرطة للأمير عبد الرحمن ، وولى الصلاة أيضا . وفي موته خلاف : قيل سنة عشرين ، وقيل سنة أربع وعشرين .

سنة خمس وعشرين ومائتين :

الوليد بن عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس الباهلي قاضي طليطلة (٣٠٥) .

سنة ثمان وعشرين ومائتين :

فيها مات أبو عبد الله بن محمد بن سعيد الزَّجَّالِي المعروف بـ « الأَصْمَعِي » ، صنيعة الأمير عبد الرحمن ، وهو حاملٌ بعد الوزارة والكتابة والقيادة ، على اختلاف ، وقيل إنه توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين بعدها (٣٠٦) .

سنة تسع وعشرين ومائتين :

وكان [فيها موت]⁽³⁾ يحيى بن مَعْمَر الأَلْهَانِي الذي [كان]⁽³⁾ قاضي الجماعة .

ويحيى بن موسى (٣٠٧) .

(3) زيادة يقتضيها السياق .

(2) ص : مرتيل .

(1) ص : برتيل .

سنة ثلاثين ومائتين :

[عبد الله بن الغازي] ⁽¹⁾ بن قيس (٣٠٨) .

قال ابن الفرضي في كتابه :

عبد الله بن الغازي [بن قيس ، من أهل] ⁽²⁾ قرطبة ، وقد ⁽³⁾ كان عالماً باللغة والغريب والعربية ، [بصيراً بقراءة نافع بن أبي نعيم (٣٠٩) ، روى عنه ثابت بن حزم السرقسطي (٣١٠) وابنه قاسم (٣١١) وغيرهما] ⁽⁴⁾ .

[٢١١]

سنة اثنتين وثلاثين ومائتين :

[فيها مات زونان] ⁽⁵⁾ الفقيه ، وكان مولى رسول الله صلى الله عليه [وسلم] ، واسمه عبد الملك بن الحسن (٣١٢) .

[قال] ابن الفرضي :

هو عبد الملك بن الحسن بن محمد بن زريق بن عبّيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُكنّى أبا مروان ، وقيل أبا الحسن ، يعرف بزونان ، روى عن صغصعة ابن سلام (٣١٣) ، وكان مفتياً في أيام الأمير عبد الرحمن ، وكان له رحلة سمع فيها ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم من المدنيين ، وكان يذهب أولاً إلى مذهب ⁽⁶⁾ الأوزاعي (٣١٤) - وكان الفقه ⁽⁷⁾ أغلب عليه - ثم تحول إلى مذهب مالك . وهلك سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

(١) ما استكلناه في هذه الترجمة نقلناه عن ابن الفرضي ، رقم ٦٣٢ ، وهو مرجع ابن حيان هنا .

(٢) قطوع في الأصل أكلناه فيها بما يقتضيه السياق .

(٣) قطع في الأصل بقدر كلمة .

(٤) استكلنا هذه العبارات من ترجمة ابن الغازي عند ابن الفرضي .

(٥) إضافة يقتضيا السياق اعتمدنا فيها على ترجمة زونان في كتاب ابن الفرضي رقم ٨١٣ .

(٦) ص . مذاهب .

(٧) ص : الفقيه .

سنة أربع وثلاثين ومائتين⁽¹⁾ :

وعبدُ الفقهاء⁽²⁾ شيخُ قرطبة يحيى بن يحيى الليثي ، هلك لثمان بقين من رجب منها ، وله ثنتان وثمانون سنة (٣١٥) .

وقال أحمد بن محمد الرازي :

بل عشيّة⁽³⁾ الأربعاء لثمان بقين من ذي حجة منها .

وفي كتاب ابن الفرضي :

هو يحيى بن يحيى بن كثير بن وهلال بن تسال⁽⁴⁾ بن منقايَا ، أضلّه من برّابِر⁽⁵⁾ مضمودة ، يتولّى بني لَيْثٍ (٣١٦) ، يكنى أبا محمد ، وكان كبير الأكابر بقرطبة ، سمع فيها لأول نشأته من زياد بن عبد الرحمن (٣١٧) الموطأ ، [ثم رحل إلى المشرق ، فسمع الموطأ من مالك بن أنس]⁽⁶⁾ غير أبواب من الاعتكاف شك في سماعها من مالك ، فاثبت روايته فيها عن زياد عنه . ورحل إلى مالك وهو يومئذ ابن ثمان وعشرين⁽⁷⁾ سنة ، فسمع منه ، ومن نافع بن [أبي]⁽⁸⁾ نعيم ، وسمع بمكة من سُفْيَانَ بن عُيَيْنَةَ ، وبمصر من الليث بن سعد ، وابن وهب ، وابن القاسم ، وغيرهم .

وقدم إلى الأندلس بعلم كثير ، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه وقوله ، وكان يُفتى برأى مالك صِرْفًا لا يعلّوه إلا في القنوت في الصبح فإنه تركه لرأى الليث ، وترك يحيى من رأى مالك أيضا الأخذ باليمين مع الشاهد ، وأخذ بقول الليث في ترك ذلك وإيجاب شهيدين ، وكان أيضا لا يرى بعثة الحكّمين عند تشاجر الزوجين ، فكان ذلك مما يُنكر عليه (٣١٨) . وكان يحيى يُفضّل بالعقل على علمه .

(1) إضافة يقتضيه السياق ، إذ هذه هي السنة التي توفي فيها يحيى بن يحيى ، ويبدو أن اسما أو أكثر سقط قبل اسم يحيى .

(2) ص : الفقيه . (3) ص : عشا .

(4) كذا في الأصل ، والذي جاء في كتاب ابن الفرضي في تربيعة يحيى (رقم ١٥٥٤) : وسلاس بن شمل وهو أصح مما جاء في الأصل .

(5) ص : البرابِر . (6) زيادة يقتضيه السياق اعتمادنا فيها على ما ذكره ابن الفرضي

(7) هذا اللفظ مكرر في الأصل . (8) زيادة تم بها صحة الاسم .

وقال محمد بن عمر بن لبابة :

فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى ابن يحيى .

وكان يحيى ممن اتهم بالإجلاب في الهنج ، فهرب إلى طليطلة ، ثم استأمن الأمير الحكم ، [فأمته ⁽¹⁾] ، وانصرف [إلى قـ] رطبة .

[٢١١ بـ]

/ سنة خمس وثلاثين ومائتين :

محمد بن سعيد بن رستم الوزير الحاجب ، في صفر منها .
وأخوه القاسم قبله .

والشريف يحيى بن سليمان بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من الجلساء (٣١٩)
والعمر بن يحيى بن عبد الغافر ⁽²⁾ بن أبي عبدة (٣٢٠) .
وخطاب العاز (٣٢١) .

وأبو اليسول الشاعر سعيد [بن] يعمر بن علي العبدى بسرقسطة (٣٢٢) .
والأخ بكر بن الأمير الحكم بتدمير ، وكان قائدا بها ، فورد بذلك كتاب أمية بن سليمان ⁽³⁾ عامل تدمير ، فخرج زيدان الفتى الكبير للنظر في إحصاء تركته والاحتياط عليها (٣٢٣) .

ومروان بن عبد الله ⁽⁴⁾ الزجالي (٣٢٤)

وعبد الله بن محمد بن جابر (٣٢٥) .

(1) استكلنا بقية الكلمات معتمدين على ما سلم من حروفها خلال القطوع .

(2) ص : . . بن عبد الله العامر ، وقد أصلحنا الاسم على الصورة التي أثبتنا بعد مقابلته على ما ذكره ابن الأبار في حديثه عن نسب هذه الأسرة في معرض الكلام عن جهور بن عبيد الله بن النمر بن يحيى المذكور هنا (انظر الحلة السيرة ٢٤٥ / ١) .

(3) ص : بن عبد الله الملك الزجالي ، ويبدو أن للناسخ كان مترددا في كتابة الاسم بين « عبد الله » و « عبد الملك » فأصلحناه بما أثبتنا بعد أن رأينا في حديث ابن حبان عن محمد بن سعيد الزجالي رأس هذه الأسرة أنه أعقب ولدين اسم أحدهما حامد واسم الآخر عبد الله ، ولم يذكر له ابنا باسم عبد الملك .

والشريف أمية الأغشي بن هشام بن الأمير الحكم (٣٢٦) .
وسعيد بن حسان الفقيه بقرطبة (٣٢٧) في جمادى الأولى منها .
وفي كتاب القاضي ابن الفرضي :

سعيد بن حسان مولى الأمير الحكم بن هشام ، يكنى أبا عثمان ، قرطبي نبيه ، رحل
إلى المشرق سنة سبع وسبعين ومائة^(١) ، فروى عن عبد الله بن نافع (٣٢٨) ، وعبد الله بن
عبد الحكم (٣٢٩) ، وأشهب بن عبد العزيز ، ومنه استكثر ، وسمع منه سماعه عن مالك ،
وكتب رأيه وغير ذلك من أحاديثه ، وانصرف سنة أربع ومائتين ، وكان فقيهاً في المسائل
حافظاً لها ، مشاوراً مع الشيخ يحيى بن يحيى وعبد الملك بن حبيب وقاسم بن هلال ،
وكان منقطعاً إلى مواخاة يحيى ، أخذاً بهديه ، معظماً له ، ركباً سننه ، لا يخالفه في
شيء يراه ، قد غلب عليه مع ذلك حفظ رأى أشهب عن مالك واختياره ، وتفرد بروايته
عنه ، وكان على فقهه^(٢) زاهداً فاضلاً ورعاً ، وتوفي في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم
سنة ست وثلاثين ومائتين^(٣) ، بعد خليفه يحيى بن يحيى بعامين .

والأخ سعيد الخير بن الأمير الحكم (٣٣٠) في ربيع الآخر .
ومحمد بن حيون بن أبي عبدة أخو حمدون (٣٣١) .
ونضر الفتي الخصى خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب على دولته ، في شعبان منها .
وعمر بن حفص بن أبان .
سنة سبع وثلاثين ومائتين :

الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني ، وقد نيف على الثمانين سنة والفقيه
قاسم بن هلال القيسي (٣٣٢) . من [كتاب ابن الفر] ضي :

(١) كذا ورد التاريخ في كتاب ابن الفرضي الذي يعتمد ابن حيان عليه هنا ، ومع ذلك فإننا نظن أن هناك خطأ
في هذا التاريخ وأن الصواب « سنة سبع وتسعين ومائة » . أنظر تعليقنا على هذا الموضع .

(٢) ص : فقه :

(٣) لم يفعل الناس هنا فيما يبدو بين وفيات سني ٢٣٥ و ٢٣٦ ، إذ نراه يذكر وفاة سعيد بن حسان في هذه
الآخيرة بينما يمتنون للفقرة بسنة ٢٣٥ السابقة لها . وربما سقط بين الأسماء المذكورة عنوان السنة التالية .

قاسم بن هلال بن فرقد بن عمران⁽¹⁾ القيسي ، يكنى أبا محمد ، قرطبي تفقه [على زياد] بن عبد الرحمن ، ورحل ، فسمع من ابن القاسم وابن وهب [وغير واحد] من المصريين والمد [نيين من من أصحاب مالك ، وكان عالماً بالمسائل ، ولم يكن له علم بالحديث] ، وكان رجلاً مُعَقَّلاً وَقَوَّراً ، حَدَّثَ عنه [بَنُوهُ وغيرهم]⁽²⁾ .

سنة ثمان وثلاثين ومائتين :

/ عَلِيُّ بن نافع الملقب بِزُرِّيَاب ، مَوْلَى المهدي العباسي ، في ربيع الأول من سنة ثمان [٢١٢] وثلاثين ومائتين ، هَلَكَ قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً (٣٣٣) .

وفيها مات هارون بن سالم ، يكنى أبا عمر (٣٣٤) ، قرطبي قديم ، سمع من عيسى بن دينار ويحيى بن يحيى ، ورحل إلى المشرق ، فلقى أشهب بن عبد العزيز (٣٣٥) وروى عنه ، وسمع من أَصْبَغ بن الفَرَج ، وَعَلِيُّ بن مَعْبُد (٣٣٦) ، وَسَحْنُون ، وغيرهم . وكان مُنْقَطِعَ القرين في الفضل والزهد والعلم ، وكان يقال فيه إِنَّهُ مُجَابُ الدعوة . وكان يحفظ المسائل حفظاً حسناً ، إلا أن العبادة كانت أَغْلَبَ عليه ، وقد كانت تُعَرِّفُ كرامته وإجابته في غير ما شئ . ومات على ذلك حَدَثًا في الأربعين من عمره ، وكانت كتبه مَوْقَفَةً عند أحمد بن خالد (٣٣٧) ، وكانت بينه وبينه قرابة من طريق أمه ، وتوفي فيما ذَكَرَهُ أَحْمَدُ سنة ثمان وثلاثين ومائتين وفيها مات الأمير عبد الرحمن بن الحكم ليلة الخميس لثلاث بقين من ربيع الآخر منها وقد تقدّم ذكر ذلك في مكانه .

(١) في كتاب ابن الفرضي : عمر .

(٢) اعتمدنا في ملء فجوات هذا النص على ما بقى من حروفه وعلى ترجمة قاسم بن هلال في كتاب ابن الفرضي ،

ذكر خصال من مناقب الأمير عبد الرحمن بن الحكم لم تمر في عرض أخباره

قال أحمد بن محمد الرازي :

كان الأمير عبد الرحمن مُقدِّم الطبقة في البلاغة ، مطبوعاً في الكتابة ، مُقتديراً على ما حاول من سنيّ البيان المنثور والمنظوم ، مؤثراً⁽¹⁾ لمن يُحسِنهما ، مُقرباً⁽²⁾ بوسيلتيهما ، وكان له التوقيع الوجيز والقريض المُستحسن .

فيمّا⁽³⁾ شهر من وجزّ توقيعه⁽⁴⁾ :

توقيع له إلى بعض من سألّه من مواليه توليته عملاً لم يكن من أهله :

« من لم يعرف⁽⁵⁾ وجهه مطلبه كان الحرمان أولى به » .

ووقع إلى ابنه المنذر^(٣٣٨) - وكان من بين ولديه بليغاً مفوهاً - ، فكتب إليه يسأله أن يأذن له في اعتلاء المنبر بالبلد الذي كان يليه له ليقم الجمعة ويخطبهم ، ليحيى رسوم سلفهم ويؤتوا به في أتباعهم . فوقع على ظهر كتابه :

« قالت الحكماء : لو كان الكلام من فضة ، لكان الصمت من ذهب ، وإني لأشفقُ

عليك مما تحسِنه ، فكيف مما تؤمّم عليك بعض التقصير فيه ؟ » / يملح سداهما⁽⁶⁾ [٢١٢ب]

ومقتدح زنادهما⁽⁷⁾ ومجارهما في مضمار باطلهما : زرياب المغنى ، تلى وحى الشيطان ،

(1) ص : منثورا .

(2) ص : مرتبا .

(3) ص : بما .

(4) ص : ترفيعه .

(5) كذا ورد هذا اللفظ في المغرب لابن سعيد ١ / ٤٦ ؛ ونفح الطيب للمقرئ ١ / ٣٢٥ ؛ وفي البيان المغرب

لابن عذاري ٢ / ٩٣ ؛ و « أخبار مجموعة » ص ١٣٩ ؛ وأعمال الأعلام لابن الخطيب (الطبعة الثانية) بيروت سنة ١٩٥٦ ص ١٩ : « يصب » .

(6) ص : يملح يشداها .

(7) ص : زيادها .

وثالث أثنائي السلوان ، ما له من مُتعةٍ نعيمٍ تملك القلوب ، وتصور⁽¹⁾ [إليها] ⁽²⁾الآذان ، لو أن حياً⁽³⁾ يسلم من الحدّثان .

جرت لهذا الأمير المُتَرَفِّعِ معهم في مجالسِهِ ومشاربِهِ⁽⁴⁾ نوادر أخبار ، تُؤنِّس زَهْر الرُّؤُوسِ غِبَّ القِطَارِ ، وهي مَبْنُوثَةٌ في النَّاسِ ، على أن رُسُومَ الباطِلِ إلى يَلَى وأنْدِرَاس⁽⁵⁾ (٣٣٩)

قرأت في كتاب مُعاوِيَةَ⁽⁶⁾ بن هشام الشَّيْبَانِي⁽⁷⁾ قال (٣٤٠) :

من أَبْدَعَ مكارِمِ الأمير عبد الرحمن بن الحكم الدالّةِ على سُروِهِ ورِفْعَةِ نفسه وفرط استحيائه ورِفْقَةِ وجهه التي لم يَكُنْ يَعدِلُهُ فيهِنَّ أَحَدٌ من أَهْلِ بيته أن أخْضِرَ يوماً مالا كثيراً أَناهُ من بَعْضِ النواحي جَلَسَ لإيعابِهِ في بَدْرِهِ ، وقد أَمَرَ خَدَمَهُ الصَّقَالِبَةَ بِتَوَلَّى ذلك ونَضِدِهِ بين يديه إلى أن يأمرَ برفعه إلى بيت المال ، فَأَخَذُوا في ذلك على عَيْنِهِ .

واعتَرَتْهُ سِنَةٌ غَضَّ لها من طَرْفِهِ ، خالها بعضُ شُرَهاثِهِمْ نَعَاسًا ، فمدَّ يده إلى بِدْرَةٍ من ذلك المال ، إِخْتَلَسَهَا حينَ غَفْلَةٍ من أَصحابِهِ ، فَصَيَّرَهَا⁽⁸⁾ في حِصْنِهِ ، وَالْأَمِيرُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكْمَلُوا نَضِدَ الْبَدْرِ أَمَرَهُمْ بِإِعَادَةِ عَدِّهَا ، فَأَصَابُوهَا تَنْقُصُ تلك البَدْرَةَ الْمُخْتَلَسَةَ ، فَتَرَامَوْا بِسَرِقِهَا ، واشتَدَّ بينهم التَّنَازُعُ فيها ، فلما أَكثَرُوا قال لهم الأمير :

— حَسْبُكُمْ ! كُفُّوا عن ذِكْرِهَا ، فَقَدْ أَخَذَهَا من لا يَرُدُّهَا ، ورآه من لا يَفْضَحُهَا .
فإِيَّاهُ وإياكم عن العَوْدِ لِمِثْلِهَا ، فَإِنَّ كَبِيرَ الذَّنْبِ يَهْجُمُ عن⁽⁹⁾ اسْتِنْفَادِ⁽¹⁰⁾ العَفْوِ ! اِرْقَعُوا المالَ وَأَقْلُوا المَقَالَ .

(1) أى تميل وتنعطف

(2) زيادة يقتضيها السياق .

(3) ص : ومساربه .

(5) سقط أول هذه الفقرة في قطوع أسفل الصفحة السابقة ، ولكن السياق يدل على أن المؤلف كان في ذكر اثنين من ذوي الصلة الوثيقة والخطوة المتكئة من الأمير عبد الرحمن ، إذ أننا نرى الحديث في أول الصفحة عن ثالث هذين الاثنين « مجارهما في مضمار باطلهما » : زرياب المفتى ، ونرجح أن هذين الاثنين اللذين كانا موضوع الحديث الذاهب أوله في قطوع الصفحة السابقة إنما هما حظيتة « طروب » الأثيرة لديه من بين نسائه ، وحاجبه « أبو الفتح نصر الحضي » خليفته المقدم على جميع خاصته . أما المؤرخ الذي ينقل ابن حيان هذا الخبر — فالأسلوب هنا ليس أسلوب ابن حيان — فقد ذكرنا في تعليقنا على هذا الموضوع أنه لا بد أن يكون الشاعر عبادة بن ماء السماء .

(6) ص : معاوية . (7) ص : الشيبلى .

(8) كلمة مطبوعة في الأصل لا يبين إلا بعض حروفها ، ولعلها كما أثبتنا .

(9) في المغرب لابن سيد (١ / ٤٦) : على . (10) ص : استفاد

فاشتدَّ عَجَبُ من سَمِعَ به من سَعَةِ كَرَمِهِ وشِدَّةِ حَيَاةِهِ .

وقرأت فيه :

كان مكان الأمير عبد الرحمن من صِلَةِ الرَّحِمِ والحُنُوِّ على القرابة على حال لم يُساوِهِ فيها أحدٌ من أهل بيته ، وكان قد اختصَّ فوقهم جميعاً أخاه أبا عثمان سعيد الخير [بن] (1) الأمير الحكم ، فحبَّاهُ بصدافته من بين سائر إخوته من وقت نشأتهما أيام أبيهما ، فلما أن صار الأمرُ إليه تضاعفَ اختصاصُهُ لسعيد ، وأنسه به ، ومباطنتهُ إياه ، وإلطافه له ، فصار يُنادمه ويخلو به ويتصرف معه في مغازيه وصُيُوده ، ولا يَصْبِرُ عنه ، حتى اغتَلَّتْ حالُ سعيدٍ في أهل بيته ، وحسدوه على ما أُتيح له من الزُّلفى إلى الأمير عبد الرحمن [وكان سعيد في ذاته سيِّداً جواداً] (2) .

[٢١٣ | / تذكرة للشامتين ، وعِظَةٌ للمتفكرين ، وذلك أن قَعَدَ فيه في بعض خلواتِهِ للأُنسِ مع جَواريه والائِثْاذِ بأغانيه ، على استعدادٍ كان منه ليومه ذلك واحتفالٍ في تَهْيِئَتِهِ (3)]

فَبَيْنَمَا هو مُنْغَمِسٌ في نعمته ، لاهٍ بِحَبْرَتِهِ ، إذ انهارَتْ تلك السُّتَارَةُ (٣٤١) الساميةُ التي كان علَّاهَا على مَجْلِسِهِ الذي كان قاعداً فيه من داءِ اسْتَبْطَنَهَا لم يَشْعُرْ به لما أَرَادَهُ اللهُ من عَرَضٍ قُدِّرَتْهُ عليه ، فَخَرَّ المجلسُ على من كان فيه من نِسائه وخدمته ، وسَحَقَهُمْ سَحَقاً ، وقضى اللهُ بِنِجَاتِهِ من بينهم بَأَدَقِّ سَبَبٍ ، مِنْ قِبَلِ جَائِزَةٍ (٣٤٢) صَلْبَةٍ من جِيزَانَ (4) المجلسِ تَعَرَّضَتْ فَوْقَهُ ، فَأَمْسَكَتْ عنه أذى الِهْدَمِ ، ونَجَا تحتهَا هو وجاريةٌ له حَظِيَّةٌ كَانَ قد أَجْلَسَهَا إلى جَنْبِهِ كانت تُسَمَّى « مُنْتَهَى الْمُنَى » أُمُّ وَلَدِهِ مَرْوَانَ ، نَجَتْ بِنِجَاتِهِ ، وهَلَكَ جميعُ جَواريه أَشْنَعَ هَالِكٍ ، وَكُنْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ جاريةً .

فَارْتَجَتْ المدينةُ من شِنَاعَةِ قِصَّتِهِ ، وَاتَّصَلَ خَبَرُهُ بِأَخِيهِ الأميرِ عبد الرحمن ، فُسِّرَ بِخُلُوصِهِ سروراً هَوْنٌ عنده جميعَ ما أَصَابَهُ ، وهَنَاءٌ به أَصْحَابُهُ ، واستدعى سعيداً إلى نفسه

(1) زيادة يقتضيها السياق .

(2) هذا هو كل ما استطعنا استخلاصه من ألفاظ من خلال قطوع آخر الورقة .

(3) الحديث في هذه الفقرة التي ذهب أولها في قطوع الصفحة السابقة عن حادث وقع لسعيد الخير بن الحكم أخى الأمير

عبد الرحمن وكاد يذهب ضحية له بينما كان في مجلس سمر وغناء أقامه في دار جديدة إلباء على ما يظهر .

(4) ص : حائرة . . حيران ، وانظر تحقيقنا لهذا اللفظ في التعليق ذى الرقم المذكور

فَسَلَّاهُ عَلَى مَا أَصَابَهُ ، وَأَخْلَفَ عَلَيْهِ بِكُلِّ جَارِيَةٍ هَلَكَتْ ثَمَنَتَيْنِ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ ثَمَانِيَّ وَعَشْرِينَ جَارِيَةً بِمَا لَهُنَّ مِنْ نَتَبٍ وَكِسْوَةٍ ، وَدَفَعَ إِلَيْهِ مَالًا وَاسِعًا يُعِيدُ (I) لَهُ بِنَاءَهُ ، وَيَطْرُدُ بِهِ شَعَثَهُ ، فَاعْتَدَلَتْ حَالُ سَعِيدٍ ، وَجُبِرَ كَسْرُهُ ، وَاتَّصَلَتْ أَلْفَتُهُ بِالْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَبَابْنِهِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ بَعْدَهُ .

وَطَالَتْ حَيَاتُهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ صَدَرَ ربيع الآخر سنة أربعين ومائتين (٣٤٣) فَأَرْسَلَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدٌ بِكَفَنِهِ وَحَنُوطِهِ وَطَبِيبِهِ مِنْ عِنْدِهِ ، وَعَهْدَ إِلَى بَنِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَوُزَرَائِهِ وَأَهْلَ خِدْمَتِهِ بِشُهُودِهِ وَالْمَشْيِ بَيْنَ يَدَيْ نَعْشِهِ .

ذكر المجاعة

وقال ابن هشام الشيبينسي :

نَالَتْ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ صَدَرَ أَيَّامِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَنَةَ سَبْعٍ وَمِائَتَيْنِ (٣٤٤) وَكَانَ سَبَبُهَا انْتِشَارُ الْجَرَادِ بِالْأَرْضِ وَلَحْسَهُ [الغد] لَلَّاتٍ وَتَرَدُّدُهُ بِالْجِهَاتِ ، فَنَالَتْ النَّاسَ مَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ ، [كَفَى حَدَّهَا الْأَمِيرُ بِإِطْعَامِ (2) الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنْ أَهْلِ قُرْطُبَةٍ ، / فِيهِمْ بِاسْمِ أَيُّوبَ الْعَابِدِ الْمُسْتَجَابِ ، بَعْدَ أَنْ تَصَفَّحَ وَجْهَهُ النَّاسُ حَوْلَهُ ، [فَلَمْ تَقَدْ] نَحْ [٢١٣ ب ، عَيْنُهُ عَلَيْهِ ، فَنَادَى بِاسْمِهِ مُسْتَحْلِفًا لَهُ بِاللَّهِ أَنْ يَبْرُزَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ مِنْ [الْإِرْجَاءِ] نَادَى بِهِ بَرَزَ وَدَنَا مِنْهُ ، فَاجْتَهَدَ يَحْيَى فِي الدُّعَاءِ ، وَأَيُّوبُ يَوْمَئِذٍ وَينَادِي (3) رَبِّهِ فَسُقِيَ النَّاسُ لَيَوْمِهِمْ . وَغَابَ (4) أَيُّوبُ فَلَمْ يَظْهَرْ .

وَمَضَى ذِكْرُ هَذَا الْخَبَرِ عَلَى اخْتِلَافِ الرُّوَاةِ فِي تَارِيخِ عَامِهِ (5) وَاسْمِ الْإِمَامِ الْمُسْتَسْقَى (6)

(1) ص : يعد .

(2) هذا هو أقصى ما استطعنا استخلاصه خلال قطوع آخر الصفحة .

(3) ص : ونادى .

(4) ص : وغاب .

(5) ص : عليه .

(6) ص : المستق . هذا وبقية الخبر تفسر لنا أوله الذي ضاع في قطوع آخر الصفحة السابقة . فالتواريخ يشهدون عن صلاة استسقاء أداها المسلمون في قرطبة في عام تلك المجاعة الشديدة التي أصابت الأندلس في سنة ٣٤٧ هـ على ما ذكر في نهاية الصفحة الماضية ، وكان إمام المصلين فيها هو من ينمية ابن حيان « يحيى » ولا بد أن يكون يحيى بن يحيى : النبي الفقيه المشهور (وقد يكون أيضا يحيى بن منمر الأندلسي القاضي الجماعة لولا أنه لم يكن يتولى القضاء في هذه السنة) . ويذكر ابن حيان في نهاية هذا الخبر أن هناك خلافا في العلم للذي أدبت فيه صلاة الاستسقاء هذه وفي إمامها . وهذا صحيح إذ أننا نجد الخبر =

وَقَرَأْتُ بِحَظِّ عُبَادَةِ الشَّاعِرِ (٣٤٥) قَالَ :

كَانَ الشَّرِيفُ دَحُونُ [بَن] (١) الْوَلِيدِ ، وَاسْمُهُ حَبِيبُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ حَبِيبِ الدَّاخِلِ إِلَى الْأَنْدَلُسِ (٣٤٦) بَنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَدَحُونُ لَقَبٌ لَهُ غَلَبَ (٢) عَلَيْهِ ، وَيُكْنَى أَبَا سَلِيمَانَ (٣٤٧) . وَكَانَ مِنْ سَرَّاقَةِ بَنِي مَرْوَانَ بِالْأَنْدَلُسِ وَعُلَمَائِهِمْ وَأَدَبَائِهِمْ ، وَوُلِدَ أَيَّامَ الْأَمِيرِ الدَّاخِلِ [فِي] حَيَاةِ جَدِّهِ حَبِيبِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الدَّاخِلِ أَيْضًا ، وَجَدُّهُ الَّذِي رَبَّاهُ وَأَدَّبَهُ ، إِذْ تُوُفِّيَ أَبُوهُ الْوَلِيدُ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ ، فَكَفَّلَهُ بَعْدَهُ جَدُّهُ حَبِيبُ الَّذِي هُوَ وَالِدُ جَمَاعَةِ هَذَا الْبَطْنِ الْحَبِيبِيِّ (٣) مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ ، فَتَنَشَأُ (٤) حَبِيبُ دَحُونُ هَذَا فِيهِمْ فَقِيهًا فَاضِلًا عَالِمًا أَدِيبًا شَاعِرًا مُخَصِّنًا .

وَكَانَتْ لَهُ رَحْلَةٌ إِلَى الْمَشْرِقِ فِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَكَمِ ، حَجَّ فِيهَا وَلَقِيَ عِلْبَةَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ، فَكَتَبَ عَنْهُمْ ، وَقَدِمَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ بِعِلْمٍ كَثِيرٍ ، فَذَهَبَ إِلَى نَشْرِهِ (٥) ، فَكَانَ يَتَحَلَّقُ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِقَرْطَبَةِ ، وَهُوَ يَلْبَسُ الْوَشْيَ الْهَشَامِيَّ (٦) (٣٤٨) وَمَا شَاكَلَهُ ، فَتَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهِ ، فَكَرِهَ ذَلِكَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَوْصَى إِلَيْهِ بِتَرْكِ التَّحَلُّقِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ جَدُّ كِسْرِ (٧) مِنْ قُرَيْشٍ وَمِنَّا بِحَيْثُ تَعَلَّمَهُ ، وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الْأَمْرُ بِكَ (٨) فَدَعَاهُ ! فَتَرَكَ ذَلِكَ .

قَالَ :

وَجَرَتْ لِدَحُونٍ فِي سَفَرَتِهِ مَعَ وَالِي بَنِي الْعَبَّاسِ بِدِمَشْقَ - بَيْتِ سَلَفِهِ - قِصَّةٌ طَرِيفَةٌ

= التَّالِي فِي كِتَابِ الْمَغْرِبِ لِابْنِ سَعِيدٍ (١ / ١٤٦ - ١٤٧) فِي مَعْرِضِ الْكَلَامِ عَنِ الْقَاضِي مَسْرُورِ بْنِ مُحَمَّدٍ : « وَخُطِبَ فِي الْإِسْتِمْقَاءِ ، فَقَالَ : يَا أَيُّوبَ الْبَلُوطِي ، عَزَمْتُ عَلَيْكَ حَيْثُ كُنْتَ لِتَقُومَ . فَلَمْ يَقُمْ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ عَلَيْهِ فِي الثَّالِثَةِ ، وَقَالَ : يَا هَذَا . أَشْهَرْتُني ! أَمَا كُنْتَ أَدْعُو حَيْثُ أَنَا ؟ ثُمَّ رَفَعَ الْقَاضِي رَأْسَهُ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَشْفَعُ إِلَيْكَ بِوَلِيِّكَ هَذَا . وَالْحُجَّ بِالْدَّعَاءِ وَكَثُرَ الضَّجِيجُ وَالْبُكَاءُ . فَلَمْ يَنْصَرَفُوا إِلَّا وَأَحْذَيْتَهُمْ فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ كَثْرَةِ الْمَطَرِ . وَطَلَبَ أَيُّوبُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يَوْجَدْ » . وَابْنُ سَعِيدٍ يَنْقُلُ هَذَا الْخَبَرَ عَنْ ابْنِ عَبْدِ الْبَرِّ . أَمَّا مَا وَرَدَ هُنَا فَلَسْنَا نَعْرِفُ عَنْ نَقْلِهِ ابْنَ حَيَّانَ ، وَنَحْنُ نَرَى بَعْضَ الْخِلَافِ فِي التَّفَاصِيلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَصِّ ابْنِ سَعِيدٍ . وَهَذَا هُوَ مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ ابْنُ حَيَّانَ بِقَوْلِهِ : « عَلَى اخْتِلَافِ الرِّوَاةِ فِي تَارِيخِ عَامِهِ وَاسْمِ الْإِمَامِ الْمُسْتَسْقَى » .

(٢) ص : لِب .

(١) زِيَادَةٌ يَقْتَضِيهَا السِّيَاقُ .

(٤) ص : فَنَسَ ، بَلَا إِعْجَام .

(٣) ص : الْحَمْنُ .

(٦) فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ لِلْمَقْرِي (٣ / ٢٥٩) : الشَّامِي

(٥) ص : نَثْرَةٌ .

(٨) ص : إِلَّا مَوْتُكَ .

(٧) كَذَا فِي الْأَصْلِ .

حكاهما إسحاق بن سلمة (٣٤٩) عن ابنته وكديه عبدة بنت بشر بن دحون (٣٥٠) عن أبيها بشر (٣٥١) قال :

دَخَلَ أَبِي دَحُونُ إِلَى مَدِينَةِ دِمَشْقَ - وَطَنِهِمْ [الْأَقْدَمِ] ^(١) - فِي رَحْلَتِهِ إِلَى الْمَشْرِقِ ، وَعَامِلُهَا يَوْمَئِذٍ لِأَبِي إِسْحَاقَ الْمُعْتَصِمِ عُمَرُ بْنُ فَرَجٍ الرَّخَّجِيُّ مُوَلَّى بَنِي الْعَبَّاسِ (٣٥٢) ، فَاتَّفَقَ أَنْ وَافَقَ كَوْنَهُ بِهَا أَيَّامَ غَلَاءٍ نَزَلَ بِأَهْلِهَا [وَارْتِفَاعُ] سَعْرِ [ضَجُّوا مِنْهُ ، فَأَخَذَ] الرَّخَّجِيُّ بِضَبْطِهِمْ : بِأَنْ أَمَرَ بِإِزْعَاجِ مَنْ عِنْدَهُمْ [مِنَ الطَّارِئِينَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ] الْبِلَادِ وَالْغُرَبَاءِ . [وَجَعَلَ] عَلَى كُلِّ مَنْ أَخَذَ مِنْ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ [بَعْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ الَّذِي ضَرَبَتْ لَهُمْ أَنْ يَحِلَّ] بِهِ أَشَدُّ الْعِقَابِ ^(٢) .

[فَابْتَدَرَ الْغُرَبَاءُ الْخُرُوجَ عَنْهَا ، وَأَقَامَ دَحُونُ لَمْ يَتَحَرَّكَ ، فَجِيءَ بِهِ إِلَى الرَّخَّجِيِّ بَعْدَ الْأَجَلِ ، فَقَالَ لَهُ :

- مَا بِأَلَيْكَ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟ أَوْ مَا سَمِعْتَ نِدَائِي ؟

فَقَالَ لَهُ دَحُونُ : ^(٣)

[٢١٤]

/ - ذَاكَ قُدِّرَ لِأَبْنِي بِجَدَّتَيْهَا ! وَانْتَمَى لَهُ .

قَالَ الرَّخَّجِيُّ :

- صَدَقْتَ وَاللَّهِ ! مَا أَنْتَ فِيهَا بِغَرِيبٍ ، وَلِأَنَّكَ لَأَحَقُّ بِالْإِقَامَةِ فِيهَا مِنَّا . فَأَقِمْ مَا أَحْبَبْتَ وَانصِرِفْ إِذَا شِئْتَ .

وَذَكَرَ إِسْحَاقُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْحَبِيبِيِّ عَنْ جَدِّهِ قَالَ :

(١) إضافة عن المقرئ : نفع الطيب ٣ / ٢٥٩ .

(٢) أكلنا النص بالمعنى معتدين على ما ورد في الموضع المشار إليه قبل ذلك من النفع ومع مراعاة ما بين من النص خلال القطوع والفجوات .

(٣) عن نفع الطيب المقرئ .

لما حجَّ حبيبٌ دَحُونُ اجتمع بمكة مع ابن عمه محمد بن يزيد بن مَسْلَمَةَ ، وكان
مُعَلِّمًا ببلده بالشام بحالٍ حَسَنَةٍ ، فَوَهَبَ له محمد جاريةً تُسَمَّى عابِدة (٣٥٥) ، وكانت
سَوَدَاءَ (١) حَالِكَةً من رَقِيقِ المدينة ، وكانت تَرَوِي عن مالك بن أنسٍ وغيره من العلماء
شُيُوخِها ، فتُسَنِّدُ عَشْرَةَ آلَافٍ حَدِيثٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فَقَدِمَ بها دَحُونُ إلى
الأندلس ، وهو قد أُعْجِبَ بِعِلْمِها وفَهْمِها ، فاتَّخَذَهَا لِفِرَاشِهِ ، فَوَلَدَتْ له بِشْرًا (٢) ابْنَهُ .

(١) ص : سردا .

(٢) ص : بشر .

الدَّاخلون إلى الأمير عبد الرحمن من قَوْمِهِ

وفي كتابِ مُعاويةَ بنِ هِشامٍ الشَّيْبَانِيّ :

من وُجُوهِ من دَخَلَ إلى الأَنْدَلُس من بنى مروان أبو القاسم بَكَّار⁽¹⁾ بن عبد الواحد⁽²⁾ بن داود بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، دخلها أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ودَخَلَ معه ابنُ أخيه أبوسعيد مَسْلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان بن عبد الملك (٣٥٦) فَكَرَّمَهُمَا الأميرُ عبد الرحمن وَرَحَّبَ بهما وَأَنْزَلَهُمَا وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمَا وَأَقْطَعَهُمَا ، وَأَجْرَى لكل واحدٍ من الرزق بِالمُشَاهَرَةِ ثلاثين ديناراً⁽³⁾ .

ودخل بعدهما من أهل بيتهما إلى الأمير عبد الرحمن أيضا سنة ست وثلاثين ومائتين سَلَمَةُ بن عبد الملك بن عبد الواحد بن داود بن سليمان ، فَأَجْرَاهُ مُجْرَاهُمَا ، وقد [انْقَرَضَ]⁽⁴⁾ الآن عَقِبُ سَلَمَةَ هذا .

قال :

ودخل الأَنْدَلُس من هؤلاء المروانيَّةِ أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم أَصْبَغُ بن محمد بن هشام بن محمد بن سعيد الخير بن عبد الملك بن مروان ، فَأَنْزَلَهُ الأمير عبد الرحمن ، وَكْرَمَهُ وَأَقْطَعَهُ ، فَأَلْقَى عصاه بِالْأَنْدَلُس وَأَنْسَلَ ، فَعُرِفَ وَلَدُهُ بِبنى السَّعِيدِيّ ، وهم بِإِسْبِيلِيَّةِ (٣٥٧) .

(1) في الأصل : أبو القاسم بن بكار ، وواضح أن لفظ « ابن » زائد لا محل له .

(2) ص : عبد الرحمن ، وهو تعريف .

(3) ص : دينار .

(4) كلمة مطبوعة في الأصل تدل بقايا حروفها على أنها كما أثبتنا .

[ما قيلَ في رثاءِ الأميرِ عبد الرحمن بن الحكم ^(١)]

وَوَجَدْتُ بِخَطِّ أَبِي بَكْرٍ [عُبَادَةُ] ^(٢) الشاعرِ لَطَائِرِ بْنِ حَزْمٍ (٣٥٨) الشاعرِ من قصيدة
يرثي بها الأميرَ عبد الرحمن [وَيُهْنِي ^(٢)] الأميرَ مُحَمَّدًا ابْنَهُ بِالْخِلَافَةِ : [من الطويل]

[٢١٤ ب]

- / سَقَى ^(٣) اللَّهُ قَبْرًا بِالنَّخِيلِ غَمَامَةً
تَكَادُ إِذَا حُلَّتْ عُرَاهَا تَفْطُرُ

رَأَى اللَّهُ إِذْ وَلَّى الْأَمِيرَ مُحَمَّدًا
لَكُمْ عِصْمَةً يَأْتِيهَا النَّاسُ فَاشْكُرُوا

فَمَا نَطَقَ الْأَقْوَامُ فِيهِ قَنَاعَةً
وَهُمْ فِي أَبِي بَكْرٍ - لَعَمْرِي - كَثُرُوا

تَبَسَّمتِ ^(٤) الدُّنْيَا إِلَيْهِ . وَأَقْبَلَتْ
إِلَيْهِ قُلُوبُ النَّاسِ لَا تَتَأَخَّرُ

وخرج إلى مديح فأطال .

ولعبد الله بن بكرٍ المُنْبِزِ بِالنَّدْلِ ^(٥) (٣٥٩) في ذلك : [من المتقارب]

أَلَا إِنَّ فِي الدَّهْرِ لِلْمُبْصِرِينَ عَجَائِبُ تَبْهَرُ ^(٦) أَنْظَارَهَا
تَسُورُ الْمَنَائِسَا فَمَا مِنْ عَزِيزٍ يُدَافِعُ بِالْعِزِّ تَسْوَارَهَا !
وَكَانَ بِالْأَمْنِ سِرَاجَ الْعَلَا يَسُوسُ الْبِلَادَ وَأَقْطَارَهَا
عَلَى حِينٍ أَحْكَمَ رَيْبَ الدُّهُورِ . وَعُرِفَ ^(٧) الْأُمُورِ وَلَمْ تَكَارَهَا

(١) أضفنا هذا العنوان للامتنع للسياق .

(٢) كلمتان مطموستان في الأصل ، لا تظهر منهما إلا بقايا حروف .

(٣) ذهب في قطوع آخر الصفحة السابقة بيتان أو ثلاثة أبيات بما اختاره ابن حيان من قصيدة طاهر بن حزم .

(٤) ص : تسمت ، ولا يستقيم بها الوزن ولا المعنى ، وهي بغير شك تحريف عما أثبتنا .

(٥) المسر بالبدل ، بلا إعجام . (٦) وهن .

(٧) ص : وعون ، وهي تحتمل أن يكون القسم هكذا « وعون الأمور وأبكارها والعون جمع عوان ، والأبكار

جمع بكر ، ويكون المقصود المتباد المألوف من الأمور والحادث الطارئ الذي لا سابقة له .

أَتَتْهُ مَنِيَّتُهُ بَغْتَةً وَقَدْ كَانَ فِي الْأَرْضِ جَبَّارَهَا
فَوُسِّدَ بَعْدَ وَثِيرِ الْحَشَايَا خِلَالَ الْمَقَابِرِ أَحْجَارَهَا
وَحَلَّاهُ أَنْصَارُهُ مُفْرَدًا وَقَدْ كَانَ بِالْأُمَيْسِ أَنْصَارَهَا
فَلَيْلَهُ مَا اسْتَوْدَعَتْ فِي النَخِيلِ أَكْفُ الرِّجَالِ وَمَنْ زَارَهَا
وَمِمَّا يُسْتَلْحَقُ

فِي بَابِ الْوَفَاةِ فَوْقَ هَذَا

فِي ذِكْرِ عَيْسَى بْنِ دِينَسَارٍ (٣٦٠) :

قال محمد بن حارث :

رحل عيسى فأدرك أصحاب مالك متوافرين ، فسمع ن ابن القاسم كبيرهم ، واقتصر عليه ، فاعتلَّتْ فِي الْفِقْهِ طَبَقَتُهُ ، وكان من أَهْلِ الزُّهْدِ الْيَابِسِ ، وَالذِّينِ الْكَامِلِ ، مع قُوَّتِهِ فِي التَّفْقِهِ لِمَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ ، فلقد كان ابن وَضَّاحٍ يَقُولُ : هُوَ الَّذِي عَلَّمَ أَهْلَ الْأَنْدَلُسِ الْفِقْهَ . توفي سنة اثنى عشرة ومائتين (1) .

[وفي ذكر حارث بن أبي سعد (2)] :

وتوفي الفقيه أبو عَمَرَ حارث بن أبي سَعْدٍ (3) سابقِ مَوْلَى (4) الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ (٣٦١) ، رَحَلَ فسمع من ابنِ كِنَانَةَ ، وولَّاهُ الْأَمِيرُ الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ الشُّرْطَةَ الصُّغْرَى ، فكان أولَ مَنْ رَلَّيَهَا ، وَأَقْرَأَهُ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهَا . توفي سنة إحدى وعشرين ومائتين .

(1) ص : إحدى وعشرين ومائتين ، وهو بغير شك سهو من الناسخ ، ولعله خلط بين هذه السنة وسنة وفاة حارث ابن أبي سعيد المذكور في الفقرة التالية ، فمن المعروف أن عيسى بن دينار توفي سنة ٢١٢ ، وقد ذكره ابن حيان من قبل في حديثه عن وفيات تلك السنة ، وما كان ابن حيان ليفوته مثل ذلك .

(2) أضفنا هذا العنوان لأن السياق يقتضيه .

(3) ص : أبو عمرو حارث بن أبي سعيد ، وقد أصلحناه بما هو معروف من إسم هذا الفقيه وكنيته .

(4) ص : مولاى .

وفى ذكر الشيخ يحيى بن يحيى^(١) (٣٦٢) :

أنه [رَحَلَّ رَحْلًا] شَيْنٍ [من الأندلس : سَمِعَ في الأولى من مالك بن أنس والليث
ابن سعد] ومن ابن وهب وغيرهم ، واقتصر [في الثانية على عبد الرحمن بن القاسم] ،
وبه تفقه ، [وإليه انتهت الرئاسة في العلم بالأندلس على عهد الأمير عبد الرحمن]
[٢١٥] / ابن الحكم ، وتوفي في أيامه من غير تحديد لتاريخه .

(١) استعنا في استكمال هذا للنص الذي عدت عليه قطوع آخر الورقة بترجمة يحيى بن يحيى التي في الديباج المذهب لابن
فرحون ص ٣٥٠ ، فخلا عما بقى من حروفه .

التعليقات

(١) هو موسى بن موسى بن فرتون بن قسي أشهر أفراد هذه الأسرة المعروفة باسم بن قسي التي ملكت الثغر الأعلى (سرقسطة وما حوله) منذ القرن الثاني الهجري حتى أوائل القرن الرابع . وقد كان جده الأعلى « قسي » قومي (كونت) الثغر الأعلى في أواخر أيام القوطيين ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام ، وأسلم على يد الوليد بن عبد الملك وانتمى إلى ولاته . وتعاقد بنو قسي على رئاسة الثغر الأعلى ، فكان مطرف بن موسى بن فرتون بن قسي (أخو موسى المذكور) هو آخر الولاة المسلمين على بنبلونة ، إذ ثار به أهلها وقتلوه في سنة ١٨٣ هـ . ٧٩٨ م . أما موسى فقد ظل على الطاعة للأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم متولياً له تطيلة ، وأرنيط ، وبينما كان ابنه لب بن موسى عاملاً كذلك على برجة ، وذلك حتى سنة ٢٢٦/٨٤١ حينما ولي الأمير عبد الرحمن عبد الله بن كليب بن ثعلبة على سرقسطة وأخاه عامر بن كليب على تطيلة ، فتعرض هذان بالإيذاء لموسى ، وأغاروا على أمواله وضياعه ، كما شلوا بالأذى أموال ونقه بن ونقه ، أمير بنبلونة النصراني ، وهو أخو موسى بن موسى لأمه ، فكان ذلك سبب انقباض موسى عن الطاعة . وفي سنة ٢٢٧/٨٤٢ خرج المطرف ابن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بالصائفة إلى بنبلونة ، فتخلف موسى عن الخروج معه ، وتذب لذلك ابنه فرتون بدلا منه ، فكان تقاعد موسى مما أغضب المطرف ، فلما قفلت الصائفة ولي حارث بن بزيغ سرقسطة ، فكشف وجهه بالمداء لموسى وتولى محاربته ، ولكن هذا تمكن من أسره في موضع على نهر لبره يعرف باسم بلمة Palma . وفي سنة ٢٢٨/٨٤٣ غزا عبد الرحمن ابن الحكم الثغر الأعلى بنفسه ، وتوجه لمهاجمة موسى بن موسى وحلفائه النصاري من أهل بنبلونة وجليقية وألبية وشرطانية ، فسارع موسى إلى الإعلان بالطاعة ، وانمقد له الأمان على أن يسجل له على ولاية أرنيط ، وأطلق موسى في نظير ذلك حارث بن بزيغ من أسره . وفي سنة ٢٢٩/٨٤٤ عاد موسى إلى خلق الطاعة ، فأخرج إليه الأمير عبد الرحمن وحاربه وحاصره ، وحينئذ طلب الأمان من جديد ، فأنمقد له في السنة التالية ، غير أنه عاد إلى الخلاف مرة أخرى في سنة ٢٣٢/٨٤٧ ، فأخرج إليه الأمير صائفة أرغته على الإذعان . وولاه الأمير مدينة تطيلة سنة ٢٣٥/٨٤٩ ، غير أنه عاد إلى العصيان في آخر هذه السنة ، وعاث في أحوال تطيلة وطرسونة وبرجة ، فأخرج إليه عبد الرحمن القائد عباس بن الوليد الطليل ، فعاد موسى إلى الطاعة ، وسلم ابنه اصباحيل رهينة ، وقبل منه الأمير عبد الرحمن ، وعقد الأمان له ولأخيه لأمه غرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وفي سنة ٢٣٧/٨٥١ - ٨٥٢ اشترك موسى في وقعة البيضاء المجاورة لمدينة بقرية من بلد بنبلونة حيث دار قتال عنيف بين المسلمين واليهود ، وكان له في هذه المعركة بلاء حسن جعل الأمير عبد الرحمن يوليه في السنة التالية على سرقسطة مضافة إلى أعماله ، واستقامت طاعته حينما ولي الإمارة محمد بن عبد الرحمن على أثر وفاة والده عبد الرحمن الأوسط ، ففي سنة ٢٤٩/٨٥٦ كتب الأمير إليه بمحشد أهل الثغور والدخول بهم إلى ألبية والقلاع ، فاضطلع بهذه الغزوة وفتح كثيرا من حصون العدو . وفي السنة التالية (٢٥٢/٨٥٧) عهد إليه الأمير محمد يقرزو برشلونة ، فافتتح في غزواته هذه حصن طراجة من آخر أحوال برشلونة . ومن أخماس غنيته هناك زيدت الزوائد في المسجد الجامع بسرقسطة . وفي سنة ٢٤٦/٨٦٠ غزا الأمير محمد بالصائفة إلى غرسية بن ونقه صاحب بنبلونة وأوقع به ، ويبدو أن موسى بن موسى قد ضجر لذلك وأبدى امتناعه ، فكتب إلى الأمير يذكر ما ناله ونال أهل بلده من النصب لمروغ الغزوات التوجهة إلى جليقية على بلده ، ويسأل أن يكون دخول

المسكر على غير ناحيته ، فأسمقه الأمير بذلك ، ولو أنه تأذى به ورأى فيه بوادر عصيان جديد يوشك موسى بن موسى أن يملته ، ويظهر أن الأمير محمداً أراد أن يمزله عن الثغر ، وحينئذ جاهر موسى بالخلاف ، بل إنه حاول أن يمد نفوذه على ثغر طليطلة ونواحيه ، فسمى في عقد مصاهرة بينه وبين صاحب وادي الحجارة إزراق بن منقيل بن سالم ، إذ زوجه بابنته ، وكان إزراق من أهل بيت عرفوا بالولاء والإخلاص لإمراء بني أمية ، فأزعج ذلك الأمير ، وحاول أن يفسد هذا الصبر ، فلم يمهله ، غير أنه حدث بعد ذلك بين موسى بن موسى وزوج ابنته إزراق ما أدى إلى اشتعال الحرب بينهما ، فأغار موسى على وادي الحجارة ، ولكن إزراق خرج إليه فأصابه بجراح أدت إلى وفاة موسى في طليطلة بعد ذلك بقليل في سنة ٨٦٢/٢٤٨ .

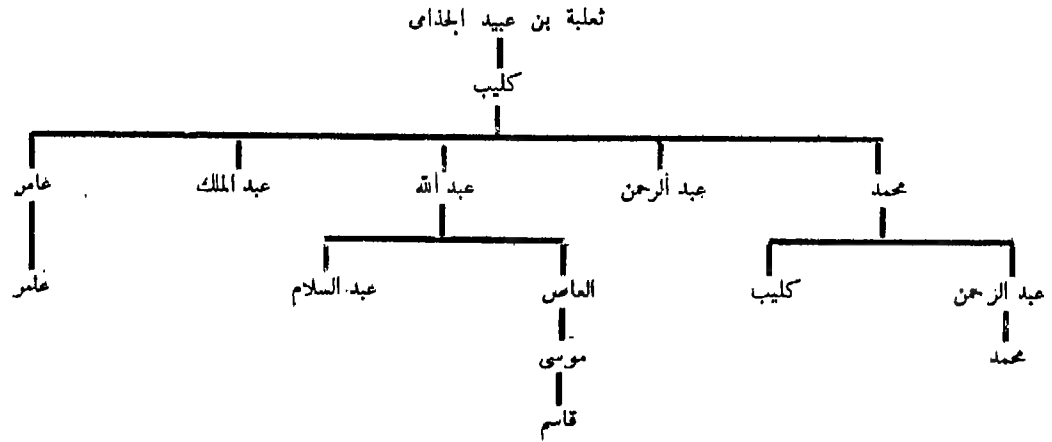
وسخلفه على ملك الثغر ابنه قرقسون .

عن موسى بن موسى انظر ما سيورده ابن حيان في هذا الجزء ، وفيه أخبار كثيرة لم تكن معروفة من قبل ، وابن عذاري : البيان المغرب (بتحقيق كولان وليلى بروفنسال) ٨٧/٢ ، ٩٥ - ٩٧ ؛ جغرافية العذري ص ٢٩ - ٣٠ ؛ ابن حزم : جهرة الأنساب ، الطبعة الثانية ص ٥٠٢ - ٥٠٣ (حيث يورد جدول نسب كامل لبني قسي) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٣ ، ٩٨ - ١٠٠ ؛ ابن خلدون : العيون (ط . بيروت) ٢٨٠/٤ - ٢٨١ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٧/٥ - ٢٦٩ ، ٢٧٩ ؛ التويري : نهاية الأرب (نشر جاسبار رميرو) ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٣٦/١ ، ٤٩ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٣٢٣/١ ؛ ليلى بروفنسال : تاريخ أسبانيا الإسلامية ٢١٤/١ - ٢١٨ ، ٣١٦ - ٣١٧ ، وانظر في هذا المرجع الأخير جدول نسب القسويين في الورقة المقابلة لصيغة ٣٨٨ ، وقد اعتمد فيها على ما أورده ابن حزم بصفة خاصة .

(٢) عبد الله بن كليب بن ثعلبة بن عبيد الجذاعي . وهو من أسرة ذات رئاسة ونباهة منذ فجر الإسلام في الأندلس كما أشار إلى ذلك ابن حزم في البشمرة (ص ٣٩٥) . وجده ثعلبة بن عبيد كان من وجوه أهل فلسطين (أي ساكني ثلثونة وإنجليزية الخضراء) وإن لم يكن من كبار قوادهم ، وكان له دور بارز في تأييد عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وارتفعت مكانته لديه ، إذ عهد إليه بعدة مهام عسكرية كبرى مثل محاصرة سرقسطة عند ثورة سليمان بن يقطين الأحمري والنجسين ابن يحيى الأنصاري به سنة ١٦٤-٧٨١ ، وتوفى على ما يظهر في أيام هشام بن عبد الرحمن (انظر أخبار مجموعة ص ٩١ ، ١١٢ - ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٦ ، ٣٠ ، ٤١ ؛ العذري : جغرافية ص ٢٥ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ ، ص ٢٤١) . واشتهر بعد ذلك من أفراد هذا البيت عبد الله بن كليب بن ثعلبة المذكور وإخوته عامر ومحمد وعبد الملك وعبد الرحمن . وتولى الأولان القيادة لعبد الرحمن الأوسط ، فاستصل عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وعامر على طليطلة في سنة ٨٤١/٢٢٦ ؛ وكافئت عداوتهما لبني موسى بن موسى القسوي سببا في انقباض هذا عن الطاعة ومزل الأمير إياه ، وفي سنة ٨٤٢/٢٢٧ عزل عبد الله بن كليب عن سرقسطة ، ويبدو أنه انتقل إلى طليطلة بعد ذلك (العذري : جغرافية ص ٢٩ - ٣٠) ، وفي سنة ٢٣٠ - ٨٤٥ كان عبد الله من بين القواد الذين عهد إليهم بقتال الموحدين (النورمانيين) حينما حلوا بإشبيلية (ابن عذاري : بيان ٨٧/٢ ، العذري : جغرافية ص ١٠٠) . وذكر ابن الأثير أن عامر بن كليب ول على طليطلة ثم صرف عنها بأمر عبد الله (الحلة السراء ، نشر دوزي ص ٨٨) . وقصر الدكتور حسين مؤنس ، ١٦١/١ ، وربما كانت طليطلة هنا تحريفاً عن « طليطلة » أما الأخ الثالث محمد بن كليب فإن ابن حيان نفسه سيذكره في عداد وزراء عبد الرحمن بن الحكم قائلا إنه كان على الشرطة قبل تولية الوزارة ، بل إنه وفي هذه

الخطة من قبل على عهد الأمير الحكيم . وقد ذكره ابن حيان في آخر هذا الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فقال إنه توفي بمرقسطة سنة ٢٢٠ أو ٢٢٦ (انظر النص ص ٨٠) . ولم يشر إلى الأخ الرابع عبد الملك بن كليب إلا ابن عبد المنعم الحيمري الذي ذكر في « الروض المعمار » (ص ١٧٧) أنه هو الذي اضطلع ببناء قصر ماردة . وكان من أفراد هذا البيت المشهورين عامر بن عامر بن كليب بن ثعلبة الشاعر صاحب الوزير هاشم بن عبد العزيز والمتوفى سنة ٢٧٥ ، وسيتحدث عنه ابن حيان بمزيد من التفصيل في هذا الجزء نفسه (وانظر عنه كذلك ابن الأبار : الحلة السرياء ١٦١/١ - ١٦٢ ؛ ابن سعيد : المغرب ٩٣/١ - ٩٥) . كذلك ترجم ابن القرضى من بين أفراد هذا البيت لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن كليب بن ثعلبة المتوفى سنة ٣٠٩ ، وكان مشاوراً في الفقه وعقد الوثائق (تاريخ علماء الأندلس ، ترجمة رقم ١١٧٧ ؛ وانظر كذلك الحميدى : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٩٥ ؛ وابن حيان : المقتبس ، القطعة الخاصة بتاريخ الأمير عبد الله ابن محمد ، نشر الأب ملتشور أنطونيا ، ص ٨) . ومنهم عبد السلام بن عبد الله بن كليب بن ثعلبة الذي ولي القيادة للأمير عبد الله بن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، ص ٢٨٧) ، وكليب بن محمد بن كليب بن ثعلبة القائد كذلك (نفس المرجع والصفحة) ، وقاسم بن موسى بن العاص بن عبد الله بن كليب الذي ولي قضاء إشبيلية وليلة وقرمونة في أيام عبد الرحمن الناصر (انظر ابن الأبار : التكملة ، القطعة التي نشرها أنخل جونثالث بالنتيا وماكسيميليانو ألاكرون ، ترجمة رقم ٢٥٢٩) .

وفيما يلي جدول بأنسب من عثرنا عليهم من أفراد هذا البيت :



(٣) تطيلة Tudela بلد تتبع الآن محافظة نبرة Navarra ، وهي تقع على بعد ٧٨ كم . إلى الشمال الغربي من سرقسطة Zaragoza وكانت من أمهات مدن « الثغر الأعلى » على عهد المسلمين في الأندلس (انظر عنها مقال الذي كتبه لين بروفتسال في دائرة المعارف الإسلامية ، ٨٦٢/٤ ، وابن عبد المنعم الحيمري : الروض المعمار ص ٦٤ من النص العربي و ٨٠ من الترجمة الفرنسية) .

(٤) لسنا نعرف الكثير عن القائد محمد بن يحيى بن خالد هذا ، وجل ما وصلنا عنه هو ما جاء في كتاب المقتبس نفسه لابن حيان ، فقد ذكر أنه كان من قواد الحملة التي رأسها عبيد الله بن عبد الله البلنسي صاحب الصوائف إلى بنبلونة سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، وأنه كان قائد الحملة الموجهة لعقاب موسى بن موسى القسوى في سنة ٨٤٤/٢٢٩ ، وإن كان ابن حيان يسميه « محمد بن يحيى الوزير » فقط (انظر « نصوص جديدة من كتاب المقتبس » بقلم ليلى بروفنسال و غرسية غومس ، مجلة « الأندلس » ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٦ ، ٣٠٢) . وسيدكر ابن حيان بعد قليل في أخبار سنة ٢٣٤ أن صائفة هذه السنة كانت بقيادة عبد الواحد الإسكندراني مضيفا إلى ذلك : « ودبر الوزير يحيى بن خالد » ، ولا ندرى ما إذا كان يحيى بن خالد المذكور هنا هو والد محمد بن يحيى القائد المشار إليه أو شخصا آخر . وقد ورد اسم « يحيى بن خالد » أيضا في « البيان المغرب » لابن عذارى (٩٠/٢) ، وجاء في هذا النص أنه كان واليا على الثغر الأعلى في سنة ٢٣٧ حينما قام بتأحيته رجل ادعى النبوة ، وعلى كل حال فقد يكون يحيى بن خالد وابنه محمد - إذا صح أنه ابنه - من نسل عبيد الله ابن خالد الذي كان أحد القائمين بدعوة عبد الرحمن الداخل عند جوازه من المشرق إلى الأندلس .

(٥) عن بنبلونة Pamplona عاصمة ولاية نبرة Navarra (التي كانت من ممالك إسبانيا النصرانية على عهد المسلمين) انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ٥٥ - ٥٦ من النص العربي و ٧٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك مقال ليلى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية (تحت مادة Pampelune) ١٠٩١/٣ ، والمراجع الواردة في هذين المصدرين .

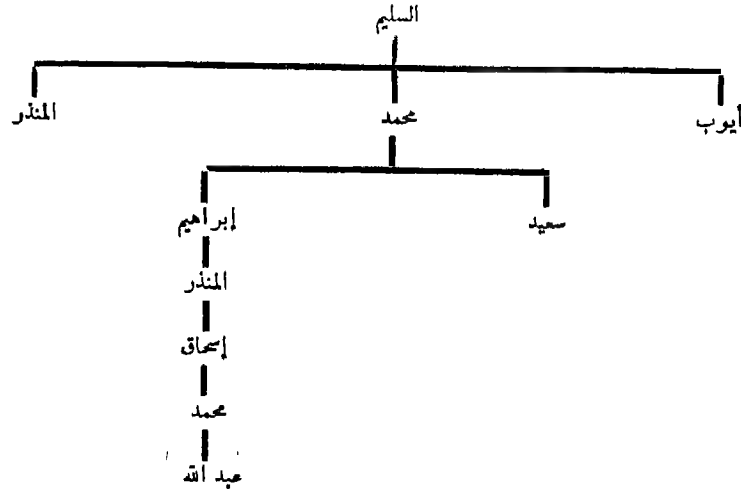
(٦) كان حارث بن بزيع المذكور من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم . وقد تحدث صاحب « أخبار مجموعة » بالتفصيل عن أولية أبيه بزيع وصلته بعبد الرحمن بن معاوية الداخل (انظر ص ١٠٩) ، فقال إنه لما قام حيوة ابن الملامس بالثورة في إشبيلية على الأمير عبد الرحمن ، وثار معه عبد الغافر اليحصي ودارت الهزيمة على هذين في سنة ١٥٤ قام عبد الرحمن بشراء عدد من العبيد من حسن بلاطهم في المعركة ، وكان من بينهم بزيع والد حارث بن بزيع هذا ، ويبدو أنه عهد إليه ببعض مناصب القيادة بعد ذلك . أما حارث فقد ظهر أمره في أيام عبد الرحمن الأوسط بن الحكم ، فقد عهد إليه الأمير بقيادة الجيش الذي توجه من قرطبة إلى الثغر الأعلى حينما أعلن موسى بن موسى بالمعصيان في سنة ٨٤٢/٢٢٧ ، فالتقى به في برجه ، وظهر حارث على موسى ، ثم فتح برجة وأسر فيها لب بن موسى ، وحاصر تطيلة بعد ذلك حتى أخرج عنها موسى بن موسى ، ثم انصرف حارث إلى سرقسطة مقر ولايته . وكان يخرج بعد ذلك إلى أرنيط المرة بعد المرة لكي يرهق موسى بن موسى ، غير أن هذا تمكن أخيرا من نصب كمين له في موضع « بلمة » على نهر إبرة ، فأوقع به هناك وأسرته ، وأقام حارث أسيرا لديه مدة تسعة أشهر . ففزا الأمير عبد الرحمن إلى بنبلونة في نفس السنة لكي يقتص من فعل موسى بقائده حارث ، وفي السنة التالية (٨٤٣/٢٢٨) وجه إلى موسى غزوة أخرى ، فصالحه هذا وأطلق سراح حارث بن بزيع . ولا نعرف بعد ذلك عن هذا القائد إلا ما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة وعزله عنها في نفس هذه السنة (٨٤٧/٢٣٢) ثم ما يذكره ابن عذارى من أنه كان في سنة ٨٥٦/٢٤١ عاملا للأمير محمد على قلعة رباح وطلبيرة . هذا ويذكر ليلى بروفنسال في تاريخه أنه كان من قبل في سنة ٨٣٠/٢١٥ واليا على ماردة وأنه كان يتولى « دار الطراز » بقرطبة . (عن حارث ابن بزيع انظر مقال ليلى بروفنسال و غرسية غومس : نصوص جديدة من كتاب المقتبس ، ص ٢٩٨ ، المذرى : جغرافية

ص ٣٠ ؛ ابن عذارى : البيان ٩٥/٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٦٨/٥ - ٢٦٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب ص ٢٠٠-٢٠١
لىنى بروفنسال : تاريخ ٢٠٨/١ ، ٢١٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٢) .

(٧) محمد بن السليم بن أبي عكرمة جعفر بن يزيد بن عبد الله مولى سليمان بن عبد الملك ، وكان أول من عرف من هذا البيت هو جده أبا عكرمة جعفر بن يزيد الذى عقد بقتاته لواء عبد الرحمن بن معاوية الداخل قبل موقعة المصارة التى دارت بينه وبين يوسف بن عبد الرحمن الفهرى (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٢٦) ، وأما محمد بن السليم هذا هو وأخوه أيوب ابن السليم فقد كانا من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط . وسيدكر ابن حيان محمد بن السليم فى عداد وزراء هذا الأمير قائلا إنه كانت له مع الوزارة خطط يرتزق عليها فى كل شهر ثلاثمائة دينار . وولى محمد بن السليم المدينة فى أيام عبد الرحمن الأوسط على ما يفهم من نص للخشنى (كتاب القضاة ص ٩٠) . وقد استقر بنو السليم على ما يظهر فى كورة شذونة ، وإلى محمد المذكور هنا تنسب «مدينة ابن السليم» التى يذكر ابن عبد المنعم الحميرى أنها هى نفسها «مدينة شذونة medina sidonia

(الروض المعمار ص ١٦٢ - ١٦٣ ، والترجمة الفرنسية ص ١٩٥ . وقد ظن لىنى بروفنسال فى مقال عن هذه المدينة فى دائرة المعارف الإسلامية ٥٠٠/٣ أن «مدينة ابن السليم» هى التى تسمى الآن Grazalema فى ولاية قادس Gadiz ، على أنه عدل عن هذا رأى بعد اطلاعه على نص الروض المشار إليه قبل ذلك) . كذلك ذكر الإدريسى هذه المدينة فى «نزهة المشتاق» (النص العربى ص ١٧٧ والترجمة الفرنسية ص ٢١٥) . واشتهر من بنى السليم بعد ذلك نفر من الرجال ، بينهم سعيد بن محمد بن السليم الذى ولى الحجابة للأمير عبد الله بن محمد بعد أن كان واليا على السوق ثم وزيراً وتوفى سنة ٣٠٢ (ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٤ ، ٥ ، ٥٣ ؛ ابن عذارى : البيان ١٥١/٢ ، ١٦٧ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦) ؛ وسعيد بن المنذر بن السليم الذى كان من قواد عبد الرحمن الناصر (ابن القوطية : تاريخ ص ١١٥) ومنذر بن إبراهيم بن محمد بن السليم الثائر فى المدينة المنسوبة إليهم من كورة شذونة فى أيام الأمير عبد الله ابن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٢٣ - ٢٤ ؛ ابن عذارى : البيان ١٣٥/٢ ؛ لىنى بروفنسال : تاريخ ٣٤٢/١) ؛ وأخيراً حفيد هذا المذكور : محمد بن إسحاق بن منذر بن إبراهيم الذى ولى قضاء الجماعة فى قرطبة وتوفى سنة ٣٦٧ (أنظر فى ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٣١٧ ؛ الحميدى : جدوة المقتبس ، رقم ٢١ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ص ٢٠٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٤/٤١١ - ٤٤٩ ؛ النباهى : المرقية العليا ص ٧٥ - ٧٧ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢) ؛ ثم ابنه عبد الله بن محمد بن إسحاق الذى توفى سنة ٤٠٢ (ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٥) . وفيما يلى جدول بنسب من عثرنا عليهم من بنى السليم :

جعفر بن - بن عبد الله



(٨) ابن حيان هو المؤرخ العربى الوحيد الذى فصل لنا هذه الأحداث التى نجد لها صدق فى المدونات المسيحية القديمة وإن لم تكن على ما نرى لدى ابن حيان من الضبط والدقة . أما غليالم بن برنات بن غليالم المذكور هنا فلا بد أن يكون القومس (الكونت) Guillaume (أو Guillen) بن Bernard بن Guillaume نبيل فرنسى ، كان جده . وسميه غليالم هو الذى يحمل لقب « دوق تولوز Duc de toulouse » ، ويعرفه الأدب الملحمى الفرنسى فى المصور الوسطى باسم « غليالم دى الأنف القصير Guillaume au-Court Nez » وكان قائداً لحامية أربونة Narbonne حينما اشتبك فى معركة عنيفة مع القائد الأندلسى عبد الملك بن مغيث فى صيف سنة ١٧٧/٧٩٣ فى أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة ساحقة للجيش الفرنسى الذى كان يقوده غليالم المذكور (انظر لى بروفنسال : تاريخ ١٤٥/١ - ١٤٦ . والمراجع المذكورة) . أما ابنه برنات بن غليالم فنحن نعرف من أخباره أنه خلف أباه على إمارة هذا الجزء من جنوب فرنسا وأن الملك الفرنسى لدويق بن قارله (المعروف بلويس الورع) عهد إليه بالدفاع عن برشلونة Barcelona حينما حاصرتها جيوش قرطبة بقيادة عبيد الله بن عبد الله البلبسى سنة ١٩٧/٨١٣ (لى بروفنسال : نفس المراجع ٢١١/١) . وأما غليالم بن برنات المذكور فى نص ابن حيان وحفيد غليالم الأكبر فقد أعلن العصيان على ملك الإفرنج (فرنسا) ، وتحالف مع أمير قرطبة عبد الرحمن الأوسط كما يذكر ابن حيان هنا ، وكما أشار إلى ذلك بشكل عارض مبهم المؤرخ القرطبى المسيحى « سان إيولوجيو San Eulogio » فى كتابه اللاتينى « تاريخ القديسين Memoriale sanctorum » ، إذ ذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم وعد غليالم هذا بأن يمينه ويمده لو أنه ثار على ملك فرنسا (انظر لى بروفنسال : تاريخ ٢١٢/١ ، حاشية رقم ١) . وقد كان الخبر الذى أورده إيولوجيو القرطبى موضعاً لتشكك الباحثين الأوربيين المحدثين ، ولكن نص ابن حيان الذى بين أيدينا يؤكد بصفة قاطعة فضلاً عن أنه يزيدنا بياناً وتفصيلاً حول علاقات عبد الرحمن بن الحكم بالقومس الإفرنجى ، بل ويضيف إليه ما يذكر من سفارته إلى قرطبة ومحالفته للأمير الأندلسى ، هذا ولو أن ابن حيان قد أخطأ فى اسم الملك الإفرنجى الذى ثار عليه غليالم كما سنرى بعد

ومن الغريب بهذه المنحبة أن ليئ بروفسال الذي اهتم ببيان علاقات قرطبة بمملكة الإفرنج (فرنسا) لم يشر إلى هذه الأحداث وإن كان قد تبه إلى ما ذكره المؤرخ المسيحي ليولوخيو بهذا الصدد ، مع أنه اطلع على هذه القطعة من كتاب « المفتبس » .
وسوف يورد ابن حيان مزيداً من أخبار غليالم المذكور هذا في سرده لأحداث سنة ٨٤٨/٢٣٤ - ٨٤٩ .

(٩) ذكرنا في الحاشية السابقة أن ابن حيان أخطأ في اسم ملك الفرنجة هذا ، فالواقع أن لدويق بن قارله بن بين (وهو المعروف باسم لدويق أو لويس الورع Ludovico-pio = Louisle Pieux بن شارلمان charlemagne) كان قد توفى قبل هذه الأحداث بسنوات ، فقد ولي ملك بلاده ما بين سنتي ٨١٤ و ٨٤٠ م . (١٩٨ - ٢٢٥ هـ) ، وأعقبته وفاته ثلاث سنوات نشبت فيها الحرب الأهلية في أراضي الامبراطورية الكارولنجية بين أبناء لويس الورع ، وأخيراً تولى العرش قارله (شارل المعروف بلقب الأصلع Lechaue Charles) رابع أبناء لويس الورع ، فحكم هذه البلاد ما بين سنتي ٨٤٣ و ٨٧٧ م . (٢٢٨ - ٢٦٤ هـ) . فحق الاسم إذن أن يكون « قارله بن لدويق ابن بين » . وربما لم يكن الأمر خطأ من ابن حيان الذي كان واسع الاطلاع على أحوال الممالك الأوروبية المسيحية ، وإنما تقديم وتأخير من النساخ ذوى المعرفة المحدودة بأسماء من يكتبون ، ولا سيما إذا كانت أسماء أجنبية غريبة .

(١٠) عن أيوب بن السليم راجع ما كتبناه من قبل عن بنى السليم (حاشية رقم ٧) ، وسنرى بعد ذلك أن ولايته طليطلة لم تطل ، إذ عزل عنها في السنة التالية (٢٣٤) .

(١١) أشار ابن الأثير إلى هذه الغزوة التي سير عبد الرحمن على رأسها ولده المنذر ، وزادنا بياناً عنها ، إذ ذكر أنها توجهت إلى ألبه Alava (الكامل ٢٨٥/٥) .

(١٢) سيتحدث ابن حيان عن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني هذا بمزيد من التفصيل ، فن ذلك حديثه عن أوليته وصلته بالأمير عبد الرحمن ، إذ يقول إنه قدم إلى الأندلس حدثاً متظرفاً ، وكان يشدو شيئاً من الغناء ، فاتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلما رأى هذا منه نجابة وكفاية نصحه بأن يمسك عن الغناء ويكتفى بأدبه وفضله ، ففعل ، وأرسله الحاجب إلى الأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه ، ثم ولاء المدينة ، ورقاه بعد ذلك إلى الوزارة والقيادة (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٧٤ - ٧٥ ؛ وأخبار مجموعة ص ٨٥) . وفي سنة ٢٢١ أرسله عبد الرحمن إلى طليطلة حينئذ خالفت عليه ، ففتحها في تلك السنة ، وفي سنة ٨٤١/٢٢٦ وجه عبد الرحمن صائفة إلى جليقية وجعل على رأسها ابنه المطرف وأسند القيادة إلى عبد الواحد الإسكندراني (انظر ابن عذارى : بيان ٨٤/٢ ، ٨٦) . ويذكر العذري أنه أبلى بعد ذلك في قتال المهوس (الثورمنديين) عند نزولهم على سواحل إشبيلية في سنة ٨٤٤/٢٣٠ - ٨٤٥ (انظر جغرافية العذري ص ٩٩ ؛ ليئ بروفسال ٢٠٦/١ ، ٢١٢ ، ٢٢٣) . ونحن نعلم مما سيذكره ابن حيان أن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني توفى سنة ٢٣٧ هـ عن ثمانين سنة . وقد كان من ذسله حفيد له تولى الوزارة والكتابة كلن اسمه عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد ، وتوفى أيام عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٩ (ابن عذارى : بيان ١٨٢/٢) .

(١٣) عن جزيرة ميورقة Mallorca ومنسوبة Menorca انظر المسادين الواردتين في « الروض المعمار » (ص ١٨٥ ، ١٨٨ من النص و ٢٢٤ ، ٢٢٨ من الترجمة الفرنسية ، والمقال الذي كتبه عنهما المستشرق زايبولد Seybold في دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٣٠ - ٦٣١ تحت مادة « جزر البليار Balears ») والدراسة القيمة التي كتبها المستشرق الإسباني ألبرو كامبانير إلى فورتس بعنوان (مخطط تاريخي لجزر البليار في ظل الحكم الإسلامي » ، ط . بالمسادي ميورقة سنة ١٨٨٨ .

(١٤) أشار ابن عذارى إلى هذه الأحداث في جزيرة ميورقة ومنورقة (بيان ٨٩/٢) ، ولو أنه أوجز كلام ابن حيان بإيجازاً شديداً .

(١٥) عن برشلونة Barcelona في العصر الإسلامي وعلاقتها بالدولة الأندلسية انظر المقال الذي كتبه زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ١/٦٧٢ والمادة التي أفرد لها ابن عبد المنعم الحميري في الروض المعمار (ص ٤٢ من النص العربي و ٥٣ من الترجمة الفرنسية) .

(١٦) جرندة Gerona هي عاصمة إحدى مقاطعات ولاية قطلونية Catalunya في الطرف النحالي الشرق من إسبانيا على مقربة من الحدود الفرنسية ، وهي تقع على بعد ١٠٠ كم إلى الشمال الشرق من برشلونة (انظر النص الذي نقله ليلى بروفنسال عن البكري في ملاحق كتاب الروض المعمار لابن عبد المنعم الحميري ، ص ٢٤٦ ، ٢٤٨ من الترجمة الفرنسية) .

(١٧) هو عبيد الله بن يحيى بن خالد ، ويبدو أنه كان أخاً لمحمد بن يحيى بن خالد الذي ذكره ابن حيان من قبل ، وسيعود ابن حيان إلى ذكره في أخبار سنن ٢٣٦ و ٢٣٧ ، كما سيذكره من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم . وقد كان على ما يذكر ابن حيان واليا على طرطوشة من أعمال الثغر الأعلى ، ويبدو أنه ظل واليا على الثغر كذلك في أيام الأمير محمد على ما يفهم من نص لابن عذارى في البيان في ذكر الأحداث سنة ٢٤٧ (٩٧/٢) .

(١٨) تقع طرطوشة tortosa قرب مصب نهر إبره في البحر الأبيض المتوسط على مسافة تبلغ مائتي كيلومتر إلى الجنوب الشرق من سرقسطة . انظر ما كتبه عن هذه المدينة ليلى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ٤/٨٥٦ - ٨٥٧ ، وانظر الروض المعمار ص ١٢٤ من النص العربي و ١٥١ من الترجمة الفرنسية .

(١٩) بيت بني بسيل من أكبر بيوتات الموالى الأمويين من أهل الشام ، وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام ابن بسيل الرومي المعروف بالشيخ ، كان بسيل أبوه مولى الشام بن عبد الملك على ما يذكر ابن الأبار أو لعبد الله بن معاوية على ما يذكر المقرئ (وواضح من الاسم : « بسيل ») (Basilus) والنسبة : « الرومي » أنه كان من أصل بزنطي نصراني) . وكان دخول عبد السلام بن بسيل إلى الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل مع ابنه عبد الواحد

ويحيى ، فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وماردة وغيرها ، وولاه الوزارة ، وتصرف ابنه يحيى في العائلات أيضا ، إذ ولي على حيان في أيام عبد الرحمن بن الحكم . أما محمد بن عبد السلام فقد تصرف أيام الحكم ابن هشام في العائلات أيضا ثم ولي الوزارة والمدينة والكتابة والخيل وغيرها من الخطط ، وسذكره ابن حيان في حديثه عن وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم (انظر ابن الأبار : الحلة السراء ١/٣٧١ - ٣٧٢ المقرئ : نفع ٤/٤٥) . وأما يوسف بن بسيل المذكور في هذا النص فنحن نعرف عنه - فضلا عما يذكره ابن حيان هنا من ولايته على طليطلة سنة ٢٣٤ - أنه كان من كبار رجالات الدولة في أول أيام الأمير محمد ، وسيفصل ابن حيان دوره في تأييد محمد في محاولته الاستيلاء على الأمر بعد موت والده عبد الرحمن - على خلاف في ذلك بين المؤرخين - ويفهم من نص للخشي : كتاب القضاة ص ١٣٤) أنه ولي في أيام الأمير محمد على شذونة . (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٨٠) . وقد اشتهر عدد كبير من أفراد هذا البيت عن تولوا مناصب كبرى في الدولة على ما سئرى من أخبار ابن حيان في هذا الكتاب نفسه .

(٢٠) سترجم ابن حيان لهذين القاضيين في حديثه الآتي عن قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٢١) لم يرد اسم « طوطالقة » المذكورة هنا في أى مرجع أندلسي ، والغريب أن الجغرافي الوحيد الذى أفرد لها مادة خاصة هو المشرقى ياقوت الحموى الرومى في « معجم البلدان » (٤/٥٠ ، ط . بيروت سنة ١٩٥٧) ، وقد ضبطها بضم الطاء الأولى وكسر اللام ، وقال إنها بلدة بالأندلس من إقليم باجة فيها معدن فضة خالصة ، ثم إنه من ينسب إليها عبد الله (كذا وصواب الاسم : عبيد الله) بن فرج الطوطالقي النحوى ، روى عن أبي على القالى وأبي عبد الله الرياحى (كذا والصواب الرياحى ، بالباء) وابن القوطية وتحقق بالأدب واللغة وألف كتابا متقنا في اختصار المدونة ، وتوفى سنة ٣٨٦ . على أن ياقوت من الجميع الشقات في كل ما يكتبه عن الأندلس ، وهو ينقل دائما عن مصادر وثيقة طيبة . أما الترجمة فقد نقلها عن الصلة لابن بشكوال (رقم ٦٥٩) . وأما اسم الموضع وتحقيق مكانه فلا بد أنه نقله - كالمعهد به - من جغرافية أحمد بن محمد الرازى التى لم يصل إلينا نصها كاملا . ومن المعروف أن هذه الجغرافية قد تراجعت من العربية إلى البرتغالية على يد القس البرتغالى جيل بيريس Gil Peres بتكليف من ديونيس Dionis ملك البرتغال بمعاونة أحد المسلمين وهو « محمد المريرف » . وعن هذه الترجمة نقلت إلى اللغة الإسبانية وضمت إلى « تاريخ إسبانيا العام المؤلف سنة ١٣٤٤ م . » (انظر عن جغرافية الرازى وترجماتها المفقودة والباقية كتاب الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد سنة ١٩٦٧ ص ٦١ والهامية رقم ١) . ونحن نجد الإشارة إلى طوطالقة في نص الترجمة الإسبانية التى نشرها بسكوال دى جايانجوس تحت عنوان Memoria sobre la tenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis . (ط . مدريد سنة ١٨٥٢) ص ٥٤ ، ولو أن الاسم حرف إلى Tocalia (وفى مخطوط آخر Totarrique وهو أقرب إلى الاسم العربى .) أما الترجمة البرتغالية التى عثر على نصها أخيراً ونشرت في لشبونة سنة ١٩٥٤ فقد ورد فيها الاسم صحيحا : « totalica » ، وذكر أنها من أعمال كورة باجة Bega (فى البرتغال الحالية وأصبحت تدعى بمد ذلك toucanique) . انظر بحث لى بروفنسال : « صفة الأندلس » لأحد الرازى محاولة لإعادة بناء أصلها العربى ، مجلة الأندلس ، المجلد الثامن عشر ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٨٨ .

E. Lévi — Provençal : La «Description de l'Espagne» d'Ahmad Al-Razi.
Essai de reconstitution de l'original arabe et traduction Française, Al-Andalus, Vol. XVIII, 1963, p. 88.

(٢٢) كذا في الأصل ، ولم ننته إلى تحقيق يطمأن إليه لاسم هذا الموضع .

(٢٣) لم نثر على « أروش » هذه في المراجع الجغرافية الأندلسية ، غير أنها وردت عرضاً في بعض كتب التراجم ، فقد أشار إليها ابن بشكوال في كتاب « الصلة » (ص ٥٧٥ ، ترجمة ١٢٧٩) فقال إنها : « من بلاد الغرب » ، واضطرب في تحديد موضعها ابن الأبار ، فقال مرة إنها « من عمل قرطبة » (التكملة ، ط . كوديرا ، ص ٣٩ ، ترجمة ١٢٢) ، وقال في موضع آخر من نفس الكتاب « إنها من الثغر الغرب ، ويقال هي من عمل قرطبة » . هذا ونظن أن أروش هذه هي التي ذكرها ابن غالب في القطعة التي نشرت من كتابه « فرقة الأنفس في تاريخ الأندلس » (بتحقيق الدكتور لطفى عبد البديع) ص ٢١ ، قائلا إنها من مدائن كورة باجة (ولو أنها جاءت في الأصل المنشور « أروش » وتبدو لنا محرفة عما ذكرنا) . ثم عثرنا بعد ذلك على نص آخر لابن حيان من كتاب « المقتبس » نفسه يقول فيه في معرض ذكر أخبار سنة ٣٦٣ إن فيها « ولي صاحب الشرطة خال الأمير هشام رائق بن الحكم قيادة بطليوس مجموعة له إلى رمكب (كذا) وأروش ومدلين وأم جعفر إلى ما في يده من فحم البلوط » (انظر القطعة التي قام بنشرها من المقتبس الأستاذ عبد الرحمن الحلبي ، بيروت سنة ١٩٦٥ ص ١٤٩) ، وقد ورد في الترجمة الإسبانية الجغرافية أحد الرازي (وهي التي أشرنا إليها في الحاشية السابقة ، ط . مدريد ١٨٥٢ ، ص ٥٤) ذكر لقلمة من أعمال باجة دعيت Aroques مجاورة لطوطالفة التي علقنا عليها في نفس الحاشية السابقة ، ولا بد أن تكون هي « أروش » الواردة في نص ابن حيان ، وأن تكون هي البلد الذي يعرف اليوم باسم Aroche (وهي مدينة رومانية قديمة كان يطلق عليها باللاتينية اسم Arucel Vetus وتقع اليوم في مقاطعة ولبه Huelva المتاخمة لحدود البرتغال الجنوبية ، وهي تبعد بنحو تسعين كيلو متر إلى شرق باجة وبنحو خمسة وعشرين كيلو متراً إلى الشرق من حدود البرتغال الحالية . (انظر عن هذه البلدة معجم مادوث الجغرافي ٥٩٠/٢ - ٥٩١) .

(٢٤) باجة Baga بلد يقع اليوم في جنوب البرتغال إلى الجنوب الشرق من الأشبونة Lisboa وعلى بعد ١٨٠ كم من هذه العاصمة ، وعلى مسافة ٦٦ كم من الحدود الفاصلة اليوم بين إسبانيا والبرتغال (انظر عنها المادة الواردة في الروض المطار ص ٣٦ من النص العربي و ٤٥ من الترجمة الفرنسية) .

(٢٥) لم نجد اسم بكر بن سلمة هذا فيما بين أيدينا من المراجع التي تحدثت عن الثوار المستنزلين من ناحية الغرب في أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، ولعله أحد صفار المنزّلين في هذه الجهة ، على أننا نعرف من الثوار في غرب الأندلس على أيام الأمير عبد الله بن محمد من يسميه المؤرخون بكر بن يحيى بن بكر الذي ائتمت مدينة شنتمرية من كورة أكشونية (انظر ابن حيان : المقتبس ، ط . أنطونيا ص ١٥ - ١٦ ؛ ابن عذاري : بيان ١٣٧/٢) ، ويذكر ابن عذاري بعد ذلك في لشبارة سنة ٣١٧ أن عبد الرحمن الناصر بعد غزوته لباجة انتقل منها قاصداً إلى مدينة أكشونية فدخلها بعد أن أصاب أموالا خلف بن بكر (بيان ٢٠٠/٢ - ٢٠١) ، وقد أشار أيضاً إلى غزوة عبد الرحمن الناصر إلى أكشونية واستزاله لصاحبها خلف بن بكر هذا صاحب التاريخ المجهول المؤلف في أخبار عبد الرحمن الناصر ، والذي قام بنشر نصه العربي الأستاذان

ليفي بروفنسال وغرسيه غومس مع ترجمة إسبانية في مدريد — غرناطة سنة ١٩٥٠ ص ٨١ من النص العربي و ١٥٥ من الترجمة
El. Lévi — provençal, El. Garcia Gomez : una Cronica anonima de Abd
Al-Rahman III al-Nasir, Madrid — Granada, 1950.

فلعل بكر بن سلمة هذا من نفس تلك الأسرة التي ينتسب إليها خلف بن بكر المذكور في هذين المصدرين .

(٢٦) طرسونة tarazona بلد من أعمال سرقسطة يبعد بنحو ٢٢ كم إلى الجنوب الغربي من تطيلة . انظر المادة
الواردة عنها في كتاب « الروض الممطر » ص ١٢٣ من النص العربي و ١٥٠ من الترجمة الفرنسية .

(٢٧) برج (بضم الباء) بلدة من أعمال طرسونة المتقدمة الذكر انظر ما ورد عنها في جغرافية العذري ص ٣٣ ، ٤٤ ،
١٥٥ والمادة الواردة في معجم مادوث الجغرافي ٤/٤٠٦ . هذا ويتنبى التمييز بين برجة هذه و « برجة » أخرى
(يكسر الباء) Berja من عمل مدينة المرية .

(٢٨) كان تاريخ أسرة بني ونقة أول الأسر الحاكمة في مملكة نبرة Navarra — وهي التي يطلق المؤرخون المسلمون
عليها اسم مملكة بنبلونة Pamplona (نسبة إلى قاعدتها) أو بلاد البشكنس Vascones أو البشاكسة نسبة إلى ساكنيها —
تاريخيا يحيط به الغموض ، إذ أن المراجع المسيحية في العصور الوسطى لم تترك لنا عن أصول هذه الأسرة وملوكها إلا أخباراً
قليلة متضاربة لا يوثق في مصحتها ، ولعل أول ضوء يلق على تاريخ هذه الأسرة وعمل مطلع هذه الدولة المسيحية إنما هو بفضل
تلك الأخبار التي يسوقها لنا ابن حيان في « مقتبسه » .

ويذكر المؤرخون المسيحيون أن مؤسس هذه الدولة في بنبلونة بعد خروجها من أيدي المسلمين في سنة ٧٩٨/١٨٣ هو
ونقة المعروف في المدونات النصرانية باسم Inigo Jimenez وإن كانت سنوات حكمه لم تعرف على وجه التحديد .

ولأخذ من أخبار ابن حيان أن ونقة هذا خلف ثلاثة أبناء كانوا يتلقبون بألقاب الإمارة في بنبلونة ، هم : ونقة بن
ونقة Inigo Ini guez ، وغرسيه Garcia ، وفرتون Fortun . ولكن الملك كان على ما يبدو في يد أولهم ونقة
المذكور هنا . وقد كان ثلاثهم إخوة لأمير الثغر الأعلى موسى بن موسى بن فرتون بن قسي الذي سبق أن ترجنا له (حاشية
رقم ١) ، إذ أن أباهم ونقة كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرتون بعد وفاته ، وهذا هو ما جعل موسى بن موسى
يحالف إخوته لأنه هو لاه عند ثورته على عبد الرحمن بن الحكم في سنة ٢٢٦-٨٤٦ ، فقد كانت غارات عبد الله بن كليب
حامل سرقسطة وأخيه عامر عامل تطيلة على أموال موسى وتعرضهما بالأذى لوفقه بن ونقة أخى موسى لأنه هو السبب في
انقباض موسى عن الطاعة . فلما وجه عبد الرحمن بن الحكم قائده حارث بن بزيع لمحاربة موسى خرج هذا إليه فقاتله واستعان
بإخوته لأنه أمراء بنبلونة ولاسيما غرسيه بن ونقة ، فهزموا حارث بن بزيع في موقعة بلمه وأسرته في سنة ٢٢٧/٨٤٧ .
فلما علم عبد الرحمن الأمير بذلك عظم عليه ، فخرج إلى موسى بنفسه في السنة التالية ، والتقى الأمير بموسى وبني ونقة ومن
التف بهم من البشكنس والجليقيين والشرطانيين وأوقع بهم جميعا هزيمة ساحقة قتل فيها فرتون بن ونقة الذي يسميه ابن حيان
« يطل بنبلونة بلا مدافع » ، وبعث الأمير برأسه لترفع بقرطبة . أما غرسيه بن ونقة وابنه غلند فقد تمكنا من الفرار بعد

أن أصيبا بمجراحات شديدة . وكان من نتائج هذه الحملة أن موسى بن موسى طلب الأمان فأنقذ له ولأخيه ونقه بن ونقه ، على أن يقر هذا الأخير على بلدة (بنبلونة) ويؤدى إلى عبد الرحمن بن الحكم سبعمائة دينار كل عام يوردها على عمال الثغر . وظل ونقه بن ونقه بعد ذلك أميراً على بنبلونة حتى توفى سنة ٢٣٧-٨٥٢ بعد أن أصابه فالج عطله . فول مكانه ابنه غرسية الذى صاهره موسى بن موسى إذ زوجه من ابنته أوربة (Aurea orla) . وفى سنة ٨٥٩/٢٤٥ كان خروج الجيوش (النورمانيين) على سواحل الأندلس وغارتهم بعد ذلك على بنبلونة حيث أسروا غرسية بن ونقه هذا ، فأجلك نفسه منهم بعد أن أدى إليهم سبعين ألف دينار ودفع إليهم بعض أبنائه رهائن . ولم يكذب يخرج من أسر الجيوش حتى قام بمخالفة أردون ملك أستوريش Asturias وجليقية Galicia ، ناقضا بذلك عهده مع عبد الرحمن بن الحكم ، فوجه إليه الأمير محمد - وكان قد خلف أباه على الملك فى سنة ٨٥٢/٢٣٨ - صائفة اقتحمت بلاد بنبلونة وعائت فى بساطها ، وأسرت فى حصن قشتيل ولداً لغرسية يدعى فرتون الأنقر ، فحملته عساكر المسلمين إلى قرطبة حيث ظل فى الحبس عشرين سنة ثم رد إلى بنبلونة حيث حكم بعد أبيه غرسية فى تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد . وإن كان لابد أن يكون بعد سنة ٨٧٠/٢٥٦ التى نعرف من أخبار ابن حيان أن غرسية كان لا يزال حيا فيها . ونحن نعرف كذلك مما يذكر ابن حيان أن غرسية بن ونقه هذا قد زوج ابنة له من مطرف بن موسى بن موسى الذى كان واليا على وشقة حتى ثار عليه أهلها بتدبير من عمرو بن عمرو ابن عمرو فى سنة ٨٧٣-٢٥٩ . وقبض عمرو بن عمرو على زوجته هذه بنت ملك بنبلونة فيمن قبض عليه من أهل مطرف وبنيه .

وعن بنى ونقه هؤلاء انظر ما سيرد فى ثنايا هذا الكتاب ؛ وكذلك ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٥٠٢ - ٥٠٣ (فى معرض الكلام عن نسب بنى قصى) ؛ العذرى : جغرافية ص ٢٩ - ٣٠ ، ٦٢ ، ٩٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٧/٢ ؛ ابن الأثير ٢٦٨/٥ - ٢٦٩ ، ٢٩٩ - ٣٠١ ، هذا فضلا عن مقال لى بروفنسال وغرسية غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان ، فى مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ ؛ وانظر عن نسب بنى ونقه لى بروفنسال : تاريخ ، الجزء الأول ، الجدول المقابل لصفحة ٣٨٨ (وإن كان ينبغي إعادة النظر فى بعض تفاصيل شجرة النسب المذكورة إذ أن بروفنسال لم يستفد من كثير الأخبار والمعلومات الجديدة التى يقدمها لنا هذا الجزء من المقتبس) ، وكتاب أجواد وبليه عن « تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى ١/٩٧ - ٥٠٠ ؛ ومقال الراهب غومستر بيرث دى أوربل عن « القديم والجديد حول أصول ملكة بنبلونة » ، مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ١ - ٤٢ :

Fr. Justo Pérez de urbel : Lo viejo y 10 nuevo sobre el origen del reino de Pamplona, Al-Andalus, Vol. XIX, 1954, pp. 1 - 42.

(٢٩) أورد ابن حيان اسم هذا القائد أكثر من مرة فى ثنايا هذا الكتاب ، ولو أن الناسخ كتب نسبه « الطليل » مرة و « الطليل » مرات ، ولم نستطع أن نتحقق من صحة هذه النسبة وأى قراءتها أصوب ، إذ أن الاسم لم يرد فى أى مرجع آخر باستثناء ما جاء فى الكامل لابن الأثير فى معرض الحديث عن أخبار سنة ٢٣٥ من أن « عباس بن الوليد الطليل » خرج إلى نواحي تدمير لمحاربة نفر من المنتزعين كانوا قد اجتمعوا على أنفسهم رجالا اسمه محمد بن عيسى بن سابق ، فوطى* عباس بلدهم وأوقع بهم ثم أصلحهم وعاد (الكامل ٢٨٥/٥) ، وقد عاد ابن حيان إلى ذكر عباس بن الوليد المذكور فى حديثه عن قواد الأمير عبد الرحمن ، إذ قال إنه كان كثير التردد بالصوائف ، كما أنه ذكر فى أخبار سنة ٢٣٧ أن فيها كان ابتداء تعذيب عباس « الطليل » وأخيه وغيرهما فى استخراج الأموال التى غلواها ، وكان جميعهم من صنائع نصر الخصى.

(٢٠) إسماعيل بن موسى القسوى المذكور في هذا الموضع كان قد ولي على سرقسطة في حياة أبيه موسى بن موسى ، فلما توفي هذا سنة ٢٤٨ (٨٦٢) ظل على هذه المدينة ، ثم ثار في أيام الأمير محمد مع إخوته بتظيلة سنة ٢٥٨ (٨٧٢) وتقدم إلى سرقسطة فدخلها هو وأخوه لب ، وقبضا على عامل السلطان بها وأبنائه ، ثم خرج إسماعيل إلى حصن منت شون Monzon وأعلن العصيان ، فنزته الصوائف ، ثم انقبض إلى لاردة ، فقبض عليه عبد الله بن خلط بن راشد عامل بريطانيا Boltana بحصن منت شون ودفعه إلى الأمير محمد في غزاته سنة ٢٥٩ ، فلما قفلت الصائفة أطلقه الأمير محمد . فانصرف إلى حصن منت شون ، وأعمل الخيلة على ابن راشد حتى صاهره وزوجه من ابنته ، ولكنه لم يلبث أن غدر به وقتله هو وجميع أبنائه وتغلب على بريطانيا ، وترددت في أثر ذلك الصوائف عليه بين سنتي ٢٦٥ ، ٢٦٨ (٨٧٩ - ٨٨٢) فطلب إسماعيل الصلح ، غير أنه عاد إلى النكث ، فحاصره المنذر بن الأمير محمد وهاشم بن عبد العزيز حصار شديدا . وخرج إسماعيل ابن موسى بعد ذلك مع بني عمه لقتال ابن أخيه محمد بن لب بن موسى ، فلما توسلوا قلهرة Calahorra اجتمعوا به ، فهزمهم وأسر إسماعيل بن موسى وبني عمه وحبسهم حتى أسلم إليه إسماعيل سرقسطة وتظيلة وبلتيرة Valtierra وكان ذلك في سنة ٢٧٥ (٨٨٣ - ٨٨٤) ، ثم إن محمد بن لب أطلقهم وأخرج إسماعيل بن موسى إلى حصن منت شون ، فبقى به حتى توفي سنة ٢٧٦ (٨٨٩) . انظر عن إسماعيل بن موسى ما سيرد عنه في ثانيا هذا الكتاب وكذلك المقتبس (ط - ملتشور أنطونيا) ص ٨٧ ، وابن عذارى : البيان ١٠١/٢ ، العذرى : جغرافية ص ٣١ - ٣٤ ، ٦١ ، ٦٣ ، ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٤٦٧ - ٤٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ٢٦٩/٥ .

(٣١) لعله خالد بن يحيى بن خالد أخو القائدين عبيد الله بن يحيى عامل طرطوشة والوزير محمد بن يحيى اللذين سبقت الإشارة إليهما (انظر الحاشية رقم ٤) .

(٣٢) قد يكون محمد بن الوليد هذا أخا للقائد عباس بن الوليد الطلي الذي أشرنا إليه من قبل (راجع الحاشية رقم ٢٩) ، فنحن نعرف ما سيذكره ابن حيان في أخبار سنة ٢٣٧ أنه كان لعباس المذكور أخ تعرض للذاب والمصادرة باعتبارهما كافا من صنائع نصر الحصى .

(٣٣) يبدو أن مطرف بن نصير هذا هو الذي أصبح بعد ذلك من أهل ثقة الأمير محمد بن عبد الرحمن ، فسرى أن ابن حيان سيروى عنه بعد ذلك أخباراً تدل على مدى اهتمام الأمير محمد بشغوره ، وثرى الأمير فيها يمهده إليه ببعض المهمات ذات الشأن ، وربما كان هو نفسه العامل على الجزيرة الخضراء في سنة ٢٤٧ (٨٦١) عند مهاجمة الجيوش الأرمنانيين (النورماند) لها ، كما نرى فيما كتبه المنزى عن تلك الغارة في جغرافيته (ص ١١٩) .

(٣٤) لم يرد اسم مبيونة هذه في جدول النسب الذي أفردته ابن حزم لبني قصى في الجمهرة .

(٣٥) هو نهر Guadiana الذي تقع عليه بطليوس Badajoz وماردة Mérida ، ويفصل في جزئه الأدنى عند انتهائه إلى مصبه بين إسبانيا والبرتغال .

(٣٦) نهر شنيل Genil الذى تقع عليه مدينة غرناطة هو أحد فروع « الوادى الكبير » نهر قرطبة ، وهو نهر صدير ، « بالغ الأندلسيون وأهل غرناطة خاصة فى تصوير قيمته ، حتى إنهم جعلوا اسمه مرادفا لقولهم « ألف ليل » ، وذلك لأن حرف الشين كما يقول لسان الدين بن الخطيب يساوى عند أهل المغرب عدد « ألف » ، فعنى « شنيل » إذن : « ألف ليل » ، وبذلك ذكره بعض شعراء غرناطة (انظر المقرئ : نفع ١/١٤٢ ؛ وانظر سول اشتقاق هذا اللفظ وتفسيره ما كتبه رينهارت دوزى فى مجموعة « أبحاثه »

R. Dozy : Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Ages, Leyden, 1849.

(٣٧) إستجة Ecja ، تقع على وادى شنيل إلى الجنوب الغربى من قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وتبعد عن قرطبة بنحو خمسين كيلو متر ، وهى الآن من أعمال إشبيلية ، وأما قنطرتها المذكورة فى النص فقد كانت من أشهر معالمها ، وقد هدمها القائد بدر الحاجب فى سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد أن فتح المدينة فى محتل إمارة عبد الرحمن الناصر ، وكان أهل إستجة قد جالفوا وعلموا الطاعة . (انظر عن إستجة وقنطرتها المسادة الواردة فى الروض المطاوع لابن عبد الممن الحيمرى ص ١٤ من النص العربى و ٢٥ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المسادة التى كتبها زايبولد فى « دائرة المعارف الإسلامية » ١/٢ ، والمراجع المذكورة فى هذين الموضعين) .

(٣٨) أشار إلى خبر هذا السيل أيضا ابن عذارى : بيان ٢/٨٩ ؛ وابن الأثير : الكامل ٥/٢٨٥ .

(٣٩) ذكرنا فى حاشية هذا الموضع أن الاسم ورد هكذا فى الأصل ، ونلاحظ أن النسخ كثيرأ ما يخطئون ويحرفون فى كتابة الأسماء النصرانية التى لم يتمودوا كتابتها ، ولانستبعد أن يكون لفظ « أردميس » الذى جاء فى الأصل محرفا عن كلمتين هما « برمند القس » ، ولو كان الأمر على ما نظن لا تفتق تماما مع ما نعرفه من تاريخ الأسرة الحاكمة فى جليقية Galloia وأشتوريش Asturias ، فالملذكور هنا - فيما أحسب - هو « رذمير » (Radimiro=Ramiro) بن برمند (Vermundis=Vermude) المشهور بلقب « القس El Diacano » ، وهو الذى خلف على عرش أشتوريش الملك أذفنش (ألفونسو الثانى Alfonso II الملقب بالمفيع El Gasto) وقد حكم بين سنتى ١٧٥ و ٨٢٢٧ . (٧٩١ - ٨٤٢ م) . أما رذمير المذكور هنا فقد ولى العرش سنة ٢٢٧ (٨٤٢) وظل يحكم مدة ثمان سنوات حتى ٢٣٥ (٨٥٠) ، ثم خلفه ابنه أردون Ordono I الذى حكم بين سنتى ٢٣٥ (٨٥٠) و ٢٥٢ (٨٦٦) . ونلاحظ بصفة خاصة أن ابن حيان فى الغاية من الدقة والضبط عند حديثه عن ملوك إسبانيا المسيحية وأمرائها وأحداث دولها وتواريخها . (انظر عن حكم رذمير بن برمند كتاب أجوادو بلبه : تاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى ١/٤٨١) .

(٤٠) ذكرنا فى التعليق على هذه الكلمة أنه من الأرجح أن تكون محرفة عن « الخرس » ، ويعنى المؤرخ بها هؤلاء الممالك الذين كان ألحكم بن هشام والد عبد الرحمن قد استكثر منهم حتى بلغ عددهم خمسة آلاف ، وكانوا يسمون الخرس لمجتمهم (انظر ابن سعيد : المغرب ١/٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ٥/٢٠٣ ؛ المقرئ : نفع ١/٣٢٠ ؛ ابن خلدون :

العبر ٢٧٧/٤) . وربما دلنا على صحة هذا التوجيه الذي ارتأيناه في قراءة الكلمة أن عدداً من هؤلاء « الخرس » كانوا قد أُخرجوا إلى الثغر الأعلى مع حارث بن يزيد حينما أسره موسى بن موسى بعد موقعة بلمة سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، فلما توجه إليه الأمير عبد الرحمن في السنة التالية أطلق ابن يزيد « ومن كان أسره مع الخرس » (انظر العذري : جغرافية ص ٣٠) هذا وسيرد اللفظ بالخاء المعجمة بعد قليل .

(٤١) سيذكر ابن حيان « أبا العاصي الحكم الاشثياق » (كذا ١) من بين من سيورد أسماءهم من أبناء الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، ولم يورده ابن حزم بين من ذكر من ولد هذا الأمير إذ أن عقبة كان قد انقرض في عهده ، ونحن نعرف أن عبد الرحمن كان يكل إلى ابنه الحكم هذا بعض المهام العسكرية ومناصب الحكم في حياته ، من ذلك إخراج إياه في سنة ٢٢٤ (٨٣٩) إلى دار الحرب وأمره له بالتجول في الثغور وتفقدتها (انظر ابن عذاري : بيان ٨٥/٢) ، وولايته كورق لبيرة وتدير كما نرى من نص ابن حيان هنا ، وقد عهد إليه أخوه الأمير محمد تمثل ذلك ، فابن حيان نفسه سيذكر في أخبار سنة ٢٣٩ (٨٥٣) أن محمداً أخرج أخاه الحكم إلى طليطلة بالصائفة فاحتل قلعة رباح وأمر ببنيان سورها واسترجاع من غر من أهلها (انظر ، كذلك البيان ٩٤/٢ ، وكذلك ليلى بروفنسال ٢٩٢/١)

(٤٢) كانت لبيرة *Elvira* (*Ilberria* الرومانية) من كبريات حواضر الأندلس ، وبها نزل جند دمشق من العرب ، ثم خربت في الفتنة التي شبت في أيام الأمير عبد الله بن محمد وانتقلت عاصمة إقليمها إلى غرناطة *Granada* (انظر عن البيرة المسادة التي كتبها زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢٦/٢ - ٢٧ ؛ والروض المطار ص ٢٩ من النص العربي و ٣٧ من الترجمة الفرنسية ؛ وابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، ٩٩/١ وما بعدها) .

(٤٣) تنسب كورة تدير إلى الملك الذي كان يحكمها في أيام الفتح العربي للأندلس *Teodomiro* ، وقد نزلها جند مصر ، وانتقلت عاصمتها بعد ذلك إلى مدينة مرسية في أيام عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢١٠ (٨٢٥) . (انظر المسادة التي كتبها ليلى بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٨/٤ ؛ الروض المطار ص ٦٤ من النص و ٧٨ من الترجمة وكتاب جاسبار وميرو : مرسية الإسلامية ، سرسطة سنة ١٩٠٥ :

Mariano Gaspar Remiro : *Historia de Murcia Musulmana*, Zaragoza 1905.

(٤٤) نظن أن سداً المذكور هنا هو أخو خزر بن مؤمن الذي ذكره ابن حيان في معرض الحديث عن غزوة حبيد الله ابن عبد الله البلنسي إلى الثغر الأعلى في سنة ٢٢٧ (٨٤٢) ، إذ يفهم من نص المقتبس أن خزر بن مؤمن هذا كان من جملة قواد عسكر السلطان في تلك الغزوة ، وكان من بينهم أيضاً محمد بن يحيى بن خالد وموسى بن موسى القسوي ، فلما انتهت الغزوة نشب الخلاف بين خزر وموسى وتفاقم حتى أدى الأمر بعد ذلك إلى خروج موسى على الطاعة ومباينته بالحلما (انظر مقال ليلى بروفنسال وغرسيه غومس : « نصوص مخطوطة من المقتبس لابن حيان » ، ص ٢٩٨) . واسم خزر بن مؤمن هذا هو الذي ورد في الكامل لابن الأثير (٢٦٧/٥) ونهاية الأرب للتويري (ص ٢٠٠) محرفاً إلى « جرير بن موفق » . وقد وصفه كلاهما بأنه كان « من أكابر الدولة » .

(٤٥) كورة ريه هي المنطقة التي أصبحت مدينة مالقة (Malaga) عاصمتها في جنوب شرق شبه الجزيرة ، وهي كلمة مأخوذة من اللاتينية ، والأصل في ضبطها تشديد الياء وضمها ، إذ هي تقابل Regio ومعناها « الملكية » ، وقد أورد هذا التفسير ابن سعيد في المغرب (بتحقيق الدكتور شوق ضيف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ١/٤٢٣) إذ قال إن معنى ريه عند النصارى « سلطنة » . وقد نزل هذه الكورة جند الأردن بعد الفتح العربى . انظر مادة (ريه) في الروض المعطار ص ٧٩ من النص و ٩٩ من الترجمة ، وكذلك المادة التي كتبها ليني بروفنسال في دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٦/٣ ، وبجث دوزى لأصل هذا اللفظ واشتقاقه في مجموعة « أبحاث » ، الطبعة الثالثة ٣١٧/١ - ٣٢٠ ؛ وأخيراً البحث الذى صدر به جيين روبلس كتابه « تاريخ مالقه الإسلامية » (الطبعة الثانية مدريد سنة ١٩٥٧) :

Guillén Robles : Historia de Malaga Musulmana, Madrid, 1957.

(٤٦) انظر تعليقنا على اسم سعد أحمى خزر المذكور هنا في الحاشية السابقة ، رقم ٤٤ .
(٤٧) الجزيرة الخضراء أو جزيرة أم حكيم هي التي تعرف الآن باسم Algeciras ، وتقع في أقصى الطرف الجنوب لإسبانيا مطلة على مضيق جبل طارق ومواجهة لمدينة سبتة على الساحل الافريقى . انظر عنها المسادة الواردة في الروض المعطار ص ٧٣ من النص و ٩١ من الترجمة ومقال زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢٧٩/١ .

(٤٨) عن ثورة حبيب البرنسى هذا انظر ابن عذارى : بيان ٨٩/٢ - ٩٠ ؛ ابن الأثير : الكامل ٢٨٨/٥ . (وهو يسميه حبيبة البربرى) . أما البرنسى فهو نسبة إلى « البرانس » وهم بطن كبير من البربر يقابلون « البتر » . انظر مادة « بربر » Berbéres التي كتبها رينيه باسيه René Basset في دائرة المعارف الإسلامية ٧٢٣-٧١٦/١ .

(٤٩) هو أبو الفتح نصر بن أبي الشمول ، كان أبوه من نصارى قرمونة ، ثم اعتنق الإسلام في أيام الحكم بن هشام الرضى على ما يبدو ، وكان الحكم قد خصى عدداً من ذوى الجمال من أهل قرطبة ، فكان نصر المذكور من بينهم ، وعلت منزلته من عبد الرحمن بن الحكم حتى أصبح يتصرف باسمه في أمور الدولة ، وارتفع نجمه بعد ذلك حينما عهد إليه الأمير بقيادة الجيوش التي زادت المحوس الأردمانيين (النورماند) عن الأندلس عندما نزلوا بسواحل البلاد سنة ٢٣٠ (٨٥٠) ، وكان نصر يمالى طروبا غظية الأمير عبد الرحمن على تولية ابنها عبد الله العهد بدلا من أخيه محمد كبير أبناء الأمير ، ومن أجل ذلك حاول أن يسم مولاة في الخبر الطويل الذى سيقصه ابن حيان بعد في تفصيل ودقة ، ولكنه لقي مصرعه في هذه المحاولة سنة ٢٣٦ (٨٥١-٨٥٠) .

من نصر هذا أنظر ابن حزم : جمهرة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٩/١ ، ٥١ ، ١١٤ ، ١٢٤ ، ٣٣١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧٦ - ٧٧ ؛ ابن خلدون : العبر ٢٨٢/٤ - ٢٨٣ ؛ المقرئ : نفع ٣٢٧/١ ؛ الخشنى : كتاب القضاء بقرطبة ص ١١١ ، وانظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ٢٢٣/١ - ٢٢٥ ، ٢٧٥ - ٢٧٧ .

(٥٠) هو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية ، وهو لإشيل الأهل ، كان جده الأعلى مولى لعمر بن عبد العزيز بن مروان ، وأما لقبه الذى عرف به « ابن القوطية » فيرجع إلى كونه من ذرية سارة القوطية حفيدة غيطشة witiza ملك القوط قبل للزيق الذى فى عهد فتح العرب الأندلس ، وكان عالما بالتحول واللغة متقدما فيما وله فى ذلك كتب حفظ لنا بعضها ، وقدم إلى الشورى وتصرف فى الخلط بالليلة ، وتوفى سنة ٣٦٧ (٩٧٧) . ومن كتبه « تاريخ افتتاح الأندلس » الذى حققه باسكوال دى جايا نجوس ونشره خوليان ريبيرا مع ترجمة اسبانية فى مدريد سنة ١٩٢٦ ، وفيه يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى حتى نهاية عهد الأمير عبد الله بن محمد .

انظر فى ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣١٦ ؛ الحميدى : جذوة المقتبس ، رقم ١١١ ؛ الضبي : بنية الملتبس ، رقم ٢٢٣ ؛ القاضى عياض « أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي : تريب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، بتحقيق الدكتور أحمد بكير محمود ، ط . بيروت ١٩٦٧-١٩٦٨ ، ٢/٥٥٣-٥٥٥ ؛ ابن خاقان بمطبع الأنفس ص ٥٨ ؛ ابن خلكان : وفیات الأعيان ٦٤٩/١ ؛ المقرئ : نفع ٧٣/٤ - ٧٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ؛ وانظر عن كتب ابن القوطية كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة ١٩٦٢ ، ٣/٨٩ - ٩١ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ط . مدريد ١٨٩٨ ، ص ٨٣ - ٨٧ ؛ جونثال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٠٢ - ٢٠٦ . وقد اعتمد عليه ابن حيان فى مواضع عديدة من كتاب المقتبس سواء هذه القطعة التى بين أيدينا أو القطعة الأخرى التى نشرها الراهب ملتشور أنطونيا فى باريس سنة ١٩٣٧ حول إمارة عبد الله بن محمد (انظر ص ٣ ، ٧ ، ٨٦ ، ١٢٩) . وفلاحظ بمقابلة ما ينقله ابن حيان فى هاتين القطعتين عن ابن القوطية على النص المطبوع فى مدريد أن نقول ابن حيان مفصله تفصيلا مسببا يؤكد لنا صحة ما ذهب إليه خوليان ريبيرا من أن كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ليس من إنشاء ابن القوطية ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون سباعا دونه عنه بعض من كان يحضر مجالسه من المؤلفين بالأخبار (انظر تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٠٣) ، فخير مصرع نصر الفنى الذى أورده ابن حيان هنا مثلا لا يرد فى النص المطبوع إلا على صورة مقتضبة موجزة لا تكاد تتجاوز بضعة سطور ، بينما هو لدى ابن حيان على ما يرى من التفصيل (انظر هذا الخبر فى كتاب ابن القوطية ص ٧٦ - ٧٧) .

(٥١) عن طروب جارية الأمير عبد الرحمن بن الحكم وحظيته انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦١ ، ٧٦ ، ٧٩ - ٨٠ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٢/٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٦/١ - ٤٧ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٥ ؛ المقرئ : نفع ٣٢٦/١ - ٣٢٧ ؛ وقد أفرد ابن الأبار لها ترجمة فى كتاب التكملة (بتحقيق جونثال بالثيا وألاركون) رقم ٢٨٥٥ ، وذكر أنه إليها ينسب المسجد الواقع بصدر الربض الغربى بقرطبة ؛ وانظر كذلك لى بروفنسال : تاريخ ٢٧٥/١ - ٢٧٨ .

(٥٢) هو يونس بن أحمد الحرافى الطبيب . انظر فى ترجمته : ابن أبى أصيبعة (ط . القاهرة سنة ١٨٨٢) ٤٢/٢ ؛ وقد نشر الأستاذان نور الدين عبد القادر وهنرى جاهيه من هذا الكتاب الباب الثالث عشر فى طبقات الأطباء بإفريقيه والأندلس ، الجزائر سنة ١٩٥٨ ، انظر ص ٢٣ ؛ جمال الدين على بن يوسف القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . ليزج سنة ١٩٢٣ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ ؛ أبوداود سليمان بن حسان بن جليل الأندلسى : طبقات الأطباء والحكماء ،

بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٤ - ٩٥ ؛ صاعد الطليطل : طبقات الأمم ، ط . بيروت سنة ١٩١٢ ، ص ٧٨ . هذا وقد كان ليونس الحراني المذكور ابنان يسميان أحمد وهر اشتغلا بالطلب أيضا في أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر (انظر ترجمتهما في كتاب ابن أبي أصيبعة ، نشر تور الدين عبد القادر وجاهيه ص ٢٣ - ٢٥) .

(٥٣) كذا جاءت الكلمة في الأصل : « سور الملوك » ، وسيرد بعد ذلك في نص آخر لابن حيان : « سنون الملوك » وقد يكون اللفظان تحريفا لكلمة « بسون » ، ويلحق الأستاذ فؤاد سيد في بعض حواشيه على كتاب ابن جليل (ص ٩٤) على هذا اللفظ فيقول إن « البسون » سم مركب يدعى بأسماء مختلفة ، وهي كلمة لم ترد في المعاجم العربية ، وقد تكون مأخوذة من الإسبانية Poción أى شراب (Poison بالانجليزية والفرنسية) . انظر في تحقيق هذه الكلمة دوزى : ملحق المعاجم العربية ، ط . باريس - ليدن ١٩٢٧ ، ١/٨٧ ؛ وفرانسكو سيموليت : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستعملة بين المغربين ، ط . مدريد ١٨٨٨ ، ص ٤٦٢ .

(٥٤) أشار ابن القوطية إلى هذه الجارية إشارة عابرة (تاريخ ص ٧٧) وأفرد لها ابن الأبار ترجمة في كتاب التكملة (تحقيق بالثيا والأركون) رقم ٢٨٥٦ ، ولو أن كليهما سيها « فخرأ » ، وعلى ذلك قرأها ليلى بروفنسال حينما تهرس لذكرها في تاريخه ١/٢٦٧ . وقد أضاف ابن الأبار أن لها مسجدا رفيعا من أمهات المساجد بقرطبة ، وأنها أم أبي الوليد بشر الأديب الشاعر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم الذي ترجم له ابن الأبار (الحلة السراء ١/١٢٦) .

(٥٥) هو يحيى بن الحكم البكرى الحيفاني المعروف بالغزال ، ولد في نحو سنة ١٥٦ (٧٧٣) وتوفي قريبا من سنة ٢٥٠ (٨٦٤) ، وولاه الأمير عبد الرحمن قبض الأعشار ببلاد مروان على ما يذكر ابن دحية ، ثم اضطلع ببغارتين عهد هما إليه الأمير : الأول إلى بلاد تيوفيل ملك بيزنطة ، والثانية إلى ملك الهوس (النوربند) ، وكانت له كذلك رحلة إلى بلاد المشرق ، وقد احتفظت لنا المراجع الأندلسية بجملة طيبة من شعره ، ويضيف ابن حيان إلى ما تعرف قطعة صالحة .

في ترجمة الغزال وأخباره ومنتخبات شعره انظر الحميدى : جلدوة رقم ٨٨٧ (ص ٣٥١ - ٣٥٣) وكذلك ص ١٨٧ و ٢١٢ ؛ النسي : بنية ، رقم ١٤٦٧ ؛ ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ط . القاهرة سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأستاذ إبراهيم الإبياري ، ص ١٣٣ - ١٥١ ؛ الخشني : كتاب القضاة ، ص ٩٥ ، ٩٩ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/٩٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٢٤ ، ٢/٥٧ ؛ الثعالبي : يتيمة الدهر ٢/٥٦ ؛ ابن خلدون : المعبر ٤/٢٨٢ ؛ المقرئ : نفع ١/٢٦٣ ، ٣٢٤ ، ٢١/٣ - ٢٩ .

ومن الدراسات الحديثة : مجموعة أبحاث دوزى (Recherches) ٢/٢٦٧ (الطبعة الثالثة) ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ٣٨ - ٤٥ ؛ بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس) ص ٥٥ - ٥٦ ؛ نيكول : الشعر الأندلسي (ط . بليتمور سنة ١٩٤٦) ، ص ٢٤ - ٢٧ ؛ ليلى بروفنسال : تاريخ ١/٢٥٢ - ٢٥٤ ، ٢٧٢ - ٢٧٥ ، وكذلك مقاله « سفارات متبادلة بين قرطبة وبيزنطة Un échange d'ambassades entre Cordoue et Byzance » الذي ضمنه كتابه « الإسلام في المغرب والأندلس Islam d'Occident » ص ٧٩ - ١٠٧ ؛ ومقال الدكتور حسين مؤنس : غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و ٢٤٥ (٨٤٤ - ٨٥٩ م)

في « مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية » (مايو ١٩٤٩ ، المجلد الثاني ، العدد الأول) ، وكتاب الباحث الانجليزي
الين من سفارة الغزال إلى بلاط النورمان (الفايكنج) :

W.H.D. Allen : the Poet and the Spae - wife. An attempt to recons-
truct Al-Ghazal's embassy to the Vikings, London, 1960.

(وانظر ما كتبت في عرض هذا الكتاب ونقده في « صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديري » ، المجلدين التاسع والعاشر
لسنتي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢٤ من القسم العربي) ؛ والدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ،
عصر سيادة قرطبة ص ١١١ - ١٢٢ (وانظر بصفة خاصة ص ٢٨٩ - ٢٩٠ حيث يورد قطعاً جديدة للغزال نقلها عن بهجة
المجالس لابن عبد البر) ، كذلك أضاف الدكتور إحسان عباس إلى ما نعرفه من شعر الغزال مادة أخرى طيبة بنشره « كتاب
إتشبيات من أشعار أهل الأندلس » لأبي عبد الله محمد بن الكتاني الطليبي ، بيروت ١٩٦٦ ، وقد وردت فيه قطع أخرى
لغزال لم تكن معروفة من قبل (انظر ص ١٢١ ، ١٦٣ ، ١٨١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦) .

(٥٦) عن « منية نصر » انظر المسادة التي أفرد لها ابن عبد المنعم الحميري في « الروض المطار » ص ١٨٧ من
النص و ٢٢٦ - ٢٢٧ من الترجمة الفرنسية ، وقد ذكر فيها أنها قرية (أو ضاحية) قريبة من قرطبة موقفة على النهر ،
وذكر ليلى بروفنسال في تعليقه على هذا الموضع أنها كانت تقع في غرب قرطبة على ضفة الوادي الكبير قريباً من مقابر الرض ،
وقد اهتم بها بعد ذلك الأمير عبد الله بن محمد وشيد قصورها ومبانيها على ما يذكر ابن حيان نفسه في « المقتبس » (نشر
أنطونيا) ص ٣٨ - ٣٩ ، ويذكر ابن حيان في موضع آخر من نفس الكتاب (القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن
الحبي ص ٢١) أن الخليفة الحكم المستنصر أنزل في قصور هذه المنية أعضاء السفارة التي رأسها « بون قيل » والقادة عليه
من « بريل » أمير برشلونة في سنة ٣٦٠ (٩٧١) . وانظر من لفظ « المنية » واستخدامه في الأندلس ليلى بروفنسال ،
الأندلس في القرن العاشر ، ص ٥٢ والهامشية رقم ١ .

(٥٧) كانت هذه المقابر تحمل اسم (الرض) تذكيراً بثورة الرض المشهورة التي نشبت ضد الحكم بن هشام
في سنة ٢٠٢ (٨١٨) والتي كان من عواقبها أن أمر الحكم بهدم كل مباني هذه المنطقة وتركها خلاء ، وهكذا تحولت
منذ أيامه إلى مقابر ، وكان الحكم قد أوصى خلفاءه بالألا يسمحوا بأن يعاد البناء فيها ، فاحترم من تلاه من أمراء بني أمية
تلك الوصية ، ولم يرتفع فيها بناء حتى نهاية الدولة . وقد أورد ابن حيان في القسم الخاص بالحكم بن هشام « الرض »
من كتاب المقتبس (وهو الذي لا يزال مخطوطاً) في الورقة ٢٤٦ ط (على ما يذكر ليلى بروفنسال) نصاً طريفاً حول
وضعية الحكم المشار إليها ، فقال إنها ظلت محترمة مدة قرنين من الزمان حتى أيام الخليفة هشام بن الحكم المؤيد حينما كان
يضطلم بأمور الدولة الحاجب العامري المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر ، إذ سمح للناس بالبناء هناك ، واتفق أن
مر الخليفة هشام المؤيد بهذه المقابر فرأى الناس شارعين في عمارتها ، فغضب وأرسل إلى الحاجب المظفر رسالة يلومه فيها أشد
الزعم على سباحة الناس بعمارة الرض على ما في ذلك من مخالفة لوصايا أسلافه وانتهاك ما جرى به التقليد ، وطلب إلى الحاجب
أن يأمر بهدم ما بني هناك ، فانصاع عبد الملك لتلك الرغبة ، وأمر بهدم كل ما ارتفع من بناء وتسويته بالأرض كما كان .
بل إن هذا التقليد استمر حتى بعد سقوط الدولة المروانية وظل جارياً محترماً حتى سقوط قرطبة في أيدي المسيحيين ، يشهد
بذلك قول ابن الأبار في الحلة السراء (ط . دوزي ص ٢٨ - ٣٩ ، ٤٤/١ ط . مؤنس) في معرض الحديث عن الحكم

ابن هشام وإخاده ثورة الربض : « وهو الذى أوقع بأهل الربض ، فنسب إليه ، وأمر بهدمه وتعطيله ، وصير ذلك وصيته فيمن خلفه وعهداً على بنيهِ ما كان لهم سلطان في الأندلس ، فلم يعمّر ولا اختطت فيه دار إلى آخر دولتهم ثم بعدها إلى أن ملك الروم قرطبة يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣ (١٢٣٦ م .) ، وأقام على ذلك نحواً من أربعائة سنة وثلاثين سنة ، ولا أعلمه إلا كذلك إلى اليوم » . وقد أكد ابن سميّد كذلك هذا الخبر (المغرب ١/ ٤٢) . وعن مقابر الربض انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٣/ ٣٨٠ - ٣٨١ ؛ والأندلس في القرن العاشر ص ٢٠٩ .

(٥٨) زرياب هو أبو الحسن على بن نافع مول أمير المؤمنين المهدي العباسي وتلميذ المغنين المشهورين إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، قدم إلى الأندلس سنة ٢٠٦ . (٨٢١) فقريه عبد الرحمن بن الحكم إليه وارتفع مكانه عنده ، وأورث صناعة الغناء بالأندلس بنيه وعدداً كبيراً من تلاميذه وقيانه ، كما أدخل إلى هذه البلاد جملة من التقاليد الحضارية الشرقية . وتوفى زرياب سنة ٢٣٨ (٨٥٢) قبل وفاة الأمير عبد الرحمن بأربعين يوماً . انظر في ترجمته وأخباره المقرئ : نفع الطيب ١/ ٣٢٢ ؛ ٢/ ٢١٥ ؛ ٣/ ٢٧ ؛ ٤/ ١١٧-١٢٩ ، ٥/ ١٤٩ (ومعظم أخبار المقرئ مما نقله عن ابن حيان) ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٩ ، ٦٨-٦٩ ؛ الخشني : كتاب القضاة ص ١٢ ؛ ابن خلدون : مقدمة (ط . القاهرة بدون تاريخ) ص ٣٥٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/ ٤٥ ؛ الحيدى جلوة ص ١٣٧ ، ١٦٢ ، ابن دحية : المطرب ص ١٤٧ ، ١٥٢-١٥٣ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . محمد سعيد الريان) ٧/ ٣٦ ، ٨٠ ، ٨٤/ ١٤٥ ؛ ابن حزم : طوق الحمامة ص ١١٦ ؛ ابن سميّد : المغرب ١/ ٤٧ ، ٥١ ؛ ٢/ ٩٦ ؛ الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين (بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٥) ، ص ٢٩٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر غولياني رينيرا : موسيقى مدائح العذراء ، ط . مدريد ١٩٢٢ ، ص ٥٣ - ٥٧ .

(Julian Ribera y tarrago: La musica de las cantigas)

وليني بروفنسال : تاريخ ١/ ٢٦٨ - ٢٧٢ ؛ وأخيراً الدراسة التي أفردها له الدكتور محمود أحمد الحفي بمنوان « زوياب أبو الحسن على بن نافع موسيقار الأندلس » ، مجموعة أعلام العرب رقم ٥٤ ، ط . القاهرة ، بدون تاريخ .

(٥٩) هو أبو بكر الحسن بن محمد بن مفرج بن حماد بن الحسين المفايري المعروف بالقبشي ، من أهل قرطبة ، كان محدثاً ومؤرخاً ، وهو صاحب كتاب « الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال » في أخبار الخلفاء والقضاة والفقهاء ، وهو الكتاب الذي يروى عنه ابن حيان هنا . ولد سنة ٣٤٨ (٩٥٩) وتوفى سنة ٤٣٠ (١٠٣٩) . انظر ترجمته في : ابن بشكوال : الصلة رقم ٣٠٨ ؛ وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ١١٩ والمراجع المذكورة في هذا الموضوع ؛ جوثالث بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة مؤنس) ، ص ٢٧٥ . وقد كان لكتاب ابن مفرج مكانة كبيرة لدى المؤرخين الذين تلووه فكثّر اعتمادهم عليه ونقلهم منه ، كما نرى في كتاب الصلة لابن بشكوال وفي « الإحاطة » لابن الخطيب (انظر مقدمة الإحاطة ، مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد ، ورقة ٦ ب ، وطبعة الأستاذ محمد عبد الله عنان ١/ ٩١) ، وفي المطرب لابن دحية (ص ١٥١) . وسنرى ابن حيان ينقل عنه كثيراً في ثانيا هذه القطعة من « المقتبس » كما نقل عنه أيضاً في القطعة الخاصة بالأمير عبد الله (نشر أنطونيا ، ص ٥ ، ٧ ، ٣٦) . أما عن نسبة هذا المؤرخ القبشي فهي ترجع إلى « عين قبش » (بضم العين . وفتح الباء المشددة) وهو حي كان يقع في غرب قرطبة ، وسوف نعلق على هذا الاسم في موضعه .

(٦٠) اعتمد ابن حيان في هذا النص على كتاب الجوهرة لابن حزم ص ٨٧ - ٨٨ ، ولو أن الأصل الذى يعتمد عليه ابن حيان فيها يبدو أكثر تفصيلاً بكثير من النص المطبوع ، ويدلنا على هذا أن النص الذى بين أيدينا قد يكون اختصاراً للكتاب الأصل . وقد انتهى الدكتور حسين مؤنس إلى مثل هذا الرأى فى بعض تعليقاته على نص الحلة السراء (١٢٦/١ ، حاشية ١) بمناسبة ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك حيناً رأى ابن الأبار ينقل عن جبهة الأنساب نصاً لم يرد أصلاً فى النسخة المطبوعة .

(٦١) هذه الإشارة إلى « أسالة أهل الذمة » ذات قيمة كبيرة فى التعريف بطائفة كبيرة من طوائف المجتمع الأندلسى والمقصود بها من اعتنقوا الإسلام من العجم أو النصارى . وكان الأندلسيون يستخدمون فى التعبير عن هؤلاء لفظى « الأسالة » و « المسالة » ، وقد استعمل ابن الفرضى فى تراجم كتابه تعبيراً مشابهاً للذى نقله ابن حيان هنا عن ابن حزم ، إذ ذكر فى ترجمته عبد الله بن عمر بن الخطاب الإشبيلية أنه « كان من مسالة الذمة فلا إشبيلية علماً وبلاغة ولساناً حتى شرقت به العرب » (تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٦٤٧) ، وابن حيان كثيراً ما يستخدم لفظ « المسالة » فى القطعة الخاصة بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » . وقد استبلغ فى دراسة هذا اللفظ ودلالته الدكتور حسين مؤنس فى كتابه « فجر الأندلس » (طبعة القاهرة ١٩٥٩) ، ص ٤٢٩ - ٤٤٧ .

(٦٢) قرمونة Carmona . مدينة تقع فى مقاطعة إشبيلية وعلى بعد ٣٥ كيلو متر إلى الشمال الشرقى منها ، واسمها من أصل لاتينى (Carmo) إذ كانت من المدن التى اختطها الرومان ، وكانت من القواعد الأندلسية الكبيرة على عهد المسلمين . انظر فى وصفها ياقوت : معجم البلدان ١٩٦/٤ ، وابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ١٥٩ من النص و ١٩٠ من الترجمة الفرنسية ، وكذلك المسادة التى كتبها زايبولد فى دائرة المعارف الإسلامية ٨٤٩/١ والمراجع المذكورة فى هذين المصدرين الأخيرين .

(٦٣) البيضاء (بالإسبانية Albelda) حصن صغير أنشأه موسى بن موسى القسوى على بعد عدة كيلو مترات إلى جنوب مدينة « لكروى » (Logrono) الحالية ، وهى الآن مدينة صغيرة تقع على بعد ٩١ كيلو متر إلى الشمال الغربى من تطليعة ، ويتردد ذكر « البيضاء » فى الحوليات المسيحية ، إذ تذكر أنه لم يكد موسى بن موسى يتم بناءها حتى حاصرها ملك جليقية وأشتوريش أردون (ordono I) فخرج موسى للقاءه ودارت بين المسلمين والنصارى معركة حامية عرف فى الحوليات المسيحية باسم موقعة « كلايخو Clavijo » وتقول هذه الكتب إن المسلمين أصيبوا فيها بهزيمة منكرة وإن موسى أصيب بجراحات شديدة وقتل فيها زوج ابنته غرسيه ، وتحدد المراجع المسيحية هذه المعركة بسنة ٨٢٤٥ . (٨٥٩ - ٨٦٠ م .) ، على أن المراجع الإسلامية لا تذكر شيئاً عن ذلك مما يشكك فى صحة هذا الخبر وإن كان بعض الباحثين الأوربيين المحدثين عادوا إلى تأكيد وقوعها فى السنة المذكورة ، مثل سانشيث ألبرنوث Sanchez Albornoz وبيريث دى أوربل Pérez de Urbel (أنظر لى بروفنسال : تاريخ ٣١٤/١ - ٣١٥ والمراجع المذكورة فى الحواشى ، وكذلك بيريث دى أوربل فى مقاله « القديم والحديد حول أصول مملكة بنباونة » فى مجلة الأندلس ، المجلد التاسع عشر ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٠ - ٢٦) . ويرى هذا الباحث الأخير أن هناك موقعتين دارتا لدى مدينة البيضاء : الأولى

هي التي يتحدث ابن حيان عنها هنا والتي أحرز فيها موسى بن موسى انتصاراً باهراً على الجاشقيين سنة ٢٣٧ (٨٥١)
والثانية هي التي وقعت بين موسى وأردون ملك جليقية ومنى فيها هزيمة فادحة ، وكانت بعد المعركة الأولى بنحو ثمان سنوات ،
ويرى بيريث دى أوريل أن المراجع العربية قد سكنت عن ذكر تلك المعركة ، على أننا نستبعد ذلك إذ لو صح حدوث
تلك المعركة لما سكنت عن ذكرها ابن حيان الذي لم يضرب صفحاً أبداً عن جميع ما دار من وقائع سواء أكانت للمسلمين
أم عليهم .

(٩٤) بقيرة (بالإسبانية *Vigura*) تقع على بعد كيلو مترات قليلة إلى جنوب البيضاء ، وهي الآن من عمل
مدينة « لكروى » (لوجريو *Logrono*) (انظر ياقوت : معجم البلدان ٢/٢٥٣ وقد قال إنها معدودة في أعمال
تغيلة ، وقد احتفظ لنا العذرى عنها بنص بالغ القيمة عرض فيه تاريخ إنشائها وظروفه ، فقال : إن مؤسسها هوب بن موسى
ابن موسى القسوى ، أنشأها بعد أن انصرف من قرطبة متطلقاً من أسر الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وقال إنه لما بلغ
إحوة لب إنشاء هذا الحصن عسكروا إليه فخرج إليهم وهزمهم ، ولكنهم تمكنوا بعد ذلك من القبض عليه في قلعة *Calahorra*
ثم أطلقوه بعد ذلك ، فتوجه إلى بقيرة ، وبقي بها حتى مات (انظر جغرافية العذرى ص ٣١ - ٣٢) . وذكر ماهدوت
في معجمه الجغرافى (١٦/٥٨ - ٥٩) أن الأمير عبد الله بن محمد سجن فيها عيين كانا يتوليان سرقطة وتغيلة ، على أننا
لا نعرف من أين استند هذه الأخبار إذ لم نجد ما يؤكد في المراجع العربية . هذا وقد اختص أحد المؤرخين الأندلسيين
بقيرة بكتاب خاص ، وهو أبو عبد الله بن المؤذن الوشقى صاحب « تاريخ بقيرة » ، وكان هذا الكتاب من بين الكتب
التي سردها ابن الخطيب في مقدمة (الإساطة) في كلامه عن تواريخ الأقاليم والمدن : انظر الإساطة ، تحقيق الأستاذ محمد
عبد الله حنان ، ص ٩١ ، وعن ابن المؤذن الوشقى وتاريخه انظر برونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٣٩٥

(٩٥) الجاشقيون هم أهل المنطقة المعروفة في الفرنسية باسم *Gascogne* (بالإسبانية *Gascuna*) وهي الواقعة
في جنوب غرب فرنسا فيما وراء جبال البرقات (الپيرينيه) .

(٩٦) أشار ابن الأثير في إيجاز إلى معركة « البيضاء » هذه ، وقال إنها كانت مشهورة بالأندلس (الكامل ٥/٢٩١) .

(٩٧) ينقه بن ينقه *Inlgo Iniguez* هو الذى سبق أن تحدثنا عنه عند التعليق على بنى نيقه ملوك بنبلونة
(رقم ٢٨) ، وقد كان تاريخ هذه الأسرة مجهولاً غامضاً إلى حد كبير في المدونات المسيحية حتى جلى ابن حيان في
« المقتبس » كثيراً من غفائها . وثيقه (أو وثقه) المذكور هو أخو موسى بن موسى القسوى لأمه ، إذ أن أباه المعروف
باسم *Inlgo Jimenez* كان قد تزوج من أرملة موسى بن فرثون بعد وفاته . وابن حيان في نصه الوارد هنا هو الوحيد
الذى يحدد لنا تاريخ وفاة ينقه المذكور بسنة ٢٣٧ (٨٥١ - ٨٥٢) ، ويرجح بيريث دى أوريل في مقاله عن « القديم
والجديد حول أصول ملكة بنبلونة » (ص ١٨ - ١٩) أن ينقه كان يبلغ نحو سبعين سنة حيناً أدركته الوفاة بعد هذا الفالاج
الذى أصابه : وقد كان ينقه بن ينقه مصارعاً لأخيه لأمه موسى بن موسى القسوى ، إذ أنه زوجه من ابنة له تسمى « أسونا »
(*Asona*) ، وهى أم ولده ليد بن موسى الذى يتحدث ابن حيان عن أحداثه ووقائعهم في الثغر الأعلى . ويعرف ينقه

ابن ينقه المذكور هنا في المدونات المسيحية باسم Inigo Arista ، ومعنى لفظ *arista* في الإسبانية القديمة « الحجر اليابس » ، ومن هنا يرى بيريث دي أوربل في مقاله الذي أشرنا إليه (ص ١٨ حاشية ١) أنه ربما كانت في هذا اللقب الذي أطلق عليه إشارة إلى الفالنج الذي عطله مدة قبل وفاته .

(٦٨) راجع حول غرسيه بن ونقه الذي يذكر ابن حيان هنا أنه خلف أباه على إمارة بنبلونة سنة ٢٣٧ (٨٥١-٨٥٢) ماسبق أن أوردناه عن بني ينقه في الحاشية رقم ٢٨ ، ونضيف إلى ذلك أخبارا وإفانا بها العذري في جغرافيته حيث يذكر خبر أسر المجوس له عند انتابهم إلى حائط بنبلونة في سنة ٢٤٥ (٨٥٩) واقتدائه منهم بسبعين ألف دينار بعد أن ارتهن بعض ولده (ص ١١٩) ، ثم خبر مظاهره لب بن موسى له حينما ثار بأرثيط واستول على تطيلة وسرقسطة والثغر كله (ص ٣١) ، ومظاهرة عمرو بن عمر الثائر بالثغر له وللشرطانيين في سنة ٢٥٧ (٨٧١) ، (ص ٦٢) ، وسيدكر ابن حيان فيما يلي مزيداً من أخباره . وهل كل حال فإن هذه الأخبار التي أمدنا بها ابن حيان والعذري تضيف الكثير إلى المعلومات الغامضة المتناقضة الواردة في المدونات المسيحية ، فقد كان الشائع في كتب التاريخ الإسبانية المسيحية أن غرسيه ابن ينقه قد توفي في سنة ٨٤٣ م . (٢٢٨ - ٢٢٩ هـ) ، وقد ثبت بعد ظهور نص ابن حيان خطأ هذا الرأي ، كذلك يذكر بيريث دي أوربل في مقاله الذي أسلفنا الإشارة إليه عن أصول ملكة بنبلونة (ص ٢٨ حاشية ٤) أنه لا يوجد أي ذكر لغرسيه بن ينقه في المدونات المسيحية بعد سنة ٨٦٠ م (٢٤٥ - ٢٤٦ هـ) ، مما حل الباحثين المحدثين على أن يرجعوا وفاته حول هذا التاريخ بينما نرى الآن أن المؤكد هو أن وفاته لاحقة لسنة ٨٧١ (٢٥٧) .

(٦٩) ذكر خبر هذه الثورة التي نشبت في الثغراين عذاري : البيان ٩٠/٢ (ولو أنه يسمى حامل الثغريجي بن خالد ، ولعله خلط بين عبيد الله بن يحيى (بن خالد) المذكور هنا وأبيه يحيى) ؛ وابن سعيد : المغرب ٥٠/١ ، وابن الأثير : الكامل ٢٩١/٥ . وقد عرض لدراسة هذه الثورة الباحث الإسباني ميغيل أسين بلاثيوس في بحثه عن « ابن مسرة القرطبي ومدرسته *Ibn masarra y su escuela* » في مجموعة « الأبحاث المختارة *obras escogidas* » (مدريد ، سنة ١٩٤٦) ٢٩/١ - ٣٠ ، وأشار إلى التشابه بين تعاليم هذا الثائر في النهي عن قص الشارب والأطافر وبين بعض التعاليم الفيشاغورية القديمة ، كما أورد احتمال أن يكون لزعة ذلك المعلم في تأويل القرآن صلة بالدعايات الشيعة التي كانت تضطرب خلال ذلك الوقت في الشمال الإفريقي والأندلس . (انظر كذلك بحثنا عن « التشيع في الأندلس » ، في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ، المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ ص ١٠٠) .

(٧٠) انظر عن هذين القاضيين ما سيورده ابن حيان في آخر هذا القسم من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن .

(٧١) عن « تربة الخلفاء » أو « روضة الخلفاء » هذه هي المقبرة الملكية التي كانت ملحقة بقصر الخلافة المواجه للمسجد الجامع بقرطبة انظر ليلى يروفسال : الأندلس في القرن العاشر ص ٢٢٢ ؛ نفس المؤلف : تاريخ ١٣٨/١ ، ١٩١ ؛ جورج مارسية : موجز لتاريخ الفن الإسلامي *George Marcais manuel d'art musulman*, Paris 1926 الجزء الأول ، ص ٢٤٢ .

(٧٢) ذكرهما ابن حزم في حديثه عن ولد الحكم بن هشام الرضى (بحجرة الأنساب ص ٨٨ - ٩٠) . أما « المغيرة ابن الحكم » فهو الذي تنسب إليه « نية المغيرة » ، وهي رضى من أرباض قرطبة يقع في شرقها إذ كان بها منزله . وقد

ذكر ابن حزم أن أباه الحكم كان قد ولاء العهد بعد أخيه عبد الرحمن ، ولكن هذا لم يلبث أن خله ، وأيد هذا الخبر ابن عذاري في البيان (٧٧/٢) فقال : إن الحكم حينما اشتد به المرض سنة ٢٠٦ أخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ثم للمغيرة من بعده فبوع للأخوين في دار عبد الرحمن بن الحكم (وانظر كذلك نفع الطيب للمقرئ ٣٢٢/١ ؛ وليفي بروفنسال : تاريخ ١٩٠/١ وعن النية المنسوبة للمغيرة انظر ما كتبه ليبي بروفنسال أيضا في كتاب « الأندلس في القرن العاشر » ص ٢٠٥) .

وأما أمية بن الحكم فإننا نعرف بما يذكره ابن عذاري (بيان ٨٤/٢) أن عبد الرحمن أخاه عهد إليه بقيادة الحملة التي غزت طليطلة في سنة ٢١٩ (٨٣٤) وحاصرتها حصاراً شديداً ، وأورد ابن حزم في الجمهرة (ص ٨٩ - ٩٠) أسماء جملة من ذرية أمية بن الحكم هذا .

(٧٣) هو أبو عبد الملك أحمد بن محمد بن عبد البر القرطبي ، من موالى بني أمية ، كان بصيراً بالحديث والفقه ، وله كتاب في « الفقهاء بقرطبة » ، وكان وثيق الاتصال بعبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، فلما اتهم عبد الله بمحاولة خلعه أبيه واغتياله قبض على ابن عبد البر معه وأودع السجن ، بل إن الناصر اتهمه بأنه هو محرض ابنه على هذه المحاولة لطمعه في أن يتولى قضاء الجماعة ، وتوفي ابن عبد البر في سجنه سنة ٣٣٨ (٩٥٠) ، وقيل إنه خنق في السجن . وعلى كتاب ابن عبد البر في فقهاء قرطبة كان أكثر اعتماد ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس حتى إنه نقل عنه في أكثر من مائة وثلاثين موضعاً ، وكذلك ابن سمي في كثير المواضع التي تحدث فيها عن قضية قرطبة (انظر المغرب ١٤٣/١ - ١٥٥) ، وابن حيان كما سئري في الفصل المتعلق بذلك . (انظر ترجمة ابن عبد البر في ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٢٠ ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٢٠ - ٤٢١ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣٧ ؛ وانظر في محتته وموته القاضي عياض (في الموضوع المذكور) وابن الأبار : الحلة السيرة ص ١٠٦ (ط . دوزي) و ٢٠٧/١ - ٢٠٨ (ط . مؤنس) ، وكذلك بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٥٨ - ٥٩) .

(٧٤) هو أبو عبد الله محمد بن وضاح بن يزيع القرطبي مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية ، روى بالأندلس ، ثم رحل إلى المشرق رحلتين مع فيها من كبار الزهاد والمحدثين ويعتبر هو وبق بن غنلة القرطبي مدغلي علم الحديث والبصر بطرقه وعلمه إلى الأندلس . ولد في سنة ١٩٩ أو ٢٠٠ (٨١٤ - ٨١٥) وتوفي سنة ٢٨٧ (٩٠٠) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٣٤ : الحميدى : مجلدة ، رقم ١٥٢ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٣٩ - ٢٤١ ؛ الضبي : بغية رقم ٢٩١ ؛ ابن خير : فهرسة ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٣٧ - ١٣٨ ، ١٥٠ ؛ وبونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ٤٩ ؛ لوئب أورتيث : دخول المذهب المسالكي إلى الأندلس ص ١٠٢ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٣ .

(٧٥) باب الجنان من أبواب قصر قرطبة الجنوبية ، وهو يطل على نهر الوادي الكبير وعلى مقبرة الربض أو صحراء الربض كما سيذكر ابن حيان ، وهو الفضاء الواسع الممتد إزاء القصر الخلاق ، ويفصله عنه مجرى الوادي الكبير ، وهو الذي كان الحكم بن هشام قد أمر بهدم مبانيه وتسويته بالأرض بعد ثورة الربض كما سبق أن ذكرنا في حاشية سابقة (رقم ٥٧) . انظر عن باب الجنان : ليبي بروفنسال : تاريخ ١٤٦/١ ، ١٣١/٢ .

(٧٦) الكنى جمع كدية (بضم الكاف وسكون الدال) معناها الرتبة . وهناك مواضع كثيرة في إسبانيا مازالت تحمل هذا الاسم العربي حتى الآن باقيا بنفس صورته الأولى : Alcudia ، ونجدتها متثرة في لقنت Alicante .

- 209 -

كما هو واضح ، ولابد أنه كان هناك عرفاء آخرون يرأسون طوائف الحرفيين من كانوا يقومون بالخدمة في القصر . وقد انتقل لفظ « المريف » من العربية إلى الإسبانية دون كبير تحريف في صورة *Alarife* وإن كان قد أصبح مقتصرأ على الدلالة على رئيس البنائين . (وانظر كذلك الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٦٤) .

(٨١) سوف يفرد ابن حيان فصلا للكلام عن آل الرازي وأولية بيتهم في الأندلس .

(٨٢) يختلف ما ذكره ابن حيان هنا عما يقوله ابن عذارى (البيان ٨١/٢) ، إذ يذكر هذا المؤرخ في معرض الحديث عن نقش خاتم الأمير عبد الرحمن بن الحكم أنه كان له خاتم باسمه ، فتلغ ، فأمر بطلبه ، ولكنه لم يجده ، فأعاد نقش خاتم جده عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكانت عبارته « عبد الرحمن ، بقضاء الله راض » ، ثم بحث في عبد الله بن الشهر الشاعر فأمره بأن يقول شعراً بما ينقش فيه ، فقال :

خاتم للملك أضحى حكمة في الناس ماضى
عابد الرحمن فيه بقضاء الله راض

فاستحسن عبد الرحمن البيتين وأمر بنقشهما في الخاتم ، وسوف يكون هذا النقش هو الذى سيستخدمه عبد الرحمن الناصر .
(انظر ابن عذارى : بيان ١٦١/٢) .

(٨٣) يخالف هذا العدد ما ذكره ابن حزم في كتابيه جمهرة الأنساب (بتحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ص ٩٨) ونقط المروس في تواريخ الخلفاء (بتحقيق الدكتور شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، ص ٧٥) من أن عدد أبناء الأمير عبد الرحمن كان مائة : خسون ذكراً وخسون أنثى . وقد نقل هذا الخبر عن ابن حزم بن سعيد في المغرب (٤٥/١) ، والمقرئ في النقيح (٣٢٥/١) . أما أسماؤهم فإن ابن حزم لم يذكر منهم — كماداته في الجمهرة — إلا من كان لهم عقب وذرية في عصره ، فهو لا يورد أسماء من انقرض نسلهم ، ولذا فإنه اكتفى بتسجيل أسماء الأربعة الذين أعقبوا وبقيت ذريتهم إلى أيامهم وهم : الأمير محمد ، المطرف ، المنذر ، هشام .

(٨٤) انظر ما سبق أن كتبناه عن الحكم المذكور في التعليق رقم ٤١ .

(٨٥) ذكره ابن حزم في القائمة التى أشرنا إليها في الحاشية السابقة من بين من أعقب من ولد الأمير عبد الرحمن بن الحكم (جمهرة ص ٩٨) ، إذ قال إن هناك أربعة بنين ذكوراً ينتهى نسبهم إلى عبد الله بن المطرف المذكور ، وأضاف ابن حزم إلى ذلك أن المطرف هو الذى ينسب إليه فححص مطرف بن دور الربض الشرق بقرطبة ، وهو المعروف أيضاً بفحص ابن بسيل . وقد اشترك المطرف في كثير من الحملات والصوائف في عهد والده عبد الرحمن (انظر ليلى بروفنسال : تاريخ ٢٠٦/١) .
(٢٦٧ ، ٢١٧) .

(٨٦) ذكره ابن حزم كذلك من بين من أعقبوا (جمهرة ، الموضع المشار إليه من قبل) ، وقال إن خمسة رجال بقوا من عقبه ينتهى نسبهم إلى مروان بن المنذر المذكور ولأنهم كانت لهم ثروة وحال ظاهرة وآداب وخير ، ثم انقرضوا ولم يبق

لم عقب إلا من رجل واحد منهم ، كذلك ذكر ابن حزم من قبل المنذر هذا الشاعر أبا الحكم المنذر بن سعيد بن المنذر ابن مروان بن المنذر بن مروان بن الحكم . هذا وسيذكر ابن حيان عند سرده أحداث إمارة محمد على السنين في الكلام عن سنة ٢٤٢ (٨٥٦ - ٨٥٧) أن الأمير وجه أخاه المنذر بن عبد الرحمن بالصائفة الى طليطلة فحاصرها وانتصف معايشها وأورد ابن عذاري هذا الخبر أيضا (البيان ٩٦/٢) إلا أنه جعل المنذر المذكور ابن الأمير محمد لا أخاه . وقد قاد المنذر كثير آمن الحملات في أيام أبيه عبد الرحمن بن الحكم (انظر ليقى بروفنسال : تاريخ ٢٠٧/١ ، ٢٦٧ ، ٢٨١) . وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (١١٤/٥ - ١١٧) أخبار طريفة عن المنذر المذكور تصور أخلاقه وطباعه ومحاورات بينه وبين أبيه الأمير عبد الرحمن ، وقصصا أخرى تصور كرم نفسه بعد أن امتحنه أبوه وتعهده بالتأديب ، ثم قطعتين من شعره . وأورد ابن الأبار في كتاب « التكلية » (رقم ١٠٤) ترجمة لواحد من عقبه هو المنذر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المنذر المذكور ، وهو المعروف باسم المذاكرة للكثرة ما كان يطلب بها أصحابه ، وترجمة أخرى للمنذر بن سعيد بن عبد الملك بن المنذر الذي كان بدوره أديبا متفتنا روى عن أبي يحيى زكريا بن بكر بن الأشج ديوان شعر أبي الطيب المتنبي وكانت وفاته سنة ٤١٢ (١٠٢١ - ١٠٢٢) . (انظر التكلية ، رقم ١١٠٦) .

(٨٧) ذكره ابن حزم فيمن ذكر من بين المعقبين من ولد الأمير عبد الرحمن (بجمهرة ص ٩٨) ، وسوف يورد ابن حيان نفسه في هذا الجزء من المقتبس خبراً ينقله من كتاب معاوية بن هشام الشيبني يستند ابراهيم إلى أبيه هشام بن عبد الرحمن المذكور ، وهو حول منافسة الأمير محمد لأخيه هشام في جارية يبدو أن الأمير تمسكها قبل أن يصل إلى الإمارة ثم طلبها نفسه بعد ذلك فأرسل إلى أخيه هشام يستهديه إياها في خبر طويل ، ويتبع معاوية بن هشام تلك القصة بقوله : إن هشاما المذكور كان من أهل العلم والبصر بالعربية والحديث مكثراً من الرواية عن يحيى بن يحيى وغيره وإن أباه الأمير عبد الرحمن كان قد نصبه للصلاة على جنائز أهل قصره . وقد نقل ابن الأبار بعض هذه الأخبار عن كتاب ابن حيان في ترجمة بشر بن الأمير عبد الرحمن (الحلة السراء ١٢٦/١) .

(٨٨) كذا ورد هذا الاسم بالسكنية فقط : « أبو عثمان » ، ونحن نرجح أن محصته « عثمان » فقط ، فهناك من أبناء الأمير عبد الرحمن من يحمل اسم عثمان ، وهو لم يرد في هذه القائمة فلا بد أن يكون الناسخ قد اضطرب في كتابة هذه الأسماء المتوالية فأضاف « أبو » إلى الاسم المذكور . أما « عثمان بن عبد الرحمن » الذي نشير إليه فيشهد به الحميدى الذي ترجم له في الجلود (رقم ٧٠٤) قائلا : إنه كان شاعراً أديبا أورد بعض شعره أبو عامر بن مسلمة ، وإلى هذه الترجمة أشار ابن الأبار في موضعين من الحلة السراء (١٢٦/١ ، ٣٦٧/٢) ، إلا أن ابن الأبار ينص على أن الرازي لم يذكره في كتاب « الاستيعاب في الأنساب » من تأليفه .

(٨٩) سيذكر ابن حيان عند سرده لأحداث إمارة محمد على نسق السنين أن سعيد بن عبد الرحمن المذكور كان في طليطلة عند وفاة والده عبد الرحمن وأن عامل المدينة يومئذ كان حارث بن بزيع ، وذلك حينما انتكث أهل طليطلة وعلموا الطاعة فأسروا عاملهم حارث بن بزيع ، وهرب سعيد فاجبا بنفسه .

(٩٠) أبو محمد عبد الله هو ابن حظية عبد الرحمن الأثرية إليه من بين نسائه ، وهو الذي حاولت أمه وصنيعتها نصر

الخصى أن يولياه الخلافة في الخبر الذي سبق لابن حيان أن قصه عند الحديث عن مهلك نصر ، وسيزيدنا ابن حيان بيانا عن ذلك عندما يفصل خبر تول محمد الإمارة والظروف التي أحاطت بذلك .

(٩١) ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن الكلمة مطموسة في الأصل وأنها ترجح أن تمام الاسم هو « أبان » ، فقد نص الرازي في كتاب « الاستيعاب في الأنساب » على أن أبانا هذا كان من بين أبناء الأمير عبد الرحمن (وذلك فيما نقله ابن الأبار في الحلة السيرة (١٢٦/١ ، ٣٦٦/٢) ، ويضيف ابن الأبار إلى ذلك قوله : إن ابن حزم ذكره أيضا في جبهة الأنساب ووصفه بالشعر ، ولكننا لم نثر على هذه الإشارة في النص المطبوع من الجبهة . وقد ذكر ابن الأبار في موضع آخر (التكلة ، ترجمة رقم ٢٨٥٤) أن عبد الرحمن أنجب أبانا هذا من جاريته قلم .

(٩٢) يبدو أن عدد الذكور من أبناء الأمير عبد الرحمن كان أكبر فعلا مما يذكره الرازي ، وقد يكون ابن حزم على حق حينما أوصل العدد إلى خمسين (كما أشرنا إلى ذلك في التعليق رقم ٨٣) ، أو على الأقل إلى خمسة وأربعين كما يقول ابن عذارى (بيان ٨١/٢ وهذا هو الرقم الذي ارتضاه ليبي بروفنسال في تاريخه ٢٦٧/١) ، وذلك لأن هناك أسماء أبناء لعبد الرحمن بن الحكم لم ترد في القائمة التي يعتمد ابن حيان فيها على الرازي مثل بشر الذي ترجم له ابن الأبار في الحلة (١٢٦/١) قائلا : إن ابن حزم ذكره في الجبهة (ولوأنا لا نجد أي إشارة إليه في النص المطبوع) ونقل قطعة من شعره أنشدتها أبو عمر بن فرج في كتاب « الحقائق » ، وربما تكون أسماء أخرى قد سقطت كذلك قياساً على اسم بشر المذكور .

(٩٣) هو معاوية بن هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل القرطبي ، ويعرف بابن الشبانسي أو الشبانسي ، كان أديبا أخباريا تاريخيا فصيحا ، وكان أبوه من رجالات الدولة الأموية توفي على ما يذكر ابن عذارى (بيان ١٦٩/٢) في سنة ٣٠٠ (٩١٢) كذلك كان عمه معاوية بن محمد بن هشام من جلة الفقهاء والعلماء وكانت وفاته في سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) . (انظر ابن الأبار : تكلة رقم ١٠٧٧ ؛ وابن عذارى : بيان ١٥٥/٢) ؛ ونعرف أنه كان لمعاوية المذكور أخ كان يدعى محمداً بن هشام القرشي ويعرف أيضا باسم « ابن الشبانسي » كان عاملا لعبد الرحمن الناصر على كورة شذونة ، وتوفي سنة ٣١٦ (٩٢٨) وهو لا يزال متوليا محلها (انظر ابن عذارى : بيان ٢١٣/٢) . أما معاوية فقد كتب تاريخاً في دولة قومه بني مروان ، وهو الكتاب الذي يعتمد عليه ابن حيان في هذه القطعة من المقتبس وفي القطعة الأخرى التي نشرها أنطونيا (انظر ص ٣٧ - ٣٨ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٣٨) ، ولابن الشبانسي تأليف في نسب العلوية وغيرهم من قریش مياه « التاج السني في نسب آل علي » ، ولم يحفظ لنا ابن الأبار في ترجمة له سنة مولده ولا وفاته ، وإن كان الغالب على الظن هو موته خلال عهد عبد الرحمن الناصر أي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (انظر ابن حزم : جبهة الأنساب ص ٩٦ ؛ ابن الأبار : التكلة رقم ١٠٧٨ ؛ الحلة السيرة ٤٠/١ ، ١٢٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١١٥/١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق عنان ١٠٧/١ ؛ وانظر كذلك بولس بوجيس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٢٥ ، ليبي بروفنسال وغرنسيه غومس : تاريخ مجهول المؤلف لعبد عبد الرحمن الناصر ، مدريد - غرناطة سنة ١٩٥٠ : El. Mévi — provençal, El. García Gomez : una Crónica . Anonima de Abd Al-Rahman, III, Madrid — Granada, 1950. انظر المقدمة ص ٢٠ - ٢١ .

(٩٤) أشار ابن حزم إلى العاصي بن محمد هذا من بين المعقنين من ولد هذا الأمير (الجبهة ص ٩٩) ، كذلك ذكره

صاحب القطعة التي نشرها بروفنسال وغرسيه غومس حول تاريخ عبد الرحمن الناصر (وهي التي أسلفنا الإشارة إليها في التعليق السابق) في معرض الكلام عن بيعة عبد الرحمن بن محمد الناصر في سنة ٣٠٠ (٩١٢) بعد وفاة جده ، إذ قال إن أول من بايعه كانوا أعمامه أولاد الأمير عبد الله وتلاه إخوة جده أبناء الأمير محمد ، وهم العاصي وسليمان وسعيد وأحمد (انظر النص المذكور ص ٢٩ وص ٩٢ من الترجمة الإسبانية) .

(٩٥) نقل ابن الأبار في الحلة (١٢٦/١) هذا النص والأبيات الثلاثة التالية عن ابن حيان ، وأثنى على حكم مؤلفنا ونقده لشعر يعقوب بن عبد الرحمن المذكور ، ثم أورد ابن الأبار أبياتا أخرى له نقلها من كتاب « الخدائق » لابن قريج الجلياني . هذا وقد أورد المقرئ في نفح الطيب (١١٨/٥ - ١١٩) بعض أخبار يعقوب بن عبد الرحمن ومنتخبات أخرى من شعره ، وفي هذه الأخبار ما يؤكد ما ذكره ابن حيان هنا عن كرمه إلى حد الإسراف .

(٩٦) يبعد أن يكون هذا اللفظ كما رسم في الأصل : « كلهن » اسما لإحدى بنات الأمير عبد الرحمن ، ونلاحظ عند مراجعة هذه القائمة أنه ينقصها اسم من أهم أسماء أولئك البنات وأعظهن صيتا ومكانة ، ونعني بها « البهاء » ، وكانت من خيرة نساء بني أمية ، من أهل الزهد والعبادة والتبذل ، وكانت تكتب المصاحف وتحبسها (أي توقفها) على المساجد ، وينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ربض الرصافة ، وتوفيت في صدر دولة عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٠٥ (٩١٧ - ٩١٨) فلم يتخلف أحد عن جنازتها (انظر في ترجمتها ابن الأبار : تكملة ، ط . بالنشيا والأركون ، رقم ٢٨٥٨ ؛ ابن حذارى : البيان ١٧٦/٢) ، ولهذا فإننا لا نستبعد أن يكون لفظ « كلهن » الوارد في الأصل تحريفا عن اسم « البهاء » .

(٩٧) تكرر هذا الاسم من قبل ، ومع ذلك فقد يكون عبد الرحمن - مع هذه الكثرة المائلة في عدد بناته - قد أطلق نفس الاسم على اثنتين منهما ، وهو شيء رأينا أمثلة له في نفس القائمة المذكورة .

(٩٨) أشار ابن حذارى إلى السيدة علية بنت عبد الرحمن بن الحكم وقال : إنها توفيت في سنة ٣١٠ (٩٢٢ - ٩٢٣) ، ولابد أن حياتها طالت كثيرا حتى إنها أدركت عهد عبد الرحمن الناصر الذي كان بمثابة أبناء أحفادها . (انظر البيان المغرب ١٨٣/٢) .

(٩٩) هو عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وجده هذا الداخل إلى الأندلس مع طارق بن زياد هو مغيث بن الحارث ابن حويرث بن جبلة بن الأيهم الغساني الذي يدعى « مغيث الرومي » ، وهو الذي أطلق بفتح قرطبة (انظر المقرئ : نفح ١١/٤ - ١٣) ، أما عبد الواحد بن مغيث فقد كان حاجبا لعبد الرحمن بن معاوية الداخل ثم لهشام ابنه ، وكانت وفاته في أيام الحكم الربضي في سنة ١٩٩ (٨١٤ - ٨١٥) ، (انظر ابن سعيد : المغرب ٤٤/١) ، وقد أعقب ثلاثة أبناء كان لهم مكانة عظيمة في أيام هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم ، وهم عبد الملك وعبد الكريم وعبد الحميد ، أما الأولان فقد توليا القيادة في أيام هذين الأميرين ، وولى الأمير هشام عبد الكريم على كورة جيان ، ثم أغزاه في سنة ١٧٨ (٧٩٤) إلى ألبة والقلاع ، كما وجه أخاه عبد الملك إلى إفرنجة فأنهيا إلى أرض العدو وأخذنا فيها وأصحابا غنائم كثيرة ، وفي السنة التالية (١٧٩ - ٧٩٤) قاد عبد الكريم حملة على أشتوريش فوصل إلى أستورقة وانتصها . ولما ولي الحكم ابن هشام الإمارة وجه عبد الكريم إلى سرقسطة عند ثورة بهلول بن مرزوق بها فأوقع به ، وفي سنة ١٩٦ (٨١٢) استطاع أن يستنزل عمرو بن يوسف الثائر بالشر الأعلى ويقدم به على قرطبة ، وعهد إليه الحكم حينئذ بولاية سرقسطة

وتطيلة ووشقة ، وفى سنة ٢٠٠ (٨١٦) غزا إلى بلاد ألبه والبشكنس ، فأوقع هزيمة ساحقة بجيوش أذفنش (الفونسو الثانى) ملك أشتوريش ، وكان له بعد ذلك مقام محمود فى إخماد ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) ، وهو الذى توسط فى استسلام وعقد الأمان لم . وفى سنة ٢٠٨ (٨٢٣) عاد إلى قيادة الحملة التى توجهت إلى ألبه والقلاع ووصلت إلى جرنيق **Guernica** ، وأخيراً توفى سنة ٢٠٩ (٨٢٤) بعد أن تقلب فى أعلى مناصب الدولة ، إذ ولى القيادة والكتابة والوزارة فضلاً عن الحجابة (وهى بمثابة رئاسة الوزراء) منظم أيام الحكم الربضى وثلاث سنوات من إمارة عبد الرحمن الأوسط ، ويسميه لى بروفنسال بحق أعظم رجال دولة الحكم على الإطلاق ، والواقع أنه كان يجمع خصالاً قل أن تتوفر كلها فى واحد من رجال الدولة ، فقد كان عسكرياً ممتازاً وسياسياً محنكاً وكاتباً أدبياً عالمياً ، وكان على حد قول الرازى « أكل من ولد الحجابة لى مروان » .

انظر فى ترجمة عبد الكريم بن مغيث وأخباره : ابن الأبار : الحلة السيرة ١٣٥/١ - ١٣٦ ؛ ابن عذارى : بيان ٤٨/٢ ، ٦٤ - ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ - ٨٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٤٥ ، ٦١ - ٦٢ ، ٧٤ ؛ الخشنى : كتاب القضاة ص ٧٣ ؛ ابن سميذ : المغرب ٤٠/١ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ابن الخطيب : الإحاطة (تحقيق الأستاذ عنان) ٤٨٨/١ ؛ أعمال الأعلام ص ١٢ ، ١٩ ؛ المقرئ : نفع ٣١٧/١ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ - ٣٢٤ ، ٢٢٦/٤ ؛ لى بروفنسال تاريخ ١٤٣/١ - ١٤٤ ، ١٥٥ - ١٥٦ ، ١٦٦ - ١٦٨ ، ١٧٤ - ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٢ - ٢٠٣ ، ٢٨٦) .

هذا ولم يفرّد ابن حيان ترجمة هنا لعبد الكريم بن مغيث إذ يغلب على الظن أنه فعل من قبل فى الجزء الخاص بإمارة الحكم ابن هشام التى قضى الشطر الأعظم من حياته فيها . أما عبد الحميد بن مغيث فسيأتى ذكره فى الكلام عن إمارة محمد بن عبد الرحمن .

(١٠٠) هو سفيان بن عبد ربه المصمودى (من مصمودة إحدى قبائل البربر) ، ذكر ابن القوطية الظروف التى أحاطت بولايته الحجابة فقال : إنه لما توفى عبد الكريم بن مغيث فى صدر ولاية عبد الرحمن الأوسط (سنة ٢٠٩ - ٨٢٤) تنافس الوزراء كلهم فى خطة الحجابة ، فأخذت الأمير ضجيرة أقسم معها ألا يول واحد منهم ، ثم أمر بالإقراع بين الخزان (جمع خازن وهو المتولى للشؤون المالية فى الدولة) فخرجت القرعة إلى (ورد الاسم فى الأصل خطأ : « مهران ») ، فولاه الحجابة ، ويزيدنا ابن القوطية بعد ذلك تعريفاً به فيقول : إنه كان من البربر لا فديم له (أى أنه لم يكن من أسرة عريقة فى مناصب الخدمة) وكان له بالإمير عبد الرحمن اتصال وهو ولد (أى قبل أن يتولى الإمارة) ، وظل سفيان على الحجابة حتى وفاته سنة ٢١١ (٨٢٦) على ما سيذكر ابن حيان فى الوفيات ، ويقول ابن حزم : إن نسل سفيان بن عبد ربه قد بادى فى وقته وانقرض فلم يعد منهم بقية . أنظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٦٨ ؛ ابن سميذ : مغرب ٥٠/١ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٠/٢ ؛ ابن حزم : جمهرة ، ص ٥٠٠ ، وقد نقل كلامه صاحب كتاب مفاخر البربر (بتحقيق لى بروفنسال ، ط . الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٨٠ .

(١٠١) يوافينا ابن حيان بأخبار قيمة عن خطة من أهم خطط الدولة فى ظل أمراء بنى أمية ، وهى خطة الخزانة التى كان متقلداً يدعى « الخازن » ، ونحن نرى من هذا النص أن ظهور هذه الخطة قد بدأ فى أيام الحكم بن هشام أى فى أواخر القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، ثم أخذت قواعدها تستقر ومعالمها تتحدد فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد كانت وظيفة الخازن أشبه ما تكون بالعمل الذى يتولاه الآن وزراء المالية أو الخزانة . ولم يكن يعهد بهذا المنصب دائماً إلى فرد واحد ،

مل في كثير من الأحيان إلى مجموعة من الرجال يرأسهم « الخازن الأكبر » ، غير أن المصادر لا تمدنا بالكثير عن تفاصيل أعمال الخزان وكيفية تسييرهم لها وحدود سلطاتهم . ويذهب نيتي بروفنسال في تاريخه (٣١/٣ - ٣٢) إلى أن السبب في قلة المعلومات المتوفرة لدينا عن عمل « الخزان » يرجع إلى أن وظائف الخزانة كانت تسند في الغالب إلى غير المسلمين من الذميين ، ولذا كان صحيحاً أن من بين متقلدي وظائف الخزانة في الأندلس عدداً من المسيحيين واليهود فإننا لا نعتقد أن العادة جرت بذلك ، ولو أننا تأملنا أسماء الذين تولوا هذا العمل منذ ظهوره نظاماً إدارياً محدداً في الأندلس حتى عهد عبد الرحمن الناصر مثلاً ، وهذه هي الحقبة التي تقعد خلالها هذا النظام واستقرت أصوله لوجدنا أن الكتلة العظمى من المسلمين .

(١٠٢) لم يذكر ابن القوطية اسم مرتيل بن عفان هذا بين أسماء من تولوا الخزانة للأخير عبد الرحمن بن الحكم ، وهم عنده : موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغاز ، وطاهر بن أبي هارون ، وسفيان بن عبد ربه (تاريخ ص ٦٢) ولم نجد فيما بين أيدينا من مراجع أي إشارة إلى مرتيل بن عفان المذكور .

(١٠٣) « باب السدة » هو الباب الرئيسي لقصر الخلافة بقرطبة المطل على ضفة الوادي الكبير وعلى القنطرة . وقد كان القصر مواجهاً للمسجد الجامع بقرطبة ، وكان له خمسة أبواب أعظمها وأهمها باب السدة المذكور الذي كان يواجه « الرصيف » أي الطريق المرصوف الذي يحاذي ضفة النهر ، ومنه كان يدخل ضيوف السلطان وزواره ، ومن هنا كانت دعوته باسم « باب السدة » وكان أمام هذا الباب سارية عارية جرت العادة بأن تعرض فوقها أهم الفنائم التي كان أمراء قرطبة وخلفاؤها يحوزونها في حملاتهم العسكرية ، كما أصبح من المعتاد أن تعلق فوقها رؤوس من يظفرون بهم من الأعداء سواء أكانوا من زعماء الممالك المسيحية في « دار الحرب » أو الثائرين المسلمين الخطرين على سلامة نظام الحكم ، أما الأبواب الأربعة الباقية فهي « باب الجامع » المفضي إلى المسجد الجامع الذي تفصله عن القصر « المحجة العظمى » وهي التي تمتد بعد ذلك إلى القنطرة ، ثم « باب الجنان » ، « باب الرادى » الواقع في نفس الجانب الذي جعل فيه باب السدة ، وأخيراً الباب الشمال وهو المعروف باسم « باب قورية » . وقد شاع في الأندلس بعد ذلك استخدام اصطلاح « باب السدة » وإطلاقه على الأبواب الرئيسية الكبرى للقصور قياساً على باب السدة في قصر الخلافة بقرطبة . انظر مقال العالم الأثري ليوبولدو توريس بلباس : « باب السدة في قرطبة وأبواب السدة في شرق الأندلس » ، ومجلة الأندلس ، المجلد السابع عشر ، سنة ١٩٥٢ ، ص ١٦٥ - ١٧٠ .

Leopoldo Torres Babas : «Bab al-Sudda» y les zudas de la Espana orient-
Al-Andalus, Vol. XVII, 1952.

(١٠٤) أسرة بن شهيد من أكبر الأسر الأندلسية وأثرها وأشهرها في عصر الإمارة والخلافة ، وقد تصرف أفرادها تخلفاً بئى أمية في الخلط الكبرى من القيادة والكتابة والوزارة والحجابة إلى انقراض الدولة المرورية . وتنتهى هذه الأسرة إلى شهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح ، وقد نسبهم ابن الأبار في « الحلة » إلى قبيلة أشجع بن ريث بن غطفان ، أي أنه جعل لهم نسباً عربياً خالصاً ، ولكن غيره من المؤرخين مثل الرازى وابن حبان في هذا النص يؤكدون أن جدّهم كان مولى لمعاوية ابن مروان بن الحكم ، ولعل هذا هو الصواب ، فابن حزم لم يشر إليهم بشئ في حديثه عن استقرار الأندلس من قبيلة أشجع ، ويقول المقرئ : إن شهيد بن عيسى بن شهيد كان من سبى البرابر وقيل إنه رومي ، وكان الوضاح مع الضحاك بن قيس في وقعة مرج راهط... أمداً شهيد بن عيسى فقد دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، وكان وثيق الصلة بالأخير الأموى

إلى حد نرى منه عبد الرحمن يستخلفه على قصره حينما يعزم على الخروج لإخاد ثورة عبد الغفار اليمصبي في سنة ١٥٤ (٧٧١) . ثم أسند عبد الرحمن بن معاوية إلى شهيد بعض المهام العسكرية الكبرى فأبلى فيها أحسن البلاء ، كان منها غروجه لقتال وجيه الفسائي الذي ظاهر شقيا بن عبد الواحد الدمى الفاطمي على ثورته بين سنتي ١٥٠ و ١٦٠ (٧٦٧ - ٧٧٧) (انظر : « أخبار مجموعة » ص ١١١) ، وولى القيادة كذلك في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن ، فقد أسند إليه هذا الأمير إخضاع تميم التي كان سليمان بن عبد الرحمن الداخل أخو الأمير قد أشمل فيها نار الثورة ، فأبحر المهبة بنجاح (ابن حذاري : بيان ٦٣/٢) .

وأما الحاجب عيسى بن شهيد المذكور هنا ، فإن ترجمة ابن حيان له والأخبار التي سيوردها في ثنايا هذا الكتاب تعتبر أولى ما كتب عنه ، ونحن نعرف - فضلا عن ذلك - أنه وكل إليه بعض مناصب القيادة في أثناء غزو الجوس (النورماند) لإشبيلية في سنة ٢٣٠ (٨٤٥) ، كذلك نعرف أنه ولى الكتابة والحجابة لعبد الرحمن الأوسط وسنرات من إمارة خليفته محمد ، ويحدد ابن حذاري ولايته الحجابة بسنة ٢١٨ (٨٢٣) وهي ولاية استمرت بغير انقطاع حتى وفاته سنة ٢٤٣ (٨٥٧ - ٨٥٨) . (انظر ابن الأبار : الحلة ٢٣٧/١ - ٢٣٨ ؛ ابن حذاري : بيان ٨٠/٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٧٤ - ٧٥ ؛ العلى : جغرافية ، ص ٩٩ ، ابن سمي : مغرب ٥٠/١ ؛ المقرئ : نفع ٤٥/٤) . وانظر كذلك ليني بروفسال : تاريخ ٢٨٦/١ - ٢٨٧ ؛ الأندلس في القرن العاشر ص ١٠١ - ١٠٣) . هذا وقد ولى الحجابة أيضا للأمير محمد : أمية بن عيسى بن شهيد ، وسيورد ابن حيان بخلة من أخباره في موضعه .

(١٠٥) خلة الخيل - ومتوليا يدي « صاحب الخيل » - تعنى وظيفة الإشراف على شؤون الخيل وكل ما يتصل بملازمها وأدواتها في التنظيم العسكري للجيش في ظل الدولة الأموية ، وقد كانت من أرفع خطط الدولة ، وكثيرا ما كان يتولاه قواد كبار يمهدهم بقيادة الصوائف . وقد أفادنا ابن حيان نفسه في «تغير موفج منو كتاب الليقتيس» (القطعة التي نشرها الأستاذ عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٥) بتفاصيل شائعة عن هذه الخطة ، ونفهم مما أورده في بعض هذه المواضع أن « صاحب الخيل » كان من يمهدهم بترتيب الكتاب وتنظيم المساكن (ص ٤٧) وأنه كثير ما كان يضطلع بقيادة الحملات العسكرية إلى دار الحرب (ص ٩٢) وأن مكانته في الدولة كانت تثل مكانة « صاحب المدينة » (وهو بمثابة الحاكم العام للمدينة) ، وتحت كان أصحاب الشرطة العليا والوسطى وأصحاب الخزون (في الأصل : الخزول ، ونظمتها تحريفا لمبا ذكرنا) والخزان (ص ٣٠ ، ٩٤) ، وكان مقر عمل صاحب هذه الخطة ما يعرف باسم « دار الخيل » وفيها متصرفون يعملون تحت رئاسة المظطلع بها يعرفون باسم « الوكلاء » (ص ١٥١ ، ١٨٩ ، ١٩٧) ، هذا وسوف يرد في هذا الجزء من المقتبس ما يلقى أضواء جديدة على هذه الخطة في أثناء الحديث عن بعض من قولوها .

(١٠٦) خلة النظر في المظالم أو « أحكام المظالم » من المخطط القضائية التي كان لها في الأندلس وضع خاص ليس مماثلا تماما لما جرى به العمل في المشرق ، وإذا كانت هذه الخطة قد ظهرت في عصر مبكر في دولة بني أمية بالأندلس فإن معالمها لا توضح وواجباتها لا تتحد إلا في القرن الرابع الهجري في ظل الخلافة المروانية ، ويبدو من استقراء النصوص حولها أن صاحبها كان في مرتبة أدنى من قاضي الجماعة (الذي يقابل قاضي القضاة في المشرق) ، وأنه على الرغم من ذلك كان ينظر في القضايا الباجلة التي لا تحتل بطء الإجراءات القضائية العادية وتمقيدها ، وتصور لنا حدود هذه الوظيفة قصة يروها ابن حذاري (البيان ٣١٠/٢ - ٣١١) يذكر فيها أن رجلا من العامة وقف عليه بمجلسه فاستصرخه على أحد الفتيان والصقالة الذين كانوا يقفون على رأسه فقال : إنه ظلمه في معاملة كانت بينهما وأنه دهأه إلى القاضي فلم يأت (وكان القاضي

هو عبد الرحمن بن فليس) فغضب المنصور ولام قاضي الجماعة على تهاوته ثم أمر فتاه بأن ينزل ويساوى خصمه الشاكي في المقام ، وأمر صاحب شرملة بأن يحمل الرجلين إلى « صاحب المظالم » حتى ينظر في القضية وينفذ فيها حكمه ، وكثيراً ما كان « النظر في المظالم » يضم إلى اختصاص قاضي الجماعة كما نستخلص من بعض تراجم القضاة . (وانظر في هذه الخطة كتاب ليثى بروفنسال : تاريخ ١٤٥/٣ - ١٤٧) .

(١٠٧) الصوائف (جمع صائفة ، مشتقة من « الصيف ») . هي الحملات التي جرت عادة أمراء بني أمية وخلفائها على توجيهها إلى « دار الحرب » خلال فصل الصيف . وقد استقر تقليد هذه الحملات حتى أصبحت وظيفة ثابتة يعهد بها إلى أحد القواد الكبار أو إلى واحد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وكثيراً ما كان الأمير أو الخليفة نفسه هو الذي يضطلع بقيادتها ، وكان الاستعداد لها يبدأ في شهر يوثيه ، وكانت قيادة الجيش تتكتم دائماً أخبار الطريق الذي ستتجه حلة الصائفة حتى تكون غريباتها مفاجئة للعدو ، وقد وافتنا المراجع الأندلسية بكثير من التفاصيل حول هذه الحملات وفي القطع المنشورة من « مقتبس » ابن حيان وفي هذه القطعة مادة طيبة حول الصوائف التي أصبحت على طوال أيام الدولة الأموية وفي ظل العامين بعدهم تقليداً محترماً سنوياً . وقد بقى لفظ « الصائفة » في اللغة الإسبانية بعد أن انتقل إليها من العربية في صورة « aceifa » .

(١٠٨) أفادنا ابن حيان في هذه الصفحات التي يفردها لتراحم وزراء الأمير عبد الرحمن وحجابه وفي كثير من القصص التي سترد بعد ذلك في معرض الحديث عن وزراء الأمير محمد بتفاصيل جديدة كثيرة حول النظم الإدارية وخطوط الدولة العليا في ظل أمراء بني أمية . فنحن نرى في هذه الترجمة الخاصة بعيسى بن شهيد كيف كانت خطتنا الحجابة والوزارة وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم هو أول من فخم الدولة ورتب رسومها وأزينها كما ينص على ذلك ابن حيان بعد قليل ، ويقول ابن خلدون في الكلام عن خطة الوزارة بالأندلس : « وأما دولة بني أمية بالأندلس فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المسالك وزيراً ، وللترسيل وزيراً ، وللتنظر في حوائج المتظلمين وزيراً ، وللتنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً ، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منقصة لهم ، وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له ، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم » (المقدمة ، ط . المكتبة التجارية الكبرى ، بدون تاريخ ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠) ، فوظيفة الحاجب التي يتحدث عنها ابن حيان هنا في ترجمته لعيسى بن شهيد هي التي تقابل في اصطلاحنا الحديث « رئيس مجلس الوزراء » (انظر كذلك عن هذه الوظيفة ليثى بروفنسال : تاريخ ١٨/٣ - ٢٢ ؛ والدكتور أحمد مختار المبادئ : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية سنة ١٩٦٨ ، ص ١٤٢ وما بعدها) .

(١٠٩) أسرة بني رستم التي ولي بعض أفرادها الوزارة والقيادة والحجابة للأمويين في الأندلس تنتهي إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي مولى النعمان بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وهو مؤسس الدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط (جمهورية الجزائر الحالية) ، وكانت هذه الدولة تدين بتعاليم الإباضية إحدى فرق الخوارج ، ونحن نعلم أن العلاقات بين هذه الدولة الخارجية المذهب والأمويين أصحاب قرطبة كانت تتميز دائماً بالمودة والصداقة ، على الرغم من تمسك الأمويين بمذهب أهل السنة ونفورهم من جميع البدع المذهبية ، فقد كان أمراء قرطبة يحكم عداوتهم للعباسيين وعالمهم الأغلبية في أفريقية ولدولة الإدارة

الشيعة في المغرب الأقصى يرون من السياسة أن يؤيدوا الرستميين الخوارج ويظاهروهم على جيرانهم أعداء الأمويين التقليديين . وفي سنة ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) قدم على عبد الرحمن بن الحكم بقرطبة بنو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت فاستقبلوا استقبالاً فخماً أنفق فيه الأمير الأندلسي ألف ألف دينار (على ما يذكر ابن سعيد في المغرب ١/ ٤٨) ، ويبدو أن بعض بني رستم قد استقروا منذ هذا التاريخ في الأندلس ، بل إن صلّتهم بهذه البلاد قد تكون سابقة لهذا التاريخ ، فابن الأبار يذكر أن أول من دخل الأندلس منهم هو سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم حفيد منشئ الدولة ، واتصل ابنه محمد بن سعيد بعبد الرحمن بن الحكم قبل ولايته بالإمارة وحينما كان يلبى لأبيه الحكم عمل شذونة في جنوب الأندلس ، واستقر محمد هذا في ناحية الجزيرة الخضراء ، فلما ولي عبد الرحمن الإمارة اصطلمه واستقدمه وتصرف له في الوزارة والقيادة وغيره من مخططات الدولة . وفي سنة ٢١٤ (٨٢٩) عهد إليه عبد الرحمن بحكم الثغر الأدنى (طليطلة) حينما نشبت ثورة هاشم الضراب ، ثم كتب إليه الأمير يمنعه ويمنه بالتقصير في محاربة هذا الثائر ، فتقدم ابن رستم والتقى بهاشم ، ووقعت حرب شديدة أبلى فيها ابن رستم غير البلاء حتى هزم هاشم وقتل آلافاً من معه (ابن عذاري : بيان ٢/ ٨٣) ، وكان ابن رستم المذكور أحد القواد الذين صدوا هجمات المحوس (النورمانديين) عند نزولهم بإشبيلية سنة ٢٣٠ (٨٤٤ - ٨٤٥) (ابن عذاري بيان ٢/ ٨٧ - ٨٨ ؛ العذري : جغرافية ص ٩٩ - ١٠٠) وقد توفي محمد بن سعيد بن رستم المذكور - على ما سيذكر ابن حيان نفسه بعد قليل حينما يتحدث عن الوفيات في عهد عبد الرحمن - في سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) . ويذكر ابن الأبار - نقلاً عن الرازي - أنه كان أديباً حكيماً شاعراً لاعباً بالشطرنج .

أما عبد الرحمن بن رستم الذي يذكر ابن حيان في هذا النص أنه ولي الوزارة والحجابة فترة ما فقد رجح لي بروفنسال أن يكون ابناً أو أخاً لمحمد بن سعيد بن رستم المذكور آنفاً . (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢/ ٣٧٢ - ٣٧٣ ؛ ليبي بروفنسال : تاريخ ١/ ٢٠١ ، ٢٢٣ - ٢٢٤ ، ٢٤٦ ، ٢٧٠ ؛ وعن الرستميين انظر دائرة المعارف الإسلامية تحت هذه المسادة ؛ وكذلك مقال الأستاذ محمد بن تاروت : " دولة الرستميين أصحاب تاهرت " في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص ١٠٥ - ١٢٨ ، وانظر بصفة خاصة ص ١١٦ ، حاشية ٣)

(١١٠) Baena بلدة تقع على بعد ٦٤ كيلو متر إلى الجنوب الشرق من قرطبة ، وكانت قديماً من أعمال مدينة قبرة Cabra (انظر ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ٥٩ من النص و ٧٤ من الترجمة الفرنسية والحاشية الواردة في هذا المرجع) .

(١١١) هو عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، وأبوه عبد الحميد بن غانم كان رأس أسرة اشتهر كثير من أفرادها وتولوا أرق المناصب في الدولة الأموية . وكان عبد الحميد بن غانم من موالى عبد الرحمن بن معاوية الداخل ومن كبار رجالات دولته ، وأهدى إليه هذا الأمير جارية كانت له ثم وقعت في أسر أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف الفهري عند هجومه على قرطبة أثناء الحرب الدائرة بينه وبين عبد الرحمن بن معاوية في سنة ١٣٨ (٧٥٦) ، فلما استنفذها الأمير الأموي كرها فأهداها إلى عبد الحميد بن غانم ، فهي أم ولده عبد الرحمن المذكور هنا . وعهد إليه الأمير الداخل بقيادة فرق الرجال ، كما أسند إليه بعض المهام العسكرية الكبرى مثل تكليفه إياه بالقبض على يحيى بن يزيد بن هشام اليزيدي الثائر على الأمير عبد الرحمن (انظر « أخبار مجموعة » ص ١٠٩ - ١١٠) .

أما عبد الرحمن بن عبد الحميد فقد ولى الوزارة والحجابه للحكم بن هشام ثم لابنه عبد الرحمن خلال فترة قصيرة كما يذكر ابن حيان هنا ، وسوف يذكر هذا المؤرخ عند كلامه عن الوفيات أنه مات في الحبس سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ، ولنا نعرف الظروف التي أحاطت بنكبة عبد الرحمن بن غانم حتى أدت به إلى الوفاة في الحبس .

على أننا سنرى في الجزء الخاص بالأمير محمد أن ابنه وليد بن عبد الرحمن بن غانم كان مقربا من الأمير فولى عدة مناصب كبرى ، منها خطنا المدينة والوزارة وقيادة الجيوش ، وكذلك ابنه محمد وعبد الرحمن اللذان ارتفع شأنهما في أيام عبد الله ابن محمد وحفيده عبد الرحمن الناصر أول خلفاء الأندلس .

انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، وانظر عن بني غانم عامة ابن الأبار : حلة ١/١٤١ ، ١٦٢ ، ٣٧٤/٢ .

(١١٢) يختلف ما نقله ابن حيان عن ابن القوطية هنا عما نراه في النص المنشور لهذا الكتاب (تاريخ ص ٦٢) ، إذ نجد فيه أن عيسى بن شهيد إنما حجب للأمير محمد نحو العامين فقط . والذي ذكره ابن حيان هو الصواب . ونكرر هنا ما سبق أن أشرنا إليه من التنبيه على أن النص المنشور لابن القوطية لا يمثل الكتاب الحقيقي الذي ألفه هذا المؤرخ والذي ينقل عنه ابن حيان . (راجع تعليقنا السابق رقم ٥٠) .

(١١٣) أحمد بن محمد المذكور هنا هو الجفرائي المؤرخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي صاحب التاريخ الذي يعتمد ابن حيان كثيرا عليه . وسوف نعلق عليه في موضعه .

(١١٤) هو العباس بن عبد الله بن عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم المرواني القرشي . وجده عبد الملك بن مروان هو الداخل إلى الأندلس قادما من مصر على عبد الرحمن بن معاوية الداخل سنة ١٤٠ (٧٥٧ - ٧٥٨) ، وكان قد أتى في عشرة من بنيه هاربا من اضطهاد العباسيين وتنكيلهم بقايا الدولة الأموية في المشرق . فولاه عبد الرحمن على إشبيلية ، وولى ابنه عبد الله - والد المذكور هنا - على مورور Moron ، وأغنى كلاهما في حرب يوسف بن عبد الرحمن القهري المنازع لعبد الرحمن بن معاوية في السلطنة ، ولما زحف أهل إشبيلية على الأمير الأموي طالبن بشار أبي الصباح اليحصبي أبل عبد الملك بلاء حسنا في قتالهم ، وكذلك ابنه عبد الله ، فأحفظاه عبد الرحمن وزوج ابنته كنزة من ابنه هشام ولى عهد الأمير وقدمه واستوزر أبناءه عبد الله وإبراهيم وحكما . (انظر « أخبار مجموعة » ص ٩٦ - ٩٩ ، ابن الأبار : الحلة السيرة ٣٦/١ - ٣٨ ، ٥٦ - ٥٧ ، ٦٠ ، ابن عذاري : البيان ٢/٤٩ ، المقرئ : نفع ٤/٥٩ - ٦٠) .

أما العباس بن عبد الله القرشي أو المرواني فقد تقلب كذلك في كثير من مناصب الدولة الكبرى ، إذ ولاه الأمير هشام بن عبد الرحمن على باجة Beja على ما نستخلص من نص لابن القوطية (ص ٤٥) ، ونبه هنا إلى أن الاسم ورد في النص المطبوع « العباس بن عبد الله المروزي » وهو تحريف صوابه « المرواني » ، ثم ولى الوزارة وقيادة الجيوش كذلك للحكم بن هشام الربضي (ابن عذاري : بيان ٢/٦٨ ، ابن الخطيب : الإحاطة ، بتحقيق الأستاذ عنان ١/٤٨٧) ، وقد روى الخشني عنه أخبارا تدل على مكانته العظيمة لدى الحكم بن هشام (انظر كتاب القضاة ص ٤٧ - ٤٨ ، ٥٢ ، وكذلك النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٦ - ٤٧ ، ١٩٣ ، وأخبار مجموعة ص ١٢٧) . وقد ظل على القيادة والوزارة في عهد

عبد الرحمن الأوسط بن الحكم حتى وفاته سنة ٢١٩ (٨٣٤) كما سيذكر ابن حيان في باب الوفيات . وقد أورد ابن حزم في الجهمرة (ص ١٠٧ - ١٠٨) نصا طريفا عن هذه الأسرة عدد فيه كثيراً من أسماء من اشتروا منهم طوال أيام الدولة الأموية والمعتبين منهم حتى عصره . وسيورد ابن حيان في هذا الجزء من المقتبس أخبار بعض هؤلاء سنعلق على كل واحد منهم في موضعه . هذا ونلاحظ أن الخشني في بعض المواضع من كتابه والنباهي يذكران العباس المترجم له هنا باسم « العباس بن عبد الملك » لا عبد الله كما هي صحة الاسم ، مما يشكك في أن المذكور في تلك المواضع شخص آخر ؛ ولكن ينبغي ألا يتوهم شيء من ذلك ، فهذان المؤلفان إنما ينسبانه في تلك المواضع لجدّه عبد الملك لا لأبيه ، ولعل ذلك لشهرة عبد الملك بن عمر المرواني مؤسس هذا البيت من بيوت الرياسة المروانية في الأندلس .

(١١٥) الوليد بن عبد الله القرشي المذكور فيما يغلب على ظننا هو أخو العباس بن عبد الله الذي أسلفنا الحديث عنه في التعليق السابق .

(١١٦) هو عبد الرؤف بن عبد السلام بن إبراهيم بن يزيد بن عبد الله بن جابر بن عمر بن أيوب مولى مروان ابن الحكم ، كان من كبار رجالات الخوارج الأمويين بالأندلس ، وكان جده الأكبر عبد الله بن جابر قاضيا لعمر بن عبد العزيز بالشام ، وأول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبد السلام بن إبراهيم وأخوه أبو المفوز وعقبة ، فتنازلوا بها وخدعوا أمراء بني أمية وتصرفوا في الولايات ، وكان أبو الدلهات عبد السلام أمينا للأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل بكورة إلبيرة . أما عبد الرؤف المذكور فتدلى طليطلة ونواحيها للأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط سبعة أعوام وتصرف في غير ذلك من الكور ، ثم استوزره عبد الرحمن في أخسر أيامه ، واستوزره الأمير محمد بن عبد الرحمن أيضا ، وتوفي في أيامه وهو وال للوزارة ، وسنرى من حديث ابن حيان بمناسبة ولاية الأمير محمد أنه كان يلقب بالبواب ، إذ كان يتولى حراسة باب الجنان من أبواب قصر قرطبة القبلية (أي الجنوبية) في أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، وقد رأى الأمير محمد في تلك القصة من أمانته وضبطه ما جعله يقره على عمله حينما ولي مقاليد الحكم في سنة ٢٣٨ (٨٥٢) . (انظر كذلك ابن القوطية : تاريخ ص ٨١ - ٨٢) . وكان للرية عبد الرؤف هذا مكانة عالية في الدولة الأموية . فقد ولي ابنه عبد الوهاب الكور المحتلة وغيرها في أيام الأمير محمد وابنيه المنذر وعبد الله وتوفي بإشبيلية وهو عامل عليها . (انظر ابن الأبار : الحلة ٢٤٠/١ - ٢٤١) ، كذلك نعرف ما ذكره ابن حيان نفسه في القطعة الخاصة بإمارة عبد الله من كتاب المقتبس (ص ٥٠ - ٥١) أن عمر بن حفصون الثائر بكورة ريه كان قد أظهر الانقياد والطاعة في أول ولاية عبد الله ابن محمد ، فقبل منه الأمير سنة ٢٧٥ « ٨٨٨ » وسجل له على عمل كورة ريه ولكنه أشرك معه في حكمها عبد الوهاب بن عبد الرؤف المذكور ، وتظاهر عمر بن حفصون بالقبول ولكنه لم يلبث أن عاد إلى النكث وخلع الطاعة وطرد عبد الوهاب وتفرد بكورة ريه . ونعرف كذلك من أخبار هذه الأسرة ما يذكره صاحب القطعة مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر عن محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤف ، إذ يذكر أن أول غزوة غزاها عبد الرحمن سنة ٣٠٠ (٩١٢) كانت إلى حصن المتلون الذي كان الثائر سعيد بن هذيل محتصا به ، فغضب عبد الرحمن عليه الحصار ومازال به حتى استأمن ابن هذيل وأسلم الحصن بعد أن أرقه الحصار ، فقبل منه عبد الرحمن وولى على الحصن عاملا من قبله هو محمد بن عبد الوهاب المذكور (انظر ص ٣٦ من النص العربي و ٩٩ من الترجمة الإسبانية) . ويزيدنا ابن الأبار أن محمد بن عبد الوهاب ولي كورة جيان ومات بها . وأخيرا نعرف من أفراد هذه الأسرة الوزير أبا وهب عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب

ابن عبد الروثوف الذي اختصه ابن الأبار بترجمة طويلة ذكر فيها أن عبد الرحمن الناصر استوزره وصرفه في الولايات وكان بصيراً بالعربية والنحو ، شديد التكبر ، وأورد جملة من شعره (الحلقة ١/٢٤٠ - ٢٤٤ ؛ الزبيدي : طبقات النحويين والقنوين بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٢١) . كذلك ترجم ابن الأبار لأخيه غالب بن محمد بن عبد الوهاب الذي ولي خطة العرض وكان كاتباً للحكم المستنصر قبل أن يلى الخلافة ، وأورد قطعاً من شعره (الحلقة ١/٢٤٤ - ٢٤٥) . وانظر عن هذه الأسرة بوجه عام لى يروفسال : الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٣ .

(١١٧) عن أسرة بنى السلم انظر تعليقنا السابق رقم ٧ .

(١١٨) عن أسرة بنى بسيل انظر تعليقنا السابق رقم ١٩ .

(١١٩) عن عبد الواحد بن يزيد الإسكندراى انظر التعليق رقم ١٢ .

(١٢٠) لاشك في أن عبد العزيز بن هاشم المذكور هنا هو والد الوزير المشهور هاشم بن عبد العزيز الذي كان أكثر وزراء الأمير محمد خنقوة لديه وقرباً منه وأخيه أسلم بن عبد العزيز الذي ولي قضاء الجماعة لعبد الرحمن الناصر . وقد اختلف المؤرخون في نسب هذه الأسرة المشهورة على ما سنقصله بعد عند التعليق على اسم هاشم بن عبد العزيز ، ويبدو لنا أنها من رسل عبد الله بن خالد الذي كان من أعظم أعوان عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند قدومه إلى الأندلس وسيرد فيما بعد أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسعاد .

(١٢١) هو أبو الحجاج يوسف بن بخت الفارسي مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، دخل الأندلس في طالعة بلج ابن بشر القشيري سنة ١٢٣ (٧٤١) ، وكان من رؤساء الموالى الأمويين بكورة دمشق (أى إليرة *Elvira*) هو وعبيد الله ابن عثمان وعبد الله بن خالد ، وكانوا قد حضروا واقعة شقندة *Secunda* مع يوسف بن عبد الرحمن الفهري والصميل بن حاتم ، وكان لهم فيها بلاء عظيم ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ، ولما ترددت الأنباء بعزيمة عبد الرحمن بن معاوية على الجواز إلى الأندلس ووقد سفراؤه إلى هذه البلاد انضم يوسف بن بخت إلى هذه الدعوة وكان من القائمين بأمر عبد الرحمن المروحين لدعوته ، وهو الذي أخذ له بيعة جند الأردن (ريه أو مالقة *Malaja*) . ولما هاجم عبد الرحمن البحر أقبل عليه عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، فنقلوه إلى قرية طرش *Torrox* منزل أبي الحجاج يوسف بن بخت وأثناء هذا ، فانثالت عليه الموالى الأموية كلها ، وعرف له عبد الرحمن فضل سابقته بمد أن تمهد له الأمر ، ففلاه حجابته ، وكان يستغلله على قصر قرطبة عند غيابيه ، ولما مات عبد الرحمن الداخل وخلفه ابنه هشام ظل قريب المكانة منه ، فشهد إليه الأمير ببعض مناصب القيادة ، فكان هو قائد الحملة التي توجهت إلى جليقية في سنة ١٧٦ (٧٩٢) ، فالتق ببرمود *Vermudo* الملقب بالكبير ملك جليقية وأشتوريش وألحق به هزيمة ساحقة ، وبلغ النور في هذه الغزوة على ما يذكر بعض المؤرخين ٣٩,٠٠٠ (كذا) وفيه مبالغة كبيرة بغير شك) . وتوفى بعد ذلك بطليطلة في تاريخ لا نعرفه على وجه التحديد .

وكان ليوسف بن بخت ذرية ناهية أولها ابنه جهور بن يوسف الذي كان وزيراً للأميرين الحكم بن هشام الريفى

وابنه عبد الرحمن ، ويسميه صاحب « أخبار مجموعة » (شيخ الوزراء) في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى على ما سيذكر ابن حيان في باب الوفيات في سنة ٢١٩ أو ٢٢٠ (٨٣٤ - ٨٣٥) .

والذي ورد في النص من أن « يوسف بن بخت » كان من وزراء عبد الرحمن بن الحكم يبدو لنا أمراً عسيراً على التصديق إذ هو يقتضى أن يكون عمر أبي الحجاج يوسف قد طال حتى جاوز المائة بكثير ، وهو شئ لو كان صحيحاً للاحظه أحد ممن تحدثوا عنه ومجلوه ، ثم إننا لم نر أحداً من المؤرخين أثبت كونه وزيراً لعبد الرحمن الأوسط - فيما عدا النص الذي بين أيدينا - إلا ابن القوطية في تاريخه (ص ٦٢) ، بينما تقف الأخبار التي جمعناها عنه عند غزوته السالفة الذكر لجليقية في سنة ١٧٦ (٧٩٢) . وأرجح الظن عندنا هو أن هناك سهواً من الناسخ في هذا المكان - فنحن نحسن الظن بمؤرخنا ابن حيان وبمرجمه في هذا الموضع وهو أحمد بن محمد الرازي ، وكلاهما من أهل الضبط والتحقيق - وأن المقصود هنا ليس يوسف ابن بخت وإنما هو ابنه جهور بن يوسف بن بخت الذي توفى كما ذكرنا بين سنتي ٢١٩ و ٢٢٠ ، لا سيما وأن سائر المراجع تذكر جهور بن يوسف المذكور بين وزراء الأميرين الحكم وابنه عبد الرحمن . (انظر في أخبار يوسف بن بخت وابنه جهور أخبار مجموعة ص ٦٦ ، ٧٦ ، ٨٥ ؛ ابن القوطية ص ٢٣ ، ٣٨ ، ٦٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٤٥٢ - ٤٦ ، ٤٦ ، ٦٣ - ٦٤ ؛ ابن الأبار : الحلة ٣٧٥/٢ ، المقرئ : نفح ٣١٦/١ ، ٣١/٤ ، ٤٥ ، ٥١ ؛ ليلى بروفنسال : تاريخ ١٤٣/١ ؛ حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٢٣٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨) . وقد توارث بنو جهور البختيون هؤلاء مناصب الوزارة وكبريات الخطط لأمرأى بئى أمية وخلفائهم كما سوف نرى عندما يعرض ابن حيان في هذه القطعة نفسها لنفر منهم .

(١٢٢) سوف يترجم ابن حيان لعبد الله بن أمية هذا ترجمة مفصلة في معرض الحديث عن كتاب الأمير محمد .

(١٢٣) هو حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة حسان بن مالك بن عبد الله بن جابر ، وكان عبد الله بن جابر مملوكاً لمروان ابن الحكم أبلي يوم مرج راهط بلاط حسنا في صفوف الجيش المرواني مما خلل مروان على أن يمين عليه بإعتاقه ، وكان أول من دخل الأندلس من هذه الأسرة هو أبوه عبدة حسان بن مالك جد المذكور هنا ، دخل سنة ١١٣ (٧٣١) ، وكان له أولاد قتلوا بالشرق ، لم يبق منهم إلا عبد الغافر لصغر سنه ، فنشأ في المشرق مع عبد الرحمن بن معاوية وتأدب معه ، فلما قدم بدر مولى عبد الرحمن إلى مواليه الشاميين بالأندلس لتهديد أمره في هذه البلاد استراح بخبره إلى أبي عبدة فاستجاب له على الفور ، ووجه ابنه عبد الغافر إلى عبد الرحمن وأيده على أمره . فلما توطد الملك للدخول استوزر أبا عبدة وقدمه على جيوشه ، ثم استعمله على إشبيلية قائداً بها ، وعهد إليه بالتصديق على أهل باجة الثائرين على سلطته ، وأبدى أبو عبدة كفاية وحزماً وانقاد له غرب الأندلس كله فظل يحكم هذه الرقعة خمسة أعوام حتى توفي بإشبيلية . أما عبد الغافر بن أبي عبدة والد الوزير المذكور هنا فإنه تصرف في الوزارة كذلك لعبد الرحمن ، ثم عهد إليه الأمير هشام بن عبد الرحمن عند ولايته بقيادة الشرطة ، ويبدو أن عمره طال حتى أدرك إمارة الحكم بن هشام الرضي فكان صاحب أختامه ، وهي وظيفة استقل بها من قبل في عهد هشام بن عبد الرحمن . وكان أخوه عبد العزيز يشرحه أيضاً في الوزارة للحكم الرضي .

عن أبي عبدة حسان بن مالك انظر ابن عذارى : بيان ٤٨/٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٣٨ ، أخبار مجموعة ص ٧٦ . المقرئ : نفح ٤٥/٤ ؛ ابن خلدون : المعبر ٣٤٣/٤ ؛ والدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٤٠٩ .

وقد تكاثرت سلالة الوزير أبي عبدة وأبنائه في الأندلس وتولى الكثيرون منها أعلى مناصب الدولة ، على أنهم من الكثرة بحيث لا نستطيع استيفاءهم في هذا التعليق ، وما يزيد في عسر الأمر أن المؤرخين الذين أشاروا إليهم يكتفون برفع أنسابهم إلى أبي عبدة دون تحديد لشجرات النسب وتسلسله مما لا يمكننا من التعرف على مدى قرابة بعضهم لبعض . ويكفى أن نذكر هنا أن ابن حيان في الجزء الخاص بالأمير عبد الله من كتاب « المقتبس » (نشر أنطونيا ، ص ٥ - ٦) يقول : « ومن الغريب أن اجتمع في بيت الوزارة في أيامه أربعة رجال من وزرائه أقارب من بيت واحد من صميم الموالي آل أبي عبدة حسان بن مالك هم : أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة ، وأبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى بن أبي عبدة ، وسالم ابن علي بن أبي عبدة ، وعبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف بدحيم » . وقد كان أشهر هؤلاء القادة أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة الذي يعتبر من عباقرة القادة العسكريين والذي ظل طيلة أيام الأمير عبد الله يتردد بالحملات على الثائرين والناكثين بغير انقطاع ، فلما مات الأمير عبد الله وخلفه حفيده عبد الرحمن ظل في خدمته ومازال يتردد بالحملات حتى استشهد أخيراً في سنة ٣٠٥ . (٩١٧) في موقعة قاشتره مورشي Castro muros بعد أن أبلى أعظم البلاء وبل القائد أبا العباس في الشهرة أبو عثمان عبيد الله بن محمد بن الفمر بن يحيى بن عبد الغافرين أبي عبدة الذي تصرف للأمير عبد الله بن محمد في الكور وحجابه الأولاد والمدينة والخييل والقيادة ، واستأذن في الحج فأدى الفريضة وعاد فلزم داره وخل ذكره بعد ذلك بتدبير من يدر بن أحمد الخصى الصقل وصيف الأمير ، وقد ولي كورة جيان وظل يتردد بالحملات على الثوار ، وكان له فضل بناء كثير من الحصون منها حصن أندوشر Andushar ، وقد روى لنا ابن حيان في المقتبس كثيراً من أخبار حملاته (الحلة السراء ١٤٦/١ - ١٤٧ ، المقتبس ، نشر أنطونيا ص ٦ ، ٤٨ ، ٥١ - ٥٢ ، ٩٤ - ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٦) ، وكانت وفاته في سنة ٢٩٦ (٩٠٩) .

ولاسم عبيد الله بن محمد الفمر المذكور أهمية خاصة في التاريخ الأندلسي ، إذ من صلبه ينحدر الرئيس أبو الحزم جهور أول ملك من ملوك الطوائف في قرطبة ومؤسس دولة إلهيورة التي حكمت عاصمة الأندلس القديمة بعد انتشار سلك الدولة المرورية . فأبو الحزم جهور هو ابن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد المذكور .

ونود بهذه المناسبة أن نصصح خطأ في نسب بني جهور وقع فيه بعض المؤرخين القدماء وأوقع في اللبس والاضطراب كثيراً من الباحثين ، فالنسب الذي أوردناه هو الصحيح وهو الذي أثبتته ابن حيان نفسه (كما ينقل عنه ابن بسام : اللخيرة ، القسم الأول : الجزء الثاني ص ١١٧) ، وهو الذي اتفق عليه كذلك ثقات المؤرخين القدماء قريبا العهد بملك الأسرة الإلهيورية ، مثل الحميدى (جلوة المقتبس : ترجمة رقم ٣٥٨ ص ١٧٦ وكذلك ص ٢٦ وأغلب الظن أنه ينقل في هذا الموضع - كما ينقل في كثير من صفحات كتابه - عن أستاذه ابن حزم وهو ما هو من الضبط والمعرفة الدقيقة بأنساب رجال الدولة المرورية وأخبارهم ، ومن الحميدى ينقل الضبي في بنية الملتبس ص ١٣ و ص ٢٤٣ - ٢٤٤ ، ترجمة رقم ٦٢٣ ، وعبد الواحد المراكشي في المعجب ص ٥٧) ، وابن بشكوال في كتاب الصلة (ترجمة رقم ٢٩٧ ص ١٣٢) ، وابن الأثير في الحلة (٢٤٥/١) ، وهو ينقل هذا النسب عن كتاب أحمد بن محمد بن موسى الرازي « الاستيعاب » في أنساب موالى بني أمية) ، ولكننا مع ذلك نطالع في كتابي « البيان المغرب » لابن عذاري المراكشي و « أعمال الأعلام » لابن الخطيب نسباً مغايراً لما ذكرنا . أما ابن عذاري فيذكر نسب أبي الحزم جهور أول ملوك دولة بني جهور في قرطبة على النحو التالي :

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة » (البيان ٣/ ١٨٥) .

ولو قارنا بين الجدول الأول الذى أثبتناه (عن ابن حيان والحسيدي - أو ابن حزم - وابن بشكوال والرازي) وبين جدول ابن عذارى (ولستأ ندرى من أين نقله فهو لا ينص على مصدره هنا) لوجدنا أن ابن عذارى أضاف إلى سلسلة النسب الأولى خمسة أسماء لا أقل وهى : « عبد الملك بن جهور » الذى وضعه بين جهور الأكبر وعبيد الله (وهو هنا يحرف الاسم كذلك إلى عبد الله) ، ثم « أحمد » بين عبيد الله المذكور ومحمد ، وأخيراً « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبي عبدة .

ويضيف ابن عذارى إلى ذلك توضيحاً يقول فيه إن جده بخت بن أبي عبدة كان من الفرس مولى لعبد الملك بن مروان ، ودخل يوسف بن بخت إلى الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بمدة وكان أحد كبار الموالى بقرطبة . (البيان ٣/ ١٨٥-١٨٦) .

أما ابن الخطيب فهو يذكر هذا النسب على النحو التالى : « أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة » (أعمال الأعلام ص ١٤٧) ، ثم يضيف كلمة عن دخول جدهم « يوسف بن بخت بن أبي عبدة إلى الأندلس وعظيم أثره وسعة بابه » . . إلى آخره . وبأمل هذا الجدول نرى أن ابن الخطيب كان أكثر « تواضعاً » ، فهو لم يزد على سلسلة النسب التى أوردناها أولاً إلا ثلاثة أسماء : « أحمد » ابن عبيد الله ومحمد ، ثم « يوسف بن بخت » بن عبد الغافر وأبي عبدة .

وقد بدا أمر هذا النسب الملتف المعقد مشكلة أمام الدكتور حسين مؤنس حينما رأى ابن الأبار يترجم فى الحلة السيرة (٣٧٥/٢) للوزير محمد بن عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت ، فعلق على هذا النسب قائلاً : « يلاحظ التناقض بين ما يذكره ابن الأبار هنا من أن جهور من أحفاد يوسف بن بخت وما قاله قبلاً من أن الجهاورة من أحفاد حسان بن مالك المعروف بأبي عبدة . وإلى أن نتمر على الجزء الأول من تلويح ابن حيان لن نستطيع القطع فى الموضوع » . (حاشية رقم ١) .

ويبدو لنا أن الدكتور حسين مؤنس - وهو بدوره مؤرخ واع مدقق - لم يكتب هذا الكلام عما ساء « تناقض » ابن الأبار إلا وفى ذهنه سلسلتا النسب اللتان أوردتهما ابن عذارى وابن الخطيب ، وإلا فإن الأبار لم يتناقض فى شيء ، فهو لم يذكر أبداً أن لأسرة يوسف بن بخت أدنى صلة بالجهاورة الذين قدر لهم أن يحكموا قرطبة . أما ما يقوله الدكتور مؤنس من أن علينا أن ننتظر حتى نتمر على الجزء الأول من تاريخ ابن حيان حتى نستطيع القطع فى الموضوع فإن الأمر أيسر مؤونة من هذا ، وفى وسعنا أن نقطع فيه دون حاجة إلى هذا الانتظار ، بل يكفينا أن نتأمل ما تجمع لنا من أخبار هذه النسبة من المراجع ونقارن بينها ونقوم هذه الأخبار بما تستحقه من ثقة .

فن الواضح بعد ما نقلناها أن هناك بيتين من كبار بيوتات الموالى الأمويين وجدوا فى الأندلس منذ عصر مبكر : هما بيت يوسف بن بخت الفارسمى مولى عبد الملك بن مروان بن الحكم ، الداخلى فى طالمة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٢ (٧٤١) (انظر تمليقنا السابق رقم ١٢١) ، وبيت أبي عبدة حسان بن مالك الداخلى إلى الأندلس فى سنة ١١٣ (٧٣١) ، وقد كان لمؤسسى هذين البيتين دور كبير فى تمهيد دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخلى عند قدومه إلى الأندلس وبلاء عظيم فى توطينه

دعائم الدولة المروانية والكفاح ضد الثائرين بها الساعين لتقضيها ، مما جعل عبد الرحمن يصطنع كلا الرجلين ويختصهما بثقته ، ومضى ذلك تقليداً في أسرته فجرى أمراؤها على اصطناع رجال من بنى أبي عتبة وبنى بخت حتى نهاية دولتهم تقريبا . وهما أسرتان مختلفتان متميزتان تماما ، ولكن تصادف أن تسمى أفراد من كليهما باسم جهور ، أولهم جهور بن يوسف بن بخت ثم حفيد هذا : جهور بن عبد الملك بن جهور البختي ، وكلاهما تولى الوزارة ، أما الأسرة الثانية : بيت أبي عتبة فأول من تسمى فيها باسم جهور هو ابن عبيد الله بن محمد بن النعمان ، وتبعه حفيده أبو الحزم جهور أول من ولي ملك قرطبة بعد انفراط عقد الدولة المروانية ومنشئ دولة الجهاورة .

وكان هذا الاتفاق في اسم (جهور) بين أفراد من البيتين هو الذي جعل الأمر يختلط ويلتبس على ابن عذارى وابن الخطيب فيخلطان في نسب الجهاورة هذا التخليط الغريب ، فابن الخطيب يقحم اسم يوسف بن بخت بين عبد الغافر وأبي عتبة ، ويجعل بختا ابن أبي عتبة ، ثم يمضي متحدثا عن يوسف المذكور وأعماله ، فضلا عن إقحام اسم « أحمد » في موضع آخر ، ولذلك علة هو أنه وجد في بيت بنى أبي عتبة أجداد الجهاورة اسم مشهور الذكر طاهر الصيت هو القائد أحمد بن محمد بن عيسى ابن أبي عتبة الذي كان أعظم قواد الأمير عبد الله بن محمد وعبد الرحمن الناصر من بعده ، ولعله أعظم من أنجبهم الأندلس من القادة العسكريين على الإطلاق ، فلم ير ابن الخطيب بأسا في أن يقحمه في سلسلة النسب التي أوردها . أما ابن عذارى فقد كان تخليله أشد ، فهو فضلا عن الأسماء التي أقمعها موافقا ابن الخطيب فيها أضاف من حصيلته اسمين آخرين هما « عبد الملك بن جهور » ولا شك في أن ذلك راجع إلى أن من بين البختيين وزيرا أشتهر في أيام الأمير عبد الله بن محمد هو « جهور بن عبد الملك » وابنا له يدعى عبد الملك بن جهور ولي الوزارة لعبد الرحمن الناصر ، فلم ير ابن عذارى بدوره بأسا - وقد اختلط عليه أمر الأسرتين - في أن يضيف « عبد الملك بن جهور » إلى جدول نسب بنى أبي عتبة .

هذا وقد وقع لي بروفنسال في هذا الخلط أيضا حينما نسب بعض وزراء عبد الرحمن الناصر البختيين إلى بنى أبي عتبة (انظر كتابه الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٠ - ١٠١) .

(١٢٤) جاء في النص المنشور من كتاب ابن القوطية موجز هذه الفقرة ، وقد اختصرت في أقل من سطرين ، وسنورده فيما يلي حتى يتجلى مدى الفرق بين هذا النص المطبوع ، وما ينقله ابن حيان عن ابن القوطية : « وعبد الرحمن أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي على ما هو جار إلى اليوم » (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦١) . وما يورده ابن حيان حافل بتفاصيل على أكبر جانب من القيمة والخطر في بيان ترتيب جلوس الوزراء والطريقة التي كان يجري بها اتصال الأمير أو الخليفة بوزرائه ، وهي أشبه ما تكون بما نعرفه في عصرنا الحاضر من الاتصال بين رئيس الدولة وأجهزة الحكم المختلفة .

(١٢٥) عن عبد العزيز بن هاشم انظر تعليقنا السابق رقم ١٢٠ .

(١٢٦) ربما كان عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني من أول من عهد إليهم بمنصب « صاحب المدينة » فيها نعرف ، فالكثير من هذه التعليل التي استقرت رسومها بعد ذلك في ظل خلافة بني أمية وتأصلت في الأندلس حتى نهاية الإسلام في تلك البلاد إنما بدأت في الظهور والتحدد في أيام عبد الرحمن بن الحكم الأوسط ، إذ كان هو الذي أعطى الدولة المروانية رونقها

ونظم آيينها ورتب طبقات الخدمة فيها . أما خطة المدينة فيبدو أنها كانت بمثابة الحكم والإشراف على الأمن العام فيها ، وصاحب المدينة في قرطبة كان هو حاكمها العام أو « محافظها » كما تقول اليوم في مصر . وكان أصحاب الشرطات الثلاث : الشرطة العليا والوسطى والسفلى يخضعون له ويأتمرون بأمره ، وإن كنا لم نستطع حتى الآن أن نميز تمييزاً واضحاً بين اختصاصات صاحب المدينة وأصحاب الشرط المذكورة . ويذكر ليني بروفنسال نقلاً عن ابن حيان في القسم المفقود من « المقتبس » الذي يؤرخ فيه لعصر الأمير الحكم الرضى بن هشام ومعظم إمارة عبد الرحمن الأوسط (ورقة ١٤٢ وجه) أن « والى المدينة » في عهد هذا الأمير الأخير كان يتقاضى وظيفة أو مرتباً شهرياً يبلغ مائة دينار . وقد كان هناك خلال عصر الإمارة الأموية صاحب واحد للمدينة ، فلما اتسعت خطط قرطبة وامتد العمران فيها بعد إعلان الخلافة وبناء مدينة الزهراء ، أصبح هناك صاحب لمدينة الزهراء مستقل العمل عن صاحب المدينة في قرطبة ، وحدث مثل ذلك حيناً بئى المنصور بن أبي عامر مدينة الزاهرة ، إذ عين لها « صاحب مدينة » خاص أيضاً . وسوف يرد في هذا الجزء الذى نشره من « المقتبس » من أخبار من ولوا هذه الخطة ما يوضح لنا الكثير من جوانبها وتفاصيل أعمالها ، وفي الجزء الذى نشره الأستاذ عبد الرحمن الحجى المتعلق بسنوات من حكم الخليفة الحكم المستنصر تفاصيل أخرى على أكبر قدر من الخطر والطرافة ، ويكنى أن نذكر أن ابن حيان يشير إلى هذه الخطة أو المتقلدين لها في أكثر من ثلاثين موضعاً في هذا الجزء الصغير من كتابه . وما يجدر بالذكر أن هذه الخطة الأندلسية قد انتقلت إلى إسبانيا المسيحية المجاورة كما انتقل كثير من النظم بأوضاعها ورسومها وأسماؤها العربية بحكم التفوق الحضارى للمسلمين الأندلسيين على جيرانهم في دول إسبانيا المسيحية ، فإذا بنا نجد منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) في مملكتي نبرة Navarra وأرغون Aragon منصباً إدارياً قضائياً مقابلاً لخطة « صاحب المدينة » في الأندلس الإسلامى وكانوا يسمونه zabalmedina أو مختصراً في صورة Zalmedina (وهما لفظان مأخوذان من مقابلتهما العربى كما هو واضح) ، ثم تطورت تسمية هذه الوظيفة فدعى متوليها Justicia Mayor وقد أفرد المستشرق الإسباني جوليان ريبيرا Julian Ribera هذه الخطة في مملكة أرغون بدراسة تاريخية بديعة أثبت فيها أصولها العربية الأندلسية في كتابه « أصول خطة » الفلوسيتيا « في أرغون » ، ط . سرقسطة سنة ١٨٩٧ :

Julian Ribera y Tarrago : Origenes del Justicia de Aragon, Zaragaza, 1897.

انظر كذلك ليني بروفنسال : تاريخ ١٥٨/٣ - ١٥٩ .

(١٢٧) وردت هذه الفقرة وقد اختصرت كذلك اختصاراً شديداً ولحقها كثير من التحريف والتشويه في النص المطبوع من كتاب ابن القوطية (ص ٧٤ - ٧٥) . هذا وقد أورد المقرئ في نفع الطيب (٨٢/٥) خبراً جرى بين الإسكندراني هذا ومحمد بن سعيد الزجال يفهم منه كيف كان اشتغال الإسكندراني في شابه بالفناء مريباً له كما قال له الحاجب عيسى بن شبيب . يقول المقرئ : « وحضر [الزجال] مع الوزير عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في مجلس فيه رؤساء فعرض عليهم فرس مطهم ، فتثمل فيه عبد الواحد بقول امرئ القيس :

* بريد السرى بالليل من نيسل بربرا *

فهم الزجال بأنه عرض بأنه من البربر ، فلم يحتمل ذلك ، وأراد الجواب فقال مدبجاً لما أرادته ومعرضاً : أحسن عندي من ليل يسرى في فيه حل مثل هذا يوم على الحال التي قال فيها القائل :

ويوم كظل الريح قصر طلوله دم الزرق عنا واصطفاق المزاعير

ولمّا عرض للإسكندرانيّ أنّه كان يشهد مجالس الراحة في أول أمره ومعرفة الغناء .

(١٢٨) أورد لنا ابن حيان في هذا النص أخباراً جديدة لم تكن معروفة من قبل عن أولية بيت أمية ابن يزيد الذين توارثوا الكتابة والوزارة وغيرهما من المناصب الكبرى لأمرأى بن مروان . أما الأول أمية بن يزيد فقد دخل الأندلس في طالعة بلج بن بشر القشيري من الشاميين في سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فاتصل بخالد بن زيد كاتب يوسف ابن عبد الرحمن الفهري ووزيره ، وتلمذ عليه واشتغل بالكتابة تحت نظره ، فلما تولد ملك الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية الداخل صار خالد بن يزيد إلى كتابته ، غير أنّه نفر بعد ذلك عن القرار بالأندلس وسأل الإذن بالخروج إلى المشرق ، ولعله فعل غضباً لمولاه يوسف بن عبد الرحمن حيناً أوقع به عبد الرحمن الداخل وقتله ، فأذن له الأمير ، واستكتب بعده أمية بن يزيد واشتغل عليه لكونه من مواليه ، ويروى ابن الأبار هنا خبراً يصور مدى وفاء أمية بن يزيد لاستاذة خالد ، إذ يقول إن الأمير عبد الرحمن أمره بأن يكتب كتاباً بسراج خالد وإخراجه من الأندلس فأبى أمية ذلك وقال : معلى وولى الإحسان قبل يكون أول شيء يجري له على يدي الكتابة بخروجه عن أهله وماله ؟ ! وارتفعت مكانة أمية بعد أن استقل بالكتابة وأصبح في عداد ما يشاورهم الأمير ويؤثر آراءهم ، وقيل إنه كان من أتهموا في ثورة يحيى بن يزيد الهشامى ، فاتفق أن مات قبل قتل يزيدى وإطلاع عبد الرحمن على ما كان خافياً من أمر تلك المؤامرة (انظر ابن الأبار : الحلة ٣/٣٧٣ ، نفس المؤلف : إعتاب الكتاب ص ٧١ - ٧٢ ؛ ابن عذارى : بيان ٢/٥٨ ؛ المقرئ : نفع ٤/٤٥) ، وكانت وفاة أمية في سنة ١٥٤ (٧٧١) على ما يذكر ابن حيان هنا .

وأعقب أمية بن يزيد ولداً هو محمد بن أمية الذى اشتغل بالكتابة أيضاً للأميرين هشام وابنه الحكم ، غير أنه اتهم بالميل إلى عمه سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية الذى بدأ ثورته بميل هشام أخيه وواصلها في عهد الحكم ، بل إنه كان على ما يظهر هو المعرض لسليمان على مواصلة المصيان والثورة ، ويروى ابن سعيد بهذه المناسبة عن « تاريخ ابن حيان » نفسه نصاً له أهميته فيما نحن بصدده ، إذ يقول : « وكان سليمان قد هم بالركون [أى إلى الطاعة والانقياد] حتى كتب إليه ابن أمية :

لا تقبلن عهداً لا وناء لها إن المدير عليك الرأى شيطان

إن الصدور التى استعذبت أولها أعجازها لك إن حصلت خطبان

كيف المقام بأرض ليس يملكها ذلك المبرأ من نقص سليمان »

(المغرب ٧١/١ - ٧٢ . ولما أوردنا هذا النص الذى ينقله ابن سعيد عن « المقتبس » لأنه قد يكون من بين ما ذهب في القطع الذى لحق آخر الصفحة التى جاء فيها ذكر بنى أمية بن يزيد من الأصل المخطوط ، وهذا يكون مكملاً للفجوة التى لحقت هذا الموضوع كما نهنا على ذلك في هذا الموضوع من حواشى تحقيق النص) . وكانت وفاة محمد بن أمية بن يزيد في سنة ٢٢٦ (٨٤١) على ما يذكر ابن حيان وهو غامل معزول عن الكتابة .

أما عبد الله بن محمد بن أمية بن يزيد فقد ولى الكتابة والوزارة للأميرين عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد ، وتصرف قبل الوزارة في الولاية والعرض (ابن الأبار : الحلة ٣/٣٧٣) ، وأثنى عليه ابن القوطية وقال إن الأمير محمداً عند ولايته

أقره على الكتابة فتصرف فيها نحو عامين (٢٣٨ - ٨٥٢/٢٤٠ - ٨٥٥) ، ثم أقعدته علة عن الركوب أعواماً أقام الخدمة فيها قومس بن أنتنجان إلى أن توفي عبد الله سنة ٢٤٦ (٨٦٠) ، فولى قومس الكتابة بعده (انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٦٢ ، ٨٢ ، ٨٥ ، وابن الأبار : حلة ٣٧٣/٢) .

واشتهر من بيت بني أمية هؤلاء بعد عبد الله المذكور ابنه : محمد الذي ولي الوزارة لعبد الرحمن بن محمد الناصر وتوفي سنة ٣٠٩ (٩٢١ - ٩٢٢) (انظر ابن عذارى : بيان ١٨٢/٢) ؛ وعبد الملك بن عبد الله بن أمية الذي سيقص علينا ابن حيان في هذا الجزء من « المقتبس » جملة من أخباره ، ونعرف منها أن الأمير محمداً ولاء « الكتابة العليا » بعد وفاة حامد بن محمد الزجاج ، ولم يكن يستكمل أدواتها مما أثار عليه حسد كثير من رجالات الدولة وتشنيهم عليه ، وكان أشدهم في ذلك الوزير هاشم بن عبد العزيز ، ولكن الأمير محمداً تمسك به ولم يقبل فيه قول أعدائه ومنافسيه ، ثم ولي الوزارة والقيادة للأمير عبد الله بن محمد ، وقتله المطرف بن الأمير عبد الله في سنة ٤٨٢ (٨٩٥) في خبر طويل يقصه ابن حيان في الجزء الذي نشره أنطونيا من المقتبس (انظر ص ٥٥ ، ٧٩ - ٨٢ ، ١٠٨ ، ١١١ ؛ ابن عذارى : البيان ١٢٤/٢ ، ١٥١ ، ١٥٢ ؛ المزدى : جغرافية ص ١٠٣) . ثم مروان بن عبد الملك بن عبد الله بن أمية الذي ولي القيادة بعد أبيه حتى سقط عليه الأمير عبد الله فقبض عليه وسجنه ثم قتله سنة ٢٨٤ (٨٩٧) (المقتبس ص ٤ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٢) .

كذلك يبدو أنه كان من أفراد هذا البيت وليد بن أمية بن يزيد الذي سيذكره ابن حيان في الجزء الخاص بالوفيات ، قائلاً إنه توفي سنة ٢١١ (٨٢٦ - ٨٢٧) وإن كان مؤرخنا لا ينص صراحة على أنه من هذا البيت ولا يزيدنا بياناً بشئ من أخباره .

(١٢٩) لعله يعنى محمد بن موسى الغافق الذي سيشير إليه ابن حيان عند كلامه عن الوفيات في آخسر هذا الفصل ، وسيذكر المؤرخ في ذلك الموضع أنه ولي الوزارة وللكتابة وأنه توفي سنة ٢١٥ (٨٣٠) ولم نجد في المراجع الأخرى ما يزيدنا بياناً عنه .

(١٣٠) لم نعث في المراجع الأخرى ما يزيدنا معرفة بكليب الكاتب هذا ، فيما عدا إشارة عابرة وردت في « الجهرة » لابن حزم (ص ٩٤) جاء فيها أن من بين ولد عبد الرحمن بن معاوية الداخل رجلاً يدعى مسلمة ، وكان يلقب بكليب ، وإليه تنسب أرحى كليب بقرطبة على الوادى الكبير ، ووصفه ابن حزم بأنه « الكاتب » وقال إن عقبه انقرض في سنة ٤٢٢ (١٠٣١) في خبر طريف يدل به ابن حزم على فائدة علم النسب (الجهرة ص ٦ ، ٩٤) فلعل « كليب الكاتب » الذي يذكره ابن حيان هو نفس الذي يتحدث عنه ابن حزم .

(١٣١) لم يرد هذا الخبر عن محمد بن سعيد الزجاج في النص المنشور من كتاب ابن القوطية ، وقد سبق أن نبهنا قبل ذلك إلى أن ابن حيان إنما يرجع إلى أصل أوسع بكثير من ذلك الذي وصل إلينا .

(١٣٢) في ترجمة محمد بن سعيد الزجاج وأخباره (وما ذكره ابن حيان هنا يعتبر أوفى ما كتب عنه) انظر : الزبيدي

طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٨٣ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ - ١٧٤ ؛ ابن سميذ : المغرب ١/٣٣٠-٣٣١
المقرى : نفح ٨١/٥ - ٨٢ ؛ السيوطى : يفة الوعاة ؛ مفاخر البربر ص ٧٦ .

(١٣٣) نفزة إحدى قبائل البتر من البربر ، والبربر ينقسمون إلى بطنين كبيرين : البتر والبرافس ، والأولون ينتمون إلى مادغيس الأبو بن بركان (انظر مفاخر البربر ص ٧٦) ، وقبيل نفزة ينتمى إلى نفراو (ويوضح ابن حزم هنا نطق هذه الكلمة فيقول : بالسين بين الزاى والشين ، أى أنه حرف أقرب إلى الـ (J) الانجليزية أو الفرنسية التى نكتبها اليوم هكذا « ج ») (بن لوى الكبير بن زجيك بن مادغيس « أو مادغس » ابن بر (الذى يسميه صاحب مفاخر البربر : بركان) (انظر ابن حزم : جهرة الأنساب ، ص ٤٩٥ - ٤٩٧ ؛ ومفاخر البربر فى الموضع المشار إليه قبل ؛ وابن خلدون : العبر ٩٠/٦) . أما بنو يطففت (والتسمية عند ابن حزم « يطوفت ») وعند ابن خلدون « تطوقت ») فهم من ولد نفراو المذكور ، ومع ذلك فإن ابن حزم جعل بنى الزجاليين لا من نفزة وإنما من مديونة بن تمزيت بن ضرى بن زجيك بن مادغس (جهرة ص ٥٠٠) . ووافق صاحب مفاخر البربر ما يذكره ابن حيان فى النص من أن الزجاليين ينتمون إلى نفزة (ولو أن لفظ « الزجالي » ورد فى هذا الموضع خطأ : « الرجال ») .

(١٣٤) عبد الملك بن قريش بن عل بن أصمع الباهلى المعروف بالأصمعى هو اللغوى المشهور المتوفى بمرور من خراسان سنة ٢١٩ (٨٣١) ، وكان معروفاً بمحضور البدية وقوة الذاكرة ، تروى عنه نوادر كثيرة فى هذا الباب (انظر فى ترجمته : ابن الأبارى : نزهة الألباب ص ١٥٠ - ١٧٢ ؛ الزبيدى : طبقات ص ١٨٣ - ١٩٢ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ١٠/٤١٠ - ٤٢٠ ؛ الذهبى : العبر فى خبر من غير ١/٣٧٠ ؛ السيوطى : بنية الوعاة ، ص ٣١٣ ؛ وراجع بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ٢/١٤٧ - ١٥١) .

(١٣٥) ليس من المعقول ما يذكره ابن حيان هنا من أن محمد بن سميذ الزجالي كتب للأمر محمد بن عبد الرحمن ، إذ أنه توفى - كما سيذكر ابن حيان نفسه - فى سنة ٢٣٢ أو فى ٢٢٨ ، أى قبل أن يلى محمد الإمارة بست سنوات على الأقل ولنا نظر أن مثل هذا التناقض يغيب على ابن حيان ، وربما يكون فى العبارة سقط وأن تكون مصتها : « وكتب [ابنه] لابنه محمد بعده » .

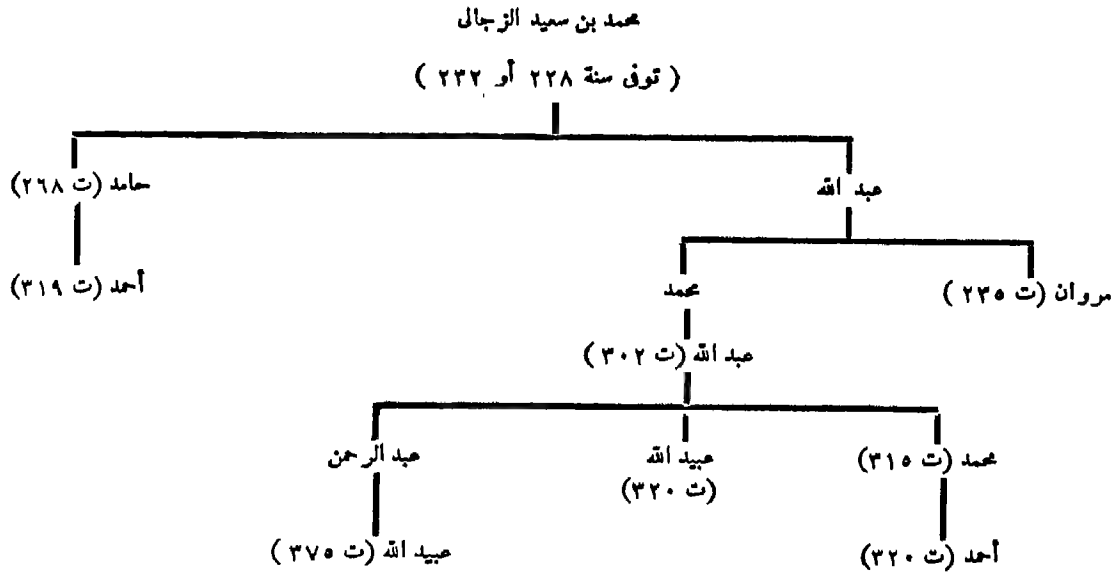
(١٣٦) سيذكر ابن حيان جملة من أخباره فى هذا الجزء من المقتبس . وانظر كذلك ابن القوطية ؛ تاريخ ص ٨٣-٨٥ ، ابن سميذ : المغرب ١/٣٣١ ؛ المقرى : نفح ٨٢/٥ - ٨٣ . وقد عرف من ولده من يسميه ابن عذارى « أحمد بن حامد الزجالي » المتوفى سنة ٣١٩ (٩١٣) فى أيام عبد الرحمن الناصر ، دون أن يوضح لنا المنصب الذى كان يتولاه (البيان ٢/٢٠٦) .

(١٣٧) فى ترجمة عبد الله بن محمد الزجالي المذكور انظر الخشنى : قضاة ص ١٥٨ ، ١٧٣ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٤ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٦ ؛ ابن عذارى : البيان ٢/١٢٠ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٥ ؛ ابن الأبار : إعتاب الكتاب ص ١٧٢ - ١٧٤ . ويذكر ابن الأبار فى هذه الترجمة نقلاً عن « المقتبس » لابن حيان أن الأمير - عبد الله بن محمد كان قد عزل عبد الله بن محمد الزجالي عن خطى الوزارة والكتابة فى بعض أوقاته لموجدة وجدها عليه ثم أقاله

بعد مديدة وأعادته الى خطه وكان محباً للناس فأبدوا فرحاً لرجعته . ثم يروى قطعتين لابن عبد ربه تصوران ذلك ؛ والقطعة
مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر ص ٤٧ من النص العربي و ١١٤ من الترجمة .

(١٣٨) عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الزجالى ، ذكره ابن عذارى في مواضع عديدة من البيان ، فقال إنه ولى
خطة العرض في سنة ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١) ، وولى الخزانة لعبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٦ (٩٢٨) . (انظر البيان
١٥٩/٢ ، ١٨٠ ، ١٩٧) . هذا وقد ذكر ابن عذارى كذلك أخاً له يدعى محمد بن عبد الله بن محمد الزجالى ولى خزانة
المال في سنة ٣٠٧ (٩١٩ - ٩٢٠) والوزارة لعبد الرحمن الناصر في سنة ٣١٤ (٩٢٦) وتوفى في السنة التالية .
(البيان ١٧٥/٢ ، ١٩٢ ، ١٩٥) . أما « مهمات سنة ٣٢٩ » التي يشير ابن حيان إلى تقديم عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى
فيها بتكليف من الخليفة عبد الرحمن الناصر فلم نستطع أن نعرف أى نوع من المهمات يعنى المؤرخ ، فالمرجع التاريخي
التي بين أيدينا تصمت عن تفسير ذلك . وأغلب الظن أنها كانت من قبيل السفارات التي وجه بها عبد الرحمن الناصر إلى بعض
جيرانه ، ربما في الشمال الافريقى .

(١٣٩) الواقع أن الذين نبهوا من هذا البيت البربرى الأصل كثيرون أشار ابن حيان هنا إلى بعضهم وذكر آخرين
في مواضع أخرى من كتابه ، وفي غير كتاب ابن حيان من كتب التاريخ والتراجم أخبار كثيرة عن زجالين ولوا
مناصب كبرى في الدولة أو اشتهروا بالعلم والفقه ، نذكر من بينهم مروان بن عبد الله الزجالى الذى سيذكره ابن حيان
نفسه في وفيات سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) ؛ وأحمد بن محمد الزجالى الذى يذكر صاحب القطعة المجهولة المؤلف في
تاريخ الناصر (ص ٨٣ من النص و ١٥٧ من الترجمة) أن الخليفة عبد الرحمن ولاء على مدينة إشبيلية ؛ وعبيد بن عبد الله
الزجالى (ويبدو أنه أخو عبد الرحمن ومحمد المذكورين في الحاشية السابقة) وقد ولى في أيام عبد الرحمن الناصر خطط العرض
والخيل والمواريث والبلدان (ابن عذارى : بيان ١٩٣/٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٨) وكانت وفاته سنة ٣٢٠ (٩٣٢)
عن إحدى وأربعين سنة ؛ وعبيد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى الذى كان وزيراً للحكم المستنصر (القاضى عياض :
ترتيب المدارك ، تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، الرباط ١٩٦٥ ، ترجمة رقم ١١٣٦ = ٥٥٣/٢ من طبعة بيروت
(حيث يرد الاسم عبد الله) ، وهذا هو نفسه الذى يترجم له ابن الفرضى في تاريخه (رقم ٧٣٠) باسم أبي بكر عبد الله
ابن عبد الله الزجالى ، وقال انه كان وزيراً للحكم المستنصر وإنه كان زاهداً عابداً وكانت وفاته سنة ٣٧٥ (٩٨٥ - ٩٨٦)
وقد أشار ابن حيان في جزء آخر من « المقتيس » نفسه إلى « عبيد الله بن عبد الله الزجالى » ذاكراً لإياه من بين وزراء
الحكم المستنصر (نشر الحجبى ، ص ٨٢) . وفيما يلي جدول تقريبي بأنسب من عثرنا على أخبارهم من بيت الزجالين .



وفي أواخر أيام الدولة الأموية نسمع عن وزير من أسرة الزجالين اشتهر بكنيته وإن اختلف فيها المؤرخون : فابن بسام يدعوه أبا الوليد الزجال (الذخيرة ، القسم الأول ٢٨٧/١) ، وابن خاقان يدعوه أبا مروان (قلائد العقيان ص ١٥٢ وعنه نقل المقرئ في النفع ٢-١٦١) ، وقد أعطى هذا الوزير اسمه للحير (أو المتنزه المعروف في خارج باب اليهود أو باب الهدى في قرطبة . وفي ديوان ابن قزمان المتوفى سنة ٥٥٥ (١١٦٠) زجلان في مدح من يدعوه أبا الوليد الزجال (انظر ديوان ابن قزمان ، بتحقيق نيكل ، مدريد سنة ١٩٣٣ ، رقى ٢٢ (ص ٥٥ - ٥٧) و ٨٩ (ص ٢١٢ - ٢١٤) .

وأخيراً ينبع من بني الزجال على أيام الموحدين أديب يحدد ذكرى أبياته هو أبو يحيى عبيد الله بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن عبيد الله الزجال الذي ولد بقرطبة سنة ٦١٧ أو ٦١٨ (١٢٢٠ - ١٢٢١) ودرس بها ثم ثقل في بعض مدن الأندلس واستقر أخيراً في مدينة مراكش حتى وفاته سنة ٦٩٤ (١٢٩٥) . وهو صاحب كتاب « رى الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » ، وهو يشتمل على مجموعة ضخمة من أمثال العوام في الأندلس أفردها بالدراسة الباحث المغربي الدكتور محمد بن شريفة في رسالته التي تقدم بها للحصول على إجازة الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وقد ألحق الدكتور بن شريفة بدراسته نص الجزء الخاص بالأمثال العامية بعد أن حققه تحقيقاً علمياً ممتازاً . وقد أفدت من هذه الدراسة في بعض ماكتبته حول الزجالين ، فقد استوفى الدكتور بن شريفة الكلام في ذلك في الجزء الأول من دراسته المذكورة (الفصل الأول ص ١ - ٥٠ من النسخة المکتوبة على الآلة الكاتبة ، سنة ١٩٦٨) . وقد تفضل المؤلف بإهدائي مشكوراً هذه النسخة من بحثه القيم الذي نرجو أن ينشر قريباً .

(١٤٠) لا تعرف في إسبانيا اليوم مدينة ولا إقليم بهذا الاسم ، مع أن في كتب الجغرافيين الأندلسيين ما يدل على أنها كانت مدينة أزلية « (أى قديمة الإنشاء) بمقرية من إستجة Acija . ومنطقة تاكرونا (أو تاركرونا كما تعرف في الشائع) هي التي تشمل اليوم الإقليم الجبلي المحيط بمدينة رندة Ronda الواقعة على بعد نحو مائة كيلو متر إلى غرب مالقة

Malga (انظر مادة « تاكرنا » في الروض المطار لابن عبد المنعم الحميري ص ٦٢ من النص العربي و ٧٨ من الترجمة الفرنسية ، وما كتبه تحت هذه المسادة ليقي بروفنسال في « دائرة المعارف الإسلامية » ٦٦٣/٤ .) وقد بحث راينهارت دوزي هذا اللفظ وبناء في الطبعة الثالثة من مجموعة أبحاثه (Recherches ٤٣/٢) واقترح في تفسيره أن يكون المقطع « تا » اسم الإشارة في اللغة البربرية و « كرونا » اللفظ اللاتيني Corona الذى يعنى التاج إشارة إلى الجبال العالية في هذه المنطقة ، وهو تفسير لا يخلو من تكلف ولو أن الثابت هو أن اسم « تاكرنا » شائع في كثير من جهات المغرب وإن كان ينطق بصور متغايرة ، وأشهر هذه المواضع « تكرونة » في تونس . (انظر كذلك تعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضوع في تحقيقاته على الحلة السراء لابن الأبار (٢٤٢/٢) .

(١٤١) أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدى المعروف باسم ابن الفرضى ، ولد في قرطبة سنة ٣٥١ (٩٦٢) وقرأ بها على أبي عبد الله بن مفرج ويحيى بن مالك بن عائذ وغيرهما من الشيوخ ، ورحل إلى المشرق سنة ٣٨٢ (٩٩٢) فأخذ بمكة ومصر والقيروان ، ثم عاد إلى بلده بعد أن جمع علماً كثيراً ، واشتغل بالتأليف ، فصنف كتابه « تاريخ علماء الأندلس » (الذى نشره المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا سنة ١٨٩٠ في مدريد) ، وكتابه في « أخبار شعراء الأندلس » وجمع في « المؤلفات والمختلف » كتاباً أثنى عليه ابن بشكوال ، وكذلك على كتابه « مشته النسبة » . وحدث عنه المحدث أبو عمر بن عبد البر وكان صديقاً له واشترك معه في كثير من شيوخه ، وقتل ابن الفرضى في الفتنة البربرية حينما اقتحم البربر قرطبة سنة ٤٠٣ (١٠١٣) ، وأثنى عليه ابن حيان - فيما ينقل عنه ابن بشكوال - فقال إنه كان جاعاً للكتب وتقلد « قراءة الكتب » في عهد الدولة العامرية واستقضاه محمد بن هشام المهدي بكورة بلنسية . (انظر في ترجمته : ابن بشكوال الصلة ، رقم ٥٦٧ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٣٧ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٨٨٨ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١٣٠/٢ ابن خاقان : مطلع ص ٦٥ - ٦٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١٠٣/١ - ١٠٤ ؛ ابن خلكان : وفيات ٤٧٩/١ ؛ المقرئ : نفع ٣٢٩/٢ - ٣٣١ .

ومن الدراسات الحديثة انظر بولس بويجس : المؤرخون والجغرافيون ص ١٠٥ - ١٠٨ ؛ نيكل : الشعر الأندلسي ص ٣١ - ٣٢ ؛ الدكتور حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٩٩ - ١٠١ .

وقد ضاعت معظم كتب ابن الفرضى ولم يبق لنا منها إلا « تاريخ علماء الأندلس » الذى نشر عدة مرات والذى كان رأس القائمة التى تنابعت فيها معاجم لتراجم الرجال تذييلاً على كتابه ابتداء من ابن بشكوال صاحب « الصلة » حتى ابن الخطيب الغرناطى صاحب « عائد الصلة » ، كذلك أمكن العثور على نسخة خطية وحيدة من كتاب « مشته النسبة » له ويعمل الآن على تحقيقها وإعدادها للنشر الأستاذ رشاد عبد المطلب .

والنص الذى ينقله ابن حيان هنا عن محمد بن سعيد الزجالي ليس مما ورد في « تاريخ علماء الأندلس » ، وهذا واضح بما ذكره ابن حيان من أنه قرأه في كتاب ابن الفرضى « المؤلف في طبقات أهل الدولة والأدب بالأندلس » ولا تعلم ما إذا كان هذا هو العنوان الحقيقى للكتاب أم أن ابن حيان ذكره بالمعنى ، فالمترجعون لابن الفرضى لم ينصوا على كتاب له بهذا العنوان ، وإنما ذكروا « أخبار شعراء الأندلس » (انظر فضلاً عن تراجم ابن الفرضى حاجى خليفة : كشف الظنون ١٦٥/٢ وربما كان هو نفسه الذى ذكره ابن حيان وإن كان بعنوان مغاير بمضى الشئ .

(١٤٢) علق الدكتور محمد بن شريفة في دراسته التي أسلفنا الإشارة إليها عن كتاب « رى الأوام » ومؤلفه أبي يحيى الزجاجي على قول ابن الفرضي هنا « . . هؤلاء الزجاجيين المقحمين في بيوت الشرف بقرطبة » وعلى قول ابن حيان السابق « من غير قدم في الدولة » بأن في هذا الكلام « لونا من الهجاء لا معنى له » ، ويغيب الكاتب إلى ذلك : « ونحسب أن الذي أملاه هو التنافس المعروف بين العصبيتين الأندلسية والبربرية ، وينبغي أن ننتبه إلى أن الرجلين كتبا هذا الكلام في ظروف ما يسمى بالفتنة البربرية وأعقابها ، ولعل ابن الفرضي رحمه الله ذهب ضحية هذا القوم وشبهه في حق البربر . وأما ابن حيان فإن وقوعه في الأعراض من لوازم كتابته ، وعبارته في حق الزجاجيين تعتبر هيئة إذا قورنت بما قاله في بيوتات أندلسية أخرى (القسم الأول من الدراسة ص ٨) . وفي رأي أن كل هذا تحميل للعبارات أكثر مما تحمل وتأويل لها في ظل ذلك الصراع القديم بين العصبيتين الأندلسية والبربرية تأويلا لا يخلو من اعتساف . فابن الفرضي وابن حيان حينما قالا هذا البيت لم يكن له قدم في الدولة وإنهم « مقحمون في بيوت الشرف بقرطبة » لم يقصدا بذلك هجاء ولا تنقصا ، وإنما كان كلامهما تقريراً لحقيقة تاريخية واقعة ، وهي أن الزجاجيين لم يكونوا من أسر الموالى الذين ارتبطوا ببني أمية منذ الفتح كما كان الأمر في معظم بيوتات كبراء الدولة وأعيانها من أمثال بني مغيث وبني حدير وبني شهيد وبني أبي عبدة وغيرهم ، وإنما كانوا حديثي عهد بخدمة السلطان ، وعبارة ابن الفرضي صريحة في ذلك : « لم يكن هؤلاء الزجاجيين . . قبل جدهم محمد قدم رياسة ولا سالف محبة للسلطان » ، وليس هذا من الثلب ولا الوقوع في الأعراض في شيء ، ولا معنى لأن نسرف في التأول ، فنقول إن كلام ابن الفرضي وابن حيان قد أملت ظروف « الفتنة البربرية » ، فأغلب الظن أن أولهما قد كتب هذه العبارة قبل أن تندلع نيران الفتنة بسنوات طويلة ، وأما ثانيهما فلعله كتبه بعد أن مضت سنوات أخرى عليها . ولا ننظر أن ابن الفرضي ذهب ضحية مثل هذا القول « في حق البربر » ، إذ أن هؤلاء ما كانوا لينقيوا في كتب ابن الفرضي وأمثاله بحثا عن عبارات مثل هذه لكي يتكلموا بأصحابها ، والأمر أولا وأخيرا أيسر مؤونة من كل ذلك . والترجمة التي أثبتها ابن حيان ونقل بعضها عن ابن الفرضي حافلة بعبارات الثناء على محمد بن سعيد الزجاجي ، بل إننا نلمح فيها الإعجاب بشخصيته وخلاله ولستأ نرى فيها من « الثلب والوقوع في الأعراض » قليلا ولا كثيرا .

(١٤٣) ورد الشطر الأول من هذا البيت في كتاب الثعالب : التمثيل والمحاضرة ، تحقيق الأستاذ عبدالفتاح محمد الحلو ، القاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٩ ، وجاء البيت كاملا في عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٦٤/١ ؛ وقد ذكر الدكتور محمد بن شريفة في تحقيقه لهذا البيت أن أبا يحيى الزجاجي قد أورده في طليعة الأبيات التي يتمثل بها في كتابه « رى الأوام » (انظر ص ٥ من دراسته) .

(١٤٤) نقل هذا الخبر ابن الأثير في إعتاب الكتاب (ص ١٧٤) وابن سعيد (مغرب ٣٣٠/١) والمقرئ (نفع ٨١/٥ - ٨٢) .

(١٤٥) روى أبو الفرج الإصهاني في كتاب الأغاني (١٦٩/١٨) قصة وقعت بين البحتري وأبي تمام تكاد تكون هي نفسها التي تقص هنا عن محمد بن سعيد الزجاجي والشاعر الذي أنشده قصيدة يمدحه بها ، فقد روى البحتري أنه دخل على أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري ، فأنشده قصيدته التي أولها :

• أ أفاق صب من هسوى فأفيقا •

فسر أبو يوسف بها ، وكان في مجلسه رجل رفيع نبيل المجلس ، فلما فرغ البحترى من إنشاده أقبل عليه الرجل فوجّهه واتهمه بأن ذلك الشعر له وأن البحترى منتحل له ثم اندفع فأشدد أكثر القصيدة واضطرب الشاعر وتخير وجعل يحلف بكل محرجة من الإيمان بأن الشعر له لم يسمعه من أحد ، فلم ينفعه ذلك ، ولامه أبو سعيد على انتحاله شعر غيره وقال إنه كان له من قرابته منه ما يفيه عن ذلك ، وشرع البحترى في الخروج يحرجه رجله وهو منكسف البال ، فابلى باب الدار حتى رده الغلام إلى المجلس ، فأقبل الرجل عليه قائلا إن الشعر له ثم دعاه إليه وعانقه وضمه ، وعرفه بنفسه ، فاذا به أبو تمام الطائي ، ولزمه البحترى منذ ذلك اليوم وأخذ عنه واحتذى فنه . (انظر كذلك شرح الشريشي على مقامات الحريري ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ٩٠/١ - ٩١) .

(١٤٦) سوف نعرض لمؤمن بى سعيد ومظان ترجمته فيما بعد .

(١٤٧) أورد ابن سعيد هذا الخبر في المغرب ٣٣١/١ .

(١٤٨) ذكر المقرئ أيضا هذه القصة في النفع ٨٢/٥ - ٨٣ .

(١٤٩) لم ننته إلى ما يزيدنا بيانا عن هذا الشاعر ، على أننا رأينا أربعة من أبيات هذه القطعة في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » للشيخ أبي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب (بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥) مع فروق في الرواية اثبتناها في موضعها من حواشي تحقيق النص . وقد نسبها ابن الكتاني إلى من يسميه « محمد بن فرج » دون مزيد بيان . وقد حاول الدكتور إحسان عباس محقق الكتاب أن يعرف من هو محمد بن فرج هذا ، فسبق إلى ظنه أنه ينبغي أن يكون من بني فرج الجليانيين المعروفين ، وهم أحمد وسعيد وعبد الله أبناء محمد بن فرج ، وأضاف الدكتور إحسان إلى ذلك أنه إذا لم يكن في الاسم خطأ أو لمجاز فإنه قد يكون محمد بن فرج والد بني فرج المذكورين ولو أن المصادر لم تذكر له علاقة بأدب ولا شعر ، ونظم كلامه أخيراً بأن الحميدى ترجم لمن يسميه محمد بن الفرّج بن عبد الوليد الأنصاري الطليطل (رقم ٧٩) وهو فقيه أورد له الحميدى بيتين من الشعر . وأخيراً ختم الدكتور إحسان تعليقه بقوله إنه على كل حال يظن أن « محمداً » سهو وأن الصواب « أحمد » وبذلك يكون هذا الشاعر هو صاحب كتاب الحدائق نفسه . (انظر فهرست الشعراء ص ٣٣٠) . على أن نص ابن حيان يفيدنا عن هذا العناء ، فهو يورد اسم الشاعر كاملاً ونسبه ، ونلاحظ أن هذه هي أول مرة نسمع فيها باسم هذا الشاعر ، إذ لا تسعفنا المراجع الأخرى المعروفة لنا حتى الآن بأى شيء عنه ، ولكنه على كل حال ليس من بني فرج الجليانيين المعروفين ، وإنما هو شاعر متقدم عاش في منتصف القرن الثالث الهجري على ما يرى من هجائه لحامد الزجالي المتوفى سنة ٢٦٨ (٨٨١ - ٨٨٢) . أما نسبة هذا الشاعر : « البلساري » فلم ننته إلى وجه في تأويلها ، إلا إذا كانت محرفة عن « الشبلاري » ، وحينئذ يكون نسبة إلى « شبلار » أحد أرباض قرطبة (أى أحيائها) . وقد اختلف المؤرخون في ضبط هذا اللفظ ، أما ابن القوطية (تاريخ ص ٢٩) فقد جعله بضم الشين والباء وتشديد اللام ، وأما ابن بشكوال (الصلة ، بتحقيق السيد عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٤٥٥) والمقرئ في النفع (١٣/٢) فيضبطانه بفتح الشين وسكون الباء ، وقد جاء ذكر هذا الرّيبض أيضاً في المقتبس لابن حيان دون ضبط (نشر عبد الرحمن الحبيبي ص ٢٠٩) ، ومع ذلك فإن الباحث اللغوي الإسباني فرانسيسكو سيمونيت رأى أن الصواب في ضبط هذا اللفظ إنما هو بفتح الشين وضم الباء المخففة ، إذ هو مشتق من كلمة Sabula اللاتينية ، ومعناها الرمل ، فهو

آت من لفظ Sabular أى المكان الكثير الرمل (Sabularia باللاتينية الدارجة المتأخرة ومثل Sablière بالفرنسية)
انظر كتاب سيمونيه : معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية المستخدمة بين المستعربين ، مدريد ١٨٩٧ ، ص ٧٣ • :

Francisco Simonet : Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozarabes
Madrid, 1897.

وانظر كذلك لفي بروفنسال : تاريخ ٣/٣٧٠ ، حاشية رقم ١ .

(١٥٠) الزجاجة تسمية كانت شائعة في قرطبة تطلق على هؤلاء الزجاليين من سلالة محمد بن سعيد الكاتب الوزير ،
وقد كان هناك ريفس في قرطبة يدعى « ريفس الزجاجة » يقع بين باب عامر وباب اليهود (الذى سمي بعد ذلك باب الهدى)
ومقبرة تحمل نفس هذا ، فضلا عن ذلك المتنزه المشهور الذى كان يعرف باسم « حير الزجالي » انظر لفي بروفنسال :
(تاريخ ص ٣٣٥ ، ٣٨٢) .

(١٥١) لهذا النص قيمة خاصة ، إذ هو يلقى أضواء على خطة من الخطط السلطانية في ظل الدولة الأموية بالأندلس
في عصر مبكر ، وهى خطة الشرطة التى لا نعرف عنها الكثير . فابن حيان يفيدنا هنا بأسماء ثلاثة من أوائل أصحاب الشرطة
كان أحدهم يتولى هذه الخطة قبل ذلك في أواخر أيام الأمير الحكم بن هشام-الريضى الذى ولى الإمارة في أواخر القرن الثانى
المجربى والسنوات الست الأولى من القرن الثالث . ونذكر بهذه المناسبة أنه على الرغم من تعدد الإشارات في المراجع التاريخية
الأندلسية التى بين أيدينا وفي معاجم التراجم إلى من ولوا الشرطة في ظل أمراء بنى أمية وخلفائهم فإننا لا نعرف إلا القليل عن
حدود هذه الخطة واختصاصاتها . صحيح أن بعض المؤرخين المتأخرين - وأهمهم ابن سعيد (حسبما ينقل عنه المقرئ في النفع
٢٠٣/١) وابن خلدون (في المقدمة ص ٢٥٦ - ٢٥٧) - قد أفردوا خطة الشرطة بالكلام ، مع إشارات محددة واضحة إلى
عملها وحدودها وواجباتها في الأندلس تحت حكم بنى أمية ، ولكن هذه المصادر ينبغى أن تستخدم في حذر واحتراس ،
فابن سعيد وابن خلدون - وإن كانا من أهل المعرفة الواسعة والتحقيق فيما يتصل بالتاريخ الأندلسى - لا يخرجان عن كونهما
مؤرخين متأخرين بعد بهما العهد عن دولة بنى أمية ، ولا يؤمن مع ذلك أن يمتسقا الحكم أو يشوب حديثهما نظر إلى واقع
أحوال تلك النظم في عصرهما بعد أن أصابها تطور كبير على طول قرون عديدة من تعاقب العصور وتقلب الدول .

ويبدو من نص ابن حيان الوارد هنا أن خطة الشرطة كانت معروفة في الأندلس قبل عبد الرحمن الأوسط ، ولكن إلى
هذا الأمير يرجع الفضل في إدخال تعديلات جديدة مهمة على هذا النظام ، فابن سعيد يقول في المغرب (١/٤٦) إنه « هو الذى
ميز ولاية السوق من أحكام الشرطة المسماة بولاية المدينة ، فأفرداها وصير لوالها ثلاثين دينارا في الشهر ولوالى المدينة مائة
دينار » ، على أن هذا النص نفسه مضطرب غامض ، فهو لا يبين لنا مدى العلاقة بين « صاحب المدينة » (وهكذا كان يسمى
المضطلع بهذه الخطة لا « والى المدينة ») و « صاحب الشرطة » ، إذ أنهما كائتا خطتين متميزتين وإن كانت أعمالهما متداخلة
فهى متصلة بالمحافظة على الأمن ، غير أن المراجع لم تفدنا في التعرف على تحديد اختصاصات كل منهما وواجباته ، وكل ما يبدو
لنا هو أن صاحب المدينة كان أعلى مكانة من صاحب الشرطة وأوسع اختصاصا ، ويقول ابن سعيد في وصف عمل هذه
الخطة (حسبما نقله المقرئ في النفع ٢٠٣/١) : « وأما خطة الشرطة بالأندلس فإنها مضبوطة إلى الآن ، معروفة بهذه السمة ،
ويعرف صاحبها في السن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه

دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون إلا في حضرة السلطان الأعظم ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه ، قد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي ، وكانت خطة القاضي أوفر وأتق عندهم من ذلك . مرة أخرى نجد هنا الخلط وعدم التحديد بين خطى الشرطة والمدينة ، كما أننا لا نعرف بدقة مدى صلة خطة الشرطة بالقضاء .

على أن المشكلة في التعرف على حقيقة خطة الشرطة لا تنتهي عند هذا الحد ، بل إن لدينا ذلك التجديد الذي أدخله عليها عبد الرحمن الأوسط نفسه ، إذ هو الذي فرع الشرطة إلى نوعين : الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى ، وإل هذا التعديل تشير تلك العبارة الواردة في أول الصفحة رقم ١٩٩ ب بعد قطوع كثيرة أصابت أسفل الصفحة السابقة والتي سميت كلماتها هكذا « وقتا تفرعت فيه أيامه شرطة العدو » (١ ؟) ، وقد ذكرنا في حاشية هذا الموضع أننا لم نهند إلى وجه مقبول في تأويل هذه العبارة ، ولا بد أن تحريفا شديداً قد لحق ألفاظها أو سقط منها شيء ، ومع ذلك فإننا نعتقد أنها تشير إلى ذلك التفريع في أنواع الشرطة ودرجاتها . أما الفرق بين الشرطتين فإن لابن خلدون نصاً صريحاً حول هذه الناحية يقول فيه (مقدمة ص ٢٥١ - ٢٥٢) : « ثم عظمت نهايتها [أي نهاية خطة الشرطة] في دولة بني أمية بالأندلس ، ونوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة [أفحمت هنا كلمة « والدهاء » وتبدو لنا زائدة لا معنى لها] وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلامات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامية [ربما كان هنا موضع « والدهاء »] ونصب لصاحب الكبرى كرمى بباب دار السلطان ورجال يتبوؤون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا في تصريحه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة حتى كانت ترشيحاً للحجابة والوزارة . » (انظر كذلك تعليق ليبي يروفسال على هذه العبارة في تاريخه ١٥٥/٣ - ١٥٦ وتعليق الدكتور حسين مؤنس في الحاشية رقم ٢ على نص في الحلة ٢٣٣/١ - ٢٣٤) .

غير أن هناك خطة أخرى ظهرت على وجه التحديد في سنة ٣١٧ (٩٢٩) ابن عذاري : البيان ٣٠٣/٢ ط . بيروت) فأضافت تعقيداً جديداً على المسألة ، تلك هي خطة الشرطة الوسطى ، وهي خطة أفادتنا المراجع الأندلسية بأسماء بعض من تولوها ، ومن بينهم الحاجب المشهور محمد بن أبي عامر في مبدأ ظهور أمره وبزوغ نجمه على أيام الخليفة الحكم المستنصر وقبل أن يترقى في المناصب حتى يصل إلى الحجير على الخليفة والاستئثار بالسلطة كلها . ولكن هذه المراجع لم تفدنا بشيء عن واجبات « الشرطة الوسطى » واختصاصاتها . وقد حاول ليبي يروفسال (تاريخ ١٥٦/١ - ١٥٧) استكناه حقيقتها فقال إن ما يظهر له هو أن ضخامة الدولة واتساع العمران في قرطبة وازدياد عدد السكان في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر - كل ذلك أدى إلى ظهور طبقة جديدة أشبه بما يسمى اليوم الطبقة الوسطى « أو البورجوازية » تقف بين الخاصة أو الارستقراطية والعامية أو الدهاء ، وكانت هذه الطبقة تتألف من « الأعيان » والتجار وصغار الموظفين والمتقنين لبعض الخطط الإدارية والقضائية الصغرى ، ومن ظهرت الحاجة إلى شرطة جديدة تتلاءم مع هذه الطبقة حديثة العهد بالظهور ، فكانت هذه « الشرطة الوسطى » .

ورأى يروفسال الذي أثبتناه هنا وجيه قد لا يخلو من الصواب ، ولكننا لم نر في المراجع ما يؤيده . والذي يبدو لنا بعد استقراء ما ورد عن الشرطة وفروعها الثلاثة وسير من تولوها خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري هو أن هذه

هذه الخطة قد تحولت إلى حد ما إلى ألقاب تشريفية ، فأصبحت تدل على التنويه أكثر مما تدل على واجبات وظيفية بعينها . ونقول « إلى حد ما » لأنه ليس معنى كلامنا أن الخطة وأعمالها قد اختفت وإنما أصبحت تسند إلى شخصية من كبار رجالات الدولة تنويها به وتعبيراً عن ترقيته ورفع مكانته ، ويكون لهذه الشخصية الإشراف الأعلى عليها، ولكنه لا يباشر واجباتها بنفسه بل ينتدب لها من يرضاه . ونحن نرى مصداقاً لذلك في حديث ابن حيان نفسه في الجزء الخاص بسنوات من خلافة الحكم المستنصر بالله (القطعة التي نشرها الأستاذ الحجى) حيث نقرأ مثلاً عن صاحب للشرطة العليا - وهو هشام بن محمد بن عثمان المصحفى - وهو في الوقت نفسه قائد طرطوشة وكوره، يلى نصه (ص ٢٠ - ٢١) ، وفي موضع آخر نرى صاحباً للشرطة العليا يخاطب بتقديمه من قيادة مدينة لاردة إلى مدينة سرقسطة وتطلبة وأعمالها (ص ٦٨) ، وآخر وظيفته الحقيقية هي قيادة الجيوش بيجان (ص ٧٢) ، أو قيادة الأساطيل (ص ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩) . أما الشرطة الوسطى فنعرف عن أشهر من تولوها وهو محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور فيما بعد) أنه قدم إلى هذه الخطة مجموعة إلى ما كان بيده من خطة المواريث والقضاء بإشبيلية وكالة ولي العهد الأمير هشام والسكة (ص ٧٢) . فكيف كان ابن أبي عامر يجمع بين كل تلك الوظائف في وقت واحد ؟ أغلب الظن أن حكم « الشرطة الوسطى » التي كان ابن أبي عامر يتولاها لا يختلف كثيراً عن حكم خطة القضاء على إشبيلية ، فإنه كما نعرف كان مقيماً دائماً خلال تلك السنوات في قرطبة ، ولا تعلم أنه غادرها إلى إشبيلية ولا أنه تولى فيها خطة القضاء بصفة فعلية . . وإنما كان ذلك من قبيل التنويه والتشريف ، بينما كان في إشبيلية قاض يصرف فيها شئون خطته فعلاً ، فولاية قضاء إشبيلية لا تزيد عن كونها ولاية نظرية فيها من معاني التفخيم أكثر مما فيها من تصرف حقيقى في عمل من الأعمال . ومثل هذا يمكن أن يقال عن خطة أخرى أسندت إلى ابن أبي عامر في سنة ٣٦٢ (٩٧٣) وهى « قضاء القضاء » بالعدوة (أى في شمال المغرب الأقصى) مع أنه كان قد أوفد إلى هناك في مهمة أنجزها وعاد بعدها إلى قرطبة على الفور . وأما « الشرطة الصغرى » فنحن نسمع عن وال لها كان في الوقت نفسه قاضياً على الثغر وخازناً (ص ١٠٦) . وفي نص آخر نرى اثنين أو ثلاثة يدعون بأصحاب الشرطة في وقت واحد مع أن بعضهم لم يكونوا يقيمون في قرطبة أصلاً (ص ١١٩) . كل هذا يدل على أن كثيراً من تلك الخطط سواء فيها القضاء أو الشرطة بأنواعها قد تحولت إلى مجرد ألقاب أو وظائف « فخرية » كما نقول الآن . حتى بعض الخطط الصغرى مثل خطة « العرض » لخلقها مثل ذلك ، فابن حيان يذكر (ص ١٧٧) أن الخليفة أراد الإنعام على الأديب الشاعر محمد بن حسين الطنبى الذى قفل من المغرب مع القائل غالب فولاها خطة « العرض » ، ولا نظن أن الطنبى كان يباشر هذه الوظيفة فعلاً ، ولكن هذه التولية كما ينص المؤلف نفسه كانت من قبيل « التكريم » . وقد كانت الشرطة العليا أعلى مكاناً بطبيعة الحال من الوسطى في نسق هذه الألقاب التشريعية . فابن حيان يذكر أن الخليفة قدم عبد العزيز بن حكم التجيبى في سنة ٣٦٤ (٩٧٥) من الشرطة الوسطى إلى الشرطة العليا مع توليته على دروكة في الثغر الأعلى (ص ٢٢٥) وهو في واقع الأمر لم يباشر أعمال هذه ولا تلك ، وإلا فنأين له أن يكون صاحب الشرطة في قرطبة وهو في الوقت نفسه متولٍ لحكم بلد شاسع البعد عن العاصمة في الثغر الأعلى ؟ كل ذلك يدعونا إلى أن نعيد النظر في الأحكام التي قالها الباحثون المحدثون عن خطة الشرطة في تلك الفترة (النصف الثاني من القرن الرابع) على ضوء ما ذكرناه من أنها كانت وظائف تنويه وتشريف أشبه بالألقاب منها بالأعمال . وعلى كل حال فالمسألة جديدة بأن تطرح على البحث من جديد .

(١٥٢) سبق أن علقنا على اسم كليب هذا في الحديث عن بيت بنى كليب بن ثعلبة بن عبيد (انظر التعليق رقم ٢) .

(١٥٣) لعل المذكور هنا هو أبو عثمان سعيد بن عياض الطليطل الذى ترجم له ابن الفرضى (رقم ٤٧٧) وقال إنه

رحل إلى المشرق فسمع بإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون ، وكان من أهل المسائل والفقهاء . وترجم له القاضي عياض في ترتيب المدارك (١٦١/٣) ونقل عن ابن أبي دليم أنه ولي قضاء طليطلة وصلاتها ، وعن الخفني أنه قتله أهل طليطلة .

(١٥٤) خطة الرد من المخطط القضائية التي تميز بها الأندلس . وقد أفادنا ليلى بروفنسال في تاريخه (١٤٣/٣ - ١٤٥) بمعلومات قيمة استقاها من كتاب « الأحكام الكبرى » الذي لا يزال مخطوطا بعد لأبي الأصمغ عيسى بن سهل الأسدي القرطبي . وهو مؤلف عاش في القرن الخامس الهجري (بين سنتي ٤١٣ و ٤٨٦-١٠٢٢ - ١٠٩٣) أي أنه معاصر تقريبا لابن حيان وقريب العهد بالنظم القضائية السائدة في قرطبة الخلافة . ويذكر ليلى بروفنسال عن ابن سهل أن الرد كان من بين المخطوط الستة التي تحول لتقليدها سلطة إنفاذ الأقضية وهي : القضاء ، والشرطة ، والمظالم ، والرد ، والمدينة ، والسوق . ويعمل ابن سهل تسمية هذه الخطة فيقول : « وإنما كان [صاحب الرد] يحكم فيها استراجه القضاة وردوه عن أنفسهم » ، ولكن الذي لا نعرفه على وجه التحقيق هو ما إذا كان لصاحب الرد سلطة الفصل في تلك القضايا التي يستريحها القضاة و « يردونها » من أنفسهم ، أم أن هناك سلطة أخرى هي التي لها سلطة الحكم النهائي . والمؤكد على كل حال هو أن « صاحب الرد » كان أدنى منزلة من قاضي الجماعة ، يدل على ذلك وضعه ومجلسه في الاحتفالات والمناسبات الرسمية ، إذ كان يأتي في الترتيب بعد قاضي الجماعة مع « الحكام » وهم أصحاب الشرطة وصاحب السوق (انظر المقتبس ، نشر عبد الرحمن الحجي ص ١٩٨) وكان يسند إلى « صاحب الرد » أيضا في بعض الأحيان الخروج إلى الكور لمطالعة رعاياها والكشف عن سيرهم والتحقق في شكاياتهم من البهال (نفس المرجع ص ١٠٠ ، ١٠٤) .

(١٩٥) سيترجم ابن حيان لحادث المذكور فيما بعد .

(١٥٦) أورد ابن عذاري مجمل هذه الفقرات الأخيرة في « البيان » (٨٠/٢) ، وسيترجم ابن حيان ليحيى بن يحيى في نهاية هذا الفصل .

(١٥٧) ورد هذا النص مع خلاف طفيف في بعض ألفاظه وزيادات أضافها ابن حيان في نص ابن القوطية المطبوع (ص ٥٨ - ٥٩) . هذا وسيورد ابن حيان ترجمات مفصلة لكل هؤلاء القضاة ولحمل من أخبارهم .

(١٥٨) هو هشام بن محمد بن هشام بن الوليد بن الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، وقد سبق أن أشرنا إليه في سياق ترجمتنا لابنه المؤرخ معاوية بن هشام بن الشيبني (انظر تعليقنا رقم ٩٣) .

(١٥٩) أبو القاسم أصمغ بن خليل القرطبي ، فقيه على مذهب الإمام مالك ، كان عالما بالشروط والروايات ، ودارت عليه الفتيا بالأندلس لخمسين عاما ، سمع بالأندلس من الغازي بن قيس ويحيى بن مضر ويحيى بن يحيى الليثي تلاميذ الإمام مالك والرواة عنه ، ثم رحل إلى المشرق ، فسمع بمصر من أصمغ بن الفرج وإفريقية من قاضي القيروان عبد السلام بن سعيد المشهور بسحنون تلميذ الفقيه المصري الكبير عبد الرحمن بن القاسم . وكان شديد التعصب لمذهب مالك قليل العلم بالحديث

اللفة ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ « ٨٨٦-٨٨٧ » . انظر في ترجمته ابن العرشي ، رقم ٢٤٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٢٣
الجشنى : القضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤٢/٣ - ١٤٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب
ص ٩٧ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ٥٥ - ٥٦ ؛ وانظر ما كتبه عنه القس لويث أورثيث في دراسته القيمة عن « دخول
المذهب المالكي إلى الأندلس » ، مدريد سنة ١٩٣٠ ، ص ٦٠ - ٦١ ، ١٢٠ - ١٢٤ :

José Lopez ortiz : La recepcion de la escuela Malequi en Espana, Anurio
de historia del derecho espanol, tomo VII, Madrid, 1930, pp. 1 - 167.

(١٦٠) تقسيم الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب كان شائعا في كتابات الأندلس منذ قديم . ويقصد بالموسطة المنطقة
التي تقع لا في وسط شبه الجزيرة بالضبط، ولكن المنطقة التي تتوسط ما كان للمسلمين من هذه البلاد، وتقع في مركزها العاصمة
قرطبة . وهو تقسيم تقرئى قصد منه التوضيح ، وقد جرى عليه بعض المؤلفين فيما بعد نذكر منهم أبا الحسن على بن بسام
(ت ١١٤٧/٥٤٢) حين قسم كتابه « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » إلى ثلاثة أقسام أفرد لكل منها جزأين : قسم
لكل من هذه الأجزاء الثلاثة الكبرى : الموسطة والغرب والشرق (انظر مقدمة ابن بسام في الجزء الأول من القسم الأول
ص ١١ وما بعدها) ، وتلا ابن بسام في هذا التقسيم أبو الحسن على بن سعيد في كتابه المغرب (انظر ما يتقله عنه المقرئ
في نفع الطيب ٢١٠/١ ، وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا التقسيم في كتابه عن الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ،
مدريد ١٩٦٧ ص ٤٩٣ - ٤٩٤) . ويبدو أنه في حالات « الاستنفار » أو تعبئة الجنود للغزو كان هناك تقسيم جغرافى
متبع في الأندلس مشابه لما ذكرناه إلى موسطة وشرق وغرب ، ولو أننا لا نعرف تفاصيله ، وسنرى مظهراً لذلك في نص
سيورده ابن حيان في هذا الجزء نفسه من « المقتبس » ناقلاً إياه عن معاوية بن هشام الشيبينسى عن « عدة الأجناد والمطوعة
المستغفرين من أهل كورة الموسطة » ، على أننا نشك في مدى دقة هذا التعبير : « كورة الموسطة » ، فلنا نعرف في التقسيم
الإدارى للأندلس ما يمكن أن يطلق عليه اسم كورة الموسطة ولا ذكر أحد من الجغرافيين ، والأغلب هو أن هذه التسمية فيها
الكثير من التجوز والتساهل ، والمقصود بها المناطق الواقعة في وسط الأندلس والمحيط بها بالعاصمة قرطبة (انظر عن اصطلاح
الكورة ومكانه من المصطلحات الجغرافية الإدارية الدكتور حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧٦ - ٥٧٧) .

(١٦١) يقصد به « المدونة » في الاصطلاح العسكرية الأندلسى الجنود النظاميون المسجلون في « ديوان الجند »
تميزاً لهم على طبقات الجنود الأخرى مثل « الحشم » (أى المرتزقة) و « المطوعة » (أى المتطوعين) . الخ . وهم الذين
كانت الدولة تستدعيهم حينما يخرج أمر به « بالاستنفار » أى التعبئة وذلك طبقاً لما هو مسجل في « ديوان الجند » من
أسماهم ورتبهم . (انظر ليني بروفنسال : تاريخ ٦٧/٣ - ٦٨) .

(١٦٢) كانت العادة قد جرت فعلاً بأن الأمير إذا خرج إلى غزو يطيل فيه الغياب عن قرطبة استخلف على قصر الخلافة
(المواجه للمسجد الجامع) واحداً من أبنائه ، وكان لهذا المستخلف مجلس في سطح القصر لا يغادره ليلاً ولا نهائراً ولا يخرج
منه البتة ، يؤكد ذلك خبر يقصه ابن حزم في « طوق الحمامة » « نشر الأستاذ حسن كامل الصيرفى ، القاهرة سنة ١٩٥٠ ،
ص ١٤٤ - ١٤٥ » بمناسبة خروج الأمير عبد الرحمن في بعض غزواته واستخلافه ابنه محمداً على سطح القصر . وانظر كذلك
ابن القوطية (تاريخ ص ٨٦) حيث يذكر أن الأمير محمداً استخلف ولداً له عند خروجه إلى بعض مغازيه وأبقاه في السطح .

وقد بقى مجلس السطح هذا الذى كان الأمير أو الخليفة يشرف منه على الرصيف محترما له مكانته وهيئته حتى أواخر أيام الدولة المروانية حتى بعد إنشاء عبد الرحمن الناصر ضاحيته الملكية الفخمة في مدينة الزهراء ، فابن حيان يصف لنا في جزء آخر من « المقتبس » (نشر الحجى ص ٢٢١) كيف كان الخليفة الحكم المستنصر بالله يقف على مجلس سطح القصر المذكور لى يستعرض جيوشه التى كانت خارجة لغزو حصن غرماج من الثغر الأوسط في سنة ٣٦٤ (٩٧٥) . وتأخذ بما يذكره ابن حيان في هذا الموضع أن مجلس السطح كان يقع فوق « باب السدة » (الباب الرئيسى لقصر الخلافة أنظر ما سبق أن كتبناه من « باب السدة » ، التعليق رقم ١٠٣) ، وأنه كان المكان الذى اعتاد الخلفاء أن يطلوا منه عندما كانوا يريدون الظهور لعامة الشعب (انظر المقتبس ، نفس الجزء ص ٢٣٣) .

(١٦٣) ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن الاسم جاء في الأصل « عبد الله » وأنتا نرجح أن الصواب « عبيد الله » ، فهو الذى اشتهر من أبنائه وطاوصيته وورث مكانة أبيه في الفقه والعلم وعظم الجاه لدى أمراء بنى أمية . وسترجع لعبيد الله هذا فيما بعد .

(١٦٤) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطروح البكرى القرطبى الملقب بالأعرج ، روى بالأندلس عن الغازي ابن قيس وعيسى بن دينار الطليطل ، وبمصر عن أصبغ بن الفرج ، وبالمدينة عن مطرف بن عبد الله ، وولى الصلاة في أيام الأمير محمد ، وكانت الفتيا تدور عليه وعلى أصبغ بن خليل وعبد الأعلى بن وهب ، وتوفى سنة ٢٧١ (٨٨٤ - ٨٨٥) . انظر في ترجمته ابن القرضى : تاريخ ، رقم ١١١١ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ١٥٨ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٩٤-٩٥ ، الخشنى : قضاة ص ١١٤ - ١١٥ ، ١٣١ - ١٣٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤١/٣ - ١٤٢ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ، ص ١٢١ ، ١٢٦ .

(١٦٥) سيتحدث ابن حيان عن محمد بن حارث هذا بمزيد من التفصيل عند الكلام عن محنة بقى بن مخلد إذ أنه كان أحد ثلاثة من الفقهاء تمصبوا عليه واشتدوا في طلبه ، وسيأتى ذكر ذلك في موضعه .

(١٦٦) أبو زيد عبد الرحمن بن ابراهيم بن عيسى بن يحيى بن يزيد القرطبى مولى معاوية بن أبي سفيان المعروف بابن تارك الفرس ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى ، ورحل في أيام عبد الرحمن بن الحكم إلى المشرق ، فسمع من شيوخ المالكية في المدينة : ابن كنانة وابن المساجشون ومطرف بن عبد الله ، وله من سبأه هذا ثمانية كتب تعرف باسم « ثمانية أبي زيد » وكان مقدما في الشورى والفتيا ، وتوفى سنة ٢٥٨ أو ٢٥٩ (٨٧٢ - ٨٧٣) . انظر في ترجمته ابن القرضى : تاريخ ، رقم ٧٧٩ ؛ الخشنى : قضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٩١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ١٤٨/٢ - ١٤٩ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٤٧ - ١٤٨ ؛ لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ص ٧٧ - ٧٨ ، ١٢٥ - ١٢٦ ، ١٥١ - ١٥٢ .

ويعتبر أبو زيد « ابن تارك الفرس » وعبد الملك بن حبيب أكبر مثليين لاتجاه يمكن أن نسميه « مدنيا » في داخل المالكية الأندلسية ، ونعنى بذلك أن الجيل الأول من المالكيين الأندلسيين كانوا يعتمدون في علمهم على شيوخهم المصريين من

تلاميذ مالك بن أنس من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ثم على الجيل التالي لهؤلاء مثل أصبغ بن الفرج والحارث بن مسكين وبنو عبد الحكم ، وظل هذا هو الاتجاه الغالب لا على مالكية الأندلس وحدهم ، بل كذلك في إفريقية (تونس) . على أنه كان هناك رد فعل لهذا الاتجاه تزعمه هذان الفقهاء : أبو زيد وعبد الملك بن حبيب من أجل العودة إلى مالكية أهل المدينة باعتبارهم الأصل وغيرهم الفرع ، على أن ذلك الاتجاه المدفئ لم يقدر له نجاح كبير في الأندلس ، وظل المالكيون الأندلسيون متمسكين بما أخذوه عن شيوخهم المصريين من ابن القاسم فطبقات الفقهاء بعده . وقد بحثنا هذا الجانب من تاريخ المالكية الأندلسية بالتفصيل في بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس (دراسة بالإسبانية ، مدريد ١٩٦٧) » ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(١٦٧) أبو وهب عبد الأعلى بن وهب بن عبد الأعلى القرطبي مولى قرطش ، سمع من يحيى بن يحيى ، ورحل ، فسمع من مطرف بن عبد الله بالمدينة ، ومن أصبغ بن الفرج بمصر ، ومن محنون بن سعيد بإفريقية ، وكان يشاور في الأحكام مع يحيى بن يحيى وسعيد بن حسان وعبد الملك بن حبيب وأصبغ بن خليل ، وكان يهتم بالميل إلى الاعتزال ، فكان أصحابه يحيى بن يحيى وابن حبيب وأبراهيم بن حسين بن عاصم يطعنون عليه بذلك أشد الطعن ، وكانت وفاته في سنة ٢٦١ أو ٢٦٢ (٨٧٥ - ٨٧٦) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٨٣٥ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٥٣ ؛ الخشني : قضية ص ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٣٨/٣ - ١٤٠ ابن فرحون ص ١٧٣ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ، ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٤٥ - ١٤٦ ؛ وأسين بلاثيوس : ابن مسرة القرطبي ومدرسته (مدريد ١٩٤٦) ص ٢٨ - ١٨٠ (ولو أن الاسم ورد خطأ « عبد العلي » بدلا من « عبد الأعلى ») ؛ وانظر كذلك بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص

(١٦٨) سترجم ابن حيان لبقى بن مخلد ترجمة ضافية فيما بعد .

(١٦٩) سبق أن علقنا على اسم محمد بن وضاح ؛ انظر رقم ٧٤ .

(١٧٠) أبو ذكريا يحيى بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مزين مولى رملة بنت عثمان بن عفان ، قرطبي أصله من طليطلة ، روى بالأندلس عن عيسى بن دينار ومحمد بن عيسى الأعشى ويحيى بن يحيى والغازي بن قيس ، ورحل في أيام الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، فلق بالمدينة مطرف بن عبد الله وأخذ عنه الموطأ ، وسمع بالعراق ومصر ، وله عدة كتب ذكرها ابن الفرضي بالتفصيل ، ومن أجلها كتاب في « تفسير الموطأ » يعد من الكتب التي أصلت المذهب المالكي في الأندلس ، وكانت وفاته في سنة ٢٥٩ أو ٢٦٠ . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٥٥٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٨٨٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ١٣٢/٣ - ١٣٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٥٤ - ٣٥٥ . وقد أفادنا ابن الأبار بمعلومات طيبة عن أصل هذه الأسرة وبعض رجالاتها ، فقال إنهم كانوا من أكنثونية Oxonora في غرب الأندلس (البرتغال الحالية) ، وكان أولهم نباهة إبراهيم بن مزين « الكاتب » الذي ولي إمارة طليطلة عدة سنوات في أيام عبد الرحمن الداخل ، وتلاه ابنه محمد (جد المترجم له) الذي يذكر من بين تلاميذ الإمام مالك بن أنس وكان قد ولي القضاء في قرطبة فترة قصيرة في سنة ١٧٠ (٧٨٦) ثم استعفى من منصبه ورحل لأداء فريضة الحج ولتلق العلم ، وكانت وفاته سنة ١٨٣ (٧٩٩)

(انظر في ترجمة ابن الأبار : تكملة رقم ٣٠١ ؛ المقرئ : نفع ٢٦٩/٣) . وسكن ابراهيم بن محمد (والد المترجم له) قرطبة وكان يتعاقب مع الحجاب وجلة الوزراء والقواد في أيام الحكم بن هشام ، ثم ولي إمارة طليطلة التي وليها جده من قبل أعماماً متصلة (انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ٨٨/١) ، وكانت وفاته في سنة ٢١٣ (٨٢٨) على ما سيذكر ابن حبان في باب الوفيات وعلى الرغم من تنقل بعض أفراد هذه الأسرة في مختلف كور الأندلس فإن جماعها قد استقر على ما يبدو في موضعهم الأول في أكشونية ، إذ أننا نعرف أنهم تولوا رئاسة مدينة شلب Silves (في جنوب البرتغال الآن) بعد انقراط عقد الخلافة الأموية وتغلب ملوك الطوائف ، فكانت لهم هذه الإمارة الصغيرة يتعاقبون عليها حتى خلع آخرهم عنها وهو عيسى بن محمد بن عيسى الملقب بالمظفر - وهو من ولد يحيى بن ابراهيم المترجم له (على خلاف في نسبه) - على يد المعتضد بن عباد سنة ٤٤٥ (١٠٥٣ - ١٠٥٤) ثم قتله المعتضد ومك من يده مدينة شلب (انظر ابن عذاري : بيان ٢/٣ - ١٩٢ - ١٩٣ ، ٢١٣ ، ٢٩٦ - ٢٩٨) . وكان لعيسى بن محمد المذكور آخر أمراء بني مزين ولد يدعى أبا بكر محمداً الكاتب ، له كتاب في تاريخ الأندلس بقيت منه قطع متفرقة في بعض المصادر الأندلسية المتأخرة ، وقد اعتمد عليه ابن الأبار في كتاب « الحلة » (انظر ١٧/٢ - ١٨) ، مع تعليق مفيد للدكتور حسين مؤنس في هذا الموضوع ؛ ١١٦ ، ١٢٩ ؛ وانظر ما كتبه عنه بونس بويجس في كتابه عن المؤرخين والجغرافيين في الأندلس ، ص ١٧١) .

وراجع أخيراً ما قاله ابن حزم في رسالته عن ابن مزين المترجم له وحول مؤلفاته (ولو أنه يسميه أبا إسحاق ابراهيم ابن مزين ، والصواب يحيى بن ابراهيم بن مزين) حيث يقول في معرض الفخر بالمؤلفين الأندلسيين : « ومنها كتاب أبي إسحاق ابراهيم بن مزين في تفسير الموطأ والكتب المستقصية لمعاني الموطأ وتوسيل مقطوعاته من تأليف ابن مزين أيضاً ، وكتابه في رجال الموطأ وما لمساك عن كل واحد منهم من الآثار في موطئه » (المقرئ : نفع ١٦٢/٤) .

(١٧١) أبو القاسم أبان بن عيسى بن دينار بن واقد الطائي القرطبي ، وهو ابن الفقيه المالكي المشهور عيسى بن دينار صاحب كتاب « الهداية » ، تلمذ على أبيه وغيره من شيوخ الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فسمع من يحنون بن سعيد قاضي القيروان ، وسمع بالمدينة من ابن كنانة ومطرف بن عبد الله وابن المساجشون ، وكان من الفقهاء الصالحين . وذكر عنه بعض مترجميه أنه ولي قضاء طليطلة ، ولكن المعروف هو أن الأمير محمد بن عبد الرحمن طلب إليه أن يتولى قضاء جيان فأبى ولج في الإباء ، فأمر محمد بإكراهه على العمل وأن يوكل به نفر من الحرس يحملونه إلى حضرة جيان فيجلسوه هناك مجلس القضاء ، فحكم بين الناس يوماً واحداً ثم هرب . غير أنه كان من الفقهاء المشاورين في أيام الأميرين عبد الرحمن ابن الحكم وابنه محمد . وكانت وفاة أبان في سنة ٢٦٢ (٨٧٦) . انظر في ترجمته ابن الفرغى ، رقم ٥١ ؛ الحيدى ، رقم ٣١٨ ؛ الخشني : قضاء ص ١٦ ، ١٠٤ - ١٠٥ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣/١٥٠ - ١٥١ ؛ النباهي : مرقية ص ١٢ - ١٣ ، ٥٥ - ٥٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٨ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١٢٤ - ١٢٦ ، ١٥٢ ، ١٥٦

(١٧٢) أبو مروان عبيد الله بن يحيى بن يحيى بن كثير اللحي القرطبي ، سمع بالأندلس من أبيه الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى تلميذ الإمام مالك بن أنس ، ورحل إلى المشرق حاجاً وتاجراً ، وسمع ببغداد ومصر ، وكان عظيم المسال وإجلاء ، مقدماً في المشاورة في الأحكام منفرداً برئاسة الفقهاء ، وطال عمره حتى تنامت في الأندلس أجيال من تلاميذه ، وكان آخر

من بقى من الرواة عن أبيه يحيى . وتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) . انظر في ترجمته ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٧٦٢ ؛ الحميدى جذوة ، رقم ٥٨١ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩ - ١١ ، ٤١ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٧٠ ، ٨٣ ، ١٠٠ - ١٠١ ، ١٩٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ١٠٦ ، ابن حبان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ - ٩ ، ٩٥ ؛ ابن سعيد : المغرب / ١٥٣ ، ١٥٥ ، ابن فرحون ديباج ص ١٤٦ ؛ النباهى : مرقبة ص ٤٨ ، ٥٠ ، ٧٤ ؛ وراجع كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١٢٦ - ١٢٧ ، ١٥٢ - ١٥٥ .

(١٧٣) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان الإليبرى ، من موالى عباس بن مرداس السلمى ، سمع بالأندلس من صمصمة بن سلام الدمشقى والغازى بن قيس وزيايد بن عبد الرحمن اللخنى المعروف بشبطون ، ورحل سنة ٢١٦ (٨٣١) إلى المشرق ، فسمع بالمدينة من ابن المساجشون ومطرف بن عبد الله وابراهيم بن المنذر الخزائى ، وبمصر من أصبغ بن الفرج وأسد بن موسى ، وكان من موطنى المذهب المالكي فى الأندلس وإن كان من مزمعى الاتجاه إلى الأخذ بأراء شيوخ المدنيين من المالكية دون المصرين ، ولكن اتجاهه لم يقدر له النجاح ، وقد أصبح لابن حبيب مكانة عظيمة فى الأندلس ، وكان من المشاورين لدى القضاة ، وهذا ما أوجد تنافسا شديداً بينه وبين يحيى بن يحيى الليثى ، على أنه كان يتميز على يحيى وأصحابه من الفقهاء بالتمكن من علوم كثيرة إلى جانب الفقه وكان غزير التأليف فيها جميعا ، إذ له مؤلفات فى الفقه والتاريخ واللغة والطب ، وإن كان علمه بالحديث قليلا . وتوفى سنة ٢٣٨ (٨٥٢) .

راجع في ترجمته : ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٨١٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢١١ - ٢١٣ ؛ الخشنى : قضاة : ص ٥٤ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠٤ - ١٠٥ ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٢ - ٢٨٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٦٢٨ ؛ الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٣٦ ؛ الضبى : بغية ، رقم ١٠٦٣ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ٣ - ٣٠ - ٤٧ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢ / ٩٦ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ١٥٤ - ١٥٦ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال رقم ١٧٦٣) ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ النباهى : مرقبة ص ٢ - ٣ ، ٨ - ٩ ، ١٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٥١ ، ١٧٩ ، ١٨٨ ؛ ابن عذارى : بيان ٢ / ١١٠ - ١١١ ؛ المقرئ : نفع الطيب ٢ / ٢١٤ - ٢١٧ ؛ ياقوت الرومى : معجم البلدان ١ - ٣٢٣ ؛ ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ٤ / ٥٩ - ٦٢ ؛ السيوطى : بغية الوعاة ص ٣١٢ .

ومن الأبحاث الحديثة انظر دائرة المعارف الإسلامية ٢ - ٤٠٢ (وهو مقال قصير قليل القيمة) ، يروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية ٨٦ / ٣ - ٨٧ ؛ بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٢٨ - ٣٨ ؛ جوفثال بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٤١ - ١٤٤ من الأصل و ١٩٣ - ١٩٦ من ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٨٢ - ٩٤ ؛ نيكل : الشعر الأندلسى ص ٢٣ - ٢٤ ؛ دوزى : مقدمة طبعته للبيان المغرب (١٨٥١ - ١٨٤٨) ص ١٣ ؛ ومجموعة أبحاثه (الطبعة الثالثة) ص ٢٨ - ٣٤ ؛ ودواستنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٠٣ - ١٠٤ ؛ وقد قنا بدراسة ترجمة عبد الملك بن حبيب و « تاريخه » الذى ما زال مخطوطا فى مكتبة « البودليانا » بأوكسفورد فى مقالنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسى » فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ، وانظر بصفة خاصة ص ١٨٩ - ٢٠١ ، وكذلك ص ٢٢١ - ٢٤٣ حيث نشرنا الفصول

الأخيرة من الكتاب المذكور ، وهى الخاصة بفتح الأندلس وبعض أخبارها . هذا وسيعود ابن حيان إلى الكلام عن ابن حبيب بعد ذلك فى آخر هذا الجزء الخاص بالأمير عبد الرحمن بن الحكم .

(١٧٤) جرت العادة فى مدن الإسلام فى الشرق والغرب على أن تقام الصلوات الجامعة الكبرى : صلوات العيدين وصلوات المناسبات الخاصة الطارئة مثل الاستسقاء فى أوقات الجدوب واحتباس المطر لا فى المساجد الجامعة بل فى الهواء الطلق فى « مصليات » خاصة يتفق عليها خارج أسوار المدن حيث يكون هناك فضاء يتسع للجماهير الكثيرة التى لا تسعها المساجد (انظر مادة « مصل » بقلم المستشرق فنسنت ، فى دائرة المعارف الإسلامية ٧٩٧/٣) . أما قرطبة فقد كان فيها مصليان كبيران لذلك ، هما اللذان يشير إليهما ابن حيان فى هذا النص ، وهما : مصل المصارة ومصل الربض .

أما « مصل المصارة » فقد كان يقع على الضفة اليمنى للوادي الكبير نهر قرطبة فى الفضاء الذى يحمل نفس هذا الاسم متصلا بباب القنطرة عن طريق « الرصيف » الموازى لضفة النهر . ولفظ « المصارة » من الألفاظ التى اختصت بها الأندلس ومنها انتقل إلى المغرب ، وهو يعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة والذى يمد من متزهاتها . ولم تكن مدينة أندلسية تخلو من « مصارة » يخرج إليها الناس فى أيام الأعياد للترويح والنزهة . وما زالت هناك فى إسبانيا مواضع كثيرة تحمل اسم *Almuzara* الموروثة عن « المصارة » العربية . (انظر بحث خايمة أوليفر أسين عن « تاريخ اسم مجريط » ص ٣٤٢-٣٤٧ : *Jaime Oliver Asin : Historia del nombre de Madrid, Madrid, 1958*).

وفى مدن المغرب « مصارات » كثيرة مازالت تحمل هذا الاسم حتى اليوم . ومصارة قرطبة هى التى دارت فيها المعركة المشهورة بين عبد الرحمن بن معاوية الداخل ويوسف بن عبد الرحمن الفهري فى سنة ١٣٨ (٧٥٦) والتى توطد بعدها سلطان مجدد الدولة الأموية . وكثيراً ما كانت تقام فيها المواكب الملكية واستعراضات الجيوش طوال أيام دولة بنى مروان ، هذا فضلاً عن صلوات الاستسقاء التى أشرنا إليها . ولم يكن فى مصل المصارة على طول عهد أمراء بنى أمية بناء مشيد ولا محراب ثابت ، وإنما كان الإمام يتخذ مقامه حيث يرى . وأول من بنى محراباً هناك هو عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية ، إذ أقام فيه محراباً مبنياً فى سنة ٣٠٦ (٩١٨) كما ينص على ذلك صاحب « البيان المغرب » وصاحب القطعة المجهولة فى تاريخ عبد الرحمن الناصر (ص ٥٧) . وللعالم الأثرى الإسباني ليوبولدو توريس بلباس بحث طيب عن مصليات الأندلس ومصل المصارة بوجه خاص فى مقاله : « المصل » و « الشريعة » فى المدن الأندلسية (*Musalla y saria en las ciudades Hispano-musulmanas*) ، فى مجلة الأندلس ، المجلد الثالث عشر ، سنة ١٩٤٨ ص ١٦٧ - ١٨٠ ، وانظر بصفة خاصة ص ١٧٠ - ١٧١ ؛ وكذلك نفس المؤلف : « المصارة » ، مجلة الأندلس سنة ١٩٥٩ ، المجلد الرابع والعشرين ص ٤٢٥ - ٤٣٣ . وللعالم اللغوى أوليفر أسين بحث بديع عن لفظ « المصارة » والحلاف فى اشتقاقه بعنوان «*las des almuzaras*» (المصارة والمزارعة) ، مجلة الأندلس ، المجلد السابع والعشرين ، سنة ١٩٦٢ ص ١٥٥ - ١٧٩ .

أما المصل الآخر فهو « مصل الربض » ، وكان يقع على الضفة اليسرى للوادي الكبير فى جنوب المدينة وعلى مقربة من مقبرة الربض التى أصبح يحمل اسمها بحكم هذا الجوار (انظر ما كتبناه عن هذه المقبرة من قبل فى التعليق رقم ٥٧) . وتفصله عن قرطبة القنطرة ، ولهذا فقد كان الوصول إليه يقتضى عبور القنطرة ، بعكس مصل المصارة الذى كان أقرب

إلى المدينة وأكثر اتصالاً بها ، وهذه هو ما جعل الفقيه عبد الملك بن حبيب يؤثره على سابقه ويمده « أرفق بالناس » وأقرب إلى قضاء حوائجهم ، على ما في عبور القنطرة من خطر الازدحام وما في جواز النهر على المراكب من خطر الفرق . وكانت « منية نصر » قرية من مصلى الربض المذكور ، إذ كانت تقع على نفس الضفة اليسرى للوادي الكبير (انظر تعليقتنا رقم ٥٩) .

وإذا كان الأمير عبد الرحمن قد صوب رأى عبد الملك بن حبيب في البروز إلى مصلى المصارة وإشارة على مصلى الربض فليس معنى ذلك أن صلوات الإستسقاء والميدين قد انقطعت إقامتها في هذا المصلى الأخير ، فنحن نعرف من أخبار سنة ٣٠٢ (٩١٥) في أول أيام عبد الرحمن الناصر أن صلوات الاستسقاء أقيمت في هذا المصلى خمس مرات في أيام مختلفة بعد أن توالى القحط وانقطع المطر . وفي سنة ٣١٧ (٩٢٩) تكرر المحل واستمر احتباس الغيث ، فعهد الخليفة عبد الرحمن بالاستسقاء في المسجد الجامع وفي مصلى الربض ومصلى المصارة مما (انظر ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار هاتين السنتين ، وكذلك مقال توديس بلباس الذي أشرنا إليه من قبل عن « المصلى والشريعة في المدن الأندلسية » ص ١٧١) .

ولكى يتتبع القارئ ما يقوله ابن حبان في هذا الخبر فإننا أوردنا في ملحقات هذا النص في آخر الكتاب خريطة لقرطبة بينا فيها المواضع المذكورة في السياق : مصلى الربض ومصلى المصارة ومنية نصر والقنطرة وقصر الخلافة وجنان القصر .

(١٧٥) ورد هذا الخبر وثلاثة من الأبيات المروية هنا في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٤٧/٣ ؛ ونفح الطيب للمعري ٢١٤/٢ ، مع اختلاف طفيف في قراءة بعض الألفاظ .

(١٧٦) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن عبادة المعروف بابن ماء السماء الشاعر المشهور ، وسيأتي التعليق على اسمه وعلى مظان ترجمته في موضعه .

(١٧٧) في « ترتيب المدارك » للقاضي عياض (٣٥/٣ - ٣٦) ثبت واف بأسماء تواليف عبد الملك بن حبيب ، وكذلك في ترجمته التي أوردتها أبي الفرجي .

(١٧٨) القاسط هو الظالم وهو عكس المقسط أى العادل .

(١٧٩) يعنى كتاب « الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال » لأبي بكر الحسن بن محمد بن مفرج القبشي (انظر تعليقتنا السابق رقم ٥٩) .

(١٨٠) عن مسرور بن محمد انظر ابن الفرجي ، رقم ١٤٢٨ ؛ الخشني : قصاة ص ٧٨ - ٧٩ ؛ أبي سعيد : المغرب ١٤٦/١ - ١٤٧ .

(١٨١) يعنى قاضي الجماعة أبا عبد الله محمد بن سعيد بن بشير ، كان كاتباً في حدائثه لابراهيم بن عبد الملك بن عمر ابن مروان بن الحكم في باجة ، ثم كتب لقاضي الجماعة في أيام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية : المصعب بن عمران ،

وخرج بعد ذلك حاجبا فلق مالك بن أنس وطلب العلم بمصر أيضا ، ثم انصرف فلزم ضيعته بباجة ، فلما مات المصعب بن حمران أشير على الحكم بن هشام بأن يستقضى محمد بن بشير مكانه ، فولى القضاة ، وكان من خيرة من تولوه . وصرف عن القضاء ثم وليه مرة ثانية ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣-٨١٤) . انظر ترجمته وأخباره في الخشني : قضاة ص ٥١-٦٧ : ابن القوطية : تاريخ ص ٤٤-٤٥ ، ٥٦-٥٧ ، الضبي : بنية ، رقم ٦٩ ، القاضي عياض : ترتيب المدارك ٤٩٣/٢-٥٠٥ ، ابن الأبار : تكملة رقم ٣٠٢ ، ابن سمي : المغرب ١/١٤٤-١٤٥ ، النباهي : مرقبة ص ٤٧-٥١ ، المقرئ : نفح ٢/٣٤٣-٣٤٩ ، ومن الأبحاث الحديثة لويث أورتيت : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس ص ٦٠ ، ٦٧-٦٨ .

(١٨٢) محمد بن أحمد بن عبد الملك بن سلام محتق الأمير هشام بن عبد الرحمن ، يعرف بابن الزراد القرطبي ، روى عن محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشني وابن هلال ، ورحل إلى المشرق ، وكان يهتم بأخبار الزهاد والعباد ، وكان كثير الحكاية عن ابن وضاح وتوفي سنة ٣٠٤ أو ٣٠٥ (٩١٦-٩١٨) ، عن ابن وضاح والخشني يعتمد عليه في كثير من أخبار قضاة قرطبة . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ رقم ١١٦٥ ، الحميدى : جلوة ، رقم ٧ .

(١٨٣) كذا جاء الاسم أيضا في تاريخ ابن الفرضي ، رقم ٣٢٨ ، وابن سمي : المغرب ١/١٤٦ ، أما الخشني (قضاة ص ٧٨) فيسميه حامد بن محمد بن سعد بن اسماعيل بن حامد بن عبد اللطيف الرعيني الشلوني . وذكر ابن الفرضي أنه توفي سنة ٢٠٧ (٨٢٣-٨٢٤) ، ونقل عنه هذه الترجمة أيضا ابن الأبار في التكملة ، رقم ٩٤ .

(١٨٤) أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز بن هاشم القرطبي أخو الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، ولد سنة ٢٣١ (٨٤٥-٨٤٦) وسمع بالأندلس من بق بن مخلد ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلق بمصر أصحاب الإمام الشافعي ومحمد بن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وولى قضاء الجماعة مرتين في أيام عبد الرحمن الناصر ، وكان أميل إلى مذهب الشافعي منه إلى مذهب مالك ولو أنه في أقضيته كان يحكم بما جرى به العمل في الأندلس طبقا للمذهب المالكي . وتوفي أسلم في سنة ٣١٩ (٩٣١) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٢٧٨ ، الحميدى : جلوة ، رقم ٣٢٢ ، الخشني : قضاة ص ١٨٢-١٨٨ ، ١٩٠-١٩١ ، ابن الخطيب : الاحاطة (بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله حنان ١/٤٢٧-٤٣٠ ، النباهي : مرقبة ص ٥٧-٥٨ ، ٦٣ ، أبي سمي : المغرب ١/١٥٤-١٥٥ .

(١٨٥) أسلم بن عبد العزيز يسند روايته هنا إلى أبيه عبد العزيز بن هاشم بن خالد الذي سبق لابن حيان أن ذكره . من بين وزراء الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذكر ابن حيان في موضع آخر من هذه القطعة من المقتبس أن عبد العزيز بن هاشم هذا كان يلقب بسعاد ، ولم تعرف من أخباره أكثر من هذه الإشارات . انظر تعليقنا على هذا الاسم فيما سبق (رقم ١٢٠) .

(١٨٦) لسنا نعرف على وجه التحديد ما يقصد به «أوى الخبر هنا من أن» جماعة من موالى الخلفاء تسموا بأسماء العرب» وأن «الأمير أنكر عليهم ذلك بفضل أنفته وأكد فيه نهيه» . فلسنا نعرف أن للعرب أسماء اختصت بها دون الموالى . وقد

استعرضنا أسماء بيوت موالى بني أمية وغيرهم بالأندلس وأسماء كثير من ذراريهم فلم نر فيها ما يدل على فروق جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخلفاء التي أورد لنا ابن حزم مئات النماذج فيها في كتابه « جبهة أنساب العرب » ، ولم نر في المراجع الأندلسية - بخلاف هذا النص - ما يدل على أن أمراء بني أمية قد ضاقوا ذراعاً بهذه الأسماء . وما أكثر ما نجد حتى في سلاسل الأسر المسيحية الأصول من يتسمون بأسماء محمد وأسماء صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام (والأسماء الشائعة بين خلفاء بني أمية مثل معاوية ويزيد مروان وعبد الملك وهشام والوليد والحكم والأصمغ وعبد العزيز وعبد الرحمن وسليمان دون أن يبدو ذلك غريباً لأحد . صحيح أنه عرفت في فترة متأخرة من أيام دولة بني أمية وأيام الدولة العباسية أسماء شاعت بين الفتيان والصقالب مثل مبارك ومظفر وواضح وخيران وزهير وليب وفاتن وغيرها ، ولكننا لا نعرف أن هذه الأسماء فرضت فرضاً ولا أن هؤلاء منعوا من استخدام غيرها . والواقع أن اسم « مسرور » المذكور هنا أشبه فعلاً بهذه الأسماء ، ولكننا لم نر لهذه الظاهرة أمثلة كبيرة تؤكد ما يذكره راوى هذا الخبر . والغريب أن هذا الراوى نفسه وهو عبد العزيز بن هاشم ما ينتسب هو بدوره إلى إحدى أسر موالى بني أمية (بني عبد الله بن خالد) . ولا نعرف أن اسمه هو ولا أسماء آباءه وأجداده قد أثارت في نفوس مواليه الأمويين استنكاراً ولا أذنة .

(١٨٧) في التعليق السابق أشرنا إلى غرابة ما يذكره راوى الخبر عن استنكار الأمير لتسمية جماعة من موالى الخلفاء بأسماء العرب . وأغرب منه ما يذكر هنا من أن والد القاضي مسرور - واسمه محمد - كان مولى من عشاق أحد أمراء بني أمية دون تعيين اسمه . ونحن نعرف أن مسروراً هذا كان ابن محمد بن سعيد بن بشير قاضي الجماعة للأمير الحكم بن هشام . ووجه الغرابة في هذا الخبر أن كل من ترجعوا لمحمد بن بشير لم يذكروا شيئاً عن ولائه ، بل إنهم أكدوا كونه عربياً صريح النسب ، ينتهي إلى قبيلة معافر اليمنية ، وأن أصله من الجند النازلين بباجة حينما وزع أبو الخطاب الكلبي حرب الأندلس على الكور المهتدة فخص الجند المصريين منهم كورثان : تدمير (مرسية) وباجة في غرب الأندلس ، ولهذا فإن القاضي عياض مثلاً يذكر في عقب ذلك في ترجمته (ترتيب المدارك ٢/ ٤٩٣) أن « عداؤه في عرب مصر » . ولم تكن كلمة « الجند » تطلق إلا على العرب الخلفاء . ولم يشر أحد ممن ترجم لمحمد بن بشير إلى أنه كان مولى عشاق لأحد ، ولو كان صحيحاً أنه مولى لفت ذلك نظر من ترجعوا له واختصوه بالملاحظة ، كما فعل المؤلفون دائماً حينما وقموا على خبر قاض من الموالى . وقد رأينا ذلك في ترجمة القاضي عمرو بن عبد الله بن ليث الملقب بالقبعة الذي ولاه الأمير محمد بن عبد الرحمن قضاء الجماعة ، فحمد بن حارث الخشني يقول في ترجمته : « كان مولى » وهو أول من وثق قضاء الجماعة للخلفاء من الموالى « فشق ذلك على العرب . . وتكلموا فيه ، فبلغ ذلك الأمير محمداً رحمه الله فقال : وجدت فيه ما لم أجد فيهم » . (كتاب القضاة ص ١١٧ - ١١٨) . وهذا النص نفسه يدلنا على أن أول من نال حطة القضاء من الموالى كان في زمن الأمير محمد في حدود سنة ٢٥٠ أو ٢٥١ (٨٦٤ - ٨٦٥) وأن ذلك أثار ثائرة العرب . كذلك ترجم ابن بشكوال في الصلة (رقم ٦٣٧ لفقيه من نسل محمد بن سعيد بن بشير يدعى عبد الله بن إبراهيم وعاش بين سنتي ٤١٤ و ٤٩٨ ، فقال في رفع نفسه إنه معافى ، ولم يذكر ولده . هذا والمؤرخ الوحيد فيما نعرف الذي ذكر أن محمد بن بشير كان من الموالى هو ابن عبد البر كما رأينا فيما سبق أن نقله عنه ابن حبان في هذه القطعة من المتبصير في أول الكلام عن قضاء الأمير عبد الرحمن بن الحكم . وقد لفت هذا الخلاف نظر ابن حبان ، فقال : « وهذا من اختلافهم قبيح » ، ولو أنه لم يدل برأى قاطع في الموضوع .

ونرى هنا مظهراً آخر من مظاهر غرابة هذا الخبر الذي يستند ابن حبان إلى قاضي الجماعة أسلم بن عبد العزيز .

(١٨٨) عن سعيد بن سليمان البلوطى أو الغافق انظر - فضلا عما أورده ابن حيان هنا - ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٧٥ ؛ الحشى : قضاة ص ١٠٧ - ١١٣ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ - ٧٢ ، ١٠٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٤٧/١ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢١/٣ ، ٤٣ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٤ .

(١٨٩) فحص البلوط El Valle de los Pedroches كورة تضم السهل المنبسط الممتد في شمال غرب قرطبة ، وكانت أهم مدنها على عهد الإسلام في الأندلس بطروش أو بطروج Pedroche . وغافق (التى أصبحت تدعى اليوم Belacazar) . انظر ياقوت : معجم البلدان ٤/٣٦٥ ؛ الإدريسي ص ١٧٥ ، ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٤٠ - ١٤٣ من النص العربى و ١٦٨ - ١٧١ من الترجمة الفرنسية ؛ الحلة السراء ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ١٧٩/٢ والتعليق رقم ١ .

(١٩٠) أبو أيوب سليمان بن أسود بن سليمان الغافق القرطبي ، ولى قضاء الجماعة في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد مرتن ، وكان آخر قضاة . ترجم له ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٥٤٧ ؛ الحشى ص ١٢٦ - ١٤١ ، ١٤٤ - ١٥٤ ؛ ابن القوطية : تاريخ ٧٢ - ٧٣ ، ١٠١ ؛ ابن سعيد : مغرب ١٥١/١ - ١٥٢ ؛ النباهى : مرقبة ص ٥٦ - ٥٩ .

(١٩١) كان حصن غافق على عهد المسلمين قاعدة كورة فحص البلوط التى مر التعليق على اسمها . وهو منسوب إلى قبيلة غافق بن الشاهد بن علقمة بن عك بن عدنان التى يقول عنها ابن حزم : « ودارهم بالأندلس معروفة باسمهم في الجوف في شمال قرطبة » (جهرة ص ٣٢٨) ، وهو يعنى بذلك حصن غافق المذكور ، ويضيف ابن حزم إلى ذلك أنه كان منهم أمير الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافق صاحب الغزوات المشهورة في أفرنجة (فرنسا) والذي استشهد أخيراً في بلاط الشهداء (موقعة بواتيه) . وقد أفرد صاحب « الروض المعطار » مادة لغافق (ص ١٣٩ من النص العربى ، وانظر تعليق ليقى بروفنسال على هذا الموضوع في ترجمته الفرنسية للروض ص ١٦٧ حيث يقول إنه لم يمكن تحديد موقع هذا الحصن الآن ، إذ أنه اندثر ولم يبق ذكر لاسمه العربى القديم) . على أن الباحث الإسباني فليكس إيرنانديث جنمينث قد أعاد دراسة هذا العلم الجغرافى في بحث طريف بالغ القيمة ، وانتهى من هذه الدراسة إلى أن هذا الحصن قد احتفظ مدة طويلة باسمه العربى محرفاً بعد أن استولى عليه المسيحيون في صورة Gahet ثم Gahete ، ثم استبدل بهذا الاسم اسم آخر أصبح هو الجارى حتى اليوم وهو Belalcazar ويصدق اليوم على قسرية صغيرة تتبع بلدة (إينوخوسا دل دوكن Hino josa del Duque » وعلى بعد ثمانية كيلومترات من هذه البلدة . وهى تقع على بعد نحو مائة كيلومتر إلى الشمال الغربى من قرطبة . انظر :

Felix Hernandez Jimenez : Estudios de Geografia histórica española,
VII : Gafiq, Gahet, Gahete . = Belalcazar, Al-Andalus, IX, 1944, pp. 71 - 109.

(١٩٢) تقع ماردة mérida في غرب الأندلس على بعد نحو مائتى كيلومتر إلى شمال إشبيلية (انظر الروض المعطار . ص ١٧٥ من النص و ٢١٠ من الترجمة ، وكذلك مقال ليقى بروفنسال عنها في دائرة المعارف الإسلامية ٢٧/٣ ٥٢٧ والمراجع الواردة في هذين الموضعين) .

(١٩٣) أبو عثمان سعيد بن عثمان الأعناق (أو المناقي) القرطبي ، ولد سنة ٢٣٣ (٨٤٧ - ٨٤٨) وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ويحيى بن ابراهيم بن مزين ومحمد بن عبد السلام الخشني ، ورحل إلى المشرق ، فلق جماعة من أصحاب الحديث منهم نصر بن مرزوق ، وسمع في مصر على يونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكيم والخارث بن مسكين وغيرهم ، وأخذ عنه الكثيرون في الأندلس ، وتوفي سنة ٣٠٥ (٩١٧) . انظر في تربيته ابن القرضي : تاريخ ، رقم ٤٨٤ الحميدي : جذوة ، رقم ٤٧٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ٩٠ ، ١٣٣ ، ١٤٩ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٨٠٣ ؛ ابن عداري : بيان ١٧٩/٢ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٣ ؛ المقرئ : نفح ٣٨٩/٣ ؛ والقلمة مجهولة المؤلف في تاريخ عبد الرحمن الناصر ، ص ٥٦ من النص العربي و ١٢٥ من الترجمة الإسبانية .

(١٩٤) أبو سعيد عبد الرحمن بن ابراهيم الدمشقي المعروف بدحيم قاضي فلسطين والأردن . ولد سنة ١٧٠ (٧٨٦-٧٨٧) وسمع من سفيان بن عيينة وابن مسلم وغيرهما ، وتوفي سنة ٢٤٥ (٨٥٩ - ٨٦٠) . انظر في تربيته الذهبي : العبر في خبر من غير ، ط . الكويت ١٩٦٠ ، ٤٤٥/١ .

(١٩٥) أبو عمرو الخارث بن مسكين بن محمد بن يوسف ، مولى محمد بن زياد بن عبد العزيز بن مروان ، فقيه مصري مشهور ، تلمذ على الطبقة الأولى من أصحاب الإمام مالك المصريين من أمثال عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشباه بن عبد العزيز ، وكان فقيها ورعا زاهداً ، وولى قضاء مصر ، وتوفي سنة ٢٤٥ (٨٥٩ - ٨٦٠) . انظر في تربيته : أبا عمر محمد بن يوسف الكندي : قضاة مصر ، ط . روما سنة ١٩٠٨ ، ص ١٤١-١٤٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦٩ - ٥٧٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٠٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٣٠٨/١ ؛ ١٤٤/٢ .

(١٩٦) أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون ، فقيه إفريقية المشهور ، تلمذ بمصر على عبد الرحمن ابن القاسم وتفقه به ، وجمع من صباه كتاب « المدونة » التي أصبحت تعد من أمهات كتب الفقه المالكي ، وولى قضاء القيروان ، وتوفي سنة ٢٤٠ (٨٥٤) . وترجماته في كتب الطبقات والرجال أكثر من أن يحال فيها على كتاب يمينه . ويمكن أن نشير هنا إلى أهمها : الخشني : طبقات علماء إفريقية ، ط . الجزائر ١٩١٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٣٦ ؛ أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني : طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين علي الشاذلي ونعيم حسن الياني ، تونس سنة ١٩٦٨ ص ١٨٤ - ١٨٧ (وانظر قائمة المراجع الوافية التي أوردها المحققان في حاشية هذا الموضوع) ؛ عبد الرحمن ابن محمد الدباغ : معالم الإيمان ، ط . تونس ١٣٢٢ هـ . ٤٩/٢ - ٦٨ ؛ المالكي : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ٢٤٩/١ - ٢٩٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٨٥ - ٦٢٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ، ص ١٦٠ - ١٦٦ ؛ النباهي : مرقبة ص ٢٨ - ٣٠ وانظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ٢٨٠/٢ - ٢٨٤ .

(١٩٧) ولي أبو العباس محمد بن الأغلب على إفريقية فيما بين سنتي ٢٢٦ و ٢٤٢ (٨٤١ - ٨٥٦) .

(١٩٨) ورد النص المتقدم في كتاب القضاة للحشني (ص ١٠٧ - ١٠٨) ولكن النصين ليسا متطابقين تماما . ويبدو أن ابن حيان لم يعتمد هنا على أصل مكتوب موثق لكتاب الحشني ، ولعله اعتمد في إثباته على ذاكرته ، بدليل قوله عن تاريخ ولاية سعيد بن سليمان القضاء للأمير عبد الرحمن : « أحسبه في سنة أربع وثلاثين ومائتين - والشك متى - » . فالذي جاء في نص الحشني المطبوع يختلف عما هنا اختلافا له قيمته : « قال محمد (ابن حارث الحشني) : ولم أسمع بتاريخ ولايته القضاء متى كان ، غير أنه كان بلا شك بعد سنة أربع وثلاثين ومائتين » (ص ١٠٨) .

(١٩٩) ورد هذا النص أيضا في ترجمة سعيد بن سليمان في كتاب الحشني (ص ١٠٨ - ١٠٩) مع اختلافات قليلة إلا أنها تدل على أن ابن حيان إما كان يعتمد على ذاكرته في النقل عن تقدمه من المؤرخين أو أنه كان يعتمد إعادة صوغ النصوص وكتابتها طالما احتفظ بجوهر معناها ، ومن أمثلة تلك الاختلافات أن الحشني يستخدم لفظ « الأقرو ف » في المكان الذي استعمل ابن حيان فيه لفظ « القلنسوة » .

هذا وعلينا أن ننبه هنا إلى شيء تميز به النظام القضائي في الأندلس ، مما يدلنا عليه النص الذي بين أيدينا ، ونعني به وجود هذه الطائفة من « الوكلاء الذين يخاصمون عن الناس عند القضاة » ، وهم الذين يسميهم بعد ذلك « الخصماء » (ويسمى الحشني « الخصوم ») ، ويبدو أن هؤلاء كانوا يتخذون من عملهم حرفة يتكسبون بها ، بدليل ما يذكره المؤرخ بعد ذلك من أن القاضي حلف ألا يخاصموا عنده سنة « فكاد أن يورثهم الفقر » ، وعمل هؤلاء « الوكلاء » أو « الخصماء » يكاد أن يكون مطابقا تماما لتمامي « المحامين » في نظمتنا القضائية الحديثة على ما نرى من وصف هذا النص له .

(٢٠٠) أبو عبد الله محمد بن عمر بن لبابه القرطبي مولى عثمان بن عبيد الله بن عثمان ، روى عن عبد الأعلى بن وهب وأبان بن عيسى بن دينار ومحمد بن وضاح ويحيى بن ابراهيم بن مزين ومحمد بن أحمد العتيبي وغيرهم ، وكان مشاورا في أيام الأمير عبد الله بن محمد ، ثم انفرد بالفتيا في أول أيام عبد الرحمن الناصر ، وولى الصلاة بقوطية ، وكان مولده سنة ٢٢٥ (٨٤٠) ، وتوفي سنة ٣١٤ (٩٢٦) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٨٧ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٦١٠ ؛ القصبى : بنية ، رقم ٢٢٢ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٢ ؛ الحشني : قضاة ص ٣٦ - ٣٧ ، ٩٠ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٦ - ١٣٧ ، ١٦١ - ١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ - ٨ ، ٤٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ النباهي : مرقة ص ٥٠ ، ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ ومن الأبحاث الحديثة : بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٤٥ ؛ لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٥٢ - ١٥٥ .

(٢٠١) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة القرطبي مولى آل عتبة بن أبي سفيان ، سمع بالأندلس من يحيى بن يحيى وطبقته ، ورحل فسمع من سحنون بن سعيد بافريقية ومن أصبغ بن الفرغ بمصر ، وهو صاحب كتاب « المستخرجة » الذي يعتبر من أمهات كتب الفقه المالكي بالأندلس والمغرب ، وتوفي سنة ٢٥٤ أو ٢٥٥ (٨٦٨ - ٨٦٩) انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١١٠٢ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٥ ؛ القصبى : بنية ، رقم ٩ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٨١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٤٤ -

١٤٦ : المقرئ : نفع ٤١٤/٢ - ٤١٥ ، ١٦٤/٤ ، ومن الأبحاث الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (الترجمة العربية (٢٨٤/٣ - ٢٨٥ : لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ١٤٣ - ١٥٢) وفى هذا الكتاب بحث واف جمع فيه المؤلف كل ما يتعلق بنشاط العتي فى ميدان الفقه وأورد تحليلا طيبا لما بقى من مادة كتاب « المستخرجة » أو « العتبية » والقطع المخطوطة منها فى شتى مكنتيات العالم) .

(٢٠٢) ورد هذا الخبر فى كتاب القضاة للخشنى مع اختلافات طفيفة (ص ١١٢) .

(٢٠٣) جاء هذا النص فى الترجمة التى أفردتها ابن الفرضى لسعيد بن سليمان (رقم ٤٧٥) .

(٢٠٤) فى ترجمة أبى بكر يحيى بن معمر الألهانى الإشبيلى انظر ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ١٥٥٣ : الحميدى : جذوة ، رقم ٩٠٤ : ابن حزم : جمهرة ص ٤٣٣ : القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٥١ - ٥٥ : ابن سعيد : المغرب ١/١٤٧ - ١٤٨ : الخشنى : قضاة ص ٩٨ - ١١٠ : النباهى : مرقبة ص ٤٤ - ٤٥ ، ١٤٢ ، ١٥٧ : ومن الأبحاث الحديثة لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ٦٨ - ٦٩ ، ٨١ - ٨٢ ، ٨٤ .

(٢٠٥) ذكر ابن حزم فى الجمهرة (ص ٤٣٣) أن بيت القاضى يحيى بن معمر ينتسب إلى حمير ، وأن جده الأعلى حوشب ذا ظليم بن عمرو الألهانى الحميرى قتل مع معاوية بصفين . أما الداخل منهم إلى الأندلس فقد كان جد يحيى المباشر عمران بن منير بن حوشب ذى ظليم ، مع طالعة بلج بن بشر القشبرى من أهل الشام .

(٢٠٦) كذا أيضا تسميته الموضع فى كتاب الخشنى (قضاة ص ٧٩) : مغرانة . ولو أنه قال فى التعريف به إنها « حارة » من طرف الحاضرة لا « قرية » كما يذكر ابن حيان هنا ، ونرجح أن يكون الاسم فى كلا الموضعين محرفا عن « مغرانة » (بالقاف) ، والقاف والذين كثيرا ما تلتبس فى المخطوطات المغربية والأندلسية إذ أن كليهما تكتب بنقطة مفردة من أصل . ولابد أن (مقرانة) هذه هى نفسها « مقرينة » التى يفرد لها ابن سعيد فصلا فى كتاب المغرب (٢٨٨/١) تحت عنوان « كتاب النسرينة » ، فى حلل قرية مقرينة » ، وقال عنها إنها « قرية فى نطاق حضرة لإشبيلية » كان ينتسب إليها الشاعر الوشاح الزجال أحمد المقرئ المعروف بالكساد . ويبدو أنها كانت فى البدء ضاحية من ضواحي لإشبيلية ، فلما اتسع عمران هذه المدينة اتصلت بها وأصبحت من أحيائها ، ومازالت كذلك حتى اليوم . وقد كان هناك باب من أبواب سور لإشبيلية يطل على هذا الحى ويحمل اسم « باب مقرانة » أشار إليه ابن الأبار فى معرض الكلام عن خروج ابن عمار وزير المعتمد بن عباد من لإشبيلية إلى مرسية (الحلة السراء ٢/١٤٠) ، وقد ذكر الدكتور حسين مؤنس فى التعليق على هذا الموضع أن هذا الاسم نسبة إلى قصر رومانى قديم كان هناك يدعى قصر مكارىوس macarius وأنه مازال قسم من السور العربى القديم باقيا هناك حتى اليوم) . وقد أشار لىي يروفنسال إلى باب مقرانة أو مقرينة وذكر أنه كان من أبواب لإشبيلية الشمالية وكان يقع إلى الغرب من « باب قرطبة » (انظر تاريخه ٣/٣٣٧ - ٣٣٨ والخريطة التى أوردها لإشبيلية فى القرن العاشر الميلادى) .

(٢٠٧) أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري ، الفقيه المصري المعروف تلميذ مالك بن أنس والليث بن سعد ، انتهت إليه رئاسة المذهب المالكي بمصر بعد وفاة عبد الرحمن بن القاسم سنة ١٩١ (٨٠٦) ، وعليه تلمذ كثير من فقهاء مصر وأفريقية والأندلس ، وتوفي سنة ٢٠٤ (٨١٩) . انظر في ترجمة القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ٤٤٧ - ٤٥٣ ؛ ابن فرحون : الديباج ص ٩٨ - ٩٩ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ، بتحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٣٠٥-١ ؛ وعن أثر فقه أشهب في الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية الشرقية .. » ص ١٣٤ ، ١٣٨ - ١٣٩ .

(٢٠٨) أبو عبد الله أصبغ بن الفرّج بن سعيد بن نافع مولى عبد العزيز بن مروان ، الفقيه المصري المعروف ، صعب جلة أصحاب مالك المصريين من أمثال عبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ، على أنه كان أكثر تفقهه بابن القاسم ، ورأس مالكية مصر بعد وفاة أشهب ، وتوفي سنة ٢٢٥ (٨٤٠) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٦١ - ٥٦٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٩٧ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٣٠٨/١ ؛ وانظر عن أثره في مالكية الأندلس بحثنا عن « التيارات الثقافية الشرقية .. » ص ١٣٦ - ١٣٧ .

(٢٠٩) أبو القاسم بن خالد بن سعد القرطبي ، كان من أئمة الحديث في الأندلس بصيراً بعلومه وطرقه ورجاله ، وله كتاب في رجال الأندلس ورواة الحديث فيه ألفه للحكم المستنصر ، وكان الحكم كثير الإعجاب به يضعه في مصاف كبار أهل التجريح والتعديل المشاركة من أمثال يحيى بن معين . وتوفي خالد سنة ٣٥٢ (٩٦٣) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٣٩٦ ؛ الحميدى : جدوة ، رقم ٤٠٩ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٢٩٥ ؛ وانظر بونس بوييس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢١٠) العنزة (بفتحين) هي العصا القصيرة . ووضع هذه العصا للإمام في المصلّى يراد به تحديد المكان الذي يقوم فيه لكى يؤم المصلين . ويدل هذا على أن المصليات كانت تخلو من المحاريب الثابتة كما سبق أن ذكرنا في تعليق سابق (انظر رقم ١٧٤) .

(٢١١) أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن باز القرطبي المعروف بابن القزاز ، سمع من يحيى بن يحيى الليثي وسعيد بن حسان وأبي زيد بن ابراهيم وغيرهم من شيوخ المالكية بالأندلس ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن يحيى بن عبد الله بن بكير . وأبي الطاهر أحمد بن أبي السرح وأخذ بإفريقية عن فقيها المشهور سمعون بن سعيد ، فلما عاد إلى الأندلس أصبح من الفقهاء المشهورين المقدمين في الفتيا ، على أنه فيما يبدو أثر حياة الجهاد ، فخرج إلى مجريط (مدريد) للرباط ومعه خمسة من تلاميذه القرطبيين منهم ابنه أحمد وأبو عبد الله محمد بن عبد البر وأحمد بن خالد وأحمد بن أبي زرعة ، ولكنه مرض في الطريق إلى مجريط ، فحمله تلاميذه إلى طليطلة حيث أدركته الوفاة سنة ٢٧٤ (٨٨٧) . انظر في ترجمته ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٠ ؛ الحميدى : جدوة ، رقم ٢٥٨ ، ابن الأبار : تكملة (بتحقيق ابن أبي شنب وألفريد بيل) ط . الجزائر ٢٩ ، رقم ٢ ابن فرحون : ديباج ص ٨٤ ، ومن الأبحاث الحديثة : محمود على مكى : مدريد العربية ، القاهرة ١٩٦٧ . ص ١١٧ .

(٢١٢) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتيق ، فقيه مصر المشهور ، تلمذ على الإمام مالك بن أنس وأطال صحبته وحفظ فقهه ، وكانت له رئاسة المالكية في مصر حتى وفاته سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعليه تفقه كبار رجال المذهب المالكي في مصر وأفريقية والأندلس وموطدو دعائم هذا المذهب في جميع تلك الأقطار من أمثال أبا صبيح بن الفرج والحارث ابن مسكين ، وسجنون بن سعيد ، ويحيى بن يحيى وعيسى بن دينار . ومن سماعه جمع سحنون كتاب « المدونة » ، وعيسى ابن دينار كتاب « الهداية » . انظر في ترجمته ترتيب المدارك للقاضي عياض ، المجلد الأول ص ٤٣٣ - ٤٤٧ ؛ وابن فرحون ديباج ص ١٤٦ - ١٤٧ ؛ والسيوطي : حسن المحاضرة ١/٣٠٣ ؛ ومن المراجع الحديثة بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ٣/٢٨٠ ؛ وعن تأثير عبد الرحمن بن القاسم في مالكية الأندلس انظر بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٣٤ - ١٣٨ .

(٢١٣) يصور هذا الخبر مدى التزام الفقهاء الأندلسيون بأراء عبد الرحمن بن القاسم وتمسكهم بها أشد تمسك . وقد فوه بذلك المؤرخون الأندلسيون منذ قديم واقتضروا به حتى إن أبا الوليد اسماعيل بن محمد الشافعي يقول في رسالته في فضل الأندلس : « وأهل قرطبة أشد الناس محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يولون حاكما إلا بشرط ألا يعدل في الحكم عن مذهب ابن القاسم » (المقرئ : نفع الطيب ٤/٢٠٢) . وقد أحصى الفقيه أبو إسحاق الفرناطي في القرن الثامن الهجري المسائل التي خالف فيها الأندلسيون مذهب ابن القاسم ، فلم تتجاوز ثمان عشرة مسألة (انظر لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي إلى الأندلس (الملحق ص ١٦٩ - ١٧٠ حيث نقل هذه المسائل عن مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ، ورقة ١٢٣٤) .

(٢١٤) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن كليب الإلبيري ، كان موصوفا بالزهد وولى الصلاة بمحاضرة لإبيرة ، وحدث عنه محمد بن أحمد بن مفرج وغيره ، وكانت وفاته سنة ٣٤٠ أو ٣٤١ (٩٥١ - ٩٥٣) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ رقم ٨٩٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٥٥ ، ٤٤٤ ؛ الخشنى : قضاة ص ٨٤ ، ٨٩ .

(٢١٥) القرآن الكريم ، سورة الشعراء ، آية رقم ٢٢٧ .

(٢١٦) أبو عمر أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الجباب القرطبي ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح والخشنى وإبراهيم بن محمد بن باز وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، فلقى كثيراً من أصحاب الحديث ، وعاد فكان إمام وقته في الأندلس في الفقه والحديث والعبادة ، وتوفي سنة ٣٢٢ (٩٣٤) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ٩٤ ؛ الحميدى : جلوة ، رقم ٢٠٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢١٧) من الغريب أن ابن حبان لم يترجم لسعيد بن بشير هذا بين من ترجم لهم من قضاة الأمير عبد الرحمن بن الحكم مع أن ابن الفرضي والخشنى - وهما من مصادر ابن حبان في هذا الجزء - يثبتان ولايته للقضاء . أما ابن الفرضي فإنه قد أفرد به ترجمة خاصة ، فضلاً عن أنه ذكر ولايته القضاء في معرض الكلام عن يحيى بن معمر الألهاني (ترجمة رقم ١٥٥٣) ، ومن نصه استكملنا ما ذهب في قطوع آخر الورقة من مخطوطة « المقتبس » كما يرى في المتن . وأما الخشنى فإنه اختصه كذلك

يترجمة قلى في كتابه ترجمة أبيه محمد بن بشير المتوفى سنة ١٩٨ هـ . (انظر تعليقنا السابق رقم ١٨١) . على أن ابن حيان ترجم مع ذلك لأخيه سرور محمد بن بشير الذى ولى أيضا قضاء الجماعة للأمير عبدالرحمن (انظر تعليقنا السابق رقم ١٨٠) . واسم سعيد المذكور هنا هو سعيد بن محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافى ، كان معينا لأبيه أيام ولايته القضاء للأمير الحكيم بن هشام ، وذكر الخشنى أن سبب ولايته القضاء هو حفظه لوديعة أودعها عنده ربيع القوس وستره لإياها عن الأمير على الرغم من توعده بالمقاب كل من ستر شيئا لهذا الرجل ، وأورده بعد ذلك خالفة أخرى من أعباره . على أن ابن حيان سوف يذكره بعد ذلك عند حديثه عن وفيات سنة ٢١١ ناقلا خبره عن ابن الفرضى والرازى . وأما عن تاريخ ولاية سعيد بن محمد بن بشير للقضاء فإن ابن حيان سوف يذكر أن الأمير عبد الرحمن استقضاء بعد والده ، وكذلك قال ابن الفرضى في ترجمته والقاضى عياض في أحد قوليهِ ، وهو أمر يبدو لنا عسيرا على التصديق إذ أن أباه توفى سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) أى في أيام الحكيم بن هشام وقبل ولاية عبد الرحمن ابنه بثمانية أعوام . ويذكر القاضى عياض في موضع آخر أن الحكيم إنما عهد بقضاء الجماعة بعد وفاة محمد بن بشير إلى الفرج بن كنانة الشذوفى ، وهذا أولى بالتصديق . انظر في ترجمة سعيد بن محمد بن بشير : ابن الفرضى : تاريخ ، رقم ٤٧١ ؛ ابن القوطية : تاريخ ، ص ٤٥ ، ٥٨ ؛ الخشنى : قضاة ص ٦٧ - ٧١ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٥ ، ٥٠٥ ، ٥٣٨ ؛ المجلد الثانى ص ٢٧ - ٢٨ ؛ النباهى : مرقبة ، ص ٢١ .

(٢١٨) ذكر الخشنى هذا الخبر في ترجمة يحيى بن معمر (ص ٨١ - ٨٢) وكذلك ابن الفرضى في ترجمة (رقم ١٥٥٣) والمقصود هنا بالكسوف إنما هو كسوف الشمس ، ولعل ما جاء في النص من لفظ « الكسوف » الوارد مرتين إنما هو تحريف للكسوف . وقد وصف ابن عذارى هذا الحدث بقوله : « وفى سنة ٢١٨ كان الكسوف العظيم الذى توارث معه الشمس وبدت الأظلام ، وكان ذلك قبل زوال الشمس في أواخر رمضان » ، وهذا التاريخ يقابل في التقويم الميلادى النصف الأول من شهر أكتوبر سنة ٨٣٣ . أما الخشنى فينقل عن محمد بن وضاح قوله : « صليت صلاة الكسوف مع ابن معمر في الجامع بقرطبة سنة ثمان عشرة ومائتين ، فصل وأحسن الصلاة ، ولم يقم الصلاة ، وطول في صلاته ، بدأ بالصلاة ضحى ، وقوم في القائلة (في الأصل : القابلة وهو تحريف) وقد تجلت الشمس ، وكثافى زمن الصيف » . ونص ابن حيان الذى ينقله عن الخشنى يختلف قليلا عما جاء في نص الكتاب المطبوع الذى بين أيدينا ، فهو أدق تحديداً للمسجد الذى أدت فيه صلاة الكسوف ، إذ هو ينص على أنه مسجد أبي عثمان بالربض الغربى ، بينما لفظ « الجامع » في النص المطبوع يوحى بأنه مسجد قرطبة الجامع . أما ما جاء في كتاب الخشنى من أن ذلك وقع « في زمن الصيف » فهو محل نظر ، إذ أن النصف الأول من أكتوبر لا يعتبر زمن صيف وقد خلا ما نقله ابن حيان من هذه الإشارة .

أما مسجد أبي عثمان المذكور فقد أشار إليه الخشنى في كلامه عن القاضى محمد بن بشير إذ قال إنه « كان يقضى في سقيفة معلقة بقبلى مسجد أبي عثمان ، وكانت داره في الدرب الذى بقبلى ذلك المسجد » (كتاب القضاة ص ٥٤ - ٥٥) ، ونقل لى بروفنسال عن القطعة المتعلقة بالأمير الحكيم بن هشام من كتاب المقتبس (ورقة ١٢١ ظ) تحديداً أوفى لمكان هذا المسجد فقال إنه كان في مدخل « الربض الغربى » وفي حذاء قصر الخلافة ، كذلك ذكر المؤرخ الفرنسى أن ابن حيان أشار في موضع آخر من كتاب المقتبس أثناء الحديث عن إمارة عبد الرحمن بن الحكم (ورقة ١٧٨ ظ) فقال إنه لما شرع الأمير في الزيادة المنسوبة

إليه بالمسجد الجامع بقرطبة في سنة ٢١٨ (٨٣٣) نقلت صلاة الجمعة إلى مسجد أبي عثمان المذكور (انظر ليني بروذنسال : تاريخ ١٢٩/٣ ، ٣٧٦) .

(٢١٩) عن الأسوار بن عقبة انظر ابن الفرغى : تاريخ ، رقم ٢٧٧ ؛ الخشني : قضاة ، ص ٨٥ - ٨٦ ؛ ابن القوطية ص ٥٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٤ ، ٥٣ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٨ . وقد ذكر ابن الفرغى وابن سعيد أن الأسوار ظل على القضاء حتى وفاته سنة ٢١٣ (٨٢٨) وهما ينقلان هذا الخبر عن ابن عبد البر . أما الخشني - ويتابعه على رأيه القاضي عياض - فإنه يذكر أنه عزل عن القضاء ثم رأى الأمير إعادته إليه فأبى واعتذر بضعف بدنه وكبر ولده .

(٢٢٠) سيفرد ابن حيان ترجمة لحمد بن عيسى الأعشى عند الكلام عن الوفيات .

(٢٢١) في ترتيب المدارك للقاضي عياض (٢/٢٤) : « بفتح العين والقاف » .

(٢٢٢) في ترجمة ابراهيم بن العباس المرواني انظر الخشني : قضاة ص ٨٩ - ٩٤ ؛ ابن حزم : جمهرة ص ٩٠ (وهو يورد في هذا الموضع نسب ابراهيم الكامل على نحو ما ذكر ابن حيان تماما) ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٢٠ ، ٣٨ - ٣٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/١٤٨ - ١٤٩ ؛ النباهي : مرقبة ص ١٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٨ - ٥٩ . وانظر التعليق القادم رقم ٣٤٧ حيث سنورد مكانه في جدول نسب أسرته المروانية .

(٢٢٣) من الواضح أن المقصود هو أن القاضي ابراهيم بن العباس إنما اتهم بأنه يسعى إلى تدبير مؤامرة تؤدي إلى أن يستأثر بإمارة الأندلس دون عبد الرحمن بن الحكم ، وذلك اعتياداً على شرف نسبه ، إذ أن جده الأعلى هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي فتحت الأندلس في عهده ، ومن هنا توجهت التهمة على القاضي وعلى صديقه يحيى بن يحيى الذي لحقته الريبة في أنه قد يكون من الساعين في الدعوة له واستتلاف القلوب حوله .

(٢٢٤) عاق النباهي على غير عزل ابراهيم بن العباس المرواني عن القضاء برأى عبد الملك بن حبيب بأن هذا الفقيه إنما قاس فتواه على اعتذار الإمام محمد بن إدريس الشافعي عن ولاية القضاء وكان أمير المؤمنين قد عرضها عليه وعزم عليه في ذلك ، فاعتذر بأمور منها أن قال له : « إن هذا الأمر لا يصلح له من يشركك في نسبك » ، (فالمعروف أن نسب الشافعي ينتهي إلى هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف) ، فقبل الخليفة اعتذاره وأقلع عنه (انظر المرقبة العليا ص ١٥) .

(٢٢٥) موسى بن حدير مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل رأس بيت من أئمة بيوت الموالى الأمويين من توارثوا كبرى مناصب الدولة في ظل أمراء بني أمية وخلفائهم . وكان أبوه حدير بواباً على باب السدة في أيام الحكم بن هشام حينما نشبت ثورة الرضخ سنة ٢٠٢ (٨١٧) . ويذكر ابن القوطية عنه أنه رفض أن يصعد بأمر الإمام الحكم حينما كلفه بأن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين (تاريخ ص ٥٥ - ٥٦) . أما موسى بن حدير المذكور هنا فقد ولي الخزانة الكبرى على ما يذكر ابن حيان هنا ، وكما يقول أيضاً الخشني (قضاة ص ٩٢ - ٩٣) وابن القوطية (تاريخ ص ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٨)

وقد توارث بيت بني حدير بعد ذلك كبريات الخطوط إلى نهاية الدولة الأموية . ولنا في معرض استقصاء رجال هذا البيت ، ولكننا ننبه هنا إلى ضرورة التفريق بين ثلاثة منهم يطلق عليهم جميعا اسم موسى بن حدير : أولهم هو موسى صاحب الخزائن الذي ذكرناه وهو جد هذا البيت المشهور ، والثاني هو حفيده موسى بن محمد بن موسى بن حدير ، وهو الملقب بالزاهد ، وكان اخباريا حافظا لتاريخ دولة موالية بني أمية أديبا شاعرا ذا بديهة وروية ، وكان من ندماء الأمير عبد الله بن محمد (انظر ابن حيان : المقتبس نشر أنطونيا ص ٣٤ - ٣٥ ؛ وابن الأبار : الحلة السيرة ٢٣٥/١ - ٢٣٦) ، والثالث هو الحاجب الوزير أبو الأصمغ موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير ، ولي المدينة في أيام الأمير عبد الله بن محمد سنة ٢٩٣ (٩٠٦) وظل في هذا المنصب حتى وفاة الأمير عبد الله وخلافة عبد الرحمن الناصر ، وفي سنة ٣٠٩ (٩٢١-٩٢٢) قدمه الناصر على الحجابة ، فبقى فيها حتى وفاته سنة ٣١٩ (٩٣١) . (انظر في ترجمته ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ؛ ابن الأبار : الحلة ص ٢٣٢ - ٢٣٧ ؛ الحميدي : الجذوة ، رقم ٧٨٧ ؛ ابن عذاري : البيان المغرب ١٨٢/٢) .

(٢٢٦) يعنى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد ، وهو الذى ولي الخلافة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر في سنة ٣٥٠ (٩٦١) ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وتوفي سنة ٣٦٦ (٣٧٧) . ومن المعروف أنه فكان عالما واسع الاطلاع ، وقد نقل الخشني عنه في عديد من المواضع في كتاب القضاة كما نرى هنا ، ونقل عنه كذلك غيره من العلماء مثل ابن الفرضي في غير موضع . ويقول عنه ابن حيان نفسه - فيما ينقل عنه ابن الأبار في الحلة (٢٠٢/١) : « وكان مع هذا كثير التهم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها ، وقلما تجد كتابا كان في خزائنه إلا وله فيه قراءة ونظر من أى فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه ، إما في أوله أو في آخره أو في تضاعيفه ، نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ، ويأتى في ذلك بفرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ويحاضررون » به وينقل المقرئ كذلك عن ابن الأبار قوله عن الحكم : « عجبنا لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكره وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر » (نفع الطيب ٣٧١/١) .

(٢٢٧) الحاجب موسى المذكور هنا هو الذى أشرنا إليه في آخر تعليقنا السابق رقم ٢٢٥ ، ونسبه الكامل هو موسى بن محمد بن سعيد بن موسى بن حدير .

(٢٢٨) كذا جاء في الأصل : « وأقسط قى حكمه » ، والنص منقول عن كتاب أحمد بن عبد البر ، غير أن ما نراه في كتاب المغرب لابن سعيد (١٤٨/١) - وهو بدوره ينقل عن نفس المصدر - يختلف عما جاء هنا اختلافا كاملا ، بل هو على العكس تماما ، اذ يقابل هذه العبارة لدى ابن سعيد : « فأحسن الحكم » ، بينما يقول ابن حيان إنه « أقسط » أى ظلم وجر ، ولهذا فقد ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن اللفظ ربما كان محرفا عن « قسط » أى عدل وأحسن . وذلك لأننا لم نر أحدا من تروجهوا لابراهيم بن العباس يهتم بالبحور ، وكل ما أعملوا عليه هو طواعيته ليحيى بن يحيى وانغماسه في شعبة .

(٢٢٩) سيفرد ابن حيان ترجمة لزونان الفقيه في الجزء الخاص بالوفيات .

(٢٣٠) لم ينص على ولاية محمد بن سعيد الإلبيري القضاء إلا أحد بن عبد البر ومن نقل عنه مثل ابن حيان هنا والنهاي في المرقبة ص ١٥ . أما الخشني فإنه يقول بعد الفراغ من الكلام عن سعيد بن سليمان آخر قضاة الأمير عبد الرحمن وأول قضاة ابنه محمد على رأيه : « وجدت في تسميته المستخرجة من ديوان القضاء أنه تلا سعيد بن سليمان في القضاء محمد بن سعيد ، فلا أدري إن كان محمد بن سعيد بن سليمان أو غيره . ولم أجد له خبراً ولا سمعت له عند من أدركت من العلماء ذكره ، حاشى اسمه ، فإنه موضوع مع جملة أسماء قضاة الجماعة في التسمية المستخرجة من الديوان » (قضاة ص ١١٣) . ونظن أنه مادام الخشني قد رأى هذا الاسم فعلا في وثيقة مستخرجة من ديوان القضاء بوصفه قاضياً للجماعة فلا بد أن تكون ولايته للقضاء صحيحة ، لاسيما وقد نص عليها مؤرخون آخرون مثل ابن عبد البر وابن حيان الذي ينقل عنه . ويبدو أن جهل الخشني وابن القوطية بخبر هذا القاضي راجع إلى أنه لم يبق في القضاء إلا فترة قصيرة عزل بعدها . (انظر ابن سعيد : المغرب ١/١٤١) . وقد أشار القاضي عياض في معرض الكلام عن فضائل يحيى بن يحيى إلى القاضي محمد بن سعيد ولكنه لم يمينه بالاسم ، بل ذكره بصفته : « قاضيا من قضاة قرطبة سباه بحيل المذهب كان أشار بن يحيى بن يحيى فكان طاعة له في قضاة لا يعدل عن رأيه » (ترتيب المدارك ١/٥٣٩) .

(٢٣١) ترجم ليخامر بن عثمان وذكر ولايته للقضاء كل من ابن الفرضي : تاريخ ، رقم ١٦٤٤ ؛ والخشني : قضاة ص ٩٤ - ٩٧ ؛ وابن سعيد : المغرب ١/١٤٩ - ١٥٠ .

(٢٣٢) الذي ورد في تاريخ ابن الفرضي في نسبة القاضي يخامر « الم . . » ، ويبدو المؤلف قد كتب أولا « المعافى » فعلا ، ثم بدا له في رأيه فأراد أن يحذف هذا اللفظ ويصححه مثبتا « الشعباني » كما جاءت عند الخشني . ويدل على ذلك أننا نراه ثبت نسبة « الشعباني » في ترجمة سعد بن معاذ ابن أخى القاضي يخامر ثم يقول : « المصحح عنه في النسب عن غير أحمد » . ونفهم من هذا أن النسخة التي اعتمد عليها ابن حيان من كتاب ابن الفرضي كانت قد كتبت قبل أن يدخل المؤلف عليها هذا التصحيح الذي ينص على أنه أخذه من مؤرخ آخر غير أحمد (بن عبد البر) ، ولعل هذا المؤرخ هو نفسه محمد بن حارث الخشني .

(٢٣٣) سترجم ابن حيان لمعاذ بن عثمان فيما بعد .

(٢٣٤) أبو عمر سعد بن معاذ بن عثمان بن حسان بن يخامر الشعباني القرطبي ، وأصله من جيان ، وتولى أبوه معاذ وعمره يخامر قضاة الجماعة بقرطبة ، وحل إلى المشرق فروى بمصر عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وأخيه سعد ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، وعاد إلى بلده ، فكان رأسا في الفتيا ، وكان يتحلل إليه في المسجد الجامع بقرطبة ويسمع منه ، وتوفي سنة ٣٠٨ (٩٢٠ - ٩٢١) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، تاريخ ، رقم ٥٣٥ ؛ الحميدي : جذوة ، رقم ٤٦٢ ؛ الخشني : قضاة ، ص ٩٤ ، ١٨٥ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢٥ ؛ وانظر أخيراً ابن حيان : المقتبس ، نشر أنطونيا ، (ص ٧ - ٨) .

(٢٣٥) جيان Gaén مدينة تقع إلى شرق قرطبة وتبعد عنها بنحو مائة كيلومتر وإلى شمال غرناطة وتبعد عنها بمثل هذه المسافة . انظر عنها المادة التي كتبها زايبولد في دائرة المعارف الإسلامية ٢/٦٠٨ - ٦٠٩ ، ومادة الروض المطان ص ٧٠ - ٧٢ من النص العربي و ٨٨ - ٩٠ من الترجمة ، والمراجع المذكورة في هذين الموضعين .

(٢٣٦) الذى جاء فى كتاب الخشنى (ص ٩٤) : « قلعة الأشعث » لا « الأشعوب » كما ورد فى نص ابن حيان هنا ، على أن مؤرخنا فى موضع آخر من كتاب المقتبس (نشر أنطونيا ص ١١٥) يكتبه « قلعة الأشعث » موافقا للخشنى ، وذلك فى معرض الحديث عن غزوة قادها هشام بن عبد الرحمن بن الحكم والقائد ابن أبى عبدة إلى تدمير سنة ٢٨٣ (٨٩٦) وبدأ فيها بقتال سعيد بن هذيل الثائر بحصن المتتلون Monléon من كورة جيان ، ويقول ابن حيان فى هذا الموضع إن القائدين نزلا على « قلعة الأشعث » وأوقعا بما يحيط بها من بسائط وزروع . على أن الاسم ورد فى موضعين من تاريخ ابن الفرضى بصورة أخرى هى « قلعة الأشعب » ، وإن كان هذا المؤلف قد اضطرب فى تحديد الكورة التى كانت تتبعها هذه القلعة ، فهى فى الموضع الأول (ص ١٩٤) « من كورة لبيرة » ، وجاء ذكرها فى معرض الحديث عن رجل ينتمى إلى آل سعد بن معاذ الذنب كان منهم القاضي يخامر بن عثمان المذكور هنا ، وأما فى الموضع الثانى (ص ٣٥١) فإن ابن الفرضى جعل « قلعة الأشعب » هذه تابعة لحيان ، والحديث فيه عن رجل كان من تلاميذ سعد ابن معاذ الفقيه . ولم نعلم المراجع الأخرى على تحديد موضع هذه القلعة ولا تحقيق صحة اسمها ولو أنه يغلب على ظننا أنها لابد أن تكون واقعة على حدود كورق جيان وللبيرة . وهذا هو ما جعل ابن الفرضى ينسبها مرة إلى هذه ومرة إلى تلك .

(٢٣٧) يشير المؤرخ بقوله « من جند قنسرين » إلى ما يعرف باسم الأجناد ، وهى فرق الجنود الشاميين الذين كانوا قد قدموا إلى الأندلس فى طاعة بلج بن بشر القشيري فى سنة ١٢٣ (٧٤١) ، فلما قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي واليا على الأندلس قرر توزيعهم على الكور مشاركين فى بعضها للبلديين الأول ، وراعى فى تفريقهم أن يسكن كل جند منهم منطقة تشبه من ناحية البيئة الجغرافية القطر الذى أتوا منه من أقطار الشرق العربى : فأسكن جند مصر فى كورق أكشونة وباجة وبعضهم بكورة تدمير (مرسية) ، وأنزل جند دمشق فى لبيرة (غرناطة) ، وجند الأردن فى رية (أرشونة ومالقة) ، وجند فلسطين فى شذونة ، وجند قنسرين فى جيان ، وجند حمص فى إشبيلية ولبلة . فالإشارة هنا إلى « جند قنسرين » يقصد بها أولئك العرب الشاميون الذين نزلوا فى كورة جيان منذ أيام أبو الخطار الكلبي . أنظر حول « الأجناد » و « الكور المجندة » نص ابن الأبار فى الحلة السبراء ٦١/١ - ٦٣ وتعليق الدكتور حسين مؤنس على هذا الموضع ، وكذلك ليقى بروفنسالى تاريخ ٤٩/١ ؛ وحسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٦٠ .

(٢٣٨) هو عبد الله أو عبد الرحمن بن الشعر بن نمير الذى كان شاعر عبد الرحمن بن الحكم ونديمه ومنجمله . انظر فى ترجمته وأخباره : ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط . سعيد العريان) ٣٦٤/٢ . ٢٥٥/٥ - ٢٥٦ ؛ الخشنى : قضاة ص ٩٥ - ٩٦ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٦٠ ؛ أخبار مجموعة ص ١٣٧ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٨٠ ؛ ابن الفرضى تاريخ رقم ٦٨٩ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٥٠٥ ؛ الضبي : بنية رقم ٨٤٥ ؛ ابن عذارى : بيان ٨١/٢ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩٣-٩٢ ؛ ابن سعيد : مغرب ٤٧/١ ، ٥٠ - ٥١ ، ١١٥ ، ١٢٤ - ١٢٧ ؛ ابن الأبار : الحلة ١١٦/١ - ١١٨ ؛ ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٨ ؛ المقرئ : نفع ١٢٦/٤ ، ١٤٧/٥ ؛ وانظر أخيراً البحث الممتع الذى اختص به هذا الشاعر الأستاذ إلياس تيريس سادابا فى مجلة الأندلس ، المجلد الرابع والعشرين ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٤٤٩ - ٤٦٣ :

Elias terés Sádaba : Ibn al-Samir, Poeta astrologo en la corte de Abd al Rahman II, Al-Andalus, vol XXIV, 1959, pp. 449 - 463.

(٢٣٩) أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج القرطبي ، ولد سنة ٢٥٢ (٦٨٦) ، وسمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشني ومحمد بن إبراهيم بن باز وابن مطروح وغيرهم ، ورحل سنة ٢٧٤ (٨٨٧-٨٨٨) إلى المشرق ، فسمع بمصر ومكة وبغداد ولى كبار محدثي المشرق من أمثال أحمد بن زهير بن حرب وعبد الله بن أحمد بن حنبل والترمذي ، وعاد إلى الأندلس ، فكان مقدما في الشورى والفتوى ، وولى الصلاة ، وله كتب أكثرها في الحديث من بينها مصنف اعتبره ابن حزم من أحسن ما ألف في هذا الباب . وتوفي سنة ٣٣٠ (٩٤٢) . انظر في ترجمته : ابن القرضي ، رقم ١٢٢٨ الحميدي ، جنوة ، رقم ٩٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٢٠ ؛ المقرئ : نفع ٦/٣ - ٧ ، ١٦٣/٤ . وقد اعتمد الخشني كثيرا عليه في أخبار قضاة قرطبة . وانظر من الأبحاث الحديثة لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢٤٠) لم يذكر القاضي علي بن أبي بكر الكلبي هذا إلا الخشني (قضاء ٩٧) وليس فيه أكثر مما هو وارد هنا ، وابن سعيد في المغرب (١٥٠/١) حيث يكتب بذكر اسمه فقط ، وابن الأبار في التكملة (ط . الأراكون وبالشيا ، ترجمة رقم ٢٢٦٤) حيث ينص على نقله ما وصل إليه من خبر هذا القاضي عن ابن حيان .

(٢٤١) انفرد ابن حيان دون الخشني وابن سعيد وابن الأبار بإثبات هذه العبارة التي تشير إلى أن قاضي الجماعة علي بن أبي بكر الكلبي أو القيسي كان جدًّا لعل بن محمد بن الباسة المذكور هنا . وقد بحثنا في كتب التراجم عن « ابن الباسة » هذا فلم نجد له ذكرا ، مع أن عبارة ابن حيان - أو ابن عبد البر الذي ينقل عنه ، تدل على أن ابن الباسة كان شخصية مشهورة يغنى اسمه عن التعريف به . وقد كان القاضي علي بن أبي بكر - كما سنرى في نص ابن حيان - يحمل لقباً عجمياً هو « يوانش » (Iohannes) (انظر التعليق التالي) ، وها نحن أولاً نرى أن حفيده علي بن محمد المذكور هنا سوف يحمل بدوره لقباً عجمياً آخر هو « ابن الباسة » ، ويظهر أنه يقابل Paso أو pasa (من اللاتينية Passa أى الزبيب) .

وإذا كنا لم نوفق إلى العثور على ترجمة أو إشارة إلى علي بن محمد بن الباسة المذكور - وهو ينبغي أن يكون قد عاش في زمن لا يتجاوز العصر الذي عاش فيه المؤرخ أحمد بن عبد البر مرجع ابن حيان هنا ، أى نحو منتصف القرن الرابع الهجري فإننا بالتدقيق في المراجع الأندلسية المتأخرة قد عثرنا على بعض من تسموا بهذا الاسم أشهرهم على الإطلاق المهندس الكبير شيخ الرفاء أحمد بن باسة الذي يعتبر من عباقرة المهندسين المعماريين الأندلسيين ، وقد كشف لنا كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » للمؤرخ ابن صاحب الصلاة في تاريخ الدولة الموحدية عن بعض جلائل أعماله ، منها بناءه لمدينة جبل طارق واستحكاماتها في سنة ٥٥٥ (١١٦٠) في عهد عبد المؤمن بن علي (المن بالإمامة ، بتحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٣٩) ، وبناءه لقصور قرطبة واستصلاح مبانيها القديمة وترميمها في سنة ٥٥٧/١١٦٢ (ص ٢٠٦) وبناءه لقصور البحيرة في إشبيلية سنة ٥٦٧/١١٧٢ (ص ٤٦٧) ، وأخيراً قيامه في نفس السنة ببناء المسجد الجامع الكبير بإشبيلية وصومته الكبرى الباقية حتى اليوم والمعروفة باسم « الخير الدا la Giralda » ، وهي تعتبر إلى الآن تحفة من تحف الفن المماري (ص ٤٧٤ ، ٤٨٢) . ويبدو أن ابن باسة المذكور هو الذي بنى كذلك منار حسان في مدينة الرباط ومنار الكتبية في مراكش ، إذ هما ينتهيان إلى نفس طراز صومعة جامع إشبيلية التي أشرنا إليها . وقد أورد الأستاذ عبد الهادي التازي محقق كتاب « المن بالإمامة » في حاشية ص ١٤٠ تعليقا طريفا قال فيه إن أسرة « باسة » لا تزال معروفة إلى اليوم

بالمغرب وإليها ينتسب بنو باسه الذين يتوارثون مناصب القيادة في ناحية مدينة تادلة أو تادلا (بجنوب المغرب) ومنهم إلى الآن بمدينة فاس بعض البناتين المهرة من ينتمونهم القصر الملكي في مبانيه .

كذلك ينبغي أن نشير إلى أسرة اشتهرت في مملكة النصارى بفرناطة تحمل اسم « بنى باسه » وعرف أفرادها بالبراعة في علوم الهيئة (الهندسة) وصناعة الآلات الفلكية ، ويذكر ابن الخطيب منهم أحمد بن حسن بن باصة الأسلي المؤقت بالمسجد الأعظم بفرناطة ، وكان أبوه شيخ الجماعة في هذا الفن أيضا وانتقل إلى غرناطة من شرق الأندلس ، وكانت وفاته في سنة ٧٠٩ (١٣٠٩ - ١٣١٠) . (انظر ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، بتحقيق الأستاذ محمد عبد الله عثمان ٢١١/١) . ومن الأسرة نفسها حسن بن محمد بن باسه رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم بفرناطة وكان كذلك إماما في علم الحساب والهيئة ماهرآ في التمديل (التقاويم الفلكية) ، وتوفي بفرناطة سنة ٧١٦ (١٣١٦) . (نفس المرجع ص ٤٧٦) . وعلى الرغم من أن الاسم هنا بالصاد بدلا من السين فإن هذين المهندسين الغرناطيين يدوان لنا من نفس الأسرة التي ينتمى إليها المهندس الممارى أحمد بن باسه « شيخ العرفاء » وباني قصور اشبيلية ومسجدها الجامع على أيام الموحدين .

ونختم هذا التعليق بالإشارة إلى شخصية متقدمة على هذا العصر أشار إليها ابن حيان نفسه ، وكان لها - وهذا من عجيب الموافقات - صلة بالمباني والقصور ، ولو أن الأمر هنا على العكس إذ هو مرتبط بالهدم والتخريب لا بالبناء والتميم ، ونعني بهذه الشخصية من يدعو ابن حيان « ابن باشه » - هذه المرة بالشين - واصفا إياه بأنه « هدام القصور ومبور المعمور » ويقول ابن حيان - فيما ينقل عنه ابن بسام في « الذخيرة » إن أبا الوليد محمد بن جهور ثاني ملوك الجهاورة وأصحاب قرطبة بعد انقطاع دولة بني أمية منها كان قد استوزر ابن السقاء القرطبي وأسلم إليه تدبير أمور قرطبة ، وكان ابن باشه المذكور من صنائع ابن السقاء فقدمه هذا « لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة (يقصد قصور بني أمية المهجورة وما بقى منها بعد الفتنه) ، فاغتدى عليها أعظم آفة . . . فعاث فيها عياث النار في يبيش العرفج ، وباع آلاتها من رفيل المرمر ومشمع البعد ونضار الخشب وصافي الحديد والرصاص بيع الإديار » ، ويفصل ابن حيان بعد ذلك ما فعله ابن باشه من بيع أنقاض قصور بني أمية لوسل ملوك الطوائف وما غله من ثروة وأموال من وراء ذلك (انظر ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ١١١/٢ - ١١٣) . ولستنا نعرف ما إذا كان لابن باشه المذكور صلة بابن الباسه حفيد قاضي الجماعة بقرطبة من ناحية ، وبابن باسه شيخ العرفاء على عهد الموحدين من ناحية أخرى ، ولو صح ذلك لكان من غريب المغارقات أن ينحدر المهندس العبقري معمر قرطبة ومرم قصورها وباني صروح اشبيلية ومسجدها الجامع من صلب ابن باشه مثلوب ابن حيان « هدام القصور ومبور المعمور » على حد تمييزه ! . .

(٢٤٢) هذا اللقب الذي وضع للقاضي على بن أبي بكر الكلابي : « يوانش » يقابل في اللاتينية Iohannes وهو الذي

أصبح يقابل في اللغات الأوروبية الحديثة : Juan في الإسبانية ، و Jean في الفرنسية ، و John ، و Giovanni في الإيطالية . وإطلاق مثل هذا اللقب اللاتيني على قاض للجماعة عربي الأصل فيما يبدو - إذ لم يذكر أحد من ترجم له أنه كان من الموالى ذوى الأصول العجمية - يدل على صحة تلك الحقيقة التي أكثر المستشرقون الإسبان من الحديث عنها ، وهي شيوع اللغة العجمية الطينية في الأندلس كما يدعوها المؤلفون الأندلسيون أو اللاتينية الدارجة الشائعة في إسبانيا ، والتي أدت بعد ذلك

إلى مولد اللغة الإسبانية أو القشتالية (بين جميع أوساط الأندلسيين المسلمين حتى الأمراء والفقهاء والنبلاء) . انظر على سبيل المثال كتاب المستشرق خوليان ريبيرا : محاضرات ورسائل ، ٢٩/١ وما بعدها :
Julian Ribera y tarraga : Disertaciones y opusculos, Madrid, 1928, I, p. 29 ...
 حل أنه مما يلفت النظر هنا في لقب « يوانش » أنه لم يكن تيداً مما اعتدنا أن نراه على غيره من الأندلسيين ، أى صفة معينة تحدد شخصية المنبوز أو تبرز جانباً من جوانب عيوبه الجسمية أو الخلقية مثل قولهم « البطرة شقة **Petra Secca** الحجر اليابس » أو « ألمه ماله **Alma Mala** = النفس الخبيثة » أو « المعزيلة **El Magrilla** = المزيل المعروق ... الخ ، ولكنه إسم عادي كثير الشيوع في الأوساط الأسبانية القديمة والحديثة فلماذا اختير هذا اللقب نبذاً لذلك القاضي الجليل الذي لم يذكر إلا بخير . ؟ لسنا نعرف من أخبار على بن أبي بكر الكلابي ما يعين على إيضاح هذه النقطة .

(٢٤٣) قبرة **Cabra** - بلدة صغيرة من أعمال قرطبة ، وهى تقع منها على بعد نحو سبعين كيلو متر إلى الجنوب الشرق منها . انظر عنها المسادة الواردة في « الروض المطار » ص ١٤٩ - ١٥٠ من النص و ١٧٨ - ١٧٩ من الترجمة والمراجع المذكورة في هذا الموضع .

(٢٤٤) عن معاذ بن عثمان الشيباني انظر الخشني : قضية ص ٩٧ - ٩٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/ ١٥٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٥ ؛ ابن القوطية : تاريخ ص ٥٩ ؛ ابن الأبار : تكملة ، ترجمة رقم ١١٦٤ .

(٢٤٥) الذي جاء في كتاب الخشني (ص ٩٧) : « سبعة عشر شهراً » .

(٢٤٦) علق الخشني على هذا الخبر فقال إن هذه الحكاية عن السبب في عزل القاضي معاذ بن عثمان - فيما يرى - مدخولة لأنه لا يتكرر تنفيذ الأحكام وكثرتها مع حضور الحق ، فإذا صححت فإنها قد تكون من تحامل الفقهاء ، إذ « كلما طالت الخصومات كان أنفع لهم » (الخشني : قضية ص ٩٨) .

(٢٤٧) « الأحباس » في الاصطلاح المغربي والأندلسي - وتسمى كذلك الحبوس - هى التى نعرفها في الشرق باسم « الأوقاف » أى ما يوقف أو يحبس على أغراض الخير والبر من الأموال . وقد كان الإشراف على هذه الأوقاف من عمل القضاة ، غير أن القاضي كان يلتدب له من يراه صالحاً للنظر على الأوقاف . (انظر في الوقف في الإسلام دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ١١٥٤ - ١١٦٢) وفي نظام الأوقاف في الأندلس لفي بروفنسال : تاريخ ٣/ ١٣٣ - ١٣٤) . ويبدو أن النظر على الأوقاف كان دائماً مثيراً للريبة وشبهة الإثراء الحرام . فابن الفرضي يترجم في تاريخه لفتية يدعى محمد بن سعيد بن قرط كان قاضي الجماعة أبو بكر محمد بن إسحاق بن السليم قد قدمه إلى النظر في الأوقاف ، فبقى عليها طوال مدة قضائه ثم جانباً كبيراً من مدة خلفه محمد بن يتي بن زرب ، ثم عزله عنها ، وأثار عليه هذا النظر قضية طويلة عزل فيها وذهب فيها أكثر ماله حتى إنه مات فقيراً في سنة ٣٨١ (٩٩١) . (انظر تاريخ ، رقم ١٣٦٠) .

(٢٤٨) شاع في الأندلس ضرب المثل في الإنسداد والتدمير بفعل الدب في خلایا النحل على نحو لم تر له مثيلاً في المشرق ويفسر هذا بأن الدب من الحيوانات المسالوفة في الأندلس كالشأن به في مختلف بلاد أوروبا ، حتى إن رسم الدب أصبح يؤلف جزءاً من ذلك (أو شاة) مدينة مدريد المميز لها ، إذ يرسم واقفاً وهو يتناول ثمراً من شجرة برقوق برى ، وأصبح تعبير « الدب والبرقوق البرى **El oso y el madrono** » علماً على عاصمة إسبانيا حتى اليوم ، وإنما كان ذلك بسبب كثرة الدبة في جبال « وادى السرمل **sierra La Guadarrama** » القرية من مدريد (انظر كتابنا عن « مدريد العربية » ص ٣٢) .

أما المثل الذي يضربه الغزال هنا بفعل الدب في النحل فإننا نراه في الأندلس حتى العصور المتأخرة متخذاً صورة عامية ، فقد جاء ضمن أمثال العوام الأندلسية التي استخرجها الدكتور محمد بن شريفة من كتاب « رى الأوام ومرعى السوام في نكت الخواص والعوام » لأبي يحيى عبيد الله بن أحمد الزجالى القرطبي (عاش بين سنتي ٦١٧ و ٦٩٤/١٢٢٠ - ١٢٨٥) ، وذلك على الصورة الآتية « أشما عمل الدب يعجب للجباح » ومعناه : أى شئ يعمله الدب فإنه يعجب للجباح - بتشديد الباء أى جافى النحل ومشتاره - ، ويفسر الدكتور محمد بن شريفة المثل بأن الدب يتسبب في تدمير خلايا النحل البرية التي تكون في الجبال فتتول إلى النحال ، وقد يكون المقصود أن الدب لا يفتأ يتتبع خلايا النحل ويتشمم مواقعها ، فيدل بذلك جامعي النحل على أمكنة الخلايا ، فينتقمون بذلك . وقد أورد محقق النص في تعليقه على هذا المثل مثلاً إسبانيا ورد في المجموعة التي جمعها « كليسر

Kleiser » ، وهذا نصه : *A donde hallo un panal, vuelve el oso a husmear*

أى « حيثما وجد الدب خلية نحل فإنه لا يلبث أن يعود إلى تشمها » (انظر نص الأمثال المستخرجة ، رقم ١٧٣ ، ص ٤١ من المنسوخ على الآلة الكاتبة) .

ويبدو أن التمثيل بتدبير الدب لخلايا النحل كان شائعاً في الأدب الإسباني القديم فعلاً ، فنحن نجد تعبيراً قريباً مما يذكره الغزال في أبياته في مسرحية بعنوان إيوفيميا *Eufemia* كتبها أحد رواد المسرح الإسباني وهو « لوبي دى رويدا *Lope de Rueda* » (المتوفى سنة ١٥٦٠ م) . يقول فيها على لسان أحد شخصيات الرواية إنه ليس هناك رجل ولا امرأة في كل القرية يتحدث عن أمه غيراً مما تتحدث به النحل عن الدب . انظر « مسرح لوبي دى رويدا » في مجموعة « الكتاب الكلاسيكيون في الأدب الإسباني » ، بتحقيق وشرح مورينو فيليبا ، ط . مدريد سنة ١٩٤٩ ، المجلد التاسع والخمسون ، ص ٩ *Lope de Rueda : Teatro, ed. J. Moreno Villa, Colección clásicos Castellanos, No. 59, Madrid, 1949.*

وعن هذا المؤلف المسرحى انظر ما كتبناه في مقالنا « المسرح الإسباني في القرن السابع عشر » ، في مجلة « المجلة » ، العدد ١٦ ، أبريل ١٩٥٨ ص ٤١ - ٥١ ، وانظر بصفة خاصة ص ٤٢ - ٤٣ .

أما أبيات الغزال الواردة في نص ابن حيان فقد جاءت أيضاً في ترجمة القاضي معاذ بن عثمان في كتاب الخشني : قضاة ص ٩٩ وتكلم ابن الأبار ، رقم ١١٦٤ ، وفي العقد لابن عبد ربه (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة) ٢١٧/٣ ، مع فروق طفيفة في الرواية .

(٢٤٩) عن الفقيه سعد بن معاذ انظر تعليقنا السابق رقم ٢٣٤ .

(٢٥٠) عن لفظ « الأبدال » وما فسره به المحدثون والمتصوفة انظر بحث أسين بلاثيوس عن « ابن مسرة القرطبي ومدرسته » ، ص ١٨٦ ، حاشية رقم ١ ؛ وكذلك نفس المؤلف عن يحيى الدين بن عربي المرسى تحت عنوان *El Islam cristianizado* (ط . مدريد ١٩٣١) ص ٤١ ، ٣٢٩ ، وعاد هذا المستشرق الإسباني الذي تخصص في دراسة التصوف الإسلامي إلى شرح نظرية « الأبدال » الصوفية في أحد تعليقاته على ترجمته الإسبانية لكتاب يحيى الدين ابن عربي « رسالة القدس » (ط . مدريد - غرناطة ١٩٣٣) :

Miguel Asin Palacios : Vidas de Santos andaluces, Madrid - Granada, 1933.

واعتمد أسين بلاثيوس في شرح هذه النظرية على ما ورد في « الفتوحات المكية » لابن عربي (٧/٢-١١) حيث يقول في ترتيب المقامات الصوفية إنها تبدأ « بالقطب » ، يليه « إمامان » يخلفانه عند موته ، ثم أربعة « أوتاد » في جهات العالم الأربع ، ويلهم سبعة « أبدال » كل منهم في واحد من أقاليم الأرض السبعة ، وبعدهم اثنا عشر نقيبا يختص كل منهم بواحد من أبراج الفلك الاثني عشر ، ثم ثمانية « نجباء » لطبقات السماء . (انظر ترجمة « رسالة القدس » ص ١٣٦ ، حاشية رقم ٢) هذا وقد تتبعنا في بحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية وأثرها في تكون ثقافة الأندلس من اصطلاح الأندلسيون على تسميتهم بالأبدال من صوفية بلادهم وزهادها (انظر ص ١٥٧ والحاشية رقم ٤) .

(٢٥١) من الحاجب ابن رسم انظر ما سبق أن أوردته ابن حيان في ترجمته وتعليقنا رقم ١٠٩ .

(٢٥٢) محمد بن زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير ، ينتهي نسبه إلى جزيرة بن نخم ، وأبوه هو زياد المعروف بشطون صاحب الإمام مالك وأول من أدخل الموطن إلى الأندلس ، وقد أعقب زياد المذكور ابنتين محمدًا ، وأحد تولى كلاهما قضاء الجماعة في قرطبة . وكان محمد أكثر الرواية عن معاوية بن صالح الحضرمي أو الشامي الذي ولي القضاء في أيام عبد الرحمن الداخل ، ومعاوية بن صالح هو جده لأمه ، وولي قضاء الجماعة بعد سعيد بن سليمان البلوطي . وجمعت له منها الصلاة ، واختلف الرواة في تخليه عن هذا المنصب ، فقال بعضهم مثل ابن القوطية إنه استعفى ، وقال آخرون مثل الخشني والتباهي إنه عزل بسبب قضية ابن أخى عجب في خبر طويل . ويذكر الحميدى والفضي أنه مات بعد سنة ٢٤٠ (٨٥٤ - ٨٥٥) ببسبر . انظر ترجمته في ابن القوطية : تاريخ ص ٧١ ؛ الخشني : قضية ص ٩٩ - ١٠٦ ؛ ابن الفرضي رقم ١٠٩٦ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٥ ، الفضى : بغية ، رقم ١٢٠ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٥٠ ؛ التباهي : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦ ، ومن المراجع الحديثة لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٧٠ ، ٧٩ ، ١٠٢ . وانظر تعليقنا الآتي رقم ٣١٧ حول بيت بن زياد .

(٢٥٣) أبو القاسم أحمد بن محمد بن زياد المعروف باسم الحبيب ، وهو ابن المتقدم ذكره في التعليق السابق . تلمذ على محمد بن وضاح وعلى أبيه محمد وعمه أحمد وكلاهما ولي قضاء الجماعة ، وكان أول نبأته أنه كان من الفقهاء المشاورين في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن (ت سنة ٢٧٣/٨٨٦) وهو لا يزال شابا بعد ، ثم أم بالناس صلاة الاستسقاء في عهد المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥/٨٨٦ - ٨٨٨) فسق الناس واستبشروا به . ولما ولي الأمير عبد الله بن محمد الإمارة ولاه قضاء الجماعة لأول مرة في سنة ٢٩١ (٩٠٤) بعد وفاة محمد بن سلمة ، وكان غنيا مولدا إذ كان قد اشتغل بالتجارة من قبل بنصيحة قاضي الجماعة سليمان بن أسود . وهو أول قاض لم يقبل فتيا من فقيه إلا إذا نصبا بخط يده ، فتألفت له من فتاوى الفقهاء عدة مجلدات . واعتمد في الفتيا على محمد بن وليد وابن أيمن استثناء عن أبي صالح أيوب بن سليمان ومحمد بن عمر بن لبابة ، وكان متباعدًا عنهما . وظل على القضاء هذه المرة حتى وفاة الأمير عبد الله في سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، فلما ولي عبد الرحمن (الناصر) ظل الحبيب بن زياد على القضاء فترة يسيرة ، ثم عزل في نفس السنة ، وخلفه أسلم بن عبد العزيز (٣٠٠ - ٣٠٩/٩١٢ - ٩٢١ أو ٩٢٢) ، ثم عزل أسلم وأعيد الحبيب بن زياد إلى القضاء وجمع له مع الصلاة ، وكانت عودته إلى المنصب في هذه المرة بفضل صلته بالحاجب بدر . وظل على القضاء والصلاة حتى توفي غير ممزول في سنة ٣١٢ (٩٢٤ - ٩٢٥) . وانقده ابن عبد البر فقال إنه أهان خطة القضاء وابتذلها بركوبه إلى السلطان . انظر ترجمته الخشني : قضية

ص ١٧٤ - ١٨٢ ، ١٨٨ - ١٩٠ ؛ ابن حيان : المقتبس (نشر أنطونيا) ص ٧ ؛ ابن الفرضي : رقم ١٣٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٥٥ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٤٤٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٣ . وانظر تعليقنا الآتى رقم ٣١٧ .

(٢٥٤) معاوية بن صالح الحضرمي الحمصي الشافعي فقيه محدث مشهور ، قدم إلى الأندلس في سنة ١٢٣ (٧٤٠) في طاعة يلج بن بشر النقشيري على ما يبدو ، واستقر أولاً في مالقة حيث قام ببناء المسجد الذي قدر له أن يحصل اسمه في قصبته ثم انتقل إلى اشبيلية حيث اتصل بآخر بولاة الأندلس لبنى أمية : يوسف بن عبد الرحمن الفهري . وحينما قدم عبد الرحمن ابن معاوية الداخل قربه وأحظاه وعهد إليه بمدة مهام كبرى منها العودة إلى الشام لكي يرافق أختين كان الأمير قد تركهما بالمشرق عند فراده إلى الأندلس ، ولبت مدة في طريقه في مصر حيث روى عنه كبار فقهاء المدينة ومحدثي العراق الذين انثالوا عليه ليأخذوا عنه أحاديثه ، ومن بين الحجاز لأداء فريضة الحج ، وسمع منه كبار فقهاء المدينة ومحدثي العراق الذين انثالوا عليه ليأخذوا عنه أحاديثه ، ومن بين من سمع منه فقيه المدينة الأكبر مالك بن أنس وسفيان الثوري ومحمد بن عمر الواقدي . وعاد إلى الأندلس في نحو سنة ١٤٢ (٧٥٩) فولاه عبد الرحمن الداخل القضاء بعد وفاة قاضيه يحيى بن يزيد ، وظل يلى هذه الحطة حتى رحلته الثانية إلى المشرق في سنة ١٥٤ (٧٧١) ، وكان هدفه في هذه الرحلة هو تأدية فريضة الحج ، وكان يرافقه فيها صهره زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون . على أنه أسمع الحديث في مصر والحجاز أيضا . ولما عاد إلى الأندلس ولاه عبد الرحمن القضاء من جديد إلا أنه كان يعاقب بينه وبين عمرو بن شراحيل . وتوفى بقرطبة سنة ١٧٨ (٧٩٤ - ٧٩٥) في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن . وقد استخرجنا هذه الترجمة « التقريبية » من ركام الأخبار المتضاربة المتناقضة عن حياة معاوية بن صالح بما ورد في المراجع المشرقية والأندلسية ، ويعتبر معاوية بن صالح « مدخل علم الحديث إلى الأندلس » على حد قول يحيى بن يحيى الليثي ، وبلغ من مكانته في هذا العلم أن محدثا عراقيا هو زيد الحباب المكي دخل إلى الأندلس قادما من العراق لكي يسمع منه أحاديثه ، ولو أن الأرجح هو أن يكون قد سمع منه في المدينة لا في الأندلس . على أن الثابت هو أن عدداً من أكبر علماء الحديث مثل ابن حنبل والبخاري قد ذكراه في كتبهما . وعلى الرغم من هذه المكانة فإن ذكرى معاوية بن صالح قد اندثرت أو كادت في الأندلس ، وضاعت أحاديثه ، على أن المحدثين الأندلسيين اجتهدوا - في فترة متأخرة نسبياً - في جمع هذه الأحاديث ، فأورد ابن عبد البر جملة منها في كتاب « جامع بيان العلم وفضله » ، ثم أفردها الأديب الأندلسي ابن الأبار البلسني « المتوفى سنة ٦٥٨-١٢٦٠) بكتاب خاص : « المدخل الصالح في حديث معاوية بن صالح » .

انظر في ترجمته وأخباره من الكتب المشرقية : الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨/٤٤٢ ؛ محمد بن الطاهر بن علي المقدسي المعروف بابن القيسراني : الجمع بين كتابي نصر الكلاباذي وأبي بكر الإصهاني في رجال البخاري ومسلم ، ط . حيدرآباد ١٣٢٣ (١٩٠٤) ص ٤٩١ ؛ الذهبي : ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، القاهرة ١٣٢٥ (١٩٠٦) ٣/١٧٩ ؛ ابن حجر المسقلافي : تهذيب التهذيب ، حيدرآباد ١٣٢٥ ، ٢٠٩/١٠ ؛ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي : خلاصة تهذيب الكمال ، القاهرة ١٣٢٢ ، ص ٤٢٦ ؛ ومن الكتب المغربية والأندلسية : ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ، ٤٣ - ٤٤ ؛ الخشني : قضاة من ٣٠ - ٤٢ ؛ ابن الفرضي ، رقم ١٤٤٣ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٧٩٦ ؛ الضبي : بنية ، رقم ١٣٣٨ ؛ ابن سعيد : مغرب ١/١٠٢ ، ١٤٣ - ١٤٤ ؛ ابن الأبار : معجم أصحاب أبي علي الصديقي ص ١٨٠ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ ، ٣٤٩ - ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٥١٠ ؛ ابن عبد المنعم الحميري : الروض

المطار ص ١٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ١١٨ ؛ النباهي : مرقبة ٤٣ ، ٥٥ المقرئ : نفع ٤٦/٤ ؛ ومن الأبحاث الحديثة انظر لويث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٢٠ ، ٣٩ - ٤٠ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٧٩ ، ١٠٦ ؛ ومحمود مكي : التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٢ - ٦٤ .

(٢٥٥) ليس سماع محمد بن زياد اللخمي من معاوية بن صالح أمراً مستبعداً ، فعاوية المذكور هو جده لأمه ، إذ كان زياد المعروف بشبطون متزوجاً من ابنة معاوية . وقد توفي هذا عل ما رجحناه في سنة ١٧٨ (٧٩٤ - ٧٩٥) . (انظر في تحقيق سنة وفاة معاوية بن صالح : الحميدى : جذوة ص ٣١٨ - ٣٢٠ ، وبحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٣ ، حاشية رقم ١) ، ونحن نعرف أن محمد بن زياد توفي بعد سنة ٢٤٠ بمدة يسيرة . ولكننا نشك في أنه سمع منه كثيراً - على الأقل مباشرة - فقد توفي معاوية بن صالح قبل وفاة محمد بن زياد بنحو خمس وستين سنة على الأقل ، ولم يعرف عن ابن زياد طول عمر مفرط ، فإذا كان حقاً ما يذكر هنا من أنه سمع على جده معاوية بن صالح فلا بد أنه كان صغيراً جداً حينئذ ، ولعل المقصود هنا هو أنه توفرت له مادة كبيرة من أحاديث معاوية بن صالح وربما يكون قد نقلها عن أبيه زياد شبطون الذي كان صهره على ما رأينا .

(٢٥٦) محمد بن عبد الله بن يحيى بن يحيى الليثي المعروف بابن أبي عيسى ، ينتهي نسبه إلى الفقيه المشهور يحيى ابن يحيى صاحب الإمام مالك بن أنس وأحد من يرد إليهم أكبر الفضل في توطيد المذهب المالكي في الأندلس . ولد في سنة ٢٨٤ (٨٩٧) وسمع من عم أبيه عبيد الله بن يحيى ومن محمد بن عمر بن لبابة ، ثم رحل إلى المشرق سنة ٣١٢ (٩٢٤) فدخل مصر وحج وسمع بمكة من ابن المنذر والعقيل وابن الأعرابي ، وكان حافظاً جامعاً للسنن متصرفاً في علم الإعراب ومعاني الشعر ، شاعراً مطبوعاً ، بصيراً بالفقه . وشاوره القاضي أحمد بن بق ، وولاه عبد الرحمن الناصر القضاء في البيرة وجيان وبجانة وطليلة وغيرها . ثم ولي قضاء الجماعة بقرطبة بعد ابن أبي طالب الأصمعي في سنة ٣٢٦ (٩٣٨) ، وجمعت له الصلاة بعد ذلك مع القضاء ، وكان يشاور مع الوزراء دون أن يتلقب بالوزارة ، ويتصرف في السفارات التي كان عبد الرحمن الناصر يوجهها إلى العدو وغيرها من الأقطار ، كما كان كثيراً ما يخرج إلى الثغور ويتصرف في إصلاح ما وهى منها ، وعلى يده بنيت مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، تولى ذلك مع غالب الصقلي مولى عبد الرحمن الناصر . وخرج في إحدى هذه المهمات في صدر سنة ٣٣٨ (٩٤٩) فلما جاوز طليطلة اعتل في قرية من أعمالها ، ثم أدرسته وفاته في سنة ٣٣٩ (٩٥٠) . انظر ترجمته في الخشني : قضاة ص ٢٠٢ - ٢٠٦ ؛ ابن الفرضي : رقم ١٢٥١ ؛ الفتح بن خاقان ؛ مطمح الأنفس ص ٥٢ - ٥٦ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٤٠٥ - ٤١٢ (وفي هذين المرجعين الأخيرين أخبار طريفة ونوادر للقاضي ابن أبي عيسى منها حكاية وقعت له مع المعتوه ابن شمس الضحى نأخذ منها أنه كان يلقب بنز عجمي هو « El Magrilla » أي المهزول أو المعروق باللاتينية الدارجة الشائعة في كلام الأندلسيين المسلمين ، وهو ما تعنيه هذه اللفظة في اللغة الإسبانية حتى اليوم ، كذلك نعرف أن أباه وجده كانا يلقبان كذلك بنزين عجميين آخرين) ؛ النباهي : مرقبة ص ٥٩ - ٦٣ ؛ مفاخر البربر ص ٦٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٦٥ - ٢٦٦ المقرئ : نفع ٢٢٠/٢ - ٢٢٢ .

(٢٥٧) أبو اسماعيل أو أبو يعقوب إسماعيل بن يحيى بن يحيى الليثي القرطبي ، سمع من أبيه يحيى بن يحيى ، وكان أكبر من أخيه عبيد الله وإن كان أدنى منه منزلة ومكانة . وكانت وفاته سنة ٢٦١ (٨٧٥) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : رقم ٢٢٢ ؛ الحميدى ، رقم ٣١١ ؛ وانظر كذلك لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٧٠ - ١٢٧ .

(٢٥٨) عن عبيد الله بن يحيى بن يحيى المتوفى سنة ٢٩٨ (٩١٠ - ٩١١) انظر تعليقنا السابق رقم ١٧٢ .

(٢٥٩) أغلب الظن أن أحمد بن زياد المقصود هنا ليس أحمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي الذي ولي القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفي في رحلة له إلى المشرق وهو في مصر سنة ٢٥٠ (٨٦٤) (انظر ترجمته في الخشني : قضية ص ١١٤ - ١١٧ ؛ ابن الفرضي ، رقم ٥٦ - ويلاحظ أن ابن الفرضي يجعل وفاته خطأ في سنة ٢٥٥ بدلا من ٢٥٠) ، وإنما هو أحمد بن محمد بن زياد الملقب بالحبيب الذي ولي أيضا قضاء الجماعة وتوفي سنة ٣١٢ (٩١٣ - ٩٢٥) (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٥٢) ، فأحمد بن زياد من طبقة متقدمة على ابن وضاح ، أما ابن أخيه الحبيب بن زياد فهو الذي كان من طبقة تلاميذ ابن وضاح وأصحابه .

(٢٦٠) الليث بن سعد الإمام المصري المشهور ، ولد في قلقشندة ودرس في مصر على شيوخها ، ثم انفرد بمذهب فقهي خاص به وبو أن أصحابه المصريين لم يقوموا به فاندثر بعد موته بقليل . وتوفي سنة ١٧٥ (٧٩١ - ٧٩٢) . وقد تلمذ عليه كثير من أهل إفريقية والأندلس فضلا عن المصريين . انظر في ترجمته : ابن خلكان وفيات الأعيان ٢٨٠/٣ - ٢٨١ ؛ الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٣/١٣ - ١٤ ؛ أبو نعيم الإصبهاني : حلية الأولياء ٣١٨/٧ - ٣٢٧ ؛ ابن تيمية : التلخيص ٨٢/٢ ؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٣٠١/١ - ٣٠٢ . وقد كان لمذهب الليث الفقهي - على الرغم من انحداره في مصر - أثر باق في مالكية الأندلس ، إذ اتبعوه في ثلاث من المسائل الأربع الكبرى التي خالفوا فيها مذهب مالك (انظر حول هذه الناحية بحث لوبث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٢١ - ٢٤) وقد زدنا دراسة هذا الجانب تفصيلا في بحثنا عن « التيارات الثقافية المشرقية » ص ١٢٤ - ١٣٢) ، كذلك كان لليث بن سعد وتلاميذه نفوذ كبير على أول ماكتبه الأندلسيون في ميدان التاريخ ، وقد استوفينا دراسة هذا الجانب في بحثنا عن « مصر والمصادر الأولى للتاريخ الأندلسي » في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ (بالإسبانية) ص ١٥٧ - ٢٤٨ ، انظر بصفة خاصة ص ١٧٤ - ١٨٨ :

Mahmud A. Makki : Elgipto y los orígenes de la historiografía arabigo-española, RIEI, Madrid, 1957, pp. 157 -- 248.

ولمزيد من المراجع حول الليث بن سعد انظر طبقات علماء إفريقية وتونس ، تحقيق الأستاذين على الشاب ونعيم حسن الياني تونس ١٩٦٨ ، ص ٥٨ - ٧١ وقائمة المراجع المثبتة في حاشية ص ٥٨ ، وكذلك الدكتور محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، الطبعة الأولى ص ٤٥ - ٥٠ .

(٢٦١) ورد هذا النص في كتاب القضاة للخشني (ص ١٠١) ؛ غير أن ما يذكره ابن وضاح من أن فقيه القيروان وقاضيهما سحنون بن سعيد كان يأبى أن يعزّر السلطان الرجل في المسجد بالسوط يختلف عما نعرفه من سلوك سحنون وسيرته ، فالذي نص عليه المترجمون لسحنون من المؤرخين الأفارقة - وهم أعلم بأخبار قاضيهما وفقهيهما الأكبر - هو أنه كان يضرب في الجامع بالدرة أي بالسوط وماخف من التأديب ولعل الذي يقصده ابن وضاح هو أنه كان لا يقيم الحدود في المسجد ، إذ أن الثابت هو أن سحنون كان إذا أقام الحدود أخرجهم من المسجد (انظر المسالكى : رياض النفوس ، بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ٢٧٧/١ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) .

(٢٦٢) ورد هذا الخبر في كتاب الخشني أيضا (ص ١٠١ - ١٠٢) ، وهو ما تؤكد لنا سيرة سحنون في قضائه . ويبدو أن ما يذكره ابن وضاح من أن سحنون حمل الضرب على الذي لا يريد غرم ما عليه وهو مل بعد أن حبسه - إنما هو إشارة إلى ما فعله قاضى القيروان مع ابن أبي الجواد الذي كان واليا على القضاء قبله ، فالقاضى عياض يقول في ترجمة سحنون : « وخاصم ابن أبي الجواد رجل بين يدي سحنون ، فحكم له على ابن أبي الجواد ، وحبسه وقال له : إن لم تؤد ضربتك بالسوط وقال : ما عندى مال . فيقال إنه أخرجه وضربه في جمعة بالسياط مائة سوط ، وقيل أكثر من ذلك » (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٦٠١) . ونجد في كتاب « رياض النفوس » للمسالكى إضافة قيمة على ذلك ، إذ ينص على أن سحنون أشار بضرب من يصطلع الإفلاس على القاضى محمد بن زياد : « وقد جاء في كتاب سحنون إلى محمد بن زياد قاضى قرطبة يأمره بالشد والمعاقبة لمن تفالس وتكرار الأدب والضرب عليه حتى يؤدى أو يموت . قال له : وبذلك أخذت ابن أبي الجواد : ضربته أربعا وعشرين ومائة ذرة وأوقفته يوم الجمعة للناس في محن الجامع ، وسوف أضربه أبداً حتى يؤدى تحت الدرة أو يموت » (رياض النفوس ٢٨١/١) .

(٢٦٣) سترجم ابن حيان لمحمد بن عيسى الأعشى المذكور عند الكلام عن الوقفيات على نسق السنين .

(٢٦٤) ورد خبر محمد بن زياد والأعشى مع السكران ثم تعليق الخشني عليه في كتاب القضاة (ص ١٠٢ - ١٠٤) .

(٢٦٥) لا يبدو صحيحا ما ينقله ابن حيان هنا عن ابن عبد البر من أن محمد بن زياد بقى على القضاء والصلاة في أخريات أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم وأن الأمير محمداً أقره على هاتين الخطتين حينما ولي الإمارة بعد موت أبيه . فهذا يخالف ما نعرفه من أن الأمير عبد الرحمن عزله عن القضاء في أعقاب القضية المعروفة التي اتهم فيها ابن أخى عجب محظية الأمير الحكم بن هشام (انظر خبر هذه القضية في الخشني : قضاة ص ١٠٤ - ١٠٥ ، والنباهى : مرقبة ص ٥٥ - ٥٦) . والثابت أن محمد ابن زياد عاد في أيام الأمير محمد إلى تولي خطة الصلاة كما يذكر الخشني (قضاة ص ١٠٦) وكما يؤكد الخبر الطويل الذي سيرويه ابن حيان عن نهاية الأمير محمد بتنظيم زيادة أبيه عبد الرحمن بن الحكم في المسجد الجامع بقرطبة ، وفيه سرى أن محمد بن زياد كان يلى خطة الصلاة حينئذ . أما القضاء فلم يعد إلى ولايته . وإن كان الأمير محمد قد عرضه عليه فأبى (الخشني : قضاة ص ١٠٦) .

(٢٦٦) يسمى الخشني زوج محمد بن زياد هذه « كفات » لا « تكفات » كما هي هنا (قضاة ص ١٠٦) ، ويبدو أنها كانت من أصل بربرى ، وأن التاء الأولى هي علامة التأنيث في اللغة البربرية . وليست هذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها

بهذا الاسم ، فقد ذكر المقرئ في النسخ (٣١٢/١ - ٣١٣) نقلا عن ابن حيان في الغالب أن عبد الرحمن بن معاوية الداخل في قرارة من العباسيين وجوازه إلى الأندلس مر بإفريقية فنزل بقبيلة مغيلة وبلأ إلى شيخ من رؤساء البربر يدعى أبا قره وانسوس ، فاستقر عنده زمنا ، ولما فتش رسل عبد الرحمن بن حبيب دار وانسوس بحثا عن عبد الرحمن خبأته امرأته « تكفات » تحت ثيابها . فلما توعد الأمر لعبد الرحمن في الأندلس سار إليه أبو قره وانسوس وأهله فأكرمهم عبد الرحمن . ويقص المقرئ بعد ذلك نادرة وقعت بين عبد الرحمن الداخل وتكفات البربرية زوج وانسوس . وتؤكد هذه القصة رأينا في أن صواب اسم زوجة محمد بن زياد هو « تكفات » كما ذكر ابن حيان لا « كفات » كما هو عند الخشني ، وأنها كانت امرأة بربرية .

(٢٦٧) هو أبو سليمان فطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زياد ، دخل الأندلس في أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، فضمه إلى ابنه هشام وكتب له حتى إذا ولي هشام الإمارة ولاء السوق وكورة قبرة ثم الوزارة ، ولما ولي الحكم ابن هشام أمضاه على ذلك واستكتبه ، وكان له مقام محمود في ثورة الربض ، ونقل ابن الأبار في ترجمته عن أحمد بن محمد الرازي أنه رأى اسم فطيس بن سليمان في ديوان للأمير الحكم أول اسم وأن راتبه كان خمسمائة دينار (انظر ابن الأبار : الحلة السيرة ٣/٣٦٥ ؛ ابن عذاري : بيان ٢/٦١ ، ٦٨ - حيث ورد الاسم في الأصل « فطيس بن عيسى » والصواب « ابن سليمان » - ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٤٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة ، نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٤٨٨) . وقد كان فطيس المذكور باني بيت من أكبر بيوتات الأندلس شرفا ونباهة وترددت فيهم الخطط والمناصب حتى نهاية دولة بني أمية . وأما ما يذكره ابن حيان من خلاف الرواة حول تاريخ وفاة فطيس المذكور فإن ابن سعيد وابن الأبار يتفقان على أنه توفي في أواخر أيام الحكم بن هشام ، وقد نص ابن سعيد على وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) .

(٢٦٨) لا بد أن المقصود هنا هو الوزير عيسى بن فطيس بن أصبغ بن عيسى بن فطيس بن سليمان ، ففطيس بن سليمان موضوع التعليق السابق إذن هو جد جده . وقد كان لهذا البيت مكانة وشهرة واشتغال بخدمة أمراء بني أمية ، ولكننا لا نعرف إلا القليل من أخبارهم ما بين مؤسس الأسرة فطيس بن سليمان المتوفى في أواخر القرن الثاني الهجري أو أوائل الثالث وبين من اشتهروا من البيت المذكور في أيام عبد الرحمن الناصر في أوائل القرن الرابع . فن بين من برزوا منهم مثلا حدون بن فطيس الذي روى الخشني عنه خبراً مع القاضي محمد بن بشير والفقير يحيى بن يحيى يدل على نباهتهم ورفعة مكانته ، غير أنه يظهر أن هذا الخبر وقع وأبوه فطيس بن سليمان لا يزال على قيد الحياة (انظر كتاب القضاة ص ٦٤) . ولا نعرف بعد ذلك من رجالات هذه الأسرة إلا فطيس بن أصبغ والد الوزير عيسى المذكور هنا ، وقد أفادنا ابن عذاري عنه بجملة أخبار قيمة منها أنه قول خلة البيازرة في سنة ٣٠٠ (٩١٢) ، ثم عمل في اشبيلية في السنة التالية ٣٠٤ (٩١٦ - ٩١٧) ولي الخزائن ، وفي ٣١٥ (٩٢٧) ولي الوزارة ، ثم عزل عنها في السنة التالية ، وفي ٣٢٠ (٩٣٢) ولي على المدينة (انظر البيان المغرب تحت السنوات المذكورة) .

أما ابنه عيسى بن فطيس فيذكر ابن عذاري أيضاً أنه ولي في سنة ٣١٥ (٩٢٧) على الخزائن ، ثم عزل عنها في السنة التالية (البيان المغرب ٢/٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ط . بيروت) . وترجم له ابن الأبار في « إعتاب الكتاب » ، (ص ١٩٠) فأضاف إلى ما نعرفه عنه أنه ولي الكتابة العليا في حياة أبيه فطيس في تاريخ لم يحده ابن الأبار من خلافة عبد الرحمن الناصر ، وإن كان يبدو

أن ذلك كان في سنة ٣١٥ (٩٢٧) حينما كان أبوه فطيس قد رفع إلى الوزارة . ويقول ابن الأبار إن عبد الرحمن الناصر عزل جميع وزرائه بسبب أنكره عليهم في سنة ٣٢٩ (٩٤١) فيما عدا اثنين ، وحيث ولي عيسى بن فطيس الوزارة مكان أبيه مضافة إلى الكتابة ، ثم عزله عنهما جميعاً بعد خمسة أيام من جمعهما له ، غير أنه عاد في آخر سنة ٣٣٠ (٩٤٢) فاستدعاه ورده إلى الوزارة وتمادى له ذلك مع زيادة الخطوة إلى آخر خلافة الناصر . كذلك ذكر ابن الأبار في ترجمة أخرى له أنه كانت له رواية في الحديث عن القاضي أحمد بن يقي بن مخلد (التكملة ، نشر الأركون وبالنشيا ، رقم ٢٣٩٠) ، وقد نقل ابن عبد الملك المراكشي هذه الترجمة نفسها دون أن يضيف إليها شيئاً (انظر الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، بتحقيق الدكتور إحسان عباس ، ط . بيروت ١٩٦٥ ، السفر الخامس ، رقم ٩٢٨) .

وكان لعيسى المذكور أخ يدعى أحمد ولاء عبد الرحمن الناصر النظر في كتب الثغور والسواحل والأطراف سنة ٣٤٤ (٩٥٥ - ٩٥٦) ، وفي سنة ٣٥٥ (٩٦٦) عهد إليه الحكم المستنصر بإقامة الأسطول بنهر قرطبة واتخاذ المراكب على هيئة مراكب الجيوش (التورماندين) توقياً لما كان منتظراً من هجومهم على سواحل الأندلس (انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٣٣٩/٢ ، ٣٥٦ ، ط . بيروت) .

ومن بني فطيس رجل لا نعلم مدى قرابته للوزير عيسى هو أصبح بن محمد بن فطيس الذي ولاء الحكم المستنصر في سنة ٣٦٠ (٩٧١) نصف كورة رية (مالقة) وقد نقل ابن حيان هذه المناسبة نص كتاب الحكم المستنصر إليه بتوليته (انظر المقتبس نشر الحجي ص ٧٧) .

ومن أبناء عيسى بن فطيس من ولوا الخطط أحمد الذي كان والياً للشرطة العليا في سنة ٣٦٢ (٩٧٣) في أيام الحكم المستنصر (ابن حيان : المقتبس ، نشر الحجي ص ١١٩) .

وأشهر من عرف بعد ذلك من هذا البيت في أواخر أيام الدولة الأموية قاضي الجماعة عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس ، حفيد الوزير عيسى ، ولد في سنة ٣٤٨ (٩٦٠) وولى قضاء الجماعة بين سنتي ٣٩٤ و ٣٩٥ (١٠٠٤ - ١٠٠٥) في عهد الحاجب عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر ، وكانت وفاته في أول الفتنة البربرية سنة ٤٠٢ (١٠١٢) . (انظر ترجمته في ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٦٨٢ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٦٧١ - ٦٧٢ ؛ ابن فرحون ؛ الديباج ص ١٥٠ ؛ النباهي : مرقبة ص ٨٧ ؛ ابن سمي : المغرب ٢١٦/١ - وانظر الحاشية حيث أورد الدكتور شوقي ضيف مزيداً من المراجع) .

وعن أسرة بني فطيس أنظر كذلك لبني بروقتسال : الأندلس في القرن العاشر ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٢٦٩) أبو عبد الله غريب بن عبد الله الثقيطي الطليطلي ، أصله من قرطبة وسكن طليطلة ، وكان شاعراً زاهداً ، ويقال إن غروجه من قرطبة كان ينسب وقوعه في أمرائها وإعلانه بجورهم ، وقد تزعم في طليطلة من كان بها من الثائرين المتمردين على بني أمية . وكان من أهل الحكمة والدهاء ، فكان الثائرون الطليطيون يستندون إلى رأيه على نحو لم يجعل للحكم

ابن هشام معلما فيهم طيلة حياته . وقد اختلف ابن القوطية وابن حيان في سنة وفاته ، فبينما يذكر الأول أنه توفي في أيام الحكم قبل وقعة الحفرة التي ذهب ضحيتها ألوف من ثوار طليطلة في سنة ١٨١ (٧٩٧) أو في سنة ١٩١ (٨٠٧) - إذا بـابن حيان يذكر كما نرى هنا أنه توفي سنة ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) في أول أيام عبد الرحمن بن الحكم . وقد نقل ابن الأبار القولين دون أن يرجح واحداً منهما . (انظر في ترجمته وأخباره وبعض شعره : ابن القوطية : تاريخ ص ٤٦ ؛ الحميدى ، رقم ٧٥٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ١٢٨١ ؛ ابن الأبار : تكله ، نشر الأركون وبالنشيا ، رقم ٢٤٨٩ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٢٣ - ٢٤ ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكله ، السفر الخامس ، رقم ٩٩٥ ؛ ابن الكتاني : التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص ٢٨٣ ؛ المقرئ : فصح ٦/٧٤ - ٦٥ ؛ وكذلك ليلى بروفنسال : تاريخ ١/١٥٧) .

(٢٧٠) عبد الله المعروف بالبلنسي بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل ، كان أبوه عبد الرحمن قد عهد إليه بتسليم الأمر لواحد من أخويه سليمان أو هشام بعد موته ، وكان سليمان عاملاً على طليطلة وهشام على ماردة ، حل أن يكون الأمر لمن يسبق أخاه في الوصول إلى قرطبة ؛ فلما قدم هشام سلم عبد الله إليه القصر وبايعه ، ثم استوحش من هشام فخرج إلى سليمان بطليطلة زمناً ، ثم ورد إلى قرطبة بلا عهد ولا أمان ، فقبله هشام ، وطلب عبد الله بعد ذلك الخروج إلى العدو ، فأذن له هشام ، وخرج سليمان كذلك ، فلما توفي هشام سنة ١٨٠ (٧٩٦) وولى الإمارة ابنه الحكم عاد عبد الله إلى الأندلس وولاه الحكم على شرق الأندلس كله فكان في عمله بلنسية وتدمير (مرسية) وطرطوشة وبرشلونة ووشقة . واستقر في بلنسية حتى نسب إليها . وقدم بعده أخوه سليمان ؛ ثم نازعا الحكم وحاربا ، فهزم سليمان وقتل في إلبيرة سنة ١٨٤ (٨٠٠) . أما عبد الله فأدى الطاعة على ألا يسطر للحكم بساطاً ، وظل كذلك حتى توفي الحكم وولى ابنه عبد الرحمن سنة ٢٠٦ (٨٢٢) ، فأخبر عنه بيعته والتوى بالطاعة ، ثم كشف وجهه بالمعصية وجمع جيشاً كبيراً من أهل بلنسية وتدمير عازماً على السير إلى قرطبة ، ولكنه أصيب بفالج أقعده ، ولم يلبث أن توفي سنة ٢٠٨ (٨٢٣) بعد أن كتب إلى عبد الرحمن نادماً على ما فعل وموصياً بإياه بأهله وبيته . انظر في ترجمته وأخباره : ابن حزم : جمهرة ص ٩٤ - ٩٥ ؛ ابن الأبار : الحلة ٢/٣٦٣ - ٣٦٤ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٩ - ٤٠ ، ٤٧ - ٤٨ ، ٢/٢٤٦ ؛ ابن عذاري : البيان ٢/٦١ - ٦٣ ، ٦٩ - ٧١ - ٧٤ ؛ وانظر كذلك ليلى بروفنسال : تاريخ ١/١٤٠ - ١٤١ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٩٧ - ١٩٨ .

هذا وقد كان لعبد الله المذكور ابن يدعى عبيد الله كان من المستسكين بالطاعة ، وكان من كبار رجالات الأمويين وأعظم قوادهم ، وهو المدعو بصاحب الصوائف لتكرره بالغزوات على الممالك المسيحية في الشمال .

(٢٧١) ذكرنا في حاشية هذا الموضع الخلاف الكبير بين ما يشته ابن حيان في ترتيب الوفيات هل السنين من موت الفقيه حسين بن عاصم في سنة ٢٠٨ (٨٢٣) وبين ما يذكره ابن الفرضي في الترخية التي نقلها عنه ابن حيان نفسه من وفاته في سنة ٢٦٣ (٨٧٦ - ٨٧٧) . والحقيقة أن هذه مشكلة لم تلفت نظر أحد من أصحاب كتب التراجم من قبل ، باستثناء القاضي عياض الذي عرض في ترجمته لحسين بن عاصم تلك الآراء المتضاربة وأخضعها لميزان نقدي جدير بالإعجاب والثناء ، وسوف نعيد فيما يلي بحث هذه المسألة تحقيقاً لتراجم أفراد هذا البيت من بيوت الشرف بقرطبة :

أما حسين بن عاصم - ونضرب صفحاً عن الخلاف حول ما يلى ذلك من نسبه بين المؤرخين فهو خلاف على غير طائل - فإلى جانب ترجمة ابن الفرضي (رقم ٣٤٩) المنقولة في نص ابن حيان والمتسببة في كل هذا الاضطراب نجد أن الحميدى

قد أورد له ترجمة قصيرة (جلوة ، رقم ٣٧٤) لا تكاد تفيدها بشئ* ، فهي تقتصر على القول بأنه فقيه مات بالاندلس (!) وبأن الذى قال ذلك هو محمد بن حارث الخشني . ويزيد المسألة اضطرابا والباحث حيرة أن أصحاب كتب الرجال يترجمون أيضا لمن يدعونه ابراهيم بن حسين بن عاصم الثقفي - وهو يبدو لأول وهلة ابنا لهذا المذكور - فيقول عنه ابن الفرضي إنه سمع من أبيه ومن غيره وإن له رحلة سمع فيها وتصرف في أحكام الشرطة والسوق أيام الأمير محمد وتوفي سنة ٢٥٦ (٨٧٠) (انظر ابن الفرضي ، رقم ٣ ، وكذلك ابن فرحون : تبصرة الحكام ١١٤/٢) ، ويضطرب الحميدى في اسمه فيدعوه مرة ابراهيم بن حسين بن عاصم ومرة أخرى ابراهيم بن عيسى بن عاصم ، ولكنه يتفق بعد ذلك مع ابن الفرضي في أنه توفي سنة ٢٥٦ (جلوة ، رقم ٢٧١) .

وبذلك تمثل أماننا المشكلة : إذا صح ما يقوله ابن الفرضي من أن حسين بن عاصم كانت له رحلة سمع فيها من ابن القاسم وابن وهب وأشهب ومطرف وابن نافع فإنه لا يحتمل أن تكون الحياة قد طالعت به حتى يتوفى في سنة ٢٦٣ ، فابن القاسم مثلا توفي سنة ١٩١ (٨٠٧) ، وعبد الله بن نافع توفي سنة ١٨٦ (٨٠٢) ، أى قبل وفاة ابن عاصم بأكثر من خمس وسبعين سنة ، فإذا قدرنا السن التي رحل فيها ابن عاصم لكي يتم له سماع من ذلك الفقيه المدنى يعتبر به في حدود أشياءه بثلاثين سنة كان معنى ذلك أنه قد توفى عن أكثر من مائة سنة ، ولو صح هذا لكان جديراً بأن يسجله من ترجموا له ، إذ هو مما يجاوز المسألوف .

ولعل القاضي عياضاً هو المؤرخ الوحيد الذى تنبه بملكته النقدية إلى ما في هذا الرأى من إبعاد ، فقد أثر القول بأن وفاة حسين بن عاصم كانت في سنة ٢٠٨ « فيما ذكر أصحاب التاريخ » (والإشارة هنا إلى ابن حبان بغير شك . واحتج عياض لذلك بأن حسين بن عاصم كان في سن عيسى بن دينار ، ومن المعروف أن عيسى توفي سنة ٢١٢ (٨٢٧) ، وبأن كلا من عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ = ٨٥٢) والعتي (ت ٢٥٥ = ٨٦٩) أدخلوا سماعه في كتابيهما ، فقد كان ابن عاصم إذن في عداد شيوخهما . ويذكر عياض بعد ذلك عنه خبراً طريفاً وقع له أثناء مقامه بمصر ، هو أنه لما توفي شيخه ابن القاسم (في سنة ١٩١ - ٨٠٧) كان قد بقيت عليه مقابلة كتبه بأصول ابن القاسم بعد أن أتم سماعه منه ، وكانت هذه الأصول لدى الفقيه المصرى أصبغ بن الفرج ، فتوجه إلى أصبغ وقال له : أنت خلف أبي عبد الله (أى ابن القاسم) ، فلو خلعت نفسك قرأت عليك ما بقى على . فقال له أصبغ : وأشهب وابن وهب شيخان حيان ؟ فقال له : أنت عندي أجل . فأسعفه ، فلما تم له مراده قال له : إنما ذهبت إلى المقابلة لصحة كتبك ، وأما السماع فلا نحب ذلك ، فإن أقدم منك سماعاً وعناية . (يريد أنه أراد مقابلة سماعه من ابن القاسم على أصبغ بن الفرج لتصحيح صوله فحسب ، ولكنه كان يرى نفسه أرفع من أن يأخذ عن أصبغ ، إذ كان يعد نفسه أعلى طبقة منه في صحة ابن القاسم وأقدم منه في الأخذ عنه) . (انظر ترتيب المدارك المجلد الثاني ص ٢٨ - ٣٠) . فإذا كنا نعرف أن أصبغ بن الفرج ولد بعد سنة ١٥٠ وتوفى سنة ٢٢٥ (٨٤٠) وأن حسين بن عاصم كان يعد نفسه أقدم طبقة منه فإننا نستنتج أن من الصير على التصديق أن تكون وفاته في سنة ٢٦٣ ، وإلا فإن سنة تكون قد تجاوزت المسائة بنحو عشرين سنة على الأقل .

ومن هنا ننهى إلى أن التاريخ الصحيح لوفاة حسين بن عاصم هو سنة ٢٠٨ ، وأن ابن الفرضي لابد أن يكون قد خلط بينه وبين ابنه ابراهيم الذى لم تسلم ترجمته بدورها من التخليط والاضطراب ، فقد سبق أن أوردنا ما قاله عنه ابن الفرضي

(رقم ٣ ؛ والحميدى : جذوة ، رقم ٢٧١ ؛ والقاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٤٦ - ١٤٧) من أنه ولى الشرطة والسوق فى أيام الأمير محمد وأنه اشتهر بالقسوة المفرطة حتى أسقط العلماء الأخذ عنه بسببها . وكل هؤلاء المؤرخين يتفقون على موته سنة ٢٥٦ . ولكن لنا اعتراضا على هذا التاريخ ، وهو أن الخشنى قص عنه خبراً استشهد به على قسوته الشديدة ، وذكر الخشنى فى أول هذا الخبر « أن الأمير محمداً حدث فى أيامه مجاعة شديدة ، فكثرت فيها التطاول من الفسدة لفضل ما كانوا فيه من ضر السنة ، وكثرت الشكوى بذلك إلى الأمير رحمه الله وكثر عليه من الحكام استطلاع رأيه فى الصلب والقطع وما أشبهه ، فولى السوق حينئذ إبراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد وعهد إليه بالتحفظ ، وأذن بالتنفيذ فى القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان » (انظر بقية الخبر فى الخشنى ؛ قضاة ص ١٧٨ - ١٧٩) . ونحن نعرف أن المجاعة المذكورة كانت سنة ٢٦٠ (٨٧٤) ، فلا بد أن وفاة إبراهيم بن حسين بن عاصم تلت هذا التاريخ . ويقلب على ظننا أنها كانت فى سنة ٢٦٣ التى ذكرها ابن الفرغى سنة وفاة لأبيه حسين بن عاصم ، وأن ترجمته الأب والابن قد اختلطا عنده ، فلفق منهما ترجمة واحدة .

هذا وقد كان بيت بنى عاصم من البيوت التى ترددت فيها المخطوط والمناصب الكبرى طوال أيام بنى أمية . وقد عرشنا فى السطور السابقة لحسين بن عاصم وابنه إبراهيم ، ونضيف إلى هذين سعيد بن عاصم أخا الفقيه حسين الذى ذكر ابن الأبار ناقلاً خبره عن الرازى وابن حيان أنه ولى قضاء الجماعة للأمير الحكم بن هشام (التكلة ، ط . الأركون وبالنشيا ، رقم ٢١٢ وابن عبد الملك المراكشى : الذيل والتكلة ، بقية السفر الرابع ، رقم ٨٣ ، ولو أن الخشنى والنباهى لا يشيران إليه فى كتابيهما عن القضاة) .

ومنهم عبد الله بن حسين بن عاصم أخو إبراهيم ، وقد ولى الشرطة مثل أخيه فى عهد الأمير محمد ، وكان شاعراً رقيقاً . وسيورد ابن حيان بعض أخباره وقطعا من شعره فى هذا الجزء من المقتبس . (وانظر ترجمته كذلك فى ابن سعيد : المغرب ١٠١/١ - ١٠٢ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥٦٠ ؛ القسوى : بنية ، رقم ٩٣٨ ؛ ابن الكثنى : كتاب التشبيهات ص ٨٩ المقرئ : نفع ٢٣١/٤ .

ومنهم سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عاصم الذى سيذكر ابن حيان فى هذه القطعة من « المقتبس » أن الأمير محمداً ولاء الطراز ثم تكبه ، وابنه عبد الواحد الذى ترجم له ابن الأبار فقال إنه نظر فى الفقه وأراد أحد أمراء الأندلس (دون أن يعين من هو) أراده للخدمة ، فلم يجدوا مطية تحمله لضخامة جسمه « إذ كان فائت الغلظ خارجاً عن ترتيب الآدميين » (التكلة ، ط . الأركون وبالنشيا ، رقم ٢١٦٦ ؛ وكذلك الذيل والتكلة ، السفر الخامس ، رقم ١٤١) .

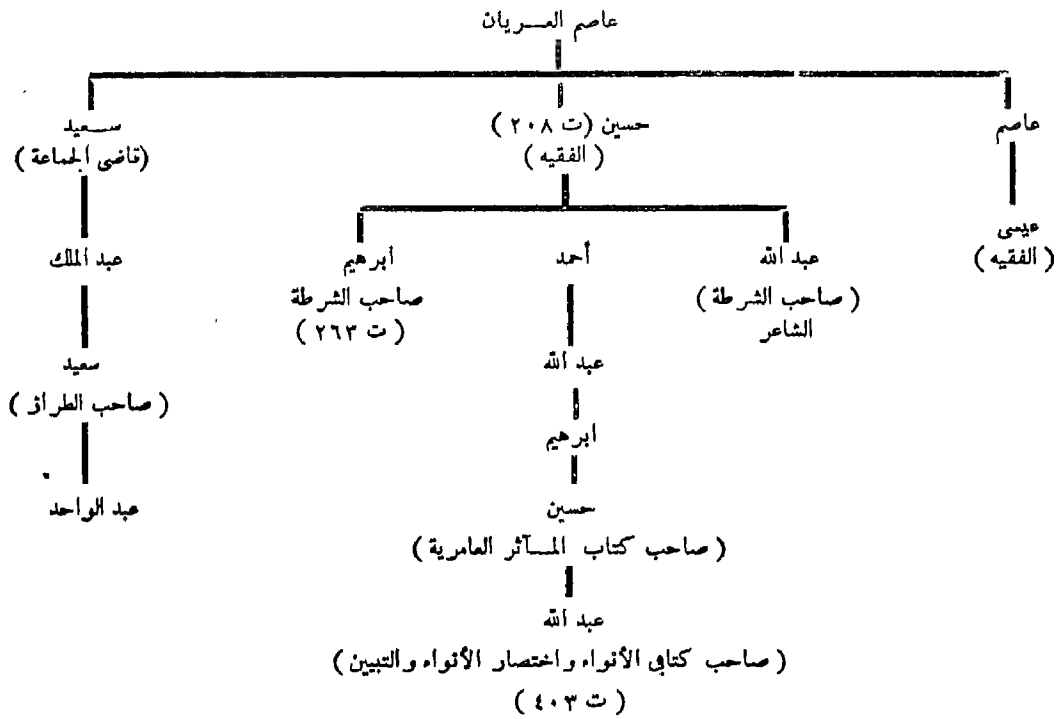
ونعرف بعد ذلك من هؤلاء حسين بن محمد بن عاصم - وهو نسب مختصر لا بد أن تكون قد سقطت فيه أسماء بين محمد وعاصم - ، وقد نص ابن عذارى على أن الخليفة عبد الرحمن الناصر ولاء خزائن السلاح فى سنة ٣١٤ (٩٢٦) . (البيان المغرب ٢٨٩/٢ - ط . بيروت) .

ومنهم حسين بن إبراهيم بن عبد الله بن أحمد بن حسين بن عاصم الذى ألف كتاباً عن دولة المنصور بن أب عامر وبنيه بعنوان « المسائر العامرية » ، ولا نعرف سنة وفاته على وجه التحديد . (ابن الأبار : تكلة ، رقم ٧٣ ؛ ابن بشكوال :

صلة رقم ٣٢٤ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٣٧٥ الضبي : بنية ، رقم ٦٥٨ ؛ ابن حزم : « رسالة في فضل الأندلس »
في المقرئ : نفح ١٦٧/٤ ؛ وانظر بونس بويجس : المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون ، ص ١٢٢ ، وهذا البحث يجعل
وفاته في سنة ٤٥٠ دون أن يذكر مصدراً لهذا التاريخ ولا دليلاً على ترجيحه له .

ويظهر أنه كان لهذا الأخير ابن يدعى عبد الله بن حسين كان من أصحاب أبي علي القالي وولى كذلك الشرطة مثل كثير
من أهل بيته ، وله تأليف في الأنواء واختصار « البيان والتبيين » للجاحظ . وقتل في الفتنة البربرية سنة ٤٠٣
(١٠١٢ - ١٠١٣) . (انظر ابن الأبار : تكملة ١٢٧٧ ؛ ابن عبد الملك : الذيل والتكملة ، رقم ٣٧٠) .

وفيما يلي جدول تقريبي بأسماء من عثرنا عليهم من أفراد هذه الأسرة وأنسابهم :



هذا وقد كان عاصم الملقب بالعريان من كبار موالى بنى أمية ، قدم على عبد الرحمن بن معاوية الداخل عند حلول هذا
بالأندلس مع من وفد عليه من الأموية ، وقد كان عبد الرحمن حفيها به إذ كان من القيسية القليلين الذين ظاهروه على يوسف
ابن عبد الرحمن الفهري ووفدوا عليه ، وكان من بينهم كذلك أخوه عمران . أما تسميته بالعريان فهي تعود إما لتجرده في
سراويله لقتال يوسف الفهري كما يقول صاحب « أخبار مجموعة » أو لما يذكره معظم المؤرخين من تقهقه في نهر قرطبة
حارياً وتقهقه الناس وراءه . وقد عهد إليه عبد الرحمن في موقعة المصارة (سنة ١٣٨ = ٧٥٦) بقيادة رجاله بنى أمية ومن
التحق بهم من البربر . وولاه عبد الرحمن بعد ذلك على طليطلة زمناً ما « انظر في أخبار ابن القوطية : تاريخ ص ٣٨ :
أخبار مجموعة ص ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٧ ، ١٠٤ ؛ ابن سميد : مغرب ١٠١/١ ؛ المقرئ : نفح ٤٥/٤ .

(٢٧٢) أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء ، فقيه مصر ومحدثها المشهور ، أخذ عن الليث بن سعد ومالك بن أنس وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، وبلغ عدد شيوخه نحو أربعائة ، وصحب مالكا ثلاثين سنة ، وكان هو وابن القاسم وأشباه بن عبد العزيز أشهر من ولدوا مذهب مالك في مصر وأفريقية والأندلس ، وله كتابا الجامع والموطأ وتفسير موطأ مالك وغيرها من الكتب ، وكانت وفاته سنة ١٩٧ (٨١٢ - ٨١٣) . (انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول (ص ٤٢١ - ٤٣٣ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٢ - ١٣٣ ؛ وانظر مزيداً من مراجع ترجمته في : طبقات علماء افريقية وتونس ، ص ٤٤ ، الحاشية رقم ١) .

(٢٧٣) أبو مصعب مطرف بن عبد الله الهلالى ابن أخت الامام مالك بن أنس وأحد كبار أصحابه المدنيين ، صحب مالكا سبع عشرة سنة ، ومات سنة ٢٢٢ (٨٣٧) . انظر ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٨ - ٣٦٠ ؛ وابن فرحون : ديباج ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

(٢٧٤) هناك اثنان من أصحاب مالك يدعيان بابن نافع : أولهما أبو محمد عبد الله بن نافع المعروف بالخزومي مول بن مخزوم واشتهر بلقب « الصائغ » ، والثاني هو عبد الله بن نافع الزبيدي القرشي المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) والأول هو المقصود هنا بغير شك ، وقد لازم عبد الله بن نافع « الصائغ » هذا مالكا أربعين سنة ، وكانت له منزلة عظيمة لدى الأندلسيين ، فقد أدخل المتي سماعه في « المستخرجة » وأثنى عليه محمد بن وضاح وقال إنه أفضل أصحاب مالك ، وكذلك محمد بن عمر بن لبابة ، وله تفسير على الموطأ رواه عنه يحيى بن يحيى ، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وكانت وفاته بالمدينة سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٥٦ - ٣٥٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٢١ .

(٢٧٥) قول ابن الفرغى عن وفاة المترجم له سنة ٢٦٣ إنها كانت في « صدر » أيام الأمير محمد يبدو غريبا لمن يتأمل ، فقد ولي الأمير محمد سنة ٢٣٨ ، وبقى أميراً للأندلس خمساً وعشرين سنة حتى ٢٧٣ ، فإذا هو المترجم له قد توفى بعد مرور خمس عشرة سنة من ولاية الأمير فإن هذا التاريخ لا يجوز أن يعتبر « في صدر أيامه » ، بل هو أقرب إلى آخرها منه إلى أولها .

(٢٧٦) أوضحنا من قبل ما في هذه الترجمة من التناقض . وأغلب الظن أن السطور الأخيرة منها ابتداء من « وولى السوق للأمير محمد . . » حتى النهاية إنما هي من ترجمة ابراهيم بن حسين بن حاصم لا من ترجمة أبيه حسين . انظر تعليقنا السابق رقم ٢٧٠ .

(٢٧٧) كذا ورد الاسم في الأصل ، ونظن أن « عبد الله » ليس إلا تحريفا لاسم « عبد الواحد » ، إذ جاء في طبقات النحويين واللغويين « لأبي بكر الزبيدي ذكر لمن يدعوه « أبا الغمر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأنحدي » ، وقال فيه إنه كان من أهل العلم بالنحو والتأديب ، وكانت وفاته سنة ٢٠٩ (٨٢٤ - ٨٢٥) (انظر ص ٢٧٩) ، فلا بد أن يكون هذا هو المعنى هنا . وقد نقل ابن الفرغى في تاريخه كلام الزبيدي ، وأضاف أنه كان من أهل قرطبة وأنه كان مؤدبا بالنحو وله فيه كتاب مؤلف بأيدي الناس . ونقل هذه الترجمة السيوطي في بغية الوعاة (ص ٣١٦). وترجم ابن

الأبواب لمن سباه « عبد الواحد المعلم » وإن كان لا يدري ما إذا كان هو عبد الواحد بن سلام النحوى الذى ذكره ابن الفرضى أم غيره (التكملة ، ط . أ لاركون وبالنتيا ، رقم ٢١٦٥ ، واختصر ابن عبد الملك لمراكشى هذه الترجمة ذاتها فى كتاب الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، رقم ١٥١ .

(٢٧٨) لم فر فى المراجع الأخرى أى إشارة إلى مالك بن القتييل هذا ، على أننا وجدنا فى المغرب لابن سعيد (٤٢/١) ذكراً لمن يسميه المؤلف « مهاجر بن القتييل » يقول عنه ابن سعيد إن الخارجين من قرطبة بعد أن فشلت ثورة الريص فى سنة ٢٠٢ (٨١٧) قد كاتبوه بعد أن لحق جمهورهم ببليطلة ، وكان قد لحق بدار الحرب (أى ببلاد النصرى) وولوه عليهم فصار معه منهم خمسة عشر ألفاً ، ومضوا فى البحر إلى الاسكندرية فاحتلوها ومازالوا بها حتى أخرجهم منها عبد الله ابن طاهر عامل الخليفة المسامون العباسى على مصر إلى جزيرة لقريطش . فلعل مالك بن القتييل هذا أخ لذلك الزعيم الشائر على الحكم بن هشام ، ولعله أودع السجن من أجل ذلك حتى توفى فى سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) المذكورة .

(٢٧٩) كان فى قرطبة حيسان كبيران ، واحد على مقربة من المسجد الجامع ، بشهادة الجغرافى الرحالة ابن حوقل الذى زار الأندلس فى أيام عبد الرحمن الناصر خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) (انظر ابن حوقل : صورة الأرض ، طبعة كرامرز ، ١/١١٣) ، والثانى هو المطبق المذكور هنا ، وكان فى نفس مبنى قصر الخلافة ، إلا أنه كان فى جوف الأرض ، وكان يحين المطبق هو المدخل للسجناء مدى الحياة ، ويبدو أنه هو نفسه الذى كان يطلق عليه أيضاً اسم « الدورية » (تصغير الدار) . انظر ليني بروفنسال : تاريخ ١٥٩/٣ - ١٦٠ .

(٢٨٠) فتح بن الفرج الرشاش هو واحد من إخوة ثلاثة عرف كلهم باسم « الرشاش » وكانوا من موالى بنى أمية : الأول هو أبو عثمان سعيد بن الفرج ، نقل ابن سعيد عن ابن حيان فى ترجمته قوله إنه كان من آدب الناس فى زمانه وأحفظهم للغة والشعر ، وكان شديد التقدير فى كلامه ، وضرب به المثل فى القصاحة ، ويقال إنه كان يحفظ أربعة آلاف أرجوزة . وكان قد رحل إلى المشرق وحج ودخل بغداد وروى عن كبار علمائها ، ثم سكن مصر مدة ، وكذلك القيروان ، حتى بلغه أن عبد الرحمن الحكم ولى إمارة الأندلس وكانت بينهما وصلة قديمة ، فوفد عليه ، فاختنى به الأمير وقربه وأكثر الرشاش من مدحه ، وذكر ابن حيان أنه لحقته سعاية عند نصر الخصى أثير عبد الرحمن بن الحكم فأمر بفقره ، وذكره معاوية بن هشام الشيبسى وعبادة الشاعر والحجارى ، ووصفه هذا بالتقدير . وأورد ابن سعيد شعراً له فى مدح الأمير عبد الرحمن وفى عجاى ابن الشعر الشاعر . وأكثر ماوصلنا من شعره فى باب الهجاء . انظر ترجمته وبعض أخباره وشعره فى ابن سعيد : مغرب ١١٤/١ - ١١٥ ؛ ابن الفرضى : رقم ٤٨٦ (ويذكر فى هذه الترجمة أنه كان مشاوراً فى أيام الأمير محمد) ؛ الزبيدى : طبقات ص ٢٨٥ ؛ السيوطى : بنية ص ٢٥٦ ؛ ابن الكنانى : التشبيهات ص ٢٥٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٢٦٣ .

والثانى هو محمد بن الفرج المعروف بالذارع ، ويقصد بذلك ابتكاره لوحدة قياسية هو الذراع الذى أصبح ينسب إليه فيقال « الذراع الرشاش » ، روى بقرطبة عن يحيى بن يحيى الليثى الفقيه ، ولكنه وجه جل اهتمامه إلى الرياضيات ، فنبغ فيها ، وقد خلد اسمه بهذا الذراع الذى اخترعه واصطلح أهل الأندلس على القياس به ، ويبلغ طول الذراع الرشاش ضعف الذراع

الذي جرى به العمل في المشرق والذي كان يدعى « المأمون » نسبة إلى الخليفة المأمون ، ويبلغ طوله ٧١,١ سم . ، وينقسم إلى ثلاثة أشبار ، أى أن طول الشبر ٢٣,٧ سم ، والشبر ينقسم بدوره إلى ثلاث قبضات ، طول القبضة ٧٩ ملليمتر . وهذا الذراع « الرشاشي » قاس الإدريسي والبكري مثلاً أطوال المعالم الأثرية التي تحدثا عنها في كتابيهما. مثل المسجد الجامع بقرطبة ومنارة الإسكندرية وغير ذلك . وفي ترجمة محمد بن الفرج الذارع انظر ابن الفرضي : رقم ١١٣١ ، أما عن الذراع الرشاشي فانظر ليني بروفنسال : تاريخ ٢٧٣/١ ؛ ٢٤٨/٣ - ٢٤٩ ؛ وقد أعاد المستشرق الإسباني فيليكس إيرنانديث خيمينث بحث هذه المسألة بحثاً مستفيضاً مستنداً إلى نصوص جديدة ومصححاً بعض الأخطاء الشائعة حول التقدير المضبوط للذراع الرشاشي ووحداته ، وذلك في كتابه الصغير الذي يحمل عنوان « الذراع في الكتابات التاريخية المرية حول المسجد الجامع بقرطبة :

Felix Hernandez Gimenez : El codo en la historiografía árabe de la Mezquita Mayor de Córdoba. contribucion al estudio del monumento Madrid, 1961.

انظر بصفة خاصة ص ٩ - ١٠

والأخ الثالث من هؤلاء الرشاشين هو الفتح بن الفرج المذكور هنا في نص ابن حيان والمتوفى بالمشرق سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ، ولم يفدنا عنه ابن حيان بأى شيء يلقى ضوءاً على حياته وسيرته فيما عدا ما يفهم من أنه كان شخصية بارزة معروفة ، إذ استحق تاريخ وفاته أن يسجل في وفيات « أولى النباهة » كما عنوان ابن حيان لهذا الفصل . ولم نجد في المراجع الأندلسية عن فتح بن الفرج هذا شيئاً إلا سطوراً أوردتها ابن الأبار في التكملة (ط . ألاكون وبالنشيا رقم ٢٤٩٧) وابن عبد الملك المراكشي في الذيل والتكملة (السفر الخامس ، رقم ١٠١٧) وكلاهما ينقل عن ابن حيان دون أن يضيفا عليه شيئاً .

(٢٨١) لسنا نعرف عن حجاج المغيل هذا « كاتب الترسيل » في غير كتاب ابن حيان إلا إشارات مقتضية وردت ، في بعض ما كتب حول إمارة الحكم بن هشام الربضي ، فقد ذكره ابن عذارى من بين كتاب الحكم الثلاثة (بيان ٩٨/٢) . ونوه به ابن سعيد في المغرب (٤٤/١) فقال إنه كان شاعراً ، على أن سنة وفاته عند ابن سعيد تخالف ما ذكر هنا ، فهي ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . أما مغيلة التي ينتسب إليها هذا الكاتب فهي قبيلة بربرية ، وجددهم مغيل بن فائق بن جانا (زناتة) ومواضعهم في العدة المغربية بجبل وانثريش من عمل تاهرت (المغرب الأوسط أو الجزائر الحالية) ، وبالمغرب الأقصى ما يلي تاسنا (انظر مفاخر البربر ص ٤٩) ، وذكر ابن حزم من بيوت مغيلة في الأندلس بنى إلياس رطل الوزير أحمد ابن إلياس ، وبني زروال الأمراء بالمتنانية (جمهرة ص ٤٩٩) .

(٢٨٢) أبو خالد يزيد بن طلحة العبسي الإشبيلي ، تلمذ على الفقهاء محمد بن أحمد العبقي ويحيى بن ابراهيم بن مزين ، وحل الراوية المحدث محمد بن عبد السلام الخشني ومحمد بن عبد الله بن الغازي ، وكان من أجلة فقهاء لإشبيلية بصيراً بالغة والنحو والشعر ، موصوفاً بالبلاغة والخطابة ، وكان يعرف من أجل ذلك بيزيد الفصيح ، وقد نقل الزبيدي بعض أخباره (طبقات ص ٢٩٤ - ٢٩٦ ، ٣١٣) ، ونص ابن الفرضي على أنه لم يقف على عام وفاته ولا وجد ذلك مقيداً عند أحد من أهل موضعه (انظر تاريخ ، رقم ١٦٠٦ ، وكذلك ابن حيان : مقتبس ، نشر أطلونيا ص ١٤ ، والسيوطي : بغية ص ٤١٧) .

وأورد ابن حيان في الموضع المشار إليه خبراً طريفاً في جدل وقع في مجلس إبراهيم بن حجاج أمير أشبيلية بينه وبين أبي محمد العذري الأعرابي حول لفظ « سود » وهل هو بالواو أو الياء ، ووصفه ابن حيان في هذا الخبر بأنه كان « من أشهر من يفرق الأندلس من العلماء بالعربية » . هذا ويبدو من الغريب أن يكون حجاج المغيلي المتوفى سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) كما يقول ابن حيان أو في سنة ١٩٨ (٧١٣ - ٨١٤) كما يقول ابن سعيد من موالى يزيد بن طلحة الذي يبدو أن وفاته تأخرت عن وفاة حجاج بنحو نصف قرن . ولهذا فإن من الأرجح أن ما يعنيه ابن حيان هو أن المغيلي كان من موالى هؤلاء العبسين رهط يزيد بن طلحة الإشبيلي ، لا مولاه هو على وجه الخصوص . ويبدو أن آل طلحة العبسين كانوا يسكنون مورور على ما يفهم من نص للزيدي في ترجمة النحوي جودى بن عثمان (ت ١٩٨ = ٨١٣ - ٨١٤) . طبقات النحويين والنووين ص ٢٧٨) .

(٢٨٣) لابد أن يكون وليد المذكور ابناً لأمية بن يزيد كاتب عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٥٤ (٧٧١) . انظر ما سبق أن كتبناه عن بيت بنى أمية بن يزيد في تعليقنا السابق رقم ١٢٨) ، ولم نجد في أى مرجع آخر شيئاً يتصل بوليد بن أمية المذكور .

(٢٨٤) وردت هذه الترجمة فعلا مع خلاف طفيف في تاريخ ابن الفرضي ، رقم ٤٧١ ، وقد كان حقها أن تقدم فتلحق بوفيات سنة ٢١٠ لا في سنة ٢١١ كما نرى في الأصل . وقد سبق أن علقنا على اسم سعيد بن محمد بن بشير وترجمته والاختلاف بين المؤرخين حول ولايته للقضاء في الفصل الخاص بقضاء الأمير عبد الرحمن (انظر تعليقنا السابق رقم ٢١٧ والمراجع الواردة فيه) .

(٢٨٥) يبدو أن ابن حيان اعتمد في ترجمته لعيسى بن دينار على ابن الفرضي (ترجمة رقم ٩٧٣) ، إذ يتفق ما سلم من نص ابن حيان هنا من خلال قلع الووكة مع ما أورده ابن الفرضي ، وقد تكون الترجمة أكثر تفصيلاً مما أثبتناه ، على أن ابن حيان اعتبر ما ذكره عن عيسى غير كاف في التعريف به ، فاستلحق في نهاية الفصول الخاصة بالأمير عبد الرحمن أخباراً أخرى متعلقة به سترد في موضعها . وانظر كذلك في ترجمة عيسى بن دينار : الحميدى : جلوة ، رقم ٦٧٨ ؛ القاضي عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٦ - ٢٠ (ولعلها أوفى ما بين أيدينا من تراجمه) ؛ ابن سعيد : مغرب ٢/٢٤ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٧٨ - ١٧٩ ؛ المقرئ نفع ٢/٢١٥ ، ٤/٢٥٢ ، ١٦١/٤ - ١٦٢ ؛ وانظر من الأبحاث الحديثة كتاب لويس أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ٧٥ - ٧٨ والمراجع الواردة في هذه الصفحات ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢٨٦) ترجم لابراهيم بن زرة المذكور كل من ابن الفرضي (تاريخ ، رقم ٢) والحميدى (جذوة ، رقم ٢٧٨) ترجمة لا تزيد عما نجله في نص ابن حيان إلا ما ذكرناه من نقلهما خبره عن أبي سعيد ابن يونس المصري ، وأضاف ابن الفرضي أنه لم يعرف له في الأندلس خبراً وإنما قدمه لتقدم وفاته . وقد أنعمنا النظر في كتب طبقات الفقهاء في إفريقية في المواضع الخاصة بأخبار قاضي القيروان وفتيها سحنون بن سعيد لكى . نتحقق مما ذكر هنا من أنه كان من روى سحنون منهم ، فلم نجد له ذكراً .

(٢٨٧) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع أية إشارة لمحمد بن موسى المولفائقين المذكور هنا باعتباره من ولوا الوزارة والكتابة . والغريب أن هذا الاسم والتسمية يتطابقان تماما على كاتب ووزير مشهور كان وثيق الصلة بالأمير محمد بن عبد الرحمن ونعى به محمد بن موسى الفائق الذي سيذكر ابن حيان في نفس هذه القطعة من « المقتبس » جملة طيبة من أخباره ولا سيما في الأحداث التي أحاطت باستيلاء محمد على مقاليد الإمارة بعد وفاة أبيه ، غير أن محمد بن موسى المذكور لا يمكن أن يكون هو المقصود هنا ، إذ أن وفاته في سنة ٢١٣ (٨٢٨) تزيل كل لبس وخلط بين الرجلين . والتوجيه الوحيد لما يذكره ابن حيان هنا هو أن يكون محمد بن موسى المتوفى سنة ٢١٣ من نفس هذه الأسرة التي تعرف في التاريخ الأندلسي باسم « بني موسى الوزير » وقد استقرت في اشبيلية ، وكان نسبهم في غافق ، وكانوا من عرب الشام ثم من جند فلسطين ، وسكنوا في ناحية الجزيرة ، ولكن بني موسى المذكورين استقروا في اشبيلية . ومنهم كان عبيد الله بن موسى الفائق القرطبي الذي ولاه الحكم بن هشام قضاء الجماعة بعد الفرج بن كنانة سنة ٢٠١ (٨١٦ - ٨١٧) على ما يذكر ابن الفرضي والخشني (انظر ترجمة عبيد الله بن موسى في ابن الفرضي : رقم ٧٥٩ ؛ والخشني : قصة ص ٧٧ - ٧٨) ، وسوف يزيدنا ابن حيان بيانا عن أصل هذه الأسرة عند حديثه عن محمد بن موسى الفائق كاتب الأمير محمد ووزيره ، إذ أن في نسبهم خلفا قديما فقد كانوا يؤكدون نسبهم العربي الخالص ، والخشني يوافقهم على ذلك في الترجمة التي أفردها للقاضي عبيد الله بن موسى ، بينما كان بنو عبد الرحمن بن عبد الله الفائق عامل الأندلس في عصر الولاة ينكرون ذلك عليهم ويقولون إن بني موسى كانوا من أهل اللمة من مواليتهم . وظل هذا الخلاف بين البيتين حتى حسنه محمد بن موسى وزير الأمير محمد قديما بني عبد الرحمن الفائق إلى أن يخلطهم بأنفسهم ويصبروا إليهم .

وعلى ذلك يكون محمد بن موسى الفائق الذي يذكر ابن حيان وفاته سنة ٢١٣ من نفس تلك الأسرة التي برز منها بعد ذلك سميه وزير الأمير محمد وكاتبه ، والتي كان منها قاضي الجماعة للحكم بن هشام : عبيد الله بن موسى ، بل إنه ربما كان أخا لنفس هذا القاضي .

(٢٨٨) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مزين القرطبي ، أحد أفراد أسرة بني مزين المشهورة التي كان أصلها من طليطلة وإن كانوا قد سكنوا أكشوبة واستقروا فيها . وكان إبراهيم هذا يتعاقب مع الحجاب وجملة الوزراء والقواد في أيام الحكم بن هشام ، ثم ولاه على طليطلة أعواما متصلة . وقد ترجم له ابن الأبار في الحلة (٨٨/١) وأورد ببين من شعره ولكنه لم يذكر عام وفاته الذي يفيدنا عنه ابن حيان هنا وهو ٢١٣ (٨٢٨) . وانظر كذلك تعليقنا السابق عن بني مزين (رقم ١٧٠) بمناسبة الحديث عن الفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين ، وهو ابن إبراهيم المذكور هنا .

(٢٨٩) هو عبد الخالق بن عبد الجبار بن قيس بن عبد الله بن عبد الرحمن بن قتيبة بن مسلم الباهلي ، وجده الأعلى قتيبة ابن مسلم هو القائد المشهور الذي كان عاملا على غراسان في دولة بني أمية بالشرق . وقد استقرت في الأندلس من ذريته بقية كبيرة كانت موزعة بين جيان وطليطلة ووادى الحجازة على ما يذكر ابن حزم (جهرة ، ص ٢٤٦) ، وقد ولي عهد الخلق القضاء بطليطلة في أيام الحكم بن هشام الربيعي حتى عزل سنة ٢٠٥ (٨٢٠ - ٨٢١) فيها يذكر ابن حارث الخشني ، وينقل ابن الأبار في الترجمة التي أفردها له قولاً آخر في وفاته يختلف عما يذكره هنا ، وهو أنه مات سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . (التكملة ، نشر الأركون وبالشبثيا ، رقم ٢١٩٦) . ولنا ندرى هل أخطأ ابن الأبار في النقل عن ابن حيان ،

أم تناقض ابن حيان ، وربما كان هناك قولان في وفاته نقلهما المؤرخ كما وقعا إليه . وقد كان عبد الخالق المذكور جد أسرة تكررت فيها خطة القضاء ، فكان ابنه الوليد قاضيا (وسوف يذكره ابن حيان) ، وكذلك حفيده أحمد بن الوليد عبد الخالق ، وولي جميعهم قضاء طليطلة (انظر ترجمة هذا الأخير في ابن الفرغى : رقم ٥٩) وأخوه عبد الخالق بن الوليد الذى ترجم له ابن الأبار : تكله ، ط . الأركون وبالنشيا ، رقم ٢١٩٧ ؛ وانظر كذلك في هذه الأسرة كلها القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ١٦٢) .

(٢٩٠) لابد أن فرج بن مسرة بن سالم المذكورة هنا وفاته في سنة ٢١٧ (٨٣٢) هو نفسه الذى يسميه ابن حزم فرج بن سالم ناسبا إياه إلى جده . وسالم المذكور هو سالم بن ورعالم بن وكذات المصمودى من موالى بنى مخزوم ، ويظهر أنه أول من دخل الأندلس فيمن دخلها من البربر عند الفتح ، وقد استقر بيته في المنطقة الجبلية من الثغر الأوسط في هضبة وسط شبه الجزيرة ، وإلى سالم بن ورعالم تنسب « مدينة سالم » التى تحمل حتى اليوم اسمها العربى في صورة *Medinaceli* (على بعد ١٥٣ كيلو متر إلى الشمال الشرقى من مجريط (مدريد) ونحو مائة كيلو متر إلى شمال وادى الحجارة) . أما حفيده (أو ابنه في رأى ابن حزم) الفرغ بن مسرة بن سالم فهو الذى تنسب إليه « مدينة الفرغ » التى كانت تسمى أيضا « وادى الحجارة » (وهى مازالت كذلك تحمل اسمها العربى : *Guadalajara*) ، وتقع على مسافة ٥٦ كيلو متر إلى الشمال الشرقى من مدريد ، وقد ظلت وقتا طويلا تعرف باسمها : وادى الحجارة ومدينة الفرغ حتى في كتابات المؤرخين المسيحيين (كما نرى في كتاب « تاريخ العرب » للأسقف دُون رودريجو - الفصل التاسع والثلاثين - حيث يدعوها باللاتينية *Medinae Alfaragel*) وإن كان الاسم الأول هو الذى شاع وغلب عليها حتى أيامنا هذه ، وقد حاول جايانجوس أن يجد تفسيراً لاسم « مدينة الفرغ » فظن أن كلمة « الفرغ » تعنى « الفرجة » أو الشق في الأرض ، وبهذا ترجمها عند نشره لنص جغرافية أحمد بن موسى الرازى انظر :

Pascual de Gayangos : Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del foro Rasis, p. 48, nota, 4.

ولم يكن المستشرق الإسباني يعرف أن الفرغ هو اسم علم وأنه منتهى المدينة فاصطلىح على تسميتها باسمه . (انظر كذلك ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المطار ص ١٩٣) . وقد أشار ابن عذارى في البيان المغرب إلى قائد يدعو فرج بن مسرة بمناسبة فتحه لحصن « القلعة » في أرض العدو سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) . (انظر البيان ٨٢/٢) ولسنا نشك في أن فرج ابن مسرة هذا هو نفسه المذكور هنا في نص ابن حيان . ويعقب ابن عذارى إشارته تلك بقوله إن مسرة - ولعله يعنى أباه - كان عاملا على جيان .

وقد احتفظ بنو سالم المذكورون هنا برياستهم في منطقة الثغر الأوسط الممتدة بين طليطلة ومدينة سالم زمنا طويلا وكان منهم كثير من عمال مدنها وقواد ثغورها طوال أيام الدولة الأيوبية (انظر حول هذه الأسرة ابن حزم : جمهرة ص ٥٠١ ؛ وكذلك كتابنا « مدريد العربية » ص ٨٨ - ٩٠) .

(٢٩١) يقصد بالهيج ثورة الربض المشهورة التى ثبت عند الحكم بن هشام في ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ (٢٥ مارس سنة ٨١٨) والى اشتراك فيها عدد كبير من الفقهاء مثل يحيى بن يحيى الليثى وطالوت بن عبد الجبار وعيسى بن دينار الطليطل وقرعوس المذكور . انظر عن هذه الثورة ما كتبه ليني بروفنسال في تاريخه (١٦٥/١ - ١٦٩) .

(٢٩٢) اختصر ابن حيان هذه الترجمة من كتاب ابن الفرضي ، رقم ١٠٨٢ ؛ وانظر كذلك عن قرعوس بن العباس الحميدى : جذوة ، رقم ٧٨٠ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٤٩٢ - ٤٩٣ : ابن فرحون : ديباج ص ٢٢٦ ؛ ومن الدراسات الحديثة انظر لويس أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٨٣ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٠١ . وقد نقل عياض في ترتيب المدارك تحقيقا طيبا للفقهاء أبي محمد بن حزم حول ما ترجمه كتب التراجم عن الشيوخ الذين لقيهم قرعوس . فن بين من يذكرون من هؤلاء الشيوخ ابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري ، كما نرى في نفس هذه الترجمة التي يعتمد ابن حيان فيها على كتاب ابن الفرضي . ويعلق ابن حزم على ذلك بدقته واقتداره في ميدان النقد : « من المحال أن يروى قرعوس عن ابن جريج ، إذ مات ابن جريج سنة خمسين ومائة ، وقرعوس مات سنة عشرين ومائتين . ولم يطل عمر قرعوس طويلا يحتمل هذا . وكذلك وفاة سفيان سنة إحدى وستين » (ترتيب المدارك ١/٤٩٣) . والحقيقة هي أن معاجم التراجم تحفل بأشكال هذه المفارقات التي لا تستقيم على المقابلة التاريخية ولا تثبت أمام أي مناقشة بنطقية ، ولكن المؤلفين يحرون على تناقلها وإثباتها حتى تصبح في حكم المسلمات دون أن يمتنوا أنفسهم - كما فعل ابن حزم ونفر غيره من النقاد المتنبئين - بإخضاعها لميزان نقدي قويم .

(٢٩٣) لابد أن يكون حمدون بن فطيس هذا المتوفى سنة ٢٢٠ (٨٣٥) أو ٢٢٦ (٨٤١) ابنا لثمان ابن سليمان الملقب بفطيس والذي كان كاتباً ووزيراً لهشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم حتى وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣) - ٨١٤ (٨١٤) أو ٢٠٧ (٨٢٢ - ٨٢٣) . (انظر ما كتبه عن فطيس المذكور في تعليقنا رقم ٢٦٧) . وأما حمدون ابنه فهو بنير شك الذي ذكره الخشني في خبر قصه عن القاضي محمد بن بشير قاضي الجماعة في أيام الأمير الحكم ، إذ يقول إن حمدون ابن فطيس تظلم من محمد بن بشير في شيء حكم به عليه إلى الأمير الحكم ، فسأل الأمير أن يعقد مجلساً للفقهاء لبحث ذلك الحكم وإعادة النظر فيه ، وطلب إلى يحيى بن يحيى أن يحضر هذا المجلس ، فنصحه يحيى ألا يفعل ، وقال له إن كان يصر على ذلك فليستشر أولاً شيخ الفقهاء يحيى بن مضر القيسي ، فاستحيا حمدون « وكان حليماً دمثاً » وكف عن جمع الفقهاء . (الخشني : قصة ص ٦٤) . وإذا صح ما يرويه الخشني هنا فإن هذه الواقعة ينبغي أن تكون قد حدثت قبل سنة ١٨٩ (٨٠٥) ، وهي السنة التي قامت فيها ثورة الفقهاء الأولى وكان من عواقبها أن قبض على يحيى بن مضر وصلب .

(٢٩٤) عن محمد بن كليب بن ثعلبة انظر تعليقنا السابق عن بني كليب (رقم ٢) .

(٢٩٥) لم نجد فيما بين أيدينا من المراجع شيئاً عن هؤلاء المذكورين ، ولابد أنهم كانوا من زعماء المتمردين في طليطلة من قبض عليهم في أيام الحكم بن هشام حينما فتحها سنة ١٩٩ (٨١٤) وبحق الثورة فيها واستأزَل بعض زعمائها فأودعهم بحزن المطبق . ويبدو من أسماء هؤلاء الطليطليين أنهم كانوا من المولدين ، ويلفت النظر من بينهم اسم « حرب بن بلدس » ، إذ يبدو لنا أن اسم أبيه بلدس هذا لابد أن يكون من الأسماء العجمية الشائعة بين المولدين والمستعربين ، وهو يقابل Valde's الذي لا يزال مستخدماً في إسبانيا حتى اليوم .

(٢٩٦) هو حبيب بن سليمان بن هارون بن جلهمه بن عباس بن مرداس السلمي القرطبي ، كما ذكر نسبه ابن الفرضي في نسب ابنه الفقيه عبد الملك بن حبيب ، ونقل القاضي عياض عن خط الحكم المستنصر في نسبه أنه حبيب بن ربيع بن سليمان ،

وكذا قال أبو عل الفسافي . واختلف فيما إذا كان عربيا صحيح النسب من سليم أو من مواليهم ، فقال بالرأي الأول محمد ابن حارث الخشني وقال ابن الفرغني إنه كان من الموالى ، ويبدو أن هذا هو الأرجح . وذكر عياض أن حبيب المذكور كان يعرف بالمصار : كان يعصر الأذهان ويستخرجها . وكان أصلهم من طليطلة ، ثم انتقل أبوه سليمان إلى قرطبة ، وولد له ابنه حبيب فيها وبها نشأ وأصبح عن عداد فقائها ، فلما شبت ثورة الربض سنة ٢٠٢ (٨١٨) انتقل هو وإخوته إلى البيرة ، ومن هنا عرف ابنه الفقيه المشهور عبد الملك بالإلييري . وعلى الرغم من أن حبيب بن سليمان كان يعد من الفقهاء فإنه لم يثر له على رواية . انظر في ترجمته ابن الأبار : تكملة ، رقم ٨٧ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٣٠ - ٣١ (في ترجمة ابنه عبد الملك بن حبيب) .

(٢٩٧) انظر في ترجمة حارث بن أبي سعد ابن الفرغني : رقم ٣٢٤ ؛ الحميدي : رقم ٣٩٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٢/٢٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ، ص ٧٩ . ولهذا النص قيمة خاصة ، إذ فيه إشارة إلى تولى حارث بن أبي سعد « للشرطة الصغرى » ، ولعله أول من تولى هذا المنصب فيها نعرف ، ويدلنا ذلك على أن الشرطة قد تفرعت في أيام عبد الرحمن الأوسط إلى كبرى وصغرى كما يدا لنا من نص لابن حيان مرفى هذه القطعة من المقتبس عند الكلام عن أصحاب شرطة عبد الرحمن بن الحكم ، ولأن التحريف الذى لحقه لم يسمح لنا بقراءة يطمأن إليها تماما . وقد جاء في النص المذكور أيضا أن حارث بن أبي سعد ولى أيضا خطة الرد مجموعة له مع الشرطة الصغرى ، وهذه خطة جديدة يبدو أنها ظهرت كذلك في أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط (وانظر تعليقنا السابق رقم ١٥١) .

ونلاحظ أخيراً فيما يتعلق باسم حارث بن أبي سعد أن كنية أبيه (واسمه سابق) تكتب هكذا في ترجماته التي وصلت إلينا (مثل ما كتبه عنه ابن الفرغني والقاضي عياض) ، فإذا ترجم هؤلاء لابنه محمد - وكان أيضا من ولادة الشرطة - كتبوا هذه الكنية هكذا : « أبو سعيد » مما يجعلنا في شك من أمر الصواب فيها . ولعل ما أثبتناه هنا هو الصحيح .

(٢٩٨) أبو عمرو عثمان بن عيسى بن كنانة مولى عثمان بن عفان من فقهاء المدينة أصحاب الإمام مالك ، انتدبه مالك لمناظرة الفقيه القاضي أبي يوسف في مجلس هارون الرشيد ، وهو الذى تصدر مجلس مالك بعد وفاته . وكانت وفاته سنة ١٨٦ (٨٠٢) . انظر في ترجمته القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٢٩٩) انظر ترجمة محمد بن عيسى الأعشى في كتاب ابن الفرغني ، رقم ١١٠٠ ؛ الحميدي ، رقم ١٠٦ ؛ الخشني : قضاة ص ١٠ ، ٥٨ ، ٨٦ ، ١٠٢ - ١٠٣ ؛ المقرئ : نفع ٢/٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ١٠٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٨٤ . ويلاحظ أن الأعشى كان من أول من تأثر من الأندلسيين بفقه أهل العراق ، ولا سيما بمذهب أبي حنيفة ، وهو مذهب لم يأخذ به من أهل الأندلس إلا أشخاص معدودون ، وإلى هذا التأثير بالمذهب الحنفي يرجع تساهل الفقيه محمد بن عيسى الأعشى في شراب النبيذ (كما رأينا في الخبر الذى قصه ابن حيان من قبل مع القاضي محمد بن زياد بن عبد الرحمن حينما تطوع الأعشى بإطلاق سراح سكران قبض عليه القاضي ليقم الحد عليه) . ويذكر الأعشى من بين من عرض عليهم القضاء فأبوا من قبوله ، وكان صاحب نوادر وفكاهات أورد ابن حيان طرفاً منها من قبل .

(٣٠٠) أبو محمد سفيان بن عيينة الهلال الكوفي المكي ، ولد سنة ١٠٧ (٧٢٥ - ٧٢٦) ، فقيه محدث عداده في تابعي التابعين ، سمع من الزهري وعمرو بن دينار والشعبي وغيرهم ، وروى عنه الأعمش ووكيع بن الجراح والشافعي وغيرهم من أئمة الفقهاء والمحدثين . وتوفي سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) .
انظر في ترجمته العبر للذهبي ٣٢٦/١ .

(٣٠١) وكيعة بن الجراح الرؤاسي ، ولد سنة ١٢٩ (٧٤٦ - ٧٤٧) ، وروى عن أبي حنيفة وأبي يوسف ، وهو من أكبر محدثي الكوفة ، وروى عنه ابن حنبل وابن المبارك ويحيى بن معين وغيرهم . وتوفي سنة ١٩٧ (٨١٢ - ٨١٣) .
انظر في ترجمته طبقات علماء إفريقية لأبي العرب بن تميم ص ١٨٥ ، حاشية ٢ والمراجع المثبتة .

(٣٠٢) يحيى بن سعيد بن فروخ التميمي المعروف بالقطان ، من كبار أئمة الحديث المراءيين ، ويعتبر من أئمة الجرح والتعديل ، روى عن هشام بن عروة ، واعتبره القاضي عياض ممن روى عن مالك من عداد أقرانه ، وكانت وفاته سنة ١٩٨ (٨١٣ - ٨١٤) . انظر الخزرجي : خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٦٣ ؛ ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٥٨ .

(٣٠٣) لم نهند إلى شخصية أبي محمد بن خالد هذا ولا على ما يشير إلى بيت بني عمار المراديين بقرطبة الذين ينحدرون من نسل ابن خالد المذكور ، وإن كانت إشارة ابن حبان تدل على أن هذا البيت كان من بيوت الشرف المشهورة في قرطبة على أننا نعرف أن بني مراد - ونسبهم ينتهي إلى يحابر (وهو مراد) بن مالك بن أد . . . بن كهلان بن سبأ - كانوا يسكنون إقليمًا من أقاليم قرطبة يعرف بكورة مراد ، في غرب قرطبة بينها وبين إشبيلية ، وفي هذه الكورة حصن يعرف باسم حصن مراد (انظر ابن سعيد : مغرب ٢٣٢/١ ؛ ياقوت : معجم البلدان ٤/٤٧٤) . وقد أشار ابن حزم إلى نسب بني مراد (بجمهرة ص ٤٠٦ - ٤٠٧) ولكنه لم يذكر منازلتهم بالأندلس ، غير أن ابن غالب نص عنه أنه كان منهم خلق كثير يعرفهم بالكورة التي تنسب إليهم : « وهنهم [من عرب الأندلس] من ينتسب إلى مراد بن مالك بن أد ، وحصن مراد بين قرطبة وإشبيلية مشهور . قال ابن غالب : وأعرف بمراد منهم خلقاً كثيراً » (انظر المقرئ : نفح ٢٧٦/١ ؛ وانظر كذلك بحث الأستاذ إلياس تيريس سادابا عن « الأنساب العربية في الأندلس » في مجلة « الأندلس » المجلد الثاني والعشرين سنة ١٩٥٧ ص ٦٨ من الفصيلة :

Elias Teres Sadaba : Linajes arabes en al-Andalus, segun la « Yamhara » de Ibn Hazm.
Al-Andalus, Vol. XXII, ano 1957.

وإذا كنا لم نهند إلى أسرة تحمل اسم بني عمار من قبيلة مراد المذكورة فإن لنا توجيهًا في ذلك نعتقد أنه قد لا يبعد عن الصواب ، فراد رأس القبيلة التي تنسب إليها الكورة والحصن المذكوران ليس إلا ابن عم لعنس بن مذحج بن أد . . . ابن كهلان بن سبأ . ونحن نعرف من هؤلاء العنسيين أسرة كبيرة عريقة الشرف في الأندلس تحمل اسم بني عمار ، إذ ينتهي نسبها إلى الصحابي المشهور عمار بن ياسر العنسي رضي الله عنه ، وكان من أول من اعتنق الإسلام وعذب في سبيله . وأول من دخل من ولده الأندلس حفيده عبد الله بن سعد بن عمار ، وكانت له حظوة لمكانته من إيمانية بقرطبة ، ويقول ابن الخطيب إن داره كانت معروفة بقرب القنطرة ، وقربه يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر أمراء الأندلس قبل تجمد الدولة

الأموية فيها . فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل عهد إليه يوسف بمحاربته للثأر القديم بين بني أمية وبني همار بن ياسر منذ حرب صفين . ولكن عبد الرحمن هزمه وقتله (انظر ابن حزم : جبهة ص ٤٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢-١٦١ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة - نشر الاستاذ محمد عبد الله عنان - ٢٢٢/١ ؛ المقرئ : نفح ٣/٩٦ ؛ ٤/٦١ ؛ وبجنا عن « التشيع في الأندلس » ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٧) . وقد كان لبني عمار هؤلاء بيت كبير من بيوت الشرف بقرطبة ، وإن كانت منازلهم في قلعة من أعمالها تقع بينها وبين جيان وإلبيرة هي « قلعة يحصب » التي عرفت بعد ذلك باسم قلعة بني سعيد نسبة إلى سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعد بن عمار ابن ياسر (وظلت تحمل هذا الاسم حتى بعد استيلاء المسيحيين عليها ، إذ كانت تدعى Alcala de Abenzaide ثم غير اسمها فأصبح Aecala la Real أى القلعة الملكية وهو الاسم الذي جرى عليها حتى اليوم . وإلى هؤلاء ينسب بنو سعيد المشهورون الذين كان منهم علي بن موسى بن سعيد مؤلف كتاب المغرب في حلل المغرب (انظر ابن حزم : جبهة ص ٤٠٦ ؛ المغرب ٢/١٦١ ؛ المقرئ : نفح ١/٢٧٦) .

فلعل ابن حيان نسب بني عمار بن ياسر القرطبيين الذي كان منهم بنو سعيد المذكورون إلى مراد ؛ إذ كانوا أبناء عمومتهم .

(٣٠٤) انظر ترجمة ابن مرتليل الأشج في ابن الفرغى ، رقم ١٠٩٩ ؛ الخشني : قضاة ص ٦٣ ؛ الحميدى ، جذوة ، رقم ٤٣ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢٦ - ٢٧ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢٣١ .

(٣٠٥) انظر في ترجمة الوليد بن عبد الخالق المذكور ابن الفرغى : رقم ١٥٠٢ ، وقد نقل خبره عن أحمد محمد الرازي ؛ وأبوه الذي ولي قضاء طليطلة أيضا هو الذي سبق أن أشار إليه ابن حيان في وفيات سنة ٢١٣ (٨٢٨) . انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٩ .

(٣٠٦) في ترجمة محمد بن سعيد الزجالى انظر ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٣٢ ، وفيما يتعلق بوفاته التي تردد ابن حيان في تحديد تاريخها بين سنتي ٢٢٨ (٨٤٣) و ٢٣٢ (٨٤٦ - ٨٤٧) انظر ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٣٥ هل ما ذكره ابن حيان في ذلك الموضع من أنه « كتب لابنه [أى لابن عبد الرحمن الأوسط] محمد بعده » ، وفي هذا تناقض واضح إذ أن الأمير محمداً ولي الإمارة في سنة ٢٣٨ (٨٥٢) ، وقد ذكرنا هناك أنه ربما كان في العتبة سقط وأن يكون تمامها « وكتب ابنه [أى ابن محمد بن سعيد الزجالى] لابنه محمد بعده » .

(٣٠٧) لم أستطع التحقق من شخصية يحيى بن موسى هذا ، ولعله كان أخا لمحمد بن موسى النافق الذي ولي الوزارة والكتابة والذي ذكره ابن حيان من قبل في وفيات سنة ٢١٥ (انظر تعليقنا السابق رقم ٢٨٧) .

(٣٠٨) أسرة النازى بن قيس القرطبي من الأسر التي كان لها إسهام كبير في الاشتغال بالعلم في الأندلس . وللغازي مكانة خاصة ولاسيما في فقهاء المالكية ، فقد كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس قبل أن يدخل به زياد ابن عبد الرحمن النخعي (شبطون) ويحيى بن يحيى اللبني بعده . وكان مشغولاً بالتأديب في قرطبة في أيام دخول الإمام عبد الرحمن

ابن معاوية الداخل إلى الأندلس ، ثم رحل إلى المشرق فشهد تأليف الموطأ بالمدينة وأدرك نافع بن أبي نعيم القارئ وقرأ عليه ، فضلا عن أخذه عن فقهاء آخرين مثل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي فقيه أهل الشام ، وكان عبد الرحمن الداخل يكرمه ويعظمه ويصله في منزله ، ويقال أن القضاء عرض عليه فأبى من قبوله . ويبدو أنه كان منصرفاً عن الاشتغال بالفقه والفتوى على الرغم من إسهامه المبكر في إدخال الموطأ ، فقد كان أكثر اهتماماً باللغة والنحو ، واستأدبه الأميران هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم بن هشام لأبنائهما ، وكان قد تلقى بالمشرق كذلك الأصمعي ونظرائه ، ولهذا فقد جعله الزبيدي في الطبقة الأولى من طبقات اللغويين والنحويين بالأندلس . وكانت وفاة الغازي سنة ١٩٩ (٨١٤ - ٨١٥) . (انظر في ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٣٤ ؛ ابن الفرضي ؛ ١٠١٣ ؛ الحميدي . رقم ٧٤٨ ؛ الضبي . رقم ١٢٧٢ ، ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٤٧ - ٣٤٩ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٧٦ - ٢٧٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٢١٩ وانظر ابن بشكوال : الصلة ١٠٨-١ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ٦١،٥٥،٥٤ ؛ وقد عالجت مسألة دور الغازي بن قيس في إدخال الموطأ إلى الأندلس بالتفصيل في بحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٩٩-١٠٠)

أما ابنه عبد الله بن الغازي المترجم هنا فقد كان أكثر اهتماماً من أبيه باللغة والشعر والخبر ، سمع من أبيه ورحل إلى المشرق فروى عن كبار علماء اللغة والأخبار هناك ، وأخذ عنه أهل الأندلس علماً كثيراً ، وكان ممن نشروا قراءة نافع ابن أبي نعيم التي أدخلها أبوه من قبل . وكانت وفاته سنة ٢٣٠ (٨٤٤ - ٨٤٥) . انظر ترجمته في ابن الفرضي : رقم ٦٣٢ الزبيدي : طبقات ص ٢٨١ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ٣٤٨-١ .

وقد كان لعبد الله هذا ابن يدعى محمداً سار على نهج جده وأبيه في الاشتغال بعلوم العربية والأخبار والشعر ، وسمع من أبيه ثم رحل إلى المشرق فلقى أبا حاتم السجستاني وأبا الفضل العباس بن فرج الرياشي وأبا إسحاق الزبادي وغيرهم من رواة الأخبار والأشعار وأصحاب اللغة فضلاً عن طائفة المحدثين . وأدخل إلى الأندلس علماً كثيراً من الشعر والغريب والخبر . ويقول ابن الفرضي إن أهل الأندلس أخذوا عنه « الأشعار المشروحة كلها رواية » ، ويبدو أن المقصود بهذا مجموعات من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين . وخرج في آخر عمره يريد الحج غير أنه توفي بطنجة في نحو سنة ٢٩٦ (٩٠٨ - ٩٠٩) كما يقول ابن الفرضي (ويبدو أن هنا خطأ من الناسخ وأن الصواب سنة ٢٧٦ (٨٨٩ - ٨٩٠) . انظر في ترجمته : ابن الفرضي ، رقم ١١٥٠ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٢٨٢ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ١٩٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة أنظر كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٢٧٢ .

(٣٠٩) هو نافع بن عبد الرحمن بن إبراهيم ، أحد القراء السبعة ، وكان قارئاً أهل المدينة وأصله من إصبهان ، وكان يذكر أنه قرأ على سبعين من التابعين ، وإليه تنسب القراءة المعروفة باسمه . وتوفي سنة ١٦٩ (٧٨٥ - ٧٨٦) . انظر ابن الجوزي : طبقات القراء ، ط . القاهرة ١٣٥٢ هـ : ٣٣٠/٢ - ٣٣٤ ؛ ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط . حيدر آباد سنة ١٣٢٥ هـ ، ٤٠٧/١٠ - ٤٠٨ .

(٣١٠) أبو القاسم ثابت بن حزم العوفي السرقسطي ، سمع بالأندلس من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد الله بن الغازي وغيرهما ، ورحل إلى المشرق مع ابنه قاسم ، فسمعا بمكة ومصر ، وكان عالماً بصيراً بالحديث والفقه والنحو والغريب

و الشعر ، وتوفي سنة ٣١٣ (٩٢٥) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٣٠٦ ؛ الحميدى ، رقم ٣٤٥ ؛ الزبيدي .
طبقات ص ٣٠٩ (وهو يسميه ثابت بن عبد العزيز) ؛ السيوطى : بنية ص ٢٠٩ .

(٣١١) أبو محمد قاسم بن ثابت هو ابن المتقدم ذكره ، رحل مع أبيه إلى المشرق سنة ٢٠٨ (٨٢٣ - ٨٢٤)
واشترك معه في سماعه ، وألف كتاب « الدلائل » في شرح غريب الحديث الذى كان موضع ثناء أبي على القالى وافتخار أبي محمد
ابن حزم . وكان قد عرض عليه القضاء بسرقسطة وأريد إكراهه عليه فدعا على نفسه بالموت ، فاستجاب الله له وتوفي سنة ٣٠٢
(٩١٤ - ٩١٥) فشكله أبوه ، وكان لم يكمل بعد كتاب « الدلائل » فأتمه أبوه ثابت . انظر في ترجمته وأخباره : ابن الفرضي ،
رقم ١٠٩٠ ؛ الحميدى رقم ٧٧١ ؛ الزبيدي : طبقات ص ٣٠٩ ؛ النباهى مرقبة ص ١٣ ؛ السيوطى : بنية ص ٣٧٦ ؛
المقرئ : نفح ٢٥٥/٢ - ٢٥٦ ، ١٦٤/٤ (حيث ورد الاسم خطأ « عابر بن خلف » بدلا من قاسم بن ثابت) . وقد
كان لكتاب الدلائل انتشار كبير في الأندلس يدل عليه ما كتبه ابن خيبر عن رواياته في فهرسة شيوخه (ص ١٩١ - ١٩٤) .
وقد كان الشائع المعروف هو أن هذا الكتاب الجليل - الذى فضله ابن حزم على شرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم
ابن سلام - قد ضاع واندثر . غير أن الحظ قد أسعدنا بأن اكتشفت أخيراً في المغرب مخطوطات جديدة منه مازالت تنتظر
النشر . انظر عن هذا الكتاب تقريراً كتبناه عن رحلة قنا بها في المغرب بحثاً عن مخطوطات أندلسية جديدة في صحيفة معهد
الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلدين التاسع والعاشر ، سنتي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ص ٤٥٠ من القسم العربى (وتحمل المخطوطة
الجديدة من كتاب الدلائل رقم ١٩٨ ق ، وهذا الرمز الأخير يشير إلى ما عثر عليه من كتب في مجموعات الأوقاف والزوايا
وهي الآن محفوظة في الخزانة العامة بالرباط) . وعن قاسم بن ثابت انظر كذلك كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٥٦
١٩٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ - ٢٦٨ ، ٢٧٧ .

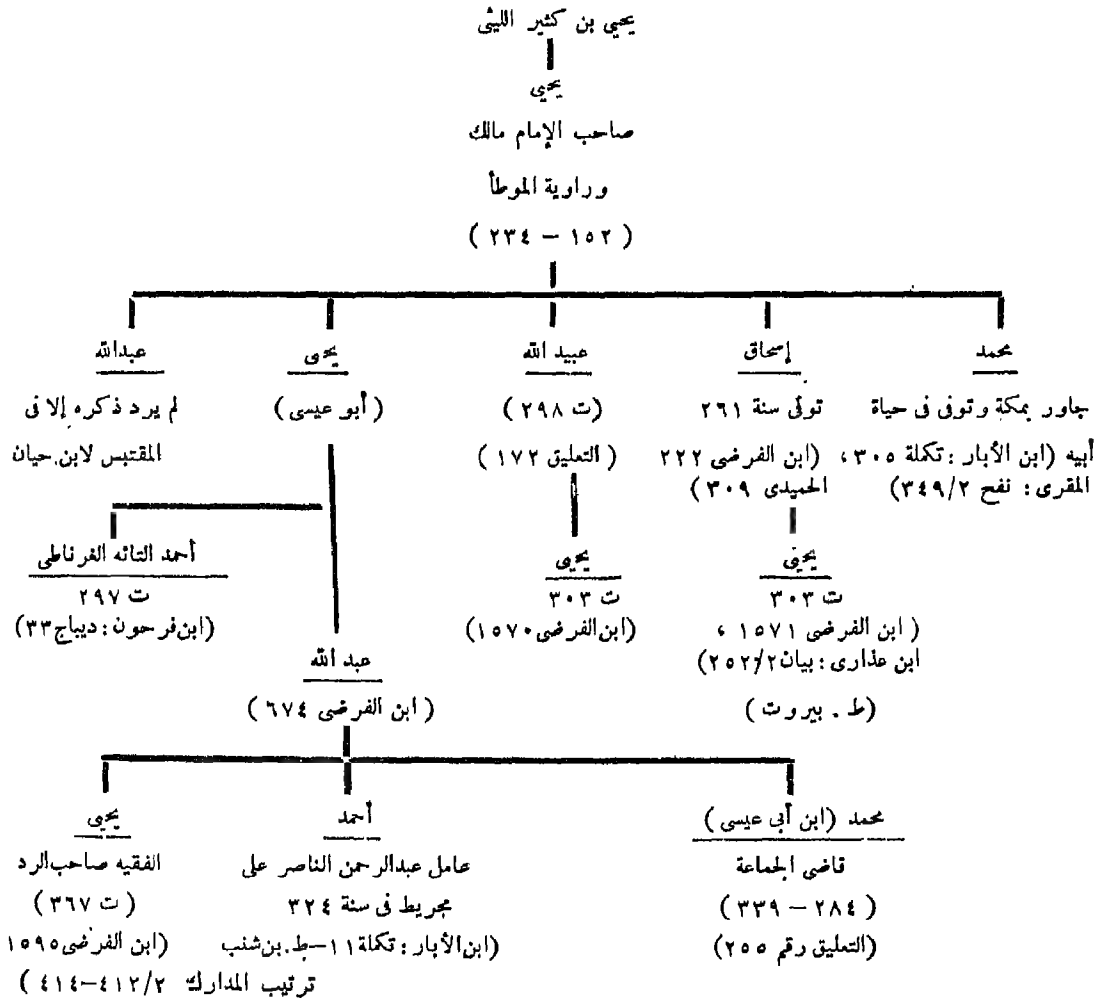
(٣١٢) في ترجمة الفقيه زونان أنظر ابن الفرضي ، رقم ٨١٣ ؛ الحميدى ، رقم ٦٢٧ ؛ الخشنى : قضاة ص ٨٢ ،
٩٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢٠ - ٢١ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٥٧ ؛ ومن المراجع
الحديثة لويس أورثيث : دخول المذهب المسالكى ص ٨٠ - ٨١ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٧ .

(٣١٣) صمصمة بن سلام الدمشقى ، كان تلميذاً للأوزاعى إمام أهل الشام وغيره من فقهاء هذا القطر ، وكانت تدور
عليه الفتيا أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل وابنه هشام ، وذلك قبل أن تتولد دعائم المذهب المسالكى في الأندلس ويحل
محل مذهب الأوزاعى . وبفضل صمصمة بن سلام غرس الشجر في صحن المسجد الجامع بقرطبة ، وبقي ذلك تقليداً في مساجد
الأندلس ، وهو ما يجوز في مذهب الأوزاعى وينكره مذهب مالك ، وتعتبر هذه هي البقية الوحيدة الباقية من مذهب الأوزاعى
في الأندلس . وتوفي صمصمة على الأرجح سنة ١٩٢ (٨٠٨) في أيام الحكم بن هشام . انظر في ترجمته : ابن الفرضي ،
رقم ٦٠٨ ؛ الحميدى : جذوة ، رقم ٥١٠ ؛ عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٥ ، ٣٤٨ ؛ وانظر من الأبحاث
الحديثة لويس أورثيث : دخول المذهب المسالكى ص ٥٢ - ٥٣ ؛ وببحثنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣١٤) أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام أهل الشام ، وصاحب المذهب الفقهي المنسوب إليه ، ولد ببلبك سنة ٨٨ أو ٩٣ (٧٠٧ - ٧١٢) وتوفي سنة ١٥٧ (٧٨٤) في بيزوت. انظر في ترجمته دائرة المعارف الإسلامية ٥٣٣/١ والمراجع المثبتة في هذا الموضع . وقد كان مذهب الأوزاعي هو الذي انتشر أولا في الأندلس ، وذلك بحكم الرابطة المتينة بين الأندلس وبلاد الشام وتجدد الدولة الأموية في الأندلس بحيث اعتبرت امتداداً لخلافتهم السابقة التي كانت قاعدتها دمشق . ومن هنا أخذ الأندلسيون في أول الأمر بمذهب الأوزاعي ولكن مذهب الإمام مالك بن أنس لم يلبث أن غلب على هذه البلاد منذ أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل الثالث ، واندثر مذهب الأوزاعي فلم تبق منه في الفقه الأندلسي إلا مسألة واحدة ميزت المسالك الأندلسية حتى انتهاء الإسلام في هذه البلاد وهي استجازه غرس الشجر في حصون المساجد . انظر عن مذهب الأوزاعي في الأندلس لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٥٢ - ٥٣ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٦٤ - ٦٧ . هذا ويعتبر الفقيه عبد الملك بن الحسن المعروف بزنونان والمترجم له هنا من معالم التحول المهمة من مذهب الأوزاعي إلى المذهب المالكي ، فقد بدأ حياته بصفته فقيها ومفتيا على مذهب الأوزاعي ، ولكنه لم يلبث أن تحول إلى المسالكة التي غلبت على الشعب الأندلسي واستأثرت به ، وذلك مجازاة لما اتفق عليه أهل بلده .

(٣١٥) من الفقيه يحيى بن يحيى الليثي انظر ابن القوطية : تاريخ ص ٣٥ ، ٥١ ، ٥٨ ؛ ابن الفرضي ، رقم ١٥٥٤ الحميدي ، رقم ٩٠٨ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٣٥ - ٥٤٧ (ولعلها أوسع ترجمة له) ؛ ابن سعيد : المغرب ٤٣/١ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٦٣ - ١٦٥ ؛ المقرئ : نفح ٣١٨/١ ، ٢١٧/٢ ، ٢٢٠ ، ٢٥٢ - ٢٥٣ ، ٣٤٤ ، ٤١٩ ، ٤١٤ ؛ الخشني : قصص ص ١٢ - ١٣ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٦٣ - ٦٤ ، ٦٩ - ٧١ ، ٨٢ - ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٩ - ٩٢ ، ١٠٠ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ٣٥٠ - ٣٥١ ، ومن الأبحاث الحديثة انظر لوبث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٥ وما بعدها ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ٩٣ - ٩٤ ، ١٠٢ - ١٠٣ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٥ - ١٣٨ ، ١٦٦ - ١٦٧ .

وقد توارث ذرية يحيى بن يحيى بعده رئاسة الفقه ومناصب الشورى والقضاء والقيادة ففعلا عن الاشتغال بالعلم والتدريس وقد سبق أن ترجمنا لبعضهم . وسنورد فيما يلي جدولاً لأنساب من اشتهر منهم حتى منتصف القرن الرابع في ظل دولة بني أمية :



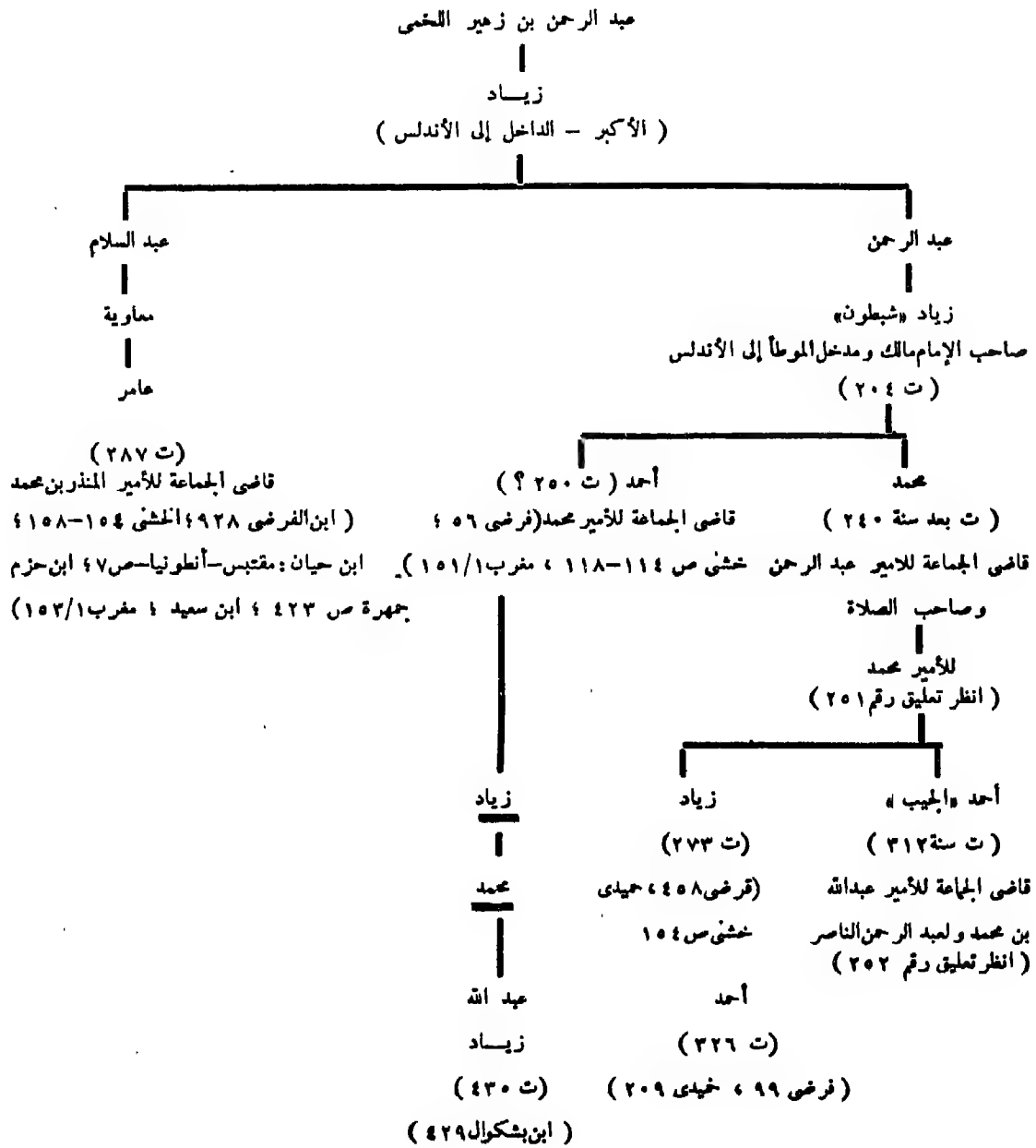
(٣١٦) انظر ابن حزم : جهرة ص ٥٠٠ ؛ وابن الأبار : تكله ، رقم ٢٠٣٢ (في ترجمة يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي والد الفقيه يحيى) حيث يذكر أن وسلاس كان قد أسلم على يد يزيد بن عامر الليثي (ليث كنانة) ، فانتسب إلى ليث بالخلف . انظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٦٠ .

(٣١٧) زياد بن عبد الرحمن بن زياد بن عبد الرحمن بن زهير اللخمي من جزيلة بن لحم بن عدي ، المعروف بشبطون ، فقيه أندلس مشهور يعتبر أول من أدخل موطأ مالك بن أنس في الأندلس معتنيا بما فيه من مادة فقهية (فقد كان الغازي بن قيس هو أول من دخل بهذا الكتاب قبل زياد ولكنه لم يعتن بمادته الفقهية عناية زياد) ، وعلى زياد تلميذ يحيى بن يحيى وهو الذي وجهه إلى الرحلة للأخذ عن مالك . وكان قد أخذ في الأندلس عن معاوية بن صالح وكان زياد صهراً له إذ كان متزوجاً من بنته ، ورحل إلى المشرق فأخذ بمصر عن الليث بن سعد وموسى بن علي بن رباح وبمكة من سفيان بن عيينة

وبالمدينة عن مالك بن أنس وبه تفقه ، وعاد إلى الأندلس فشهّر فضله وعلمه وعرض عليه القضاء فامتنع عنه ، وكانت له منزلة من الأمير هشام بن عبد الرحمن ، وتوفي سنة ٢٠٤ (٨١٩ - ٨٢٠) . انظر في ترجمته ابن القوطية : تاريخ ص ٤٢ - ٤٣ ؛ الخشني : قصص ص ١٠ ، ٣٥ - ٣٦ ، ٥٠ ، ابن القرضي ، رقم ٤٥٦ ؛ الحميدى ، رقم ٤٣٩ ؛ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٤٩ - ٣٥٣ ؛ النباهي : مرقبة ، ص ١٢ ، ١٦ ، ١٠٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١١٨ ؛ المقرئ : نفع ٣١٩ ، ٣١٦/١ ؛ ٢١٧/٢ ؛ ٢٥١ - ٢٥٣ ؛ ومن الأبحاث الحديثة لويث أورثيث : دخول المذهب المالكي ص ٦٢ - ٦٤ ؛ وبجنا عن التيارات الثقافية الشرقية ص ٦٢ - ٦٣ ، ٦٥ - ٦٦ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٢٨ .

هذا وقد أضاف ابن حزم وابن بشكوال إلى ما نعرفه عن بيت بني زياد وأوليئهم إضافات قيمة مهمة . أما ابن حزم (جهرة ص ٤٢٣) فقد ذكر أن زياد بن عبد الرحمن شبطون كان له عقب في قرطمة Cartama وشاذرة ورية (مالقة) وأنه كان منهم قاضي الجماعة بقرطبة عامر بن معاوية بن عبد السلام بن زياد (الأكبر) وكان من أهل قرطمة ، وأنه كانت هناك حتى أيام ابن حزم بقية منهم ضخمة . وأما ابن بشكوال فقد ذكر في ترجمة زياد بن عبد الله ابن محمد بن زياد بن أحمد بن زياد شبطون (٣٤٥ - ٩٥٦/٤٣٠ - ١٠٣٩) أن أصل هذا البيت من الشام ، ومنزل زياد بها يعرف برقعة قبر ابراهيم عليه السلام قريب من غزة ، ويقال أيضا ان اسمها حمة . (انظر الترجمة رقم ٤٢٩ ، الجزء الأول ص ١٨٦ ؛ ويلاحظ أن ابن بشكوال يعتمد فيها على ابن حيان نفسه) .

وقد سبق لابن حيان أن أشار إلى اثنين من أعلام هذا البيت : محمد بن زياد شبطون قاضي الجماعة للأمير عبد الرحمن ابن الحكم (انظر تعليقاتنا رقم ٢٥١) ، وابنة أحمد بن زياد المعروف باسم الحبيب الذي ولي قضاء الجماعة مرتين : مرة أيام الأمير عبد الله بن محمد ، والثانية أيام عبد الرحمن الناصر (انظر تعليقاتنا رقم ٢٥٢) ، وبقي من ذلك البيت أعلام آخرون تولى الكثيرون منهم مناصب القضاء في الأندلس وتوارثوها حتى القرن الخامس الهجري . وسنورد فيما يلي جدولا لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو عرفنا طرفاً من أخبارهم حتى يسهل تتبع هذا البيت الذي كان له في الأندلس مكانة رفيعة وأثر ثقافي كبير :



(٣١٨) من المسائل التي خالف فيها يحيى بن يحيى ومالكية الأندلس بمذهب الإمام مالك واتبعوا فيها مذهب غيره من الأئمة (وهي أربع أخذوا في ثلاث منها بمذهب الليث بن سعد وفي الرابعة بمذهب الأوزاعي) انظر النباهي : مرقبة ص ٥١ حيث أورد خلاصة لها ، وكذلك النص الجديد الذي نشره لويث أورتيث ذيلًا لكتابه عن دخول المذهب المالكي إلى الأندلس - عن كتاب للفقهاء أبي اسحاق الغرناطي ، مخطوطة الإسكوريال رقم ١٠٧٧ ورقة ٢٣٤ - ، وراجع بحث لويث أورتيث لهذه المسائل في ص ١٦٢ - ١٦٩ . وقد أعدنا دراسة هذه المسائل في كتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٦٣ - ١٦٧ مصححين بعض ما وقع فيه لويث أورتيث من أخطاء .

أما هذه المسائل الأربع فهي : ترك الحكم بالشاهد الواحد مع اليقين ، ومذهب مالك حل جواز الحكم به ، وإنما أوجب الأندلسيون شاهدين ، ثم ترك الحكم بالخلطة ، وإجازة كراء الأرض بجزء مما يخرج منها ، وقد اتبعوا في هذه المسائل الثلاث مذهب الليث بن سعد المصري . أما الرابعة فهي إجازة غرس الشجر في المساجد ، وقد اتبعوا فيها مذهب الإمام الأوزاعي فقيه أهل الشام ، ومذهب مالك يكره ذلك . وقد أصبحت هذه المسائل مما يميز مالكية الأندلس . حل أن هناك مسألتين أخريين ترك يحيى فيها مذهب مالك وهما اللتان أشار إليهما ابن حبان هنا ، وهما ترك القنوت ، وقد اتبع يحيى في ذلك أيضا مذهب الليث بن سعد إذ أن مالكا لا يرى بأسا به ، غير أن مالكية الأندلس هنا خالفت يحيى في هذه المسألة وجرت على ما كان يقتضيه رأي إمام أهل المدينة . (انظر بحثنا المفصل لهذه المسألة في دراستنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٦٦ - ١٦٧) . أما المسألة الأخرى فهي ترك بعث الحكيم عند تشاجر الزوجين ، وقد رفضت مالكية الأندلس فيها مذهب يحيى كذلك وثبتت ما جرى به العمل في مذهب الإمام مالك .

(٣١٩) لم يشر ابن حزم في حديثه عن أنساب بني أمية إلى يحيى بن سليمان هذا ، على الرغم من أنه تحدث عن ذرية سليمان بن عبد الرحمن الداخل (جبهة ص ٩٥) ، على أن ابن حزم في كتابه هذا إنما يسجل ذرية من أعقبوا وكان لهم خلف باق في عصره ، أما من انقرضت أعقابهم فانه يضرب عنهم صفحا . وقد ذكر ابن حزم في الموضوع الذي أشرنا إليه إنه لم يبق من ولد سليمان بن عبد الرحمن في عصره إلا رجلان ينتهي نسبهما إلى إبراهيم بن سليمان بن عبد الرحمن الداخل .

(٣٢٠) سبق أن تحدثنا عن بعض أعلام هذه الأسرة المشهورة التي ظلت تتوارث أعلى خطط الدولة طوال أيام الأمويين ثم ورثت ملكهم في قرطبة بعد انقراض الخلافة مروانية وقيام دول الطوائف حتى زال ملكهم على أيدي بني هباد أصحاب اشبيلية ، وذلك في معرض الحديث عن حسن بن عبد الغافر بن أبي صيدة حسان بن مالك (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما الغمر بن يحيى عبد الغافر المذكور هنا والمتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) فلم تفقدنا المراجع الأخرى بشيء من أخباره ، وإن كان من المتوقع أن يكون قد ولم بعض المناصب الجليلة للأمير عبد الرحمن بن الحكم فقد كان جده وزيراً لعبد الرحمن الداخل وصاحب شرطة لابنه هشام ، ولعل أباه كان من كبار رجال الخدمة أيضا ، وقد أشار ابن حبان من قبل إلى أن عمه حسن بن عبد الغافر كان في عداد وزراء عبد الرحمن الأوسط .

(٣٢١) كذا ورد الاسم ، دون أن يزيدنا ابن حبان تعريفا به ، وربما كان المقصود هنا هو خطاب بن زيد الذي ولى الكتابة لهشام بن عبد الرحمن الداخل (ابن عذاري : بيان ١/٢٦٩) ، على أننا نستبعد أن يطول عمر خطاب هذا حتى

يدرك أواخر أيام عبد الرحمن الأوسط . وربما كان خطاب المذكور من أسرة بنى خطاب المشهورة بتدمير ، وكان أول من دخل الأندلس معهم عبد الجبار بن قذير في طائفة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٣ (٧٤٢) وأصبر إلى تدمير بن خندريس صاحب أوريولة ، واستوطن ابنه خطاب ناحية تدمير ، وكان من ولده خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب (انظر العذري جغرافية ص ١٥) ، فقلبه هو المذكور هنا .

(٣٢٢) لم نجد ذكراً لهذا الشاعر في المراجع الأخرى ، إلا ما جاء من ورود خبر وفاته في الكامل لابن الأثير (٢٨٥/٥) ، مسمياً إياه « أبا السول الشاعر سعيد بن يعمر بن علي » وهذا الاتفاق الغريب بين مؤرخ مشرق متأخر نسبياً مثل ابن الأثير وابن حيان له دلالة مهمة ، فهو يعنى اطلاع ذلك المؤرخ إما على نسخة من كتاب المقتبس لابن حيان ، أو على كتاب من المراجع التي يعتمد عليها ابن حيان في تاريخه مثل كتاب « الرازي » مثلاً ، ويبدو أن تاريخاً للرازي كان معروفاً متداولاً في المشرق ، وربما كان كتاب « أخبار ملوك الأندلس » الذي اعتمد على مقدمته الجغرافية إلى حد بعيد ياقوت بن عبد الله الرومي في كتابه المواد الخاصة بالأندلس من كتابه « معجم البلدان » .

(٣٢٣) لم تفقدنا المراجع الأخرى بشيء عن هؤلاء المذكورين هنا في هذه الفقرة . أما بكر بن الأمير الحكم بن هشام أخو الأمير عبد الرحمن الذي كان قائداً بتدمير وتوفي في سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) فلم نثر على شيء من أخباره ، بل إن ابن حزم لم يذكره في « الجمهرة » بين من ذكر من أبناء الحكم ، وكانوا على ما يذكر ثمانية عشر ذكراً ، وقد اعتدنا من ابن حزم ألا يذكر إلا أسماء من بقى لهم عقب في عصره ، وقد أشار ابن حزم نفسه إلى أنه لم يبق في أيامه عقب من أبناء الحكم إلا من أمية وعبد العزيز وسعيد الخير والأصبغ (جمهرة ص ٩٧) .

وأما أمية بن سليمان عامل تدمير في السنة المؤرخة فلا نعرف شيئاً عنه ، ويبدو أنه لم يبق طويلاً في منصبه هذا ، إذ أن ابن حيان قد سبق أن ذكر في أخبار سنة ٢٣٦ التالية (٨٥٠ - ٨٥١) أن الأمير عبد الرحمن وثى على تدمير ابنه الحكم بعد أن هزله عن كورة لبيرة ، ثم لم يلبث في نفس السنة أن عزل الحكم عن تدمير وأعادته إلى كورة لبيرة . (انظر عن الحكم ابن عبد الرحمن تعليقاتنا السابق رقم ٤١) .

وأما زيدان « الفقي الكبير » الذي يذكر ابن حيان أنه أخرج للنظر في إحصاء تركة بكر بن الحكم أخى الأمير والاحتياط عليها فلم نعرف عنه بدوره شيئاً ، ووصفه بالفقي الكبير يدل على أنه كان من الحصين ذوي المناصب الكبرى في قصر الخلافة . ولابد أنه كان على المرتبة نصراً أثير الأمير عبد الرحمن وخليفته في قصره ، فقد كان نصر لا يزال حياً بعد .

(٣٢٤) أشرنا في حاشية هذا الموضع إلى أن الناسخ كان في شك من الاسم متردداً بين « مروان بن عبد الملك » و « مروان بن عبد الله الزجاجي » ولا تعيننا المراجع الأخرى على إجلاله للغموس والاضطراب في الاسم ، كما أننا لا نعرف على وجه التحديد مدى قرابة مروان هذا لمحمد بن سعيد الزجاجي رأس أسرة الزجاجيين وباني شرف بيتهم . وقد ذكرنا في تلك الحاشية ما يفهم منه أنه ربما كان حفيداً لمحمد بن سعيد ، غير أنه من المستبعد أن يتوفى الزجاجي المعروف سنة ٢٢٨ أو ٢٣٢ ثم لا يطلو عمر حفيد له إلا مدة تتراوح بين ثلاث سنوات وسبع .

(٣٢٥) لم نذكر لعبد الله بن محمد بن جابر هذا المتوفى سنة ٢٣٥ (٨٤٩ - ٨٥٠) في غير هذا الموضع من كتاب المقتبس ، ولم يورد ابن حيان نفسه مزيداً من أخباره . على أننا نعرف من الشخصيات المعروفة في أول أيام عبد الرحمن ابن الحكم من تدعوه المراجع « جابر بن مالك بن لبيد » الذي كان عاملاً على تدمير ثم أمره الأمير عبد الرحمن في سنة ٢١٠ (٨٢٥ - ٨٢٦) ببناء مدينة مرسية واتخاذها مقراً للولاية وقاعدة للعمال ، فجابر بن مالك المذكور هو الذي بنى مرسية وجعلها حاضرة كورة تدمير (انظر العذري : جغرافية ص ٦ ؛ ابن سعيد : مغرب ٨/١ ؛ ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ص ١٨١ ؛ ابن عذارى : بيان ٨٢/٢ - حيث يرد نفس الخبر غير أن ابن عذارى لم يذكر إلا « عامل تدمير » دون أن ينص على اسم جابر بن مالك) . ويبدو لنا أن عبد الله بن محمد بن جابر المذكور في وفيات سنة ٢٣٥ ربما كان من سلالة جابر بن مالك بن لبيد باني مرسية وأول عامل عليها .

(٣٢٦) لم نقدنا المراجع الأخرى بشيء عن هذا الأموي المعتزى إلى بيت الإمارة في الأندلس . أما أبوه هشام بن الحكم الرضي فقد أفادنا عنه ابن حزم بخبر قصير يقول فيه إنه كان أكبر أبناء الأمير الحكم ، ثم بلغ أباه أنه كان يتنصو موته ليل الأمر بعده مكانه ، فحلف ألا يليه أبداً وقدم عليه أخويه عبد الرحمن والمغيرة . (جمهرة ص ٩٨) .

(٣٢٧) في ترجمة سعيد بن حسان القرطبي المتوفى سنة ٢٣٦ (٨٥١) انظر ابن الفرضي ، رقم ٤٧٠ ، الحميدي : رقم ٤٦٨ ؛ الخشني : قصاة ص ٨٢ - ٨٣ ، ٨٧ ؛ ابن القوطية ص ٣٥ ؛ الضبي : بغية ، رقم ٧٩٦ ؛ القاضي عياض ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٢١ - ٢٢ ؛ ومن الدراسات الحديثة لوبث أورتيت : دخول المذهب المالكي ص ٨١ - ٨٢ ؛ وكتابنا عن التيارات الثقافية المشرقية ص ١٣٨ .

وقد سبق أن ذكرنا في حواشي النص تعليقا على ما ذكره ابن الفرضي مرجع ابن حيان في هذه الترجمة من أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق سنة ١٧٧ أننا نرجح أن هناك خطأ وقع في التاريخ وأن الصواب فيما نعتقد هو « سنة ١٩٧ » ، هذا وإن كان نص ابن حيان والقاضي عياض في ترتيب المدارك يتفقان مع ما يذكره ابن الفرضي ، ولذلك سببه الواضح وهو أن كليهما يعتمد على ترجمة سعيد بن حسان عند ابن الفرضي ، فتبعه خطأهما تقع عليه . والرأي الذي نذهب إليه في تحديد التاريخ هو الذي يثبتته كل من الحميدي في الجذوة والضبي في البنية ، وهو الذي يتفق مع المنطق والمقابلة التاريخية ، فلو أن سعيد بن حسان رحل إلى المشرق في سنة ١٧٧ (٧٩٣ - ٧٩٤) لأدرك في مصر فقيهيهما الكبيرين عبد الرحمن بن القاسم (ت ٨٠٦/١٩١) وعبد الله بن وهب (ت ٨١٢/١٩٧) ، بل لأدرك في المدينة مالك بن أنس نفسه (ت ٧٩٥/١٧٩) ، وما كان سعيد بن حسان ليترك الأخذ عن هؤلاء الأئمة ، بينما يتفق المترجمون له على أنه لم يسمع بمصر إلا من عبد الله بن عبد الحكم وأشهب بن عبد العزيز ، وبالمدينة من عبد الله بن نافع . وهذا يدل على أنه رحل بعد وفاة مالك والطبقة الأولى من أصحابه المصريين والمدنيين ، ويحملنا على أن نأخذ بالتاريخ الذي أورده الحميدي وهو سنة ١٩٧ ، وما أكثر ما تختلط كلمتا « سيج » و « تسع » على نسخ المخطوطات العربية .

(٣٢٨) سبق أن أشرنا في تعليقنا رقم ٢٧٤ إلى أن هناك اثنين من أصحاب الإمام مالك بن أنس يعرفان باسم عبد الله ابن نافع : الأول والأكبر مولى بنى مخزوم الذي اشتهر بلقب الصائغ المتوفى سنة ١٨٦ (٨٠٢) والثاني أو الأصغر الزيري

القرشي المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وقد ذكرنا في الحاشية السابقة أن التاريخ الصحيح لرحلة سعيد بن حسان إلى المشرق هو سنة ١٩٧ (٨١٢) كما ذكر الحميدى لا سنة ١٧٧ (٧٩٣ - ٧٩٤) كما جاء في كتاب ابن القرضى . وما دام الأمر كذلك فلا بد أن عبد الله ابن نافع المقصود هنا هو الأصغر المتوفى سنة ٢١٦ (٨٣١) . وهو من ذرية الصحابي المعروف الزبير بن العوام (رضى الله عنه) ، ومن هنا عرف بنسبته : « الزبيرى » ، وأبوه نافع بن ثابت الذى كان من أكثر أهل زمانه إقبالا على العبادة . وسمع عبد الله من مالك بن أنس وغيره من شيوخ عصره ، وروى عنه الزبير بن بكار ويعقوب بن شيبة وكثير من المحدثين والفقهاء من البصرة والعراق وما وراءها . أما من الأندلس فيذكر من تلاميذه يحيى بن يحيى الليثى وعبد الملك ابن حبيب فضلا عن سعيد بن حسان المذكور هنا ، ووثقه يحيى بن معين والبخارى والبزار ، وخرج عنه مسلم . وتوفى سنة ٢١٦ هـ عن سبعين سنة . انظر ترجمته في القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٣٦٥ - ٣٦٦ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣١ .

(٣٢٩) أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين مولد امرأة من موالى عثمان بن عفان ، أبوه عبد الحكم رأس أسرة مشهورة توارثت العلم والجاه والثروة في مصر ولد سنة ١٥٥ هـ ٧٧٢ م وسمع من الليث بن سعد وعبد الله بن طيبة ومن مالك ابن أنس وسفيان بن عيينة وغيرهم ، ثم تفقه على الطبقة التالية من أصحاب مالك المصريين مثل ابن القاسم وابن وهب ، وأكثر في الأخذ عن أشهب وأفضت إليه رئاسة مالكية مصر بعد وفاته سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ - ٨٢٠) وكان صديقا للشافعى وعليه نزل حينما قدم مصر فأكرم مثواه وبالف في بره . وله تاليف كثيرة منها المختصر الأصغر في شرح الموطأ ، والمختصر الأوسط في شرح كتب أشهب ، وهو الذى رواه سعيد بن حسان في الأندلس ، وشرحه أبو بكر الأبهري وكان له ذبوع كبير بين مالكية الأندلس . وكانت وفاته سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩) . (انظر في ترجمته : القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٥٢٣ - ٥٢٨ ؛ ابن فرحون : ديباج ص ١٣٤) . هو والد محمد الفقيه المشهور الذى رأس مالكية مصر أيضا ، وعبد الرحمن المؤرخ صاحب كتاب « فتوح مصر » .

(٣٣٠) ذكره ابن حزم في الجمهرة (ص ٩٧) فيمن ذكر من أبناء الحكم بن هشام الرضى ، وقال إن حلة من ذريته من أبناء جعفر بن جعفر بن سعيد الخير المذكور كانوا بدائية ثم انقرضوا في أيام ابن حزم . كذلك ترجم الحميدى لشاعر من نسل سعيد الخير بن الحكم هو أحمد بن هشام بن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير (جذوة رقم ٢٥٤) ، ونقل قطعة من شعره في وصف النرجس عن أبي الوليد الحميرى في كتابه « البديع في وصف الربيع » . وسيتحدث ابن حيان بعد صفحات عن سعيد الخير هذا ومدى تعلق أخيه الأمير عبد الرحمن به وإصفائه مودته ، على أن ابن حيان قد ناقض نفسه إذ يذكر هنا وفاته في سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) بينما سراه بعد ذلك يقول إن حياته قد طالت إلى أن توفى في أيام الأمير محمد صدر ربيع الآخر سنة ٢٤٠ هـ (سبتمبر ٨٥٤) . ولا بد أن ابن حيان قد رجع في الموضوعين إلى مؤرخين مختلفين .

(٣٣١) هو بغير شك من أفراد أسرة بنى أبي عبة المشهورة التى سبق أن تحدثنا عنها (انظر التعليق رقم ١٢٣) . أما حمدون بن حيون بن أبي عبة (ولا بد أن هناك أسماء بين أبيه وجده الأكبر مؤسس الأسرة) فإن ابن حيان في « المقتبس »

(نشر أنطونيا ص ٦) ذكر من بين وزراء الأمير عبد الله بن محمد من يسميه عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة المعروف بدحيم ، ولعله ابن حمدون المشار إليه هنا .

(٣٣٢) في ترجمة قاسم بن هلال القيسي أنظر ابن الفرضي ، رقم ١٠٤٦ ؛ الحميدى ، رقم ٧٧٧ ؛ الخشنى : قضاة ص ٦٢ (حيث يقص عنه محمد بن وضاح خبراً يدل على أنه كان يحضر مجلس شورى . قاضى الجماعة محمد بن بشير وكان إذ ذاك أحدث الجماعة سناً) ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٢٧ ؛ الصبى : بغية ، رقم ١٠٣٨ ؛ وأنظر كذلك لويث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ٨٠ .

(٣٣٣) كانت وفاة زرياب على هذا التقدير يوم ٢٢ صفر سنة ٨٢٣٨ الموافق ١٤ أغسطس سنة ٨٥٢ ، وذلك لأن الأمير عبد الرحمن توفى يوم ٣ ربيع من هذه السنة ، وهو يقابل ٢٢ سبتمبر ٨٥٢ .

(٣٣٤) في ترجمة هارون بن سالم أنظر ابن الفرضي ، رقم ١٥٢٨ ؛ الحميدى : جذوة رقم ٨٥٩ ؛ الصبى : بغية ، رقم ١٤١٧ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثانى ص ٤٨ - ٤٩ ؛ وأنظر كذلك لويث أورتيث : دخول المذهب المالكي ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٣٣٥) اتفق ابن الفرضي والقاضى عياض (وهو يضيف إلى ما قاله ابن الفرضي إضافات لها قيمتها في ترجمة هارون ابن سالم ما نقله عن ابن أبي دليم) على أن هارون المترجم له لقي أشهب بن عبد العزيز وروى عنه . ونقل ابن حبان ذلك كما وقع له عن ابن الفرضي . ولستأ ندرى كيف لم يتنبه ابن حبان إلى حقيقة تنقض هذا الزعم : وهى أن كل من ترجموا لهارون بن سالم أجمعوا على أنه توفى « حدثاً » في الأربعين من عمره ، فإذا كانت وفاته في سنة ٢٣٨ ، فلا بد أنه ولد سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ - ٨١٤) ، ونحن نعلم أن أشهب بن عبد العزيز توفى سنة ٢٠٤ (٨١٩ - ٨٢٠) ، فهل رحل هارون بن سالم وروى عن الفقيه المصرى الكبير وهو لم يتجاوز ست سنوات ؟ وهذا في الحقيقة مثل على كثير من البعد عن الدقة والتثبت مما يقع في كتب التراجم التى يتناقل مؤلفوها الخبر بعضهم عن بعض دون أن يكلف واحد منهم نفسه مشقة مقابلته على المنطق السليم أو الحقائق التاريخية البسيطة .

(٣٣٦) لم نستطع أن نعرف عن على بن معبد المذكور إلا أن اسمه على بن معبد بن شداد العبيدى المصرى ، وأن القاضى عياض عده من روى عن الإمام مالك بن أنس وتلميذ عليه (ترتيب المدارك ، المجلد الأول ص ٢٧٢) ولكنه لم يفرده له ترجمة خاصة

(٣٣٧) عن أحمد بن جالند أنظر تعليقنا السابق رقم ٢١٦ .

(٣٣٨) سبق أن علقنا على اسم المنذر المذكور (انظر رقم ٨٦) .

(٣٣٩) ما يق من هذا النص يبدو ما نقله ابن حبان عن أحد المؤرخين السابقين له ، فنحن نلاحظ أن هذا الأسلوب المسجوع المتكلف يختلف عن أسلوب ابن حبان الواضح البزل ، ثم إن النزعة العصبية المتحاملة على عبد الرحمن بن الحكم أبد

ما تكون من الروح التي تسود كتابات ابن حيان الذي لم يكن يخفى إعجابه بأمرأه بنى أمية وتقديره لهم حتى بعد زوال دولتهم وانقراضها على أيامه . ونكاد نقطع بأن هذا النص إنما هو ما بقي من فقرات كتبها المؤرخ الشاعر أبو بكر عبادة بن ماء السجاء الذي سينقل عنه ابن حيان بعد قليل ، فهو الذي تشتم من كتاباته رائحة انتشيع كما نبه على ذلك من ترجعوا له والتعصب على بنى أمية كما سيقول ابن حيان نفسه فيما بعد ، ثم انه هو صاحب الأسلوب المسجع المنسق كما نرى من بعض الفقرات التي نقلها ابن حيان عنه في هذه القطعة نفسها في المقتبس وفي أجزاء أخرى من نفس هذا الكتاب (قارن النص الوارد هنا بالنص الذي احتفظ ابن حيان به من كلامه في القطعة التي نشرها ملتشور أنطونيا من المقتبس ص ١٠٥) .

(٣٤٠) وردت هذه القصة أيضا في « أخبار مجموعة » ص ١٣٦ ؛ ابن سميذ : مغرب ٤٦/١ ؛ ابن عذارى : بيان ٩٢/٢ .

(٣٤١) كان لفظ الستارة يطلق على المكان الذي تستتر فيه الجوارى والقيان في قصور الأمراء والوجهاء ، واستخدم اللفظ بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان المغنيات أنفسهن كما نرى في الاستعمالات التي أوردها راينهارت دوزي في ملحق القواميس العربية (٦٣٢/١) ، ولكننا نرى اللفظ هنا مستخدما للدلالة على المكان المنسوب لقضاء حفلة سمر أو مجلس طرب وغناء .

(٣٤٢) يدل استخدام لفظ « الجائزة » هنا على أن المقصود بها هو لوحة طويلة من الخشب ، وقد رأينا في وصف المسجد الجامع بأقلش Uclès في كتاب ابن عبد المنعم الحميري هذا النص : « ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقلش ، فإن طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر وأحد عشر شبرا ، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف » (الروض المطار ص ٢٨ ؛ ونقل المقرئ هذا النص في نفح الطيب ٢١٣/١) . ولكن الاستعمال هنا يدل على أن اللفظ ينصرف إلى يشبه أن يكون سارية أو عموداً عالياً من الحجر أو الرخام . على أن الغريب هنا في نص ابن حيان أن نجد « جائزة » مجموعة على « جيزان » فهو جمع غير مألوف . والصيغة التي جاءت في كلام ابن عبد المنعم الحميري وفي نفح الطيب هي « الجوائز » هي الأرب إلى الشائع المتعارف .

(٣٤٣) سبق أن أشرنا في التعليق رقم ٣٣٠ إلى تناقض ابن حيان ، إذ أورد اسم سعيد الخير بن الحكم بين من توفوا في سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) ، بينما يذكر هنا أن حياته امتدت إلى أن أدرك أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن وتوفي في أول عهده سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤) ، وما يذكره ابن حيان والدقة في تحديد تاريخ الوفاة ثم وصف احتفال الأمير محمد في دفنه كل ذلك يدل على أن هذا التاريخ الثاني هو الأقرب إلى الصواب والمعقول .

(٣٤٤) أشار إلى هذه المجاعة ابن عذارى في البيان المغرب (٨١/٢) في أخبار سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ - ٨٢٣) إذ قال : « وفيها كان بالأندلس جوع شديد مات به كثير من الخلق » . وقد أورد ابن دحية قصة عن الشاعر يحيى بن الحكم الغزال تؤكد لنا خبر هذه المجاعة التي حدثت في أول أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (أنظر المطرب ص ١٣٦) .

(٣٤٥) أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة المعروف بابن ماء السماء ، وينتهي نسبه إلى قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي . وقد ذكر ابن حزم أنه كان عقب بالأندلس لسعد بن عبادة في فاححين : في قريلا وهو قرية من عمل سرقسطة ، وفي شذونة (انظر الجوهرة ص ٣٦٥ - ٣٦٦) ويبدو أن عبادة بن ماء السماء ينحدر من سلالة الفرع الأخير الذي استقر في شذونة وإن كان ابن حزم لم يشر إلى اتصال نسب عبادة بهم . وكان شاعراً وشاحاً مشهوراً ، وأشاد به ابن بسام وعده من أكبر من جددوا صناعة التوشيح وأدخلوا عليها تغييرات مهمة . وعاش خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس ، واتصل ببني جهور ملوك قرطبة بعد انهيار الخلافة المروانية ، ثم اختص ببني حود العلويين وتوجه إليهم بمداخعه ومت إليهم بصلة جده قيس بن سعد بن عبادة بمقدم على بن أبي طالب - رضي الله عنه - إذ كان والياً له على مصر ولهذا فقد اصطبغ شعره بالتشيع والتعصب على بني أمية . ولعبادة كتاب في أخبار شعراء الأندلس أثنى عليه ابن حزم وقال إنه كتاب حسن ، ويبدو أنه هو الذي ينقل عنه ابن حيان في مواضع عديدة من كتاب «المقتبس» سواء في هذه القطعة أو في غيرها من القطع المنشورة . وكانت وفاة عبادة بمالقة في سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨) كما يقول ابن حيان وابن شهيد أو في سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠) كما يقول ابن حزم ويوافقه على ذلك ابن بسام . انظر في ترجمة عبادة وأخباره ابن بشكوال : صلة ، رقم ٩٦٦ الحميدى ، رقم ٦٦٢ ؛ الضبي ، رقم ١١٢٣ ؛ ابن خاقان : مطمح ص ٩٥ ؛ الحميري : البديع في وصف الربيع ص ١٦ - ١٧ ، ، ، ١١١ ، ١٣٣ - ١٣٤ ؛ ابن بسام : ذخيرة ، القسم الأول ١/٢ - ١٢ ابن سعيد : المغرب ١/١١٥ ، ١٢٥ رايات البرزين ص ٤٨ من النص العربي و ١٩٢ من الترجمة الإسبانية ؛ المقرئ : نفح الطيب ٤/١٦٦ ، ١٦٨/٥ ؛ وقد اختار ابن السكثاني الطبيب من شعره مجموعة كبيرة في كتاب « التشبيهات » (انظر ص ٣٠٩ - ٣١٠) وانظر كذلك المقتبس لابن حيان ، نشر ملتشور أنطونيا ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٦١ - ٦٢ ، ١٠٥ (حيث ينقل عنه أخباراً ومنتخبات شعرية متعلقة بسعيد بن جودي والأمير عبد الله بن محمد وحديثاً مفصلاً عن الفتنة بين العرب والمولدين في إقليم البيرة) . ومن الأبحاث الحديثة راجع بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١١٠ - ١١١ (حيث تحدث عنه بصفته مؤرخاً) ؛ نيكل : الشعر الأندلسي ص ١٠٥ ، ٣٨٧ (حيث تحدث عنه بصفته شاعراً وشاحاً) ؛ وبجثنا عن « التشيع في الأندلس » في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ، سنة ١٩٥٤ ص ١٤١ - ١٤٢ .

هذا وينبغي ألا يخلط بين هذا الشاعر وشاعر آخر كثيراً ما يشتبه اسمه به وهو محمد بن عبادة القزاز الذي كان من شعراء الطوائف أيضاً ومن أسهموا في صناعة التوشيح ، وكان من شعراء المعتصم بن صمادح ملك المروية وهو متأخر قليلاً عن ابن ماء السماء .

(٣٤٦) حبيب بن عبد الملك الداخل إلى الأندلس ، وبقية نسبه كما ذكر ابن حيان في النص ، دخل الأندلس في أيام عبد الرحمن بن معاوية الداخل فيمن دخل من فلول بني أمية عند استقرار الأمر لعبد الرحمن . وكانت له من مجد الدولة المروانية مكنته وحظوة ، فولاه عبد الرحمن طليطلة وأعمالها ، وروى له شعر يحرض فيه الداخل على أبي الصباح اليحصبي قائد اليمنية عند ثورته على عبد الرحمن . وكان من يشاورهم هذا الأمير ويشركهم في مهام الحكم ، وتوفي في أيامه أي قبل سنة ١٧٢ (٧٨٨) فحزن عليه حزناً شديداً . وحبيب هذا هو جد الحبيبين الذين كان لهم عدد وجاه وثروة في قرطبة وره

(مألقة) . انظر في ترجمته ونسبه وأخباره ابن حزم جهرة ، ص ٨٩ - ٩٠ ؛ ابن الأبار : حلة ٥٩/١ - ٦٠ ؛ ابن سعيد : المغرب ٦٢/١ .

(٢٤٧) أبو سليمان حبيب بن الوليد بن حبيب القرطبي المعروف بدحون ، حفيد المتقدم ذكره في الحاشية السابقة . وقد نقل ابن الأبار ترجمته المذكورة هنا عن ابن حيان ، وأضاف إليها أنه توفي بعد سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥-٨١٦) بمدة في قرية له من أعمال قبرة *cabra* (انظر التكملة ، رقم ٨٦ ؛ وكذلك المقرئ : نفح ٢٥٨/٣ - ٢٥٩) . وقد ذكر ابن سعيد أن بني دحون كانوا أعيان بلسكونة *porcuna* (من أعمال قرطبة) وأنهم رأسوا بها (مغرب ٦٢/١) . وقد جمع المقرئ في النفح (الموضع الذي أسلفنا الإشارة إليه) كل ما كتبه المؤرخون السابقون عن دحون ، بما فيها معظم ما أورده ابن حيان عنه ، و ترجم كذلك لابنه بشر ، وأورد قطعة من شعره .

وفضلا عن سيشير إليهم ابن حيان من أفراد بيت دحون الحبيبي هذا فإننا نعرف منهم كذلك اثنين لم نستطع أن نحقق اتصال نسبهما به وإن كنا نعرف أنهما من نسله : أما الأول فهو أبو محمد عبد الله بن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه القرطبي الذي توفي سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩) . (انظر ترجمته في ابن بشكوال : صلة ، رقم ٥٨٩ ؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، المجلد الثاني ص ٧٢٩ - ٧٣٠) ؛ وأما الثاني فهو سعيد بن هشام المعروف بابن دحون ، من أهل بلسكونة موطن آبائه ، وكان أدبيا عالما فقيها ، عاش في أيام المرابطين ، وأخير الحجازي أنه لما دخل بلسكونة سأل عن بها ممن يتسم بالأدب وقول الشعر فدل عليه فوجده في قرية من قراها في زى الفلاحين فتأنس به ، وروى بعض شعره ، ومنه قطعة في مدح قاضى قرطبة أبي عبد الله بن حدين (انظر المقرئ : نفح ٢٥٩/٣ ؛ ابن سعيد : مغرب ٢٢٢/١ - ٢٢٣) .

وسنورد فيما يلي جدولا لأنساب من عثرنا على تراجمهم أو بعض أخبارهم من أبناء حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الخليفة الوليد بن عبد الملك جد هذا البيت المعروف بالحبيبيين وقرابتهم واعتمدنا فيه على جهرة الأنساب لابن حزم (ص ٨٩ - ٩٠) وكتب التراجم الأخرى ، وعلى دراسة الأستاذ إلياس تيريس سادابا التي أشرنا إليها من قبل عن الأنساب العربية في الأندلس

ص ١٤ :

(٣٤٨) ذكرنا في حاشية هذا الموضع أن المقرئ أثبت هذه الكلمة « الشامي » لا « الهشامي » كما جاء في نص ابن حيان ، وقد أثرت قراءة مؤرخنا وإن كنا لانعرف ما هية هذا « الوشي الهشامي » الذي كان يلبسه الشريف دحون حينما كان يتحلق في المسجد الجامع بقرطبة لإسماع الحديث النبوي الشريف ، ولا إلى أي هشام ينسب هذا الوشي ، ومع ذلك فن الواضح أن ابن حيان يعني نوعا فاخرا من اللباس ، وقد أكد صحة قراءتنا للوشي الهشامي لا الشامي كما ذكر المقرئ بيتا للشاعر مؤمن بن سميذ من قصيدة قالها في وصف منية كنتش التي تائق في بناها الأمير محمد بن عبد الرحمن وما كان فيها من مبالى فخمة (وسترد للقصيدة كلها في المجلد الثاني من هذه القطعة من كتاب المقتبس) :

ولابسة وشيا كأن رقيقة رقيق الهشامى البتيق المنضمد

(وقد أورد ابن الكتاني قطعة من القصيدة المذكورة وفيها هذا البيت في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » بتحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٦٦) ، وبيت مؤمن بن سميذ يؤكد ما ذكرنا من أن هذا « الهشامى » كان نوعا فاخرا من الثياب الموشاة يضرب المثل برقته وجودته .

(٣٤٩) أبو عبد الحميد إسحاق بن سلمة القيني من أهل رية (مالقة) مؤرخ عالم أخبارى ، سمع من القرشي الحبيبي (أخذ بن عبد الله بن محمد بن مبارك ، من سلالة حبيب بن عبد الملك الذي ترجعنا له من قبل ، انظر رقم ٣٤٦) والمحدث ومهب بن مسرة الحباري ، وكان حافظا لأخبار الأندلس معنيا بها . وجمع كتابا في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفتاها وشعرائها ، وأثنى ابن حزم كثيرا على هذا الكتاب في رسالته في فضل الأندلس ، ويقول ابن الفرضي إنه جمع كتابا في أخبار الأندلس أمره بجمعه الحكم المستنصر ، ولسنا نعرف ما إذا كان هذا هو نفس الكتاب الذي يشير إليه ابن حزم أو هو شيء غيره . وأما نسبته « القيني » فإنها ترجع إلى بطن من بطون قضاة ينتمون إلى القين وهو النعمان بن جسر القضاعي ، ونص ابن حزم على أن دار بني قين بالأندلس رية (مالقة) فهم بها عدد عظيم (بجمهرة ص ٤٥٤) ؛ وانظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ٢٣٦ ؛ الحيدى ، رقم ٣٠٩ ؛ المقرئ : نفح ١٦٦/٤ ؛ وانظر كذلك بونس بويجس : الجغرافيون والمؤرخون الأندلسيون ص ١٠٠ .

(٣٥٠) ترجم ابن الأيثار لعبد هذه فقال أنها كانت تروى عن أبيها بشر بن دحون أشعاره وأخباره وذكر أنه نقل خبرها عن ابن حيان عن إسحاق القيني (في الأصل المطبوع : البقيشي ، وهو خطأ) . انظر التكملة ، بتحقيق ألاكرون وبالنشيا رقم ٢٨٥٩ ؛ والمقرئ : نفح ٢٦٠/٣ .

(٣٥١) ذكر ابن حزم بشر بن دحون هذا ، فقال إنه كان شاعرا (بجمهرة ص ٩٠) ، وترجم له ابن سميذ وقال إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم سجنه ، ثم تشفع فيه ، فأطلق سراحه ، ورحل بشر إلى المشرق وحج وروى الحديث ، وعاد إلى الأندلس في صفة أخرى (المغرب ١/٦٢) ، ونقل ابن سميذ عن ابن الإمام صاحب سقط الجمان أن بشرا هذا كان من أهل القروسية والأخلاق الملوكية والأدب ، ثم روى بعض شعره .

(٣٥٢) كان عمر بن فرج الرعيحي حاملا للمحتصم ثم للمتوكل الخليفين العباسيين . على الشام (انظر ابن الأثير : كامل ٢٨٠/٥) .

(٣٥٣) أبو القاسم أحمد بن عبد الله بن محمد بن مبارك بن حبيب بن عبد الملك المرواني المعروف بالخبزي القرطبي ، محدث معروف سمع من بق بن مخلد ومحمد بن وضاح وعبيد الله بن يحيى بن يحيى ، وكان يميل إلى الأخبار والأدب ، وتوفي سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ - ٩٤٥) . انظر في ترجمته ابن الفرضي ، رقم ١٠٤ ؛ الحميدي ، رقم ٢٢٠ .

(٣٥٤) أغلب الظن أنه محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ، وجده هو القائد الأموي المشهور مسلمة بن عبد الملك ابن مروان الذي كان واليا على المراقين وأرمينية ، وقد أشار ابن حزم في الجمهرة إلى يزيد فيمن أشار إليهم من ولد مسلمة ، ولكنه لم يذكر شيئا عن محمد المذكور (جمهرة ص ١٠٣) .

(٣٥٥) ترجم ابن الأبار لعابدة المدينة هذه ترجمة اعتمد فيها على ما يذكره ابن حيان من هنا خبرها (انظر التكملة ، بتحقيق الأراكون وبالشيا ، رقم ٢٨٥٠) ، وقد نقل المقرئ هذه الترجمة كما هي (نفح الطيب ٤ / ١٣٦) .

(٣٥٦) أورد ابن حزم في الجمهرة (ص ٩٠) اسم داود بن من ذكرهم من ولد سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولكنه لم يشر إلى بكار بن عبد الواحد حفيده ولا إلى ابن أخيه مسلمة بن عبد الملك ، على الرغم من أنه يتحدث عن بعض من دخل الأندلس من ذرية سليمان بن عبد الملك ، وربما كان السبب في ذلك هو أن نسل هذين كان قد انقرض في أيامه ، وسوف ينص ابن حيان نفسه بعد ذلك عند الكلام عن سلمة بن عبد الواحد الداخل إلى الأندلس سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ - ٨٥١) على أن عقبه قد انقرض فعلا في أيامه .

(٣٥٧) الذي جاء في جمهرة الأنساب لابن حزم (ص ١٠٤) يختلف بعض الشيء عما ورد هنا ، فقد ذكر ابن حزم أنه دخل الأندلس ولد الأصمغ والوليد وهشام بن محمد بن سعيد [الخبزي] بن عبد الملك بن مروان (ولم يحدد ابن حزم تاريخ دخوله) ، وكان الأصمغ المذكور على أخت عبد الرحمن بن معاوية الداخل وكان لولده رئاسة بالأندلس ، وكذلك كان لولد الوليد أخيه وهم المعروفون ببني عائشة . وأما بنو هشام فسكنوا إشبيلية . ولابد أن ابن حزم يشير بكلامه هنا عن بني هشام الذين استقروا بإشبيلية إلى أبناء الأصمغ بن محمد بن هشام الذي يذكر ابن حيان هنا أنه وفد إلى الأندلس على الأمير عبد الرحمن بن الحكم وكان جد هذا البطل الأموي المعروف ببني السعيد بإشبيلية .

(٣٥٨) لم نجد فيها بين أيدينا من المراجع ترجمة لطاهر بن حزم الشاعر المذكور ، على أن ابن حيان سيورد في ثانيا هذا الكتاب جملة من شعره تشهد بتقدمه في هذا المضمار على عهد عبد الرحمن بن الحكم وابنه محمد . كذلك أورد ابن الكتافي الطيب قطعة من شعر طاهر بن حزم في كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » رقم ٢١٩ ، ص ١١٧ . وللدكتور إحسان عباس في تعليقاته على هذا الكتاب تحقيق طيب لأسم هذا الشاعر وشخصيته (انظر ص ٣٠٨) ، وقد رجح الدكتور إحسان فيه أن يكون هو الذي سباه الزبيدي طاهراً دون أن يكل اسمه ولا نسبه وقال إنه كان بصيراً بالنحو والشعر والعروض وكان يؤدب بني هاشم وبني حدير (طبقات النحويين واللغويين ص ٣١٧) . وليس لنا اعتراض على هذا الفرض إلا كون الزبيدي قد جعل طاهراً المذكور في آخر الطبقة الخامسة من نحاة الأندلس ولغويها ، ومعظم من ترجم لم من هذه الطبقة

كانوا من أدركتهم الوفاة في أوائل القرن الرابع الهجري ، بينما تدل القطع التي احتفظ لنا بها ابن حيان من شعر طاهر بن حزم على أنه كان مشهوراً بالشعر والأدب على عهد عبد الرحمن بن الحكم والأمير محمد أي خلال النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، وقد كان حق الزبيدي - لو أنه كان يعني بترجمته طاهر بن حزم هذا - أن يجعله في الطبقة الثانية أو الثالثة على الأكثر .

(٣٥٩) أبو محمد عبد الله بن بكر بعد سابق الكلاعي أو البكري المعروف بالنذل ، لقبه به قريمة مؤمن بن سعيد الشاعر في بعض أهاجيه له . كان مؤدباً بالنحو عالماً باللغة مبرزاً في الشعر ، وأدب أولاد الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ولنا نعرف تاريخ وفاته ولو أن الأرجح هو أنه توفي في أيام الأمير محمد . « انظر ترجمته وبعض شعره في ابن سعيد : مغرب ١١٣/١ - ١١٤ » . ولابد أنه هو نفس الشاعر الذي ترجم له ابن الأبار في التكلة (رقم ١٢٤٠) مسمياً إياه عبد الله بن بكر الكلاعي القرطبي الذي « يعرف بالقلمة بالمعجمة » وقال إنه كان شاعراً محسناً مطبوعاً ، رثى الفقيه يحيى بن يحيى (المتوفى سنة ٨٢٣/٨٤٨) ، وقرأ ابن الأبار ذلك بخط أبي عمر بن عبد البر ، ثم ذكر أن ابن الفرضي ترجمه له في تاريخه (انظر رقم ٢٨٦) مسمياً إياه بكر بن عبد الله الكلاعي القرطبي وقال : إنه سمع من يحيى بن يحيى وغيره وكان مؤدباً لأولاد الخلفاء في النحو والشعر وإن ابنه محمد بن بكر روى عنه كثيراً ، وعلق ابن الأبار على ذلك بأنه وهم من ابن الفرضي . أما الزبيدي فقد وافق ابن الفرضي في تسميته « بكر بن عبد الله الكلاعي » ولكنه أضاف إلى ذلك لقبه الوارد عند ابن الأبار : « ابن القلمة » (طبقات ص ٢٨٨ ، وفنل السيوطي عنه هذه الترجمة في البقية ص ٢٠٢) .

ويستوقف نظرنا هذا اللقب الذي كان ينز به الشاعر ، وهو لقب نراه مرة بالعربية في صورة « النذل » عند ابن حيان وابن سعيد ، ومرة أخرى في صورة « القلمة » بالمعجمة لدى الزبيدي وابن الأبار . وقد حاول فرانسكو سيمونيت في مقدمة « معجمه » - الكبير التي درس فيها مدى نفوذ اللغة المعجمة (لطينية الأندلس أو اللاتينية الدارجة) وانتشارها بين الأندلسيين المسلمين - حاول أن يفسر هذا اللفظ فقال إنه الصورة العربية للفظ *El camello* (ومعناه « الجمل ») . (انظر سيمونيت : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية الشائعة بين المستعربين » ، ص ٢٢ من المقدمة :

Francisco Simonet : Glosario de Voces ibericas y latinas usadas entre los mozarabes
Madrid, 1889, p. XXII.

وقبل خوليان ريبيرا هذا التفسير في مقدمة دراسته عن الرجال ابن قزمان المدرجة في كتابه « محاضرات ورسائل » :

Julian Ribera y tarragó : Disertaciones y opúsculos, Madrid, 1928, I, p. 30

على أن هذا التفسير يبدو لنا بعيداً عن الإقناع ، لاسيما وأنه لا سيمونيت ولا ريبيرا كانا يعرفان آنذاك نص ابن حيان ولا ابن سعيد الذي جاء فيه مقابل هذا النبز العربي ، وهو « النذل » ، إذ من الواضح أن هذا اللفظ ينبغي أن يكون الترجمة العربية للفظ « القلمة » المعجمي .

وقد أعدنا النظر في هذه الكلمة فبدلنا فيها رأى نظرحه المناقشة ، هو أن لفظ « القلمة » محرف عن « القنلة » (بالنون لا بالميم) ، ويكون اللفظ حينئذ رسماً لكلمة *canalia* باللاتينية الدارجة (المشتقة من *Can, canis* باللاتينية

الفصحى ومعناها الكلب) ، والترجمة الدقيقة للكلمة الدارجة هي « النذل » وما زالت حتى الآن تستخدم بهذا المعنى في اللغة الإسبانية الحديثة في صورة Canalla . وهكذا نرى أن لفظ « النذل » الذي يستخدمه ابن حيان وابن سعيد لقبا للشاعر ينطبق تماما على « القنلة » الذي نحسب أنه محرف إلى « القملة » في كتابي الزبيدي وابن الأبار .

(٣٦٠) عن عيسى بن دينار انظر ما سبق لابن حيان أن كتبه عند ذكره في وفيات سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ - ٨٢٨) ، وانظر كذلك تعليقنا السابق رقم ٢٨٥ .

(٣٦١) راجع ما سبق أن قاله ابن حيان عن حارث هذا في وفيات سنة ٢٢١ هـ (٨٣٦) وتعليقنا عليه رقم ٢٩٧ . وقد سبق أن علقنا على اضطراب المترجمين له في كنية أبيه بين « أبي سعد » و « أبي سعيد » . وأما فيما يتعلق بالشرطة الصفري التي وليها فانظر حول هذه الخطة ما سبق أن كتبناه في التعليق رقم ١٥١ .

(٣٦٢) عن يحيى بن يحيى الليثي انظر ما سبق أن كتبناه في تعليقنا رقم ٣١٥ .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تصدير	٣
تمهيد	٧
خلف بن حسين كاتب المنصور والد بن حيان	٨
أبو مروان بن حيان - حياته	١٦
(٣٧٧-٤٢٢ / ٩٨٧-١٠٣١)	
أساتذة ابن حيان	٢٢
ابن حيان والفتنة	٢٣
ابن حيان في ظل بني جهور	٣٢
(٤٢٢-٤٦٢ / ١٠٣١-١٠٧٠)	
ابن حيان ووظائف الدولة	٣٥
محنة ابن حيان	٣٧
مثرات في سلوك ابن حيان	٣٨
أخبار عن صداقات ابن حيان وحياته الخاصة	٤١
السنوات الأخيرة	٤٥
(٤٦٢-٤٦٩ / ١٠٧٠/١٠٧٦)	
ثقافة ابن حيان العامة	٤٥
تلاميذ ابن حيان	٥٠
كتب ابن حيان	٥٣
١ - المقتبس	٥٤
٢ - المتين	٥٦
٣ - اخبار الدولة العامية	٦٢
٤ - البطشة الكبرى	٦٥
- كتب أخرى (؟)	٦٦
منهج ابن حيان في كتابة التاريخ	٦٩
مصادر ابن حيان	٧٢
(أ) مصادر المقتبس	٧٢
(ب) مصادر الدولة العامية والمتين	٧٤
مكانة ابن حيان مؤرخا وخصائص كتابته التاريخية	٨٤
عقيدة ابن حيان وآراؤه السياسية	٩٠
ابن حيان وقضية الثلب	١٠٠
ابن حيان أديبا	١٠٤
ابن حيان ناقدا	١٠٨
ابن حيان في نظر المتأخرين	١١٤

الموضوع	الصفحة
المقتبس - مخطوطاته وما نشر منه	١١٨
المخطوط	١٢٣
منهجنا في العمل	١٢٥
نماذج من مخطوطات الكتاب	١٢٩
ذكر مهلك نصر الحصى الكبير	١٤٩
صفة الأمير عبد الرحمن	١٦٣
تسمية ذكور أولاده	١٦٣
حجاب الأمير عبد الرحمن	١٦٥
سفيان بن عبد ربه	١٦٥
عيسى بن شهيد	١٦٦
وزراء الأمير عبد الرحمن	١٦٨
كتاب الأمير عبد الرحمن	١٧٠
خير الزجالي	١٧١
أصحاب شرطة الأمير عبد الرحمن	١٧٦
قواد الأمير عبد الرحمن	١٧٧
قضاة قرطبة للأمير عبد الرحمن	١٧٧
نواد من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن	١٨٦
يحيى بن معمر الألهاني	١٩٠
الأسوار بن عقبة	١٩٣
إبراهيم بن العباسي القرشي	١٩٤
محمد بن سعيد	١٩٨
يخامر بن عثمان الشعباني	١٩٩
علي بن أبي بكر الكلابي	٢٠٣
مماذ بن عثمان الشعباني	٢٠٤
محمد بن زياد اللخمي	٢٠٦
الوفاة لأولى النباهة في دولة الأمير عبد الرحمن	٢١١
ذكر خصال من مناقب الأمير عبد الرحمن	٢٢٢
ذكر المجاعة	٢٢٥
الداخلون إلى الأمير عبد الرحمن من قومه	٢٢٩
ما يستلحق في باب الوفاة فوق هذا	٢٣١
التعليقات	٢٣٣-٣٥٤